

ISSN: 2090 - 0449

https://kan.journals.ekb.eg

Dawriyyat Kān al-Tārīkhiyyat

تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر

54

السنة الرابعة عشرة

أول دورية عربية الكترونية محكّمة ربع سنوية متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ديسمبر ٢٠٢١

ربيع الآخر ١٤٤٣

Historical Kan Periodical

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء





تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هـ وصدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨ م



دورية كان التاريخية.- س١٤، ع٥٤ (ديسمبر ٢٠٢١/ ربيع الآخر ١٤٤٣)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 14, no. 54 [Dec 2021]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢١ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2021.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.



أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م

ISSN: 2090 – 0449 Online



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



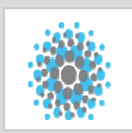
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات البيليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg

المشرف العام

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

الهيئة الاستشارية

الهيئة العلمية

هيئة التحرير

"حسب الترتيب الأبجدي"

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المُحَكَّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

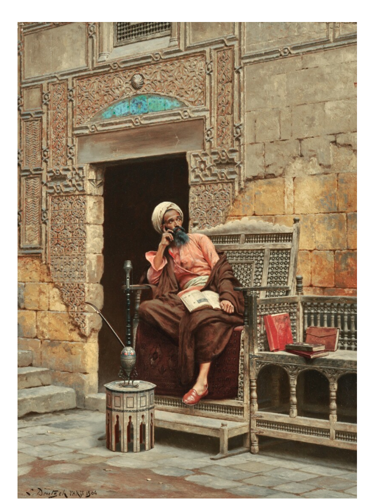
عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



THE SCRIBE
(oil on panel) PARIS 1904
Deutsch, Ludwig (1855-1935)

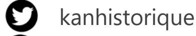
المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com


historicalkan


groups/kanhistorique


kanhistorique


kanhistorique.blogspot.com


goodreads.com/kanhistorique


www.kan.nashiri.net



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلاّت العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التَّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التَّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحرّرين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخِية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

COPE

دَّورية كان التَّاريْخية هي دورية علمية عالمية مُحَكَمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التَّاريْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرِفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.

- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.

- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

أ.د.	إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د.	إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د.	أحمد عبد الله الحَّسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د.	أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د.	إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د.	أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د.	بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
أ.د.	بشار محمد خليف	مركز حضارات المشرق العربي	سوريا
أ.د.	بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د.	الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د.	حسين صالح حسين العنسي	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د.	خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د.	سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د.	شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د.	صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د.	عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د.	عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د.	عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د.	عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د.	عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د.	عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د.	كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د.	كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د.	لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د.	مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د.	محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د.	مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د.	وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشَر

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**
يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية،... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَر

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية **https://www.facebook.com/historicalkan**
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير: **mr.ashraf.salih@gmail.com**

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

كُتَّاب الْعَدَدِ



ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الازدهار الاقتصادي ودوره في التطور العمراني والتركز السكاني في مدن إفريقية والمغرب الأوسط
القيروان وتيهرت نموذجًا



عبد العزيز رشيد

باحث دكتوراه التاريخ الاقتصادي في المغرب الإسلامي

المدرسة العليا للأساتذة (بوزريعة)

الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

شهد المغرب الإسلامي عامة وإفريقية والمغرب الأوسط خاصة ازدهارًا اقتصاديًا ملحوظًا بعد انتهاء ثورات الخوارج بفضل التحكم في تجارة الذهب، ومن نتائج هذا الازدهار الاقتصادي الاهتمام بالعمران والتشييد، وإنشاء مدن جديدة أو تجديد مدن قديمة أصبحت مراكز جذب سكاني كبير خاصة الحواضر الكبرى وعواصم الدول التي اخترنا منها القيروان عاصمة إفريقية وتيهرت عاصمة المغرب الأوسط للدلالة على نموها الاقتصادي وتطورها العمراني واستقطابها للناس من كل الجهات. إن الازدهار الاقتصادي الناتج خاصة عن الدور الهام الذي لعبته إفريقية والمغرب الأوسط في المبادلات التجارية العالمية من خلال تحكّمها في تجارة الذهب بالدرجة الأولى، قد عاد عليها بأرباح طائلة ساعدت على قيام حركة عمرانية واسعة، أدّت إلى إنشاء أو إحياء مدن وحواضر متعددة، اخترنا منها في إفريقية والمغرب الأوسط القيروان وتيهرت، واللتان سرعان ما أصبحتا مدينتي جذب سكاني كبير لما كانت تتوفر عليه من عوامل الاستقرار، ومرافق وإمكانيات مادية ومعيشية تضمن لساكنيها الراحة والحياة السهلة، وظروف ملائمة للتحصيل المعرفي والديني.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٨	سبتمبر	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٠٣	نوفمبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الازدهار الاقتصادي؛ التطور العمراني؛ الاستقطاب السكاني؛ القيروان؛ تيهرت

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.257700

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد العزيز رشيد. "الازدهار الاقتصادي ودوره في التطور العمراني والتركز السكاني في مدن إفريقية والمغرب الأوسط: القيروان وتيهرت نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ١٤ – ٣١.

Corresponding author: rachadachor hotmail.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

عرفت بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي خاصة ابتداء من القرن (٢هـ/ ٨م) ازدهارًا اقتصاديًا لافتًا نتيجة الحركة التجارية الواسعة التي شملت مختلف السلع الواردة والصادرة من بلاد المغرب، على رأسها الذهب والرقيق. ومن نتائج هذه الديناميكية التجارية تجمع ثروات كبيرة لدى التجار والحكام، فإلى أي مدى ساهم هذا التحول في تفعيل الحركة العمرانية والتي تجلت مظاهرها في تجديد وإعادة بعث مدن قديمة، وإنشاء حواضر جديدة مثل القيروان وتيهرت، وكيف أصبحت هذه المدن تستقطب الناس من كل الأجناس والجهات.

أولاً: الازدهار الاقتصادي ودوره في التطور العمراني في إفريقية والمغرب الأوسط

إن قوة بلاد المغرب والمكانة التي وصلت إليها، وما نتج عنها من تطور في النسيج العمراني من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري (٨ – ١١م) يرتبط وثيق الارتباط بدورها في التجارة الدولية آنذاك، فقد أصبحت تسيطر على تجارة ذهب بلاد السودان الذي لعب دور منشط الدورة الاقتصادية في حوض البحر المتوسط الذي كان محور التبادل التجاري العالمي.[١] بعد انتهاء الصراع المذهبي في بلاد المغرب وما نتج عنه من انعدام للأمن عبر المسالك التجارية وكساد الزراعة والصناعة[٢]، استتب الأمن من جديد عبر المسالك التجارية، واتّضحت معالم الخريطة السياسية لبلاد المغرب والأندلس ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري، فقد أسّس الأمويون خلافتهم الجديدة في قرطبة[٣]، وأسّس بنو مدرار عاصمة إمارتهم الصفرية في سجلماسة[٤]، وأنشأ بنو رستم عاصمة إمامتهم الإباضية في تيهرت، وبعدها الأدارسة أسّسوا دولتهم في فاس[٥]، والأغالبة في القيروان[٦].

ورغم الاختلاف المذهبي فقد اتبعت هذه الإمارات سياسة مسالمة وتجنّبت الأسلوب التوسعي لبسط نفوذها السياسي والمذهبي[٧]، وبهذا عرف المغرب الإسلامي فترة استقرار سياسي امتد إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ساهم في تطور المسالك التجارية وأمنها[٨]. ومما ساعد على الازدهار التجاري الذي عرفته بلاد المغرب هو التحوّل الذي طرأ على المسلك التجاري القديم الخاص بتجارة الذهب والرقيق بين بلاد السودان والمشرق، وخاصةً الطريق التجاري الرابط بين غانة ومصر عن طريق بلاد النوبة،[٩] الذي توقّف بسبب قُطّاع الطرق وكثرة عواصفه الرملية[١٠]، فتواترت الرياح على قوافل التجار وأهلكت الكثير منها، وكانوا يتعرّضون لاعتداءات خارجية، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة،[١١] وأصبح هذا الطريق يمرّ ببلاد المغرب[١٢]. كما أن المسالك وسط المغرب الإسلامي التي نقلت الذهب لم تكن أقل أهمية من تلك التي نقلته غربًا من غانة إلى سجلماسة[١٣].

كان للمدن المغربية دور هام في المبادلات التجارية بينها وبين بلاد السودان بسبب ارتباطها بشبكة من المسالك التجارية، فكانت القيروان بداية الانطلاق، وسجلماسة بوابة بلاد السودان في المغرب[١٤].

وكانت ورجلان أهم محطة في هذا الطريق إذ تعتبر ملتقى الطرق لتجارة الذهب[١٥]حيث كانت تربط بين أهم أسواق المغرب التي كانت تستقبل ذهب السودان كالقيروان وتيهرت[١٦]. وتجمّعت عن طريق التجارة الصحراوية ثروات كبرى من الذهب[١٧]في مدن المغرب ساهمت في تطورها العمراني. ومما ساعد بلاد المغرب على لعب هذا الدور هو موقعها الجغرافي الذي سمح لها بتفتح تجاري وحضاري كبيرين، فمن المعروف أن الحوض الغربي من البحر المتوسط يتّصل بأوسع منطقة جغرافية تشرف على الصحراء، فبعد الواجهة البحرية، توجد الهضاب الفاصلة بين الساحل والصحراء، وكان لهذا الموقع أثر بالغ في تطور المسالك التجارية وتنوعها في كل الاتجاهات[١٨].

وكانت إفريقية وسائر بلاد المغرب تزود المشرق بالمولدات الجميلات، والرقيق، والخصيان السودانيين والصقالبة[١٩]. وفي عهد بني زيري بالمهدية كان الغزو في البحر هو المزود الرئيسي بالعبيد الروم والجواري والخدم[٢٠]. وبازدهار محطّات القوافل التي تقع على طريق تجارة الذهب والرقيق[٢١]، تشكّلت تجمعات سكانية في مختلف مراكز التجارة المؤسسة على طول المسالك التي كانت تربط بين الصحراء جنوبا، وموانئ البحر المتوسط شمالاً من جهة، وبين الصحراء والمشرق الإسلامي من جهة ثانية[٢٢].

ثانيًا: التطور العمراني

كان العالم الإسلامي خلال الفترة ما بين القرن (٢ هـ/ ٨م) والقرن (٥ هـ/ ١١م) مسرحًا لحركة هائلة من العمران وبناء المدن، وقد بدأت هذه الحركة بإنشاء مدن شهدت تطورًا هائلاً سرعان ما أصبح بعضها أكبر مدن العالم آنذاك كبغداد والكوفة، والقيروان، وفاس، وغيرها من المدن التي شيّدت في المشرق الإسلامي أو مغربه، وإلى جانب هذه المدن المستحدثة كان

النشاط ينبعث من جديد في مراكز عمرانية قديمة سرعان ما ازداد عدد سكانها [٢٣]، والفضل في هذا التطور العمراني يرجع إلى الازدهار الاقتصادي والذي ارتكز أساسًا على المبادلات التجارية[٢٤].

وقد ساعد التطور التجاري لبلاد المغرب على قيام مدن استفادت كثيرًا من تجارة الذهب والرقيق[٢٥] مثل وارجلان والقيروان وتيهرت، التي أصبحت مخازن لبضائع بلاد السودان، وهمزة وصل بين مراكز جلب هاتين المادتين وهي السودان الغربي والدول الأخرى التي كانت تشكل مناطق استهلاك للذهب، واستغلال للعبيد خاصة الأوربية الواقعة شمال البحر المتوسط، فكان منطلق هذه التجارة بلاد السودان عبر بلاد المغرب باتجاه صقلية والمشرق الإسلامي من شواطئ إفريقية، أوفي اتجاه الأندلس وأوروبا من سواحل مضيق جبل طارق[٢٦]. إن تجمع الثروات الذهبية في مراكز التجارة الشهيرة ببلاد المغرب أدّى إلى ازدهار عمراني كبير، برز في الفن المعماري وفي الترف الاجتماعي[٢٧]، وكما يذكر ابن خلدون فإنّ البناء واختطاط المنازل إنّما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليهما الترف والدّعة[٢٨]. وهذا التطور العمراني يكون حسب عمر الدولة، فإن كان عمر الدولة قصيرا توقّف العمران عند انتهائها، أمّا إن كان عمرها طويلاً فلا تزال المنازل الرحيبة فيها تكثر وتتعدّد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تبعد المسافة، كما وقع في عدة حواضر كبرى مثل القيروان والمهدية وتونس وتيهرت وغيرها.[٢٩]

تميّزت المدن المغربية عند تأسيسها بالبساطة، لكن ابن خلدون يُقرّ في المقدمة أنّ من خصوصيات المدينة في الإسلام تكون بسيطة في بدايتها الأولى لالتزامها بالسنّة والدين، لكنّها لا تظل كذلك إذ سرعان ما يتسرّب إليها الترف، وهو ما يفسّر تطور مظاهرها العمرانية[٣٠]. يقول ابن خلدون: «اعلم أن الأمصار إذا اختطّت أوّلا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما، ممّا يعالى على الحيطان عند التأنّق كالرّخام والزّجاج والفسيفساء ...فيكون بناؤها يومئذ بدويا فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات ..وكثرت الصنائع إلى أن تبلغ غايتها »[٣١].

ثالثًا: نماذج مدن في إفريقية والمغرب الأوسط تطورت عمرانيًا بفضل الازدهار الاقتصادي

١/٣-تعريف المدينة

مدن بالمكان أقام به، وفلان مدّن المدائن، أي مصّر الأمصار. والجمع مدائن ومُدُن[٣٢]. ومدّن المدائن معناه بناها، وتمدّن، عاش عيشة أهل المُدن وأخذ بأسباب الحضارة، والمدنيّة هي الحضارة واتّساع العمران، والمدينة المصر الجامع[٣٣]. عرفت أغلب الحضارات الظاهرة المدينية، ولم تستثن منها الحضارة العربية الإسلامية. وقد ورد لفظ المدينة في عدّة مواضع في القرآن الكريم، مفرد أو مثنى أو جمع إحدى وثلاثين مرة، منها قوله تعالى: "قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"[٣٤]. وقد ركّزت كتب الجغرافيين على تاريخ المدن، ويعود ذلك لاهتمامهم بالجوانب الحضارية ومراكز السلطة السياسية، ومحاور الجباية، ونقاط الدفاع والحرب، ومنابر الدين، والتجمّع السكاني، وكل ذلك يجتمع في المدن[٣٥]. وترسّخت دعائم المدينة مع تمصير المدن الأولى سواء في المشرق أوفي المغرب[٣٦].

وقد استخدم العرب صيغ مختلفة لتعريف للمدينة منها: المصر، وطن، بلد، حصن، حاضرة[٣٧]. وانطلاقًا من وظائفها الأساسية التي برزت في الأمصار الأولى، ومن الإرث المديني للحضارات القديمة، حدّدها الجغرافيون العرب بكونها تجمع للحضر محاط برستاق[٣٨]، وقائم على وجود مؤسسات، أهمها السوق والمنبر، أو المسجد والحمام، وهي بذلك تتميّز عن القرية التي لا تتوفر فيها كل هذه العناصر مكتملة، وتتميز المدينة بمواصفات حضارية، وهذا ما يؤكده القزويني: «عند حصول الهيأة الاجتماعية لو اجتمع البشر في الصحراء لتأذّوا بالحر والبرد والريح، ولو تستّروا في الخيام.. ولم يأمنوا مكر اللصوص والعدو.. فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار»[٣٩]، غير أنه ليس من السهل التفرقة بين المدن الكبيرة والصغيرة في كتب المسالك والرحالة[٤٠].

وحدّد بعض الباحثين المدينة انطلاقًا من عدة معايير، أهمها اتساع السور، وأهمية عدد السكان، وتعدد الوظائف[٤١].وأُطلقت تسمية المدن الكبيرة على المستقرات التي فاق عدد سكانها عشرة آلاف نسمة، وهي في الغالب حواضر وعواصم الدول[٤٢]. ومن المقاييس التي وُضعت لنشأة المدينة العربية المقياس الإنشائي، حيث أن توفُّر المعطيات الجغرافية

الملائمة مثل الموقع وتوفر المياه والأراضي الزراعية، ساعد على بروزها وتطورها، وساعد الأمير أو السلطان على إنشائها بطريقة إرادية، فيختار موقعها ويشرف على تخطيطها، وهذا حال القيروان،[٤٣] وتيهرت،[٤٤] وبجاية،[٤٥] والمهدية، [٤٦] وهي مدن مستحدثة. ثم المقياس الزمني إذ فرّقت كتب المسالك بين صنفين من المدن، القديمة أو الأزلية أو مدينة الأول، وشهدت مراحل تجديد وتعمير في العصر الوسيط، مثل تونس التي كانت تُعرف باسم ترشيش.[٤٧] وثمّة مقاييس أخرى مثل المقياس الوظيفي، كأن تكون المدينة ذات طابع عسكري (رباط مثل رباط المنستير بإفريقية[٤٨]، أو اقتصادي أو ثقافي، أو ديني كالمراقد المُقدسة للأئمة التي اتخذت كنواة لمدن دينية مثل كربلاء بالعراق.[٤٩]

٢/٣-الازدهار الاقتصادي والتطور العمراني في القيروان

بناها عقبة بن نافع[٥٠] سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م على بعد ستة وثلاثين ميلاً[٥١] (حوالي ٥٤ كلم) من البحر المتوسط، ونحو مائة ميل (حوالي ١٥٠ كلم) من تونس[٥٢]، وسوّر المدينة بسور بناه كُلّه بالآجر[٥٣]. عرفت المدينة تطورا عمرانيا سريعا بعد مُدّة قصيرة من تأسيسها[٥٤]، فلم يمر نصف قرن على نشأته» حتى أصبحت أعظم مدينة بالمغرب[٥٥] وأم القرى[٥٦]، واعتبرها الزهري من قواعد الإسلام الأربعة وهي بغداد، القاهرة، وقرطبة[٥٧] بفضل ازدهارها الثقافي والعلمي[٥٨]، كما يقول عنها الحميري: «والقيروان دار الملك، ورأت من الممالك والملوك والدول والفقهاء والعلماء والصالحين مالم يكن مثله في قطر من الأرض»[٥٩]. ولمّا أظلّها القرن الثاني الهجري تطوّرت القيروان وتبّحر عمرانها على عهد أمراء بني الأغلب[٦٠].

وقد ساعد مركزها السياسي والديني وموقعها الجغرافي على المسلك الرئيس بين الأندلس والمغربين الأوسط والأقصى من جهة، والمشرق الإسلامي وموانئ المدن التجارية الواقعة على شواطئ إفريقية، من جهة ثانية على سرعة التطور العمراني لتصبح مركزًا حساسًا ونشطًا في الدورة الاقتصادية المغربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة[٦١]. وفي هذا الصدد يقول الزهري: «القيروان مدينة عظيمة جمعت بين طيب الهواء وعذوبة الماء وجميع المحاسن»[٦٢]، حتّى أضحت أجل مدينة بأرض المغرب[٦٣]، وشدّ الناس إليها الرحال من كل أفق[٦٤]، لكن العامل الأساسي الذي استفادت منه المدينة في حياتها العمرانية منذ مطلع القرن الثالث هو التحوّل الجذري الذي عرفته الحياة الاقتصادية المغربية نتيجة تطور التجارة الصحراوية وتدفّق البضاعتين الثمينتين الذهب والرقيق من بلاد السودان إلى مراكز التجارة المغربية، فبعد أن تخلّت مصر عن الطريق الذي يربطها بغانة أصبح من الضروري أن تمر القوافل بالقيروان ثم تيهرت إلى غاية سجلماسة، آخر محطة مغربية نحو أرض السودان. وبتطور الحركة العمرانية بالقيروان أصبحت أهم مدينة في المغرب لتتحوّل بعد ذلك إلى مركز السلطان وأحد الأركان[٦٥]، عاصمة سياسية لثلاث دول في المغرب الإسلامي خلال القرون الوسطى (الأغلبية، الفاطمية، الصنهاجية)[٦٦].

وقد عرفت القيروان حركة تبادل تجاري في أسواقها جمعت بين بضائع التجارة الصحراوية، لا سيما الذهب والرقيق، من خلال علاقتها الوطيدة مع سجلماسة[٦٧]، وبضائع غذائية أساسية مثل الحبوب والزيت والتمور[٦٨]وغيرها ممّا جعلها فرضة المغربين ومتجر البحرين[٦٩]، وأحسن مدن المغرب أسواقًا[٧٠] وأربحها تجارة وأيسرها أموالاً وأكثرها جباية[٧١].

واعتمدت هذه الحركة التجارية على عملة قوية، حيث حرص أمراء بني الأغلب على وضع عملة جيدة، ثم جاء بعدهم الفاطميون الذين سيطروا على مسالك تجارة الذهب من الجريد إلى سجلماسة حيث خرج منها المهدي بأحمال من التبر[٧٢]،ممّا سمح لهم بدعم قوة العملة بالقيروان رغم سنوات القحط الموسمية والأحداث السياسية والعسكرية التي عرفتها المدينة خلال القرنين الثالث والرابع، وعلى الرغم من السياسة الجبائية الثقيلة التي وضع أسسها الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي، وانتفاضة صاحب الحمار، وما أدّت إليه من وضع اقتصادي ومالي متأزم في إفريقية[٧٣].

ساد في القيروان نوعان من التجارة، تجارة محلية بين المدينة والمدن والقرى القريبة منها حيث كانت تجتذب وتُوزّع المنتجات الواردة سواء من الساحل أو من الجريد[٧٤]، وتجارة كبرى تقوم على نشاط قوافل توريد البضاعة إلى المدينة وتصديرها منها، والتي أكسبت أسواقها نشاطا تجاريا دائما، وهي التي تكمن وراء مظاهر الثراء في المدينة وتجمُّع الثروات المالية لدى بعض الفئات الاجتماعية، وفي طليعتها فئة التجار[٧٥].

كانت القيروان تُمثّل نقطة الانطلاق في طريق المسالك التي تمُرّ بها القوافل التجارية التي تجوب مناطق بلاد المغرب في اتجاهات مختلفة، وبقيت تحتل هذه المكانة منذ تأسيسها إلى سقوطها في منتصف القرن (٥ هـ/ ١١م) بعد أن خربها الأعراب.[٧٦] أمّا على المستوى الخارجي فإنّ الأمر الجديد الذي اكتسب أهمية خلال القرن الثالث الهجري، أي بعد فتح صقلية

وسيطرة الأسطول الأغلبي على المنطقة الغربية من حوض البحر المتوسط، هو التبادل التجاري بين إفريقية من جهة والمشرق الإسلامي والأندلس وصقلية من جهة أخرى[٧٧]، وقد تطورت حركة التنقل التجاري البري والبحري معا، وكانت القيروان نقطة لقاء بين المغرب والمشرق، وبين التجارة المتوسطية وقوافل التجارة الصحراوية[٧٨].

إن الإشارات المشتّتة هنا وهناك في كتب المصادر إلى أحياء القيروان ودروبها وفنادقها ومساجدها، تعطي فكرة واضحة عن أهمية التقدم العمراني الذي عرفته المدينة فيذكر ابن الأثير مقدار مساحة القيروان بعد إتمام بنائها «دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع»[٧٩]. وإذا كان مقدار الباع يتراوح ما بين متر ومترين، فتكون بذلك مساحة المدينة ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف و٦٠٠ متر، أي أكثر من أربعة كلم مربع. وقد بلغ طول الشارع التجاري الرئيس بالقيروان، وهو الذي يُعرف بسماط سوق القيروان، وهو عبارة عن شارع كبير مصطفّة حوانيته على اليمين وعلى الشمال، والذي كان يمتد من باب تونس شمالاً إلى باب أبي الربيع جنوبا، بلغ طوله ميلين غير ثلث[٨٠]، أي ما يزيد عن ثلاثة كلم ونصف، هذه المساحة تجعل القيروان من السعة بالقدر الكبير[٨١]، ويصفها الجنحاني بأن شوارعها الرئيسية تمتاز بالاتساع إذا ما قورنت بالعواصم الإسلامية القديمة[٨٢].

كما شُيّدت بالقيروان بنايات عظيمة، أوّلها المعالم الدينية، كالمساجد والجوامع والمصليات، فكان بها زهاء ثلاثمائة بيت يُعبد فيها الله، أشهرها على ترتيب قدمها وأهميتها[٨٣] الجامع الأعظم المنسوب إلى الصحابي عقبة بن نافع[٨٤]، وكان قائمًا على أعمدة عجيبة من المرمر، اثنان منها قرب المحراب، ارتفاعهما لا يتصوّره العقل، كما يذكر حسن الوزان[٨٥]، وكانت له عشرة أبواب[٨٦]، وطوله مائة وعشرون ذراعًا[٨٧]، وعرضه مائة وخمسون ذراعا، وعدد ما في الجامع من أعمدة أربع مائة وأربعة عشر عمودًا، وبلغت النفقة في بنائه ستة وثمانين ألف مثقال[٨٨]. إلى جانب بناء المنازل وتوزيعها على السكان[٨٩]. وربّما يتبادر للذهن أن لفظة (مسجد) تدلّ على أماكن العبادة الصغيرة، لكن الحقيقة أنها كانت عظيمة تتخذ في غالب الأوقات كمدارس، تدرس فيها شتى أنواع العلوم الدينية، وتسميتها بالمساجد هو تعريف قديم كان يطلق على الجامع والمسجد على حدّ سواء كقولنا المسجد الحرام والمسجد الأقصى وهلّم جرا[٩٠].

وإلى جانب المساجد وأماكن العبادة، فقد حظيت القيروان كمدينة عاصمة للإقليم بالحمامات والمستشفيات والمتنزهات، وكل المرافق ذات النفع العام، وما من شأنه تحسين حالة الشعب المادية، شأن كل أمة تمكّنت منها الحضارة،[٩١] حيث بلغ عدد الحمامات أربعة وثمانين حمّاما عموميا، إلى جانب الحمّامات الخاصة[٩٢]. وهذا دليل على كبر مساحة المدينة واتساعها[٩٣]. كما كان فيها مستشفيات لمعالجة المرضى، وقد أُقيم خارجها مستشفى عظيم يُسمّى (الدمنة) كان يتكوّن من عدة أقسام.[٩٤]

وقد عرفت القيروان توسعًا كبيرًا في عهد الأغالبة (١٨٤ – ٢٩٧هـ/ ٨٠٠ – ٩٠٩م)، ثم الفاطميين (٢٩٧ – ٣٥٩هـ/ ٩٠٩ – ٩٦٩م) حيث أُقيمت حولها وقريبًا منها ثلاث مدن كانت مقرا للحكام وأعوانهم، وقد ازدهرت هذه المدن ازدهارًا عظيمًا، كما أن بعضها قد نُقلت إليه أسواق القيروان[٩٥]، ففي سنة (١٨٤ – ١٨٥هـ/ ٨٠٠ -٨٠١م) بُنيت في الجهة الجنوبية الشرقية العباسية أو القصر القديم على يد إبراهيم بن الأغلب ،وهي عبارة عن مدينة جديدة كبيرة كان لها خمسة أبواب، وجُهّزت بفنادق وحمامات وأسواق ،وشُيّد فيها مسجد وملعب لرياضة الخيول[٩٦]. وفي سنة (٢٦٣ – ٢٦٤هـ/ ٨٧٦ – ٨٧٧م) شيّد إبراهيم بن أحمد بن الأغلب مدينة رقادة[٩٧] في الجنوب الغربي من القيروان التي يبلغ قطرها أكثر من عشرة كلم[٩٨]، دليل على اتساع المدينة وكثرة سكانها. وفي سنة (٣٣٧ – ٣٣٨هـ/ ٩٤٨ – ٩٤٩م) أنشأ الفاطميون مدينة صبرة المنصورية شرق القيروان، وأصبحت دار ملكهم،[٩٩] كانت شديدة العمارة، وعرض سورها إثنا عشر ذراعا[١٠٠]، توجد به خمسة أبواب، وكان دخل كل باب منها ٢٦ألف درهم من الرسوم والمكوس في اليوم[١٠١].

وتم إنشاء هذه المدن نتيجة لتضخم العاصمة واتساعها وكثرة سكانها[١٠٢]. وكان فيها أيام عمارتها ثلاثمائة حمام[١٠٣]، ممّا يدل على اكتظاظها بالسكان، وأحسن من وصف القيروان وما وصلت إليه من ازدهار اقتصادي وتطور عمراني وغنى مادي ونمو سكاني، الإدريسي، إذ يقول عنها: «أم الأمصار، وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطرا، وأكثرها بشرًا، وأيسرها أموالاً، وأوسعها أحوالاً، وأربحها تجارة وأكثرها جباية وأنفقها سلعة وأنماها ربحًا».[١٠٤] وهكذا أصبحت القيروان تمثل بالنسبة لبقية المغرب نموذج المدينة الإسلامية في ازدهارها الاقتصادي والحضاري، وتطورها العمراني السريع.[١٠٥]

٣/٣-الازدهار الاقتصادي والتطور العمراني في تيهرت

تقع في سفح جبل يقال له جزول. اختار عبد الرحمان بن رستم مكان بناء عاصمته تيهرت لعدّة اعتبارات منها توفر المياه، حيث تقع بين نهرين أحدهما اسمه مينا يقع في غرب المدينة والثاني يُدعى تاتش يقع في شرقها[١٠٦]. وبسبب قربها من السهول الصالحة للزراعة وبرودة مناخها[١٠٧]بهدف تطوير النشاط الزراعي[١٠٨]، وقد وصف الإصطخري المقومات الطبيعة لتيهرت بقوله «وتيهرت مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه»[١٠٩].

كما أنّ موقع تيهرت على طريقين من أشهر الطرق التجارية في ذلك الوقت، الطريق الرابط بين المشرق والمغرب الأقصى والطريق الرابط بين الشمال والجنوب، جعلها مركزًا تجاريًا هامًا وإحدى المحطات الاقتصادية الكبرى في العالم حيث أن المسالك التجارية كانت تتصل بتيهرت، إذ كانت تربط بين مسالك الصحراء وبلاد السودان على وجه الخصوص بالمناطق الشمالية خاصة الأندلس عبر مسلكين رئيسيين، الأول ينطلق نحو الغرب في اتجاه جاو ثم سجلماسة[١١٠]مرورًا بتاغازة[١١١]ثم أودغشت، وأخيرًا غانا[١١٢]، أما المسلك الثاني فهو الذي يتوجه دائمًا نحو جاو، لكن هذه المرة مرورًا بورجلان وتادمكة عبر الهوقار، وتعتبر ورجلان أهم وأقرب محطة لتيهرت[١١٣].كما كان لها اتصال بالمشرق عن طريق الصحراء مرورًا بالقيروان، وطرابلس ومصر[١١٤]، وقد ساعد هذا الموقع الاستراتيجي الذي احتّله تيهرت في أن تلعب دورا هامّا في التجارة الدولية. يقول ابن الصغير عن الرستميين: «واتّسعوا في البلد، وتفسّحوا فيها، وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار، واستعملت السبل إلى بلد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة»[١١٥].

وهكذا أصبحت البضائع تُصدر من تيهرت وإليها برًا وبحرًا، غربًا وشرقًا[١١٦]، شمالاً وجنوبًا، فكانت تأتيهم بضائع الأندلس، والمغرب الأقصى، والسودان الغربي[١١٧]، وإفريقية، ومصر، وبلاد المشرق عامة، وكانت تخرج منها السلع المختلفة من خلال عدة موانئ على ساحل البحر المتوسط،[١١٨] مثل مرسى فروخ[١١٩] القريب من مستغانم، ومرسى الدجاج[١٢٠]، وتنس وغيرها من موانئ المغرب الأوسط. وكانت أشهر السلع التي نقلها الرستميون من بلاد السودان الذهب الذي يُعاد تصديره إلى مختلف الأمصار[١٢١]، وأيضًا العبيد والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات، مقابل ما يبيعونه هناك من المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والمواد الزراعية[١٢٢].

وقد حقّق الرستميون أرباحًا طائلة من خلال اشتغالهم بالتجارة، من بينهم الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم (١٧١ – ٢١١ هـ/ ٧٨٧ - ٨٢٦م) الذي اشتغل بالتجارة قبل توليه الإمارة، واتسعت تجارته مع بلاد السودان والحجاز واليمن والبصرة وغيرها من بلاد المشرق[١٢٣]، إلى درجة أنّه واثنين من أغنياء تيهرت كانوا يملكون من الأموال ما لا حد له، حيث كان الإمام عبد الوهاب يملك الذهب والفضة، والثاني واسمه محمد بن جرني كان فلاحا عظيما، قُدّرت زكاته في السنة آلاف الأحمال من البر والشعير، وقيل أندر زرعه ترى مسافة أيام كالجبال، بينما كان الثالث ويعرف بن زلغين يملك من الإبل والغنم مئات الألوف .وهذا ما يشير إليه الإمام عبد الوهاب بقوله «لولا أنا ومحمد بن جرني وبن زلغين لخرب مال المسلمين، أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وبن زلغين بالأنعام»[١٢٤]. ورغم ما يبدو من مبالغة في الروايات التي ساقت هذه الأمثلة عن الغنى الذي وصل إليه الإمام عبد الوهاب وبعض أثرياء تيهرت، ودورهم في الازدهار الاقتصادي للمدينة وللدولة الرستمية عامة، إلاّ أنه ممّا لا شك فيه أن المصادر تؤكّد الدرجة الاقتصادية العالية التي وصلت إليها تيهرت حتّى سميت بعراق المغرب[١٢٥].

وكان للازدهار الاقتصادي الذي بلغته تيهرت في العهد الرستمي الفضل في تطور المدينة عمرانيا، فبعد عودة إباضية المشرق لتقديم المعونة المالية الثانية لعبد الرحمان بن رستم لاحظوا تغيّرا ملحوظًا على تيهرت، فعمارتها كانت زائدة[١٢٦]، ولاح عليها رونق المدينة والملك[١٢٧]، فأوّل ما بُني فيها المسجد الجامع، ثم انتشرت حوله الدور والبيوت والأسواق والفنادق التي كانت أماكن إقامة للتجار الوافدين من المناطق القريبة أو البعيدة، وتفنّن أهل تيهرت تدريجيًا في عمارتها وتنظيمها، وازيّنت بقصور مشيّدة[١٢٨]، ودور مزينة، وأبنية مبهجة[١٢٩] وتوسّعت اتساعًا كبيرًا، وصارت مقصدًا للناس من كلّ الجهات[١٣٠]، والفضل في ذلك يرجع إلى حسن تسيير عبد الرحمان بن رستم للأموال التي جاء بها إباضية المشرق[١٣١]. وفي عهد الإمام الثاني عبد الوهاب أفلح بن عبد الوهاب، حفلت البلاد بأنواع التّجارات التي عادت على النّاس بالأرباح الوفيرة، أنفقوها في البناء والعمران، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنوا القصور والضياع داخل تيهرت وخارجها[١٣٢]. وكان لعجم الفرس دور في إثراء الدولة الرستمية وازدهارها عن طريق التجارة، حتى أن أحدهم[١٣٣] قد ابتنى سوقا تجارية عرفت باسمه، وهي سوق ابن وردة[١٣٤].

ولم تقتصر مظاهر الازدهار على تيهرت بل انتقلت إلى سائر جهات البلاد فنالت القبائل حظّها من الثروة، وظهرت عليها آثار الرخاء، يقول ابن الصغير «وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم»(١٣٥).

رابعًا: الازدهار الاقتصادي والتطور العمراني ودورهما في التركز السكاني المديني

من نتائج الازدهار الاقتصادي الذي شهدته إفريقية والمغرب الأوسط خلال القرون الإسلامية الأولى، بروز حركة عمرانية واسعة سمحت بإنشاء عدة مدن أضحت البعض منها من أهم الحواضر، وهذا ما جعلها منطقة جذب سكاني كبير بسبب ما أصبحت تتوفر عليه من ظروف معيشية ملائمة للاستقرار البشري.

٤/١-إشكالية المسألة الديمغرافية في المصادر

إن المسألة الديمغرافية في العصر الوسيط لا تخلو من صعوبات حتى أن الباحث فيها يكاد يُنعت بالمغامر الذي يخاطر بنفسه في بحر متلاطم الأمواج(١٣٦)، من هنا يوصف الموضوع بالمشكلة لصعوبة حلّها إلى يومنا هذا(١٣٧)، حيث يواجه الباحثون المختصّون في دراسة التاريخ الديمغرافي لشعوب العالم صعوبات كثيرة، وشكوكًا خاصة بالنسبة للعصور الوسطى بسبب نقص المصادر التي تتناول هذا الموضوع(١٣٨)، لهذا فمن أكبر التحديات التي تواجه الباحث في هذا المجال هو محاولة معرفة التطورات التي شهدها النمو السكاني لمنطقة ما خلال عدة قرون، والعوامل المؤثرة في هذه الزيادة الديمغرافية أو نقصانها، خاصة إذا كانت هذه المنطقة معروفة بافتقارها للوثائق التاريخية التي تتضمن أرقامًا وإحصائيات عن عدد السكان(١٣٩)، وهذه الحالة تنطبق كثيرًا على شمال إفريقيا أو بلاد المغرب في العصر الوسيط(١٤٠)، فإعادة تشكيل التطور التاريخي للسكان فيها تعاني من نقص كبير في الإحصائيات الديمغرافية الدقيقة، بسبب مرحلة طويلة من الفراغ الديمغرافي خلال الألفية الثانية للميلاد(١٤١)، لكن معظم المواضيع المطروحة على البحث التاريخي اليوم.

لكن الخوض في هذا الموضوع لا يعني الدخول في افتراضات سهلة، بل لا بدّ من محاولة الاستغلال المتبصر لأدنى الإشارات والأرقام الواردة في مختلف المصادر(١٤٢). وللأسف فإن البحث في مجال الديمغرافيا التاريخية(١٤٣) لبلاد المغرب في العصر الإسلامي(١٤٤) لا يبعث على الاطمئنان، لأن معظم الوثائق الخاصة بتاريخ المنطقة لا تتضمّن سوى نصوص قليلة لا تساعد على إعطاء صورة واضحة عن عدد السكان(١٤٥). كما تتميّز معظم روايات المؤرخين والجغرافيين بالطابع التعميمي، ولذلك فإن تقديم أي رقم ولو تقريبيًا لا يخلو من مجازفة(١٤٦)، فابن خلدون مثلاً كثيرًا ما يستعمل على غرار الإخباريين في تاريخ الإسلام عبارات وصفية ذات دلالة ديمغرافية غامضة غالبًا ما تفيد الكثرة، أو ينتابها الشك، ويغيب عنها اليقين، من تلك العبارات (أمم لا تحصى)، (يُقال أن)، أو (نحو ذلك)(١٤٧)، ويصف ابن حوقل البربر من سكان المغرب بأنهم قبائل لا يلحق عددهم ولا يوقف على آخرهم لكثرة بطونهم وتشعّب أفخاذهم وقبائلهم(١٤٨). وأحيانًا تكون العبارات المستعملة ذات دلالة تفيد القلة، حيث يصف الإدريسي القيروان بعد الغزو الهلالي أنّ بها قوم قليلون(١٤٩)، لذلك فإن المختصّين يرون أن الحل الأنسب لمشكلة نقص المعلومات عن الأوضاع الديمغرافية للمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، يكمن في الاستشهاد بالنصوص التاريخية التي لها علاقة بأعمار الدول، وأهم التطورات التي تمر بها من حيث أسباب نشأتها أو سقوطها واضمحلالها، والمراحل التي تمر بها(١٥٠).

ممّا لا شك فيه أن الوضعية الديمغرافية ارتبطت بالواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للشعوب، فالازدهار الاقتصادي وتحسّن المستوى المعيشي، وشيوع الأمن وغياب الفتن والحروب، عوامل تساعد على الزيادة السكانية نتيجة نقص الوفيات وزيادة الولادات، وتكون سببًا في تطور ديمغرافي ملحوظ مثلما حدث في بداية الفتح الإسلامي بعد انتهاء ثورات الخوارج، وعند قيام الدول والإمارات في إفريقية والمغرب الأوسط مثل دولة الأغالبة، والرستميين، والحماديين، أو غيرها من الدول التي قامت في المنطقة. يقول ابن خلدون «اعلم أن الدّولة في أول أمرها لابد لها من الرفق في ملكتها، والاعتدال في إيالتها.. وإذا كانت المملكة رفيقة انبسطت آمال الرّعايا، ونشطوا للعمران وأسبابه فتوّفر ويكثر النسل.. ويظهر أثر ذلك بالتدريج».(١٥١)

فاستقرار الأوضاع بالنسبة للشعوب والرعية، وحسن سيرة الحكام معهم، والاهتمام بشؤونهم، والرفق بهم، ورفع مستواهم المعيشي، هي كلّها عوامل تؤدي إلى الزيادة السكانية في أي مجتمع من المجتمعات، وهكذا كما ذكر ابن خلدون بعد جيل أو جيلين من حسن السياسة والرأفة بالرعايا يزدهر العمران والصنائع والاقتصاد ويكثر النسل، وترتفع الولادات بالتدريج(١٥٢)، بينما أسفرت الحروب والفتن، والمجاعات

والكوارث الطبيعية، وسوء استغلال السلطة عن نقص خطير في عدد السكان[١٥٣]، حيث تدخل الدولة في الجيل الثالث والأخير من عمرها بسبب ما يسمّيه ابن خلدون الحضارة المفسدة للعمران، فترتفع الجبايات والضرائب لسد نفقات حياة الترف التي ينغمس فيها أمراء الدولة والحاشية المقربة منهم والأغنياء خاصة من سكان المدن، فتصبح هذه الضرائب الثقيلة سببًا في تقاعس الناس عن العمل والإنتاج[١٥٤]، وتكون نتيجة ذلك حدوث المجاعات والأوبئة، وترتفع الوفيات بسبب كثرة السكان من جهة، والكوارث الديمغرافية الناتجة عن اختلال الدولة، واندلاع الفتن الممهّدة لسقوطها من جهة أخرى.[١٥٥]

كما أنّ انتقال الناس من حياة البداوة إلى حياة التحضر داخل المدن ينتج عنه توفّر الظروف المعيشية الرغيدة وظهور حياة الترف ممّا يزيد في النمو السكاني، وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله أن «القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد.. وربت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا عددا إلى عددهم»[١٥٦]. ويقول في موضع آخر «لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون مثلما حدث في بجاية»[١٥٧]، أي يزداد عددهم.

٢/٤-التعرّف على الوضعية الديمغرافية من خلال تاريخ المدن

من أجل التعرف على الوضعية الديمغرافية لإفريقية والمغرب الأوسط خلال المرحلة المدروسة، لابُدّ من الرجوع إلى تاريخ المدن والحواضر الإسلامية التي أُنشئت في المنطقة كالقيروان، وتيهرت لأن المصادر التاريخية كما أسلفنا ركّزت على وصف الحياة في المدن أكثر من تركيزها على الأرياف[١٥٨]. نادرًا ما نجد أرقامًا محدّدة في المصادر عن عدد السكان في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، مثلما أورد الإدريسي عندما يتكلم عن كتامة[١٥٩] «ولم يبق من كتامة في وقت تأليفنا لهذا الكتاب إلاّ نحو أربعة آلاف رجل»[١٦٠].

يرى هشام جعيط أن عدد العرب المستقرين في بداية الفتح لا يمكن أن يتجاوز الخمسين ألف شخص، وفي العهد الأموي ثم العباسي كانت مراكز التجمعات الأكثر أهمية هي القيروان، وتونس والزاب، ومن الطبيعي أن يستقر في عاصمة الولاية عدد كبير من العرب من مختلف القبائل، وتركزت موجة ثانية خلال العهد العباسي في تونس وبلاد الزّاب خاصة[١٦١].

لكن ممّا لا شكّ فيه أن المدينة أصبحت منطقة جذب للسكان في بلاد المغرب عامة، فالمدن التي عرفت ازدهارًا اقتصاديًا يلفت الانتباه ابتداء من القرن (٢ هـ/ ٨م)، صارت تستقطب الأثرياء من البادية الذين تستهويهم حياة التّرف والرفاهية، وتوفّر الكماليات فيها، ويمثّل هؤلاء الوافدين الأغنياء نسبة كبيرة من سكّان المدن التي نشأت صغيرة ثم تطورت في القرنين (٣ - ٤ هـ/ ٩ - ١٠م)[١٦٢]. وتكون المدينة أكثر جذبا للسكان خاصة من البادية إذا كانت عاصمة دولة جديدة مثل القيروان[١٦٣]بعد تأسيسها وأصبحت عاصمة لإفريقية، وجذبها للسكان من الجهات القريبة أو البعيدة، وتيهرت لما عُرف عنها من تسامح مع أتباع المذاهب وحتى الأديان الأخرى، وتحوّلها إلى قطب اقتصادي كبير في بلاد المغرب[١٦٤]، لما تتوفر عليه هذه الحواضر الكبرى من إمكانيات وظروف اقتصادية واجتماعية، واستتباب أمني، كلّها عوامل ساعدت على الاستقرار البشري فيها.

وإذا كان تدفّق الناس في إفريقية والمغرب الأوسط على المدن، وانتقالهم إليها بصفة مؤقتة لتلبية احتياجاتهم والحصول على ما يلزمهم من سلع وبضائع، أو تصريف سلعهم، مثل المزارعين الذين يأتون إلى الأسواق المقامة داخل المدينة أو خارج أسوارها لبيع منتوجاتهم الزراعية في إطار التبادل المتعارف عليه بين المدينة والبادية، فإن الكثير من الناس يفضّلون الاستقرار فيها خاصة إذا كانت ذات موقع هام مثل التجار الذين يسعون وراء تحقيق الأرباح، وهو ما توفّره لهم المدينة، بالإضافة إلى الحياة المرفّهة داخل القصور وفي المتنزهات.[١٦٥]

وتُعتبر المدينة منطقة جذب سكاني خاصة في مرحلة التأسيس، حيث تكون ورشة بناء من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، وهناك مثل يقول: «إذا كان البناء، كل شيء يكون»، وينطبق هذا المثل على ورشة بناء المدن المغربية التي كانت تجمع آلاف العمال الذين يأتون من كل مكان من أجل البناء السريع للمدينة، في إطار حركة سكان الأرياف نحو المدينة التي هي في طور البناء[١٦٦]. كما قد تكون الهجرة إلى المدينة بدافع طلب العلم أو نشره [١٦٧]مثل القيروان التي أصبحت قطبا علميا هامّا ليس في بلاد المغرب فقط بل في العالم الإسلامي ككل، وذلك بفضل استقرار العديد من فقهاء الصحابة والتابعين بها، وكانت تيهرت عاصمة المذهب الإباضي تجذب أتباع الإباضية من مختلف الأمصار لتعلّم أمور دينهم، وأصول المذهب الإباضي[١٦٨].

والخلاصة أن تعمير المدينة يكون بواسطة حركة بشرية ذات اتجاه واحد، من البادية إلى الحاضرة لأن التمدن غاية البدوي[١٦٩]، بينما لا يتشوق الحضري إلى السكن والاستقرار في البادية، إلا لضرورة تدعو إليها. ويشمل النزوح البدوي الذي يغذي الديمغرافية داخل المدينة، ويزيد من عدد سكانها عبر موجات متتالية كلا من الناحية القريبة من المدينة، والبادية البعيدة عنها، وهكذا يقع تجديد متواصل للتركيبة البشرية بالحواضر عن طريق هذا المعين الذي لا ينضب.[١٧٠] ومن حسن الحظ أن المصادر الوسيطية تختزن بين طياتها بعض الإشارات الإحصائية والتقديرات اللفظية[١٧١]عن عدد السكان في المدن، من خلال عدد الأسواق والفنادق، والمساجد، وغيرها من المرافق العمومية، مما يمكن اعتباره مؤشرات، إذا تم ضبطها وإخضاعها للنقد التاريخي، يمكن القول إنه يمكن الاقتراب أكثر من وضع آليات إن لم نقل منهجية للبحث في الديمغرافية التاريخية.

(٢/٤) ١-الزيادة السكانية في القيروان

عرفت القيروان تطورًا عمرانيًا سريعًا[١٧٢] بعد مدة قصيرة من تأسيسها[١٧٣]، فلم تمض سوى مدة قصيرة على اختطاط عقبة لمسجدها الجامع ودار الإمارة حتى أخذ الناس في بناء الدور والمساكن والمساجد[١٧٤]، ويعود إليه الفضل في عملية التمصير واستقرار الجنود بعائلاتهم في المساكن، وكذلك التخطيط أو تحديد النواة العمرانية والخطط الجماعية للقبائل.[١٧٥] وتذكر كتب الطبقات أن إفريقية عامة والقيروان على وجه الخصوص دخلها تسعة وعشرون أو ثلاثون صحابيا من صحابة رسول الله (ﷺ)، منهم من مكث في إفريقية وبعضهم عاد بعد انتهاء الغزوة التي شارك فيها[١٧٦]. كما يُذكر أن عقبة بن نافع كان معه عندما عاد للمرّة الثانية خمسة وعشرون صحابيًا، وقد جمع وجوه أصحابه وكبراء العسكر فدار معهم حول القيروان وهو يدعو «اللهمّ املأها علما وفقها، وأعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزا لدينك وذُلاّ على من كفر، وأعزّبها الإسلام، وأمنعها من جبابرة الأرض»[١٧٧].

ثم ظهرت طبقة من أبناء القيروان سافروا إلى المشرق ونهلوا من شتى العلوم وعادوا إلى بلادهم وحملوا على عاتقهم نشر ما تعلّموه في القيروان وغيرها من مدن إفريقية وبلاد المغرب عامة[١٧٨].وقد أقبل الناس على القيروان من كل جهات المغرب لتعلّم أمور دينهم من الصحابة والتابعين وأبناء القيروان العائدين من المشرق، فأصبحت قبلة لطلاب العلم من شتى الأقطار[١٧٩]. ومن نتائج قيام القيروان، إقبال كثير من الأمازيغ على اعتناق الإسلام، وجاوروا المدينة الجديدة، ثم نمت وتوسّعت في عهد ولاّة إفريقية خاصة حسان بن النعمان وموسى بن نصير[١٨٠](١٩ – ٩٧ هـ / ٦٤٠ – ٧١٦ م)، فبعد أن أقام بها حسّان مدّة شرع في تعميرها ،حيث أعاد بناء المسجد الجامع وقصر الوالي، وبعث الراحة والطمأنينة في نفوس سكانها، ونتيجة تطورها الاقتصادي والعمراني أصبحت القيروان منطقة جذب كبير للناس من الضواحي[١٨١]ومن كل جهة ، وشدّوا إليها المطايا من كل أفق، وعظم قدرها[١٨٢].

ولخّص الدباغ وضعية المدينة الجديدة بقوله «أقام –حسان– وعمّرها المسلمون. وانتشروا فيها وكثروا»[١٨٣]. وفي سنة (٧٧هـ/ ٦٦٩م) جلبت إليها ألف عائلة من اليهود والأقباط المصريين لتصبح عاصمة اليهود في المغرب العربي[١٨٤]. وما يدل على ارتفاع عدد سكان القيروان أنه لما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان يعلمه أن الجامع يضيق بأهله[١٨٥]. وقام الخليفة عمر بن عبد العزيز بإرسال عشرة من التابعين[١٨٦] ليفقهوا سكان بلاد المغرب في الإسلام، ويبثّوا اللغة العربية بينهم[١٨٧].وما من شك أن هؤلاء القادمين من المشرق كانوا يتنقلون في أنحاء المغرب لنشر تعاليم الدين الإسلامي إلاّ أن المقر الرئيسي لهم كان القيروان حيث بنى كل منهم دارًا ومسجدًا وكتابًا أو مدرسة صغيرة[١٨٨].

ويذكر اليعقوبي الذي عاش في أواخر القرن الثالث هجري/ التاسع الميلادي أن مدينة القيروان بها أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب، وبها أصناف من العجم من أهل خراسان ومن ورد إليها مع عمّال بني هاشم من الجند، وبها عجم من عجم البربر، والروم وأشباه ذلك [١٨٩]، وهذه الموجات البشرية تبيّن أن القيروان عرفت تزايدًا في عدد السكان من مختلف القبائل والأجناس، ممّا جعلها تشهد خلال القرون الإسلامية الأولى امتدادًا كبيرًا لأحيائها[١٩٠]، وتوسّعًا عمرانيًا لافتًا، ويتّضح ذلك من خلال منشآتها العمرانية، ودروبها، وفنادقها، ومساجدها. ويكفي للدلالة على أهمية التطور العمراني الذي عرفته المدينة طول الشارع التجاري الذي بلغ ميلين وثلثا ميل[١٩١]، أي ما يزيد على ٣ كلم ونصف، وإذا كان هذا طول الشارع التجاري الذي هو جزء من مدينة القيروان فلا شك أن مساحتها كانت كبيرة. وبلغ عدد الحمامات في القيروان ثمانية وأربعين حمّاما، إلى جانب الحمّامات الخاصة[١٩٢]. وكان فيها خمسة آلاف وضم[١٩٣] للجزارين[١٩٤]، وأحصى ما ذبح في القيروان في بعض أيام عاشوراء من البقر خاصة، تسعمائة وخمسين رأسًا[١٩٥]، وهذا العدد الكبير من رؤوس البقر التي ذبحت بمناسبة عاشوراء يدل على اتساع

المدينة، وكثرة مساكنها، وازدحامها بالسكّان. ويصفها الإدريسي مبيّنا ازدهارها التجاري وتطورها العمراني، ونمّوها السكاني بأنّها «أم الأمصار، وقاعدة الأقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطرًا، وأكثرها بشرا[١٩٦]».

أصبح الناس يؤمّون أسواق القيروان من كلّ الجهات لاقتناء مواد متنوعة، وتغادرها قوافل تجارية عديدة، حاملة مختلف السلع التي كانت تبلغ دوابها وإبلها الألف أو أكثر بعد أن تكون قد أفرغت حمولتها لتسديد حاجات استهلاكية جديدة في المدينة نتيجة النمو الديمغرافي السريع[١٩٧]. وممّا يدل أيضًا على اتساع مدينة القيروان والزيادة السكانية فيها خلال القرون الإسلامية الأولى تعدّد المدافن، من أشهرها مقبرة البلوية نسبة إلى الصحابي الجليل أبوزمعة البلوي[١٩٨] الذي دُفن فيها، ومنها أيضًا مقبرة قريش الواقعة غربي المدينة، وتسمى اليوم بالجناح الأخضر، وبها من قبور العلماء والصالحين شيء كثير[١٩٩].

وفي عهد الأغالبة عرفت القيروان توسّعا عمرانيًا كبيرًا إلى حد أنها لم تعد تسع جميع السكان[٢٠٠]، حيث أُعيد توسيع مسجدها، ولا شّك أن ذلك كان بسبب زيادة عدد المُصلّين، وهذا إن دل على شيء فإنّما يدل على ارتفاع عدد السكان في المدينة[٢٠١]. كما أن الزيادة الديمغرافية حتّمت على أمرائها إنشاء مراكز عمرانية كثيرة في ضواحيها[٢٠٢] منها العباسية، ورقّادة[٢٠٣]، وصبرة المنصورية[٢٠٤] التي يصفها المقدسي بأنها شديدة العمارة، وعرض صورها إثنا عشر ذراعا[٢٠٥]، وقد تم إنشاء هذه المدن لاستيعاب الأعداد المتزايدة للوافدين على القيروان، وهذه المراكز العمرانية عبارة عن سلسلة من المدن الأميرية[٢٠٦]، مجهّزة بكل ما يلزم للسكن فيها من بيوت وأسواق ومساجد وغيرها من المرافق فأصبحت عامرة[٢٠٧]. ويقدّر حسن حسني عبد الوهاب عدد سكان القيروان خلال القرنين (٤ و٥ هـ/ ١٠ و١١م) بمائة ألف نفس في نقطة واحدة[٢٠٨]. والمطّلع على كتب الجغرافيين والرحّالة، مثل البكري وابن حوقل والإدريسي، يلاحظ أن المدن الواقعة بين إفريقية والمغرب الأوسط كانت آهلة وعامرة بالسكّان، دون تحديد عدد سكانها، فيقول البكري عن جزيرة شريك الواقعة بين سوسة وتونس، وقفصة وتوزر[٢٠٩]، وتهوذا[٢١٠]، ونفطة[٢١١] أنّها مدن كبيرة وآهلة بالسكان[٢١٢]، ويصف ابن حوقل قابس بأن بها البربر الكثير[٢١٣].

(٤/٢) ٢-الزيادة السكانية في تيهرت

بعد تأسيسها سكنتها القبائل البربرية خاصة المناصرة للإباضية[٢١٤] التي انجذبت إليها بفضل ازدهارها الاقتصادي والعمراني، من إفريقية والمغرب الأوسط وحتى الأقصى[٢١٥].

يقول عنها البكري «.. تيهرت الطيبة، النزيهة، غابت في البساتين، وجل بها الإقليم .. وهو بلد كثير الخير، رحب»[٢١٦]. ولم يقتصر سكانها على البربر المحليين بل نزحت إليها هجرات من مختلف أمصار العالم الإسلامي، ومن مختلف المذاهب والطوائف من عجم ومسيحيين وغيرهم.[٢١٧] «وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار وليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه عبد الرحمان بن رستم، وأمانته على نفسه وماله».[٢١٨]

أصبحت تيهرت قبلة لمختلف الأجناس والغرباء. يقول اليعقوبي في هذا الشأن «والمدينة العظمى تيهرت، جليلة المقدار، عظيمة الأمر تُسمّى عراق المغرب، لها أخلاط من الناس، غلب عليها قوم من الفُرس»[٢١٩]. وأعجبتهم أحوالها فقرّروا الاستقرار فيها، ويقول عنها البكري «وانتعش فيها الغريب، واستطابها اللّبيب»[٢٢٠] إلى درجة أنّ ابن الصغير يقول: «حتّى لا ترى دارا إلاّ قيل لفلان الكوفي وهذا لفلان البصري، وهذا لفلان القروي»،[٢٢١] فازداد عدد السكان فيها[٢٢٢]. وكانت هناك أحياء كاملة أنشأتها بعض القبائل والجماعات فابتنت نفوسة لنفسها حي العدوة، وقامت جماعات الجند القادمة من إفريقية هربًا من بطش الأغالبة ببناء حيّهم الذي أقاموا فيه وأطلقوا عليه اسم المدينة العامرة[٢٢٣].

وصلت تيهرت أوج ازدهارها في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب، وأصبحت عاصمة بلد كثير الخير، رحب، رشيق الأسواق[٢٢٤]، فأقام الإمام أفلح خمسين عامًا أميرًا حتى نشأ له البنون وبنو البنين، وشمخ في ملكه، وعمرت معه الدنيا، وكثرت الأموال والمستغلات، فازداد إقبال الناس على تيهرت، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات[٢٢٥]، وانعكس رخاء البلد على تطور عمرانها حتى ابتنى الناس القصور[٢٢٦].

خَاتِمَةٌ

إن الازدهار الاقتصادي الناتج خاصةً عن الدور الهام الذي لعبته إفريقية والمغرب الأوسط في المبادلات التجارية العالمية من خلال تحكّمها في تجارة الذهب بالدرجة الأولى، قد عاد عليها بأرباح طائلة ساعدت على قيام حركة عمرانية واسعة، أدّت إلى إنشاء أو إحياء مدن وحواضر متعددة، اخترنا منها في إفريقية والمغرب الأوسط القيروان وتيهرت، واللتان سرعان ما أصبحتا مدينتي جذب سكاني كبير لما كانت تتوفر عليه من عوامل الاستقرار، ومرافق وإمكانيات مادية ومعيشية تضمن لساكنيها الراحة والحياة السهلة، وظروف ملائمة للتحصيل المعرفي والديني.

الاحالات المرجعية:

(١) الجنحاني (الحبيب)، **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الإسلامي، (ق٣ – ٤ ه/ ٩ – ١٠م)**. الدار التونسية للنشر، تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٢ م، ص ١٨١. جودة حسنين وفتحي أبو عيانة، **قواعد الجغرافية العامة الطبيعية والبشرية**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، لبنان، دون تاريخ. ص٣٧.

(٢) رغم أن ثورا ت الخوارج أثرت سلبًا على الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب إلا أنها لم تكن المسؤولة الوحيدة عن ذلك بل هناك عوامل أخرى منها استنزاف طاقات المغرب في الحروب الطويلة التي استغرقها عملية الفتح وما ارتبط بها من ثورات ضد الفاتحين كتلك التي قام بها كسيلة والكاهنة، وما تمخّض عن هذه الثورات من تخريب للمزراع وإحراق الأشجار، وليس من شك في أن سياسة بعض عمال بني أمية زاد في سوء الأوضاع. (محمود إسماعيل عبد الرزاق، **الخوارج في بلاد المغرب حتّى منتصف القرن الرابع الهجري**، ط٢، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص٢٧١.

(٣) ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن الجزري)، ج ٥، **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧ م، ص ١٢٣. المراكشي عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط ١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٨ ه/ ١٩٤٩م، ص١٦.

(٤) ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** ج ٦، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢١ه/ ٢٠٠٠م، ص١٧٢. ابن عذاري (أبو العباس أحمد بن محمد)، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ج١، تحقيق عواد بشار معروف، محمود بشار عواد، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس، ١٤٣٤ ه/ ٢٠١٣م، ص ١٥١.

(٥) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن محمد الفاسي)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٢٠. ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص ١١٨. ابن إسحاق (خليل)، **مختصر خليل في فقه إمام أهل الهجرة**، ج ١، تحقيق أحمد علي حركات، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥.

(٦) ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٠.

(٧) جودت عبد الكريم يوسف، **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص ٧٤. – حسن علي حسن، **دولة الأدارسة بالمغرب**، ص ٢٤٥.

(٨) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ١٩٠ – ١٩١.

(٩) بلاد النوبة: أرض واسعة جنوب مصر. كان عدد سكانها كبير، معظمهم نصارى (القزويني) زكريا بن محمود)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص ٢٤ – ٢٥.

(١٠) ميتز (آدم)، **الحضارة الإسلامية، في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام**، ج ٢، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أو ريد، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ، ص ٣٥٥– حسن خضيري أحمد، **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب (٣٦٢ – ٥٦٧ ه/ ٩٧٣ – ١١٧١م)**، ط ١، مكتبة مدبولي، مصر، بدون تاريخ، ص ٩٧.

(١١) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ص ٦٥.

(١١) كان معدن الذهب ينقل عبر المسالك الغربية التي ضمت عدة مراكز أساسية في كل من المغرب الأقصى، الصحراء الغربية وموريتانيا وتلمسان. وكان هذا الطريق الغربي يحتوي على بابين: باب الشمال ويُسمّى سجلماسة، وباب الجنوب ويُسمّى أودغشت (بن موسى جميلة، **تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، من القرن الثالث إلى الخامس الهجري (٩ م – ١١م)**، بحث لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، ٢٠٠٠ – ٢٠٠١ م، ص١٨٥).

(١٢) ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج ٦، ص ٤١٨.

(١٣) **أودغشت**: مدينة بين صحراء لمتونة جنوب موريطانيا حاليًا والسودان الغربي أو غانة. استقر بربر صنهاجة الملثمين حوالي القرن ٣ ه/ ٩م في المنطقة، وهم رعاة رحل أين توفرت لهم المراعي. وكانت أودغشت إحدى المحطات التجارية لصنهاجة على الحدود الشمالية لمملكة غانة. ومن أهم العوامل التي ساهمت في نمو اودغشت وازدهارها تجاريا هي : - وقوعها على الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة وغانة – توفر هذا الطريق على الماء – كون أودغشت همزة وصل بين مناجم الملح الذي كان يُنقل إلى السودان – كون أودغشت مستودع تبر السودان – كانت بها مراكز تحويل الذهب مماساهم في ثرائها وازدهارها الحضاري – قوة حكامها (الحميري (محمد بن عبد المنعم)، **الروض المعطار في أخبار الأقطار**، حققه إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص٦٣، ٦٤ – ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩١ – مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، العراق، ١٩٨٥، ص٢١٦.

Lewiski (Tadeusz), le role du sahara et des sahariens dans les relations entre le nord et le sud, in histoire générale de l'Afrique, vol 3, l'Afrique du 7eme au 11 siécle, Edicef; Unesco, 1997, p. 304.

البكري (أبو عبيد)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٥٨-١٥٩.

(١٤) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩١.

سجلماسة: بُنيت سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٨م)، كانت عاصمة للمدراريين. تقع في الطريق الغربي المؤدي إلى غانة، والمسافة بينها وبين غانة شهرين، وبينها وبين وادي درعة خمسة أيام، وبينها وبين فاس عشرة أيام، وتعتبر من أكبر مدن الصحراء المغربية، تبعد عن البحر خمسة عشر مرحلة، وهي مدينة سهلية، لها بساتين كثيرة، وتمتاز بقصورها وديارها مما جعلها مقصدا للوارد والصادر. وعُرفت بكونها أهم محطة لتجارة الذهب الذي كان يُجلب من السودان الغربي. اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب)، **البلدان**، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص ١٩٨. البكري، المصدر السابق، ص ١٤٩ – الحميري، المصدر السابق، ص ١٩٢، ٣٠٦،٣٠٥ – ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٤٢.

(١٥) تنتمي ورجلان أو ورقلة إلى ما يعرف بالقصور في الشمال الإفريقي، وتمتد من شرق طرابلس، ثم جنوب غرب جبل نفوسة مرورًا بفريان، يفرن، جادو ثم كاباونالوث. أما شمالاً فتبدأ من الجنوب التونسي مرورًا بقصور تطاوين ومطماطة، لتتجه غربًا نحو الجنوب الجزائري، أي قصور وادي ريغ، ورقلة ثم إلى الجنوب الغربي أي إلى توات، قورارة، تيديلكت، ثم غربًا نحو بني ميزاب، جبال عمور، والقصور إلى غاية أقاصي المغرب الأقصى. وقد لعبت هذه القصور دور المحطة التجارية للقوافل المتجهة على السودان الغربي وسوقا لبضائعها. وشكلت ورقلة وسدراتة أكبر المحطات التجارية التي عرفها المغرب الأوسط خلال العصور الوسطى، ونقطة اتصال العديد من الطرق المؤدية على السودان الغربي، كما اعتبرت ورقلة من أكبر الواحات الصحراوية التي كانت تسقي بالآبار الإرتوازية. وتعود أهمية ورقلة إلى موقعها الاستراتيجي بالنسبة لطريق ذهب غانة، حيث كانت القوافل تخرج من ورقلة وسدراتة لتصل إلى توات ثم تتوجه نحو تادمكة وأخيرًا جاو. ومن أهم المناطق التي كانت تتصل بغانة مرورا بورقلة مدينة تيهرت، إضافة إلى مدينة سجلماسة.

Gaudio (Atillio), Les civilisations du Sahara, marabout universite, Editions Gerard, Verviers, 1967, p. 201

راجع: بن موسى، المرجع السابق، ص٢٠٧.

(١٦) ابن حوقل، المصدر، ص ٤٢.

(١٧) تذكر الأستاذة جميلة بن موسى أن كميات كبيرة من ذهب السودان كانت تُنقل نحو المغرب والعالم الإسلامي. ومن الباحثين الأجانب الذين حاولوا إعطاء أرقام عن كميات الذهب التي كان السودان الغربي يستخرجها من مناجمه ويصدرها إلى المغرب الإسلامي موريس لمبار، مونيي وغيرهم من خلال مقارنة بين ما كان يُستخرج من مناجم السودان من الذهب في القرون المتأخرة، وما كان يستخرج منها في القرون الإسلامي الأولى. (بن موسى، المرجع السابق، ص ١٦٦ – ١٦٧).

(١٨) الجنحاني، المرجع السابق، ص ١٦.

(١٩) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٧٦.

(٢٠) البرزلي (أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي)، **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، ج ٢، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٦٣.

(٢١) لمبارموريس، **الإسلام في مجده الأول من القرن ٢ إلى ٥ ه (٨-١١م)**، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ٢٠٠٣م، ص٢٠٧.

(٢٢) الجنحاني، المرجع السابق، ص١٦.

(٢٣) موريس لمبار، **الإسلام في مجده الأول**، ص ١٨٣.

يمكن تمييز أربع حالات عند انتقال المدينة من نسيجها القديم إلى نمطها الإسلامي وهي: المدينة القديمة تتحول إلى مدينة إسلامية مثل ما هو عليه حال قسنطيمة وسطيف – بناء مدينة حديثة (إسلامية) بجانب المدينة القديمة لتصبحا مكملتين لبعضهما كما هو الحال بالنسبة لتيهرت وبونة وتنس – هجران المدينة القديمة وبناء مدينة حديثة بجانبها كما هو حال المسيلة، المدية ومليانة– بناء مدينة حديثة إسلامية خاصة مثل حال القيروان، فاس والقلعة. علاوة عمارة، **دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ٢٠٠٨ م، ص١٣٩.

(٢٤) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، ص ١٣٠. الحميري، المصدر السابق، ص ٨١.

(٢٥) أصبح الرقيق يلعبون دورًا هامًا في المجتمع المغربي نظرًا لما حققه المغرب الإسلامي من رفاهية وتطور بعد أن أمطرت عليهم سماء السودان الذهب الخالص حيث تنافس التجار خاصة اليهود على اقتناء أحسن العناصر البشرية التي كانت تمثل العبيد السود خاصة أودغست التي كان يجلب منها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهم ١٠٠ دينار أو أزيد على حد تعبير كتاب الاستبصار. (مجهول، **الاستبصار**. ص ٢١٦). ومن بين الأسباب التي أدت إلى انتشار تجارة العبيد في المغرب الإسلامي انخفاض أسعارهم لصبح سجلماسة وورجلة أهم المراكز التي استقبلت خصي العبيد قبل تسويقهم إلى داخل وخارج المغرب. (جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص ٢٢٨ – انظر: بن موسى، المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٢٦) الجنحاني، المرجع السابق، ص ١٧.

(٢٧) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢٨) ابن خلدون، المقدمة، ص٣٤٢.

(٢٩) نفسه، ص ٣٤٣.

(٣٠) غوردو عبد العزيز، **الفتح الإسلامي لبلاد المغرب جدلية التمدن والسلطة**، ط٢، المكتبة الوطنية الكويتية،٢٠١١م، ص٦٧.

(٣١) ابن خلدون، **المقدمة**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،٢٠٠١، ص ٣٥٩.

(٣٢) ابن منظور (محمد بن مكرم الإفريقي)، **لسان العرب**، ج ١٣، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤، ص ٤٠٢.

(٣٣) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ط ٤، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ٢٠٠٤، ص ٨٥٩. أحمد رضا، **معجم متن اللغة**، ج ٥، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٣٩ / ١٩٦٠م، ص ٢٦٤.

(٣٤) سورة الأعراف: الآية ١٢٣.

(٣٥) شاكر(مصطفى)، **المدن في الإسلام حتى العصر العثماني**، ط٢، مكتبة الأسد، سوريا، ١٩٩٧، ص٤٧.

(٣٦) السبتي (عبد الأحد) وفرحات (حليمة)، **المدينة في العصر الوسيط: (قضايا ووثائق من تاريخ المغرب الإسلامي)**، ط ١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص٥.

(٣٧) ناجي (عبد الجبار)، **دراسات في تاريخ المدن الإسلامية**، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠١، ص٥٩.

(٣٨) **الرستاق**: كلمة فارسية، ومعربها الرزداق، وجمعها الرزداقات والرزاديق، وهي القرية أو محلة العسكر أو البلد التجاري. عمارة محمد، **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، ط ١، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٤١٣ه/ ١٩٩٣م، ص ٢٤٨.

(٣٩) القزويني، المصدر السابق، ص ٧.

(٤٠) محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، ج١، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، ١٩٩٩ م، ص ٥١.

(٤١) الهذلول (صالح بن علي)، **المدينة العربية الإسلامية**، أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية، ١٩٩٤، ص١٩.

(٤٢) عثمان محمد عبد الستار، **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٨، ص ٩٥ – ٩٦.

(٤٣) تأسست على يد عقبة بن نافع، (الحموي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٢٤).

(٤٤) وقوع تيهرت في سفح جبل على نهرين، تاتش ومينا كان من بين أسباب اختيار عبد الرحمان بن رستم لها واتخاذها عاصمة لدولته الجديدة (البكري، المصدر السابق، ص ٦٦ – الجنحاني، المرجع السابق، ص١٠٥).

(٤٥) أسسها الناصر بن علناس الحمادي (الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، **معجم البلدان**، ج١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ م، ص ٣٣٩.

(٤٦) أسسها الخليفة المهدي الفاطمي (الإدريسي الشريف، **المغرب وأرض السودان والمغرب مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع. بريل، ١٨٦٣م، ص ١٠٣، ١٠٧).

(٤٧) البكري، المصدر السابق، ص ٣٧ – الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١١.

(٤٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٧٤ – البكري، المصدر السابق، ص ٣٦.

(٤٩) الموسوي (مصطفى عباس)، **العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدينة العربية الإسلامية**، بغداد، ١٩٨٢، ص١٥٩.

(٥٠) عقبة بن نافع: الفهري الأنصاري، ولد على عهد رسول الله (ﷺ). هو ابن خالة عمرو بن العاص، ولاه عمرو بن العاص إفريقية. وافتتح عامة بلاد البربر، وهو الذي اختط القيروان، وذلك في زمن معاوية بن أبي سوفيان. وقتل عقبة سنة (٦٣ه/ ٦٨٣م) على يد كسيلة بعد أن غزا السوس الأقصى. وقبره ببسكرة (أبو عمر يوسف ابن عبد البر، الإستيعاب في معرفة الأصحاب ، مج ٢، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الجيل، ١٤١٢ ه / ١٩٩٢ م، ١٠٧٦ – ١٠٧٧ – الدباغ أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسدي (٦٠٥ – ٦٩٦ ه / ١٢٠٨ – ١٢٩٧م) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ج١، أكمله وعلق عليه، التنوخي (أبو الفضل بن عيسى بن ناجي (٨٣٩ ه/ ١٤٣٥م)، تحقيق محمد أحمدي أبو النور، ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي بمصر، المكتبة العتيقة بتونس، ١٩٦٨، ص ١٦٤ – ١٦٧، المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد)، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، ج١، حققه بشير البكوش، وراجعه محمد لعروسي المطوي، ط ١، ١٤٠٣ ه – ١٩٨٣ م، ط ٢، ١٤١٤ ه – ١٩٩٤ م، دار الغرب الإسلامي، ص ٣٢ – ٩٧).

(٥١) يُطلق الميل في اللغة على عدّة معان، فمنها الميل الذي يكتحل به، ومنها القطعة من الأرض بين الجبلين، ومنها الميل أي مد البصر. والميل مسافة ليس لها حد يومئذ، وتُقّدر بأربعة أذرع، حدّدها البكري بالميل في عصره فوجدنا الميل يفوق الكلم ونصف بقليل. (علي جمعة، علي جمعة محمد، **المكاييل والموازين الشرعية**، ط ٢، القدس للإعلان والنشر والتسويق، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٥٣ - الجنحاني، المرجع السابق، ص٥٣).

(٥٢) الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص ٨٧.

(٥٣) نفسه.

(٥٤) الحموي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٢١.

(٥٥) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٤.

(٥٦) زيتون (محمد محمد)، **القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية**، ط١، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، ١٤٠٨ه/ ١٩٨٨ م، ص٨٣.

(٥٧) الزهري (محمد بن أبي بكر) (ق٦ه/ ١٢م)، **كتاب الجغرافيا**، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ص ١١٠.

(٥٨) بن موسى، المرجع السابق، ص ١٩٢.

(٥٩) الحميري، المصدر السابق، ص ٣٨٢.

(٦٠) الوزان (الحسن)، **وصف إفريقيا**، ج٢، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣ م، ص ٨٨.

(٦١) الجنحاني، المرجع السابق، ٤٩.

(٦٢) الزهري، المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٦٣) الإصطخري (أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الفاسي)، **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال، دار القلم، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٤.

(٦٤) ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص ٢١.

(٦٥) المقدسي، المصد السابق، ص ٢٢٥.

(٦٦) الجنحاني، **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب**، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٦٨، ص ٥٧.

(٦٧) ارتبطت القيروان مع سجلماسة عبر المسلك الذي كانت تعبره القوافل المتنقلة بينهما، ويمتد بين المدينتين على مسيرة شهرين، ويبدأ من سجلماسة متجها نحو نفزاوة القريبة من القيروان، ثم قسطيلية (الحميري، المصدر السابق، ص ٨٨٢ – الإصطخري، ص٦٩).

(٦٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٥.

(٦٩) المقدسي (شمس الدين)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط ٢، مطبعة بريل، مدينة ليدن المحروسة، ١٩٠٩م، ص٢٢٥.

(٧٠) اليعقوبي، المصدر السابق، ص٩٤ – ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٤ – الحميري، المصدر السابق، ص٣٨٢.

(٧١) الحميري، المصدر السابق، ص٤٨٧.

(٧٢) سعد زغلول (عبد الحميد)، **تاريخ المغرب العربي**، ج٢، منشأة المعارف، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص٥٩٧.
(٧٣) الجنحاني، المرجع السابق، ص٥١.
(٧٤) روجي إدريس (الهادي)، **الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلى ق ١٢م**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م، ص ١٠.
(٧٥) نفسه، ص ٥٤.
(٧٦) الحميري، المصدر السابق، ص ٤٨٧. ابن خلدون، **العبر**، ج ٦، ص٢١. ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٩٧ -ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص ٣١٨.
(٧٧) شوقي (أبو خليل)، **فتح صقلية**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨ م، ص٧١.
(٧٨) الجنحاني، المرجع السابق، ص٦١. ابن حوقل، المصدر السابق، ص١١٧.
(٧٩) ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص٢١. ابن الأثير، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٤.
الباع: هو مقدار مد اليدين، وقيل هو طول ذراعي الإنسان وعضديه وصدره، وذلك قدر أربعة أذرع. ومقدار الباع عند الحنفية ١،٨٥٥ متر، وعند المالكية ٢،١٢م، وعند الشافعية ٢،٤٧٣م (علي جمعة، المرجع السابق، ص ٥٢).
(٨٠) البكري، المصدر السابق، ص٢٥.
(٨١) زيتون محمد، المرجع السابق، ص ٩٣.
(٨٢) الجنحاني، القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ص ٥٨.
(٨٣) حسن حسني عبد الوهاب، **بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق**، تقديم محمد العروسي المطوي، مكتبة القيروان الساحرة، تونس، ١٩٧٠، ص ١٧.
(٨٤) البكري، المصدر السابق، ص٢٤. مؤلف مجهول، الإستبصار، ص ١١٤. ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٧.
(٨٥) الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٨.
(٨٦) البكري، المصدر السابق، ص ٢٤.
(٨٧) **الذراع**: هو بسط اليد ومدّها، وأصله من الذراع وهو الساعد، وهو ما بين طرفي المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى، ومقدارالذراع عند الحنفية حوالي ٤٦ سم، وعند المالكية حوالي ٥٣ سم، وعند الشافعية والحنابلة حوالي ٦١ سم. (محمد عمارة، المرجع السابق، ص٢٣٢ – ٢٣٤. أحمد الشرباصي، المرجع السابق، ص١٧٩. علي جمعة، المرجع السابق، ص٥٠). وإذا أخذنا مقدار الذراع عند المالكية وهو ٥٣ سم وقمنا "بضربه في ١٢٠ ذراع طول المسجد، ١٢٠م × ٥٣ سم = ٦٣٦٠ سم، وبقسمتها على ١٠٠ = ٦٣٫٦ م، طول المسجد، و١٥٠ عرضه، ١٥٠ × ٥٣ = ٧٩٥٠ وبقسمتها على ١٠٠ = ٧٩،٥ م عرض المسجد.
(٨٨) البكري، المصدر السابق، ص٢٣ – ٢٤. **المثقال**: ما يوزن به، وهو من الثّقل. والناس يطلقونه في العرف على الدينار. وفي قوله تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) سورة الزلزلة، الآية: ٧ و٨. واختلف المثقال عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأقاليمها وأوطانها، لكنه في عرف أغلب بلادها أطلق على ما يكون وزنه قطعة ذهب مقدرة بعشرين قيراطا، أي مائة شعرة، والمثقال أيضًا زنة اثنتين وسبعين حبة شعير. الشرباصي (أحمد)، **المعجم الاقتصادي الإسلامي**، دار الجيل، ١٤٠١ ه/ ١٩٨١م، ١٤١٣ ه – ١٩٩٣ م، ص ٤٠٣-٤٠٤. محمد عمارة، المرجع السابق، ص ٥١٠ – ٥١١).
(٨٩) الحميري، المصدر السابق، ص٤٨٧.
(٩٠) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ١٩.
(٩١) نفسه، ص٢١.
(٩٢) البكري، المصدر السابق، ص٢٦.
(٩٣) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ١٦.
(٩٤) محمد زيتون، المرجع السابق، ص ٩٥.
(٩٥) نفسه، ص ٩٨.
(٩٦) لمبار، المرجع السابق، ص٢٠٨.
(٩٧) الحموي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٦. الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص٩٠.
رقادة: بلدة بإفريقية، بينها وبين القيروان أربعة أيام، وأكثرها بساتين، ولم يكن بإفريقية أطيب هواء وأرق تربة منها. بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وانتقل إليها من القصر القديم، ولم تزل دار ملك بني الأغلب إلى أن هرب منها زيادة الله من أبي عبيد الله الشيعي، وسكنها عبيد الله إلى أن انتقل منها إلى المهدية. (الحموي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٥ – الحميري، المصدر السابق، ص ٢٧١ – الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٠٨ – ١١١).
(٩٨) مؤلف مجهول، **الإستبصار**، ص ١١٦.
(٩٩) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.
(١٠٠) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢٢٥. ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٤.
(١٠١) **الدرهم**: فارسي معرب. لغة: اسم لمضروب مدور من الفضة. وشرعا عملة فضية، كان وزنها في عهد الرسول (ﷺ) سبعة أعشار مثقال – أي سبعون شعيرة – ولقد اختلفت مقادير الدرهم زمانا ومكانا، وتعددت إضافته إلى أماكن ضربه، أو متولي ضربه أو نقاء معدنه وقيمته. وعرف التاريخ الاقتصادي الإسلامي أنواعا كثيرة من الدراهم، منها الدرهم المؤمني نسبة إلى عبد المؤمن بن علي. كانت قيمته الفضية: نصف درهم، وهو الدرهم اليعقوبي، وهو عملة مغربية صغيرة. (محمد عمارة، المرجع السابق، ص ٢١٤ – ٢١٧).
(١٠٢) لمبار، المرجع السابق، ص ٢٠٩.
(١٠٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.
(١٠٤) نفسه.
(١٠٥) نفسه، ج١، ص ٥٠.
(١٠٦) البكري، المصدر السابق، ص٦٦.
(١٠٧) الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨.
(١٠٨) الجنحاني، المرجع السابق، ص ١٠٥.
(١٠٩) الإصطخري، المصدر السابق، ص ٣٤.
(١١٠) ارتبطت تيهرت بسجلماسة عبر طريق يبدأ من أوزكا، وهي مدينة بالمغرب، وهي على ثلاث مراحل من تيهرت، ويتجه نحو سجلماسة سبع مراحل، وحسب هذا التقدير فإن الطريق الرابط بين سجلماسة وتيهرت تقدر مسافته بعشر مراحل. وارتبطت كذلك تيهرت بسجلماسة من خلال الطريق الذي تخرج منه القوافل من تيهرت نحو فاس وصولاً إلى سجلماسة. (الحميري، المصدر السابق، ص ٤٢ – اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٤٩ – ١٥٠).
(١١١) الطريق الذي يربط سجلماسة بأودغشت مرورا بتاغازة، ومن مميزاته أنه يمر بسبخة الملح المشهورة بتاغازة، والتي

يتزود منها التجار بالملح الذي يستبدلونه بذهب السودان (شنايت العيفة، **دولة بني مدرار سجلماسة ودور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري** رسالة ماجستير، ١٩٩٠-١٩٩١، ص١٤٢).

(١١٢) بن موسى، المرجع السابق ن ص ١٩٦.

(113) Lewincki , Etudes maghrébines et soudanaises , p 13

(١١٤) بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ٦٦ –الحريري (محمد عيسى)، **الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)**، ٢ط، دار القلم للنشر والتوزيع، مصر، ١٤٠٣ه/ ١٩٨٧م، ص ١٩٢ – ١٩٣.

(١١٥) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٥٦.

(١١٦) نفسه، ص ٣٢.

(١١٧) نفسه، ص ٨٠.

(١١٨) مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ص ٧٥ – ٧٦.

(١١٩) الإدريسي، المصدر السابق، ١٩٨.

(١٢٠) البكري، المصدر السابق، ص ٦٣ -الإدريسي، المصدر السابق، ص ٨٩.

(١٢١) زغلول (عبد الحميد)، **تاريخ المغرب العربي**، ج٣، مكتبة نشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٣٧٤.

(١٢٢) البكري، المصدر السابق، ص ٦٧ – القزويني، **آثار البلاد**، ص١٦٩ – الحميري، المصدرالسابق، ص١٢٦- الحموي المصدر السابق، ج ٢، ص٨.

(١٢٣) الحريري، المرجع السابق، ص ٢٣٤.

(١٢٤) الشماخي (أحمد بن سعيد بن عبد الواحد)، **كتاب السير**، ج١، تحقيق أحمد بن سعود السيابي، سلطنة عمان، ١٤٠٧ه/ ١٩٨٧، ص ١٧٦ – ١٧٧.

(١٢٥) الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨.

(١٢٦) ابن الصغير، **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق وتعليق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م، ص٣٢، ٣٥.

(١٢٧) الباروني (سليمان باشا)، **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، مراجعة محمد علي الصلابي، ط ١، دار الحكمة، لندن، ٢٠٠٥، ص ١٤٣.

(١٢٨) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٣٣.

(١٢٩) الباروني، المصدر السابق، ص ١٤٣.

(١٣٠) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٥٦ - الحريري، المرجع السابق، ص ٩٩.

(١٣١) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٣٤.

(١٣٢) نفسه، ص ٥٦.

(١٣٣) نفسه، ص ١٤٩.

(١٣٤) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٦٢.

(١٣٥) نفسه، ص ٥٦.

(١٣٦) هناك صعوبات كبيرة تعترض المؤرخ الديمغرافي في استغلال المصادر التاريخية حيث يشير عبد الحميد حدوش إلى أن الدراسات التاريخية تمنح الأولوية للحدث السياسي على حساب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وبالأخص منها المواضيع الديمغرافية، بالإضافة إلى صعوبة التكميم بالنظر إلى قلة المعطيات الرقمية في المصادر على اختلاف أنواعها، كما أن المادة التاريخية المستخلصة تتميز بالتقطع الزماني والمكاني (عبد الحميد حدوش، **معوقات الانتقال الديمغرافي في العالم العربي خلال القرن ١٨: المغرب نموذجًا**، ورقة مقدمة في المؤتمر العالمي للسكان، مراكش، ٢٠٠٩).

(١٣٧) الطويل (محمد حجاج)، **المسألة الديمغرافية: نحو منهجية ديمغرافية، محاولات إحصائية، العصر الوسيط نموذجًا**، مجلة كنانيش، العدد ١، منشورات كلية الآداب، وجدة، المغرب، ١٩٩٩، ص ١٩.

(138) Noel biraden (Jean), essai sur l'évolution du nombre des hommes. in population 34 eme année , n 1 , 1979 , p 13

(١٣٩) نقص الوثائق التاريخية التي تتضمن إحصائيات عن عدد السكان في بلاد المغرب الإسلامي رغم تنوع مصادر المادة المعرفية التي يمكن الرجوع إليها من قبل الباحث في التاريخ الديمغرافي للمغرب الوسيط. وتتمثل في كتب الأنساب، الطبقات، التراجم، الوفيات، كتب النوازل الفقهية، سجلات الخراج والضرائب...إلخ (محمد حالي، **الديمغرافية التاريخية للمغرب الوسيط من خلال تاريخ ابن خلدون**، أكاديمية الجهة الشرقية، المغرب، ص ٥٨)

(١٤٠) يرجع تاريخ الإحصائيات الأولية للسكان فيها إلى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد ولهذا فمن الصعوبة بمكان التعرف على الديمغرافية للمنطقة خلال القرون الوسطى انطلاقًا من مصادر حديثة. وقبل ظهور الإحصائيات السكانية المعاصرة شهدت معظم الحضارات عمليات التعداد السكاني، وأولى العمليات التعدادية تعود إلى الحضارة السومرية خلال الألفين ٤ و٣ قبل الميلاد. وفي بداية الدولة الإسلامية يمكن اعتبار نشأة الدواوين منذ فجر الإسلام إرهاصات مبكرة لظهور التعدادات. وعندما عزم عمر بن الخطاب على فرض العطاء لمستحقيه أمر بإحصاء الناس لكي يتم توزيع الأموال الفائضة في بيت المال فبدأ بقرابة الرسول (ﷺ) ثم الأقرب فالأقرب. وقد تم التطرق إلى هذه النقطة في فصل سابق. (أحمد مصطفى أبو ضيف، **دراسات في تاريخ الدولة العربية**، ط ١، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٤٨، ص ٤٢٢ – ٤٢٣).

(141) Tabutin (Dominique), vilquin (Eric), Noel Biraben, l'histoire de la population de l'afrique du nord ,université catholique de Louvain, Belgique, INED, Paris, France, p 15.

(١٤٢) تعددت المصادر الأساسية للديمغرافيا التاريخية في العالم الإسلامي حيث أن كل المصادر التقليدية، بما فيها كتب الأنساب والطبقات والتراجم والوفيات، وكتب السيرة والمغازي والتاريخ العام وكتب الحديث وأدب الرحلات، وكتب النوازل الفقهية وسجلات الخراج والضرائب، ومختلف العقود ذات الصلة بالمواريث والبيوع والأحوال الشخصية، توفر للباحث في هذا الحقل المعرفي الجديد صنوفا من المعارف السكانية التي تتصل بشكل أو بآخر بالأحداث السكانية المختلفة كالزيجات والولادات والخصوبة والوفيات والهجرات السكانية – محمد حالي، **تطور الديمغرافية التاريخية في سياق التاريخ الجديد**، مجلة كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، متخصصة في الدراسات التاريخية، شعبان ١٤٣٥ ه /٢٠١٤ م، العدد٢٤، ص ٥٨).

(١٤٣) نشأ علم الديمغرافية التاريخية كعلم حديث فيفرنسا في خمسينات القرن العشرين على يد لوي هنري، وهو علم يحاول فهم التاريخ من خلال معرفة عميقة بالسكان من حيث

العدد، والقوة الناشطة والعاطلة، والمستهلكين، وغيرها من الأمور المرتبطة بالسكان (مصطفى نشاط ومحمد إستيتو نور الدين المودان، **الديمغرافيا في تاريخ المغرب**، مجلة كنانيش، متخصصة في الديمغرافيا التاريخية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المملكة المغربية، العدد الأول، ١٩٩٩، ص ١٤). وتتقاطع الديمغرافية التاريخية مع الديمغرافية من حيث الموضوع والمنهج، فهي تنقل المنهج الديمغرافي وتحاول تطبيقه في دراسة التاريخ الديمغرافي لساكنة معينة في تاريخ معين، وموضوعها هو موضوع الديمغرافية (أي السكان ومايرتبط بهم من الظواهر)، إلا أن الاختلاف الأساسي بين التخصصين هو كون الديمغرافية التاريخية تدرس الخصائص الديمغرافية للسكان وترصد تغيراتها في الزمن الماضي. ومن هنا تختلف مصادرها وتقنياتها ومناهجها بالضرورة عن مثيلاتها في الدراسة الديمغرافية الآنية، مع حضور مناهج التقدير الكمي في كل منهما (القاسمي فخر الدين، **الديمغرافية التاريخية**، دراسة حالة المغرب الوطاسي، الجوار المتمدن، العدد ٥٥٩٦، ٢٠١٧).

(١٤٤) لم يهتم المسلمون مشرقًا ومغربًا بضبط تواريخ الأحداث السكانية إذ لم يكن الوعي بتدوين المعطيات السكانية لذاتها أو لأغراض إحصائية حاضرًا لديهم، وإنما كان يتم تسجيل ما يتعلق بالولادات و الوفيات والأنساب عند الحاجة في مجالات اجتماعية وعلمية غير ميدان السكان، كدراسة عدالة الرواة، ومعرفة وفيات العلماء، وتنظيم أنساب القبائل، وضبط التنظيم الإداري والمالي للدولة الإسلامية بوضع سجلات الدواوين كديوان الجند والخراج. فكثيرًا ما نقرأ في الأخبار أن فلانا ولد عام كذا وكذا، فكانوا يؤرخون بعض الأحداث السكانية بالوقائع الكبرى والحوادث التي تحفظها ذاكرتهم الجماعية، وفي معظم الحالات بعد مرور الوقت على الظواهر والأحداث السكانية المعنية. (مختار محمد، **المعسول**، ج١٤، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٦١ – ١٩٦٢، ص ١٠٩).

(١٤٥) على عكس علم الديمغرافية الذي يعتمد على مصدرين هامين هما الإحصاءات السكانية وسجلات الحالة المدنية فإن الديمغرافيا التاريخية لا تتوفر إلا استثناء على مصادر إحصائية موثوقة ودقيقة، لهذا من الضروري أن يلجأ الباحث في تاريخ الديمغرافيا إلى مصادر خارجية لم تكتب أساسًا لأغراض علمية كسجلات الكنائس في أوربا، والزيجات والدفن، وعقود الزواج، وسجلات الضرائب. وهذه الوثائق تجبر المؤرخ على التعامل معها بحذر شديد لعدة أسباب، أهمها عدم دقة البيانات المسجلة، وحتى يتفادى المؤرخ النقائص والثغرات يلجأ إلى تعدد الوثائق من مصادر أخرى.

(١٤٦) بوتشيش (إبراهيم القادري)، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص ٥٤. هناك إشارات عددية لكنها قليلة نجدها متناثرة بين طيات المصادر مثلما أورده البكري عن عدد سكان الغدير بالمغرب الأوسط الذي يقدرهم بستين ألف، وكان مجمع الواصلية قرب تاهر ت عددهم نحو ثلاثين ألف (البكري، المصدر السابق، ص ٦٠، ٦٧).

(١٤٧) حالي (محمد)، **الديمغرافية التاريخية للمغرب الوسيط من خلال تاريخ ابن خلدون**، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ٢٠١٣ م، ص ٧٦.

(١٤٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٧.

(١٤٩) الإدريسي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٤.

(١٥٠) بوتشيش، **أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب الوسيط** (دراسة حالة)، الديمغرافيا في تاريخ، مجلة كنانيش، ١٩٩٩م، العدد الأول، ص ٤٥.

(١٥١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٣٠١.

(١٥٢) محمد حالي، المرجع السابق، ص ٧٤.

يستفيد الباحث في الديمغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط من التنظيمات التي أوردها ابن خلدون في علاقته بموضوع العمران البشري وتطوره. ومن جملتها المقارنة التي يجريها بين العمر الطبيعي للدولة وعمر الأشخاص. ويشير في هذا الصدد أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، وأن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال. (محمد حالي، المرجع السابق، ص ٧٢ – ابن خلدون، **المقدمة**، ص ١٧٠).

(١٥٣) بوتشيش، المرجع السابق، ص ٥٤.

(١٥٤) ابن خلدون، **المقدمة**، ص٢٧٩.

(١٥٥) محمد حالي، المرجع السابق، ص ٧٤.

(١٥٦) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ١٧٤.

(١٥٧) نفسه، ص ٣٤٣.

(١٥٨) سبق أن ذكرنا أن تاريخ بلاد المغرب خلال العصر الوسيط هو تاريخ مدن بالدرجة الأولى بحكم أن المصادر لأساسية وخاصةً كتب الرحالة والجغرافيين ركزت اهتمامها على الأوضاع السائدة داخل هذه المدن، وعلاقتها بالمناطق المحيطة بها من قرى وأرياف.

(١٥٩) **كتامة**: قبيلة من قبائل البربر البرانس أهل المدر المستقرين. مواطنهم أرياف قسنطينة وشرق المغرب الأوسط من جبال أوراس جنوبًا إلى البحر ما بين بونة وبجاية. تشيع أهلها وساعدوا عبيد الله المهدي في تأسيس الدولة الفاطمية، وساهموا في توسعاتها، وأصبحوا عصب دولتها. (ابن خلدون، **ديوان العبر**، ج ٦، ص ١٩٢ – ١٩٦).

(١٦٠) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٩٩.

(١٦١) جعيط (هشام)، **تأسيس الغرب الإسلامي**، القرن الأول والثاني الهجري/ السابع والثامن الميلادي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٤، ط ٢، ٢٠٠٨، بيروت، لبنان، ص ١٥٢ – ١٥٣.

(١٦٢) يقول ابن خلدون أن: «طور الدولة من أولها بداوة، ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه، واتساع الأحوال، والحضارة إنما هي تفنن في الترف، وإحكام الصنائع المستعملة، ووجوهه ومذاهبه من المطابخ، والملابس، والمباني، والفرش، والأبنية، وسائر عوائد المنزل، وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه، تختص به، ويتلو بعضها بعضا وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ، والتنعم بأحوال الترف، وما تتلون به من العوائد، فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك». (ابن خلدون، **المقدمة**، ص١٧٢).

(١٦٣) موسى لقبال، **تاريخ المغرب الإسلامي**، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ. ص٣٣ – الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.

(١٦٤) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٣١.

(١٦٥) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ١٧٢.

(166) Lombard (Maurice), l'évolution urbaine pendant le haut moyen age , article dans annales économies , sociétés , civilisations , 12 eme année , n 1 , 1957 , p 20 – 28.

(١٦٧) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص ٤٣٣.

(١٦٨) نفسه.

(١٦٩) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ١٧٢.

(١٧٠) محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، ج١، جامعة تونس الأولى، ١٩٩٩م، ص٩٤.

(١٧١) وردت مؤشرات كثيرة في المصادر التاريخية خاصة كتب الرحالة والجغرافيين يمكن اعتبارها كمعايير لتكوين تصورًا نظرة ولو بسيطة عن حجم وعدد السكان في المغرب الإسلامي. ويمكن تصنيفها إلى: ١-مؤشرات معمارية وعمرانية: مثل عدد القبائل، والمدن، والقرى، وباقي التجمعات السكانية كالقلاع والحصون، المداشر. أيضًا مساحة المدن وطول أسوارها وعدد أبوابها، وتعدد مرافقها العمومية مثل المساجد والحمامات والفنادق والأسواق، وتعدد أزقتها ودروبها، وأحيائها. ومن بين المؤشرات المعمارية أيضًا تعدد مصادر المياه، وتنوع وسائل تزويد السكان بالمياه. كذلك الأراضي الفلاحية من حيث أنواعها ومساحتها، وطرق استغلالها. ونسبة استهلاك المواد الغذائية مثل الحبوب واللحوم والزيوت وغيرها. ٢ – مؤشرات إحصائية مثل الضرائب والجبايات بجميع انواعها، ومقدارها، وعدد الناس المفروضة عليهم.٣- مؤشرات تقديرية وكمية، وتميزت غالبًا بطابع التعميم مثل ما أرده بن خلدون عن القبائل البربرية التي يقول عنها أن المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم.. (حجاج الطويل، المرجع السابق، ص٢٠ – ٢٢).

(١٧٢) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٤٩.

(١٧٣) كان قيام القيروان وبناؤها على يد عقبة بن نافع حدثا له أهمية بالغة في تاريخ إفريقية الإسلامية لأنها نواة لولاية جديدة هي ولاية المغرب. وقد أراد عقبة أن تكون القيروان معسكرًا للجند، ومأوى لذويهم، ومستودعًا لذخائرهم، وقاعدة انطلاق لاستكمال فتح المنطقة، ونشر الإسلام بين سكانها، ومقر ولاة المسلمين، ومنارة للثقافة والعلم. (موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص٣٣).

(١٧٤) ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١.

(١٧٥) هشام جعيط، المرجع السابق، ١٦١.

(١٧٦) محمد زيتون، **القيروان ودوها الحضاري**، ص ١٨٦.

(١٧٧) أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي)، طبقات علماء إفريقية، ج ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص ٥٦ – المالكي رياض النفوس، ج ١ ـ ص ٧، ٨ – الدباغ، معالم الإيمان، ج ١، ص١٦٠.

(١٧٨) زيتون محمد، المرجع السابق، ص ١٩٦.

ومن أشهر الأفارقة الذين يمّموا جهة المشرق لتعلم أمور دينهم ثم عادوا لنشرها بين سكان المغرب، عبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري، وعبد الله بن فروخ الفارسي، والبهلول بن راشد، وعبد الله بن عمر بن غانم، وأسد بن الفرات، وأبو سعيد سحنون واضع كتاب المدونة. (انظر المالكي، **طبقات علماء إفريقية**، ج١، ص ١٥٢، ١٧٦، ٢٠٠، ٢١٥، ٢٥٤ – الدباغ، **معالم الإيمان**، ج١، ص٢٣٠، ٢٦٤، ٢٨٨، ج٢، ص٣، ٧٧. القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، ج٢، ضبطه وصححه سالم سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٤ ه/ ١٩٩٣م، ج ٤، ص ٤٥).

(١٧٩) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ٥٦.

(١٨٠) لقبال، المرجع السابق، ص ٣٤.

(١٨١) نفسه، ص ٦٩.

(١٨٢) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٩١.

(١٨٣) الدباغ، معالم الإيمان، ج ١، ص ٦٣.

(١٨٤) بن موسى، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(١٨٥) البكري، المصدر السابق، ص ٢٣.

(١٨٦) المالكي، المصدر السابق، ج ١، ص ٩٩ – ١١٧، الدباغ، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٦٤، ٢٨٨، ج ٢، ص ٣، ٧٧.

(١٨٧) حسن حسني عبد الوهاب، **بساط العقيق**، ص ٥٥.

(١٨٨) انظر **طبقات علماء إفريقية لأبي العرب**، ص ٨٤ – رياض النفوس للمالكي، ج ١، ص ٦٥ – معالم الإيمان للدباغ، ج١، ص ١٨٧.

(١٨٩) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٨٧.

(١٩٠) محمد حسن، المرجع السابق، ج ١، ص ٢١١.

(١٩١) البكري، المصدر السابق، ص ٢٥.

(١٩٢) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٥٣.

(١٩٣) الوضم هو كل شيء يوضع عليه اللحم ليقيه من الأرض، كالخشبة وغيرها (محمد عمارة، **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، ص ٦٢٥).

(١٩٤) المقدسي، المصدر السابق، ص ١١٠.

(١٩٥) البكري، المصدر السابق، ص ٢٦.

(١٩٦) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.

(١٩٧) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٩٣.

(١٩٨) أبو زمعة البلوي، من أصحاب الرسول (ﷺ)، ممن بايعه تحت الشجرة، دخل إفريقية وأقام بها واستشهد قرب القيروان سنة ٣٤ه/ ٦٥٤م. (المالكي، المصدر السابق، ج ١، ص ٨٤ – الدباغ، رياض النفوس، ج ١، ص ٩٧.

(١٩٩) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢٠٠) الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٧.

(٢٠١) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١١٠.

(٢٠٢) لمبار، المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(٢٠٣) الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٧.

(٢٠٤) **صبرة المنصورية**: مدينة قرب القيروان بناها إسماعيل العبيدي سنة (٣٣٧ه/٩٤٩م). كانت مداخيلها كبيرة، وهي منزل الولاة إلى حين خرابها. ونقلت أسواق القيروان وكل صناعاتها (البكري، المصدر السابق، ص١٧، الحميري، المصدر السابق، ص٣٥٥).

(٢٠٥) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٢٠٦) محمد حسن، المرجع السابق، ص ٢١١.

(٢٠٧) لمبار، المرجع السابق، ص ٢٠٨ – ٢٠٩.

(٢٠٨) حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢٠٩) البكري، المصدر السابق، ص٧٢.

(٢١٠) **تهوذا**: من بلاد الزاب بالقرب من بسكرة، وهي مدينة قديمة بنيانها بالحجر الجليل، وعليها سور، ولها نهر كبير ينصب من جبل أوراس، وكثيرة البساتين والنخيل والزرع وجميع الثمار. وهي المدينة التي استشهد بها عقبة بن نافع (الحميري،

المصدر السابق، ص ١٤٢ – ١٤٣، الحموي – البكري، المصدر السابق، ص ٧٢ – ٧٤).

(٢١١) نفطة: من بلاد الجريد، بينها وبين توزر ٢٠ ميلاً، هي مدينة كبيرة، قديمة، كانت لها غابة كثيرة النخيل والبساتين وجميع الفواكه، وهي كثيرة الخصب. (البكري، المصدر السابق، ص ٣٨ – مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ١٥٦- ١٥٨– الحميري، المصدر السابق، ص ٥٧٨).

(٢١٢) البكري، المصدر السابق، ص ٤٦ – ٤٨.

(٢١٣) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٧٢.

(٢١٤) الجنحاني، المرجع السابق، ص١١١.

(215) Lewicki, Etudes maghrébines et soudanaises, Académie polonaise de science – comité des études orientales, Varsovie, 1976, p 12.

(٢١٦) البكري، المصدر السابق، ص ٧٤.

(٢١٧) لمبار، المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٢١٨) ابن الصغير، المصدر السابق، ص٣١.

(٢١٩) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٢٢٠) البكري، المصدر السابق، ص٧٤.

(٢٢١) ابن الصغير، المصدر السابق، ص٣٦.

(٢٢٢) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٨٦.

(٢٢٣) الحريري، المرجع السابق، ص١٤٩.

(٢٢٤) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢٢٨.

(٢٢٥) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٥٣.

(٢٢٦) نفسه.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

العنف (العقاب) والسلطة في عصر الدولة الرسولية (٦٢٦–٨٥٨هـ / ١٢٢٩ – ١٤٥٤م)



د. علي عبد الكريم محمد بركات

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المشارك

نائب عميد كلية الآداب للدراسات العليا والبحث العلمي

جامعة إب – الجمهورية اليمنية

مُلَخّص

يتناول هذا البحث العنف (العقاب) في عصر الدولة الرسولية في اليمن (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م) كأداة قوية وفاعلة من أدوات سلاطين الدولة الرسولية في تثبيت حاكميتهم؛ وكبح جماح تمردات الخارجين عليهم وقهر خصومهم ومناوئيهم وردع المفسدين ومرتكبي الجرائم، وذلك بدءًا من تناول التنوع في أنواع تلك العقوبات، من حيث الصورة والحدة والتوقيت والأداة، ومرورًا بتلك الأشكال العقابية كالمصادرات المالية لعينات من مختلف الشرائح السياسية والمجتمعية، وما رافقت تلك المصادرات من محاسبات مالية وإدارية ومحاققات سلطانية، ومرورًا بالعنف (العقاب) الجسدي الذي بدوره تعددت صوره بين الحبس والسجون الخاصة والعامة، فضلاً عن الكحل والتسمير والتوسيط والأسر والعصر والتخدير والضرب، ناهيك عن النهب والهدم والحصار والحرق والتخويف والمكائد. كما لم يغفل البحث الدور الفاعل والمؤثر لتلك الأشكال العقابية في تثبيت حاكمية السلاطين؛ وفرض هيبة الدولة، وساد شعور قوي لدى العامة والخاصة بوجود تلك الهيبة. كما عالج البحث أنماطًا أخرى للعنف (العقاب) السياسي والإداري (كالنفي والإبعاد) ونتائجها وانعكاساتها على واقع ذلك العصر. وتطرق البحث إلى صور أخرى من العقاب كمسألة أخذ الرهائن من قبل السلاطين، وذلك من خصومهم ومن شيوخ القبائل الخارجة على حاكميتهم، كما تناول البحث مسألة العزل والإعفاء من المناصب كأحد الصور العقابية للعنف السياسي والإداري. وقد ظفر البحث بجملة من النتائج، أوردناها في الخاتمة وفي سياقات البحث، كما اعتمدت الدراسة على العديد من المصادر منها ما هو معاصر للرسوليين، ومنها ما هو محدث، والتي عززت فرضيات البحث، والذي نأمل أن يكون قد حقق بعضًا من أهدافه التي وضع من أجلها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٨	نوفمبر	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٩	نوفمبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

المصادرات؛ السجون؛ سلاطين بني رسول؛ العقوبات؛ الجرائم

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.258107

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

علي عبد الكريم محمد بركات. "العنف (العقاب) والسلطة في عصر الدولة الرسولية (٦٢٦– ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩ – ١٤٥٤م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٣٢ – ٤١.

Corresponding author: alibarakat2013[email]gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

اتسمت الدولة الرسولية (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م) بنهوض حضاري ومعرفي غير مسبوق في تاريخ اليمن، وباستقرار سياسي نسبي، انتهج فيه سلاطين الدولة الرسولية وسائل متعددة لتثبيت حاكميتهم، ومنها العنف (العقاب) الذي شكّل أداة قوية من أدوات السلطة الرسولية في فرض ذلك الاستقرار وكبح جماح التمردات والخروج عليهم، وتنبثق أهمية هذا البحث كونه يسعى إلى ملامسة المحددات التي دفعت أولئك السلاطين إلى انتهاج منهج العنف (العقاب) طيلة حاكميتهم، وكيف ساهمت تلك العقوبات على الوجهين السلبي والإيجابي في ردع المفسدين ومرتكبي الجرائم في مناطق نفوذهم، ومن ثَمَّ قراءة مفصلة ذات طابع تحليلي لذلك العنف (العقاب) ومخرجاته وتبايناته بحسب نهج كل سلطان وطبيعة وظرفية عهده. والذي حملني على اختيار الموضوع، أن الجهود البحثية التي درست الدولة الرسولية وسلاطنتها لم تعرج على تلك الأشكال العقابية إلا بالإشارات اليسيرة من باب إسقاط الواجب، وكذلك الحاجة إلى دراسة الدور الفاعل لتلك الأنماط العقابية في فرض هيبة الدولة واستتباب الأمن وبالتالي الازدهار الاقتصادي.

وقد قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، تناول المبحث الأول العنف (العقاب) الاقتصادي ودوره في تغذية مالية السلاطين وقمع الخارجين والمحاسبات المالية والإدارية، بينما انشغل المبحث الثاني بالعنف (العقاب) الجسدي من السجون والكحل والشنق والتسمير والتوسيط والأسر والعصر والتخدير والضرب والنهب والهدم وغيرها، وجاء المبحث الأخير ليعالج مسألة العنف (العقاب) الإداري والسياسي كالإعفاء من المناصب والعزل وأخذ الرهائن وغيرها، والذي نأمله أن يكون هذا البحث قد سد مسدًا في دراسة تفاصيل الحياة العامة وترتيباتها لأولئك السلاطين.

تُعَدّ "دولة بني رسول من أعظم الدول اليمنية التي حكمت بعد الإسلام (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م)، وقد اكتسبت شهرتها من الفترة الطويلة التي حكمت فيها والاستقرار النسبي الذي عاشته اليمن في ظلها"[١]، إلا أن هذا الاستقرار لم يكن مطلقًا بل كان نسبيًا، إذ تعرضت الدولة الرسولية إلى العديد من الثورات والتمردات والمؤامرات[٢]، الأمر الذي دفع سلاطين الدولة الرسولية إلى "شدة ضبطهم لبلادهم ومن فيها"[٣]، واللجوء إلى وسائل عنف عقابية بحق المناوئين والخارجين وتثبيت حاكمية أولئك السلاطين، بحيث شملت كل تلك العقوبات عينات من مختلف الشرائح والطبقات المجتمعية والسياسية في عصرهم، وسوف يتم في هذا البحث تناول أشكال متعددة لذلك العنف (العقاب) على النحو الآتي:

أولاً: العقاب الاقتصادي

فقد انتهج سلاطين الدولة الرسولية العقاب الاقتصادي، لاسيما أن سلاطين الدولة الرسولية كانوا على اعتقاد أن "اقتصاد القبيلة هو الجانب الحساس الذي يعيدها مذلولة مكسورة في باب السلطان"[٤]، وقد تعددت صوره كما يلي:

١/١-المصادرات

ويقصد بها "انتزاع أموال بعض الأفراد بالقوة أو استصفائها"[٥]، بناءً على عقوبات يفرضها السلطان الرسولي بشكل مباشر دون العودة إلى قضاء أو فتوى شرعية[٦]. وقد اشتملت تلك المصادرات على أنواع الممتلكات كافة للمُصادر من الثابت والمنقول، وبالتالي كانت "المصادرات من الموارد الاقتصادية للدولة الرسولية كأحد أنواع العقوبات التي يفرضها الحكام على أعيان الدولة"[٧].

ومن الشواهد على تلك المصادرات التي اتسمت بها غالبية فترة حكم السلاطين الرسوليين ما حدث في سنة (٦٧٠هـ/١٢٧١م) في صدر الدولة المظفرية للرشيد شاد الدواوين من مصادرة عنيفة وكان يصحب الرشيد الفقيه يحيى بن سالم الشهابي "فلما توفي الرشيد نقل إلى السلطان أن مع هذا الفقيه مال الرشيد فطولب باثني عشر ألف دينار وصودر"[٨]، وكذلك يورد بامخرمة (ت٩٤٧هـ/١٥٤٠م) في عهد المظفر ما تعرض له متولي ديوان النظر بثغر عدن محمد بن عبدالله الجزري ت(بعد ٦٦٠هـ/١٢٦١م) بقوله: "...فصودر وضرب فسلم ٣٠ ألف دينار"[٩]، وحصلت مصادرات في عهد السلطان المؤيد، من شواهدها مصادرته للقاضي جمال الدين بن محمد بسبب منازعات للقاضي المذكور مع بعض الأمراء "وحقق للسلطان ما كان من القاضي جمال الدين فغضب السلطان على القاضي جمال الدين وسلمه إلى القاضي صفي الدين ليستخلص منه مالاً كثيرًا فوقع عليه أمورًا أعاذنا الله من ذكرها"[١٠]. وتتابعت المصادرات في عهده ومنها ما حصل للفقيه أبو الخطاب عمر بن العلوي الحنفي (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م)، فقد "امتحن الفقيه عمر المذكور في آخر عمره بخدمة الملوك فصادره السلطان الملك المؤيد مصادرة شاقة توفي عَقِبها"[١١].

ولعله من "أشهر المصادرات زمن المؤيد الرسولي مصادرته للوزراء العمرانيين الوزير حسام الدين اخوته حيث أمر بالقبض عليهم وختم على بيوتهم وأمر بالقبض على أملاكهم لبيت

المال"[١٢]. وفي تقديري أن ما تعرض له الوزير العمراني وإخوانه من نكبة بعد أن كانوا أصحاب منزلة كبيرة وعالية عند المؤيد حتى أن السلطان أسكنهم "سهفنة على الإعزاز والإكرام ولم يغير عليهم حال من الأحوال"[١٣]، إنما كان مرده في الأساس إلى الوشايات والخصومات السياسية وهو ما أشار إليه مؤرخ الدولة الرسولية الخزرجي عن الوشاية التي وصلت إلى السلطان المؤيد عندما أبلغ الناصر ابن أخي السلطان المؤيد عمه السلطان أن الوزير المذكور أعطى أحد عبيده قارورة من السم، و"أمر عبده أن يتلطف إلى من يتصل بالملك المؤيد، ويسقيه منها؛ وإن غرض القاضي [الوزير] هلاك بني رسول قاطبة فلما اتصل العلم إلى السلطان بهذا فغضب غضبًا شديدًا، وطلبهم بحسبة أموال الأيتام وغلل الموقوفات في مدة نظرهم"[١٤].

ومما يعزز الدور الذي لعبته الوشايات في صناعة المصادرات ما حدث للفقيه محمد بن عمر الساعي (ت ٧٠٢هـ/١٣٠٢م) في عهد السلطان المؤيد عندما "وشى بعض الوشاة إلى الملك الأشرف أحد أبناء السلطان المؤيد بصهر الفقيه وذكر أن تحت يده مالاً للأمير عباس؛ فلزم الأشرف وأراد مصادرته"[١٥]. وتتابعت وتيرة تلك المصادرات في عهد السلطان المجاهد، ومن ذلك "مصادرته للقاضي جمال الدين بن مؤمن سفيره إلى الديار المصرية في عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م على أموال كثيرة"[١٦]. ويرجع ابن الديبع أسباب مصادرة ابن مؤمن إلى حسده لمكانة القاضي موفق الدين عبد الله بن محمد اليحوي، ويقول: "كان يحسده لكماله ويغري به السلطان وصودر مرارًا على يده"[١٧]، فواطأ القاضي موفق الدين "جماعة من خواص السلطان فأكثروا ذكر ابن مؤمن وأفعاله القبيحة وأسود ما بينه وبين السلطان وتحقق خيانته وعزم على الفتك به فطلبه إلى ثعبات فلما دخل قبض ورسم عليه ترسيمًا عنيفًا"[١٨].

وفي ذات السياق صادر المجاهد محمد بن سعد المعروف بأبي شكيل سنة (٧٢٩هـ/١٣٢٩م) والذي ضيق عليه المجاهد وطالبه بدفع عشرة آلاف دينار[١٩]. وفي عهد المجاهد كذلك وتحديدًا في سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٩م تمت مصادرة والي ذمار الأمير ابن الحجازي وقد وصف الخزرجي تلك المصادرة بقوله: "فاغتاظ عليه السلطان وغضب غضبًا عظيمًا وصادره مائة ألف دينار وقبض دوابه مع أربعين رأسًا من جياد الخيل المشهورة وستين جملاً"[٢٠]. ومما يلفت النظر في هذه المصادرة أنها لم تقتصر على المال فقط، بل شملت الدواب والخيول، ناهيك عن كون المصادرات تجاوزت الأفراد إلى جماعات في عهد المجاهد، كما حدث لمشايخ بني زياد إحدى الأسر المعروفة آنذاك في سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، حيث أمر السلطان بالقبض عليهم وصادر أملاكهم حتى هلك معظمهم جراء تجريدهم من أموالهم[٢١].

ومما يلاحظ على تلك المصادرات أنه لم يقم بها السلاطين فحسب، بل قد تتخذ قرارات المصادرة من ولاة الولايات أنفسهم، فهذا والي زبيد شهاب الدين أحمد بن سمير المنصب من قبل السلطان الأفضل بسط "يده في البلاد وصادر الناس مصادرات عنيفة لا أصل لها"[٢٢]، رغم أن الأفضل خلال حكمه كان "من خيرة ملوك الدولة الرسولية فأقام العدل في مملكته وأزال الظلم"[٢٣].

ولعل الاستياء الضمني الوارد في نص الخزرجي سالف الذكر، وهو المؤرخ الرسمي والأشهر للدولة الرسولية[٢٤]، يشي بذلك الاستياء ووجه لتلك المصادرة نقدًا لاذعًا على وجهين، الأول كونها مصادرات عنيفة، والوجه الثاني أنه لا أصل لها، ولعله يقصد بذلك أنه لا أصل لها في مرجعيات الدولة الرسولية القانونية وفي المرجعيات القضائية والفقهية. وإذا ما تجاوزنا عهد الأفضل إلى عهد السلطان الأشرف إسماعيل الثاني، فعلى الرغم من كل ذلك الازدهار العلمي والمعرفي والحضاري الذي شهدته اليمن في عصره[٢٥]، إلا أن وتيرة المصادرات استمرت ولو بشكل أقل من سابقيه من السلاطين، ففي "سنة ثلاث وثمانين [وسبعمائة/١٣٨١م] استمر القاضي موفق الدين علي بن محمد بن سالم مشدًا في الأعمال التهامية فأقام بها بضعًا وعشرين يومًا يؤدب أهلها ويعذبهم فبلغ السلطان عمله ففصله وأضافه إلى أهيف[٢٦] فصادره مصادرة شديدة هلك فيها"[٢٧].

وفي تقديري أن الأشرف إسماعيل كان أكثر منطقية في مصادراته، إذ لم تأت مصادرته للقاضي موفق الدين سالف الذكر إلا بعد أن عذب أهل تهامة وسلك فيهم مسلكًا ساء الرعية والسلطان معًا، وعلى ذات السياق المنطقي المستند إلى مبررات واقعية تمت العديد من المصادرات في عهد الأشرف إسماعيل وأغلبها مبررات تتعلق بالتقصير الإداري والإساءة للرعية، ومن ذلك النوع من المصادرات مصادرته للأمير شمس الدين علي بن حسن شاد الدواوين سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م)، ويبرر الخزرجي تلك المصادرة فيقول: "كسب أموالاً كثيرة من وجوه مختلفة وساءت أخلاقه وكان شرسًا فظًا وتارة لينًا سهلاً، إلا أنه يحط مقدار ذوي الأقدار وينتهك حرمتهم... فلما تحقق السلطان أمره صرفه عن التصرف وطالبه بما احتجن من الأموال فسلم بعضًا وبعضًا وساق نقدًا وعرضًا"[٢٨].

وبتتبع مسار تلك المصادرات التي رافقت سلاطين الدولة الرسولية في حاكميتهم لليمن، يجد أنها استمرت حتى أخريات أيام الدولة الرسولية، ففي عهد الملك المنصور عبدالله بن أحمد "صادر القاضي أبا بكر محمد بن إسحاق مصادرة شاقة وصادر أخته وزوجة أبيه الناصر وأخذ منهما مالاً كثيرًا"[٢٩]، وكذلك في عهد الظاهر يحي بن إسماعيل الأشرف الرسولي صادر القاضي شرف الدين العلوي - وزير الأشرف - "مصادرة شاقة وانتزع منه نحو مائة ألف دينار كما هاجم بيوت بني العلوي جميعًا وصادر أموالهم وأوقاف مساجدهم ووصل تنكيله إلى حد أنه أمر بهدم منازلهم واستصفاء جميع أموالهم"[٣٠].

ويمكن أن نخلص مما سبق إلى القول: أن المصادرات كانت تأتي في مقدمة منهج العقاب الذي سلكه سلاطين الدولة الرسولية إزاء خصومهم والخارجين عن طاعتهم، وأن تلك المصادرات كانت سمة بارزة لمختلف عهود السلاطين المتتابعة مع اختلاف صور تلك المصادرات وحجمها وحدتها ووسائلها ومبرراتها، ولعله مما ينبغي الإشارة إليه كذلك أن تلك المصادرات وإن كانت من متطلبات تثبيت سلطة سلاطين الدولة الرسولية إلا أنها بالمقابل أضرت بالكثير ممن شملتهم تلك المصادرات بل وهلك الكثير تحت وطأتها[٣١]، لاسيما وأن بعض تلك المصادرات قد تتم لمجرد الوشاية فحسب، على الرغم من وجود مبررات منطقية لبعض تلك المصادرات إلا أن "كثيرًا من هؤلاء المصادرين كانت تخترمهم المنية أثناء المصادرة بسبب ما كانوا يلاقونه من تعذيب وتنكيل شديدين"[٣٢].

٢/١-المحاسبات المالية والإدارية

تُعَدّ الدولة الرسولية من أكثر الدول في تاريخ اليمن الإسلامي اهتمامًا بنظامها المالي[٣٣]، فقد كان هناك ما عرف بالديوان الخاص ومهمته "إجراء الحسابات الخاصة"[٣٤]، والمحاسبات المالية هي نوع "من المحاسبة المالية أو الإدارية التي يأمر بها الحاكم للأشخاص العاملين بأجهزة الدولة"[٣٥]. ولعل أشهر تلك المحاسبات المالية تلكم المحاسبات التي تعرض لها الوزراء العمرانيون في عهد المؤيد، ويوردها المؤرخ ابن عبد المجيد اليماني بقوله: "أحضرهم قبل القبض عليهم وقال لهم: أنتم قضاة القضاة وبأيديكم أموال اليتامى، ونظركم على سائر الأوقاف بالمملكة اليمنية وبها نوابكم، فأحضروا أموال الأيتام ودفاترها وحساب الأوقاف، فقالوا: لا نعلم شيئًا منها، فراجعهم مرارًا فأصروا على الإنكار، فأمر بهجم منازلهم... وأمر بقبض أملاكهم لبيت المال وكانت كثيرة"[٣٦].

وفي تقديري أن ما يميز المحاسبات المالية والإدارية عن المصادرات أن تلك المحاسبات تأتي قبل المصادرات كما صورها لنا النص السابق لابن عبدالمجيد، وأنها في الغالب تستند لمرجعيات حسابية كالدفاتر والسجلات والدواوين، ثم يعقبها المصادرات التي تستند بدورها لنهج عسكري، كما أن المحاسبات تحصى نتائجها قبل عقدها، بينما المصادرات لا تحصى نتائجها إلا بعد تنفيذها[٣٧].

ولعل ما يؤكد ما ذهب إليه هذا البحث، ما أورده الخزرجي بأن السلطان المؤيد قبل مصادرة الوزراء العمرانيين "طلبهم بحسبة أموال الأيتام وغلل الموقوفات في مدة نظرهم"[٣٨]، وثمة دليل آخر يورده لنا المؤرخ بامخرمة يؤكد لنا أن المحاسبات المالية والمسائلات الإدارية كانت تسبق المصادرة وذلك في سياق ترجمته لمتولي النظر بثغر عدن محمد بن عبدالله شمس الدين الجزري (ت بعد ٦٦٠هـ/١٢٦١م) عقب نزول السلطان المظفر إلى عدن، إذ يقول بامخرمة: "ثم نزل إلى عدن فاشتكى أهلها إليه من الجزري فأمر المظفر القاضي البهاء أن يحاقق بينه وبينهم... وحاقق القاضي بينهم وبينه في الجامع فحققوا عليه جملة مستكثرة وهموا به فصودر وضُرِبَ فسلم ٣٠ ألف دينارًا"[٣٩].

ولعل من إيجابيات تلك المسائلات الإدارية والمحاسبات المالية أنها شكلت رادعًا للكثير من المتقلدين للمناصب الإدارية في أجهزة الدولة الرسولية ومؤسساتها، إذ "ساد شعور عام بالإحساس بوجود مفهوم لدولة [بعناصرها] السياسية والإدارية والمالية"[٤٠]، وبالتالي زادت الحاضنة الشعبية والقابلية المجتمعية لحاكمية سلاطين بني رسول واستمرارها لتلك الفترة الطويلة في حكم اليمن، وإن كانت تلك المصادرات والمحاسبات لم تستند في جميع حالاتها لمرجعيات قضائية بمطلقها بقدر ما فيها من الوشايات والمنافسات والكيد السياسي.

ثانيًا: العقاب (العنف) الجسدي

على الرغم من وجود نظام قضائي عادل نسبيًا[٤١] في تلك الفترة، وكذلك امتداد "اختصاصات القضاء المدني والشرعي لتشمل النظر في جرائم القتل وغيرها من الجرائم الجنائية"[٤٢]، إلا أن هناك عدة صور للعقاب الجسدي تمت خارج مؤسسة القضاء وإن كان منها ما تم بأحكام قضائية تستند إلى الشرعية الإسلامية ومن تلك الصور:

٢/١-الحبس والسجون الخاصة

والمعني به أن "يُزَجُّ فيه المخالفون للقوانين والخارجون عن الطاعة"[٤٣]، وقد شملت تلك العقوبة الجميع ممن كانت توجه إليهم الاتهامات من شتى الطبقات الاجتماعية سواء من طبقة الخاصة كالأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة ومن يلوذ بهم، أو من عامة الناس ومن المفسدين على اختلاف جرائمهم[٤٤].

وبالعودة إلى مصادر ذلك العصر فإن السجون لم تكن على نمط واحد أو شكل موحد بقدر ما كانت تقسم بحسب الشخصية المراد سجنها ونوع الجرم أو نوع الخروج على حاكمية الدولة، فهناك نوع من السجون خُصص لطبقة الأمراء كمعتقل خاص "والذي عُرف بدار الأدب وكانت هذه السجون الخاصة موجودة في شتى المعاقل والحصون يودع فيها المغضوب عليهم من قبل السلطان وهم من الأمراء وكبار رجال الدولة"[٤٥]، ومن ذلك اعتقال المظفر الرسولي عام (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) للإمام إبراهيم بن أحمد بن محمد "فأودعه دار الأدب"[٤٦]، وكذلك "قبض المجاهد على ابن عمه الناصر"[٤٧]، الذي أودعه "تحت الحفظ فجعله في دار الإمارة"[٤٨]، وكذلك فعل المجاهد مع السلطان الملك الظاهر عبدالله بن المنصور الذي "أشار بإيداعه دار الأدب من حصن تعز فأقام به محبوسًا من غير تضييق عليه"[٤٩]. واستمرت الاعتقالات للمناوئين للسلاطين وإيداعهم دار الأدب الخاصة بطبقة الأمراء والخارجين منهم حتى أواخر الدولة الرسولية[٥٠].

والنوع الثاني من السجون التي شاعت في عصر الدولة الرسولية وهو ما يسمى بسجن العامة[٥١]. ومن ظاهر التسمية فإنه كان سجنًا "خاصًا بأرباب الجرائم ومحترفي اللصوصية وقطاع الطرق وغيرهم من طوائف المفسدين ومحترفي الإجرام"[٥٢].

وما ينبغي الإشارة إليه أن ثمة فرق بين النوعين من السجون يمكن حصرها في ثلاثة أوجه، فأما الوجه الأول: أن سجن العامة يختلف عن دار الأدب في نوعية مرتاديه وفي نوعية الجرائم المعاقب عليها، وأما الوجه الثاني: فإن دار الأدب كانت ترتبط بالجرائم ذات الطابع السياسي والعسكري كالخروج عن السلطان أو التمردات[٥٣]. وإن كانت تحدث حالات شاذة من إيداع بعض الخارجين على طاعة السلطان في سجن العامة وذلك عندما يريد السلطان "التنكيل بأحد المغضوب عليهم من الأمراء، أمر بإيداعه سجن العامة إمعانًا في تعذيبه وإذلاله لخروجه عن السلطان والتحالف ضده"[٥٤]. وأما الوجه الثالث: فإن ثمة فرق بين النوعين من المعاملة فبينما النازل في دار الأدب يقيم على الإعزاز والإكرام، يؤتى إليه كل يوم بما يحتاجه ويشتهيه من طعام وشراب حريم"[٥٥]، ومن "غير تضييق عليه"[٥٦]، ويسمح للسجناء بقراءة كتب العلم واستدعاء الفقهاء إليهم للقراءة عليهم ونسخ المجلدات[٥٧]، بينما نجد بالمقابل أن سجن العامة كانت المعاملة فيه "قاسية وسيئة بدرجة كبيرة"[٥٨]، وهو ما أوردناه سلفًا من رغبة السلاطين بإذلال خصومهم بالزج بهم في سجن العامة إمعانًا في إذلالهم.

٢/٢-الكحل

هو سمل العين بمسامير الحديد المحماة بالنار[٥٩]، وهي "من العقوبات التي تواترت في المصادر وبخاصة في عصر بني رسول"[٦٠]، فهذا الخزرجي يسوق حادثة كحل حدثت في عهد المظفر للأمير محمد بن عباس بن عبدالجليل (ت٦٨٩هـ/١٢٨٩م)، إذ يقول: "... غلب عليه العجز فكثر عليه التشكي إلى السلطان ونقل عنه إلى السلطان أمور لا يحتمل الملوك بعضها فلزمه وأمر بكحله وكان ذلك في زبيد سنة ثلاث وتسعين وستمائة"[٦١]. وكانت الكحل "من العقوبات الصارمة التي طبقها المجاهد في عصره"[٦٢].

ومما يسترعي الاهتمام عن غرابة تلك العقوبة وشيوعها في عصر المجاهد ما أورده بامخرمة عن تنفيذ المجاهد لعقوبة الكحل بشكل جماعي لمجموعة من الخارجين عليه المؤيدين لابن عمه ومنافسه الظاهر عبدالله بن المنصور إذ يقول: "...شنق الوالي والناظر وكُحِّلَ من الرجل جمعٌ كثير من أهل عمار ومن أهل صنعاء وغيرهم"[٦٣]، ونقلت عنه المصادر أنه أمر بكحل والي صبر[٦٤]. ويورد ابن الديبع كيف امتدت هذه العقوبة إلى داخل أروقة العصر الرسولي عندما خرج حسين بن الأشرف على أخيه الناصر بن الأشرف الثاني بقوله: "قبض أخاه وجعله بثعبات مترسمًا عليه وأمر شقيقه الظاهر بكحله فقور عينيه"[٦٥]. ومما يمكن قوله من هذه العقوبة: أنه مهما يكن من مبرر لها في نظر سلاطين الدولة الرسولية، إلا أنها كما وصفتها المصادر "فبقيت سُبة في بني رسول"[٦٦]، بل وصفها المؤرخ محمد بن علي الأكوع بقوله: "وأي سبة مثل هذه الفعلة الشنعاء"[٦٧].

٢/٣-الشنق والتسمير والتوسيط

وهي ثلاث صور من عدة صور لإيقاع الإعدام على المناوئين للسلاطين وعلى المفسدين[٦٨]، "فقد طبقت عقوبة الشنق على والي فشال الأمير بدر الدين حسن بن باسك سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م"[٦٩].ويورد لنا الخزرجي إنزال عقوبة التوسيط والتسمير والشنق في عهد الأفضل بما نصه: "أمر السلطان بتلف الجميع فَوُسِّطَ منهم خمسة وسُمِّرَ ثلاثة وشُنِقَ

الباقون"[٧٠]. ويورد ابن الديبع تطبيق عقوبة التوسيط في أبناء زعيم من زعماء قبيلة المعازبة سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٨م) بقوله: "...فلما علم السلطان بذلك وسط ولد الجيش المعزبي وكان رهينة بها"[٧١].

وللإنصاف والموضوعية، فقد طبقت تلك العقوبات على المفسدين ومرتكبي الجرائم، كذلك يسوق لنا الخزرجي تطبيق عقوبة التسمير والتوسيط في رجلين قتلا امرأة فورد الأمر بإعدامهما من السلطان ويصف لنا مشهد الإعدام ذلك بقوله: "فأمر السلطان بتلفهما فأخرجهما إلى قبر المرأة التي قتلت وأمر بتوسيطهما هنالك وعلقهما على أربع خشبات حول القبر وأقاما معلقين هنالك إلى آخر يومهما"[٧٢]. ومما ينبغي الإشارة إليه فإن عقوبات الشنق والتوسيط والتسمير ساهمت إلى حد كبير في ردع المفسدين والمجرمين، وبالمقابل فإنها كذلك مثلت وسيلة من وسائل السلاطين لمواجهة خصومهم والخارجين عليهم.

٢/٤-الأسر والعصر والتخدير

فأما الأسر فقد كانت عقوبة شائعة إبان حاكمية سلاطين الدولة الرسولية وعادة ما كانت تلي الخروج على السلاطين، أو الهزائم في المعارك وتباين درجة الأسير السياسية ومكانته بحسب أهمية الحدث الذي خرج على السلطان على أساسه[٧٣].

وأما العصر فيلي في العادة المصادرة والضرب، ويصف لنا بامخرمة ذلك في معرض حديثه عن مصادرة متولي ديوان النظر بعدن فيقول: "...فصودر وضرب فسلم ٣٠ ألف دينار ثم ضرب بعد ذلك وعصر فلم يقدر على شيء"[٧٤]. وأما التخدير فيورد لنا صاحب العسجد المسبوك رواية غريبة حدثت سنة (٧٦٠هـ/١٣٦٠م) في ذلك تشي باستخدام البنج(*) في معاقبة الخصوم والخارجين عليهم فيقول: "فوصل في تلك الأيام الشيخ أبوبكر الهبل شيخ القرشيين ووصل معه ابن عمه... صنع لهما طعامًا نفيسًا وجعل فيه من البنج شياء(**) كثيرًا وأخرج إليهما ماءً طيبًا ليشربا منه شياء من البنج فلما وصل إليهما بالطعام أكلا منه بحسب الكفاية وشربا ووقفا منتظري الحاجة التي جاءا بسببها فأثر فيهما البنج فأيقنا بالشر"[٧٥].

٢/٥-الضرب والنهب والهدم

حيث كان الضرب من العقوبات التي تطال القريبين من الجهاز الإداري لسلاطين الدولة الرسولية[٧٦]، ويمكن أن يوقعها بخصومهم أناسٌ مقربون من القصر الرسولي بخصومهم، ومن ذلك ما أورده الخزرجي بقوله: "أمر الشيخ إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي بضرب الشيخ صالح المكي فضرب بالسياط ضربًا مبرحًا ثم إن الشيخ استأذن السلطان في إخراجه من اليمن فأجابه إلى ذلك"[٧٧]، وبالمقابل تورد المصادر العديد من الحوادث عن نهب بصور مختلفة أقدم عليه العسكر الرسولي ضد مناوئي الدولة والخارجين عليها[٧٨]، وأوقع السلاطين عقوبة الخراب والهدم كذلك بالخارجين كما حصل في البلاد التهامية حيث "... تجهز المؤيد وخرج إليها فأخرب بها عدة مواضع"[٧٩].

ثالثًا: العقاب الإداري والسياسي

كما تعددت صور العقاب الاقتصادي والجسدي فبطبيعة الحال تعددت صور العقاب الإداري والسياسي على النحو الآتي:

٣/١-النفي والإبعاد

حيث كان النفي والإبعاد من العقوبات التي انتهجها السلاطين مع خصومهم، ومن ذلك ما يورده الخزرجي في سياق ترجمته للفقيه سراج الدين أبوبكر بن عمر بن إبراهيم بن دعاس مشيرًا إلى نفيه إلى زبيد بقوله: "توفي في مدينة زبيد مهجورًا من السلطان لإذلال حدث منه على السلطان في حقه وحق وزيره البهاء فطرد من تعز إلى زبيد فأقام بها إلى أن توفي"[٨٠]، وربما قد يمتد النفي إلى أحد أخوة السلاطين كما فعل السلطان المؤيد بأخيه المسعود وولده أسد الإسلام حيث "أسكنهما حيس وجعل لهما ما يقوم بهما وبمن معهما"[٨١]. وفي عام (٧٧٢هـ/١٣٧٠م) عندما واجه السلطان الأفضل تمردات القرشيين نفاهم من قريتهم القرشية وشتتهم في البلاد وأسكن قريتهم أناسًا غيرهم[٨٢].

٣/٢-أخذ الرهائن

وهو أسلوب انتهجه سلاطين الدولة الرسولية لتثبيت حاكميتهم في مناطق نفوذهم ولضمان عدم تمرد القبائل في تلك المناطق حيث يعمد السلاطين إلى أخذ رهائن من المناطق التي تناوئهم، فيورد لنا ابن عبدالمجيد اليماني نصًا عن رهان المؤيد، إذ يقول: "وتملك السلطان صعدة بغير شريك والرهائن موثوقة لمن صدق فركن السلطان إلى ذلك وقبض الرهائن"[٨٣]، وصور الخزرجي لنا في سياق ترجمته للطواشي افتخار الدين ياقوت "الذي أرسله الملك المظفر صحبة ولده الأشرف إلى الدملؤة ليكون الأشرف رهينة عند عميه المفضل والفائز"[٨٤]، ويورد ابن حاتم اليامي نصًا عن ما حصل بين المظفر وأم قطب الدين فلما "فتحت باب المراسلة على أن تلقى مولانا السلطان الملك المظفر ويجعل عوضها في الحصن رهينة فرض لها ثلثة من خواصه"[٨٥].

ويورد صاحب كتاب الدولة الرسولية في حوادث سنة (٧٧٣هـ/١٣٦٧م) "دخول الأشراف وأهل المخلاف السليماني

تحت الطاعة وسلموا الخيول والمال والرهائن إلى الأمير فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي"[٨٦].

٣/٣-العزل والإعفاء من المناصب

وقد استهل مؤسس الدولة المنصور الدين تأسيسه لدولته سياسة العزل والإعفاء، حيث "جعل يولي في الحصون والمدن من يثق به ويعزل من يخشى منه"[٨٧]، ثم تتابع هذا النهج فيمن تقلد زمام الحكم في العصر الرسولي على امتداد حكم الدولة الرسولية[٨٨].

وبالحديث عن العزل والإعفاء من المناصب ليس بالضرورة أن يكون مصدره السلطان بل أن هناك أوجهًا للعزل من قبيل عزل القضاة لأنفسهم كإقدام القاضي أحمد العرشاني على عزل نفسه من منصب قاضي القضاة، والقاضي إسماعيل قاضي قضاة تهامة فعل نفس الأمر[٨٩]، وقد يكون لتقصير في عمله كما فعل بالقاضي محمد بن الخضر بن مسعود، حيث كان هذا الفقيه قاضيًا في بلدة كبود "فعزل من القضاء لحكم أخطأ فيه"[٩٠]. ومما ينبغي الإشارة إليه إن الصور العقابية التي انتهجها سلاطين الدولة الرسولية مع مناوئيهم والخارجين عليهم والمفسدين قد اشتملت على أساليب عقابية أخرى كالحصار والتخويف والحرق والمكائد[٩١].

خَاتِمَةٌ

خلُص هذا البحث إلى جملة من النتائج منها ما أثبتناه في سياقات البحث، ومنها ما نورده في هذه الخاتمة كالآتي:

- على الرغم من الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي الذي حققته الدولة الرسولية، إلا أنه لم يكن مطلقًا بل نسبيًا رافقه العديد من الخروج والتمردات.
- أن سلاطين الدولة الرسولية استخدموا وسائل عنف عقابية بحق المناوئين والخارجين عليهم لتثبيت حاكميتهم وردع المفسدين ومرتكبي الجرائم.
- أن ذلك العقاب لم يكن على نمط واحد، بل تنوع بين العقاب الاقتصادي والجسدي والإداري والسياسي.
- أن تلك الأنواع من العقوبات لم تقتصر على فئة اجتماعية بعينها بقدر ما شملت عينات من مختلف الشرائح المجتمعية والسياسية في عصر أولئك السلاطين.
- أن المصادرات المالية تصدرت العقاب الاقتصادي الذي أنزله السلاطين بالخارجين عليهم وشملت أنواع الممتلكات كافة الثابت والمنقول.
- أن تلك المصادرات شكلت موردًا اقتصاديًا هامًا للدولة الرسولية وسلاطينها.
- أن معظم تلك المصادرات كان يفرضها السلطان بشكل مباشر دون العودة إلى قضاء أو فتوى شرعية.
- أن بعض تلك المصادرات كانت تستند في أساسها إلى الوشايات والخصومات السياسية.
- أن قرارات المصادرة قد يتخذها الولاة والوزراء ولا تقتصر على السلاطين.
- أن بعض المصادرات كانت تستند إلى مبررات منطقية وعبر القضاء لاسيما في عهد الأشرف إسماعيل الثاني.
- أن تلك المصادرات تباينت في صورها وحجمها وحدتها ووسائلها ومبرراتها ونتائجها.
- أن المحاسبات المالية والإدارية كانت تسبق المصادرات وتشكل المصادرات إحدى نتائج تلك المحاسبات والمحاققات.
- أن المحاسبات تسند لمرجعيات حسابية كالدفاتر والدواوين بينما المصادرات ذات طابع قسري عسكري.
- أن تلك الإجراءات العقابية عززت لدى المجتمع الإحساس القوي بوجود الدولة وأكسبت السلاطين حاضنة شعبية مجتمعية.

- أن العقاب الجسدي تنوعت صوره بين سجن وكحل وتسمير وتوسيط وأسر وعصر وتخدير وضرب ونهب وتهديم.
- أن العقاب بالحبس تنوعت سجونه إلى نوعين، سجن للعامة، وسجن للخاصة يسمى دار الأدب.
- أن نوعية السجن تحدد نوع الجرائم ونوع الخروج على السلطان ونوع الأدب المراد للمعارضين.
- لم تكن معاملة السجناء على وتيرة واحدة، فدار الأدب معاملتهم لينة، وسجن العامة معاملتهم تتسم بالقسوة والوحشية.
- أن المصادر اعتبرت عقوبة الكحل لعيون الخارجين على السلاطين بالحديد والنار سبةٌ في عصر بني رسول.
- إن عقوبة الشنق والتوسيط والتسمير ساهمت إلى حد كبير في ردع المفسدين والمجرمين ومثلت وسيلة من وسائل السلاطين في مواجهة خصومهم.
- استخدم سلاطين بني رسول وسائل عقاب مستغربة كالعصر للمُعاقب والتخدير بالبنج.
- استخدم السلاطين العقوبات الإدارية والسياسية ضد مناوئيهم.
- استخدم السلاطين عقوبة النفي والإبعاد كعقوبات إدارية لإقصاء خصومهم.
- انتهج السلاطين أسلوب أخذ الرهائن لضمان عدم الخروج عليهم.
- انتهج السلاطين عقوبة العزل والإعفاء من المناصب كوسائل عقابية ضد مناوئيهم والمُخلين بأدائهم الوظيفي.
- تنوع صور العزل والإعفاء بين العزل الذاتي كعزل القضاة لأنفسهم وعزل السلاطين وعزل الولاة والوزراء.
- أن سلاطين الدولة الرسولية تأثروا إلى حد كبير بعقوبات سلاطين المماليك والأيوبيين في مصر وحاكوهم في تلك العقوبات.

الاحالات المرجعية:

(١) حيدر، فاروق أحمد، **التعليم في اليمن في عهد دولة بني رسول خلال القرنين السابع والثامن الهجريين**، منشورات جامعة صنعاء، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص١١. ويُنظر: الفيفي، محمد بن يحيى، **الدولة الرسولية في اليمن (دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية)**، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١١.

(٢) عن تلك التمردات، يُنظر: بركات، على عبد الكريم بركات، **الصلات الحضارية بين اليمن والبلاد الإسلامية (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م) مصر والحجاز أنموذجًا**، أطروحة دكتوراه، جامعة صنعاء، ٢٠١٠م، ص٢٨.

(٣) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (القسم الخاص باليمن)**، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت، ص٥٦.

(٤) هديل، طه حسين، **التمردات القبلية في عصر الدولة الرسولية وأثرها على الحياة العامة في المن (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م)**، جامعة عدن، ٢٠٠٤م، ص١٧١.

(٥) حماد، أسامة، **مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي (عصر دولتي بني أيوب وبني رسول)**، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص١٦١. ويُنظر: الخزرجي، موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن (٨١٢هـ/١٤٠٩م)، **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**، ج٢، عني بتصحيحه محمد بن علي الأكوع، صنعاء، ١٩٨٣م، ١٦١/١.

(٦) يُنظر: ابن عبد المجيد، تاج الدين عبد الباقي اليماني (٧٤٣هـ/١٣٤٢م)، **بهجة الزمن في تاريخ اليمن**، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٢٨٣. والخزرجي، العقود اللؤلؤية ١٦١/١.

(٧) السبيعي، فرج محمد عبد الله، **الدولة الرسولية في اليمن في عصر السلطان المجاهد الرسولي علي بن داوود (٧٢١-٧٦٤هـ/١٣٢١-١٣٦٣م)، دراسة تاريخية حضارية**، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ٢٠٠٨م، ص١٥٢.

(٨) الخزرجي، العقود اللؤلؤية ١٦١/١. ويُنظر: أسامة حماد، **مظاهر الحضارة الإسلامية**، ص١٦٣.

(٩) بامخرمة، عفيف الدين أبو محمد الطيب بن عبد الله (ت٩٤٧هـ/١٥٤٠م)، **تاريخ ثغر عدن**، ط٢، تحقيق أوسكار لوفجرين، منشورات المدينة، بيروت، ١٩٨٦م، ٢٢١/٢.

(١٠) ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن** (تحقيق الحبشي)، ص٢٨٣.

(١١) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ٢٩٥/١.

(١٢) أسامة حماد، **مظاهر الحضارة الإسلامية**، ص١٦٣. ويُنظر: ابن عبد المجيد، تاج الدين عبد الباقي (ت٧٤٣هـ/١٣٢٢م)، **بهجة الزمن في تاريخ اليمن**، تحقيق مصطفى حجازي، ط٢، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٥م، ص١٠٤.

(١٣) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ٢٥٥/١. ويُنظر: ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن** (تحقيق: حجازي)، ص ص١٠٢-١٠٣.

(١٤) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ٢٥٥/١. ويُنظر: ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن** (تحقيق: حجازي)، ص١٠٢.

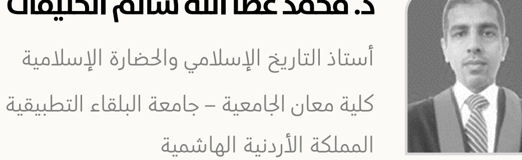
(١٥) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ٢٨٦/١.

(١٦) أسامة حماد، **مظاهر الحضارة الإسلامية**، ص٦٣.
(١٧) قرة العيون، ص٣٦١.
(١٨) نفس المصدر، ص٣٦١. ويُنظر: الأشرف إسماعيل، بن علي بن داوود (ت. ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، **فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب والفتن في أخبار من ملك اليمن على أثر التابعة ملوك العصر والزمن**، الباب الخامس، تحقيق: علي حسن معيلي، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس، ٢٠٠٤م، ٦٥٠/٢.
(١٩) يُنظر: بامخرمة، **تاريخ ثغر عدن**، ٢٤٩/٢. السبيعي، **الدولة الرسولية**، ص١٥٣.
(٢٠) العقود اللؤلؤية ٦٤/٢.
(٢١) يُنظر: الأشرف إسماعيل، **فاكهة الزمن** ٦٩٦/٢. السبيعي، **الدولة الرسولية**، ص١٥٣.
(٢٢) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ١٢٠/٢.
(٢٣) الحميدي، يوسف بن عبد العزيز، **الملك الأفضل الرسولي، جهوده السياسية والعلمية**، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، ٢٠٠٨م، ص٩٢.
(٢٤) عن الخزرجي، يُنظر: بركات، على عبد الكريم محمد، **الكتابة التاريخية والمؤرخون في اليمن في العصر الإسلامي**، دار دمشق للطباعة والنشر، إب، ٢٠١٧م، ص ص١٧١-١٧٦.
(٢٥) عن ذلك الازدهار يُنظر: السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، مجلد١، ٢٩٩/٢. ابن المقري، إسماعيل بن أبي بكر (ت٨٣٧هـ/١٤٣٢م): **شرح الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة**، تحقيق: عبد الرحمن الحضرمي، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ١٩٨٥م، ص١٥.
(٢٦) المقصود به الطواشي أمين الدين أهيف، يُنظر: الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ١٤٧/٢.
(٢٧) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣٧٧. ويُنظر: الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ١٤٧/٢.
(٢٨) نفس المصدر ١٤٨/٢. ويُنظر: أسامة حماد، **مظاهر الحضارة الإسلامية**، ص١٦٤.
(٢٩) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣٩٢.
(٣٠) أسامة حماد، **مظاهر الحضارة الإسلامية**، ص١٦٤. ويُنظر: ابن الديبع، ص ص٣٩٤-٣٩٥.
(٣١) عن تلك الأضرار والمشقة يُنظر: الأشرف إسماعيل، **فاكهة الزمن**، ٦٩٦/٢.، ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣٧٧.، السبيعي، **الدولة الرسولية**، ص١٥٣.
(٣٢) أسامة حماد، **مظاهر الحضارة الإسلامية**، ص١٦١.
(٣٣) للاطلاع على طبيعة النظام المالي، يُنظر: مجهول، **نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف**، ج، تحقيق: عبد الرحيم جازم، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، صنعاء، ٢٠٠٣، (مقدمة التحقيق).
(٣٤) السبيعي، **الدولة الرسولية**، ص١٥٥.
(٣٥) أسامة حماد، **مظاهر الحضارة الإسلامية**، ص١٦١.
(٣٦) بهجة الزمن، ص١٠٢-١٠٣ (تحقيق حجازي). ويُنظر: الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ٢٥٥/١.
(٣٧) للاطلاع على نماذج من تلك المصادرات والمحاسبات، يُنظر: ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن**، ص١٠٢ (تحقيق حجازي). الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ٢٥٥/١، ٢٥٨. ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣٩٤.
(٣٨) **العقود اللؤلؤية**، ٢٥٥/١.
(٣٩) **تاريخ ثغر عدن**، ٢٢١/٢. ويُنظر: أسامة حماد، **مظاهر الحضارة الإسلامية**، ص١٦٣.
(٤٠) شكري، محمد سعيد، **في التاريخ السياسي للدولة الرسولية**، بحث منشور في كتاب **ندوة الحياة العلمية والفكرية في عصر الدولة الرسولية**، دار جامعة عدن للنشر، عدن، ٢٠٠٣م، ص٣٦.
(٤١) عن طبيعة النظام القضائي في تلك الفترة يُنظر: أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص١٧٦-٢٠٠.
(٤٢) نفس المرجع، ص١٨٢.
(٤٣) السبيعي، **الدولة الرسولية**، ص١٦٦. ويُنظر: الأشرف إسماعيل، **فاكهة الزمن** ٦٦٩/٢. ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣١٤.
(٤٤) يُنظر: الخزرجي، موفق الدين علي بن الحسن (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)، **العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك**، مخطوطة مصورة، نشر وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ١٩٨١م، ص٣٨٨. ابن عبدالمجيد اليماني، ص١٠٣. أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص١٩١.
(٤٥) أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص ص١٩٢-١٩٣. ويُنظر: بامخرمة، **تاريخ ثغر عدن**، ١١٥/٢.
(٤٦) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ١٧١/١
(٤٧) السبيعي، **الدولة الرسولية في عصر المجاهد**، ص١٦٦.
(٤٨) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ١٥/١.
(٤٩) بامخرمة، **تاريخ ثغر عدن**، ١١٥/٢.
(٥٠) يُنظر: ابن الديبع، **قرة العيون** ص٣٩٣. أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص١٩٥.
(٥١) يُنظر الخزرجي، العقود اللؤلؤية ٣٦/٢.
(٥٢) أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص١٩٢. ويُنظر: الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ٣٦/٢.
(٥٣) يُنظر: بامخرمة، **تاريخ ثغر عدن**، ١١٥/٢. السبيعي، **الدولة الرسولية**، ص١٦٦.
(٥٤) أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص١٩٢. ويُنظر: الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ٣٦/٢.
(٥٥) نفس المصدر ١٥/٢.
(٥٦) بامخرمة، **تاريخ ثغر عدن**، ١١٥/٢.
(٥٧) يُنظر: أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص١٩٣.
(٥٨) نفس المرجع، ص١٩٢.
(٥٩) يُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٢٦٠/٧.
(٦٠) أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص١٩٨. ويُنظر: الأشرف إسماعيل، **فاكهة الزمن**، ٦١٧/٢.
(٦١) **العقود اللؤلؤية** ٢١٦/١
(٦٢) السبيعي، **الدولة الرسولية**، ص١٦٦. ويُنظر: الأشرف إسماعيل، **فاكهة الزمن** ٦١٧/٢.
(٦٣) تاريخ ثغر عدن ١٤٥/٢. ويُنظر: الخزرجي، **العسجد المسبوك**، ص٣٦١.
(٦٤) يُنظر: الجندي، محمد بن يوسف بن يعقوب (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، **السلوك في طبقات العلماء والملوك**، ج٢، تحقيق: محمد بن علي الكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٣م، ص٥٩٤. الأشرف إسماعيل، **فاكهة الزمن** ٦١٧/٢.
(٦٥) **قرة العيون**، ص٣٩٠. وأسامة حماد، ص١٩٨.
(٦٦) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣٩٠. أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص١٩٨.
(٦٧) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣٩٠ هامش التحقيق.

(٦٨) يُنظر: الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ٣٨/٢، ٤٠. أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص ص١٩٨-١٩٩.
(٦٩) السبيعي، **الدولة الرسولية**، ص١٦٧. ويُنظر: الأشرف إسماعيل، **فاكهة الزمن**، ٧٠٤/٢.
(٧٠) **العقود اللؤلؤية**، ١٢٨/٢.
(٧١) **قرة العيون**، ص٣٥٨. ويُنظر: السبيعي، **الدولة الرسولية**، ص١٦٧.
(٧٢) **العقود اللؤلؤية**، ٢٣٩/٢.
(٧٣) يُنظر: ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣٢٢، ٣٤٧.
(٧٤) **ثغر عدن**، ٢٢١/٢.
(*) مادة مخدرة.
(**) وردت هذه الكلمة بهذا الرسم ويقصد بها شيئًا.
(٧٥) الخزرجي، ص٤٠٠.
(٧٦) يُنظر: ثغر عدن ٢٢١/٢. أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص١٦٣.
(٧٧) **العقود اللؤلؤية** ٢٢٥/٢. ويُنظر: الحبشي، عبد الله محمد، **الصوفية والفقهاء في اليمن**، مكتبة الجيل، صنعاء، ١٩٧٦م، ص١١٨.
(٧٨) يُنظر: مؤلف مجهول (عاش في ق١٠هـ/ق١٤م): **تاريخ الدولة الرسولية**، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، دار الجيل، صنعاء، ١٩٨٤م، ص١٢٠. الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، ٢٩٨/١.
(٧٩) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣٣٣-٣٣٤. ويُنظر: نفس المصدر، ص٣٩٤.
(٨٠) **العقود اللؤلؤية**، ١٥٥/١.
(٨١) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣٤٣. ويُنظر: الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، ٢٥٩/١.
(٨٢) يُنظر: الحميدي، يوسف بن عبد العزيز، **الملك الأفضل الرسولي، جهوده السياسية والعلمية**، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، ٢٠٠٨م، ص١٢٦.
(٨٣) **بهجة الزمن**، ص٢١٤ (تحقيق الحبشي).
(٨٤) **العقود اللؤلؤية** ٢١٢/١.
(٨٥) ابن حاتم اليامي، بدر الدين محمد (ت بعد ٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، **السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغُز باليمن**، تحقيق ركس سمث، جامعة كمبردج، لندن، ١٩٧٤م، ص٢٩٥.
(٨٦) مؤلف مجهول، ص٧٣.
(٨٧) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣٠٠. ويُنظر: بركات، **الصلات الحضارية بين اليمن والبلاد الإسلامية**، ص٢٠.
(٨٨) يُنظر: الخزرجي، العقود ٢٥٠/١. الحبيشي، عبد الرحمن بن محمد (ت٧٨٢هـ/١٢٨٠م)، **تاريخ وصاب: الاعتبار في التواريخ والآثار**، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مركز الدراسات والبحوث، صنعاء، ١٩٧٩م، ص٢٠٩.
(٨٩) يُنظر: أسامة حماد، **مظاهر الحضارة**، ص١٨٥.
(٩٠) الحبيشي، **الاعتبار**، ص٢٠٩.
(٩١) عن تلك الصور، يُنظر: الخزرجي، **العقود اللؤلؤية** ٢٥٣/١، ٢٥٥، ٢٧٥، ٢٧٧. ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٣١٠، ٣٢٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جهود السلطان المملوكي قانصوه الغوري في التصدي للأطماع البرتغالية في البحر الأحمر (٩٠٦ - ٩٢٢هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦م)



د. محمد عطا الله سالم الخليفات
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية معان الجامعية – جامعة البلقاء التطبيقية
المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّص

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الجهود السياسية والعسكرية التي بذلها السلطان المملوكي قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠-١٥١٦م)، في التصدي للأطماع الاقتصادية والاستعمارية للبرتغاليين في البحر الأحمر، فتناولت بدايةً التعريف بالسلطان قانصوه الغوري، ثم تتبعت الحملات البرتغالية لترصين مركزهم في الهند وبحر العرب والبحر الأحمر، والتي كان أهمها حملات فاسكو دي غاما الذي كان أول من وصل للهند، وحملة البوكيرك الذي أستولى على مداخل البحر الأحمر، وحاول غزو جدة والأماكن المقدسة في الحجاز، كما عرضت للجهود الدبلوماسية والعسكرية التي بذلها السلطان الغوري في سبيل مواجهة الخطر البرتغالي على البحر الأحمر، فاستقبل وأرسل العديد من السفارات لدول أوروبا بغرض وقف الحملات البرتغالية على الشرق، كما خاض صراعًا حربيًا عنيفًا مع الأسطول البرتغالي في الهند، وإن كان فشل في تحقيق نصر حاسم عليهم، إلا أنه شكل مصدر مقاومة قوية لهم، مما جعل أمراء وسلاطين الهند وجنوب الجزيرة العربية والحجاز يعلقون عليه الآمال في طردهم من المنطقة. وانتهت الدراسة إلى عدد من النتائج، لعل أهمها: أن محاولات البرتغاليون في السيطرة على البحر الأحمر لم يكن هدفها اقتصادي فقط، بل كان لها أغراض استعمارية ودينية تمثلت في غزو جدة والاستيلاء على مكة المكرمة والمدينة المنورة، ونبش قبر الرسول (ﷺ).

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٣ سبتمبر ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ أكتوبر ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الدولة المملوكية؛ قانصوه الغوري؛ الغزو البرتغالي؛ الهند؛ البحر الأحمر

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.258700

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد عطا الله سالم الخليفات. "جهود السلطان المملوكي قانصوه الغوري في التصدي للأطماع البرتغالية في البحر الأحمر (٩٠٦ – ٩٢٢ هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٤٢ – ٦١.

Corresponding author: makhliefat2020@yahoo.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

شكلت الفترة التي اعتلى فيها السلطان المملوكي قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠-١٥١٦م)، عرش السلطنة المملوكية، من أهم الفترات الحاسمة ليس في تاريخ مصر فحسب، بل في تاريخ المشرق الإسلامي عامة، ففي الوقت الذي وصلت فيه العلاقة بين الدول الإسلامية الثلاث الكبرى في المنطقة؛ وهي دولة المماليك في مصر وبلاد الشام والحجاز، ودولة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى وشرق أوروبا، ودولة الصفويين الشيعة في إيران، إلى مرحلة حرجة نتيجة احتكاك الحدود أولاً، واختلاف المذاهب والمصالح ثانيًا، كان الغرب المسيحي يعمل جاهدًا من أجل نهب خيرات ومقدرات الشرق، وضرب الإسلام والمسلمين.

ولا شك أن البرتغال هي من قادت تلك النزعة الاستعمارية نحو المشرق الإسلامي آنذاك، فما كاد فاسكو دي غاما ينجح في الوصول إلى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، حتى انجلت الغمام عن الأطماع البرتغالية في المنطقة، حيث أعلنت عن رغبتها في فرض سيادتها على جميع الموانئ التجارية الواقعة على الطريق البحري بين رأس الرجاء الصالح والهند، والسيطرة على مداخل البحر الأحمر لإنهاء دور العرب والمسلمين في تجارة التوابل، وخنق اقتصادهم بتحويل تجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح، كما أعلنوا أنهم سيدمرون الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وكانت الدولة المملوكية أكثر دول المشرق تأثرًا بالغزو البرتغالي للهند وبحر العرب والبحر الأحمر، وذلك أن التجارة بين الشرق والغرب كانت تسلك طريق البحر الأحمر ومصر، غير أن تحويل البرتغال لتجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح ومنها إلى لشبونة، حرم مصر من المورد الأول لثروتها وقوتها، كما أن البحرية العسكرية البرتغالية استهدفت السفن التجارية المملوكية ملحقة بها خسائر فادحة من إحراق ونهب وسلب وتدمير. أمام هذا الخطر الجديد الذي سرعان ما تنامى إلى التهديد بغزو جدة، وتدمير المقدسات الإسلامية في الحجاز ونبش قبر الرسول (ﷺ)، لم يستطع السلطان الغوري أن يقف مكتوف اليدين، فعمد إلى مواجهة هذا الخطر بأسلوبين؛ دبلوماسي من خلال إرسال التهديدات إلى البابا في روما وبعض الدول الأوروبية ليمنعوا البرتغال من إرسال الحملات إلى الهند والبحر الأحمر. وعسكري من خلال تقوية الأسطول المملوكي في البحر الأحمر، وتحصين جدة، وإرسال الأساطيل الحربية إلى الهند ومداخل البحر الأحمر لحرب البرتغاليين والتصدي لهم.

وتكمن أهمية الدراسة في بيان خطورة الغزو البرتغالي للبحر الأحمر على المقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وإنهاء دور العرب والمسلمين في تجارة التوابل، وخنق اقتصادهم، وحرمان مصر من مصدر ثروتها وقوتها. في حين هدفت الدراسة إلى إبراز دور السلطان المملوكي قانصوه الغوري في مواجهة الأطماع البرتغالية في البحر الأحمر، والجهود التي بذلها في هذا الشأن، مع تبيان مظاهر الفشل والنجاح للأساليب التي اتبعها في صراعه مع البرتغاليين.

أولاً: التعريف بالسلطان قانصوه الغوري

هو أبو النصر قانصوه بن عبدالله الجركسي الظاهري الأشرفي الغوري[١]، والظاهري نسبة إلى الظاهر خشقدم، أما الأشرفي فنسبة إلى السلطان الأشرف قايتباي؛ إذ كان قانصوه قد وقع ملكه أولاً للسلطان الظاهر خشقدم ثم انتقل إلى ملك قايتباي فنسب إليهم[٢]. أما الغوري فنسبة إلى طبقة الغور، وهي إحدى الطبقات التي كانت بمصر معدة لتعليم مماليك السلطان قراءة القرآن الكريم[٣]، وهناك من يذكر أن اسمه الحقيقي هو جندب، وقانصوه هو لقب أطلق عليه بعد أن اعتقه السلطان قايتباي[٤].

وشأنه شأن الكثير من سلاطين الدولة المملوكية تسكت المصادر عن تقديم شيء عن سيرته في حداثته وصباه، وإنما تكتف بالإشارة إلى أن ولادته كانت في حدود سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م، وأنه مجلوب من أصل جركسي[٥]، ويذكر ابن إياس أن نجم السلطان قانصوه الغوري بدأ بالصعود منذ أن أعتقه السلطان قايتباي، وذلك أن العتق آنذاك كان مكافئة للمملوك الفارس الشجاع، فبعد أن وجد قايتباي في مملوكه قانصوه من الصفات التي تؤهل عتقه، أعتقه ومنحه شيء من القماش والخيل ليستعين بذلك على حياته الجديدة، وعينه في جملة مماليكه الجمدارية وهم الذين يعاونون السلطان في لبس ملابسه، ثم سرعان ما رقاه فجعله من حرسه الخاص، ونظرًا لما أبداه الغوري من إخلاص في العمل وقيامه بمهامه على أكمل وجه، أولاه السلطان قايتباي جل عنايته وأخذ يرقيه في المناصب فعينه عام (٨٨٦م/ ١٤٨١م)، كاشفًا للوجه القبلي، ثم أنعم عليه في سنة (٨٨٩هـ/١٤٤٨م) بلقب أمير عشرة، ثم ولي بعض الولايات في بلاد الشام وما يتصل بها من بلاد العواصم، حيث أسندت إليه أولاً ولاية طرسوس[٦]، ثم نقل عام (٨٩٤هـ/١٤٨٨م) إلى حلب[٧] بوظيفة حاجب حجاب، ثم نقل إلى

نيابة ملطية[٨] وبقي على نيابتها حتى وفاة السلطان قايتباي سنة (٩٠١هـ/١٤٩٥م)[٩].

وما أن تمت البيعة للسلطان الجديد الناصر محمد بن قايتباي، حتى عاد الغوري إلى القاهرة، وأخذ يرتقي أكثر وأكثر في سلك الإمارة، فقد أنعم عليه الناصر بلقب أمير مئة، ثم مقدم ألف وهو من أعلى ألقاب إمارة الجند[١٠]. وحدث في سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م أن انتفض الأمراء على السلطان الناصر محمد وقتلوه، واختاروا للسلطنة الظاهر قانصوه بن قانصوه – وهو خال السلطان القتيل – وفي عهده أسندت للغوري وظيفة رأس نوبة النوب؛ أي رئيس هيئة تنظيم حركات الجنود[١١].

غير أن السلطان الظاهر قانصوه لم يلبث طويلاً إذ خلعه أمراء الجيش سنة (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، ليتولى السلطنة بدلاً منه الأشرف جان بلاط الذي هو الآخر سرعان ما عزل وخنق في الإسكندرية بمؤامرة ثلاثية دبرها له كل من الأمير طومان باي الدوادار، ونائب الشام الأمير قوصروه، والقائد قانصوه الغوري، ونصب طومان باي نفسه سلطانًا على مصر بمعونة معاونيه ولقب نفسه "الملك العادل" وذلك في جمادى الآخرة سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، وأسند إلى معاونيه في الانقلاب قوصروه منصب الأتابكية، في حين أسند إلى الغوري منصب الدوادارية الكبرى والوزارة والأستادارية، وهي الأعمال التي كان يليها طومان باي قبل تنصيبه ملكًا[١٢].

لكن الملك العادل ما أن استقر في دار ملكه حتى غدر بحليفه قوصروه فقتله، ثم أخذ يسيء للعسكر والأمراء ويدبر الغدر بهم، واستشط في سفك الدماء، فحقد عليه الأمراء وفيهم قانصوه الغوري واتفقوا على قتله غير أنهم ما أن أهموا به حتى فر ناجيًا بنفسه من القلعة، واختفى عن الأنظار وكان ذلك في رمضان سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)[١٣]. وما أن تأكد الأمراء المناهضون للملك العادل من اختفائه حتى اجتمعوا وأخذوا يتشاورون في أمر السلطنة، وانتهى رأيهم على اختيار قانصوه الغوري، غير أن قانصوه رفض هذا المنصب في بادئ الأمر وأخذ يتهرب منهم، يقول ابن إياس: "وقالوا ما نسلطن إلا هذا (قانصوه الغوري) فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكي"[١٤]. ولعل الموتة الوحشية التي تعرض لها سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم والمؤامرات التي حيكت ضدهم هي ما جعلته يتهرب من هذا المنصب[١٥]. لكنه اضطر أخيرًا أمام إصرار الأمراء على قبول عرضهم بعد أن اشترط عليهم أن "لا يقتلونه إذا أرادوا خلعه فقبلوا منه ذلك"[١٦]. وتمت له البيعة في قلعة الجبل يوم الاثنين مستهل شهر شوال سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، ولقب بالملك الأشرف، وكنوه بأبي النصر، ويذكر ابن إياس أن مراسيم البيعة أجريت له وهو يمتنع والدموع تملأ عينيه اشفاقًا على حاله وخوفًا من تبعات قراره[١٧].

ويبدو أن إصرار الأمراء على اختيار قانصوه الغوري للسلطنة لم يكن إيمانًا منهم بأحقيته أو تقديرًا لكبر سنه إذ كان قد شارف على الستين، وإنما لاعتقادهم أنه ضعيف، يمكن التلاعب به وفق أهوائهم، وعزله متى أرادوا، لكن الغوري ما كاد أن يلي السلطنة حتى أثبت أنه رجل قوي ذو رأي وفطنة ودهاء[١٨]، فكان أول عمل قام به بعد توليه السلطنة العثور على الملك العادل وقتله حتى لا يثير عليه الفتن[١٩]، ثم أخذ بملاحقة مماليك العادل وغيره من السلاطين المتقدمين من ذوي الشوكة والقوة إما بالنفي أو القتل "حتى أفناهم وصفت له المملكة"[٢٠]. وملأ مناصب الدولة بمن يثق بهم من كبار الأمراء وخاصة من أصدقائه أو من أعضاء الحزب المعادي للملك العادل[٢١]. ولما اطمئن لإعادة الأمن والاستقرار للعاصمة، التفت إلى علاج الأزمة المالية التي كانت تعاني منها الدولة؛ إذ كانت خزائنها خاوية بفعل الحروب الأهلية والفتن والسرقات، ففرض ضرائب إجبارية على كافة أنواع الممتلكات ولم يستثن منها شيئًا حتى شملت الأوقاف الخيرية، وضاعف المكوس والرسوم الجمركية على التجار، وانتهج سياسة مصادرة التركات، وسك عملة جديدة رديئة لتستفيد الخزانة من الفارق بينها وبين العملة الجيدة، وكانت النتيجة في هذا الشأن أن حقق الغوري غايته[٢٢]، وجمع ما يتطلع له من أموال، لكن كل ذلك كان على حساب الشعب.

وعلى الرغم من قيام بعض الفتن والثورات الداخلية في عهد السلطان قانصوه إلا أنه استطاع التغلب عليها بكل حنكة واقتدار، لكن التهديد الذي عصف بملكه وضرب بقوة كيان الدولة المملوكية عامة، جاء من الخارج وتمثل في خطرين؛ الأول الصدام مع البرتغاليين نتيجة لاكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم للهند ومحاولة فرض هيمنتهم على البحر الأحمر، الأمر الذي حرم مصر من موردها الأساس لثروتها وعظمتها وقوتها، وهذا ما ستتناوله الدراسة بالتفصيل لاحقًا. أما الخطر الثاني فتمثل بالعثمانيين والذين على أيديهم لقي السلطان قانصوه الغوري حتفه، وذلك أن السلطان العثماني سليم الأول[٢٣](٩١٨- ٩٢٦هـ/ ١٥١٢- ١٥٢٠م) بعد أن تمكن من الانتصار على الصفويين في معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، توجه بأنظاره نحو أراضي المماليك، فقام عام (٩٢١هـ/ ١٥١٥م) بالاستيلاء على إمارة دلغادر[٢٤] المشمولة بحماية سلطنة

المماليك، ثم بدأ يفكر في دخول مصر وإلحاقها بتبعيته، ورأى أن يبدأ أولاً ببلاد الشام، ولتحقيق هذه الغاية أخذ السلطان سليم الأول بحشد الحشود الكبيرة من الجند بالقرب من حدود الدولة المملوكية، وما أن بلغت أنباء تلك الحشود للسلطان قانصوه حتى قام هو الآخر على وجه السرعة بحشد قواته والاستعداد للمواجهة[٢٥].

وفي صيف سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، خرج قانصوه الغوري على رأس جيشه إلى بلاد الشام فالتقى بالجيش العثماني عند مرج دابق بالقرب من حلب يوم ١٤ رجب/ ٢٤ آب من السنة المذكورة، في معركة حامية الوطيس، وكاد الجيش المملوكي أن يحقق النصر غير أن خيانة ناب حلب المملوكي "خاير بك"، وانسحابه مع أعوانه من ساحة المعركة بعد أن أشاع أن السلطان الغوري قد خر قتيلاً، يقول ابن زنبل، أن خاير بك ومن انهزم معه نادوا بالجيش بأعلى أصواتهم "الفرار، الفرار، فإن السلطان سليم أحاط بكم، وقتل الغوري، والكسرة علينا"[٢٦].

أدت هذه الخيانة إلى تفرق المماليك، واختلال صفوفهم، وحاول السلطان الغوري عبثًا إيقاف فرار مماليكه، حتى بلغ به اليأس فوقع على الأرض مغشيًا عليه فزهقت روحه التياعًا وحسرة تحت سنابك الخيل[٢٧]، وقيل أنه لما أيقن الهزيمة ابتلع فص ماس كان معه، فغاب عن الوجود وسقط عن فرسه ومات من وقته[٢٨]. ويذكر ابن زنبل أن أحد أمراء الغوري ويدعى "علان" وهو من الأمراء القلائل الذين ثبتوا معه، لما رأى الغوري قد وقع على الأرض، أمر عبدًا من عبيده فقطع رأسه وألقاه في بئر قريب منهم مخافة أن يقتله العدو ويطوفون برأسه بلاد الروم[٢٩]. ولعل ما فعله الأمير علان بجثة الغوري، كان السبب في عدم التعرف على جثته بين القتلى، وهذا ما يؤكده ابن إياس بقوله: "وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر .. ولا ظهرت جثته بين القتلاء، فكأن الأرض قد انشقت وابتلعته"[٣٠].

وهكذا كانت نهاية الغوري في ساحة المعركة بعد أن قضى في ملك مصر والشام والحجاز وسائر البلاد التابعة لها، مدة امتدت زهاء خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يومًا[٣١]. وقد تجاوز عمره عند وفاته اثنان وسبعون عامًا، ولم يترك من الأولاد إلا ابن واحد وهو الناصري محمد صحبه معه السلطان العثماني سليم الأول عند عودته من القاهرة إلى القسطنطينية[٣٢]. ومما عرف عن السلطان الغوري ميله إلى السلم، وتفضيله حياة الموادعة والاستقرار داخليًا، مع جنوحه إلى سياسة الدفاع عن بلاده ضد أي معتد من خلال إرسال التجاريد، كما عرف عنه ولعه ببناء القصور والقلاع والحوانيت، والمرافق العامة ذات النفع للناس مثل المساجد والمدارس والقناطر والجسور، كما عني بطريق الحج وحفر بعض الآبار، واشتهر بلاطه بالمجالس الأدبية التي ضمت الشعراء والأدباء والعلماء[٣٣].

ثانيًا: الغزو البرتغالي لسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر

كان للنجاح الباهر الذي حققته حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية في غرب أفريقيا في عهد الملك البرتغالي هنري الملاح (Henry Al-mallah) (١٣٩٤-١٤٦٠م)، أثره البالغ على الملك جون الثاني (Jean II) (١٤٨١-١٤٩٥م)، الذي قرر فور جلوسه على عرش البرتغال مواصلة الجهود الكشفية لبلاده حتى بلوغ بلاد الهند، ولاستكمال ما بدأه الملك هنري الملاح كلف الملك جون الرحالة بارثليمو دياز (Bartholomeu Diaz) البحث عن طريق يخترق فيه أفريقيا ويوصل البرتغال إلى الهند[٣٤]، وبعد أن تجهز دياز لهذه الرحلة الطويلة، غادر مدينة لشبونة[٣٥] سنة (٨٩٣هـ/١٤٩٧م) على رأس ثلاث سفن، وسار بمحاذاة الساحل الغربي لأفريقيا، ثم سار باتجاه الجنوب ثم أبحر شرقًا فشمالاً حتى وصل إلى خليج موسل[٣٦]، وبعد مضي عدة شهور في هذه الرحلة لاحظ دياز أن الساحل الإفريقي قد أصبح على الجانب الأيسر من سفنه، وأدرك أنه عبر جنوب إفريقية، وأصبح بمحاذاة الساحل الشرقي للقارة، فقفل عائدًا، وفي طريق عودته مر بمنطقة الرأس لجنوب القارة الإفريقية، والذي أطلق عليه اسم رأس العواصف (Cabo Tormentoso)، لكثرة العواصف التي واجهته هناك، أما رأس الرجاء الصالح (Cabo da Boa Esperanca) فهو الاسم الذي أطلقه عليه الملك البرتغالي جون الثاني[٣٧].

وعلى هذا حققت رحلة دياز نجاحًا باهرًا للبرتغاليين، فقد فتحت المجال أمامهم في تحقيق أهدافهم الرئيسة في الشرق والتي تمثلت في السيطرة على مواطن التوابل، وفرض الحصار الاقتصادي على مداخل البحر الأحمر والخليج العربي، وانتزاع احتكار تجارة الشرق من مصر، وهيأت الفرصة أمامهم للوصول للأماكن المقدسة الإسلامية.

وبعد وفاة الملك البرتغالي جون، خلفه في الحكم أخوه الملك عمانويل الأول (Emmannuel I) (١٤٩٥-١٥٢٠م)، الذي كان متحمسًا للوصول بحرًا للهند، ولتحقيق هذه الغاية وقع اختياره على الرحالة فاسكو دي غاما (Vasco de Gama)، وقد استطاع دي غاما وبإرشاد من البحار العربي أحمد بن ماجد[٣٨] أن

يدور حول رأس الرجاء الصالح وأن يصل إلى مدينة كاليكوت[٣٩] على الساحل الغربي للهند في (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م)[٤٠]، ورغم أن دي غاما أخفق في عقد معاهدة تجارية مع الزامورين حاكم كاليكوت بفعل تدخل التجار المسلمون في المدينة الذين حذروه من تبعات موافقته على تزويد البرتغال بالتوابل على تجارة مملكته، إلا أنه عاد للبرتغال سنة (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م) بعد أن استغرقت رحلته سنتين، بحمولة لا بأس بها من التوابل، وهذا ما عده الملك عمانويل نجاحًا كبيرًا[٤١]، فأقام الاحتفالات الرسمية والشعبية ابتهاجًا بهذه المناسبة[٤٢].

ويشير المليباري إلى خبر وصول البرتغاليين لأول مرة إلى كاليكوت بقوله: "إن ابتداء وصولهم إلى مليبار كان سنة أربع وتسعمائة من الهجرة النبوية وصلوا إلى فندرينة في ثلاث مسماريات.. ثم خرجوا منها إلى بندر كاليكوت في طريق البر، وأقاموا فيها شهور يتعرفون أخبار مليبار وأحوالها.. وسبب وصولهم إلى مليبار على ما يحكى عنهم طلب بلاد الفلفل ليختص تجارته بهم"[٤٣].

ولا شك أن نجاح فاسكو دي غاما في الوصول إلى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح، قد فتح الباب على مصرعيه أمام الأطماع البرتغالية في فرض سيادتها على جميع الموانئ التجارية الواقعة على الطريق البحري بين الهند ورأس الرجاء الصالح، والسيطرة على مداخل البحر الأحمر والخليج العربي، وجعلها مراكز منيعة للبرتغاليين وإغلاقها أما التجار العرب[٤٤].

من هنا أرسلت البرتغال للمنطقة العديد من الحملات العسكرية المتتالية لتحقيق أهدافها الاستعمارية، كانت أولاها سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) بقيادة ديوجو دياز (Diego Diaz)، أسفرت عن احتلال البرتغاليين لجزيرة مدغشقر[٤٥]، والاستيلاء على الكثير من مدن ساحل شرق أفريقيا[٤٦]. ثم وفي أواخر نفس السنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)، أرسل الملك عمانويل حملة أخرى للهند بقيادة الفاريز كابرال (Alvarez Cabral)، وجعل هدفها إنشاء مركز تجاري للبرتغال على ساحل الهند، غير أن كابرال لم يكد أن تطأ قدماه كاليكوت حتى أخذت تتسم تصرفاته بالعجرفة خاصة ضد التجار المسلمين الذين حاولوا منعهم من ممارسة التجارة، بل أنه تعدى هو ورجاله عليهم مما شكك الزامورين حاكم كاليكوت في نواياهم وتوجس خيفة منهم، فأمر بقتالهم، فقتل منهم نحو سبعين رجلاً[٤٧]، ويلخص المليباري خبر حملة كابرال فيقول: "دخلوا في كاليكوت على هيئة التجار، واشتغلوا بالتجارات، وقالوا لعمال السامري[٤٨] ينبغي منع المسلمين من تجاراتهم، ومن السفر إلى بر العرب .. ثم أنهم تعدوا على المسلمين، فأمر السامري بقتلهم، فقتل منهم نحو سبعين أو ستين رجلاً وهرب الباقون"[٤٩]. وعندما عجز كابرال عن المواجهة قفل عائدًا إلى لشبونة.

أدت أنباء المذبحة التي تعرضت لها قوات كابرال في كاليكوت، إلى تصميم الملك البرتغالي عمانويل على إرسال أسطول حربي قوي للهند للثأر من المسلمين ومن حاكم كاليكوت، وجعل على قيادة هذا الأسطول الذي تكون من عشرين سفينة فاسكو دي غاما، الذي غادر لشبونة سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م)، بعد أن حدد له سيده خطة أعماله، التي تضمنت القضاء على نفوذ العرب التجاري في الهند، وتمزيق كل قواتهم التجارية هناك[٥٠]، وتحويل طريق تجارة التوابل إلى طريق واحد فقط تحت سيطرة الأساطيل البرتغالية دون غيرها وهو طريق رأس الرجاء الصالح، وسد المنافذ التجارية البحرية أمام التجارة العربية الإسلامية في الخليج العربي والبحر الأحمر، ومنع أي سفينة من دخول البحر الأحمر بالذات أو الخروج منه، بهدف إضعاف القوى الإسلامية في كل مناطق الشرق[٥١].

وما كاد دي غاما يصل المياه الهندية، حتى مارس القرصنة والإرهاب البشع ضد المسلمين، من خلال التمثيل بأجسادهم، وتقطيع أعضائهم، وسرقة البضائع من السفن وخاصة الإسلامية، مثال ذلك السفينة المسماه "مريم" المملوكة للسلطان قانصوه الغوري، التي استولى عليها أمام ساحل المليبار وكانت محملة بالتوابل بالإضافة إلى بعض الحجاج الهنود الذين كانوا يقصدون مكة المكرمة، إذ بعد أن نهب ما فيها من بضائع، قام بحرقها بمن عليها[٥٢]. وكان السلطان الغوري لما علم بذلك استاء كثيرًا ونذر أن ينتقم من البرتغال أشد انتقام[٥٣].

وكان فاسكو دي غاما بعد وصوله إلى الهند توجه إلى حاكم كنانور[٥٤] ثم حاكم كوشين[٥٥] وعقد معهم معاهدات تجارية، ثم توجه بأسطوله إلى كاليكوت وحاول في بداية الأمر التقرب من الزامورين وديًا، وعندما فشل في ذلك أمطر المدينة بوابل من مدفعيته ثم قفل عائدًا إلى لشبونة بعد أن ترك عددًا من سفنه تحت قيادة أحد ضباطه لتجوب المحيط الهندي للقيام بأعمال القرصنة البحرية ومهاجمة السفن الإسلامية، كذلك أمره بإغلاق البحر الأحمر أمام السفن العربية الداخلة والخارجة منه[٥٦].

ويبدو أن هذه القوات قد نشطت في ممارسة القرصنة ضد السفن الإسلامية وهذا ما لاحظه ابن الديبع بأم عينه، إذ يذكر في حوادث سنة (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) قيام مجموعة من مراكب الفرنج في البحر بطريق الهند وهرمز بالاستيلاء على سبعة مراكب

للمسلمين بعد أن قتلوا أهلها[٥٧]. أما اليمني فيذكر أنه في هذه السنة أي (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) "كثرت مراكب الإفرنج في بحر الهند وهرمز وتلك الجهات، وعظم أذاهم للمسلمين"[٥٨].

وتتابعت الحملات البرتغالية لترصين مركزهم في الهند، ونقل طريق تجارة التوابل إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح بدلاً من البحر الأحمر، ولعل من أهم تلك الحملات العسكرية التي تلت حملة فاسكو دي غاما، حملتي القائد ألفونسو دي البوكيرك (Alfonso de Albuquerque)، فقد جاءت الحملة الأولى سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م)، لتحقيق هدفين؛ الأول احتلال جميع الموانئ التجارية على طول الطريق البحري بين رأس الرجاء الصالح والهند، وجعلها مراكز برتغالية حصينة[٥٩]، والثاني الانتقام من الزامورين حاكم كاليكوت الذي تغلب على مملكة كوشين الهندية وقضى على الحامية البرتغالية فيها بعد عودة دي غاما، وقد نجح البوكيرك من تنفيذ مهمته وأجبر الزامورين على دفع غرامة عينية كبيرة وإقامة قلعة برتغالية في بلاده[٦٠]، وكان البوكيرك قد استغل فترة إقامته في الهند بجمع المعلومات عن الأوضاع التجارية والسياسية في الهند، ووضع الخطط المناسبة التي تضمن لبلاده السيطرة البحرية في المنطقة، وضمنها في تقريره الذي قدمه للملك عمانويل بعد عودته للبرتغال سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م)، وكان من أهم ما جاء في ذلك التقرير ضرورة احتلال جزيرة سوقطرة[٦١] ثم ميناء عدن للتحكم في مدخل البحر الأحمر، واحتلال هرمز[٦٢] للسيطرة على تجارة الخليج العربي[٦٣].

وفي سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، استقر رأي الملك عمانويل على تعيين نائب له بصفة دائمة في الهند، فوقع اختياره على الدوق فرنسيسكو دي الميدا (Francisco de Almeida)، فغادر الميدا لشبونة في ٩١١هـ/ أيار ١٥٠٥م، واتخذ من كوشين مقرًا لقيادته، وعمل على تثبيت الوجود البرتغالي في الهند، كما أنه أصدر قانون (Cartazes) الذي فرض بموجبه على جميع السفن الإسلامية المارة ببحر الهند الحصول على تصاريح خاصة مقابل أداء مبالغ معينة، وقد هدف هذا القانون للحد من النشاط التجاري العربي الإسلامي في سواحل المليبار، إذ أصبحت السفن الإسلامية لا تبحر إلا بتصريح برتغالي، ومع مرور الوقت لم يعد البرتغاليون يراعون هذا التصريح، فقد أخذوا بممارسة القرصنة ضد السفن الإسلامية سواء أكان لديها تصريح أم لا[٦٤]، ويؤكد ذلك النهروالي بقوله:" فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرًا ونهبًا، ويأخذون كل سفينة غصبًا، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين، وعم أذاهم على المسافرين"[٦٥].

هذا وعندما اشتد خطر البرتغاليون على التجار العرب والمسلمين المقيمين في كاليكوت وغيرها من المراكز التجارية الهندية، بل وتعيق تجاراتهم في سواحل الجنوب العربي والمحيط الهندي، استنجد التجار المسلمون بالسلطان الغوري في مصر، مبينين له خطر هؤلاء الغزاة الجدد الذين يصحبون معهم الجنود لغزو البلاد الإسلامية، والرهبان للتبشير بالمسيحية، فضلاً عن خطرهم العاجل على مصر من خلال حرمانها من مورد مالي عظيم يعتبر من أهم موارد دخلها، وجاء رد الغوري على نداء الاستغاثة هذا في الحال، فجهد على الاستجابة له بالوسائل السلمية الدبلوماسية من جهة، كما شرع في تجهيز حملة حربية لمواجهته من جهة أخرى[٦٦].

وفي سنة (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م)، عاد البوكيرك مرة أخرى للهند على رأس حملة جديدة، وهذه المرة بصفته نائبًا للملك في الهند، خلفًا للدوق الميدا، وحدد الملك عمانويل له هدف رئيس يجب عليه العمل لتحقيقه وهو سد منافذ التجارة الإسلامية المتمثلة في البحر الأحمر والخليج العربي[٦٧]. فاستولى البوكيرك سنة (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م) على جزيرة سوقطرة الواقعة في منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي، كما حاول الاستيلاء على عدن في نفس السنة لكنه فشل أمام قوة تحصيناتها واستبسال أهلها، مما اضطره ذلك إلى الانسحاب فتوجه إلى الخليج العربي فاستولى على جزيرة هرمز بعد معركة عنيفة، يقول ابن الديبع "وفي هذه السنة (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م) غلب الفرنج على مدينة هرمز وأخذوها وأسروا أهلها المسلمين والتجار"[٦٨]. وفي سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م) استولى البوكيرك على مدينة قلهات[٦٩]، ومدينة مسقط التي كانت تشكل الميناء الرئيس على ساحل عمان، وذلك بعد أن دمرهما وأضرم النيران بهما[٧٠].

واتجه البوكيرك بعد ذلك بأنظاره إلى مدينة جوا (Goa) على الساحل الغربي في ولاية بيجابور الهندية، فاستولى عليها واتخذ منها عاصمة لمستعمرات البرتغال في الشرق[٧١]، ومن جوا كتب البوكيرك رسالة إلى مليكه عمانويل سنة (٩١٧هـ/ ١٥١٢م)، يبين له فيها ضرورة الاستيلاء على البحر الأحمر، ومما جاء فيها "إنه لن يكون هناك ثقة أو سلام لرعايا جلالتكم في هذه الأجزاء، إلا بأن نذهب إلى البحر الأحمر"[٧٢]. وكان البوكيرك يضع في نصب عينيه حال دخوله البحر الأحمر تنفيذ مشروعه الذي طالما حلم به والذي يحمل طابعًا صليبيًا، وهو احتلال المدينة المنورة ونبش قبر الرسول (ﷺ)، ليجعله رهينة ليفاوض به سيده تسليمه للمسلمين مقابل تنازل المسلمين عن الأماكن المقدسة المسيحية في القدس، فقد جاء في يوميات البوكيرك

قوله: "كان هدفنا الوصول إلى الأماكن المقدسة للمسلمين، واقتحام المسجد النبوي، وأخذ رفاة النبي محمد(ﷺ) رهينة، لنساوم عليها العرب من أجل استرداد القدس"[٧٣].

ومن خلال دراسة الأوضاع المحيطة بالبحر الأحمر وجد البوكيرك أن احتلال الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز يستلزم إنشاء قاعدة بحرية عند مدخل البحر الأحمر، لذلك فكر في احتلال عدن التي تعد المدخل الحقيقي للبحر الأحمر واتخاذها قاعدة له، ولم يشأ أن يضيع الوقت فخرج في شباط ١٥١٣م على رأس حملة كبرى من جوا تكونت من عشرين سفينة وألف وسبعمائة جندي برتغالي وبضع مئات من الهنود المناصرين له[٧٤]، وحاول البوكيرك فور وصوله لساحل عدن الاتصال بحاكم المدينة "مرجان الظافري" لتسليم المدينة بدون قتال، غير أن عدم استجابة مرجان لطلبه دفعه إلى إصدار أوامره بالهجوم الشامل على المدينة في شهر محرم ٩١٩هـ/ آذار ١٥١٣م، مستخدمًا المدافع لضرب المدينة والسلالم لتسلق أسوارها، إلا أن جميع محاولاته لاقتحام المدينة باءت بالفشل، مما اضطره للانسحاب باتجاه باب المندب بعد أن تكبد خسائر فادحة في الأرواح والعتاد[٧٥].

وأثناء انسحابه من عدن مرّ البوكيرك بجزيرة بريم الواقعة عند مدخل البحر الأحمر، وعندما وجدها غير ملائمة لإقامة الحصون عليها أحرقها وغادرها متوجهًا نحو جزيرة كمران[٧٦]، ورغم مقاومة أهلها إلا أنه تمكن من الاستيلاء عليها في بداية شهر صفر سنة ٩١٩هـ/ إبريل ١٥١٣م، وأثناء إقامته بها والتي استمرت أربعة أشهر، استولى البوكيرك على أربعة سفن إسلامية تتبع إحداها للسلطان قانصوه الغوري، فأخذ السلع منها ثم أحرقها بعد أن نكل ببحارتها[٧٧].

ومن جزيرة كمران تطلع البوكيرك إلى غزو ميناء جدة، ثم الوصول للمدينة المنورة ونبش قبر الرسول (ﷺ)، تنفيذًا لوصية مليكه عمانويل باقتلاع جذور الإسلام وضربه في عقر داره، فخرج في شهر ربيع الأول سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) على رأس أسطول مؤلف من أربعمائة سفينة، لكن الرياح اضطرته الرجوع إلى جزيرة كمران قبل الوصول إلى جدة[٧٨]، بينما تشير إحدى الروايات أن سبب فشل حملة البوكيرك على جدة هو رؤية البوكيرك أثناء مسيرة حملته في الليل وهج ولهب في السماء فوق الحجاز والمدينة المنورة، وأن ذلك الوهج لم يلبث أن تحول إلى كتلة من النار ثم تحركت تلك النار فتوقفت فوق سفن البرتغاليين فترة ثم تحركت سريعًا صوب الحبشة لتختفي هناك، وقد أصيب البوكيرك بالذعر لذلك فأصدر أوامره بالعودة إلى كمران، وبقي هناك مدة أكثر من شهرين، شن خلالهما حملات تخريبية ضد موانئ البحر الأحمر، فهاجم مينائي زيلع[٧٩] وبربرة[٨٠]، واستخدمهما للاستيلاء على السفن الإسلامية القادمة من البحر الأحمر، كما عاود هجومه مرة ثانية على عدن فضربها بالمدافع حوالي خمسة عشر يومًا، ثم غادر البحر الأحمر عائدًا إلى الهند في أول شهر جمادى الثانية سنة ٩١٩هـ/ آب ١٥١٣م[٨١].

وكان البوكيرك عقب استيلاءه على هرمز ومسقط، توجت أنظاره مرة أخرى إلى عدن، التي كان الاستيلاء عليها يعتبر من أهم دوافع حملته التي جاء من أجلها من البرتغال، لذلك فقد غادر في شهر محرم ٩٢١هـ/ شباط ١٥١٥م مقر حكمه جوا على رأس حملة كبيرة نحو البحر الأحمر لاحتلال عدن ومهاجمة الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز، غير أن انتفاض هرمز ضد البرتغاليين جعله يتوجه رأسًا إليها ويؤجل شأن عدن إلى حين، إلا أن المنية عاجلته أثناء ذلك[٨٢].

وهكذا كانت محاولة البوكيرك غزو البحر الأحمر في محرم ٩٢١هـ/ شباط ١٥١٥م، أخر التهديدات البرتغالية لبلاد العرب والمسلمين في البحر الأحمر والخليج العربي، ولمصالحهم التجارية في مياه المحيط الهندي في عهد السلطان الغوري، وشكل موت البوكيرك المفاجئ ضربة قاصمة للملك البرتغالي عمانويل الأول لما أبداه البوكيرك من تهديد قوي للمسلمين في الهند والبحر الأحمر، وتبنيه مشروع تدمير المقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، في حين شكل موت البوكيرك بارقة أمل للعرب والمسلمين في الهند والخليج العربي ومصر بتراجع حدة التهديد البرتغالي لهم.

أما عن دوافع البرتغاليين من مد نفوذهم إلى البحر الأحمر ومحاولاتهم المتكررة للسيطرة عليه في عهد السلطان الغوري، فيمكن إرجاعها إلى ما يلي:

1. رغبتهم في احتكار تجارة الشرق ومن ثم إنهاء دور العرب والمسلمين في تجارة التوابل، وخنق اقتصادهم بإغلاق منافذ التجارة العربية، وذلك أن التجارة بين الشرق والغرب كانت من أقدم الأزمنة تسلك طريق البحر الأحمر ومصر، وكان المستفيد الأكبر من تلك التجارة هما دولتي المماليك والبنادقة، لذا تطلع البرتغاليون إلى كسر ذلك الاحتكار من خلال تحويل تجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح ومنها إلى لشبونة ليتم تسويقها في دول أوروبا، وتتضح هذه الرغبة بشكل جلي في رد الملك البرتغالي عمانويل على نداء البابا يوليوس قيصر سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، الذي طلب منه الحد من الحملات إلى المحيط الهندي بهدف إنجاح الجهود الرامية

إلى تحسين علاقات دول أوروبا مع سلطنة المماليك، إذ أجابه عمانويل قائلاً: "لست عازمًا فقط على خنق التجارة المملوكية، بل سأجاهد في سبيل المسيحية حتى أجعل من مكة هدفًا لمدافعي وجنودي"(٨٣).

٢. كان البرتغاليون يعتزمون من دخول البحر الأحمر تنفيذ مخطط صليبي، يقوم على استيلائهم على جدة ثم الزحف منها على مكة المكرمة، ثم المدينة المنورة، وتدمير المقدسات الإسلامية فيها، ونبش قبر الرسول (ﷺ)، ثم استئناف زحفهم إلى تبوك ومنها إلى بيت المقدس للاستيلاء على المسجد الأقصى(٨٤). ولعل مما يؤكد ذلك قبض أمير مكة على ثلاثة جواسيس برتغاليون سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، كانوا يحومون حول المسجد الحرام، وبعد التحقيق معهم اعترفوا أنهم قدموا ليعملوا جواسيس وأدلاء للجيش البرتغالي الصليبي عند دخولهم مكة، وقد أرسل بهم أمير مكة إلى السلطان الغوري في مصر لينزل بهم ما يستحقون من عقاب(٨٥).

٣. تحويل المسلمين في الجزيرة العربية ومصر وأينما وجدوا إلى المسيحية، ويشير إلى ذلك المؤرخ المسلم المعاصر المليباري بقوله: "ثم أن بغيتهم العظمى، وهمتهم الكبرى قديمًا وحديثًا تغيير دين المسلمين، وإدخالهم في النصرانية نعوذ بالله من ذلك"(٨٦).

ثالثًا: جهود السلطان قانصوه الغوري في مواجهة الأطماع البرتغالية في البحر الأحمر

اعتلى السلطان قانصوه الغوري عرش السلطنة المملوكية في مصر سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م)، وكانت البرتغال قبل وصول الغوري قد اكتشفت رأس الرجاء الصالح سنة (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م)، كما أنها كانت قد تمكنت من خلال فاسكو دي غاما من الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول رأس الرجاء الصالح سنة (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م)، ومنذ أواخر سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) كان البرتغاليون قد بدأوا بالفعل بإغراق السوق الأوروبية بالتوابل وغيرها من حاصلات الشرق بثمن يعادل ربع ثمنها في موانئ مصر، فمثلاً في الوقت الذي بلغ فيه ثمن قنطار الفلفل في الإسكندرية ٨٠ بندقيًا، صار يباع في لشبونة البرتغالية بعد الكشف الجغرافي بسعر تراوح بين ٢٠ و٤٠ بندقيًا(٨٧).

ونتيجة للكشوف البرتغالية وسيطرتهم على تجارة الهند، بدأت تجارة مصر الخارجية بالتدهور التدريجي، وكان السلطان الغوري قد لجأ في محاولة منه لحل أزمة مصر المالية في بداية عهده بفرض رسوم جديدة على تجارة الوارد والصادر في موانئ الإسكندرية ودمياط(٨٨)، فامتنع نتيجة ذلك التجار الأوروبيون عن التصدير عبر موانئ مصر، وهذا ما أحدث خلل في الميزان التجاري المصري، إذ أن التوابل غدت مكدسة في الإسكندرية ودمياط بعد أن قل المشترين، ويصف ابن إياس ما وصلت إليه حالة التعطل في موانئ مصر سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، بقوله إن :"بندر الإسكندرية خراب ولم تدخل إليه القطائع في السنة الخالية، وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحوًا من ست سنين، وكذلك جهة دمياط"(٨٩).ولم يكن التجار البنادقة الذين كانوا يقومون بدور الوساطة التجارية بين الشرق والغرب أقل تأثرًا من مصر، جراء اكتشاف البرتغاليين للطريق الجديد بين الشرق والغرب، فأخذ البنادقة بتحريض السلطان الغوري على حرب البرتغاليين وطردهم من الهند(٩٠)، هذا في الوقت الذي وصلت فيه نداءات الاستغاثة من ملوك الهند ومسلميها للسلطان الغوري يستصرخونه ضد الغزاة الجدد ويخبروه بأعمالهم المشينة بحق المسلمين مثل هتك حرمات المساجد، ونهب أموالهم، وإجبارهم على الردة(٩١)، هذا ناهيك عن انتهاج الجنود البرتغاليين القرصنة ضد السفن الإسلامية الدخلة والخارجة من البحر الأحمر، والتنكيل بالتجار العرب والمسلمين وقتلهم، وكانت سفن السلطان الغوري نفسه قد تعرضت للقرصنة والنهب(٩٢).

ورغم ما واجهه السلطان الغوري من بعض فتن العربان والجنود في مطلع عهده، علاوة على الأزمة الاقتصادية التي كانت تعصف بالدولة، فعندما تولى الغوري السلطنة كانت خزائن الدولة خاوية على عروشها، إلا أنه أولى خطر الغزو البرتغالي للهند والبحر الأحمر، وما ترتب على ذلك من حرمان مصر من المورد الأول لثروتها جل عنايته، وحاول معالجة هذا الخطر الذي أخذ يهدد سلطنته خاصة، وكيان المسلمين الديني والسياسي عامة، بإتباع أسلوبين؛ الأول سلمي من خلال الوسائل الدبلوماسية، والثاني عسكري من خلال المواجهة الحربية.

٣/١-جهوده السياسية

لجأ السلطان قانصوه الغوري في بداية الصراع مع البرتغاليين في البحر الأحمر ومياه المحيط الهندي إلى الوسائل الدبلوماسية، وذلك من خلال إرسال واستقبال السفارات مع

ملوك وأمراء أوروبا وبابا روما، والسلطان العثماني، وبعض حكام الولايات الإسلامية في الهند، حتى غدا بلاطه مسرحًا مليئًا بالوافدين والسفراء، وليس أدل على ذلك من قول ابن إياس إذ يذكر أنه اجتمع عند السلطان في أحد الأشهر "أربعة عشر قاصدًا، وكل قاصد من عند ملك على انفراده، فمن ذلك قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم.. وقاصد الملك محمود (ملك الهند).. وقاصد ملك الفرنج الفرانسة.. وقاصد البنادقة.. وغير ذلك"[٩٣].

وبدأ الغوري جهوده الدبلوماسية بتنسيق موقفه مع البندقية أكبر شريك تجاري لمصر، فاستقبل سنة (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م)، سفارة سرية للبندقية برئاسة بنديتو سانوتو (Bandetto Sanuto) الذي بين للغوري الأخطار التي تمثلها التجارة البرتغالية في الهند وأوروبا، واهتمام البندقية للتعاون مع مصر في مقاومة المشروعات البرتغالية في الهند، واقترح سانوتو على الغوري تخفيض أسعار التوابل، وخفض الرسوم الجمركية في الموانئ المصرية لإقناع التجار البنادقة بمواصلة نشاطهم التجاري في السوق المملوكية، ولكي يتمكنوا من منافسة خصومهم البرتغاليين في الأسواق الأوروبية[٩٤].

وأتبعت البندقية هذه السفارة، بسفارة أخرى سنة (٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م)، برئاسة فرانسيسكو تالدي (Fransisco Taldi)، نبهت من خلالها السلطان الغوري إلى ازدياد النشاط البرتغالي في الهند، وبيعهم التوابل في أوروبا بأرخص من أسعار مصر، وكان من أهم ما جاءت به هذه السفارة من اقتراحات، أن يغرق السلطان الغوري الأسواق بالتوابل حتى يستطيع منافسة البرتغال، وأن يستخدم نفوذه لدى أمراء الهند لقطع صلاتهم التجارية بالبرتغاليين، وأن ترافق سفن عسكرية السفن التجارية المملوكية لحمايتها[٩٥].

وبعد أن استمع السلطان الغوري إلى مخاوف البندقية، ارتأى أن يبعث برسالة إلى بعض الدول الأوروبية منها إيطاليا وإسبانيا لحث هذه الدول على وقف حملات البرتغال على الهند، وقام بحمل هذه الرسالة رئيس رهبان الفرنسيسكان بدير صهيون في بيت المقدس مورو دي سان برناردينو (Mauro di San Bernurdion)، وقد وصل الموفد إلى البندقية أولاً وسلم صاحبها رسالة من السلطان لتقديم مساعدات عسكرية[٩٦]، ثم قصد روما وهناك التقى البابا يوليوس الثاني في ربيع (٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م)، وأبلغه رسالة الغوري، ووعده البابا بالكتابة إلى ملك البرتغال لوقف إرسال الحملات الحربية للهند، ثم أتم الراهب مورو جولته في بلاط كل من أسبانيا والبرتغال، غير أنه عاد خالي الوفاض[٩٧].

ولما لم تأت جولة الراهب مورو إلى أوروبا أوكلها، عكف السلطان الغوري على رفع وتيرة لهجته في تعامله مع البابا يوليوس الثاني وملك البرتغال عمانويل، فقد أرسل إليهم في نفس العام (٩٠٩هـ/١٥٠٤م)، برسالة شديدة اللهجة يطلب منهم أن يكف البرتغاليون عن أعمالهم العدائية في مياه المحيط الهندي والبحر الأحمر، وإلا فإنه سيضطر إلى قتل كافة الفرنج في بلاده، وتدمير الأماكن المقدسة المسيحية وفي مقدمتها كنيسة القيامة[٩٨]. وفي الوقت الذي انزعج في البابا من تهديد السلطان الغوري، لم يبد ملك البرتغال أي اهتمام لذلك التهديد وطلب من البابا ألا يهتم لتهديدات الغوري لأنه ليست لديه القوة الكافية لتنفيذ التهديدات، ومما جاء في رد الملك عمانويل على نداء البابا الذي طلب منه الحد من الحملات البرتغالية على المحيط الهندي، قوله: لست عازمًا فقط على خنق التجارة المملوكية، بل سأجاهد في سبيل المسيحية حتى أجعل من مكة هدفًا لمدافعي وجنودي[٩٩]، كما أنه دعا البابا إلى ضرورة تكثيف جهوده في سبيل، ليس المصالحة مع سلطنة المماليك، وإنما في سبيل توحيد الدول والممالك المسيحية تحت قيادة البرتغال لاستعادة الأراضي المسيحية المقدسة في الشرق[١٠٠].

أدت فشل سياسة الوعيد والتهديد مع الملك البرتغالي، إلى أن يتجه السلطان الغوري للتجهز لمحاربة البرتغاليين الذين اشتدت وطأتهم في مياه المحيط الهندي وأوشكوا على الانتقال إلى مياه البحر الأحمر وتهديد كيان الدولة المملوكية تهديدًا مباشرًا، ولتأمين موارد إعداد الأسطول الحربي لجأ الغوري إلى رفع أسعار التوابل، وزيادة رسوم الجمارك في موانئه، غير أن قائد سفن البنادقة لم يمثل لقرارات الغوري وغادر ميناء الإسكندرية دون إذن مما عرض سفنه للضرب بنيران المدفعية، إلا أنه نجح في الإفلات، وعلى أثر ذلك قبض السلطان الغوري على قنصل البندقية وقناصل الدول الأخرى ورعاياهم بمصر وسوريا وأودعوهم السجن بعد أن تمت مصادرة متاجرهم[١٠١].

وبينما كان السلطان الغوري يتجهز للقيام بعمل عسكري ضد البرتغال في الهند، وصلت إليه الأنباء عن تدعيم البرتغال لأسطولها التجاري في الهند بسفن حربية للحماية، وهنا أدرك الغوري استحالة مقاومة البرتغال بمفرده، فرأى أن يتعاون مع البندقية وغيرها من الدول الأوروبية للقيام بعمل جاد لمواجهة الموقف المتدهور في الهند، فقرر إرسال بعثة إلى البندقية للمفاوضة في طلب المعونة العسكرية من أخشاب وسلاح،

وإعادة التجارة إلى ما كانت عليه لا سيما وأن إيراداته انخفضت بصورة كبيرة، وأوكل مهمة هذه السفارة إلى ترجمانه تغرى بردى الأسباني الأصل، الذي غادر القاهرة في ٩١٠هـ/ آذار ١٥٠٥م، على إحدى سفن البندقية، وكان في طريقه قد نزل بقبرص التابعة لمصر، واصطحب منها من أرشده إلى رودس حيث خاض فيها مفاوضات مع مقدم اسبتاريتها أمايري وامبوز (Ameiry DAmboise)، بشأن وقف أعمال القرصنة والاعتداء التي يمارسها فرسان الإسبتارية ضد السفن الإسلامية والتجارية أثناء عبورها لمياه رودس[١٠٢]. ثم واصل تغرى برى طريقه إلى البندقية، وهناك انتهت المفاوضات إلى عقد اتفاق تجاري بين الدولتين تضمن عودة التجار البنادقة إلى موانئ مصر والشام، وإطلاق صراح السجناء البنادقة في مصر، وتحديد سعر التوابل وتخفيف الرسوم الجمركية، أما عن تقديم المساعدة العسكرية، فقد اعتذر البنادقة خوفًا من تأليب الرأي العام الأوروبي ضدهم[١٠٣].

وبعد البندقية استأنف تغرى برى رحلته إلى روما وبعض دول أوروبا، ثم عاد إلى القاهرة سنة ٩١٢هـ/ أيلول ١٥٠٧م، بعد أن استغرقت رحلته ثمانية عشر شهرًا، دون أن يحقق غرضًا ايجابيًا سوى إسماع صوت سيده الغوري للمسئولين في روما وأوروبا، وقد عزا تغرى بردى فشل مهمته إلى موقف البنادقة ذي الوجهين من طلبات السلطان، مما جعله يوغر صدر سيده عليهم، وبالفعل اتخذ الغوري إجراءات قاسية بحقهم[١٠٤].

ولتنشيط حركة التجارة في موانئ مصر، وتوفير مورد لبناء الأسطول الحربي، لجأ الغوري إلى توثيق علاقاته السياسية والتجارية بمملكة فلورنسا، فقد أرسل إليهم سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م، رسالة مع ترجمانه تغرى بردى تضمنت قرارًا يقضي بالترخيص للفلورنسيين بدخول موانئ مصر والشام، ومنحهم الرعاية والحماية، وفي عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، وقع السلطان الغوري مع فلورنسا اتفاقية نصت على إنشاء قنصلية دائمة لهم في القاهرة، ومنحهم موسمًا تجاريًا بالإسكندرية، مع معاملة التجار الفلورنسيين معاملة خاصة في مصر[١٠٥]، ومما جاء فيها "لا أحد يعترض عليكم، أو يزعجكم، أو يضايقكم"[١٠٦]. وفي أعقاب هزيمة الأسطول المملوكي في معركة ديو[١٠٧] البحرية سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م)، ورأى السلطان الغوري أن احتياطيه من المال والسلاح يتناقص، أصدر أوامره بالقبض على تجار البنادقة في مصر وسجنهم بالقاهرة، وبين لهم أن حريتهم مرهونة بمساعدة جمهوريتهم لمصر حربيًا في الهند، ولما بلغ البندقية ما حدث سارعت في إبداء استعدادها لمساعدة السلطان الغوري حربيًا في الهند بما تستطيع[١٠٨].

ولما اشتد الخطب بالسلطان الغوري أيضًا بعد هزيمة ديو البحرية، وعكف على تجهيز حمله جديدة لحرب البرتغاليين والتصدي لخطرهم في البحر الأحمر، لم يجد مفرًا من الاستعانة بالسلطان العثماني بايزيد الثاني[١٠٩] (٨٨٧-٩١٨هـ/ ١٤٨١-١٥١٢م)، طالبًا منه أن يبيعه ما يلزم من أخشاب وعتاد، ومناشدًا إياه مساعدته في العمل على المحافظة على المقدسات الإسلامية في الحجاز، وقد وجد السلطان الغوري في السلطان العثماني خير معين، فقد أرسل إليه في جمادى الثانية سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، ثماني عشرة سفينة محملة بالأخشاب والعتاد، غير أن هذه السفن تعرضت للهجوم من قبل فرسان الإسبتارية في جزيرة رودس وهي في طريقها لمصر، بعد أن تأكدوا أن الشحنة من السلاح والخشب معدة لحرب البرتغاليين، ولم يصل منها للإسكندرية سوى سفينة واحدة خاوية، وشكلت هذه الحادثة كارثة بالنسبة للسلطان الغوري الذي "تنكد إلى الغاية وامتنع عن الأكل يومين"[١١٠].

وقابل السلطان الغوري هذا الخطب بإلقاء القبض على جميع التجار الفرنج المقيمين بالإسكندرية ودمياط، وأجبر مطران دير جبل صهيون على دفع غرامة قدرها أربعة آلاف دوكات، كما أنه نكل بالبنادقة لظنه أنهم هم من وشوا بأمر هذه السفن لفرسان الإسبتارية[١١١]. وعاد السلطان الغوري بعد عدة أشهر بإرسال موفد جديد للسلطان العثماني بايزيد الثاني وهو "يونس العادلي" لشراء الأخشاب والسلاح، فما كان من السلطان بايزيد إلا أن أسرع في تأمينه بما يحتاج من بنادق وبارود وأخشاب ونحاس وحديد وحبال ومراسي وغير ذلك مما يحتاج إليه في بناء السفن، وكان السلطان بايزيد أرسل كل ذلك معونة منه رافضًا أخذ المال[١١٢].

وتكررت تلك المساعدات العسكرية العثمانية لمصر طوال عهد السلطان بايزيد الثاني، مما يشير إلى تميز العلاقات العثمانية المملوكية بحسن الجوار خلال تلك الفترة، إلا أنه في عهد السلطان سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/ ١٥١٢-١٥٢٠م)، ساءت العلاقات بين البلدين بسبب استيلاء السلطان سليم على إمارة دلغادر المشمولة بحماية سلطنة المماليك، واتهام السلطان سليم للغوري بالتواطؤ مع الدولة الصفوية الشيعية أثناء الحرب التي نشبت بين الدولتين العثمانية والصفوية لتصفية ما بينهما من مشاكل مذهبية وسياسية سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م)[١١٣].

وفضلاً عن أخطار الفرسان الإسبتارية في رودس الذين أعاقوا جهود مصر ضد البرتغاليين في مياه الهند والبحر الأحمر، بلغ تآمر الفرنج على المماليك ذروته في هذه الأثناء، إذ حدث في شهر جمادى الأولى سنة ٩١٦هـ/ أيلول ١٥١٠م، أن قبض أحد رجال الغوري على رجل من قبرص يرافقه فارس، يحملان معهم خطابات من الشاه إسماعيل الصفوي لقنصلي البنادقة في دمشق والإسكندرية للاستعانة بدولة أوروبية للقيام بهجوم بحري على سواحل مصر، في حين تقوم الدولة الصفوية بمهاجمتها برًا، وقد زادت هذه الحادثة من الوحشة بين الغوري والبنادقة، فقبض على القنصلين وسجنهما في القاهرة، كما أنه نفذ تهديده الذي طالما ردده وهو قفل الأماكن المقدسة المسيحية، إذ أغلق كنيسة القيامة وصادر محتوياتها(١١٤).

ويبدو أن تنكيل السلطان الغوري بالبنادقة والتجار الفرنج في موانئ مصر، ومصادرتهم أموالهم، وإغلاقه كنيسة القيامة قد أتت أوكلها، فقد وصلت إلى القاهرة في شهر محرم ٩١٨هـ/ آذار ١٥١٢م سفارة من قبل ملك فرنسا لويس الثاني، وقد تمحورت مباحثات السفير الفرنسي مع السلطان الغوري حول فتح كنيسة القيامة، ووقف هجمات فرسان رودس، ومنح الفرنسيين تسهيلات تجارية في أراضي الدولة المملوكية، لكن على ما يبدو أن هذه السفارة لم تنجح إلا في إطلاق سراح بعض الأسرى الفرنسيين(١١٥). وما أن انتشرت أنباء وصول البعثة الفرنسية للقاهرة، حتى أسرعت البندقية بدورها إلى إرسال مبعوث من قبلها للقاهرة في ربيع الأول ٩١٨هـ/ أيار ١٥١٢م، وهو دومينكو تريفزاني (Domenico Trevisani) كسفيرًا ومندوبًا فوق العادة، وقد نجح تريفزاني في مهمته على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، إذ تمكن من إقناع السلطان من براءة دولته من تهمة التآمر مع الدولة الصفوية ضده، وإطلاق سراح البنادقة المسجونين في مصر، وفتح الموانئ المصرية أمام التجار البنادقة، هذا إلى جانب تعهده بتزويد مصر بالأسلحة والأخشاب(١١٦). وهكذا أعيدت العلاقات بين مصر والبندقية بعد فترة من الوحشة والمخاصمة.

وفي خطوة منه لكسب تأييد الدول الأوروبية، وعطفهم لمصر، ودعمها ضد البرتغال، أصدر السلطان الغوري في شهر محرم ٩١٩هـ/ آذار ١٥١٣م، مرسوم ينص على إعفاء جميع طوائف الرهبان المسيحيين من دفع الرسوم المقررة التي كانت تجبى منهم عند دخولهم فلسطين، وعند زيارتهم لكنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المقدسة، ومنع التعرض لهم بأذى أو بمكروه(١١٧). هذا ولم تشهد السنوات الثلاث الأخيرة من عهد الغوري نشاط دبلوماسي على المستوى الأوروبي، ويبدو أن هيمنت البرتغال على تجارة الشرق، وإفشالها لكل تدابير السلطان الغوري فيما يتعلق بمحاولة إفساده العلاقات التي نشأت بين البرتغال وأمراء مراكز إنتاج التوابل في الهند مثل مملكة كنانور ومملكة كوشين، هذا ناهيك عن نجاح البرتغال في استقطاب سفن التجار الفلورنسية والجنوية والألمانية للسفر إلى الهند تحت لواء البرتغال مقابل حصة معينة من حمولاتها(١١٨)، قد دفع الغوري إلى توقيف الجهود الدبلوماسية مع الأوروبيين، والتفرغ لتوثيق علاقاته مع الممالك الهندية سواء الإسلامية منها أو الهندوسية، لمجابهة البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي عسكريًا.

٢/٣-جهوده العسكرية

بعد أن فشلت جميع الجهود الدبلوماسية التي بذلها السلطان الغوري في وقف تجرم البرتغاليين العدائي في مياه بحر الهند، وإغلاقهم منافذ التجارة مع مصر، بل وارتفاع مستوى تهديداتهم العدائية بالدخول إلى البحر الأحمر وتدمير المقدسات الإسلامية، وما رافق ذلك من وصول نداءات الاستغاثة من ملوك الهند مثل الزامورين حاكم كاليكوت، ومحمود بيكر مظفر شاه حاكم كجرات(١١٩)، ومن مسلمي الهند الذين كشفوا له كثيرًا من أعمال البرتغاليين الوحشية ضد المسلمين في الهند مثل "هتك حرمات المساجد، وتحريضهم على قبول الردة والسجود لصليبهم"(١٢٠)، واصطحابهم للرهبان للتبشير بالمسيحية وللقضاء على الدين الإسلامي، الأمر الذي يوحي بأن هذه الأعمال ما هي إلا لونًا جديدًا من الحروب الصليبية، ومقدمة مشئومة لاستعمار الشرق، فقد كانت مراكبهم وهي تمخر عباب بحر الهند، شعارها الصلبان والمدافع(١٢١). ووصلت كذلك تحذيرات من حكام اليمن الطاهرين، تشير إلى اقتراب البرتغاليين من سواحل بلادهم، وفي ذلك يقول ابن الديبع :"قويت شوكة المفسدين في قطع طرق المسلمين في البحر بطريق الهند وهرمز .. واستحلوا دماء المسلمين .. فبعث أهل مدينة عدن الخبر إلى السلطان الغوري يستطيعونه على الفرنج"(١٢٢). وسبق ذلك كله وصول الأخبار إلى القاهرة بازدياد أعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية في مياه المحيط الهندي وبحر العرب ومن ذلك مهاجمة فاسكو دي غاما أمام ساحل المليبار سفينة كبيرة مملوكة للسلطان الغوري كانت محملة بالتوابل وعليها عدد من الحجاج الهنود في طريقهم إلى جدة، وبعد معركة شديدة بينها وبين قوات دي غاما استقرت السفينة في قاع البحر بمن عليها بعد أن نهبت حمولتها(١٢٣). كما وصلت في هذه الأثناء سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م، بعثة

السفير البندقي تالدي للقاهرة، والذي اقترح على السلطان الغوري اتخاذ إجراء سريع وجدي ضد البرتغال في بحر الهند، من خلال القيام بعمل حربي يضع البرتغاليين عند حدهم[١٢٤].

أمام هذه التحديات والتطورات المتسارعة وجد السلطان الغوري أنه لم يعد هناك مجال للفرار أو التأجيل، فقرر الاتجاه نحو القوة الحربية لعلاج الموقف، فجهز في الحال أسطولاً حربيًا قويًا تكون من خمسين سفينة من نوع الأغربة[١٢٥]، بنيت في دار صناعة السويس، وأوكل قيادتها للأمير "حسين الكردي[١٢٦]"، وكان السلطان الغوري قد استعرض هذا الأسطول بنفسه، واحتفل وقت نزوله للبحر احتفالاً شعبيًا مطلع جمادى الثانية سنة ٩١١هـ/ تشرين أول ١٥٠٥م، ويذكر ابن إياس أن العسكر الذين خرجوا في هذه الحملة نحو الهند تكون من جنسيات مختلفة؛ فكان بينهم أبناء الأمراء المتطوعين، والمماليك السلطانية، والمغاربة والعبيد السود والتراكمة، وجعل الغوري على قيادة المغاربة وحدهم الخواجا "نور الدين علي المسلاتي المغربي"، وأرسل بصحبة الحملة الكثير من البنائين والنجارين المهرة ببناء الأبراج، وقبل إقلاع الحملة صرف الغوري لجميع المشاركين فيها رواتب أربعة أشهر مقدمًا، وفي يوم الاثنين ٦ جمادى الثانية سنة ٩١١هـ/ ١٥ تشرين أول، أبحر الأسطول المملوكي من السويس إلى جدة[١٢٧].

وما أن بلغت الحملة مدينة جدة التي كانت من أهم مراكز التجارة بين مصر والهند، حتى اتخذت منها قاعدة لها، وعمل الأمير حسين الكردي هو ورجاله على تحصين المدينة من خلال بناء الأسوار والأبراج، كما أخذ في نفس الوقت بمراقبة الطريق إلى الهند وتفتيشه، وتعقب البرتغاليين فيه ومقاومتهم[١٢٨]، فقد كان الأسطول البرتغالي بقيادة البوكيرك في هذه الأثناء قد استولى على جزيرة سوقطرة التي تشرف على مدخل البحر الأحمر، ثم عبر باب المندب وأغار على ميناء عدن، ومنها تحول إلى سواكن[١٢٩]، وكان ينوي الزحف منها نحو جدة، غير أنه ما أن علم بوجود هذا الأسطول المصري الضخم في ميناء جده حتى سارع بالانسحاب من مياه البحر الأحمر نحو الهند[١٣٠]. وأثناء تواجد الأسطول المملوكي في جدة حدث أن وقعت الشحناء بين القائد حسين الكردي والخواجا نور الدين المسلاتي، ويبدو أن التنافس على زعامة الحملة كان وراء ذلك الخلاف الذي أخر الحملة فترة من الزمن، ولم ينته ذلك الخلاف إلا بتدخل السلطان الغوري عندما أرسل قوة من القاهرة قبضت على المسلاتي وأعادته إلى مصر[١٣١].

وفي شهر ذي الحجة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م، أبحر الأسطول المملوكي من جدة في طريقه للهند، فمر بطريقه بسواكن فاستولى عليها دون قتال، ثم تابع مسيره حتى وصل جيزان[١٣٢] فتزود منها بالطعام، ثم توجه إلى جزيرة كمران، ومنها سار إلى عدن فاستقبلهم أميرها "مرجان الظافري"، وسمح لهم بأن يأخذوا من عدن ما يشاءون من طعام وماء وحطب وغير ذلك من المؤن[١٣٣]. وبعد أن أتم الأسطول تزوده بما يحتاج أقلع من عدن متوجهًا إلى الهند، فوصل أولاً إلى ميناء ديو أحد أهم موانئ سلطنة كجرات، حيث انضمت إليه سفن "مالك إياس" حاكم ديو، وكان الأمير حسين الكردي ومالك إياس قد اتفقا مع الزامورين حاكم كاليكوت على أن يسيرا إليه في كاليكوت لتوحيد جميع قواهم في حملة واحدة للقضاء على البرتغاليين في ساحل المليبار وطردهم نهائيًا من الهند، وفي أثناء الطريق تقابل الأسطول المملوكي والكجراتي بأسطول برتغالي صغير بالقرب من ميناء شول[١٣٤] (Chaul)، كان بقيادة ابن نائب ملك البرتغال في الهند لورنزو دي الميدا (Lourenco deAlmeyda)، واشتبك الأسطولان في خريف ٩١٣هـ/ ١٥٠٨م، في معركة بحرية متقطعة استمرت ليومين، انتصر فيها الأسطول المملوكي وحليفه الكجراتي وقتل فيها القائد البرتغالي لورنزو، وبعد هذا الانتصار عاد الأسطولان المصري والهندي إلى ميناء ديو لإصلاح ما تضرر من سفن وانتظار انتهاء موسم الشتاء[١٣٥]، وهناك التحقت بهم سفن الزامورين حاكم كاليكوت ليصبح عدد قطع الأسطول حوالي مائة سفينة صغيرة وكبيرة[١٣٦].

هذا وقد أحدث خبر الانتصار على الأسطول البرتغالي في معركة شول فرحة كبيرة في مصر، وأمر السلطان الغوري ابتهاجًا بهذه المناسبة دق الموسيقات ثلاثة أيام متتالية، يقول ابن إياس: "جاءت الأخبار بأن العسكر الذي توجه إلى نحو بلاد الهند .. قد انتصر على الفرنج وغنم منهم غنائم كثيرة، فسر السلطان لهذا الخبر وأمر بدق الكوسات فدقت ثلاثة أيام متوالية"[١٣٧]. وعقب وصول الأمير حسين الكردي إلى ديو بعد الانتصار في شول، أرسل للسلطان الغوري طالبًا دعمه بالجنود والسفن الحربية ليعزز بها قواته ضد البرتغاليين، وهذا ما دفع الغوري لتكثيف جهوده في سبيل بناء المزيد من السفن الحربية، فاستعرض في شهر شعبان (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، ستًا من السفن الحربية كانت الترسانات قد انتهت منها[١٣٨].

أما بالنسبة للبرتغاليين فقد استشاطوا غضبًا لهذه الهزيمة، ولا سيما نائب الملك البرتغالي في الهند الذي أقسم أن ينتقم انتقامًا شديدًا لمقتل ابنه، فاستغل لجوء الأسطول

المملوكي إلى ميناء ديو للراحة والتموين، وفاجأهم هناك بهجوم كاسح في ٢٦ صفر ٩١٥هـ/ ٣ شباط ١٥٠٩م، محققًا عليهم نصرًا حاسمًا في معركة شهيرة عرفت باسم معركة ديو البحرية، دمرت فيها معظم السفن المماليكية والهندية، وقتل فيها معظم عساكر الأسطول المصري، أما حسين الكردي فقد استطاع أن ينجو بنفسه رغم إصابته، فلجأ مع ما تبقى من أسطوله إلى سلطنة كجرات، ثم انسحب بعد ذلك عائدًا إلى جدة[١٣٩]. وبهزيمة الأسطول المملوكي وانسحابه عن المياه الهندية، ازدادت قوة البرتغاليين في الهند، ونشطت تجارتهم واتسعت أملاكهم، وهذا ما شجعهم على فرض حصار شديد على جميع السفن الهندية المتجهة نحو البحر الأحمر، وقد تمكنوا فعلاً من قطع الاتصال البحري بين الموانئ الهندية وجدة، وأخذوا بملاحقة السفن المملوكية في الخليج العربي والبحر الأحمر ومصادرة شحناتها[١٤٠].

أما حكام الإمارات الهندية؛ كجرات وديو وكاليكوت وغيرهم، فعندما وجدوا أنفسهم لوحدهم في مواجهة البرتغاليين بعد انسحاب الأمير حسين الكردي عائدًا إلى جدة، رأوا أن من مصلحتهم الخاصة مصالحة البرتغاليين، فأرسلوا رسلهم إلى نائب الملك البرتغالي في الهند الذي لم يتردد في اجابة طلبهم[١٤١]. كما شجعت أخبار انتصار البرتغاليين على الأسطول المصري في معركة ديو، ملكة الحبشة "هيلانة" (Eleni) على التحالف مع البرتغاليين للقيام بعمل مشترك معهم للاستيلاء على الحجاز ومصر، ووفد على القائد البوكيرك الذي تولى في هذه الأثناء منصب نائب ملك البرتغال في الهند سنة (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م)، مبعوث من قبلها يدعى "ماثيوس" لهذه الغاية، غير أن البوكيرك أرسل هذا الموفد إلى لشبونة لبحث شأن التحالف بين الدولتين شخصيًا مع الملك البرتغالي، لكن على ما يبدو أن المفاوضات مع الملك البرتغالي أخذت وقتًا طويلاً فلم يتم الاتفاق على التحالف إلا في سنة (٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)[١٤٢]، أي بعد سقوط الدولة المملوكية في قبضة العثمانيين.

أما عن البندقية فلم تجد أمامها بعد هزيمة المماليك في معركة ديو، سوى الاتجاه إلى لشبونة كبقية دول أوروبا لتبتاع منها التوابل[١٤٣]، لكنها في الوقت نفسه ومن باب المحافظة على مصالحها الشخصية مع مصر احترازيًا لما قد يستجد في المستقبل، أرسلت للسلطان الغوري تبدي استعدادها لمعونته حربيًا لطرد البرتغاليين من الهند، لكنها كالعادة تحججت بأن موقفها في العالم المسيحي يمنعها من تقديم تلك المساعدة في الوقت الراهن[١٤٤].

أما في القاهرة فقد هزت تلك الهزيمة السلطان الغوري، يقول ابن إياس، جاءت الأخبار في شهر صفر سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م) "بأن العسكر الذي توجه إلى الهند.. قد كسروهم الفرنج كسرة فاحشة، وقتلوا العسكر عن آخره.. فتنكد السلطان لهذا الخبر"[١٤٥]، ففي الوقت الذي تطلع فيه السلطان الغوري إلى نصر ينهي السيطرة البرتغالية في مياه المحيط الهندي وتهديدهم لتجارة البحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية، جاءت تلك الهزيمة التي بددت أحلامه، واستهلكت الكثير من احتياطيه من الأموال والسلاح من جهة، وزادت من قوة البرتغاليين من جهة أخرى.

ومع ذلك لم ييأس السلطان الغوري بعد هزيمة ديو من توجيه ضربة حاسمة للبرتغاليين في الهند، أو على الأقل وقف خطرهم على التجارة الإسلامية في البحر الأحمر، وعلى الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز، من هنا فقد كلف الأمير حسين الكردي أن يحرص قبل عودته للقاهرة من تحصين جدة حتى لا يستولي عليها البرتغاليين في حال دخولهم البحر الأحمر، ومن ثم يغيرون منها على مكة المكرمة والمدينة المنورة[١٤٦]، فأحاطها الكردي سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) بسور شديد الإحكام من جوانبها الثلاث دون البحر، إذ بلغ طول السور من الجنوب ٨٠٠ ذراعًا، ومن الشمال ٨٠٠ ذراعًا، ومن الشرق ٦٠٠ ذراعًا، وعزز السور بأبراج بلغ ارتفاعها ١٥ ذراعًا، ثم أحاط السور والأبراج بالخنادق، أما أبواب المدينة فصنعت من الخشب المدرع المصفح[١٤٧]. واستعان الأمير حسين الكردي في توفير الموارد المادية اللازمة لبناء سور جدة وأبراجها بحلفائه سلاطين الإمارات الإسلامية في الهند، الذين استجابوا لطلبه بعد أن بين لهم أن سقوط جدة بيد البرتغاليين معناه تدمير المقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة[١٤٨]، وبعد أن انتهى الأمير حسين الكردي من تحصين جدة عاد للقاهرة فوصلها في شهر رمضان سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م)[١٤٩].

هذا ولم يقتصر اهتمام السلطان الغوري على تحصين مدينة جدة وحدها، بل أنه أنشأ كذلك حول مدينة ينبع[١٥٠] سورًا حصينًا وأبراجًا منيعة، كما بنى في مدينة العقبة عدة أبراج وفساق، وزودها بطائفة من الجنود للحراسة تتجدد مرة في كل عام[١٥١]. وإلى جانب تحصين ميناء جدة وغيرها من موانئ السلطنة المملوكية، كرس السلطان الغوري جهوده في هذه الأثناء لبناء أسطول بحري جديد للقيام بحملة عسكرية جديدة ضد البرتغاليين في المياه الهندية. وفي الواقع كان الغوري قد بدأ فعلاً في بناء الأسطول منذ سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، عندما

بعث إليه الأمير حسين الكردي بعد معركة شول يطلب منه دعمه بالجنود والسفن ليعزز بها قواته ضد البرتغاليين؛ فابن إياس يذكر أنه استعرض في شعبان سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م)، ستًا من السفن البحرية من نوع الأغربة في ميناء رشيد كانت الترسانة قد انتهت منها[١٥٢].

وعندما يأس السلطان الغوري من الحصول على الأخشاب وغيرها من الأدوات اللازمة لبناء الأسطول الذي يجري إعداده في السويس من البندقية الذين تهربوا من إمداده بحجة خوفهم من العالم المسيحي[١٥٣]، أرسل يطلب العون من السلطان العثماني بايزيد الثاني الذي أجابه في الحال فأرسل إليه في جمادى الثانية سنة (٩١٦هـ/ ١٥١٠م)، حمل ثماني عشرة سفنية من الأخشاب وغيرها من المعدات اللازمة لبناء السفن، وعندما علم السلطان بايزيد تعرض هذه الشحنة للقرصنة من فرسان الإسبتارية والاستيلاء عليها جميعها قبل وصولها الإسكندرية[١٥٤]، أسرع بإرسال شحنة جديدة، حيث وصلت إلى ميناء بولاق في شهر شوال سنة (٩١٦هـ/ ١٥١١م)، عدد من السفن تحمل البنادق والبارود والأخشاب والنحاس والحديد والحبال والمراسي وغير ذلك مما يحتاج إليه في بناء السفن، وقد أرسل كل ذلك هدية منه رافضًا ثمنها[١٥٥]. وفي سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م)، عاد السلطان الغوري في إرسال موفد جديد من قبله للسلطان بايزيد ليبتاع منه مقادير من لوازم صناعة السفن من أخشاب ومكاحل نحاسية وحبال، فأرسلها إليه السلطان بايزيد هدية من عنده كالمرات السابقة[١٥٦]. وكانت دار الصناعة في مصر تصنع السفن لتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الإبل حيث يجري تجميعها وتركيبها على شاطئ البحر الأحمر[١٥٧].

وبينما كان الغوري مشغولاً ببناء الأسطول واستعراض ما يجهز منه، وصلت إليه صرخات الاستغاثة من ملوك الهند، يطلعونه على مراحل الغزو الصليبي الجديد، وعلى جرائم قراصنتهم بحق أملاكهم ومتاجرهم التي تعاظمت بعد انتصارهم على الأمير حسين الكردي[١٥٨]، كما وصلت إليه الأنباء سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م، توغل القائد البوكيرك إلى داخل البحر الأحمر، ومهاجمته مدينة عدن وسواكن، واستيلائه على جزيرة كمران، وأنه يعد العدة للهجوم على جدة والأماكن المقدسة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة[١٥٩]. فبالنسبة إلى استجابة الغوري إلى طلب ملوك الهند، فقد رأى قبل القيام بأي عسكري ضد البرتغال، ضرورة إيجاد وحدة شاملة بين ملوك الهند ليضعوا أيديهم في يده لتوجيه ضربة قاصمة للبرتغاليين، فأرسل لهذا الغرض بعثة للهند برئاسة "الطواشي بشير"، وكان الطواشي قد نزل في طريقه باليمن وقابل هناك السلطان عامر بن عبد الوهاب[١٦٠](٨٩٤-٩٢٣هـ/ ١٤٨٨- ١٥١٧م)، سلطان الدولة الطاهرية، وعرض خطط السلطان الغوري فيما يتعلق بتوحيد الجهود معه ضد البرتغاليين، ثم واصل الطواشي رحلته للهند إلا أنه على ما يبدو لم يستطع تجاوز باب المندب بسبب الحصار الشديد الذي فرضه الأسطول البرتغالي عند مدخل البحر الأحمر[١٦١].

ولمواجهة خطر البوكيرك على جدة والأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز، سارع الغوري فور وصول خبر توغل البوكيرك في البحر الأحمر، بإرسال قائده البحري حسين الكردي في ربيع الأول سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) على رأس قوة مؤلفة من ثلاثمائة جندي إلى جدة للدفاع عنها حتى يتم تجهيز الحملة الكبيرة، وعين إلى جانب الكردي أمير مملوكي آخر يدعى "خشقدم"، زوده بقوة صغيرة فيها رماة البنادق والنفطية، تكون مهمتها كشف أخبار البرتغاليين وحماية الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة[١٦٢]. ولتسريع بناء الأسطول، كلف السلطان الغوري ثلاثون مملوكًا من طبقة الخاصة بالتوجه إلى السويس، وعين معهم جماعة من النجارين والحدادين والرماة بالبنادق والنفط، من أجل الإشراف على بناء السفن وتعجيل جهوزيتها[١٦٣].

ويذكر المليباري أن الأمير حسين الكردي ما كاد يصل جدة، حتى أرسل يحث السلطان الغوري على التعجيل بإرسال التجريدة درءًا للغزاة الذين ازداد عبثهم في سواحل الهند والبحر الأحمر حتى كادوا يغزون جدة نفسها[١٦٤]. وبعد معاناة مع الجند السلطانية الذين شاع بينهم العصيان في هذه اللحظات الحرجة، إلى جانب ثورات العربان في القاهرة وضواحيها، إضافة إلى انتشار مرض الطاعون في القاهرة ونواحيها[١٦٥]، استطاع السلطان الغوري في نهاية الأمر من تجنيد ستة آلاف جندي أغلبهم من البحارة العثمانيين والمغاربة والتركمان أما الباقي فقد كانوا من البيوت والفرق المملوكية المختلفة، وعندما استعرضهم أعطى كل مملوك منهم خمسين دينارًا، ووعدهم بأن يصرف لهم رواتب ستة أشهر مقدمًا قبل سفرهم[١٦٦].

وأخيرًا وبعد جهد استغرق قرابة خمس سنوات، ونفقات مالية تجاوزت أربعمائة ألف دينار، انتهى الغوري من إعداد الحملة البحرية الثانية لضرب القوات البرتغالية في الهند وصد هجماتهم في البحر الأحمر، وبعد أن استعرض جنودها في احتفال كبير يوم ١٠ رجب سنة ٩٢١هـ/ ٢٠ آب ١٥١٥م، أبحرت الحملة التي تكونت من عشرين سفينة من نوع الأغربة المزودة

بالمكاحل النحاسية والحديدية من ميناء السويس تحت قيادة "سلمان العثماني"، على أن يتولى قيادتها العامة الأمير حسين الكردي عند وصولها إلى جدة[١٦٧].

وفي يوم ١١ شوال سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)، أقلع الأسطول المملوكي من جدة إلى الهند بعد أن تولى قيادته الأمير حسين الكردي ويساعده سلمان العثماني، غير أنه قدر لهذه الحملة ألا تصل إلى هدفها النهائي الهند، بل أجبرتها الظروف التي واجهتها أمام السواحل اليمنية على التوقف عند عدن، وذلك أن الأمير حسين الكردي عندما وصل إلى ساحل اليمن وجد من الضروري قبل التوجه للهند، إقامة مجموعة من القواعد البحرية عند مدخل البحر الأحمر لمنع الأساطيل البرتغالية من دخوله من جهة، ولتكون هذه القواعد بمثابة نقطة انطلاق للحملات المملوكية المتجهة إلى المحيط الهندي من جهة أخرى[١٦٨].

ومن هذا الباب شرعت الحملة فور وصولها إلى جزيرة كمران في شهر ذي القعدة سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)، ببناء التحصينات والأسوار حول الجزيرة، كما كان الأمير حسين الكردي قد أرسل إلى سلطان اليمن عامر بن عبد الوهاب، يطلب منه مساعدته ومده بالمعونة من الماء والطعام، مذكرًا إياه بمكاتباته للسلطان الغوري في طلب النجدة، وكان السلطان عامر قد مال في البداية إلى إجابة طلب الكردي، غير أن أحد رجاله أشار عليه بعدم إجابته خشية أن يكون ذلك نوعًا من فرض السيادة السياسية المملوكية على اليمن، أو أن تتحول تلك المساعدة إلى جزية سنوية يطالب بها اليمن باسم محاربة البرتغال، فما كان من السلطان عامر إلا أن أخذ بتلك المشورة وأمر ولاته في الموانئ اليمنية بعدم تقديم الطعام للجند المماليك لإجبارهم على مغادرة كمران[١٦٩]، وردًا على ذلك قام الأسطول المملوكي بضرب ميناء الحديدة[١٧٠] بالمدافع، ثم نزلوا سواحلها وأخذوا ما يلزمهم من طعام ومن أخشاب وأدوات لازمة لبناء تحصينات كمران، وحدث في هذه الأثناء أن انظم أمراء كل من جيزان واللحية[١٧١] إلى الأسطول المملوكي بعدما أدركوا قوة الأسلحة التي يملكها الأسطول المملوكي من جهة، ولخلافهم السابق مع السلطان عامر بن عبد الوهاب من جهة أخرى، واتفقوا مع الأمير حسين الكردي على أن ينزلوا سوية في الأراضي اليمنية، وفعلاً شنوا جميعًا هجومًا كبيرًا على مدينة زبيد[١٧٢] فاستولوا عليها في يوم ١٩ جمادى الأولى (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)[١٧٣].

وبعد اقتحام الحملة المملوكية لمدينة زبيد وما قامت به من أعمال نهب وتخريب وسبي ومصادرة لأموال الأهالي والتجار[١٧٤]، توجهت إلى مدينة عدن، فوصلتها في ١٣ رجب ٩٢٢هـ/ آب ١٥١٦م، وتمكن المماليك في البداية من دخول مينائها، إلا أن حصانة المدينة الطبيعية، واستبسال أهلها في الدفاع عنها، أجبر المماليك على الانسحاب، فغادروها عائدين إلى جدة يوم ٢١ رجب ٩٢٢هـ/ ١٩ آب ١٥١٦م، ولا شك أن فشل الحملة في الاستيلاء على عدن، أدى إلى توقفها عن الذهاب إلى الهند، فقد رأى الأمير حسين الكردي أنه لا يمكن الابحار إلى الهند دون ضمان حماية البحر الأحمر، ووجد أن الأسلم للحملة العودة إلى جدة ومن ثم انتظار الفرصة لتحين ليعاود الهجوم مرة أخرى على عدن، غير أن الظروف لم تمهله فعند وصوله إلى جدة، كان السلطان قانصوه الغوري قد قتل في معركة مرج دابق سنة (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)[١٧٥]، ثم أن أشراف مكة كانوا قد أعلنوا ولائهم للسلطان العثماني، فما كان منهم بعد وصوله إلى جدة إلا أن قبضوا عليه وأغرقوه في البحر انتقامًا منه لأعماله القاسية التي فرضها على أهل الحجاز وجدة أثناء بنايته لسورها وحصونها[١٧٦]. وعلى هذا شكلت عودة حسين الكردي إلى جدة ومن ثم مقتله، خاتمة الصراع الغوري مع الغزاة البرتغاليين في مياه البحر الأحمر وبلاد الهند.

وهكذا يلاحظ مما سبق، أن الغزو البرتغالي لسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر، وتهديدهم للمقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، شكلت الشغل الشاغل للسلطان الغوري في معظم فترات حكمه، وقد لجأ السلطان الغوري في بداية الأمر لمواجهة هذا الخطر بإتباع الوسائل الدبلوماسية، غير أنه عندما ثبت له فشل هذه السياسة اتجه نحو القوة العسكرية لمعالجة الموقف، فأرسل حملتين بحريتين كبيرتين لمواجهة هؤلاء الغزاة الجدد في الهند، كلفته كل واحده منها أكثر من أربعمائة ألف دينار، لكن كلا الحملتين لم توفق في تحقيق أهدافها، ففي الوقت تعرضت فيه الحملة الأولى لهزيمة ساحقة في معركة ديو البحرية سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٩م)، فشلت الحملة الثانية حتى في تجاوز باب المندب بسبب انشغالها بحرب الدولة الطاهرية في اليمن التي رفضت مد الحملة بالمؤن والمساعدات، فعادت إلى جدة دون تحقيق شيء يذكر. لكن مع ذلك يحسب للسلطان الغوري تزعمه للمقاومة الإسلامية التي ناضلت ضد الغزو البرتغالي لسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر، وتحصينه لمدينة جدة، الأمر الذي حال دون سقوطها بيد البرتغاليين، وبالتالي توفير الحماية للمقدسات الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

خَاتِمَةٌ

نستخلص من هذه الدراسة التي تناولت جهود السلطان المملوكي قانصوه الغوري في التصدي للأطماع البرتغالية في البحر الأحمر عددًا من الحقائق، أهمها:

1. ما كاد السلطان قانصوه الغوري يلي أمر السلطنة المملوكية حتى أثبت أنه رجل قوي ذي فطنة ودهاء، فاستطاع خلال فترة وجيزة من حل مشكلة الدولة المالية، ثم واجه فتن وثورات الجند والعربان بكل حزم واقتدار، وعلى العكس من السلاطين الذين سبقوه فإن التهديد الذي عصف بملكه جاء من الخارج، وتمثل في خطرين؛ التهديد البرتغالي نتيجة اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح ودخولهم الهند وإغلاقهم مداخل البحر الأحمر، الأمر الذي حرم مصر من أهم موارد ثروتها وقوتها. وتمثل الخطر الثاني في الدولة العثمانية، الذين على أيديهم لقي حتفه، وزالت دولته.
2. سعى البرتغاليون من محاولات سيطرتهم على البحر الأحمر وموانئه احتكار تجارة الشرق، ومن ثم إنهاء دور العرب والمسلمين في تجارة التوابل، وخنق اقتصادهم بإغلاق منافذ التجارة العربية، وذلك أن التجارة بين الشرق والغرب كانت قبل وصول البرتغاليين للهند تسلك طريق البحر الأحمر ومصر، وكان المستفيد الأكبر من تلك التجارة دولتي المماليك والبنادقة، لذا هدف البرتغاليون إلى كسر ذلك الاحتكار من خلال تحويل تجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح ومنها إلى لشبونة فأوروبا.
3. كان البرتغاليون يعتزمون من دخولهم البحر الأحمر تنفيذ مخطط صليبي، يقوم على استيلائهم على جدة ثم الزحف منها على مكة المكرمة، ثم المدينة المنورة، وتدمير المقدسات الإسلامية فيها، ونبش قبر الرسول (ﷺ)، وجعله رهينة ليفاوضوا به المسلمين، مقابل تنازل المسلمين لهم عن الأماكن المقدسة المسيحية في القدس.
4. لجأ السلطان قانصوه الغوري في بداية صراعه مع البرتغاليين في مياه المحيط الهندي إلى الوسائل الدبلوماسية، وذلك من خلال إرسال واستقبال السفارات مع ملوك وأمراء أوروبا وبابا روما، والسلطان العثماني، وبعض حكام الولايات الإسلامية والهندوسية في الهند، والتي هدف منها إلى وقف حملات البرتغاليين على الهند والبحر الأحمر، لكن جميع جهوده في هذا الشأن لم تجد نفعًا، بسبب عدم صدق الدول الأوروبية في وعودها وتغليبها مصالحها الشخصية على علاقاتها بالدولة المملوكية، كما أن بعض سلاطين الإمارات الهندية بعد هزيمة الأسطول المملوكي في موقعة ديو سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م)، فضلوا مصالحة البرتغاليين على نصرة مصر، في حين كان السلطان العثماني بايزيد الثاني الوحيد الذي أخلص في دعمه لمصر في صراعها مع البرتغاليين حرصًا منه على حماية الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز من خطر البرتغاليين.
5. دخل السلطان قانصوه الغوري في صراعًا حربيًا عنيفًا مع البرتغاليين بهدف طردهم من الهند وبحر العرب والبحر الأحمر، فأرسل حملتين عسكريتين بحريتين كبيرتين إلى الهند، الأولى سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، والثانية سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)، لكن كلا المحاولتين باءت بالفشل؛ لأن الأسطول البرتغالي كان أكثر قوة وتسليحًا وتدريبًا، وبحارته أكثر خبرة في الفنون الحربية من الأسطول المملوكي، فضلاً عن عرقلة الدولة الطاهرية في اليمن جهود السلطان الغوري في هذا الاتجاه من خلال رفضهم مد الأسطول المملوكي بالمعونة والمؤن، وعدم السماح لهم بالنزول في أراضيها وموانئها.

الاحالات المرجعية:

(١) ابن العماد، شهاب الدين عبد الحي بن أحمد الحلبي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، المجلد العاشر، ط١، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق ١٩٩٣م، ص١٥٩. سيشار إليه فيما بعد: ابن العماد، شذرات الذهب.
(٢) اليمني، السيد محمد الشلي (ت١٠٩٣هـ/١٦٨٢م) **السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر**، ط١، تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء ٢٠٠٤م، ص١٤٦-١٤٧. سيشار إليه فيما بعد: اليمني، السناء الباهر.
(٣) ابن الحنبلي، رضي الدين محمد إبراهيم (ت ٩٧١هـ/١٥٦٣م) **در الحبب في تاريخ أعيان حلب**، الجزء الثاني، القسم الأول، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٣م، ص٤٦. سيشار إليه فيما بعد: ابن الحنبلي، در الحبب؛ الطباخ، محمد راغب: **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، الجزء الخامس، ط١، المطبعة العلمية، حلب ١٩٢٥م، ص٣٩٠. سيشار إليه فيما بعد: الطباخ، أعلام النبلاء.
(٤) الغزي، نجم الدين محمد (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م) **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، ٣ أجزاء، ط٢، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٩م، جـ١، ص٢٩٤. سيشار إليه فيما بعد: الغزي، الكواكب السائرة.
(٥) ابن العماد، شذرات الذهب، مج١٠، ص١٥٩.
(٦) **طرسوس**: مدينة بثغر الشام، تقع بين أنطاكية وحلب. انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله البغدادي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت (د.ت)، جـ٤، ص٢٨. سيشار إليه فيما بعد: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**.
(٧) **حلب**: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، وهي قديمة البناء من إنشاء العمالقة، تقع شمال غرب بلاد الشام على بعد ١٩٣ ميلاً عن دمشق. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٢، ص٢٨٢-٢٨٤.
(٨) ملطية: بلدة من بلاد الروم، تتاخم الشام وهي للمسلمين. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٥، ص١٩٢.
(٩) ابن إياس، محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م) **بدائع الزهور** في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦١م، جـ٤، ص٢. سيشار إليه فيما بعد: ابن إياس، **بدائع الزهور**.
(١٠) ابن العماد، شذرات الذهب، مج١٠، ص١٦٠؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢؛ المغلوث، سامي بن عبدالله: **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ط١، العبيكان للنشر، الرياض ٢٠١٣م، ص٢٣٨. سيشار إليه فيما بعد: المغلوث، **أطلس تاريخ العصر المملوكي**.
(١١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢؛ سليم، محمود رزق: **الأشرف قانصوه الغوري**، مكتبة مصر، القاهرة (د.ت)، ص٣٢. سيشار إليه فيما بعد: سليم، الأشرف قانصوه الغوري.
(١٢) الغزي، **الكواكب السائرة**، جـ١، ص٢٩٥؛ عزام، عبد الوهاب: **مجالس السلطان الغوري**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٤م، ص١٦. سيشار إليه فيما بعد: عزام، مجالس السلطان الغوري.
(١٣) الطباخ، **أعلام النبلاء**، جـ٥، ص١١٢.
(١٤) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٤.
(١٥) ابن الحنبلي، **در الحبب**، جـ٢، ق١، ص٤٧.
(١٦) الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الجزء الثاني**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د.ت)، ص٥٥. سيشار إليه فيما بعد: الشوكاني، البدر الطالع.
(١٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٤.
(١٨) اليمني، **السناء الباهر**، ص١٤٧.
(١٩) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٠.
(٢٠) الشوكاني، **البدر الطالع**، جـ٢، ص٥٥.
(٢١) سليم، **الأشرف قانصوه الغوري**، ص٣٨-٤٠.
(٢٢) عاشور، سعيد عبد الفتاح: **الأيوبيون والمماليك** في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٦م، ص٢٩٥-٢٩٦. سيشار إليه فيما بعد: عاشور، **الأيوبيون والمماليك**؛ موير، وليم: **تاريخ دولة المماليك** في مصر، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٥م، ١٨٢. سيشار إليه فيما بعد: موير، **تاريخ دولة المماليك**.
(٢٣) هو سليم بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح، ولد في أماسية سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، وجلس على تخت السلطنة سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م، وعمره ستة وأربعون سنة، وكان سلطانًا قاهرًا كثير البطش، انتصر على الصفويين، واستحل سلطنة المماليك في مصر والشام وضمها لبلاده. انظر: النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد (ت. ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م) **كتاب الإعلام** بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، المكتبة التجارية، مكة المكرمة ١٩٩٦م، ص٢٧٧-٢٧٨. سيشار إليه فيما بعد: النهروالي: **كتاب الإعلام**.
(٢٤) **إمارة دلغادر**: تأسست في منتف القرن ٨هـ/١٤م، في المناطق المتاخمة لحدود الشام، واتخذت من مدينة مرعش عاصمة لها، ويعتبر زين الدين قراجا بن دلغادر المؤسس الحقيقي. انظر: أحمد، غزوة شهاب؛ أحمد، أحمد مولود: **إمارة دلغادر وعلاقتها الخارجية في القرنين الثامن والتاسع الهجري**، مجلة التراث العلمي العربي، ع٣٨، السنة ٢٠١٨م، ص٣٥١. سيشار إليه فيما بعد: أحمد، إمارة دلغادر.
(٢٥) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٥، ص٢٨-٢٩؛ الزيدي، مفيد: **موسوعة التاريخ الإسلامي** العصر المملوكي، دار أسامة للنشر، عمان ٢٠٠٩م، ص١٤٥-١٤٦. سيشار إليه فيما بعد: الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**؛ عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص٣٠٤-٣٠٥؛ المغلوث، **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٤٦.
(٢٦) ابن زنبل، أحمد الرمال (ت٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م) **آخرة المماليك**، ط٢، تحقيق: عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م، ص١٠٢. سيشار إليه فيما بعد: ابن زنبل، آخرة المماليك.
(٢٧) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص١٠٣؛ ابن العماد، **شذرات الذهب**، مج١٠، ص١٦١؛ الشوكاني، **البدر الطالع**، جـ٢، ص٥٥.
(٢٨) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٥، ص٧٠.
(٢٩) ابن زنبل، **آخرة المماليك**، ص١٠٣.
(٣٠) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٥، ص٧١.
(٣١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٥، ص٧١.
(٣٢) ابن زنبل، آخرة المماليك، ص٢٦٥.
(٣٣) ابن العماد، **شذرات الذهب**، مج١٠، ص١٦٠-١٦١؛ سليم، **الأشرف قانصوه الغوري**، ص١٧٢-١٨٢؛ عودات، أحمد وآخرون: **تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري**، دار الكندي، أربد ١٩٩٠م، ص١٢٧. سيشار إليه فيما بعد: عودات، تاريخ المغول والمماليك.
(٣٤) الشامسي، أحمد محمد: **الصراع البرتغالي العثماني** في القرن السادس عشر، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة ٢٠١٣م، ص٥٧. سيشار إليه فيما بعد: الشامسي، **الصراع البرتغالي العثماني**.

(٣٥) لشبونة (Lisboa) عاصمة البرتغال، وهي مدينة بالأندلس، تقع غربي قرطبة على البحر المحيط. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٥، ص١٦.

(٣٦) الجوهري، يسرى عبد الرزاق: **الكشوف الجغرافية**، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧م، ص١٣١. سيشار إليه فيما بعد: الجوهري، الكشوف الجغرافية.

(٣٧) حراز، السيد رجب: **عصر النهضة**، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٤م، ص٣١٦. سيشار إليه فيما بعد: حراز، عصر النهضة؛ المغلوث، **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٣٦.

(٣٨) هو أحمد بن ماجد بن محمد السعدي النجدي، من أهل نجد، من كبار ربابنة العرب في البحر الأحمر وخليج البربر والمحيط الهندي وخليج بنجالة وبحر الصين، توفي بعد ٩١٥هـ/ ١٥١٠م. انظر: الزركلي، خير الدين: **الأعلام** "قاموس تراجم لأشر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين"، ٨ أجزاء، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢م، جـ١، ص٢٠٠. سيشار إليه فيما بعد: الزركلي، **الأعلام**.

(٣٩) **كاليكوت**: عاصمة المليبار وأهم مدنها الساحلية، وميناءها من أقدم موانئ الهند المعروفة منذ قديم الزمان. انظر: المليباري، أحمد زين الدين المعبري (ت٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) **تحفة المجاهدين** في أحوال البرتغاليين، ط١، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، بيروت ١٩٨٥م، ص٢٠٠. سيشار إليه فيما بعد: المليباري، **تحفة المجاهدين**.

(٤٠) النهروالي: **البرق اليماني** في **الفتح العثماني**، أشرف على طبعه: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٩٦٧م، ص١٨-١٩. سيشار إليه فيما بعد: النهروالي، **البرق اليماني**؛ أحمد، ثامر عزام: الغزو البرتغالي للخليج العربي دراسة في الأسباب والنتائج، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، ع٢، تموز ٢٠٠٩م، ص١٨١. سيشار إليه فيما بعد: أحمد، الغزو البرتغالي.

(٤١) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٤٦.

(٤٢) السلمان، محمد حميد: **الغزو البرتغالي للجنوب العربي في الفترة ١٥٠٧-١٥٢٥م**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين ٢٠٠٠م، ص٥١. سيشار إليه فيما بعد: السلمان، الغزو البرتغالي.

(٤٣) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٤٤) الشامسي، **الصراع البرتغالي العثماني**، ص٦٩.

(٤٥) **مدغشقر**: من أكبر جزر العالم، تقع في أقصى جنوب شرق سواحل أفريقيا، في الجزء الغربي من المحيط الهندي، وكان يقال عنها قديمًا أنها بلاد الواق واق. فهمي، نعيم زكي: **طرق التجارة الدولية** ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م، ص١٧٦-١٧٧. سيشار إليه فيما بعد: فهمي، **طرق التجارة الدولية**.

(٤٦) صيرفي، نوال حمزة: **النفوذ البرتغالي** في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٣م، ص٨٩. سيشار إليه فيما بعد: صيرفي، **النفوذ البرتغالي**.

(٤٧) بانيكا، ك.م: **آسيا والسيطرة الغربية**، ترجمة: عبد العزيز توفيق، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢، ص٣٨-٣٩. سيشار إليه فيما بعد: بانيكا، آسيا والسيطرة الغربية؛ Villiers, Alan: The Indian ocean, London 1945, p134.

(٤٨) **السامري**: أو الزامورين، هي لفظة كان يعرف بها من يتولى أمور الحكم في بلاد المليبار، ويقيم في العاصمة كاليكوت، وهو غالبًا من الهندوس. انظر: المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص١٩٨.

(٤٩) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٤٧.

(٥٠) بانيكا، آسيا والسيطرة الغربية، ٣٩-٤٠؛ الشامسي، **الصراع البرتغالي العثماني**، ص٧٢.

(٥١) السلمان، الغزو البرتغالي، ص٥٣.

(٥٢) بانيكا، آسيا والسيطرة الغربية، ٤٠-٤١.
Sousa, Manuel de Faria: The History of the Discovery and Conquest of India by the Portugues, translated into English by: John Stevens, 3 Vol, London 1894, Vol 1, pp65-66.

(٥٣) موير، **تاريخ دولة المماليك**، ص١٨٤.

(٥٤) **كنانور**: من المدن المليبارية المهمة شمال المليبار على ساحل بحر العرب. انظر: المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص١٩٩.

(٥٥) **كوشين**: تقع إلى الجنوب من مملكة كاليكوت على ساحل البحر، يوجد بها نهر كبير عريض يصب في البحر منه تدخل السفن إلى داخل المدينة. انظر: القاسمي، سلطان بن محمد: **رحلة بالغة الأهمية** (المخطوطة الكاملة لكتاب دوراتي باربوزا ١٥١٥م)، دارة الدكتور سلطان القاسمي للدراسات الخليجية، الشارقة ٢٠١٧م، ص١٤٨. سيشار إليه فيما بعد: القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**.

(٥٦) السلمان، **الغزو البرتغالي**، ص٥٤.

(٥٧) ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي الزبيدي (ت. ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م) **قرة العيون** بأخبار اليمن الميمون، ط٢، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة أبو ذر الغفاري، صنعاء ١٩٨٨م، ص٤٥٠. سيشار إليه فيما بعد: ابن الديبع، **قرة العيون**.

(٥٨) اليمني، **السناء الباهر**، ص٥١.

(٥٩) Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, pp139-140.

(٦٠) الشامسي، **الصراع البرتغالي العثماني**، ص77.

(٦١) **سوقطرة** : جزيرة عظيمة تقع بالقرب من الساحل الجنوبي للجزيرة العربية قبالة عدن من الجنوب، وهي أقرب إلى بر العرب من بر الهند. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٣، ص٢٢٧.

(٦٢) هرمز: جزيرة إيرانية في الخليج، على مضيق هرمز، تربط الخليج ببحر عُمان. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٥، ص٤٠٢.

(٦٣) أحمد، الغزو البرتغالي، ص١٨٢.

(٦٤) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٠؛ السلمان، الغزو البرتغالي، ص٦٢.

(٦٥) النهروالي، **البرق اليماني**، ص١٩.

(٦٦) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٨؛ سليم، الأشرف قانصوه الغوري، ص١١٤.

(٦٧) العقاد، صلاح: **التيارات السياسية في الخليج العربي**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٤م، ص١٤-١٥. سيشار إليه فيما بعد: العقاد، التيارات السياسية.

(٦٨) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٥٤.

(٦٩) **قلهات**: مدينة بعُمان على ساحل البحر، إليها ترفأ أكثر سفن الهند. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**،جـ٤، ص٣٩٣.

(٧٠) أحمد، **الغزو البرتغالي**، ص١٨٢.

(٧١) رضوان، نبيل عبد الحي: **جهود العثمانيين** لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٩٨٧م، ص١٢٠. سيشار إليه فيما بعد: رضوان، **جهود العثمانيين**.

(٧٢) Miles. S. B,The Countries and Tribes of the Persian Gulf, Frank Cass & Co, London 1966, p153.

(٧٣) باحويرث، سماح سعيد: **أطماع البرتغاليين في بعض موانئ وجزر البحر الأحمر من خلال رحلة دوارتي باربوزا عام ٩٧٢هـ/ ١٥١٥م**، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، مج٢٨، ع١٥، السنة ٢٠٢٠م، ص١٢٢. سيشار إليه فيما بعد: باحويرث، أطماع البرتغاليين.

(٧٤) Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, p188-189.

(٧٥) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٥٧-٤٥٨؛ Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, p190.

(٧٦) كمران: جزيرة يمنية تقع قبالة الساحل الغربي للصليف بمسافة ٦كم، وتبلغ مساحتها ١٠٠كم٢. انظر: **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٥١.

(٧٧) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٥٨؛ Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, p192.

(٧٨) سالم، سيد مصطفى، **الفتح العثماني** الأول لليمن (١٥٣٨-١٦٣٥م)، ط٥، دار الأمين للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة ١٩٩٩م، ص٨٩-٩٠. سيشار إليه فيما بعد: سالم، **الفتح العثماني**.

(٧٩) **زيلع**: هي من مدن الصومال الحالية، وصفها باربوزا بقوله هي:"بلدة مسلمة، حسنة البناء، مزدحمة التجارة، تأتي إليها السفن من مكان لبيع بضائعها، استولى عليها البرتغاليون سنة ١٥١٧م. انظر: القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**، ص٣٢.

(٨٠) **بربرة**: هي من مدن الصومال الحالية، وصفها ياقوت الحموي بقوله هي: "بلدة من بلاد الحبش والنوج واليمن، على ساحل بحر اليمن، وبحر الزنج". انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ١، ص٣٦٩-٣٧٠.

(٨١) صيرفي، **النفوذ البرتغالي**، ص١٢٢؛ الرمال، غسان علي: **صراع المسلمين مع البرتغاليين** في البحر الأحمرخلال القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة ١٩٨١م، ص١٥٢-١٥٣. سيشار إليه فيما بعد: الرمال، **صراع المسلمين مع البرتغاليين**؛ سالم، **الفتح العثماني**، ص٨٩؛ Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, p192-193.

(٨٢) سالم، **الفتح العثماني**، ص٩٠.

(٨٣) رضوان، **جهود العثمانيين**، ص١١٢-١١٣.

(٨٤) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص١٤٨؛ الشناوي، عبد العزيز محمد: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، جزءان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ٢٠٠٤م، جـ٢، ص٢٣. سيشار إليه فيما بعد: الشناوي، **الدولة العثمانية**.

(٨٥) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٩١.

(٨٦) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٦٣.

(٨٧) طرخان، إبراهيم علي: **مصر في عصر دولة المماليك** الجراكسة ١٣٨٢ – ١٥١٧م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠، ص٢٩٣. سيشار إليه فيما بعد: طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**.

(٨٨) **دمياط**: مدينة قديمة تقع بين تنيس ومصر على زاوية بين البحر الأبيض المتوسط والنيل. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٢، ص٤٧٢.

(٨٩) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٣٥٩.

(٩٠) عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص٢٩٨.

(٩١) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٨-٢٦٢.

(٩٢)Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, pp65-66.

(٩٣) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٩٤) الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٧٣.

(٩٥) طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٢٩٥؛ Heyd, Histoire, p521-524.

(٩٦) دراج، أحمد السيد: **المماليك والفرنج** في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦١م، ص١٣٤. سيشار إليه فيما بعد: دراج، **المماليك والفرنج**.

(٩٧) طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٢٩٥.

(٩٨) الشامسي، **الصراع البرتغالي العثماني**، ص٩٥؛ موير، **تاريخ دولة المماليك**، ص١٨٤.

(٩٩) رضوان، **جهود العثمانيين**، ص١١٢-١١٣.

(١٠٠) دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٧٤-١٧٥.

(١٠١) فهمي، **طرق التجارة الدولية**، ص٨١-٨٢؛ دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٣٦.

(١٠٢) طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٢٩٦.

(١٠٣) الرمال، **صراع المسلمين مع البرتغاليين**، ص١٣٩؛ الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٧٦.

(١٠٤) فهمي، **طرق التجارة الدولية**، ص٨٦.

(١٠٥) الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٨١.

(١٠٦) ماجد، عبد المنعم: **التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك** في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨م، ص٣١٣. سيشار إليه فيما بعد: ماجد، **التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك**.

(١٠٧) ديو: جزيرة صغيرة في مياه الهند، تقع شمالي بومباي. **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٤٢.

(١٠٨) Heyd. W: Histoire du Commercedu Levant au Moyen Age, Leipzig 1925, p537.

(١٠٩) هو السلطان بايزيد بن محمد خان الغازي، ولد سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م، وتولى السلطنة سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨١م، وعمره ثلاثون عامًا، ومما افتتحه قلعة مروان وقلعة كوكلك، توفي سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م. انظر: النهروالي، **كتاب الإعلام**، ص٢٧٢-٢٧٧.

(١١٠) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٩٢.

(١١١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٩٢؛ دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٤٢-١٤٣.

(١١٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢٠١؛ Heyd, Histoire, p538-540.

(١١٣) سليم، الأشرف قانصوه الغوري، ص١٣٢؛ عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص٣٠٤-٣٠٥.

(١١٤) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٩١، ٢٠٥.

(١١٥) الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٨٣؛ طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٢٩٨.
See: Heyd, Histoire, p530.

(١١٦) فهمي، **طرق التجارة الدولية**، ص101-107؛ دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٥٢-١٥٣.

(١١٧) دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٥٤.

(١١٨) فهمي، **طرق التجارة الدولية**، ص٨٤.

(١١٩) **كجرات**: وتكتب كذلك جزرات، وهي من أشهر الولايات في شمال غرب الهند. انظر: المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥١.

(١٢٠) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٦٢.

(١٢١) ماجد، **التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك**، ص٣١٤.

(١٢٢) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٢٠٣.

(١٢٣) Sousa, The History of the Discovery, Vol 1, pp65-66.

(١٢٤) Heyd, Histoire, p521-524.

(١٢٥) **الأغربة**: مفردها غراب، وسميت بذلك لأن رأسها يشبه الغراب، وهي سفينة كبيرة تستعمل في نقل الجند. انظر: **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٧١.

(١٢٦) هو الأمير حسين الكردي، لم يكن جركسيًا بل دخيلاً عليهم، كان أكولاً بذولاً للطعام، أرسله السلطان الغوري على رأس حملتين بحريتين لحرب البرتغاليين في الهند، وعلى يديه زالت الدولة الطاهرية من اليمن، وكان السلطان الغوري ولاه نيابة جده لإبعاده عن الجراكسة في القاهرة حماية له منهم، إذ كانوا لا يطيقونه، وكانت نهايته على يد شريف مكة سنة ٩٢٢ه/١٥١٦م، حيث قبض عليه بعد مقتل سيده السلطان الغوري، فاغرقه في البحر انتقامًا منه لسوء سيرته بأهل جده أثناء ولايته عليها. انظر: النهروالي: **كتاب الإعلام**، ص٢٦٢.

(١٢٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٨٤-٨٥.

(١٢٨) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٨؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٨٤، ١٠٩.

(١٢٩) **سواكن**: جزيرة مشهورة تقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر قرب عيذاب، ترفأ إليها السفن القادمة من جدة. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٣، ص٢٧٦.
(١٣٠) دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٣٧.
(١٣١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١١٦.
(١٣٢) **جيزان**: تقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وكانت منزلاً للسفن النازلة من جدة عبر البحر الأحمر باتجاه عرض البحر، وكانت تشتهر بتربية الخيول. انظر: القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**، ص٣٧.
(١٣٣) الكبسي، محمد بن إسماعيل (ت١٣٠٨هـ/١٨٩٠م) **اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية**، ط١، تحقيق: خالد أبا زيد الأذرعي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء ٢٠٠٥م، ١٩١-١٩٧. سيشار إليه فيما بعد: الكبسي، **اللطائف السنية**؛ سالم، **الفتح العثماني**، ص٧٨.
(١٣٤) **شول**: هو ميناء صغير على الساحل الغربي للهند، جنوب سلطنة كجرات، يشتهر بكثرة تجارة الصادر والوارد. انظر: القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**، ص٣٧.
(١٣٥) موير، **تاريخ دولة المماليك**، ص١٨٤؛ الرمال، **صراع المسلمين مع البرتغاليين**، ص١٣٠-١٣١؛ صيرفي، **النفوذ البرتغالي**، ص١٠٤.
(١٣٦) سالم، **الفتح العثماني**، ص٧٩.
(١٣٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٤٢.
(١٣٨) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٤٢.
(١٣٩) القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**، ص٦٧-٦٨؛ رضوان، **جهود العثمانيين**، ص١١٨؛ الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٨٧؛ طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٢٩٦-٢٩٧.
(١٤٠) دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٣٨.
(١٤١) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٣؛ سالم، **الفتح العثماني**، ص٧٩؛ القاسمي، **رحلة بالغة الأهمية**، ص٦٨.
(١٤٢) سالم، **الفتح العثماني**، ص٨٤؛ دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٣٨-١٣٩.
(١٤٣) صيرفي، **النفوذ البرتغالي**، ص١٠٢.
(١٤٤) Heyd, Histoire, p537.
(١٤٥) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٥٦.
(١٤٦) المغلوث، **أطلس تاريخ العصر المملوكي**، ص٢٤٣.
(١٤٧) النهروالي، **البرق اليماني**، ص١٩.
Serjeant. R.B: The Portuguese off The South Arabian Coast, London 1974, pp160-167.
(١٤٨) فهمي، **طرق التجارة الدولية**، ص١٠٨؛ رضوان، **جهود العثمانيين**، ص١١٩.
(١٤٩) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢٨٦.
(١٥٠) **ينبع**: مدينة على ساحل البحر الأحمر، إلى الغرب من المدينة المنورة. انظر: الكبسي، **اللطائف السنية**، ص٢٤٧.
(١٥١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٣٣.
(١٥٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٤٢.
(١٥٣) الزيدي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ص١٧٧.
(١٥٤) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص١٩٢.
(١٥٥) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٢٠١.
(١٥٦) الأشرف قانصوه الغوري، ص١٣٢.
(١٥٧) عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص٣١٠.
(١٥٨) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٩؛ النهروالي، **البرق اليماني**، ص١٩.
(١٥٩) رضوان، **جهود العثمانيين**، ص١٢٤.
(١٦٠) هو عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر القرشي، الملقب بالملك الظافر، آخر سلاطين اليمن من بني طاهر، امتد سلطانه في جميع اليمن، قتل في الحرب التي نشبت بينه وبين الجيش المملوكي سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م. انظر: الزركلي، **الأعلام**، جـ٣، ص٢٥٣.
(١٦١) الكبسي، **اللطائف السنية**، ص١٩٧؛ المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٩.
(١٦٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٣٠٧-٣٠٨.
(١٦٣) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٣١٠-٣١١.
(١٦٤) المليباري، **تحفة المجاهدين**، ص٢٥٩.
(١٦٥) الرمال، **صراع المسلمين مع البرتغاليين**، ص١٥١.
(١٦٦) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٤٦٧.
(١٦٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، جـ٤، ص٤٦٧؛ سالم، **الفتح العثماني**، ص٩٦.
(١٦٨) سالم، **الفتح العثماني**، ص٩٧؛ الرمال، **صراع المسلمين مع البرتغاليين**، ص١٥٥.
(١٦٩) النهروالي، **البرق اليماني**، ص٢٠؛ الكبسي، **اللطائف السنية**، ص١٩٧-٢٠٠.
(١٧٠) **الحديدة**: من الموانئ الحديثة باليمن، وهي مركز مديرية الجبى في بلاد ريمة، وأعمال مدينة صنعاء. انظر: باحويرث، أطماع البرتغاليين، ص١٢٩.
(١٧١) **اللحية**: بلدة عامرة من أرض تهامة على ساحل البحر الأحمر، تقع شمالي الحديدة. انظر: باحويرث، أطماع البرتغاليين، ص١٢٩.
(١٧٢) **زبيد**: مدينة مشهورة باليمن، تقع قبالة ساحل باب المندب. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ٣، ص١٣١.
(١٧٣) النهروالي، **البرق اليماني**، ص٢١.
(١٧٤) الكبسي، **اللطائف السنية**، ص٢٠٣.
(١٧٥) النهروالي، **البرق اليماني**، ص٢٣-٢٤؛ طرخان، **مصر في عصر دولة المماليك**، ص٣٠٢؛ دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٥٥.
(١٧٦) النهروالي: **كتاب الإعلام**، ص٢٦٢.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].



لعبة الشطرنج في الأندلس
بين المقبلين عليها والعازفين عنها



د. محي الدين صف الدين
أستاذ محاضر (أ)
جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

يحتاج الإنسان في حياته اليومية إلى فترات للترفيه عن النفس وكسر الرتابة، لذلك استحدث أنواعًا ووسائل ترفيهية من بينها الألعاب الفردية والثنائية والجماعية، ولعل من بين هذه الألعاب التي لا زالت متواجدة إلى يومنا هذا وتتمتع بشهرة عالمية لعبة الشطرنج. تعتبر لعبة الشطرنج إحدى أكثر الألعاب انتشارًا في العالم اليوم، هذه اللعبة التي ظهرت أولا في الهند ثم تكفل المسلمون بنقلها إلى مختلف المناطق التي وصلوها ومنها الأندلس التي يحتمل أن تكون قد وصلتها هذه اللعبة في بداية القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) على يد المغني والموسيقار علي بن نافع الملقب بزرياب الذي قدم إليها من بغداد. مذ ذاك أقبل الخاصة في الأندلس، من أمراء ووزراء وغيرهم، على تعلمها ولعبها، ثم انتشرت في أوساط العامة وافتتنوا بها وأصبحوا يقضون أوقاتًا طويلة في لعبها مفرطين في واجباتهم الدينية والاجتماعية، مما أدى إلى انقسام الأندلسيين إلى فريقين، فريق مقبل على لعبها ولا يرى في ذلك حرج، وفريق ينهى عن ذلك ويصل إلى حد تحريمها. وعن طريق مسلمي الأندلس وصلت لعبة الشطرنج إلى الممالك النصرانية في شمال شبه جزيرة إيبيريا، ومن هناك انتشرت في أغلب القارة الأوروبية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٤ سبتمبر ٢٠٢١
تاريخ قبول النشر: ٢٠ أكتوبر ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الشطرنج؛ لعبة؛ الأندلس؛ ملوك الطوائف؛ شبه جزيرة إيبيريا

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.258702

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محي الدين صف الدين. "لعبة الشطرنج في الأندلس بين المقبلين عليها والعازفين عنها".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٦٢ – ٦٩.

Corresponding author: moheiddine.saffeiddine@univ-mascara.dz
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يحتاج الإنسان في حياته اليومية إلى فترات للترفيه عن النفس وكسر الرتابة، لذلك استحدث أنواعًا ووسائل ترفيهية من بينها الألعاب الفردية والثنائية والجماعية، ولعل من بين هذه الألعاب التي لا زالت متواجدة إلى يومنا هذا وتتمتع بشهرة عالمية لعبة الشطرنج، التي ظهرت أولا في الهند ومنها نقلها المسلمون إلى عدد من المناطق التي وصلوها واستوطنوها، لعل من أهم هذه المناطق الأندلس التي بلغت من الرقي الحضاري مستوى عاليا، ترى متى وكيف وصلت هذه اللعبة إلى الأندلس؟ وما كان موقف الأندلسيين منها؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال هذه الورقة، والشيء الذي دفعنا إلى ذلك ملاحظتنا عدم اهتمام عدد غير قليل من الباحثين المغاربيين بدراسة الألعاب في الجهة الغربية من العالم الإسلامي الوسيطي، بينما في المقابل يلاحظ اهتمام كبير من قبل الباحثين الغربيين بدراسة الألعاب في العصور الماضية وبخاصة العصر الوسيط انطلاقًا من كتاب ألفونسو العالم أو الحكيم (Alfonso el Sabio) الموسوم بـ " كتاب الشطرنج والنرد والطاولة أو كتاب الألعاب Libro de Ajedrez, dados y tablas o Libro de los juegos". وتكمن أهمية مثل هذه المواضيع في أن الألعاب، مهما اختلفت، فإنها تكشف عن جانب هام من جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع الذي تمارس فيه، لذلك أصبح من واجب الباحثين العرب عامة عدم إهمال مثل هذه المواضيع.

أولاً: التعريف بالشطرنج

١/١-لغة

تُنْطق كلمة شطرنج بشين مفتوحة كما ذهب إلى ذلك الحريري وفانيامبادي عبد الرحيم[١] وغيرهما[٢]، وقال هؤلاء أن " الفتح لغة ثابتة، ولا يضرها مخالفة أوزان العرب، لأنه عجمي معرَّب، فلا يجيء على قواعد العرب من كل وجه "[٣]، بينما رأى لغويون آخرون بأن شينها تنطق مكسورة ولا يجوز غير ذلك، ومن هؤلاء الفيروزآبادي[٤] والصغاني[٥]، وذهب فريق ثالث إلى أن النطقين جائزان مع استحسان الكسر[٦].

كما اختلف اللغويون أيضًا حول أصل كلمة شطرنج، فرأى بعضهم أن أصلها عربي وهي مشتقة إما من الشطارة أو المشاطرة أو من التسطير إذا استبدلت الشين سينا[٧]، ومنهم من رأى أن أصل هذه الكلمة فارسي[٨]، وذهب البعض الآخر إلى أن أصلها يمكن أن يكون هنديا ويوردون في ذلك قصة[٩]، وهو ما يرجحه المؤرخ الإنجليزي ويل ديورانت[١٠]. أما العالم اللغوي ف. عبد الرحيم فيرجح رأي الجواليقي والزبيدي القائلين بالأصل الفارسي للكلمة[١١].

ولم يتفق الدارسون لهذه اللعبة مرة أخرى حول نطق ومعنى كلمة شطرنج، فقالوا يمكن أن تنطق صدرنك وتعني الحيلة أو مائة حيلة وقصدهم من وراء ذلك التكثير[١٢]، أو شُدْرَنْج أو شُدْرَنْك ومعناها من اشتغل بهذه اللعبة ذهب عناؤه باطلا[١٣]، وقيل أنها معربة من شَتْرَنْك وتعني " ستة ألوان وذلك لأن له ستة أصناف من القطع يلعب بها فيه وهي الشاه والفرزان والرخ والفرس والفيل والبيدق "[١٤] أما أدَّيْ شير فيرى أن كلمة شترنك تعني حيلة العدو أو مشيته، وقال بعضهم أن شطرنج مأخوذة من الكلمة الفارسية شترنك والمركبة من كلمتين؛ شَاه تُرنك أي الشاه لطيف أو الشاه اللطيف[١٥]، ويمكن أن تعني كلمة شطرنج ساحل التعب حسب بعض اللغويين[١٦].

إلا أن ف. عبد الرحيم يرى أن أصل هذه الكلمة شترنك، وأصبحت في اللغة الهندية جترنك، وهي مركبة من جزأين "جتر" وتعني أربعة "وأنك" وتعني العضو "، والكلمة مجتمعة تعني ذو أربعة أعضاء " كناية عن الجيش الهندي الذي كان يتكون من الفرسان والفيلة والعربات والرجالة[١٧]. ونحن بدورنا نميل إلى رأي الدكتور ف. عبد الرحيم لاعتبارات أبرزها: أنه عالم لغوي، فبالإضافة إلى لغته الأم الهندية، درس الإنجليزية والعربية، كما أتقن لغات أخرى منها الفارسية والتركية وغيرهما، وهذا ما مكنه من تتبع أصل ومعنى وتطور كلمة شطرنج، وكتب في ذلك مقالا أشرنا إليه في الهوامش السابقة. فعلى الرغم أنه هندي الأصل، وأنه يتقن اللغة الهندية، إلا أنه لم يتعصب للغته الأم ولا لموطنه الأصلي، وقرر أن أصل كلمة شطرنج فارسي.

٢/١-اصطلاحًا

الشطرنج لعبة من أشهر الألعاب في العالم، وهو " لعبة استراتيجية وفن من الفنون يجمع بين الحرب والخطة وبعد النظر والحركة والتصور، وهو لعبة تحتاج إلى تفكير وتأن وصبر وحذر ويقظة، وهذه اللعبة تبتعد عن الحظ وتدرس الاحتمالات وتبين نتائجها "[١٨].

أما ملك الهند الذي وضع له "صصه بن داهر" لعبة الشطرنج فيصف هذه الأخيرة بأنها " آلة الحرب، وعز الدين والدنيا، وأساس لكل عدل "[١٩].

والشطرنج لعبة تلعب على رقعة مقسمة إلى أربعة وستين مربعا صغيرا، ملونا بلونين مختلفين ومترادفين، وتمثل هذه الرقعة ميدان معركة بين شخصين متقابلين بمثابة دولتين متحاربتين[٢٠]، كل منهما يملك جيشا يتكون من مجموعة من القطع تتمثل في الشاه أو الملك والفرزان أو الوزير أو الملكة والأسقفين أو الفيلين والحصانين أو الإسبرنْجَيْن[٢١] ثم الرخين[٢٢] أو القلعتين، ويتقدم هذه القطع ثمانية بياذق أو جنود.

ثانيًا: ظهور لعبة الشطرنج وانتشارها

يختلف المتتبعون لشأن هذه اللعبة حول منشئها، بين قائل بأن أول ظهورها كان في الهند، وقائل بأن ذلك كان في بلاد فارس، إلا أن عددًا من المصادر العربية تنقل عن بعضها قصة مفادها أن هذه اللعبة وضعت أول مرة في الهند على يد شخص اسمه صصه بن داهر للملك شهرام، ردا على لعبة النرد التي وضعت في فارس لكسراها أردشير[٢٣]، ويتبعون هذا الخبر بقصة حبات القمح التي يطغى عليها الطابع الأسطوري.

ورغم ذلك ظهرت أصوات تحاول نسبة الشطرنج إلى حضارات قديمة غير الفارسية، منها قول بعضهم أن أصل لعبة الشطرنج إنما يعود إلى الفراعنة، وخاص منهم توت عنخ آمون (١٣٣٢- ١٣٢٣ ق م) ورمسيس الثالث (١١٨٦- ١١٥٥ ق م)، اللذان لعبا لعبة السنت (Le Senet)[٢٤]، إذ عثر علماء الآثار في عدد من الأهرامات والقبور على علب لهذه اللعبة[٢٥]، كما وجدت رسومات لبعض أفراد الأسر المالكة يزاولون هذه اللعبة، منها رسم للملكة نفرتاري وهي منشغلة بهذه اللعبة[٢٦]. إلا أن الشطرنج يختلف عن السنت من حيث عدد الخانات وعدد القطع وطريقة تحريكها.

وذهب آخرون إلى الإعتقاد بأن الصين تعتبر المهد الأول للشطرنج، اعتمادا على الأسطورة التي تقول بأن الشطرنج الصيني " سيانغ- كي والتي تعني اللعبة الملكية أو لعبة الفيلة " استحدث سنة ١٧٤ ق م، إلا أن الموسوعة الوطنية الكبرى للصين " La Haipienne" تحدد أن الشطرنج أدخل إلى الصين مع نهاية القرن السادس الميلادي[٢٧]، مما لا يدع مجالا للشك بأن الصين ليست المهد الأول للشطرنج.

كما أراد البعض أن ينسب استحداث الشطرنج إلى الإغريق، إذ حسب سوفوكليس (Sophocles) [٢٨] فإن الشطرنج الإغريقي المسمى (بتييا Petteia) تم وضعه من قبل بلامادیس Palamades ملك جزيرة وابية (Eubee)[٢٩]، بينما أكد آخرون أن الإغريق إنما أخذوا الشطرنج عن الفراعنة[٣٠].

وحاول مؤرخون آخرون، نسبة هذه اللعبة إلى الرومان، ومن هؤلاء فاليريو ماكسيمو أحد المؤرخين الرومان من القرن الأول الميلادي، والذي قال بأن القنصل ماركو أنطونيو حاكم مدينة روما كان يقضي يومه كله عاكفا على اللعب[٣١]، دون الإفصاح عن نوع اللعبة التي كان يلعبها، ولكن من خلال الأوصاف التي قدمها هذا المؤرخ يمكن الاستنتاج بأن هذه اللعبة لا تعدو أن تكون شبيهة بلعبة الطاولة أو لعبة الداما[٣٢].

مما سبق، يمكن القول بأن لعبة الشطرنج ظهرت أولاً في الهند، بشكلها الحالي تقريبًا وقطعها، ومنها انتقلت إلى كافة أصقاع العالم القديم متخذة مسميات مختلفة، وخلال العصر الوسيط وصلت هذه اللعبة إلى الأندلس. فكيف ومتى تم ذلك؟

ثالثًا: دخول لعبة الشطرنج إلى الأندلس وانتشارها

١/٣-دخولها إلى الأندلس

شحيحة هي المعلومات حول تاريخ وكيفية دخول لعبة الشطرنج إلى الأندلس، فمن خلال المصادر والمراجع التي تصفحناها أمكننا الحصول على خبرين في هذا الشأن، الأول مفاده أن دخول هذه اللعبة إلى الأندلس تم على يد عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ/ ٧٥٦ –٧٨٨م) مؤسس الدولة الأموية هناك، والذي أدخل معه لوحة شطرنج من ياقوت أحمر كان الحجاج بن يوسف الثقفي، أثناء ولايته على العراق (٧٥-٩٥هـ/ ٦٩٤-٧١٤م)، قد انتزعها من إحدى الأسر الفارسية[٣٣]. إلا أننا لم نجد لهذا الخبر أثرًا في المصادر الأندلسية التي تصفحناها، كما أن أقدم شخصية أندلسية لعبت الشطرنج، حسب نفس هذه المصادر، هي محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم وذلك في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ – ٢٣٨هـ/ ٨٢٢ – ٨٥٢م)[٣٤].

الخبر الثاني مفاده أن الأمير محمد (٢٣٨-٢٧٣هـ/ ٨٥٢-٨٨٦م) كان ممن يحسنون لعب الشطرنج، إلا أنه انهزم أمام فتاه أيدون، فعمل على الثأر منه عن طريق فتى آخر اسمه تمام كان يجيد لعب الشطرنج، واستطاع هذا الأخير إلحاق الهزيمة بأيدون في عدة جولات، فَسُرَّ الأمير محمد بذلك واعتبره ثأرا له وأغدق على تمام بهدايا فاخرة[٣٥].

من خلال ما سبق يمكننا القول، دون الجزم بذلك، بأن دخول لعبة الشطرنج إلى الأندلس تم في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، والراجح أن يكون ذلك على يد زرياب الذي دخل الأندلس سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢٢م[٣٦]، إذ المعروف أن هذا الأخير غادر بغداد في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٧ -

٨٠٩م) الذي كان مولعًا بلعب الشطرنج وكان يلاعب زوجته زبيدة، حتى أن الجولات بينهما كانت سجالا[٣٧]، إضافة إلى أن هذه اللعبة كانت منتشرة في أوساط البغداديين[٣٨]، ومن غير المستبعد أن يكون زرياب أحد هؤلاء.

٣/٢-انتشارها في الأندلس

ظلت هذه اللعبة تنتشر خلال مرحلة حكم عبد الرحمن الأوسط، التي بلغت أكثر بقليل من ثلاثين سنة، والدليل على ذلك ظهور عدد من اللاعبين الذين كانوا يتقنونها، وشهدت أقوى انتشار لها في عهد الأمير محمد الذي أصبح من المولعين بها إلى جانب أخيه أبي أيوب سليمان[٣٩] وعدد من فتيانهما، وهذا ما شجع على انتشارها بين مختلف أوساط الأندلسيين، إذ قيل قديمًا "الناس على دين مليكهم"[٤٠]. كما أن إغداق الأمير محمد على فتاه تمام بالهدايا وتحسين مستواه الاجتماعي، كما سبقت الإشارة إليه، كان أحد الدوافع الرئيسة في إقبال الناس بمختلف مستوياتهم، وخاصةً أولئك الذين ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية الدنيا، على تعلم لعبة الشطرنج[٤١].

تواصل انتشار هذه اللعبة في الأندلس في عهد ملوك الطوائف على نطاق واسع حتى أضحى عدد من الأندلسيين مدمنين عليها يستغرقون النهار كله وجزء من الليل أمام رقعة شطرنج غير مبالين بالطعام[٤٢] ساهين عن أداء شعائرهم الدينية. ومن الذين برعوا في هذه اللعبة على عهد ملوك الطوائف أبو بكر محمد بن عمار[٤٣] وزير المعتمد بن عباد صاحب مملكة إشبيلية (٤٦١- ٤٨٤هـ/ ١٠٦٩- ١٠٩١م)، وكان قد بعثه رسولا إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون (٤٥٩- ٥٠٣هـ/ ١٠٦٥- ١١٠٩م) والذي كان ينوي غزو مملكة إشبيلية، فاتفق معه ابن عمار على أن يلعبا جولة شطرنج على رقعة أحضرها معه من إشبيلية أخذت بلب ملك قشتالة، وللفائز منهما أن يشترط ما يحلو له، فتمكن وزير المعتمد من قمر ألفونسو واشترط عليه أن يعود إلى بلاده، وبذلك جنب مملكة إشبيلية حربا لا طاقة لها بها[٤٤].

إلى جانب ابن عمار برع في هذه اللعبة في إشبيلية وفي نفس الفترة الطبيب أبو بكر بن القاضي أبي الحسن الزهري والذي كان مدمنا عليها حتى لقب بالشطرنجي، إلا أنه كان يشمئز من هذا اللقب، وهذا ما دفعه إلى الاشتغال بالطب[٤٥]، كما برع فيها بعد ذلك محمد بن عبد المنعم صاحب كتاب " الروض المعطار في خبر الأقطار " والذي يقال بأنه كان يلعبها محجوبا[٤٦]، وكذا الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق الذي استطاع أن يصنع رقعة شطرنج ذات هيئة مستديرة[٤٧]، مما يشهد على تقدمه في هذه اللعبة. يُضاف إلى كل ذلك أن كلمة شطرنج تكررت في أشعار الأندلسيين منذ إمارة محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكثر استعمالها من قبل شعراء مرحلة ممالك الطوائف وما بعدها، فما كان موقف الأندلسيين من هذه اللعبة؟

٣/٣-مواقف الأندلسيين من لعبة الشطرنج

سبق أن أشرنا أن لعبة الشطرنج انتشرت على نطاق واسع في الأندلس منذ عهد الأمير محمد، نظرًا لاعتكاف أفراد من البيت الأموي على ممارستها، وظل الإقبال عليها إلى غاية نهاية حكم المسلمين في الأندلس، ولذلك تباينت آراء الأندلسيين تجاه هذه اللعبة، فمنهم من أنكرها ونفر منها واعتبرها مفسدة ومحرمة ومنهم من شجع عليها. فمن أصحاب الرأي الأول الشاعر يحي بن الحكم الملقب بالغزال[٤٨]، الذي خاطب ابن أخته المسمى إبراهيم بقصيدة ينهاه فيها عن لعب الشطرنج ويعتبرها مضيعة للوقت، ومن بين ما جاء فيها:

غَمَّني عِشقُكَ لِلشَطرَنجِ هَذا يا اِبرَهيمُ
عَمَلٌ في غَيرِ بِرّ وَاِختِلافٌ وَلُزومُ
إِنَّما أَسَّسها وَيْحك شيطانٌ رجيمُ
هَبكَ فيها أَلعَبَ النا سِ فَماذا يا حَكيمُ
لُعبَةُ الشَطرَنجِ شُؤمٌ فَاِجتَنِبها يا شؤومُ[٤٩]

كما طالب المحتسب ابن عبدون ولاة الأمور بمنع الناس من لعب الشطرنج، لأنه يشغلهم عن أداء فرائضهم الدينية وخاصة الصلاة، وبذلك اعتبره من الألعاب المحرمة شرعًا[٥٠].

وفي هذا السياق صاغ الأندلسيون المثل القائل: " اقُلْ للنحْسْ أيّ تمشِي؟ قال: لِشطرنجِي انْ مُوَرّكْ "[٥١]، ومعناه أن لاعب الشطرنج منحوس، وذلك مدعاة لتركه والابتعاد عنه، وبلغ الأمر بالفقيه محمد بن عبد الرحمن الفخّار الجذامي أن ألف كتابا بعنوان: " استواء النهج في تحريم اللعب بالشطرنج "[٥٢]، ومما لا شك فيه أن الفقيه ضَمَّن كتابه هذا الأدلة الشرعية المحرمة لهذه اللعبة.

وفي مقابل هذا الفريق من المعارضين للعبة الشطرنج، ظهر فريق آخر من الأندلسيين لم يكن يرى حرجا في لعبها، بل كان بعض أفراده من لاعبيها، فإلى جانب الذين برعوا في هذه اللعبة، وقد سبق ذكرنا لبعضهم، تجدر الإشارة إلى أن الفقيه أبا بكر بن العربي كان يلعب الشطرنج بل كان بارعا فيها منذ صغره[٥٣]، كما كان الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ يلجأ في بعض أوقات فراغه إلى لعب الشطرنج[٥٤]، وكذا أحمد بن أبي القاسم عباس بن أبي زكريا وزير

زهير العامري، الذي كان ممن غلب الشطرنج على هواياته[٥٥]، إلى جانب الكاتب محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي[٥٦]، وهذا الشاعر الأندلسي أبو زيد ابن العمه يمتدح الشطرنج في بيتين من الشعر:

هَلمَّ إلى تَدْبيرِ جيْشَيْنِ جُمِّعا
رِخاخٌ وأفيالٌ وجُرْدٌ سوابِحُ
تَكَبَّرْنَ عن حمْل السِّلاحِ إلى الوغَى
فأرْمَاحُها ألْبَابُنا والقَرائِحُ[٥٧]

وربما يعود إقبال الأندلسيين على هذه اللعبة إلى المزايا التي تكتسيها، إذ وصفها البعض بكونها "تعلّم الحرب وتشحذ اللب، وتدرب الإنسان على الفكر، وتعلمه شدة البصيرة"[٥٨]، أما محمد بن شرف القيرواني فقد مدح الشطرنج بقوله: " حرب سجال، وخيل عجال، وفرسان ورجال، قريبة الآجال، سريعة عودة المحال، تستغرق الفكرة، وتسلب اللب استلاب السكرة، وتترك اللسان وما أراد، أساء أو أجاد، إلا أنها تدني مجلس الصعلوك من أشرف الملوك حتى لا يكون بينهما في أقرب بقعة إلا قدر الرقعة، فربما التقت بنانهما في بيت الرقعة، ولسانهما في بيت القطعة، لعب أصولي وقريب صولي، فخر لجاجي ولعب لجلاجي، مظفر الفئة يراها من مائة، بيوته حصينة وشياهه مصونة ودوابه مجتمعة وسباعه مختبعة، جيد النظر، شديد الحذر، لا يبقي ولا يذر، عينه تغلي فكرته تملي ويده تبلي "[٥٩]، كما أن الإمام الشافعي أباح لعب الشطرنج لأن فيه تشحيذ الخواطر وتزكية الأفهام[٦٠]، وقال بعض أصحاب الإمام الشافعي: "إذا سلمت اليد من الخسران، واللسان من الهذيان، والصلاة من النسيان، فاللعب بالشطرنج أدب بين الخلان"[٦١].

أما فقهاء الأندلس فيكادون يجمعون على أن لعبة الشطرنج ليست محرمة في ذاتها، وإنما يحرم الإدمان عليها ولعبها بالمقامرة والانشغال بها عن أداء الصلوات في وقتها، ولا ضرر في لعبها من حين لآخر، ويستدلون على عدم حرمتها في أن بعض العلماء المسلمين الأوائل مثل سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير وغيرهم أجازوا اللعب بالشطرنج[٦٢]، كما أن فقهاء المالكية أفتوا، بناء على فتوى الإمام مالك، بقبول شهادة من يلعب الشطرنج من غير إدمان[٦٣].

٣/٤-انتقال لعبة الشطرنج إلى الممالك المسيحية الإسبانية

ومن الأجزاء الإسلامية في شبه جزيرة إيبيريا انتقلت لعبة الشطرنج إلى الممالك المسيحية في الشمال، أين لقيت إعجابًا كبيرًا وإقبالاً شديدًا من قبل مختلف شرائح مجتمعات هذه الممالك، ومما يؤكد ذلك قيام الملك ألفونسو[٦٤] العالم بتأليف كتاب بعنوان " كتاب الشطرنج والنرد والطاولة أو كتاب الألعاب Libro de Ajedrez, dados y tablas o Libro de los juegos "[٦٥] سنة (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) وطعمه بعدد من المنمنمات التي تصور رجالا ونساء، من مختلف الديانات السماوية، مقبلين على لعب الشطرنج والنرد والطاولة.

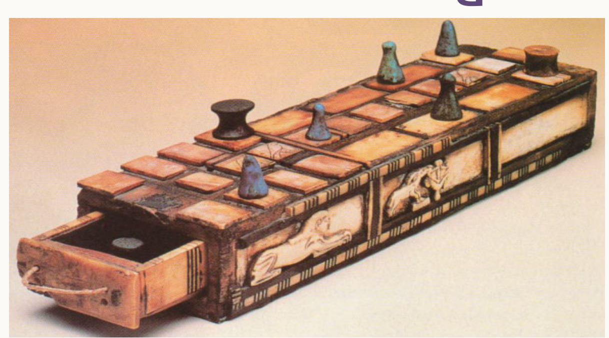
وأول إشارة، في المصادر العربية الأندلسية، إلى عملية انتقال هذه اللعبة إلى مسيحيي الشمال، وردت أثناء حديث المؤرخين عن هجوم ألفونسو السادس على إشبيلية ولعبه الشطرنج مع ابن عمار، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك، مما يدل دلالة واضحة على أن هذه اللعبة كانت معروفة من قبل نصارى الشمال منذ منتصف القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، ومن غير المستبعد أن تكون قد انتقلت إليهم من الأندلس الإسلامية قبل هذا التاريخ، حتى أن كلا من البرتغاليين والإسبان احتفظوا باسمها العربي، ففي اللغة البرتغالية ما زالت اللعبة تسمى (Xadrez) شدرز وهو تحريف واضح للكلمة، أما في الإسبانية فتسمى (Axedrez) أشدرز، ثم تحولت الشين (X) إلى خاء (J) وأصبحت الكلمة (Ajedrez) أخدرز وهي ليست بعيدة عن الكلمة الأصلية[٦٦].

بينما يرى البعض أن انتشار هذه اللعبة في أوساط نصارى شمال شبه جزيرة إيبيريا تم في الفترة الممتدة بين القرنين (الثالث والخامس الهجريين/ التاسع والحادي عشر الميلاديين)[٦٧]، والثابت أنه مع نهاية القرن السادس عشر ميلادي كانت هذه اللعبة قد انتشرت إلى بقية أنحاء أوروبا وصيغت لها قوانين تنظم لعبها ومنافساتها التي كانت تقام هنا وهناك.

خَاتِمَةٌ

إن لعبة الشطرنج التي ظهرت في الهند من أجل التسلية ورفع الملل عن الحكام والجنود، لم تلبث أن تحولت إلى لعبة عالمية واسعة الانتشار، ويعود الفضل في ذلك إلى المسلمين الذين أدخلوها إلى الأندلس، وضبطوا أسماء القطع التي تلعب بها، وسنوا لها قوانين لعبها والتي بقيت سارية المفعول إلى غاية بداية العصر الحديث أين أدخل الأوروبيون بعض التعديلات على هذه القوانين، كما عن طريق مسلمي الأندلس تعرف عليها نصارى شمال شبه جزيرة إيبيريا ثم بقية القارة الأوروبية والعالم أجمع، وأصبحت من بين الألعاب ذات الانتشار الواسع، إلا أنها ما زالت، إلى جانب الألعاب الأخرى التي عرفها المسلمون، وخاصة الأندلسيون، في العصر الوسيط، في حاجة إلى عناية واهتمام الباحثين.

الملاحق



صورة رقم (١)

لعبة السنت(٦٨)



صورة رقم (٢)

الملكة نفرتاري زوجة رمسيس الثاني

تلعب السنت بمقبرتها(٦٩)

الاحالات المرجعية:

(١) فانيامبادي عبد الرحيم مشهور بالدكتور ف. عبد الرحيم، هندي ولد بولاية تاميل نادو بالهند سنة ١٩٣٣م، زاول دراساته العليا في الكلية الرئاسية بجامعة مدراس، وتخرج منها سنة ١٩٥٧ على رأس دفعة اللغة والأدب الإنجليزي، ثم التحق سنة ١٩٦٧ بالجامع الأزهر ليحصل على دكتوراه في فقه اللغة العربية، ومنها التحق بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ليدرس بها فقه اللغة العربية، له عدة مؤلفات، وقام بتحقيق مجموعة من المصادر، ولازال إلى الآن يزاول نشاطه في السعودية. انظر: مدونة الدكتور ف. عبد الرحيم. http://drvaniya.com، يوم ٠١/ ١٢/ ٢٠٢٠ على ١١ و٣٠د

(٢) الحريري القاسم بن علي البصري، **درة الغواص في أوهام الخواص**، تحقيق عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ط ١، ص ١٥٦ = فانيامبادي عبد الرحيم، "**كلمة الشطرنج وبعض مصطلحات هذه اللعبة: تأصيلها ورحلتها من العربية إلى اللغات الأخرى**"، مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، مج ١٠، ع ٢، ربيع الثاني ـ جمادى **الثانية** ١٤٢٩هـ/ ماي ـ جويلية ٢٠٠٨م، ص ٧ = الخفاجي شهاب الدين، **شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل**، تحقيق محمد كشاش، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ط ١، ص ١٨٦.

(٣) الزبيدي الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق حسين نصار، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٦٩هـ/ ١٩٦٩م، ج ٦ ص ٦٣.

(٤) الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ط ٨، ص ١٩٥.

(٥) الصغاني الحسن بن محمد بن الحسن، **التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق عبد العليم الطحاوي، مطبعة دار الكتب القاهرة، ١٩٧٠م، ج ١ ص ٤٥٥.

(٦) ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ط ٣، ج ٢ ص ٣٠٨ = الزبيدي، المصدر السابق، ج ٦ ص ٦٣.

(٧) الصغاني، المصدر السابق، ج ١ ص ٤٥٥ = ابن هشام اللخمي، **المدخل إلى تقويم اللسان**، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م، ط١، ص ٢٢٧ = ابن خاتمة أبو جعفر أحمد الأندلسي، **إيراد اللآل من إنشاد الضوال وإرشاد السؤال**، تحقبق بدر العمراني الطنجي، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م، ط ١، ص ٢١٧ = **القاموس المحيط**، ص ١٩٥.

(٨) الجواليقي أبو منصور، **المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم**، تحقيق ف. عبد الرحيم، دار القلم، دمشق، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ط ١، ص ٤١٤ = ابن منظور، المصدر السابق، ج ٢ ص ٣٠٨ = الزبيدي، المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٠٥ = أدِّيْ شِير، **الألفاظ الفارسية المعربة**، دار العرب للبستاني، القاهرة، ١٩٨٧-١٩٨٨، ط ٢، ص ١٠٠.

(٩) الحريري، المصدر السابق، ص ١٥٦ = ابن الوردي المعرّي، **تاريخ ابن الوردي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ط ١، ج١ ص ٢٧٠.

(١٠) ويل ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م، ج ٣ ص ١٩١.
(١١) الجواليقي، المصدر السابق، ص ٤١٥.
(١٢) الخفاجي، المرجع السابق، ص ١٨٦ = الزبيدي، المصدر السابق، ج ٦ ص ٦٣.
(١٣) الزبيدي، المصدر السابق، ج ٦ ص ٦٣ = الجواليقي، المصدر السابق، ص ٤١٥ = أدي شير، المرجع السابق، ص ١٠٠.
(١٤) أدي شير، المرجع السابق، ص١٠٠ = بطرس البستاني، **محيط المحيط**، مكتبة لبنان، بيروت،١٩٨٧، ط ٢، ص ٤٦١.
(١٥) أدي شير، المرجع السابق، ص ١٠١.
(١٦) الزبيدي، المصدر السابق، ج ٦ ص ٦٣.
(١٧) ف. عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ٩.
(١٨) الجواهرجي محمد عدنان، "**الشطرنج عند العرب**"، مجلة الفيصل، العدد ٤٠، أوت - سبتمبر ١٩٨٠، دار الفيصل الثقافية، الرياض، ص ١٢٤.
(١٩) اليافعي عفيف الدين، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ط ١، ج ٢ ص ٢٤١.
(٢٠) محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي، **معجم لغة الفقهاء**، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ط ٢، ص ٢٦٣.
(٢١) **إسبرنج**: هو اسم الفَرَس الذي في الشطرنْج، واللفظة فارسية معربة. انظر: الزبيدي، المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٠٥.
(٢٢) الرخ من قطع الشطرنج، سمي بذلك تشبيها له بطائر أسطوري كبير يأكل الفيل. انظر: التهانوي محمد بن علي، **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تحقيق علي دحروج، ترجمه من الفارسية إلى العربية عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م، ط١، ج ١ ص ٨٤٩.
(٢٣) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ط ١، ج ٦ ص ٢٦٧٧ = ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧١، ط ١، ج ٤ ص ٢٥٧ = الوطواط أبو إسحاق برهان الدين، غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ط ١، ص ٢٤١ = ابن الوردي، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٧٠.
(٢٤) كلمة السنت تعني العبور، أي العبور من الحياة قبل الموت إلى الحياة بعد الموت، وهي لعبة بين اثنين يلعبانها على لوحة مقسمة إلى ثلاثين مربعا موزعة على ثلاثة صفوف، وتلعب بأحجار شبيهة بأحجار الشطرنج. انظر: زاهي حواس، **الألعاب والتسلية والترفيه عند المصري القديم**، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٢١. انظر: الشكل رقم ١.
(25) Julio Ganzo, historia general del Ajedrez, tercera edicion, editorial Ricardo Aguilera, Madrid, 1973, P 38.
(٢٦) انظر الشكل رقم ٢.
(27) Julio Ganzo, op. cit, p 39.
(٢٨) **سوفوكليس** (٤٩٦-٤٠٥ ق م) شاعر ومسرحي يوناني، من بين مؤلفاته " أنتيغونه " و" أوديب الملك " و " أليكترا ". انظر: مجموعة من المؤلفين، **المنجد في الأعلام**، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٢، ط ١٢، ص ٣٧٢.
(29) Julio Ganzo, op. cit, p 46.
(30) José Brunet y Bellet, El Ajedrez, investigaciones sobre su origen, l'Avens Boters, Barcelona, 1890, p 167.
(31) Julio Ganzo, op. cit, p 48.
(32) José Brunet, op. cit, p 188.
(٣٣) الزمخشري جار الله، **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٢ هـ، ط ١، ج ٥ ص٢٣.
(٣٤) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ط ٢، ج ٢ ص ٣٧٢-٣٧٣.
(٣٥) ابن حيان، **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص ١٨١-١٨٢.
(٣٦) عدنان خلف سرهيد الدراجي، **التأثير الحضاري المتبادل بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية خلال عصر سلطنة غرناطة (٦٣٥-٨٩٧هـ/ ١٢٣٨-١٤٩٢م)**، دار حميثرا للنشر، القاهرة، ٢٠١٨، ط ١، ص ١٥١.
(٣٧) العصامي عبد الملك بن حسين، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ط ١، ج٣ ص ٤٣٦.
(٣٨) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ط١، ج ٨ ص ١٣٣.
(٣٩) ابن حيان، المصدر السابق، ص ١٥٩.
(٤٠) ابن كثير أبو الفدا إسماعيل، **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ط ١، ج ٩ ص١٨٦.
(٤١) ابن حيان، المصدر السابق، ص ١٨٠.
(٤٢) ابن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٧٨، ط ١، مج ٢ ص ٦٦٧.
(٤٣) انظر ترجمته عند: عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ط ١، ص٨٥-٩٧.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٩١ -٩٢.
(٤٥) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص ٥٣٦.
(٤٦) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ط ١، ج ٣ ص ١٠١.
(٤٧) المصدر نفسه، ج ١ ص ٢٦٧.
(٤٨) يحيى بن حكم المعروف بالغزال (١٥٦-٢٥٠هـ/ ٧٧٣-٨٦٤م)، شاعر مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، أرسله أمراء الأندلس سفيراً إلى ملك النورماند والإمبراطور البيزنطي. انظر: الحميدي، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة _ دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ط ٢، ص ٥٩٧-٥٩٨.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ١٨١.
(٥٠) ابن عبدون، **رسالة في الحسبة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٥٣.

(٥١) الزجالي القرطبي، **أمثال العوام في الأندلس**، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، فاس، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، القسم ٢، ص ٢٢ رقم المثل ٧٦.

(٥٢) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج ٣ ص ٦٦.

(٥٣) أبو بكر بن العربي، **قانون التأويل**، تحقيق محمد السليماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة – مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٧م، ط ١، ص ٤٢٩-٤٣٠.

(٥٤) ابن بسام، المصدر السابق، مج ٣ ص ٢٧٤.

(٥٥) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة وبشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٢م، ط ١، ج١ ص ٤٥٤-٤٥٥.

(٥٦) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج ٢ ص ١٥٩.

(٥٧) ابن دحية الكلبي، **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥م، ص ٧٥.

(٥٨) التنوخي المحسن بن علي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ط ٢، ج٢، ص ٢٧١.

(٥٩) بهاء الدِّين العامِلي، **الكشكول**، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ط ١، ج١، ص ٣٣٣.

(٦٠) الملا علي القاري الهروي، **فتح باب العناية في شرح كتاب النقاية**، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ص ١٢٢.

(٦١) ابن نجيم زين الدين، **شرح رسالة الصغائر والكبائر**، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١، ط١، ص ٦١.

(٦٢) محمد بن يوسف العبدري الغرناطي، **التاج والإكليل لمختصر خليل**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ /١٩٩٤م، ط ١، ج ٨ ص ١٦٦ = ابن رشد أبو الوليد، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، تحقيق محمد حجي وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ط ٢، ج ١٣ ص ٢٥٦.

(٦٣) مالك بن أنس الأصبحي (الإمام)، **المدونة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ط ١، ج ٤ ص ١٩.

(٦٤) ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم، ملك قشتالة وليون (١٢٥٢- ١٢٨٤م)، عُرف بحبه للعلوم الإسلامية وتأثره بها، وتنسب إليه مؤلفات منها كتاب الألعاب. انظر:

Louis Moreri, Le grand dictionaire historique, 3édition, Lyon, 1683, p 177- 178.

(65) Olivia Remie Constable, Chess and Courtly Culture in the Medieval Castile: the Libro de ajedrez of Alfonso X el Sabio, the University of Chicago press, Vol 82 No 2 (Apr 2007), pp 301- 347, p. 302.

(٦٦) ف. عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ١٣-١٤.

(67) Michel Roos, Histoire des échecs, édition Presses Universitaires de France, que sais-je?, No 2520, 1 édition, Juin 1990, p 12.

(٦٨) نقلاً عن: **الألعاب والتسلية والترفيه عند المصري القديم**، ص ٢١.

(٦٩) نقلاً عن: **الألعاب والتسلية والترفيه عند المصري القديم**، ص ١٩.

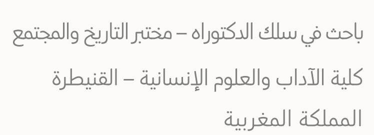
مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الثورات في الأندلس خلال العصر الوسيط

ثورة عمر بن حفصون .. محددات النشأة والتطور





جمال رداحي

باحث في سلك الدكتوراه – مختبر التاريخ والمجتمع

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – القنيطرة

المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تعتبر الثورة الحفصونية من أهم الثورات التي عرفتها الأندلس خلال العصر الوسيط، وترجع قوة هذه الثورة وأهميتها إلى الفترة الزمنية الطويلة التي استغرقتها والتي ناهزت الخمسين سنة، هذه المدة تميزت بأحداث كثيرة وبتعاقب عدد من الأمراء الأمويين الذين لم يستطيعوا القضاء على هذه الثورة رغم المجهودات التي قاموا بها، كما تعود أهميتها إلى الاضطراب السياسي الذي أحدثته في معظم مناطق الأندلس، وكذلك الأثر الذي تركه ابن حفصون لدى المولدين، بالإضافة إلى المبادئ التي أعلنها بن حفصون والتي اتضحت من خلال الخطبة التي كان يرددها على مسامع المولدين لحشد أكبر عدد منهم ضد الإمارة الأموية، كما تكمن أهمية الثورة الحفصونية في تعدد واختلاف المرجعيات والإيديولوجية الفكرية لهذه الثورة وخلفياتها، فبعض الباحثين يعتبرونها جاءت كرد فعل على الأوضاع التي أصبح يعيش فيها المولدون بسبب السلطة الأموية من ظلم وتهميش، بينما آخرون يعتبرونها نتيجة لأسباب خارجية كان هدفها الإطاحة بالحكم العربي في الأندلس، وقد خلفت هذه الثورة نتائج شملت العديد من المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٦ أكتوبر ٢٠٢١

تاريخ قبول النشر: ٢٠ نوفمبر ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الثورة الحفصونية؛ المولدين؛ الإمارة الأمية؛ الدولة الأموية؛ الأندلس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.258788

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

جمال رداحي. "الثورات في الأندلس خلال العصر الوسيط: ثورة عمر بن حفصون محددات النشأة والتطور".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٧٠ – ٧٨.

Corresponding author: raddahi.jamal@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تميزت الإمارة الأموية بالأندلس خاصة في النصف الثاني منها (٢٣٨هـ/٣٠٠هـ)، بكثرة المشاكل والاضطرابات وهي ما أطلق عليها المؤرخون عصر الفتنة والتمزق نظرًا لما أصبحت تعرفه الدولة خلال هذه الفترة من تحديات داخلية وخارجية وحركات تمرد في العديد من المناطق بالأندلس، ومن أخطرها تلك التي قامت في جنوب الأندلس بقيادة عمر بن حفصون، والتي تعتبر من أكبر التحديات التي واجهت الدولة الأموية، خلال هذه المرحلة.

تعتبر الثورة الحفصونية من أهم الثورات التي عرفتها الأندلس خلال العصر الوسيط، وترجع قوة هذه الثورة وأهميتها إلى الفترة الزمنية الطويلة التي استغرقتها والتي ناهزت الخمسين سنة، ثم الاضطراب السياسي الذي أحدثته في معظم مناطق الأندلس، وكذلك الأثر الذي تركه ابن حفصون لدى المولدين، كما تكمن في اختلاف المرجعيات الفكرية لهذه الثورة وخلفياتها، فهناك من يعتبرها جاءت كرد فعل على الأوضاع التي أصبح يعيش فيها المولدون بسبب السلطة الأموية من ظلم وتهميش، بينما آخرون يعتبرونها نتيجة لأسباب خارجية كان هدفها الإطاحة بالحكم العربي في الأندلس، من هنا سنحاول الوقوف على ثورة ابن حفصون وذلك بالتعرف على العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ثم خصائصه هذه الثورة وأسسها ومسارها التاريخي ومخلفاتها خاصة على السلطة الأموية في الأندلس.

إن الغاية من هذه الدراسة هو تقديم نظرة شاملة عن الحركة الحفصونية وعلاقتها بالمولدين، خصوصًا أن الأندلس شهدت خلال هذه الفترة العديد من الثورات في مناطق كثيرة قادها المولدين، وكان من بينها الحركة الحفصونية التي اختلفت المصادر في كل ما هو مرتبط بها سواء في أصل زعيمها وحياته، وكذلك في الأسباب التي أدت إلى اندلاع هذه الثورة، وبالتالي فرغم ما كتب حولها فإنه يكتنفها الغموض.

أولاً: ثورة ابن حفصون بين المصادر العربية والدراسات المعاصرة

١/١-ثورة ابن حفصون من خلال المصادر العربية

استحوذت ثورة بن حفصون باهتمام كبير من طرف المؤرخين الأندلسيين، وكتبت حوله كتب عديدة، فابن حزم القرطبي في رسالته عن فضائل أهل الأندلس يقول: "رأيت فيها أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائعه وسيره وحروبه، وتاريخ أخر في أخبار عبد الرحمان بن مروان الجليقي القائم بالجوف، وفي أخبار بني قسي والتجيبيين... وكتاب أحمد بن فرج في المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم[١]، لكن حسب أمين توفيق الطيبي فإن هذه المصنفات والكتب لم تصل إلينا، بل أغلب المصادر التي وصلت حول ثورة بن حفصون اعتبرها الطيبي من مصنفات أعدائه والتي اعتمد عليها أبو مروان بن حيان في كتاب "المقتبس"، وفيه يقتبس ابن حيان عن أحمد بن محمد الرازي وابن عيسي، وعن محمد بن مسعود صاحب "الأنيق" وبن سعد وابن القوطية وكلهم من رجال البلاط الأموي، وعلى ذلك فإن روايتهم تمثل وجهة نظر واحدة[٢].

من هنا فأغلب المصادر العربية التي اهتمت بابن حفصون وبثورته اتهمته بالفسق والمروق والخروج عن الملة، بل هناك من اعتبره نصرانيا، وآخرون اعتبروه شيعيا وهذا ما سنتعرف عليه فيما بعد، ومن هنا فقد ورد عند ابن عبد ربه في العقد الفريد: "ثم ولي المنذر بن محمد يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين ومات يوم السبت في غزاة له على ببشتر لثلاث عشر بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين وهو ابن ست وأربعين وكان أشد الناس شكيمة وأمضاهم عزيمة، ولما ولي الملك بعث إليه أهل كليكلة بجبايتهم كاملة فردها عليهم وقال: استعينوا بها في حربكم فأنا سائر إليكم إن شاء الله. ثم غزا المارق المرتد عمر بن حفصون وهو بحصن قامرة فأحدق به وبخيله ورجله فلم يجد الفاسق منفذًا ولا متنفسًا فأعمل الحيلة ولاذ بالمكر والخديعة. وأظهر الإنابة والإجابة وأن يكون من مستوطني قرطبة بأهله وولده، وسأل إلحاق أولاده في الموالي فأجابه الأمير إلى كل ما سأل وكتب لهم الأمانات، وقطعت لأولاده الثياب، وخرزت لهم الخفاف، ثم سأل مائة بغل يحمل عليها ماله ومتاعه إلى قرطبة، فأمر الأمير بها وطلبت البغال ومضت إلى ببشتر وعليها عشرة من العرفاء، وانحل العسكر عن الحصن بعض الانحلال وعكف القاضي وجماعة من الفقهاء على تمام الصلح فيما حسبوا فلما رأى الفاسق الفرصة انتهزها ففسق ليلاً وخرج فلقي العرفاء بالبغال فقتلهم وأخذ البغال وعاد إلى سيرته الأولى. فعقد المنذر على نفسه عقدًا أن لا أعطاه صلحًا ولا عهدًا إلا أن يلقي بيده وينزل على عهده وحكمه ثم غزاه الغزاة التي توفي فيها، فأمر بالبنيان والسكنى عليه وأن يرد سوق قرطبة عليه فعاجله عن ذلك"[٣]، كما وصفه أنه من شيعة الشياطين وأنه عظيم الكفر، ويظهر ذلك من خلال مجموعة من الأبيات الشعرية نذكر منها:

لم يغزوا فيها وانتحى ببشتر
فرمها بما رأى ودبرا
واحتلها بالعز والتمكين
ومحو أثار بني حفصون
وعاضها الإصلاح من فسادهم
وطهر القبور من أجسادهم
حتى خلا ملحود كل قبر
من كل مرتد عظيم الكفر
عصابة من شيعة الشياطين
عدوة لله والسلطان
فخرمت أجسادها تخرما
وأصليت أرواحهم جهنما

وهو ما وصفه كذلك بالانتماء للخوارج حيث قال: "بأنه إمام الخوارج وقدوتهم، وأعلامهم ذكرا في الباطل وأضخمهم بصيرة في الخلاف وأشدهم سلطانا، وأعظمهم كيدا وأبعدهم قوة[٤].

كما اهتم ابن القوطية في كتابه "تاريخ افتتاح الأندلس" بثورة عمر بن حفصون واعتبره من الخارجين عن القانون وذلك بقوله "حيث جمع حوله بعض الشطار والخارجين عن القانون وتفرغ لأعمال السلب والسطو على القوافل ونهب المزارع والبيوت، ثم بعد ذلك وقع في يد العدالة ليجزم عن هذا النوع فاكتفى عامل رية بتأذيبه بضربه بالسياط لجهله لما كان له من سابقة في الإجرام"[٥]. وهو ما ذهب إليه ابن الخطيب حيت اعتبره من الدعار وذلك عندما وصفه "وهنا في هذه المناطق الجبلية الوافرة التضاريس هنا قلب عمر للتوغل في الغابة والأوعار العجيبة فانتهى به الأمر إلى احتراف اللصوصية فصار في الدعار"[٦].

كما يعتبر ابن عذاري المراكشي من المؤرخين الذي كتبوا عن عصر الإمارة الأموية في الأندلس، وعن ثورة عمر بن حفصون خاصة في جزئه الثاني وهو من المصادر التي تضمنت معلومات حول هذه الثورة خاصة فيما يخص المراحل التي مرت منها، رغم اختصارها في بعض الأحيان، حيث وصف ابن حفصون بالنفاق والكفر إذ يقول "وفي هذه السنة هلك ابن حفصون عميد الكافرين ورأس المنافقين وموقد شعل الفتنة وملجأ أهل الخلاف والمعصية"[٧].

الملاحظ من خلال الاطلاع على المصادر العربية التي اهتمت بالثورة الحفصونية هو انحيازها إلى السلطة الأموية، واعتبار بن حفصون من المتمردين الذين أثاروا الفتنة والعنف والقلاقل في الإمارة الأموية.

٢/١-ثورة عمر بن حفصون من خلال الكتابات المعاصرة

لم تختلف الكتابات المعاصرة التي اهتمت بالثورة الحفصونية كثيرا عما جاء في المصادر العربية فالمتتبع لأهم هذه الكتابات يلاحظ أن أغلبها اختلفت حول ثورة بن حفصون في الجنوب الأندلسي، فنجد دوزي رينهارت يعتبره بطلا إسبانيا حينما يقول "البطل الإسباني الذي لبث أكثر من ثلاثين عاما يتحدى المتغلبين على وطنه، والذي استطاع مرارا أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم، وكان بطلا خارقا لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان"[٨]. كما وصفه دوزي بأنه: "الزعيم لجميع الإسبان من مولدين ومستعربين في وسط شبه الجزيرة الأيبيرية"[٩]، كما حاول بعض المؤرخين الإسبان أمثال سيمونت تبرير حركة بن حفصون بأنها حركة اتخذت شكلا أكثر نبلا، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة[١٠]، لكن رغم اعتبار بعض المؤرخين أمثال دوزي رينهارت وسيمونت وارينو وآخرون بن حفصون ثائرا بطلا قويا كان هدفه تحرير وطنه من العرب المسلمين، فإنهم اقروا بأنه كان سفاحا وقاطعا للطرق وهو ما يتبين من خلال قول المؤرخ الهولندي دوزي رينهارت "كان هذا الحصن قائما على مرتفع شاهق شديد الانحدار يستحيل الوصول إليه من الشرق والغرب، فكان من الهين على عصابة عمر أن تشن الغزوات على هذا السهل، فتحمل منه الماشية وتفرض الضرائب غير الشرعية عن النواحي المنعزلة فاكتفى عمر بادئ الأمر بهذه السطوات الأولية، ثم ازدادت جماعته بانضمام من يهمهم التعدي على المجتمع، ورأوا الأمن على أنفسهم بالاختفاء وراء أسوار هذه الحصون القوية[١١]. ومن هنا فدوزي يعتبر بن حفصون من قطاع الطرق والذي أكثر الفساد في المنطقة التي سيطر عليها.

ويرى محمد عبد الله عنان أن هذه الآراء مبالغة وإغراء وليست إلا ثمرة نزعة من التعصب. أما إبراهيم القادري بوتشيش يرى في كتابه الإسلام السري في المغرب العربي أن الحركة الحفصونية يجب ربطها بظرفيتها الاقتصادية والاجتماعية، ويذكر كذلك أن الثورة الحفصونية ثورة مزارعين وأقنان وعبيد ناضلوا ضد اضطهاد السلطة الإقطاعية، وأساليبها القمعية، وأنها ليست موجهة ضد شخص الأمير أو كانت حركة تحررية أو يقظة للوعي الإسباني وهذا ما يراه أغلب المستشرقين.

ثانيًا: أسس ثورة عمر بن حفصون

١/٢-عمر بن حفصون وعلاقته بالمولدين

هو عمر بن حفصون بن ذميان بن فرغلوش بن ادفوس[١٢]، جده هو عمر بن جعفر الإسلامي الذي ينحدر من أصل قوطي وكان جد جعفر الأعلى يحمل اسم ألفونسو ولقب كونت[١٣]. وقد أسلم جعفر في بداية افتتاح العرب للأندلس، امتهنت أسرته حياة الزراعة بالقرب من مدينة مالقة، ثم انتقلوا إلى جنوب شرق مدينة رندة واستقروا في المناطق الوعرة حيث الجبال الشاهقة، وأشهرها جبل ببشتر التابع لكورة رية معقل هذا الثائر وملاذه الأخير طوال الثورة[١٤]، وهناك ولد له حفصون الذي انسل بدوره عمر، وفي ظل دولة الإسلام في الأندلس مارس حفصون الزراعة، وفي رعاية حفصون نشأ وترعرع عمر الذي بدا منذ مطلع شبابه شرسا عاتيا ومشاكسا[١٥]. عندما تصف المصادر التاريخية عمر بن حفصون وهو في تاهرت تقول بأنه غلام أي أنه كان في حدود السابعة عشر من العمر على الأكثر وبذلك فالتاريخ التقريبي لولادته حوالي (٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)[١٦].

حسب إبراهيم القادري فإن ابن حفصون هو سليل أسرة من المولدين وليس من أهل الذمة كما تذكر ذلك بعض المراجع، وبالتالي فهو من سلالة مولدية[١٧]، ويقصد بالمولدين الجيل الذي ولد من أباء مسلمين سواء كانوا عربًا أو بربرا وأمهات أعجميات سواء كن إسبانيات أو غير ذلك، فقد أقبل الفاتحون من العرب والبربر على مصاهرة أهل البلاد فتزوج الكثيرون منهم من الإسبانيات وعاشروا أهل البلاد واختلطوا بهم، وعن طريق ذلك انتشر الإسلام بالأندلس وامتزج الفاتحون من عرب وبربر مع أهل البلاد الأصليين، ونشأ بذلك جيل المولدين[١٨]. وقد كان هذا الجيل يشكل على عهد أمراء بني أمية الكثرة الغالبة بين السكان، رغم أن المولدين كانوا يعتنقون الدين الإسلامي فإنهم يتعصبون ويتحالفون مع بني جلدتهم من العجم أو النصارى وظهرت منهم جماعات كبيرة عاشت في المدن الهامة كطليطلة التي كانت تضم أكبر طائفة منهم وكانت مركزًا من أهم مراكز عصبيتهم وكذلك اشبيلية كانت معقلا هاما من معاقلهم حيث كانوا يمثلون أكبر طائفة منهم وكانوا يعملون بالإدارة والتجارة وظهر منهم الكثير من الأغنياء[١٩].

كان للمولدين حركات في الأندلس بدأت تظهر في أواخر القرن الثاني الهجري، واتسم موقف الحكام الأمويين منها بالشدة، لكنهم لم يفلحوا في القضاء عليها فهي كانت تستغل ضعف الدولة الأموية، وتبقى أخطر وأقوى هذه الحركات الاجتماعية هي التي قامت في كورة رية في الجنوب بقيادة عمر بن حفصون حيث نجح في اجتذاب الأتباع وحشد الأنصار من كل جهة، فقد كانت دعوته التي رددها في كل مرة توافق في ذلك الحين ما في نفوس عدد كبير من سكان الأندلس من المولدين غير الراضين عن الهيمنة المستمرة في قرطبة. ومن هنا طرح نفسه على المولدين كمعارض لسلطان بني أمية بالذات، وليس كقاطع طريق أو ساع وراء المال والكسب المادي. وهذا ما يتبين من خطابه لأتباعه وقوله "طالما عنفكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستبعدتكم، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم"[٢٠]، ومن هنا فإن ابن حفصون تزعم المولدين منذ سلطة الأمير الأموي بقرطبة، وضد الجماعات العربية التي استقرت في كورة الجنوب منذ بداية الفتح العربي، وحظيت بامتيازات لم ترق للمولدين وأهل الذمة من العجم[٢١].

من هنا يعتبر إبراهيم القادري أن الحركة الحفصونية شأنها شأن المولدين كان هدفها مناهضة الأرستقراطية العربية[٢٢].

٢/٢-عوامل قيام ثورة عمر بن حفصون

عند الاطلاع على المصادر الخاصة بهذه الفترة يتبين أن كثرة الثورات والفتن التي قامت في وجه الدولة الأموية في الأندلس تعود إلى عدة أسباب، تبقى ثورة عمر بن حفصون التي قامت في جنوب الأندلس من أخطر وأقوى الثورات ومن هنا فهي تلتقي مع مجموعة من الثورات فيما يخص الأسباب والعوامل التي أدت إلى قيامها ومنها أساسًا:

(٢/٢) ١-العوامل الاقتصادية والاجتماعية

حسب إبراهيم القادري إن ثورة ابن حفصون جاءت لتعبر عن الاتجاه الذي عرفته أوربا والذي يتجلى في الثورات الفلاحية المناهضة للإقطاع، وبالتالي فهي ثورة مزارعين وأقنان وعبيد ناضلوا ضد اضطهاد السلطة الإقطاعية وأساليبها القمعية[٢٣]، وهو ما يتضح من خلال خطاب ابن حفصون لأنصاره والذي ذكره ابن عذاري إذ قال:" طالما عنف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب واستعبدتكم، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم"[٢٤]، وهذا النص يؤكد دور العامل الاجتماعي والاقتصادي في قيام الثورة الحفصونية وذلك بمشاركة العبيد والأقنان كما يؤكد على ذلك إبراهيم القادري، وهو نفس ما ذهب إليه عطية محمد اللافي الذي يؤكد أن ابن حفصون استغل الأزمات الاقتصادية التي مرت بها بلاد الأندلس، و عجزت الإمارة على التغلب عليها خلال هذه المرحلة، فهو يعتبر أن السنوات التي كانت قبل قيام ثورة

بن حفصون مليئة بالمحن الاقتصادية التي أدت بدورها إلى الفاقة و الجوع و انتشار حركات الصعلكة و تلاشي الأمن وبداية انهيار هيبة وحزم الإمارة الأموية[٢٥].

كما يمكن اعتبار كثرة عناصر المجتمع الأندلسي عامة والقرطبي على الخصوص، وتنوعه عرقياته، من الأسباب المساعدة على قيام الثورة الحفصونية وهذا ما يؤكده ابن خلدون" إن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها الدولة والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء... فيكثر الانتفاض على الدولة والخروج عليها كل وقت"[٢٦].

كما أن هناك من يعتبر دخول تيارات فكرية جديدة إلى الأندلس من أسباب قيام الثورات خلال هذه الفترة. فهذه الثورات حملت معها أراء بعض الفرق الإسلامية التي لابد أن البعض تبنى تلك الآراء، وحاول أن يروج لها بين أفراد المجتمع الأندلسي[٢٧]، بل ربما أن الاتجاه الكلامي الذي يمثل المذهب الشيعي والاعتزالي كان له أثر في تحريك الثورات ضد الدولة الأموية في الأندلس، حيث أن الاتجاه قد عرف طريقه أنداك إلى هذه البلاد[٢٨].

(٢/٢) ٢-العوامل السياسية

من أهم العوامل السياسية التي لعبت دورا كبيرا في قيام الحركة الحفصونية، هو استحواذ الارستقراطية العربية على المناصب العليا في الدولة الأموية، لأن الأمراء الأمويين كانوا يمنحونها لهم دون غيرهم، وتتضح هذه السياسة من خلال ما جاء على لسان الأمير محمد حيث قال "إن مذهبنا أن تقتصر خططنا هذه على أبناء موالينا و أهل السابقة في خدمتنا" و من الواضح أن الأمير قصد هنا الأرستقراطية العربية، وتم إقصاء عامة الناس من سكان البلاد الذين هم في غالبيتهم من المولدين، وهذا الوصف يتوافق مع نظرة العرب بالأندلس إلى المولدين. بالإضافة إلى الامتيازات التي قدمت للعرب من أموال وأراضي على حسابهم مما جعلهم ينقمون على الدولة[٢٩]، ويبقى الوضع الإداري الذي أصبحت عليه الدولة الأموية في عهد الأمير محمد من الأسباب السياسية التي أدت إلى اندلاع الثورات والتمردات في الأندلس خلال هذه الفترة. فقد تسرب الفساد إلى الجهاز الإداري، حيث نجد أن السياسة التي انتهجها الأمير أغرت موظفي الدولة بالانسياق وراء رغباتهم دون مراعاة المصالح العامة للشعب[٣٠]، وقد اشتهر بعض عمال الكورة بالظلم والشدة على الناس والعنف في معاملتهم والشدة في جباية الضرائب[٣١].

(٢/٢) ٣-العوامل الخارجية

تتمثل أساسًا في استغلال الملوك النصارى للأوضاع الداخلية للإمارة الأموية بالأندلس، وتشجيع الحركات من أجل الخروج عنها، وهذا ما اتضح مع ابن حفصون الذي كانت تربطه اتصالات وعلاقات داخلية وخارجية مع متمردين أقوياء داخل الأندلس كإبراهيم بن الحجاج حاكم اشبيلية، كما تحالف مع الملوك النصارى في الشمال مع غرسية ملك نافار وألفونسو الثالث ملك ليون[٣٢].

كما كانت لابن حفصون اتصالات بجهات أخرى، بغرض تأمين الدعم لثورته، فاتصل بابن الأغلب في تونس ولكنه لم يستجب له، ربما لعدم ثقته به، كما اتصل بالخوارج الصفرية في المغرب، وحاول إغراء الخلفاء العباسيين وأطمعهم في ضم الأندلس لخلافتهم، وكتب للخليفة العباسي معلنًا الدخول في طاعته، ولما لم يجد عندهم النصرة اتصل في أواخر القرن الثالث بالفاطميين في المغرب بعد قيام دولتهم لكسب تأييدهم لثورته ضد أمراء الأمويين، فكان التشيع لديه وسيلة، ولهذا تخلى تدريجيًا آخر أيامه عن نزعة التشيع ومال إلى النصرانية فأعلن ارتداده عن الإسلام[٣٣].

ثالثًا: المسار التاريخي للثورة الحفصونية ونتائجها

٣/١-المسار التاريخي للثورة الحفصونية

بدأت ثورة عمر بن حفصون بجنوب الأندلس سنة (٢٦٧هـ/ ٨٨٠م)، وانتهت (٣٠٥هـ/ ٩١٧م). وقد عاصرت هذه الثورة أربعة أمراء أمويين بدءا بمحمد بن عبد الرحمان الأوسط إلى عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر لدين الله. من هنا يمكن تقسيم الثورة إلى أربعة مراحل حسب فترة حكم كل أمير وصراعه مع ابن حفصون.

(٣/١) ١-مرحلة محمد بن عبد الرحمان

في هذه المرحلة ظهر ابن حفصون على مسرح الأحداث وتزعم المولدين و استغل أوضاع الإمارة للثورة على الأمير محمد الذي واجه أخطر تحد رفع في وجهه طيلة فترة حكمه[٣٤]، في عام ٢٦٧ هـ، كانت بداية ثورة عمر بن حفصون في كورة رية، حين سار إليه عامر بن عامر والي رية ببعض القوات عندما رأى أن أمر ابن حفصون قد اشتد، إلا أن ابن حفصون هزمه وطرده[٣٥]، مما شد من شوكته، وجمع بذلك حوله المتمردين والثائرين، عزل الأمير عامل رية، وعيّن مكانه عامل آخر لم يستطع أيضًا هزيمة ابن حفصون لتحصنه في قلاعه، لجأ ابن حفصون إلى إثارة النزعة الإثنية عند المولدين والمستعربين ضد

الدولة الأموية في الأندلس في المناطق التي سيطر عليها، عبر نشر دعوات التخلص من نير العرب الغزاة، وقد نقل ابن عذاري قوله في أحد خطبه: "طال ما عنّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمّلكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم. وإنما أريد أن أقوم بثأركم، وأُخرجكم من عبوديتكم"(٣٦).

عمل الأمير محمد على السيطرة على ثورة عمر بن حفصون، فسيّر الوزير هاشم بن عبد العزيز عام ٢٧٠ هـ في قوة كبيرة إلى كورة رية، أرغمت ابن حفصون ورجاله على الاستسلام، وأخذهم إلى قرطبة، حيث عفا عنه الأمير، وضمه إلى جيشه(٣٧)، وقد شارك ابن حفصون في جيش المنذر بن الأمير محمد والوزير هاشم بن عبد العزيز إلى الثغر الأعلى لقتال محمد بن لب بن موسى والي سرقسطة الخارج على الأمير وحليفه ألفونسو الثالث ملك أستورياس عام ٢٧٠هـ(٣٨). وفي العام التالي ٢٧١ هـ، فر عمر بن حفصون إلى جبل ببشتر، فأرسل له الأمير محمد حملة حاصرته(٣٩)، ظل ابن حفصون لعامين يغير على المناطق المجاورة، حتى بعث له الأمير محمد ابنه المنذر مرة أخرى عام ٢٧٣ هـ، حيث بدأ المنذر بمهاجمة مدينة الحامة شمال شرق مالقة معقل الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون، فهبّ ابن حفصون لنجدة حليفه ودافع عن المدينة المحاصرة من قبل المنذر لشهرين، قبل أن تتقاتل قوات ابن حمدون وابن حفصون مع جيش المنذر في معركة انهزم فيها المتمردون، وجرح فيها ابن حفصون وعاد الاستعصام بالمدينة(٤٠).

(١/٣) ٢-مرحلة المنذر بن محمد

جاءت أنباء وفاة الأمير محمد في ٢٩ صفر ٢٧٣ هـ فأسرع المنذر بجيشه إلى قرطبة، فاستغل ابن حفصون الفرصة، وراسل أصحاب الحصون في كورة إلبيرة وجيان فأطاعوه، فعمّت بذلك الثورة في مناطق واسعة من شرق الأندلس(٤١)، فسيطر على معظم حصون المنطقة، لتصبح بذلك رية ورندة وإستجة وأرشذونة ومالقة وجيان وباغة وقبرة تحت سلطته(٤٢)، كما راسل إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية يدعوه للتحالف معه، إلا أن ابن الأغلب لم يستجب لدعوته(٤٣)، وقد أرسل لهم المنذر بعض الحملات التي حققت بعض الانتصارات العسكرية، إلا أنها لم تنهي تلك الثورة.(٤٤) وفي عام ٢٧٤ هـ خرج المنذر بنفسه لقتاله، فبدأ بافتتاح الحصون التي والت ابن حفصون، فأضعف بذلك من قوته، ثم سار إليه، فحاصره وضيّق عليه. فلجأ ابن حفصون إلى حيلة بأن أوهم الأمير بموافقته على الصلح، فأجازه المنذر على أن ينزل بأهله إلى قرطبة. فطلب ابن حفصون مائة بغل لينقل عليها أهله وماله، فوافق الأمير، وأرسل معها مائة وخمسين فارسًا لحمايتها، وفك الأمير الحصار(٤٥). وإذ هو في طريق العودة إلى قرطبة، جاءه خبر غدر ابن حفصون برجاله ونهبه للبغال، فعاد الأمير وحاصره ثانية لثلاث وأربعين يومًا، وأصابه المرض وهو يحاصر ابن حفصون، ولم تمض فترة قصيرة حتى مات(٤٦).

(١/٣) ٣-مرحلة عبد الله بن محمد

مع بداية حكم الأمير عبد الله، لجأ ابن حفصون إلى مهادنته، فبعث ابنه حفص إلى قرطبة في جماعة من أصحابه، لعقد السلم مع الأمير على أن يقيم في ببشتر في طاعته، فأقره عبد الله على ذلك، وبعث بعامل له على كورة رية، ليحكمها بالمشاركة مع ابن حفصون. لم تمض أشهر حتى طرد ابن حفصون عامل الأمير، وعاد واستولى على أرشذونة(٤٧)، فسار له عبد الله بنفسه عام ٢٧٦ هـ، واجتاح ببشتر(٤٨)، إلا أن ابن حفصون لجأ إلى الجبل وتخفّى فيه. وعند عودة الأمير إلى قرطبة، نزل ابن حفصون وهاجم إستجة واستولى عليها إلى أن بعث إليها الأمير من أجلاه عنها. ثم ثار خير بن شاكر في جيان، وفشلت قوات الأمير بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبده في إخضاعه، فبعث ابن حفصون بعض رجاله بحجة مساعدة ابن شاكر، إلا أنهم غدروا به وقتلوه، وحملوا رأسه إلى ابن حفصون الذي أرسلها إلى قرطبة توددًا للأمير، إلا أن الأمير عبد الله لم يقبل ذلك منه، فأغار ابن حفصون على جيان وانتهبها(٤٩)، في العام نفسه ٢٧٦ هـ، دخل ابن حفصون في صراع آخر، فقد كانت القبائل العربية بقيادة سوار بن حمدون القيسي في كورة إلبيرة قد ثارت على الأمير، وأغارت على حصون المولدين والمسيحيين في تلك المنطقة، وامتدت سلطتها حتى قلعة رباح، مما دعا ابن حفصون للاشتباك معهم في عدة معارك انتهت بهزيمته ومقتل عدد من قادته(٥٠).

وفي عام ٢٧٨ هـ، نقل ابن حفصون قاعدته إلى حصن بلاي، وأغار منها على ضواحي قرطبة، فجهّز الأمير جيشًا قوامه ١٨ ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن محمد بن أبي عبده سار به لقتال قوات ابن حفصون التي بلغت يومها ٣٠ ألفًا، والتقيا على ضفاف أحد فروع نهر الوادي الكبير في ٢ صفر ٢٧٨ هـ، وانتهت المعركة بهزيمة مروعة لجيش ابن حفصون(٥١)، فرّ على إثرها إلى ببشتر، بينما سار جيش الأمير غربًا لاستعادة إستجة، فحاصرها أيامًا حتى استسلمت وعادت لطاعة الأمير، ثم سار جيش الأمير إلى ببشتر، فاجتاحها ثم قفل راجعًا إلى قرطبة(٥٢).

في عام ٢٨١ هـ، سار المطرف بن الأمير عبد الله إلى ببشتر وحاصرها لفترة قبل أن يقاتله ابن حفصون، في معركة هُزم فيها هذا الأخير، وفي عام ٢٨٤ هـ هاجم ابن حفصون إستجة واستولى عليها، فسير الأمير جيشًا بقيادة ولده أبان والقائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة لقتاله، واشتبكا معًا في عدة معارك غير حاسمة، وفي العام التالي تحالف ابن حفصون مع محمد بن لب بن موسى ضد الأمويين، وبعث له محمد ابنه لب في بعض قواته، إلا أن وفاة محمد بن لب وهو يحاصر طليطلة، أدت إلى إفشال التحالف وانسحاب لب بن محمد بقواته ليخلف أباه[٥٣].

في عام ٢٨٦ هـ، أعلن ابن حفصون اعتناقه المسيحية، وتسمى باسم صمويل، وقد اعتبر تحوله إلى المسيحية، خطأ سياسيًا كبيرًا، فعلى الرغم من أن تلك الخطوة أكسبته عددًا من المؤيدين المستعربين، إلا أنها أفقدته معظم أتباعه من المولدين الذين انقلبوا عليه وأعلنوا ولائهم للأمير، كما ساعد ذلك في شحن المسلمين في الأندلس ضده واعتبروا قتاله جهادًا[٥٤]، ومن هنا توالت حملات الأمير على عليه، ففي عام ٢٩١ هـ سار أبان ابن الأمير عبد الله ومعه القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى كورة رية لقتال ابن حفصون، فاجتاحوا رية، وهزموه في عدة مواقع، ثم ألحق جيش آخر خرج في العام التالي بابن حفصون هزيمة شديدة قرب جيان، قُتل فيها عدد كبير من أتباعه، كما تعرض لعدة حملات أخرى أعوام ٢٩٥ هـ، و ٢٩٧ هـ و ٢٩٩ هـ، انتهت كلها بهزيمته، لكن دون أن تنجح في القضاء عليه[٥٥].

(١/٣) ٤-مرحلة عبد الرحمن بن محمد

بدأ عبد الرحمن بن محمد عهده بحملة عرفت باسم "غزوة المنتلون" في رمضان ٣٠٠ هـ، بدأها باسترداد إستجة من أتباع ابن حفصون[٥٦]، ثم انتزاع حصون غرب الأندلس التي احتلها حلفاء ابن حفصون، ثم سائر حصون كورة جيان، و توجه عبد الرحمن بالجيش إلى رية، وأخضع حصونها، ثم استرد مدينة وادي آش وحصونها وسائر حصون جبل الثلج[٥٧]، حاول ابن حفصون أن يشغله بغزو غرناطة، فقاومه أهل إلبيرة بمساعدة من بعض قوات عبد الرحمن، وهزموه[٥٨]. ثم عاد ابن حفصون بعد عودة الأمير عبد الرحمن إلى قرطبة، فهاجم حصون كورة ريّة والجزيرة الخضراء، فثارت مجددًا. فخرج له عبد الرحمن في شوال ٣٠١ هـ، فبدأ بحصار قلعة طرش، وهناك وقعت معركة بين قوات الأمير وقوات ابن حفصون، قُتل فيها عدد كبير من قوات هذا الأخير وحلفائه، ففر إلى ببشتر[٥٩]، كما نجح عبد الرحمن في ضبط عدد من السفن المحملة بالمؤن التي أرسلها الفاطميون مددًا لابن حفصون، وأحرقها[٦٠].

بعد أن انقطعت السبل أمام عمر ابن حفصون، لجأ في عام ٣٠٣ هـ إلى طلب الصلح[٦١]، فقبل عبد الرحمن الصلح، وكلّف يحيى بن إسحاق بالتفاوض معه على شروط الصلح. فاتفقا على عدة شروط منها أن يقر الأمير لابن حفصون سيطرته على 162 حصنًا على أن يدخل في طاعة الأمير، وقد خطّ عبد الرحمن في أسفل الكتاب بخط يده: "يا لله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب، وجميع إيمان البيعة لازمتي من العهود المشددة، والأيمان المؤكدة، والمواثيق المغلظة، لا نقضت شيئًا مما جمعه هذا الكتاب تبديله، ولا نقصان شيء منه، ولا رضيت ذلك في سر ولا جهر، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمتي، والله شهيد علينا، وخططنا هذه الأحرف بيدنا، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا، وكفانا بالله شهيدًا، ما وفى عمر بن حفصون بما نص في هذا العهد وصحح فيه إن شاء الله، والله المستعان[٦٢].

٣/٢-نتائج ثورة عمر بن حفصون

كما هو حال جميع الثورات عبر التاريخ كان لثورة عمر بن حفصون بجنوب الأندلس نتائج وانعكاسات شملت ميادين عديدة نذكر منها:

(٣/٢) ١-الميدان الاقتصادي

كان لثورة عمر بن حفصون نتائج على التجارة في الأندلس فقد قطع الخط التجاري الرابط بين الأندلس وبلدان العدوة، مما اضر باقتصاد الإمارة الأموية وحرمها من منفذ في غاية الأهمية ولم تعد سيطرتها على هذا الطريق إلا سنة ٣٠١هـ بفضل جهود الخليفة الناصر[٦٣]، كما أثرت الثورة في حركة التجارة الداخلية إذ استطاع عمر بن حفصون أن يتحكم في التجارة الخارجية ويحتكرها بحكم سيطرته على الجزيرة الخضراء[٦٤]، تأثرت الزراعة في الأندلس ويتضح ذلك من خلال تخريب ضياع الإقطاعيين وقطع أشجارها وانتساف ورعها وقتل ونهب مواشيها الشيء الذي أدى إلى تقلص إنتاجها[٦٥].

(٣/٢) ٢-الميدان الاجتماعي

كان لثورة عمر بن حفصون نتائج اجتماعية فهي خففت من الضرائب ونادت بمساواة المولدين مع العرب ودافعت عن حقوق المرأة وضمنت حمايتها، واستطاعت أن تحقق الاستقرار الاجتماعي، وقضت على أعمال السلب والنهب والفساد الأخلاقي[٦٦]. كما أسفرت المواجهات التي دارت بين عمر بن حفصون والإمارة الأموية ارتفاع عدد الأسرى وتحويلهم إلى

عبيد[٦٧]، وهذا ما أكده ابن عذاري بقوله "كثر بيع الأحرار في فتنة بن حفصون"[٦٨].

(٢/٣) ٣-الميدان السياسي

قيام مجموعة من الدويلات المستقلة عن سلطة قرطبة. شكلت ما يعرف بالدول الطوائف الأولى، حيث أن السلطة في البلاد وبسبب ثورة عمر بن حفصون وثورات أخرى مشتركة بين الأمويين وحكام يمثلون مختلف طوائف المجتمع الأندلسي من عرب وبربر ومولدين[٦٩]، فقد اعترف حاكم قرطبة في عهد الأمير عبد الله بابن حفصون كوالي على كورة رية الشيء الذي جعله يعرض على رفع مستوى تنظيمه الإداري وأصبح ينافس السلطة المركزية.

خاتِمَةٌ

نستخلص مما سبق أن الأندلس خلال النصف الأول من حكم الدولة الأموية تميزت بالاستقرار السياسي والوحدة، لكن مع منتصف القرن الثالث الهجري عرفت الدولة تمزقًا وفتنًا وانقسامات سياسية، كما تعتبر الفترة التي قامت فيها ثورة بن حفصون ملائمة لقيام الثورات نظرًا للظروف والأوضاع الداخلية التي أصبحت عليها الإمارة الأموية، فالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي عاشها المولدون في جنوب الأندلس كان لها دور كبير في قيام ثورة بن حفصون وانضمام المولدين لها، هذا إلى جانب الأوضاع السياسية التي عانوا منها من سوء سيرة عمال الإمارة في المناطق التي اندلعت منها الثورة، بالإضافة إلى المبادئ التي أعلنها بن حفصون والتي اتضحت من خلال الخطبة التي كان يرددها على مسامع المولدين لحشد أكبر عدد منهم ضد الإمارة الأموية.

دامت ثورة بن حفصون لمدة ليست بالقصيرة، هذه المدة تميزت بأحداث كثيرة وعاصرت أربعة من الحكام الأمويين في الأندلس وهم الأمير محمد وأبنائه المنذر وعبد الله والناصر، والذين لم يستطيعوا القضاء على هذه الثورة رغم المجهودات التي قاموا بها، كما خلفت هذه الثورة نتائج في العديد من المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما ساهمت في قيام العديد من الحركات التمردية سواء من المولدين أو البربر أو العرب، وتبقى أهم هذه النتائج قيام مجموعة من الدويلات المستقلة عن السلطة في قرطبة.

الاحالات المرجعية:

(١) أمين توفيق الطيبي، **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٨٤، ص ١٢١.
(٢) نفسه، نفس الصفحة.
(٣) محمد بن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، الطبعة ١، ١٩٨٣، ص ٨٨٠.
(٤) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، الجزء الأول. مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٣٠٨.
(٥) ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩،ص ١٠٣.
(٦) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط ١، ١٩٧٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج ٤، ص ٣٩.
(٧) ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣١٤.
(٨) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٨٣.
(٩) دوزي، **تاريخ مسلمي إسبانيا**، ترجمة وتحقيق حسن حبشي، دار المعارف للنشر، الطبعة، ١٩٦٣، ص١٤٥.
(١٠) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٨٣.
(١١) دوزي، مرجع سابق، ص ١٤٣.
(١٢) ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج ٤، مؤسسة الجمال للطباعة، بيروت ١٩٧٩، ص ١٣٤.
(١٣) أمين توفيق الطيبي، **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٨٤، ص ١٢٢.
(١٤) عطية محمد اللافي، **"ثورة عمر ابن حفصون وأثارها على الدولة الأموية في بلاد الأندلس"**، مجلة الجامعة الأسمرية، العدد ٢٣، ص ١٦٥ – ٣٦٦.
(١٥) عبد المجيد نعنعي، **تاريخ الدولة الأموية في الأندلس**، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٢٩.
(١٦) أمين توفيق الطيبي، مرجع سابق، ص ١٢٢.
(١٧) إبراهيم القادري، **الإسلام السري في المغرب العربي**، سينا للنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥، ص٩٧.
(١٨) حسين يوسف دويدار، **المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (١٣٨-٤٢٢ هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠م)**، مطبعة حسن الإسلامية، ط ١، ١٩٩٩، ص ٤١.
(١٩) السيد سالم عبد العزيز سالم، **تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة بالأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠١٠، ص ١٢٩-١٣٠.
(٢٠) ابن عذاري، نقلاً عن: أمين توفيق الطيبي، مرجع سابق، ص ١٢٤.
(٢١) نفسه، ص ١٢٤.
(٢٢) إبراهيم القادري، مرجع سابق، ص ٩٧.
(٢٣) إبراهيم القادري، مرجع سابق، ص ٩٨- ١٠٠.
(٢٤) نفسه، ص ١٠٠.
(٢٥) عطية محمد اللافي، مرجع سابق، ص ٣٦٥.
(٢٦) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق خالد حدادة، ص ٢٠٦.
(٢٧) محمد بن إبراهيم أبا الخليل، **الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري**، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ط١، ١٩٩٥، ص ٩٧.

(٢٨) أحمد بدر، **دراسات في تاريخ الأندلس**، دمشق، ط ٢، ١٩٧٢، ص ١٩٧.
(٢٩) محمد إبراهيم أبا الخيل، مرجع سابق، ص ٩٠-٩١.
(٣٠) نفسه، ص ٩٨.
(٣١) ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري ، القاهرة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩، ص ٩٩.
(٣٢) رينو جوزيف، **الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا ف ق ٨,٩م**، ترجمة إسماعيل العربي، دار الحداثة، الجزائر، ١٩٨٤.
(٣٣) المختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٩٥.
(٣٤) عبد المجيد نعنعي، مرجع سابق، ص ٢٧٤.
(٣٥) ابن عذاري، مصدر سابق، ص ١١٤.
(٣٦) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٣٧) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٠٩.
(٣٨) نفسه، ص ٣٠٣.
(٣٩) ابن عذاري، مصدر سابق، ص ١٠٥.
(٤٠) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٠٩.
(٤١) ابن عذاري، مصدر سابق، ص ١١٤.
(٤٢) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٢٠.
(٤٣) ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٢٩٣.
(٤٤) ابن عذاري، مصدر سابق، ص ١١٥.
(٤٥) نفس المصدر، ص ١١٧-١١٩.
(٤٦) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٢٠.
(٤٧) عنان محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٢٣-٣٢٥.
(٤٨) ابن عذاري، مصدر سابق، ص ١٢٢.
(٤٩) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٢٣-٣٢٥.
(٥٠) نفسه، ص ٣٢٨.
(٥١) ابن عذاري، مصدر سابق، ص ١٢٣.
(٥٢) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٢٣-٣٢٥.
(٥٣) نفسه، ص ٣٣٦.
(٥٤) نفسه، ص ٣٣٧.
(٥٥) نفسه، ص ٣٣٨.
(٥٦) ابن عذاري، مصدر سابق، ص ١٦١ .
(٥٧) نفسه، ص ١٦٢.
(٥٨) نفسه، ص ١٦٣.
(٥٩) نفس المصدر، ص ١٦٥.
(٦٠) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٧٧.
(٦١) عبد المجيد نعنعي، مرجع سابق، ص ٣٢٤
(٦٢) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص ٣٨١.
(٦٣) إبراهيم القادري، مرجع سابق، ص ١٢٣.
(٦٤) محمد بن إبراهيم أبا الخليل، مرجع سابق، ص ٤٢٥.
(٦٥) إبراهيم القادري، مرجع سابق، ص ١٢٥.
(٦٦) نفسه، نفس الصفحة.
(٦٧) نفسه، نفس الصفحة.
(٦٨) ابن عذاري، مصدر سابق، ص ١٢٢.
(٦٩) أمين توفيق الطيبي، مرجع سابق، ص ١٣٠.

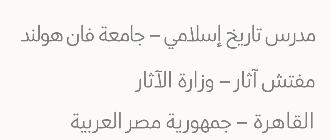
مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

العناية بالبيئة داخل المجتمع الصليبي في بلاد الشام
(ق٦-٧هـ/ ١٢-١٣م)



د. أحمد عبد الله أحمد



مدرس تاريخ إسلامي – جامعة فان هولند

مفتش آثار – وزارة الآثار

القاهرة – جمهورية مصر العربية

مُلَخّص

تناول هذا البحث بالدارسة علاقة الصليبيين بالبيئة المحيطة بهم، وتدرج بالحديث عن الغزو الصليبي لبلاد الشام، والمشاكل البيئية التي واجهت تلك الجحافل البربرية من أمراض وأوبئة ومجاعات. كما تعرض للمذابح التي أقامها الصليبيون للمسلمين في المدن التي أخضعوها لسيطرتهم، وما تبع ذلك من تلوث هواء البيئة المحيطة بهم وأبرز طرق الصليبيين للتعامل مع هذا التلوث، والوسائل التي أتبعها الصليبيون في المحافظة على نظافة المدن التي خضعت لسيطرتهم. وقد استعان الصليبيون بوظيفة المحتسب التي أخذوها عن المسلمين في المحافظة على نظام العمل ومراقبة حركة الأسواق، والتشديد على الباعة والتجار في موضوع النظافة وفرض عليهم شروط لمزاولة نشاطهم. وقد حرصت الجماعات الرهبانية الصليبية على العناية بالبيئة لأنهم انتقلوا إلى مدن الساحل الشامي وهي بيئة مغايرة تمامًا عما كانت عليه أوربا في تلك الفترة، مما سبب لهم الكثير من الأمراض وانتشار حالات الوفيات بشكل كبير بينهم. وأبرز البحث دور الماء في حياة الصليبيين بمدن الساحل الشامي، والوسائل التي اتبعوها في معالجة الماء وتأمين الاحتياجات اليومية واستفادوا من تصميم تلك المنازل على النسق والطراز الإسلامي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٦	أغسطس	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	١٥	أكتوبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الكيانات الصليبية؛ الصليبيون؛ بلاد الشام؛ الجماعات الرهبانية؛ الحروب الصليبية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.258793

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد عبد الله أحمد. "العناية بالبيئة داخل المجتمع الصليبي في بلاد الشام (ق٦-٧هـ/ ١٢-١٣م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٧٩ – ٨٧.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: goodmasterahmed@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

تحت شعار "حماية المقدسات" سفك الصليبيون في فلسطين -مطلع القرن (الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري)-أنهارًا من الدماء، وبنوا أربعة ركائز[١] على جماجم أهل الشرق مسلمين ومسيحيين، وهذا ظاهرهم وباطنهم الاستيلاء على الأرض ونهب ثرواتها، ومن هنا بذلوا جهودًا لصيانة هذه الكيانات، وفي هذا البحث نتناول بالدراسة اهتمام الصليبيين بالبيئة التي أحاطت بهم، لضمان استمرار تلك الركائز لأطول فترة من الزمان. أما عن الدراسات السابقة للموضوع، فلم يصادف الباحث رسالة أو دراسة مخصصة عن ذلك الموضوع المهم الذي أولاه الصليبيون عناية واهتمام طوال فترة بقائهم في بلاد الشام. وفيما يتعلق بصعوبات الموضوع فقد تمثلت في ندرة المادة العلمية التي ذكرتها المصادر المعاصرة سواء الصليبية أو الإسلامية، فوجب على الباحث التدقيق والتحليل لاستخلاص المعلومات التي تخدم موضوع البحث، والتي جاءت في أحيان كثيرة في ثنايا السطور.

والهدف من البحث هو إبراز الأوضاع التي عاشها المجتمع الصليبي ببلاد الشام في المدن الإسلامية التي فرض سيطرته عليها ما يقرب قرنين من الزمان (١٠٩٥-١٢٩١م/ ٤٨٩ – ٦٩٠هـ)، ومحاولتهم العناية بمجتمعهم الوليد من الناحية البيئية، وتوضيح الأسلوب الذي استخدموه في التطبيق سواء فيما نتج عن المعارك الحربية من ملوثات، أو بعد الاستقرار بمدن الساحل الشامي. أما عن المنهج المستخدم في البحث هو المنهج التحليلي والاستقرائي، لتحليل المادة العلمية التي تم جمعها لإعداد ذلك البحث، واستقراء ما وراء السطور التي وردت بالمصادر الإسلامية والصليبية للاقتراب من حقيقة الأوضاع في تلك الفترة الزمنية.

وبداية يجب التعريف بمفهوم البيئة، فقد تعددت تعريفات البيئة ومصطلحاتها باختلاف الزمن، فمنها:- هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويؤثر فيه ويتأثر به، وتتمثل البيئة فيما يحيط بالإنسان من هواء وماء وتربة وضوء الشمس والمعادن في باطن الأرض والنبات والحيوان على سطحها وفي بحارها ومحيطاتها وأنهارها[٢]. وهناك تعريف آخر للبيئة، وهي: مجموعة الظروف والمؤثرات الخارجية التي لها تأثير في حياة الكائنات بما فيها الإنسان، أو هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع بني البشر[٣]. وآخر أن البيئة هي رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما ومكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته[٤]. ويمكن تقسيم الملوثات التي تعرضت لها البيئة في الركائز الصليبية لملوثات طبيعية وملوثات نتجت عن التصرفات البشرية.

أولاً: ملوثات البيئة في الكيانات الصليبية

١/١-الملوثات الطبيعية

الجدير بالذكر أن فساد الهواء من الأسباب الفاعلة للطاعون، فإن تغير كيفية الهواء الذي يتنفسه الناس بأن يكون أسخن أو أبرد، أو أجف من المعتاد، أو يلوث نتيجة لتعفن جثث الموتى الذين لم يدفنوا، يؤدي إلى ظهور الوباء[٥]، يضاف إلى ذلك دخول مركبات ضارة إلى الغلاف الجوي، مثل: أول أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكربون، وغيرها من الغازات العضوية الضارة[٦].

وكان لرياح الخماسين التي كانت تجلب الحرارة الشديدة والأتربة، ويضاف إلي ذلك السهول التي أحاطت بالمدينة كانت سببًا رئيسيًا في انتشار الأمراض، وساعد على ذلك وجود المياه الراكدة والذباب والبعوض، فكانت سببًا في انتشار أمراض التيفود والملاريا والدوسنتاريا، وغيرها من الكوليرا والطاعون التي انتشرت داخل المدن المزدحمة بالسكان الخالية في نفس الوقت من المرافق الصحية، فكثرت حالات الجذام، وسقط العديد من الفرسان ضحية تلك الأمراض بملابسهم التي كانت لا تلائم ذلك المناخ، وبشهيتهم القوية، وجهلهم التام بقواعد العناية الشخصية، فنتج عن ذلك ارتفاع معدل الوفيات بين المواليد الذكور عن الإناث، فكانت الإناث لديها قدرة أكبر على المقاومة، فكان ذلك سببًا أدعى لاستمرار تدفق الهجرات من الغرب الأوربي[٧].

٢/١-الملوثات البشرية

وتم تعريفها بأنها الملوثات المستحدثة التي تتكون نتيجة لما استحدثه الإنسان في البيئة من تقنيات وما أبتكره من اكتشافات كتلك الناتجة عن النشاطات الصناعية، وكذلك ما ينتج من نفايات عن النشاطات البشرية العادية في الريف والمدن[٨]، واختلف مستوي النظافة في المدن الصليبية، وذلك بشهادة الرحالة المسلم ابن جبير،[٩] كما سيتضح لاحقًا.

ثانيًا: الصليبيون وبيئة بلاد الشام

١/٢-عشية الغزو الصليبي

وكان أول لقاء للصليبيين ببيئة بلاد الشام وتعرضهم للتلوث البيئي عند محاصرة الجيوش الصليبية لمدينة أنطاكية (يناير ١٠٩٨م/ صفر ٤٩٢هـ)، فكانوا يلقون بالجثث التي كانت

تسقط من الجانب السلجوق على ضفتي النهر حتى تتعفن، ولم يكن ذلك ليؤثر عليهم، فقد حالفهم الحظ لأنهم كانوا يعسكرون في منطقة مفتوحة، فلم يكن لتعفن تلك الجثث أي تأثير سلبي عليهم، والذي ساعد على ذلك هو إتاحتهم الفرصة للسلاجقة من أجل جمع موتاهم ودفنهم، مما أدى إلى إزالة خطر انتشار الوباء نتيجة ذلك التعفن[١٠]. وتعتبر تلك الحادثة من الأهمية لما كان أن ينتج عنها من انتشار لأمراض متعددة ومختلفة في حالة إذا ما تركت تلك الجثث في العراء بدون دفن، وبذلك نجا الصليبيون من أخطار جسيمة وأمراض متعددة كانت لتصيبهم إذا لم يسمحوا للسلاجقة بدفن موتاهم.

غير أن الصليبيون وقعوا في خطأ قاتل في خطوتهم التالية، فعقب اقتحام الجيوش الصليبية لمدينة أنطاكية أعملوا السيف في رقاب سكان المدينة من المسلمين، وملئت الجثث الشوارع والطرقات، وذلك نظرًا لكثرة عدد القتلى، وسالت الدماء بشوارع المدينة، وتعفنت جثث الموتى وتعثر الجنود بتلك الجثث في الطرقات، وانتشرت الروائح الكريهة المنبعثة منها والتي لم يتحملها أحد[١١]، فكانت نذيرًا على انتشار الأمراض نتيجة تقلب الأحوال الجوية بالمدينة والتي لم يكن للصليبيين دراية بها، ويضاف إلى ذلك تناولهم للحوم الحيوانات التي ماتت من أثر وباء الطاعون[١٢][١٣]. ويرجح أن روح التعصب التي غلبت على الصليبيين، جعلت تعطشهم للدماء أن غفلوا ما كان من الممكن أن ينتج عن تلك المذابح الرهيبة من انتشار للأمراض الوبائية القاتلة، ويضاف إلى ذلك عدم معرفتهم التامة بطبيعة مناخ المنطقة، وأسلوبهم في معالجة تلك المشكلة البيئية، كان من الأسباب التي أدت إلى تلوث البيئة.

٢/٢-إبان الغزوات الصليبية

وبالفعل وقع مرض الطاعون وانتشرت حالات الوفيات بسرعة كبيرة بين الجيوش الصليبية التي اقتحمت مدينة أنطاكية نتيجة للتلوث البيئي، وقدرت الوفيات بالمئات بين عامة الجيوش الصليبية[١٤]، وكان المصابون يصابون بحالة من الإنهاك والعطش الشديد، وعندما كان يجدوا الماء يتهافتون عليه بطريقة شرهة، فيؤدي ذلك إلى الوفاة[١٥]، ولم يجد قادة الجيوش الصليبية وسيلة لمواجهة ذلك الطاعون، غير الرحيل عن تلك المنطقة المصابة بذلك الوباء[١٦]. وربما كانت كثرة تلك الوفيات ترجع إلى تأخر الطب الصليبي، خاصةً في تلك الفترة المبكرة باحتكاك الصليبيين ببلاد الشام، ويضاف إلى ذلك قلة خبرة أطباء الصليبيين بمناخ وطبيعة بلاد الشام، وطرائقهم البدائية في علاج بعض الأمراض. وبعد استيلاء الصليبيين على معرة النعمان، حدثت مجاعة خطيرة بين صفوف الصليبيين، أدت إلى قيامهم ببقر بطون جثث المسلمين التي تخلفت عن المعركة، واقتطاع أجزاء منها، وتناولها كطعام، ونظرًا لهذا الخطر الذي حدث، فقد أمر قادة الجيش الصليبي بتجميع جثث المسلمين وسحبها خارج أسوار المدينة[١٧]، حتى لا تنتشر الأمراض بين صفوف الجيش.

وعندما قامت الجيوش الصليبية باقتحام مدينة بيت المقدس في ١٥ يوليو ١٠٩٩م، أقاموا مذابح رهيبة لسكان المدينة بشكل بشع في منتهى الشراسة شملت النساء والأطفال والشيوخ لمدة عشرة أيام انتهت في ٢٥ يوليو ١٠٩٩م، وقد عكست تلك المذبحة بربرية الروح الصليبية، وجاءت العديد من روايات شهود العيان من الصليبيين أنفسهم عن حقارة تلك المذابح، وبشاعة المنظر، حتى ملئت الجثث الشوارع والطرقات، وأصبحت الدماء كالأنهار بشوارع المدينة، وتضاربت الأعداد التي أوردها المؤرخين المسلمين بخصوص تلك المذبحة، وعلى الرغم من المبالغات في تلك التقديرات، إلا أن أعداد القتلى بوجه عام كانت كبيرة[١٨]. بل ظلت رائحة العفن المنبعثة من أجساد قتلى المسلمين أثناء الاقتحام الصليبي لمدينة بيت المقدس، والتي لم يتم دفنها وظلت ملقاة على الأرض مصدر خطر بيئي حقيقي على الصحة العامة، خاصة وأنها انتشرت داخل وخارج المدينة[١٩]، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الصليبيون قاموا بذبح حوالي عشرة آلاف مسلم داخل المسجد الأقصى بدم بارد على حسب ذكر المصادر الإسلامية والصليبية[٢٠].

وقد ساعد على انتشار تلك الروائح الكريهة أن أرض فلسطين لم تكن صحية، كما ذكر رانسيمان (Runciman) في كتابه "تاريخ الحملات الصليبية"[٢١]، بل إن شوارع مدينة المقدس نفسها كانت ضيقة وشديدة الانحدار جعلت حركة المرور صعبة، فالطرق الرئيسة بالمدينة لم يزد عرض الواحد منها عن خمسة أمتار، فكان يتعذر على العربات ذات العجلات الحركة داخل تلك الشوارع الضيقة، ولذلك فإن حركة المرور داخل أسوار المدينة كانت تتم سيرًا على الأقدام[٢٢]. وبعد أن فرغ قادة الجيوش الصليبية من صلواتهم نتيجة اجتياحهم للمدينة، أعطوا الأولية قبل كل شيء لتطهير المدينة وتنظيفها قبل كل شيء، وعلى وجه الخصوص ناحية الهيكل الذي كان ممتلئ بالجثث، والتي تصاعدت منه الروائح النتنة من جيف الجثث والتي أدت إلى تلوث الهواء لمدة ثلاثة أيام[٢٣]. وتم إسناد تلك المهمة إلى أسرى المسلمين غير أن أعدادهم كانت قليلة مقارنة بحجم ذلك العمل الضخم، فلجأ قادة الجيوش الصليبية

إلى فقراء الجيش الصليبي من إتمام ذلك العمل مقابل أجر مادي، وكان يتم التعامل مع جثث الموتى إما بالحرق أو بالدفن، واستغرقت الأعمال مدة ثلاثة أيام حتى انتهوا من أعمالهم بعد جهد جهيد[٢٤].

وبعد تلك الأحداث احتاج الصليبيين إلى أعداد من سكان المدينة الذين نجوا من تلك المذبحة من أجل المساعدة في تنظيف بيت المقدس من جثث القتلى التي كانت منتشرة في أنحاء المدينة، حتى لا يساعد ذلك على انتشار الأمراض والأوبئة بها وبين سكانها الجدد من الصليبيين، حتى لقد ظلت رائحة الجثث المتعفنة عالقة بجو المدينة لفترة طويلة[٢٥]. ويرجح أن آثار ذلك التخريب الذي أحدثته الجيوش الصليبية بمدينة بيت المقدس، كان على قدر كبير من الدمار والتلوث البيئي [٢٦]، مما أدى إلى تنظيف المدينة في وقت طويل للغاية[٢٧]. فقد قامت السلطات الصليبية بمواجهة ذلك التلوث البيئي بأن أجبرت الأسرى المسلمين على تجميع جثث القتلى خارج أسوار المدينة على هيئة أكوام كبيرة، ثم أضرموا النار في تلك الأكوام المتراصة[٢٨]، حتى يتخلصوا من الروائح الكريهة.

وكان للتلوث البيئي دورًا فعالاً خلال الصراع الإسلامي الصليبي، وعلى التحديد خلال معارك الحملة الصليبية الثالثة، والتي نتج عنها ألاف القتلى بين الجانبين، فنتج عن كثرة القتلى أن انتشرت الأمراض بين جنود الحملة الصليبية بسبب تعفن جثث الجنود، وكان على رأس المرضى الملك ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩-١١٩٩م/ ٥٨٥-٥٩٦هـ)[٢٩].

ثالثًا: العناية ببيئة المدن

ومع اقتحام مدينة عكا من قبل الصليبيين واتخاذها ميناء لهم، كانت المدينة نظيفة وانتشرت بها الحدائق المنسقة ومزارع الكروم وتحيط بها القرى والأراضي الزراعية.[٣٠] وقد تعددت الفوائد الصحية لتلك الحدائق والمسطحات الخضراء، في أثرها الجيد على صحة الإنسان، فتم تسميتها بالخضرة الصحية، وترجع تلك الأهمية إلى العملية البيولوجية التي يقوم بها النبات والتي تمثلت في عملية التمثيل الضوئي، ففي هذه العملية يحتاج النبات إلى ثاني أكسيد الكربون الناتج عن مخلفات الإنسان والحيوان والمخلفات الصناعية، كي ينتج الأكسجين النقي اللازم لتنفس الإنسان والحيوان[٣١].

ويرجح أن الصليبيون قد استفادوا كثيرًا من تلك الحدائق التي كانت منتشرة في المدينة، والتي تعود في الأصل إلى العمارة الإسلامية وفنونها التي حافظت على نقاء الهواء بتلك المدن. وكانت شوارع مدينة بيت المقدس مليئة بخزانات المياه، والتي كانت تستخدم في تنظيف الشوارع عقب هطول الأمطار من الأوساخ[٣٢]، وانتشرت أحواض الماء داخل أسوار المدينة وخارجها، والتي تم تجميعها من مياه الأمطار، وخصصت لشرب الإنسان والحيوان[٣٣]، وكانت تلك المياه يتم تجميعها أيضًا في صهاريج أعدت لهذا الغرض داخل البيوت[٣٤]، كما كانت آبار المياه النظيفة من المصادر الرئيسية التي استخدمت للشرب كما في مدينة قيسارية[٣٥]، وكان للصهاريج دور كبير في حفظ مياه الشرب[٣٦]، واستخدمت في أغراض أخرى ومنها النظافة.

كما وجدت بالمدينة مصارف ليتم تنظيف المدينة من الأوساخ التي كانت تنتج عن هطول الأمطار[٣٧]، أما بالنسبة للماء النظيفة، فكانت تصل إلى بيوت الخاصة عن طريق مجاري خاصة تحت الأرض، وكلت إلى عامل تولى مهمة توزيع المياه العذبة[٣٨]. وتجدر الإشارة إلى أن الصليبيين أهتموا بالصرف الصحي للمدن التي سيطروا عليها -والتي ورثوا أنظمتها عن الحضارة الإسلامية-كوسيلة للتخلص من فضلات قاطنيها، وأرتبط ذلك بكثافة السكان وأهمية المحافظة على صحتهم وسلامتهم ونظافة المدينة واستمرارية الحياة بمستوى حضري راق[٣٩]. ويلاحظ أن الماء كان من الضروريات الحياتية اليومية الملحة التي كان الصليبيون بحاجة إليها، وأن تكون نظيفة صالحة للاستخدام الأدمي بعيدة عن التلوث بشتى وسائله، فقاموا بإنشاء برك للمياه في المستوطنات التي عمروها، ومنها مستوطنة البيرة على سبيل المثال، حيث وجدت أدلة أثرية على وجود بركتين في السهل الواقع جنوب المستوطنة[٤٠].

ومن تلك الطرائق التي حاولوا بها الحفاظ على مجتمعهم ببلاد الشام، العناية بالبيئة داخل المدن التي خضعت لسيطرتهم، وظهر ذلك جليًا بوضوح في التقسيم الداخلي للبيت الذي كان يعيش فيه الصليبي، فكانت أسقف المنازل مرصعة بأشجار النخيل المزروعة في أحواض داخلية أو بالأشجار دائمة الخضرة، بحيث تصبح تلك المنازل مليئة بالنسمات الباردة بعد مغيب الشمس[٤١]. ومن المرجح أن أهالي المدن الساحلية الشامية مثل مدينة صيدا وطرابلس، حرصوا على تزيين ونظافة أسواقهم، وذلك حتى تكون من عوامل الجذب بالنسبة لكل من مرتادي السوق من الزائرين والتجار.

ويضاف إلى ذلك نافورات المياه العذبة التي كانت تمد المدن الصليبية بما تحتاجه من الماء الصحية، وظهر ذلك جليًا في مدينة أنطاكية التي تميزت بوجود نافورة كبيرة للمياه، والتي كانت تخرج منها المياه في مجاري مائية صممت لهذا الغرض، كي تمد أطراف المدينة باحتياجاتها اليومية، والتي كانت يتزاحم

عليها كل من البشر والحيوان للاستفادة من مياهها العذبة[٤٢]، وأحاطت تلك الجداول المائية بأطراف المدينة الأربعة[٤٣]. ووجد بظاهر المدينة أعلى الجبل نبع ماء عذب وكل به رجل لتوزيع ماءه، فكان يمر في مجاري تحت الأرض تصل مباشرة إلى البيوت[٤٤]، كما انتشرت بالمدينة الحمامات العامة، وبالوعات المجاري في الطرقات[٤٥]، التي تم استخدامها من أجل صرف مياه الأمطار، وتنظيف شوارع المدينة.

وقد خططت الأسواق بما يتناسب مع الحفاظ على البيئة، حيث أن السوق الذي خصص للأعشاب يتم فيه بيع جميع أنواع الأعشاب كافة، وكذلك الوضع بالنسبة للفاكهة بأنواعها، والتوابل وغيرها من السلع الأخرى، وقد تم وضع سوق السمك في أول الشارع الذي احتوى على المحلات التجارية، وخلف سوق السمك وجد السوق الخاص ببيع الجبن والفراخ والبيض والطيور، وفي الجهة اليمنى من سوق الجبن، وجدت المحلات الخاصة بالصاغة السريان، حيث كان الحجاج الأوربيون يحضرون معهم النفائس والمجوهرات لكي يقوموا ببيعها في هذا السوق، وفي الجهة اليسرى من هذا السوق وجد سوق الذهب التابع للاتين[٤٦].

ومن الملاحظ أنه في عصر الحروب الصليبية عند تخطيط الأسواق، تم مراعاة وضع وترتيب السلع بجانب بعضها، فتم وضع السمك في أول الشارع، نظرًا للرائحة والمخلفات التي تنتج عنه، حتى لا تفسد السلع المجاورة الأخرى، وفي نهاية الشارع وجدت محلات الذهب حتى تبتعد عن زحام الأسواق الأخرى. وفيما يتعلق بالجزارين والدباغين والذين تتسبب مهنتهم في مخلفات كثيرة تؤثر على البيئة ونقاء الهواء، وكانت تنتج عن صناعتهم كميات كبيرة من المياه الملوثة[٤٧]، فكانوا يستقرون بالقرب من أسواق الماشية والتي كانت تُعَدّ المصدر الرئيس لإمدادهم باللحوم والجلود، وكانت أسواقهم بالقرب من وادي ياهوشافاط، والذي كان بمثابة المصرف الطبيعي لمدينة بيت المقدس، حيث كانوا يصرفون فيه المياه القذرة، والسوائل الأخرى المستخدمة في صناعتهم، والتي كانت تضر بالبيئة.[٤٨]

وفي عصر الحروب الصليبية فإن البضائع التي تطلبت صناعتها إلى أفران، فكانت أسواقها تتجمع على الحافة الخارجية للمدينة حيث تشتعل النار ويتم استخدام الماء الساخن بشكل حر[٤٩]، كما كانت هناك الأسواق المكشوفة التي كانت تبيع الدواجن، تم وضعها على مسافات بعيدة من المناطق السكنية بسبب القذارة والروائح الكريهة والضجة التي كانت تصدر عنها[٥٠]، وكانت بعيدة عن المناطق المأهولة بالسكان، وجعلها قريبة قدر الإمكان من أبواب المدينة[٥١]. والجدير بالذكر أن تخطيط الأسواق جاء في شكل دقيق، حيث تم استبعاد البضائع التي تتطلب صناعتها إلى استخدام النار والماء الساخن، مما كان له أثر ضار على السلع التي تجاوره. ويرجع أن مستوى النظافة والعناية بالبيئة داخل المدن التي وقعت تحت السيطرة الصليبية، لم تكن متساوية أو على نفس القدر من الكفاءة، والدليل على ذلك عند زيارة الرحالة ابن جبير (١٢١٧م/٦١٤هـ) مدينة عكا الصليبية، ذكر أن شوارعها تغص بالزحام ويضيق فيها مواطئ الأقدام، وأنها كلها زفرة قذرة مملوءة رجس وعذرة، وعند زيارته لمدينة صور ذكر أن سككها وشوارعها أنظف من مدينة عكا[٥٢].

رابعًا: دور الجماعات الرهبانية في الصيانة البيئية

وقد أهتمت الفرق العسكرية الصليبية، ومنها جماعة الداوية بالنظافة الشخصية وذلك تجنبًا للأمراض التي كانت تنتقل عن طريق الميكروبات أو الجراثيم أو الطفيليات إلى الوسط، والتي كانت تسبب إصابة الأحياء بالكثير من الأمراض، والتي كان من أسبابها عدم العناية بنظافة المياه أو الغذاء أو المكان الذي يعيش فيه الإنسان[٥٣]، فقد خصصوا بأماكن إقامتهم غرف لغسيل ملابسهم من أجل تجنب الأمراض التي انتشرت تلك الفترة، مستغلين في ذلك صهاريج المياه العذبة التي استخدمت لتخزين تلك المياه[٥٤]. وربما لجأ الصليبيون إلى وسيلة لتطهير الماء وخاصة المستخدم لغرض الشرب عن طريق إضافة الملح له قبل الشرب[٥٥]، وذلك من أجل القضاء على الفطريات المسببة للأمراض.

وننتقل من العناية بالبيئة بالعناية بالنظافة الشخصية والتي أهتمت بها السلطات الصليبية إلى حد كبير، حتى أن القانون القطالوني قد فرض شرط النظافة الشخصية على البحارة العاملين بالمراكب القطالونية المتجهة إلى بلاد الشام، وهي أن يرتدي البحارة والملاحين الملابس النظيفة طوال الرحلة البحرية، ما عدا الفترة التي كانت تتوقف فيها السفينة بالميناء، وإذا تعدى أحد على تلك القوانين وخالفها بارتداء ملابس غير نظيفة، كان يفرض عليه الغطس في البحر عدة مرات أو يفقد راتبه[٥٦]. وفي شارع المقلسنات بمدينة بيت المقدس الذي كان يتم فيه بيع الطعام وطبخ الأكلات للحجاج، فرض على الحجاج الاستحمام في الحمامات الموجودة بهذا الشارع قبل الذهاب إلى الكنيسة[٥٧]، ويرجع أن هذا الفرض جاء كنوع من الوقائية البيئية للحد من انتشار الأمراض.

خامسًا: أهمية المحتسب في الحفاظ على البيئة

وفيما يتعلق بتخطيط شوارع المدن الصليبية، فتم رصف الأرضية بحجارة كبيرة، وتم تسقيف تلك الشوارع بعقود حجرية أو سقائف من القماش تخللتها الفتحات لإدخال الضوء، وفي نفس الوقت كانت تحمي الباعة ورواد الأسواق من حرارة الشمس المرتفعة والأمطار[٥٨]، وتم إسناد مهام نظافة شوارع المدن والأسواق إلى المحتسب[٥٩]،- وهي المهنة التي أبقى عليها الصليبيون كما هي[٦٠]- الذي كان من مهامه مراعاة النظام العام الذي كان يكفل حرية المرور للتجار والبضائع على الطريق[٦١]. وشملت وظائف المحتسب مراقبة أرباب الحرف والمهن المختلفة، وجعل لكل أهل صنعة سوقًا خاصًا بهم، فمن كانت صناعته تحتاج إلى وقود ونار كالخباز والطباخ والحداد، كان المحتسب يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين، وذلك لعدم المجانسة بينهم، كما منع أحمال الحطب والتبن من دخول الأسواق لضررها بالناس[٦٢].

وكان المحتسب أولى عنايته الخاصة بالنظافة على النحو التالي، فقد فرض شروط كثيرة على الخبازين للحفاظ على النظافة، فأمرهم برفع سقائف أفرانهم وجعل منافذ واسعة للدخان في سقوفها، وعليه يغسل مستودع الماء[٦٣]. ويتضح من ذلك أن المحتسب أدرك خطورة التلوث الكيميائي الذي كانت تسببه تلك الأفران نتيجة للغازات المتصاعدة من مداخنها، والتي احتوت على الرصاص والزئبق وكذلك الجسيمات الدقيقة التي كانت تنتج عنها، والتي كانت لها آثار سلبية على صحة الإنسان ونباتاته وحيواناته[٦٤].

سادسًا: الآثار المترتبة على سوء العناية بالبيئة

وكان للتلوث المائي دوره الفعال في مواجهة الصليبين، فتلوث الماء كان يتم عن طريق إلقاء المواد العضوية المستهلكة للأكسجين والكيماويات السامة والفلزات وغيرها من السموم الأخرى[٦٥]، وهو السلاح الذي استخدمه المسلمون لمقاومتهم، ويذكر أنه عند حصار الصليبين لبيت المقدس، قام المسلمون بتسميم الآبار والينابيع المائية العذبة من أجل تشديد الخناق على الصليبيين، مما أجبرهم للتغلب على تلك المشكلة البيئية بإحضارهم للماء من بيت لحم[٦٦]. وعلى الرغم من الاستقرار الصليبي بمدن الساحل الشامي، إلا أنهم لم يستطيعوا السيطرة على انتشار الأوبئة والطواعين التي كانت منتشرة بصورة كبيرة في منطقة الموانئ، وخير مثال على ذلك ميناء عكا الذي شهد تلوث هوائي كبير نتج عنه انتشار الكثير من الأمراض القاتلة التي نقلها الغرباء للمدينة نتيجة لتدفقهم الكبير والمستمر، وظهور العديد من حالات الوفيات بينهم[٦٧].

وقد ابتليت مدينة بيت المقدس باغارات لحشود من الفئران المفترسة عام ١١٣٠م، مما نتج عنه تدمير للمحاصيل الزراعية، كما أدى ذلك الهجوم إلى انتشار مرض الطاعون بصورة كبيرة[٦٨]، فدفع ذلك الملك الصليبي بلدوين الثاني Baldwin II (١١١٨ - ١١٣١م/٥١٢-٥٢٥هـ) برفقة البطريرك جيرموند البيكوني (Gormound de Picqiny) إلى عقد المحكمة العُليا في نابلس أو ما عرف بمجلس نابلس، من أجل مناقشة تلك الكارثة التي حلت بالمدينة والتي أثرت سلبًا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أن واحد[٦٩]. ويلاحظ أن الحيوانات والحشرات المصابة مثل الفئران والبراغيث التي تعيش ملاصقة لجسم الفئران، لعبت دورًا كبيرًا في نقل عدوى الطاعون للإنسان، فالطاعون من الأمراض الوبائية المستعصية العلاج، وقد عرف باسم الموت الأسود[٧٠].

وقد تمثل الحل في تكوين مجلس استشاري يعتمد على المشورة فيما بين الملك وأمراء المملكة لمواجهة الكوارث التي حلت بالمملكة[٧١]، والتي أنزلت بالمملكة الصليبية أضرار اقتصادية جسيمة. ومع الحملات العسكرية المتبادلة بين المسلمين والصليبيين، وقعت الكثير من المجاعات داخل الجانب الصليبي، مثال ذلك ما حدث خلال الحملة الصليبية الثالثة (1189-1192م/ 585-587هـ) وحصارها لمدينة عكا، فمع سقوط القتلى من الجانب الصليبي وانتشار المجاعات بين الجيوش الصليبية المحاصرة للمدينة، وسقوط العديد من القتلى، ومع ارتفاع درجات الحرارة وسقوط الأمطار، أدت تلك العوامل إلى تعفن الجثث بالمعسكر الصليبي، فانتشرت الأمراض والأوبئة بضراوة داخل المعسكر، وفسد الهواء النقي نتيجة تلك الروائح[٧٢].

وخلال أحداث تلك الحملة، حدثت مجاعة كبيرة في معسكر الصليبيين نتيجة لتغيرات ظروف المناخ ونقص إمدادات المياه، مما أدى إلى انهيار ترتيبات المرافق الصحية، وانتشرت الأمراض بين جنود الصليبيين[٧٣]. ويرجح أن كثرة أعداد الجنود الصليبيين الذين شاركوا في حصار عكا خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة (1189-1192م/ 585-587هـ)، جعلت قادة الحملة يجدون صعوبة في تأمين إمدادات الماء والطعام لتلك الأعداد الغفيرة، يضاف إلى ذلك تأثير الظروف المناخية المتقلبة وطبيعة معسكرات

الجيوش الصليبية المحاصرة للمدينة، والتي أدت للتزاحم الشديد، كل ذلك أفرز المجاعات خلال فترة الحصار، وسهولة لانتشار الأمراض بين الجنود. وقد أستخدم المسلمون سلاح التلوث البيئي بشكل واضح في محاربة الصليبيين خلال الحملة الصليبية الثالثة، فقد قاموا بإلقاء جثث الجنود الصليبيين بالنهر القريب من عكا، مما أدى إلى أن النهر فاض لعدة أيام، فنتج عن ذلك تلوث مياهه، فلم يستطع الصليبيون من شرب الماء، وانتشرت الروائح النتنة وكثر الذباب، فبات من الصعوبة الاستمرار في مكان معسكر الجيش[٧٤].

وفيما يتعلق بالأمراض والأوبئة فقد ساعد على انتشارها بشكل كبير تركيز الصليبيين بأعداد كبيرة ضمن الفرق العسكرية والسفن، كما كان للأماكن التي كانت تعسكر بها الجيوش الصليبية بالقرب من المستنقعات، أدت لتعرضها للعديد من الأمراض التي كان ينقلها البعوض ومنها الملاريا، في حين أن التلوث المائي كان له أثره في تفشي مرض الإسهال بصورة كبيرة بين الصليبيين[٧٥]. وتجدر الإشارة إلى أن كثرة تلك الأوبئة والطواعين أدت إلى تناقص مستمر في أعداد السكان الصليبيين في الإمارات الصليبية على امتداد الساحل الشامي، فنتج عن ذلك مشكلة خطيرة في العنصر البشري، فرحب القادة الصليبيون بالهجرات البشرية من مختلف الأنحاء لتعويض ذلك النقص.

وقد لجأ الصليبيون إلى تطهير مساكنهم وتلطيف هوائها بالتبخير بالكافور والصندل والمسك، فالتبخير يعمل على انتشار الروائح الزكية التي بسببها تنشط النفس، وتندفع الروائح الحاصلة على اختلاط الأهوية الرديئة من الوباء[٧٦]، وقد حصلوا على تلك الأنواع من البخور التي دخلت إلى دائرة التجارة الدولية والتصدير عن طريق الساحل الشامي، وأشهر أنواعه العود الهندي وأجل صفاته الرزانة واللون المائل إلى السواد ورائحته على النار تشبه رائحة الورد[٧٧].

وقد تم توظيف التلوث البيئي لخدمة الأغراض السياسية، ومثال ذلك ما حدث مع الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني هوهنشتاوفن (٢٦ ديسمبر ١١٩٤م – ١٣ ديسمبر ١٢٥٠م/ ٥ محرم ٥٩١ هـ-١١ رمضان ٦٤٨ هـ)، قائد ما عرف بالحملة الصليبية السادسة ١٢٢٨م، فأثناء رحيل الإمبراطور فريدريك من ميناء عكا وسط غضب الصليبيين من أتفاقه مع الملك الكامل (١٢١٨-١٢٣٨م/٦١٥-٦٣٥هـ) وغضب البابوية عليه بعدم رفع قرار الحرمان، وغيرها من الأسباب السياسية الأخرى، فقام الأهالي بقذفه بالقاذورات تعبيرًا عن استيائهم[٧٨].

نتائج الدراسة

تم استخلاص عدة نتائج على جانب من الأهمية، ومنها:

- أن البيئة والمشكلات التي تتعلق بها حقل بكر من حقول البحث العلمي في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي، وأن هذا البحث هو نواة لجهود أكبر في المستقبل بناء على ما تجود به المصادر من نتف جمعها ليس بالأمر اليسير.
- أرتبط التلوث البيئي بهمجية الجيوش الصليبية للحملة الأولى، والتي نتجت عنها الكثير من المذابح الدموية، وذهب ضحيتها الآلاف من المسلمين، والتي على إثرها انتشرت الأوبئة والطواعين، وفتكت بالعديد من جنود الحملة.
- كان للمناخ دورًا أساسيًا في التأثير على الصحة العامة للصليبيين، وخاصةً في انتشار الأمراض التي نتجت عن التلوث البيئي، نتيجة للمعارك الحربية التي خاضوها ضد المسلمين.
- أدرك الصليبيون حقيقة التلوث البيئي ودوره الفعال كمصدر للخطر على حياتهم، خاصة مع انتشار الأوبئة والطواعين، التي أودت بحياة الكثيرين، فعملوا على الحد منه قدر المستطاع.
- استفاد الصليبيون من العمارة الإسلامية التي صممت من أجل تزيين البيئة والاستفادة منها، فحافظوا على ما بقي من العمارة الإسلامية في المدن التي استولوا عليها، بل وحاولوا محاكاتها في العمارة التي قاموا بإنشائها.
- لعب التلوث البيئي دورًا هامًا في الصراع الإسلامي الصليبي، أدرك أهميته المسلمون واستخدموه كسلاح بيولوجي لمقاومة الجيوش الصليبية.
- كان للمحتسب دورًا بارزًا في الحد من التلوث البيئي الناتج عن الأسواق، والصناعات المختلفة التي تطلبت صرف مخلفاتها الكيميائية بالقرب من المناطق السكانية، فعمل على نقل مقر تلك الصناعات على أطراف المدن.

الاحالات المرجعية:

(١) الرها ١٠٩٨/١١٤٤م – أنطاكيا ١٠٩٨/١٢٦٨م – مملكة بيت المقدس ١٠٩٩/ ١٢٩١م- طرابلس ١١٠٩/١٢٨٩م.

(٢) يحيى وزيري، **العمارة الإسلامية والبيئة، الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط.الكويت، ٢٠٠٤م، ص٧.

(٣) يحيى وزيري، **العمارة الإسلامية والبيئة**، ص٧.

(٤) رشيد الحمد، محمد سعيد، **البيئة ومشكلاتها**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ط. الكويت، ١٩٩٠م، ص٢٤.

(٥) هيفه صالح صلاح الصاعدي، **الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر والشام**، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة، قسم العلوم الاجتماعية، وزارة التعليم العالي، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٢م، ص٧٣.

(٦) عبد الحكيم بدران، **تلوث البيئة مصادره وأنواعه**، مجلة العلوم والتقنية، العدد الرابع، ط. الرياض، ١٩٨٨م، ص٧.

(٧) ستيفن رانسيمان، **تاريخ الحملات الصليبية**، ترجمة: نور الدين خليل، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ط. القاهرة، ١٩٩٨م، ص.ص٣٢-٣٣.

(٨) رشيد الحمد، محمد سعيد، **البيئة ومشكلاتها**، ص١٢١.

(٩) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، دار صادر، ط. بيروت، ص٢٧٦-٢٧٧،

(١٠) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ،تأليف: **بطرس توديبود** نقله **إلى** الإنجليزية مع مقدمة وهوامش: جون هيوج هيل - لوريتا ل.هيل نقله **إلى** العربية وعلق عليه: الدكتور حسين محمد عطية تقديم: الدكتور جوزيف نسيم يوسف الناشر: دار المعرفة الجامعية الطبعة: الأولى ١٩٩٨م، ص١٦٦.

(١١) بطرس توديبود، **تاريخ الرحلة**، ص١٨٤.

(١٢) وليم الصوري، **الحروب الصليبية**، الجزء الأول، ت. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. القاهرة، ١٩٩١م، ص٣٨٣.

(١٣) **الطاعون**: هو نوع من الوباء، وهو عند أهل الطب ورم رديء قاتل، يخرج معه تلهب شديد مؤلم جداً، يتجاوز المقدار في ذلك، ويصير ما حوله في الأكثر أسوداً أو أخضراً، ويؤل أمره إلى التقرح سريعاً، وفي الأكثر يحدث في ثلاث مواضع وهي في الإبط وخلف الأذن والأرنبة، وفي اللحوم الرخوة، أو هو داء ورمي وبائي سببه مكروب يصيب الفئران وتنقله البراغيث إلى فئران أخرى وإلى الإنسان، هيفه صالح صلاح الصاعدي، **الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي**، رسالة ماجستير، جامعة طيبة، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٢م، ص٧١، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث،، مكتبة الشروق الدولية، ط. القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٥٥٨.

(14) Albert of Aachen, History of the journey to Jerusalem, Trans by: Susan B. Edgington, Clarendon Press, Oxford, 2007, p343.

(15)Albert of Aachen, History of the journey to Jerusalem, p141.

(16)Albert of Aachen, History of the journey to Jerusalem, p367.

(١٧) بطرس توديبود، **تاريخ الرحلة**، ص ٢٦٣.

(١٨) يوشع براور، **الاستيطان الصليبي في فلسطين**، مملكة بيت المقدس اللاتينية، ت. عبد الحافظ عبد الخالق البنا، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط. القاهرة، ٢٠٠١م، ص٣٠.

(١٩) فوشيه الشارتري، **الاستيطان الصليبي في فلسطين**، ت. قاسم عبده قاسم، دار الشروق، ط. القاهرة، ٢٠٠١م، ص١٤٧.

(٢٠) فوشيه الشارتري، **الاستيطان الصليبي في فلسطين**، ص١٣٧، مجهول، **أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس**، ت. حسن حبشي، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص١٢٠، ابن الوردي، **تتمة المختصر في أخبار البشر**، تحقيق السيد محمد مهدي سليمان، ط. النجف الأشراف ١٩٦٩م، ص١٥،١٦.

(٢١) ستيفن رانسيمان، **تاريخ الحملات الصليبية: مملكة القدس والشرق الفرنجي ١١٠٠-١١٨٧م**، ت. نور الدين خليل، ص٣٢.

(٢٢) أدريان بوس، **مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية**، ت. على السيد على، المركز القومي للترجمة، ط. القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢٣) يوشع براور، الإستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٠.

(٢٤) وليم الصوري، **الحروب الصليبية**، الجزء الثاني، ت. حسن حبشي، دار المعارف، ط. القاهرة، ١٩٩٢م، ص.ص١٣٤-١٣٥-١٣٦.

(٢٥) محمد مؤنس عوض، **تاريخ الصليبيات "الصراع العالمى في العصور الوسطى"**، دار العالم العربي، ط. القاهرة، ٢٠١٢م، ص٩٦، مصطفى الحيارى، **القدس في زمن الفاطميين والفرنجة**، مكتبة عمان، ط.عمان، ١٩٩٨م، ص٤٤.

(٢٦) **التلوث البيئي**: هو الطرح المقصود أو العارض للنفايات (مادة أو طاقة) الناجمة عن النشاطات البشرية التي تؤدي إلى نتائج ضارة أو مؤذية، أو هو وجود أي مادة أو طاقة في غير مكانها وزمانها وكميتها المناسبة، رشيد الحمد، محمد سعيد، **البيئة ومشكلاتها**، ص ١٢٠.

(٢٧) يوشع براور، **الاستيطان الصليبي في فلسطين**، ص ٦٠.

(28) Archer and Charles Lethbridge, The crusades; the story of the Latin kingdom of Jerusalem, London, 1894, p92.

(29)Richard Of Holy Trinity , Itinerary Of Richard I and Others To The Holy Land , (Formerly Ascribed To Geoffrey De Vinsauf) Trans. by A Classical Scholar And A Gentheman Well – Read In Mediaeval History , In Parentheses Publications, Medieval Latin Series, Cambridge 2001..p.p274-275.

(٣٠) يعقوب الفيتري، **تاريخ بيت المقدس**، ت. سعيد البيشاوي، دار الشروق، ط. عمان، ١٩٩٨م، ص٣٣.

(٣١) يحيى وزيري، **العمارة الإسلامية والبيئة**، ص٢٠٨.

(٣٢) فوشيه الشارتري، **الاستيطان الصليبي في فلسطين**، ص١٣٤.

(٣٣) يعقوب الفيتري، **تاريخ بيت المقدس**، ص٦٨.

(٣٤) بنيامين التطيلي، **رحلة بنيامين**، ت. عزرا حداد، المجمع الثقافي، ط. أبو ظبي، ٢٠٠٢م، ص٢٥٢.

(35) Harry Hazard, Caesarea and The Crusades, in: The Joint Expedition to Caesarea Maritima, Vol.I Studies in The History of Caesarea, The American Schools of Oriental Research Jsator, 2009, p81.

(٣٦) أدريان بوس، **مدينة بيت المقدس**، ص٣٠١.

(٣٧) يعقوب الفيتري، **تاريخ بيت المقدس**، ص٧٧.

(٣٨) بنايمين التطيلي، **رحلة بنيامين**، ص ٢٣٠.

(٣٩) يحيى وزيري، **العمارة الإسلامية والبيئة**، ص١٠٥.

(٤٠) سعيد عبدالله البيشاوي، **الاستيطان الفرنجي في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها (١٠٩٩-١١٨٧م/ ٤٩٢-٥٨٣هـ)**، مجلة الشعراء، العدد ٢٣، جامعة القدس المفتوحة، غزة، ٢٠٠٣م، ص١٠.

(٤١) يوشع براور، **عالم الصليبيين**، ت. قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط. القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٠٨.

(42) Archer, The Crusades, p85.

(43) Joannes Phocas, The Pilgrimage of Jaonnes Phocas in The Holy Land, 1185A.D, Trans. By: Aubery Stewart, President White Library, Cornell University London. 1889, p6.

(٤٤) بنيامين التطيلي، **رحلة بنيامين التطيلي ٥١٦-٥٦٩هـ/ ١١٦٥-١١٧٣م**، ت. عزرا حداد، لبمجمع الثقافي، ط. أبو ظبي، ٢٠٠٢م، ص٢٣٠.

(45) Alan Murray, The Crusades, An Encyclopedia, Vol.I, ABC-CLIO, Oxford,Oxford, 2006, p74.

(46) Anonymous , *The City Of Jerusalem* , Trans. By : C.R. Conder, P.P.T.S, Vol. VI , London 1894 , P. 7 .

(٤٧) أدريان بوس، **مدينة بيت المقدس**، ص٢٨٦.

(٤٨) يوشع براور، **عالم الصليبيين**، ص١٦٧.

(49) Urban Tignor Holmes, "Life Among The Europeans In Palestine And Syria In The Twelfth And Thirteenth Centuries", In Setton, Vol. IV, London 1977., P. 25 .

(٥٠) محمد سامي أحمد أمطير، **الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية ٤٩٢-٥٨٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م**، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، ٢٠١٠م، ص١١٩.

(٥١) أدريان بوس، **مدينة بيت المقدس**، ص٢٤٩-٢٥٠.

(٥٢) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، دار صادر، ط. بيروت، ص٢٧٦-٢٧٧، Urban Tignor Holmes, "Life Among The Europeans In Palestine And Syria In The Twelfth And Thirteenth Centuries", p6.

(٥٣) عبد الحكيم بدران، **تلوث البيئة مصادره وأنواعه**، ص٨.

(٥٤) Sean Martin, The Knights Templar, north pomfret, 2004 p63.

(٥٥) هيفه صالح، **الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي**، ص٧٤.

(٥٦) يوشع براور، **الاستيطان الصليبي في فلسطين**، ص٢٤٣.

(57)Estelle Blyth, Jerusalem and The Crusades, London, 1913, p91.

(٥٨) حسام حلمي يوسف أغا، **الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م)**، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٧م، ص١٨٨.

(59) Comte Beugnot, Assises De La Cour Des Bourgeois, Tome II, Imprimerie Royal, Paris, M DCCC XLIII, p238.

(٦٠) حسان حلاق، **دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية**، دار النهضة العربية، ط. بيروت، ١٩٩٩م، ص٤٢٤.

(٦١) عزيز سوريال عطية، **الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب**، ن. فيليب صابر سيف، دار الثقافة، ب.ت، ص١٨٤.

(٦٢) رحيم كاظم محمد الهاشمي، عواطف محمد العربي شنقارو، **الحضارة العربية الإسلامية**، الدار المصرية اللبنانية، ط. القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٧٠.

(٦٣) رحيم كاظم محمد الهاشمي، عواطف محمد العربي شنقارو، **الحضارة العربية الإسلامية**، ص٧٠.

(٦٤) رشيد الحمد، محمد سعيد، **البيئة ومشكلاتها**، ص١٢٢.

(٦٥) عبد الحكيم بدران، **تلوث البيئة مصادره وأنواعه**، ص٧.

(66) Estelle Blyth, Jerusalem and The Crusades, London, p36.

(67) Joannes Phocas, The Pilgrimage of Jaonnes Phocas in The Holy Land, 1185A.D, Trans. By: Aubery Stewart, London. 1889, p11.

(68) Adam Bishop, Criminal Law and The Development of The Assizes of The Crusader Kingdom of Jerusalem in The Twelfth Century, University of Toronto, 2011, p78.

(٦٩) محمد سامي أحمد أمطير، **الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية ٤٩٢-٥٨٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م**، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، ٢٠١٠م، ص١٣٧.

(٧٠) هيفه صالح، **الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي**، ص٧٤.

(٧١) صفاء عثمان، **مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني**، دار العالم العربي، ط. القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٢٠٧.

(٧٢) حسام حلمي يوسف أغا، **الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية**، ص٢٢١.

(٧٣) ستيفن رانسيمان، **تاريخ الحملات الصليبية، مملكة عكا**، ت. نور الدين خليل، الجزء الثالث، ص٦٣.

(٧٤) تاريخ أرنول وذيول تاريخ وليم الصوري، ت. سهيل ذكار، **الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**، الجزء الثامن، ط. دمشق، ١٩٩٣م، ص٣٧١.

(75) Alan Murray, The Crusades, An Encyclopedia, Vol.I, p359.

(٧٦) هيفه صالح، **الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي**، ص٧٤.

(٧٧) جعفر الدمشقي، **الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها**، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار صادر، ط. بيروت، ٢٠٠٩م، ص٣٢.

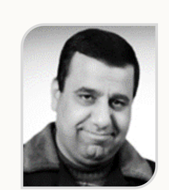
(78) Gestes Des Chiprois, Recueil De Chroniques Francaises, Geneue, 1887, p50.

محمود سعيد عمران، **تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م**، دار المعرفة الجامعية، ط. الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص٢٩٦.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

كروية الأرض عند العلماء العرب والمسلمين
(٩٠٦ - ٩٢٢هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦م)



د. سائر بصمه جي

دكتوراه في تاريخ العلوم الأساسية

باحث في تاريخ العلوم العربية

حلب – الجمهورية العربية السورية

مُلَخّصْ

لقد ظهر عدد من المؤرخين المعاصرين الأجانب لموضوع كروية الأرض الذين أنكروا أية مساهمة للعلماء المسلمين في هذا الموضوع، سواء القول بكرويتها أو تسطيحها. ولكن البحث الذي قمنا به أثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن للعلماء العرب والمسلمين مساهمتهم القوية التي لا يمكن أن تُنكر في موضوع كروية الأرض، وبالتالي فإن لهم قصب السبق في تأسيس علم هيئة الأرض ومساحتها (الجيوديزيا). من ناحيةٍ أخرى فإننا وجدنا أن العلماء العرب والمسلمين لم يأخذوا بالأدلة اليونانية المتعلقة بكروية الأرض وحسب، بل إنهم أضافوا لها أدلة واقعية أخرى جديدة توصلوا إليها بالبحث والتجربة، كما أنهم مضوا أبعد من ذلك بوضع نظرية تفسّر سبب تكوّرها حول نفسها. حتى وصلنا إلى النتائج السابقة اتبعنا المنهج التاريخي الاستردادي والمقارن بين مختلف الإسهامات التي سبقت الإسهامات العلمية العربية في هذا الموضوع. وقد حصرنا مجالنا البحثي في النطاق الكائن (بين القرنين ٢-٨هـ/ ٨-١٧م) فقط، وهو النطاق الذي عثرنا فيه على أدلة ووثائق تؤيد صحة دعوانا بوجود إسهامات للعلماء العرب يجب أن توضع في سياقها من تاريخ العلوم. أخيرًا: نوصي أن يؤخذ هذا البحث على محمل الجدّ بتثبيت إسهامات العلماء العرب والمسلمين في موضوع كروية الأرض في مختلف المناهج التعليمية والمراجع الأكاديمية، لتعود للأجيال القادمة الثقة بتاريخها وبنفسها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٠	أكتوبر	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٧	نوفمبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

كوكب الأرض؛ كروية الأرض؛ الأرض المسطحة؛ الحضارات القديمة؛ تاريخ العلوم

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.259053

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سائر بصمه جي. "كروية الأرض عند العلماء العرب والمسلمين (٩٠٦ - ٩٢٢هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٨٨ – ١٠٦.

Corresponding author: saerbasmaji@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدّمَةُ

يُعَدّ لفظ "الأرض" عند أصحاب اللغة العربية مؤنث يدل على جنسٍ. وهي تجمع على أرضين وآراض وأروض وأرضون وأرضات وأراضي[١]. ومن خلال مطالعتنا ومسحنا لكل ما وصلنا من نصوص تراثية (مخطوطة أو مطبوعة) تتعلق بكروية الأرض وجدنا أن العرب قد رسموا لفظ (كروية) بشكلين:

- أهل المشرق كتبوها هكذا (كُريّة).
- أهل الأندلس والمغرب كتبوها هكذا (كُوريّة).

وقد قمنا بتوحيد رسمها في كل النصوص على النحو (كروية) منعًا لالتباسها مع ألفاظ أخرى. فلفظ (كرية) قد يلتبس مع لفظ (كُريّة) الذي هو تصغير كرة. ولفظ (كُوريّة) قد يلتبس مع لفظ (كُورْيَة) الذي هو اسم دولة معروفة.

إشارة أخرى نود أن ننوه إليها، وهي أن مصطلح (كوكب الأرض) لم يكن يُطلق عند العرب على كوكبنا الأرضي الذي نعيش عليه ويسبح في فلكه حول الشمس؛ وإنما كان يطلق على اسم مادتين هما (الطَّلق) و(طين شاموس)[٢]، ربما لأنهما كان يستخرجان من الأرض، ولفظ (كوكب) كان يقابل لفظ (النجم) عندهم أيضًا، فربما لكونهما يتمتعان بلونٍ أبيض فأصبحا بذلك كأنهما نجمان يلمعان في الأرض. كما كان يطلق أيضًا مصطلح (كوكب الأرض) على ما يضيء ليلاً كسراج القطرب (وهو اسم نبات)[٣]، أما القطرب فهو اسم للحشرة التي تضيء بالليل المعروفة باسم ذبابة النار حاليًا. وقد وجدنا أنهم كان يستخدمون – في معظم المخطوطات العلمية- مصطلح (الأرض) أو (كرة الأرض) للإشارة إلى كوكب الأرض كما نعرفه حاليًا.

وبخصوص كروية الأرض أو تسطيحها، فإننا لم نتوصل لوثيقة أو نص (شعري أو نثري) يدلنا على معرفة أو مناقشة العرب قبل الإسلام لهذا الموضوع، ويبدو أنه لم يكن هذا الأمر يعنيهم كثيرًا، وإنما كان يهمهم البحث عن توفر المطر ومياه الشرب والمرعى الذي يؤمن لهم سبل الحياة بأبسط أشكالها. في حين أننا سنجد أن الحال قد تغير بعد الإسلام مع المسلمين الأوائل الذين أدركوا أهمية شكل الأرض بالنسبة لهم كونه يؤثر على إقامة شعائر الإسلام من صلاة وحج وصيام. لذلك ومنذ السنوات الأولى لنزول القرآن الكريم فهم المسلمون من قوله تعالى ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[٤]، وجدوا أن اتخاذ الليل أو النهار شكلهما الكروي دلالة على أنهما يسقطان على سطح كروي وليس على أي مجسم فراغي آخر.

وقد جاء في (المنتخب من التفسير) الذي أصدره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة: "تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الأرض كروية وتدور حول نفسها، لأن مادة التكوير معناها لفّ الشيء على سبيل التتابع، ولو كانت الأرض غير كروية –مسطحة مثلاً-لخيّم الليل أو النهار على جميع أجزائها دفعة واحدة". وقد كانت العرب تقول "كوَّرَ فلانٌ عمامتهُ على رأسهِ" أي أن الرأس شكله كروي، واستمدت العمامة كرويتها من الرأس[٥].

كما ورد في القرآن الكريم لفظ "دَحَاهَا" وهو أبلغ لفظ لوصف حالة الفلطحة أو الشكل الإهليلجي الحقيقي الذي هو عليه شكل الأرض. مع أن قواميس اللغة تفسّر كلمة "دحاها" بمعنيين: الأول: سطّحها، والثاني: كوّرها. لكن المعنى الذي يعبّر عن حقيقتها الفعلية هو أنها كُمّثرية الشكل (على شكل إجاصة)، أو لها شكل إجاصة مفلطحة، وليست كروية تمامًا. وبالتالي فإننا لا نتفق مع الباحث شاكر خصباك الذي قرر بأن "الفكرة السائدة عن الأرض لدى العرب في البداية أنها مسطحة. غير أن الجغرافيين والفلكيين العرب سرعان ما نبذوا تلك الفكرة منذ أن شاعت بينهم آراء بطلميوس وآمنوا جميعًا بكروية الأرض"[٦]. فالعرب أدركوا منذ نزول القرآن الكريم عليهم بكروية الأرض، أي قبل عصر الترجمة بمائة سنة على الأقل، كما أننا سنجد أن بعضهم بقي متمسكًا بفكرة الأرض المسطحة الوافدة من اليونانية ولم يتخلَّ عنها حتى بعد نقل أدلة كروية الأرض عن فيثاغورس وأرسطو وبطلميوس وشيوعها.

يهدف هذا البحث إلى تقديم كل ما وصلنا من آراء للعلماء العرب والمسلمين وفق تسلسل تاريخي محاولين استقصاء الأفكار الجديدة التي قدموها حول كروية الأرض.

أولاً: شكل الأرض عند علماء الحضارات القديمة

بعيدًا عن الخرافات والأساطير، تعود فكرة الأرض المسطحة إلى واحدة من أقدم الحضارات في تاريخ العالم. إنها الحضارة البابلية التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين، وهي الأرض الواقعة بين نهري دجلة والفرات (من نحو ٤٥٠٠ إلى ٥٠٠ ق.م). فقد تصوّر البابليون (الدولة البابلية الأولى ١٨٨٠ ق.م-١٥٩٥ ق.م) أن الأرض عبارة عن قبة مقلوبة وطافية على الأوقيانوس (المحيط)، وقد وضعوا أقدم خريطةٍ في العالم تصف طبقات الأرض السبع، وهي منقسمة إلى أربعة قطاعات[٧].

أما المصريون القدماء فقد كان معروفًا بشكل عام ولفترة طويلة أنهم يعتبرون الكون صندوقًا مستطيلاً، مع امتداد الجوانب الأطول في الاتجاه من الشمال إلى الجنوب. ويُفترض أنه في وقت سابق كان مربعًا، وأن هذا الشكل قد خضع لعملية استطالة لجعله يتناسب مع الخصائص المعروفة للجغرافيا المصرية. ووفقًا للبعض، كان السقف مسطحًا ومدعومًا بأربعة أعمدة ضخمة أو أربع قمم عالية عند النقاط الأساسية التي كانت متصلة بسلسلة جبال متصلة[٨].

في حين تعددت أشكال وهيئات الأرض عند الهنود بشكل كبير. إذْ ذكر لنا أبو الريحان البيروني (توفي ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) أن بعض الهنود كان يعتقد بكروية الأرض، بحيث إن نصفها الشمالي جاف ونصفها الجنوبي مغمور بالمياه، وقد كان حجمها عند الهنود ضعف حجمها عند اليونانيين. ويذكر البيروني اسم جبل (ميرو)، وهي التسمية التي سبق وأن ظهرت عند البابليين، الأمر الذي يجعلنا نطرح تساؤلاً: هل تأثر النظام الهندي بالنظام البابلي فيما يتعلق بهيئة الأرض؟ مع وجود فارق هو أنّ الهنود حددوا وظيفة لجبل (ميرو) الذي يقع تحت القطب الشمالي وهي مسؤوليته عن دوران الأرض. كما ذكر لنا البيروني رأي البعض الآخر واعتقادهم بأن الأرض تتوضع على ظهر سلحفاة[٩].

ومع ظهور الفلاسفة اليونانيين بدأت المعرفة –بكافة أشكالها-تأخذًا منحىً أكثر تنظيمًا، وتتجه نحو المنطقية والعلمية. وقد دخل مفهوم (شكل الأرض) السجالات والجدالات الفلسفية اليونانية في البداية، بحيث إن كل فيلسوف حاول البرهنة على الشكل الذي يقتنع هو بوجوده، وليس الذي تفرضه الأدلة الواقعية. لكن في النهاية استقرت معرفة اليونانيين على شكلين للأرض: المسطح والكروي. وكان لكل من هذين الشكلين المؤيدين والمعارضين له. لكن في النهاية انتصر أصحاب الشكل الكروي نظرًا لتزايد الأدلة الطبيعية المؤيدة له، وكذلك نتيجة ترسيخ وجوده من قبل أرسطو وبطلميوس.

ثانيًا: شكل الأرض عند العلماء العرب والمسلمين

في الواقع، وبعد مسحنا للتراث العلمي العربي الذي وصلنا والمتعلق بكروية الأرض (بين القرنين ٨-١٧م) وجدنا أنه ظهر اتجاهان لدى العلماء العرب المسلمين: الأول هو قولهم بالأرض المسطحة، وهو ما نجده عند قلّة قليلة من علماء الكلام أمثال أبو علي الجبائي وتلميذه أبو رشيد النيسابوري. وقد لاحظنا أن هذا الاتجاه قد أفل نجمه لأكثر من ٧٠٠ سنة، ثم عاد للظهور مع نشر كتاب جلال الدين السيوطي (الهيئة السَّنِية في الهيئة السُّنِّية) وشروحات أتباعه عليه، أمثال مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي (توفي ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م) في كتابه (بهجة الناظرين وآيات المستدلين)، وإبراهيم القرماني الآمدي (كان حيًا عام ١٠٤٦هـ/ ١٦٥٤م) في كتابه (علم الهيئة على اعتقاد أهل السنة والجماعة دون الفلاسفة)، إذْ كان حينها الإنتاج العلمي العربي في علم الفلك النظري والرصدي قد تراجع بشكلٍ حادّ، ليحلّ البديل النقلي عنه، بحيث يمكن للأجيال الجديدة فهم الكون وأسراره من خلاله.

أما الاتجاه الثاني فهو الذي اعتمد كروية الأرض وساق كل الأدلة العلمية والواقعية الممكنة على حقيقتها. وهو الاتجاه الذي تبناه السواد الأعظم من علماء الفلك والجغرافيا والطبيعة وحتى علماء الدين الذين لم يقتنعوا بتوجهات علماء الكلام أو السيوطي وأتباعه، وذلك بدءًا من القرن الثامن الميلادي وحتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

٢/١-القرن (٢هـ/ ٨م)

(٢/١) ١-يعقوب الرهاوي

خصص يعقوب الرهاوي (توفي ٨٩هـ/ ٧٠٨م) الرسالة السابعة من كتابه (الأيام الستة) في علم الفلك. ولم نعلم مما جاء فيه من معلومات فلكية إلا ما نشره الباحث م. مارتن M. Martin وترجم بعضه. ويبدو من هذا الجزء المنشور أن يعقوب كان يعتقد بكروية الأرض[١٠]. كما يبدو أنه اقتنع بالأدلة التي أوردها بطلميوس في كتابه (المجسطي)، فهذا الكتاب كان مرجعه في كتابه (الأيام الستة)[١١].

(٢/١) ٢-يعقوب بن طارق

ذكر لنا ابن هبنتى (توفي ٢١٤هـ/ ٨٢٩م) أن ليعقوب بن طارق (توفي ١٧٩هـ/ ٧٩٦م) كتاب عنوانه (تركيب الأفلاك)، وقد ذكر في هذا الكتاب أن الله جعل الأرض مدوّرة كتدوير الكرة وهي في وسط الفلك، كالمحة في البيضة، وهي معلقة في الهواء[١٢].

٢/٢-القرن (٣هـ/ ٩م)

(٢/٢) ١-جابر بن حيان

أشار جابر بن حيان (توفي ٢٠٠هـ/ ٨١٥م) إلى كروية الأرض لدى حديثه عن الأبراج. فقد أورد في رسالته (إخراج ما في القوة إلى الفعل) قوله:" وهو ‹فلك البروج› يسير من المغرب إلى المشرق على كرة الأرض بحركةٍ خفيفة"[١٣].

(٢/٢) ٢-محمد بن علي المكي

اختصّ محمد بن علي المكي (كان حيًا حوالي ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) بالفلك والتنجيم. وقد ذكر له البيروني كتابًا بعنوان (كتاب في

الحجة على استدارة السماء والأرض) يثبت فيه كروية الأرض[١٤]. لكننا لم نتمكن من العثور على هذا الكتاب لمعرفة وتقييم محتواه. إلا أننا نتوقع من العنوان سرده لأدلة كروية الأرض مقابل تسطيحها.

(٢/٢) ٣-محمد بن موسى الخوارزمي

كان محمد بن موسى الخوارزمي (توفي ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م) يقرّ بكروية الأرض، وإن لم أعثر على نص صريح له بذلك، لكني استنتجته من كتابه (صورة الأرض)[١٥] الذي اعتمد فيه على جغرافية بطلميوس. إذْ كثيرًا ما يكرر عبارة (كرة الأرض) في عناوين الكتاب الداخلية.

(٢/٢) ٤-أحمد الفرغاني

أورد الفلكي أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني (توفي بعد ٢٣٧هـ /٨٥١م) عددًا من الأدلة التي أثبت فيها كروية الأرض. وهي أدلة ورد بعضها عند فيثاغورس وأرسطو وبطلميوس، لكن الدليل الجديد الذي أضافه الفرغاني ذلك المتعلق بالشهب. حيث إنه وجد أن رصده يختلف بين الراصد الذي يكون في المشرق والآخر الذي يكون في المغرب[١٦].

(٢/٢) ٥-الكندي

ناقش أبو إسحق الكندي (توفي ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م) موضوع كروية الأرض في ثلاث رسائل: الأولى (كتاب الكندي في الصناعة العظمى)، والثانية هي (رسالة الكندي إلى أحمد بن المعتصم في أن العناصر والجرم الأقصى كروية الشكل)، والثالثة هي (رسالة في أن سطح ماء البحر كروي)[١٧]. وقد حاول الكندي أن يثبت في كل رسائله أن الأرض كروية، وذلك من خلال الأدلة الواقعية والبراهين الهندسية.

ففي الرسالة الأولى قدم أدلة شروق الشمس على أهل المشرق قبل أهل المغرب، ودليل اختلاف منظر الخسوفات القمرية المرصودة في وقت واحد من قبل شخصين. ثم قدّم الأدلة التي تنفي أن تكون الأرض مسطحة أو أسطوانية.

أما في الرسالة الثانية فقد حاول أن يبرهن أن الجرم الأقصى يدور حول مركزه وهو ما يعبر عنه الكندي بأنه يتحرك على الوسط، وأنه لا يمكن أن يوجد جرم لا نهاية له، وأنه لا يوجد خارج العالم لا خلاء ولا ملاء. ثم يثبت الكندي أنّ الجسم المضلع الذي له قواعد وزوايا لا يمكن أن يدور حول مركزه، أي أن يكون متحركًا على الوسط مثل الجسم الكروي. وبما أن الجرم الذي يدور حول مركزه لا بد أن يكون كروي الشكل فالجرم الأقصى كروي الشكل أيضًا. ويستعين الكندي باستعمال الرسم الهندسي ليبرهن أن نهاية الجرم الأقصى لابد أن تكون كروية. ثم تنتهي الرسالة بإثبات أن الأرض في داخل الفلك كروية الشكل وتقع في مركز الكل وكذلك الماء حول الأرض.

أما الرسالة الثالثة للأسف لم تصلنا، لكن واضح من عنوانها أن الكندي حاول أن يثبت من خلالها كروية تضاريس الأرض من خلال تحدب مياه البحار، كما فعل في الرسالتين السابقتين، إضافة إلى أن توحي بمعرفته بمفهوم الجاذبية الأرضية.

(٢/٢) ٦-ابن خرداذبة

قرر أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبة (توفي نحو ٢٨٠ هـ /نحو ٨٩٣م) أن " صفة الارض أنها مدوّرة كتدوير الكرة، موضوعة في جوف الفلك كالمحّة في جوف البيضة والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك"[١٨]. لكنه لم يورد في كتابه أي دليل على كروية الأرض.

(٢/٢) ٧-ثابت بن قرة

وثّق لنا الإمام فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦هـ / ١٢١٠م) مناقشة علمية دقيقة منسوبة لثابت بن قرة (توفي ٢٨٨هـ / ٩٠١م) تتعلق بكروية الأرض. إذْ مضى ثابت بشكل أعمق من الآخرين، سواء منهم السابقين أو اللاحقين، حول منشأ كروية الأرض أصلاً، وليس البحث في أدلة كرويتها. وقد توصل بعد تفكير منطقي أن الجاذبية هي المسؤول الأول عن تكوّرها. وهذا تقدم قوي في نظرية كروية الأرض؛ إذْ لم يسبق لأحد أن أشار بشكل مباشر إلى دور قوة الجاذبية في تكوّر الأرض، وهو الدور الذي سيعود له نيوتن لاحقًا ليبرزه مرة أخرى في القرن ١٨م.

قال الإمام: "اتفق الحكماء على ذلك ‹في أنّ لكل جسم حيزًا طبيعيًا› إلا أنّي رأيت في فصول منسوبة إلى ثابت بن قرة مذهبًا عجيبًا اختاره لنفسه وأنا أنقل ذلك المذهب أولاً ثم أذكر الحجة المصححة لمذهب الحكماء ثانيًا. قال ثابت بن قرة: ‹إنّ› الذي يظن من أن الأرض طالبة للمكان الذي هي فيه باطل، لأنه ليس يتوهم في شيء من الأمكنة حال يخص ذلك المكان دون غيره، بل لو توهمت الأماكن كلها خالية ثم حصلت الأرض بأسرها في أيها اتفق وجب أن تقف فيه ولا تنتقل إلى غيره لأنه وجميع الأماكن على السواء. وأما السبب في أنّا إذا رمينا المدرة إلى جانب عادت إلى جانب الأرض فهو أن جزء كل عنصر يطلب سائر الأجزاء من ذلك العنصر لذاته طلب الشيء لشبيهه، فإنك لو توهّمت الأماكن على ما ذكرنا من الخلاء ثم جعل بعض أجزاء الأرض في موضع من ذلك الخلاء وباقيها في موضع آخر منه وجب أن يجذب الكبير منها الصغير، فلو صارت الأرض نصفين ووقع كل واحد من النصفين في جانب آخر كان طلب كل واحد

من القسمين مساويًا لطلب صاحبه حتى يلتقيا في الوسط، بل لو توهم أن الأرض كلها قد رفعت إلى فلك الشمس ثم أطلق من الموضع الذي هي فيه الآن حجر لكان يرتفع ذلك الحجر إليها لطلبه للشيء العظيم الذي هو شبيهه، وكذلك لو توهم أنّها قد تقطعت وتفرقت في جوانب العالم ثم أطلقت لكان يتوجه بعضها إلى البعض ويقف حيث يتهيأ التقاء جملة أجزائها فيه ولا تفارق ذلك الموضع لأنه لا فرق بين موضعها حينئذ وموضعها الآن وكانت أجزاؤها إذا بعدت من ذلك الموضع طلبته على حسب ما عليه الأمر في هذا الوقت. <قال ثابت> ولأن كل جزء يطلب جميع الأجزاء منها طلبًا واحدًا، ولما استحال أن يلقى الجزء الواحد جميع الأجزاء لا جرم طلب أن يكون قربه من جميع الأجزاء قربًا واحدًا متساويًا وهذا هو طلب الوسط ثم إنّ جميع الأجزاء هذا شأنها فيلزم من ذلك استدارة الأرض وكرويتها وأن يكون كل جزء منها يطلب المركز حتى يستوي قربه من الجملة"[١٩].

يتفق النص السابق مع وجهة نظر ثابت بن قرة حول كروية الأرض والذي نجده واضحًا جليًا في رسالة له بعنوان (في ذكر الأفلاك وخلقها وعدد حركاتها ومقدار مسيرها). حيث قال في مطلعها: "الأرض في وسط العالم، وهي مستديرة كالكرة، ومركزها مركز فلك البروج، وهي بمنزلة النقطة لا قدر لها بقياسها إلى كرة الكواكب الثابتة، فأما بقياسها إلى كرة القمر فإن لها عنده قدر معدود وهو أن قطرها جزء من ثلاثة وثلاثين من قطر كرة القمر"[٢٠]. للأسف لم يروّج لنظرية ثابت بن قرة عن دور الجاذبية في تكوّر الأرض بين العلماء العرب، بل إننا نجد معظمهم اعتمد الأدلة الحسّية الشائعة التي تدل على كرويتها.

٣/٢-القرن (٤هـ/ ١٠م)

(٣/٢) ١-قسطا بن لوقا

تكلم قسطا بن لوقا (توفي مطلع القرن ٤هـ/ ١٠م) في كتابه (كتاب المدخل إلى علم النجوم) عن حجم الأرض وشكلها الكروي. وهو يمثّل بمجمله عرض قصير مبسّط لعلم الفلك البطلميوسي، ويشبه كتاب الفرغاني كثيرًا[٢١].

(٣/٢) ٢-صاحب القِبْلَة

يبدو أن أبا عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (توفي ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) لم يكن مقتنعًا بكروية الأرض، لذلك قام بهجاء مسلم بن أحمد أبي عبيدة صاحب القبلة (توفي ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م) لأنه قال بكروية الأرض، إذْ قال ابن عبد ربه:

أبا عُبيدةَ ما المسؤولُ عن خَبرٍ
يحكيهِ إلا سُؤالاً للذي سألا
أبَيتَ إلا اعتِراضً ًا عن جماعتِنا
ولم يُصبْ رأيُ من أرجا ولا اعْتَزَلا
كذلكَ القِبلةُ الأولى مُبدَّلةٌ
وقد أبَيتَ فما تَبغي بها بَدَلا
زعمتَ بهرامَ أو بَيدَختَ يرزقُنا
لا بل عُطاردَ أو بِرجِيسَ أو زُحَلا
وقلتَ إنَّ جميعَ الخلقِ في فَلَكٍ
بهِمْ يحيطُ وفيهِمْ يقسمُ الأجَلا
والأرضُ كورِيَّةٌ حفَّ السماءُ بها
فَوقًا وتحتًا وصارتْ نُقطةً مَثَلا
صَيفُ الجنوبِ شتاءٌ للشَّمَالِ بها
قد صارَ بَينهما هذا وذا دُوَلا
فإنَّ كانونَ في صَنعا وقُرطبةٍ
بردٌ وأيلولُ يُذكي فيهما الشُّعَلا
هذا الدليلُ ولا قولٌ غُررتَ بهِ
منَ القوانينِ يُجلي القولَ والعَمَلا"[٢٢]

وكان أبو عبيدة قد سافر إلى المشرق ودرس على أيد علمائه، ثم عاد لوطنه. وهو من علماء الفلك والرياضيات الأندلسيين البارزين. وقد ولُقِّبَ بلقب (صاحب القبلة) لاشتغاله الكثير بتحديد جهة القبلة[٢٣]. على العموم نشكر لابن عبد ربه هذا الهجاء الذي كشف ووثق لنا من خلاله رأيه ورأي صاحب القبلة في كروية الأرض. لكن ابن عبد ربه لم يقدّم الهيئة البديلة لكروية الأرض، أي هل مسطحة أم مكعبة أم غير ذلك.

(٣/٢) ٣-ابن رسته

للأسف لم يصلنا من كتاب (الأعلاق النفيسة) لأبي علي أحمد بن عمر ابن رسته (توفي نحو ٣٠٠هـ / نحو ٩١٢م) سوى الجزء السابع منه. وقد كشف لنا فيه ابن رسته عن موقفه من قضية كروية الأرض وقدم أدلته العلمية في ذلك. وقد ردّ ابن رسته على من ادعى أن "السماء مسطحة" وليس الأرض فقط، بأن رؤية الشمس والقمر والنجوم ستختلف تمامًا عن الوضع الحالي، ثم قدم الأدلة السابقة -المعروفة منذ أرسطو وبطلميوس- التي تؤكد كروية الأرض[٢٤].

(٣/٢) ٤-أبو علي الجُبَّائي (الأب)[٢٥]

يُحْسب أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي (توفي 303هـ/ ٩١٥م) على أصحاب الكلام، أو المتكلمين، الذين حاولوا الدفاع عن العقيدة الإسلامية من خلال مناهجهم الفلسفية والعقلية. وقد كان مقتنعًا بأن الأرض مسطحة وليست كروية، وقدم أدلته على ذلك، أوردها لنا تلميذه أبو رشيد النيسابوري[٢٦]:

١- رؤية الشمس أكبر عند شروقها وأصغر عند وصولها لكبد السماء. وهذا يعني أن الأرض ليست كروية وليست في مركز العالم.
٢- قوله تعالى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) [٢٧] أي بسطها.
٣- وجود مواضع مسطحة في الأرض تدل على ذلك.

ما يهمنا من هذه الأدلة الثلاث هو الأول منها؛ إذْ نجد أن الجبائي (الأب) شعر بوجود تناقض بين وجود الأرض ساكنة في مركز العالم وأن تكون كروية، كما يقترح أصحاب علم الفلك. بل يجب أن يكون الحال مختلف، أي كروية وتتحرك، وليس كروية وساكنة، فحالتها الساكنة تقتضي أن تكون مسطحة والأجرام من حولها تدور.

طبعًا لم يوافق المجتمع العلمي العربي بشكل عام، والفلكي بشكل خاص، على طروحات الجبائي (الأب) للمنظومة الفلكية (الأرسطية / البطلمية) لأنها ستتطلب تغييرًا شاملاً في بنيتها وقوانينها قد يسبب مشكلات أكثر مما يحلها. ولهذا أهملت انتقادات الجبائي (الأب)، وعوملت بالتهميش من قبل النخبة العلمية الفلكية مثل كل النصوص الكلامية التي طرحها تيار المتكلمين، ليس من أجل تبنيها، وإنما على الأقل من أجل مراجعتها وتقييمها.

(٣/٢) ٥-أبو بكر الرازي

تناول أبو بكر الرازي (توفي ٣١١هـ/ ٩٢٣م) موضوع كروية الأرض في كتابه (هيئة العالم)[٢٨]، كما توصل في كتابه (سبب تحرّك الفلك على استدارة) إلى كروية الأرض وأن الأرض تفوق بحجمها القمر، في حين أن حجمها يقلّ كثيرًا عن حجم الشمس[٢٩]. وذكر ابن النديم أن له رسالة (في أنه لا يتصور لمن لا رياضة له بالبرهان أن الأرض كرية وأن الناس حولها)، ورسالة (في فسخ ظن من توهم أن الكواكب ليست في نهاية الاستدارة)[٣٠]. ويتضح من عنواني الرسالتين –اللتين لم تصلانا- محاولة تقديمه للبراهين الهندسية التي تثبت كروية الأرض.

(٣/٢) ٦-أبو القاسم الكعبي

أورد النيسابوري أن أبا القاسم الكعبي (توفي ٣١٩هـ/ ٩٣١م) قد قال بكروية الأرض، مخالفًا رأي أبو علي الجبائي، ومتفقًا مع ابنه أبو هاشم[٣١].

(٣/٢) ٧-أبو هاشم الجبائي (الابن)

خالف أبو هشام الجبائي (توفي 321هـ/ ٩٣٣م) أباه، أبا علي الجبائي، وقال إن الأرض كروية الشكل، كما حدثنا النيسابوري[٣٢]، ولم يحدّثنا أكثر من ذلك حول الأدلة. ونستنتج من ذلك أن الأجواء الفكرية والعلمية بين الأب والابن كانت ترتكز على التسامح واحترام الرأي الآخر، ولا تقوم على الإجبار والإكراه في الاتباع.

(٣/٢) ٨-ابن الحائك الهمداني

اقتنع ابن الحائك الهمداني (توفي ٣٣٤هـ/٩٤٥م) بأن الأرض كروية، وقد ساق الأدلة المعروفة في ذلك، لكنه حاول تطبيقها في حالة البلدان العربية بدلاً من إطلاق الأدلة بشكل عام.

قال الهمداني: "اعلم أن الأرض ليست بمنسطحة، ولا ببساط مستوي الوسط والأطراف، ولكنها مقببة، وذلك التقبيب لا يبين مع السعة، إنما يبين تقبيبها بقياساتها إلى أجزاء الفلك، فيقطع منها أفق كل قوم على خلاف ما يقطع عليه أفق الآخرين طولاً وعرضًا في جميع العمران، ولذلك يظهر على أهل الجنوب كواكب لا يراها أهل الشمال، ويظهر على أهل الشمال ما لا يراه أهل الجنوب ويكون عند هؤلاء نجوم أبدية الظهور والمسير حول القطب، وهي عند أولئك تظهر وتغيب، وسأضع لك في ذلك مقياسًا بينًا للعامة، من ذلك أن ارتفاع <نجم> سهيل بصنعاء وما سامتها إذا حلق، زيادة على عشرين درجة، وارتفاعه بالحجاز قرب العشر، وهو بالعراق لا يُرى إلا على خط الأفق، ولا يُرى بأرض الشمال، وهناك لا تغيب بنات نعش، وهي تغيب على المواضع التي يُرى فيها سهيل، فهذه شهادة العرض. وأما شهادة الطول فتفاوت أوقات بدء الكسوفات ووسطها وانجلائها على خط فيما بين المشرق والمغرب، فمن كان بلده أقرب إلى المشرق كانت ساعات هذه الأوقات من أول الليل والنهار أكثر؛ ومن كان بلده أقرب إلى المغرب كانت ساعات هذه الأوقات من آخر الليل وآخر النهار منكوسًا إلى أولهما أكثر، فذلك دليل على تدوير موضع المساكن والأرض، وأن دوائر الأفق متخالفة في جميع بقاع العامر، ولو كان سطح الأرض صفيحة، لكان منظر سهيل وبنات نعش واحدًا"[٣٣].

(٣/٢) ٩-الفارابي

اعتمد أبو نصر محمد الفارابي (توفي عام ٣٣٩ هـ/٩٥٠م) في إثباته لكروية الأرض على كروية العناصر الأربعة (التراب، الماء، الهواء، النار) التي تقع بين كرة الأرض وكرة القمر؛ حيث قال: "وشكل كل واحدٍ من الأربعة على شكل كرة"، ويتابع:" والعالم يركّب من بسائط صائرة كرة واحدة"، يبدو أن الفارابي استمد هذا القول من قول أرسطو:" إذا تركنا جزءًا من المادة لنفسه فإنه يتهيأ بهيئة الكرة، وإذا كانت الأرض ساكنة فإن شكلها بالتالي يكن كرويًا"[٣٤].

(٣/٢) ١٠-ابن الفقيه

أورد ابن الفقيه أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمذاني (توفي نحو ٣٤٠هـ / نحو ٩٥١م)، البرهان على كروية البحر، وبالتالي الأرض التي تحته بقوله: " وزعموا أن البحر أيضًا كرويٌّ مدوّر. وبرهان ذلك أنك إذا لججت فيه غابت عنك الأرض والجبال شيئًا بعد شيء حتى خفي ذلك كله، ولا ترى شيئًا من شوامخ الجبال. فإذا أقبلت نحو الساحل، ظهرت لك قلل الجبال وأجسامها شيئًا بعد شيء. فإذا قربت من الساحل، ظهرت الأرض والأشجار"[٣٥].

(٣/٢) ١١-المسعودي

كان علي بن الحسين بن علي أبو الحسن المسعودي (توفي ٣٤٧هـ/ ٩٥٧م) مقتنعًا بكروية الأرض[٣٦]. وقد ارتكز في أدلته على ما أورده بطلميوس، لكنه طبّقها عمليًا في المناطق العربية والإسلامية، كما فعل ابن الحائك الهمذاني، محاولاً أن يبين الحكم الإلهية من كونها كروية ومنفعة ذلك للمخلوقات كافة.

(٣/٢) ١٢-المطهر بن طاهر المقدسي

تناول المطهر بن طاهر المقدسي (توفي بعد ٣٥٥هـ / بعد ٩٦٦م) موضوع كروية الأرض مبينًا مختلف الآراء والأفكار اليونانية السابقة في ذلك، لكنه يضيف إلى الأدلة شيئًا جديدًا هو عملية الحفر الافتراضية التي اقترحها أنصار الأرض الكروية بين مدينة فوشنج القديمة في خراسان (حاليًا تعرف باسم زاندي جان في ولاية هراة في أفغانستان) والصين. إلا أنّه لم يوضح هل عملية الحفر عمودية أم أفقية. لأننا إذا نظرنا لخريطة وموقع كل من أفغانستان والصين لوجدنا أنهما متجاورين وليس متقابلين وفق مبدأ النقائض Antipodes الذي وضعه فيثاغورث من قبل. فقد كان فيثاغورث يقول إن الأرض موضوعة في وسط الكون وأنها معمورة من سائر جهاتها، لذلك فإنه يوجد ناس يقابلوننا على امتداد أحد أقطارها. فإذا رسمنا خط من قدم أي إنسان إلى أسفل الكرة لوقع على قدم الإنسانٍ المقابل له، ويكون ذلك الخط قطرًا للكرة[٣٧].

قال المطهر بن طاهر: "وقد اختلف القدماء في هيئة الأرض وشكلها فذكر بعضهم أنها مبسوطة مستوية السطح في أربع جهات والمشرق والمغرب والجنوب والشمال ومن هؤلاء من زعم أنها كهيئة الترس ومنهم من زعم أنها كهيئة المائدة ومنهم من زعم أنها كهيئة الطبل وذكر بعضهم تشبيه بنصف الكرة كهيئة القبة وأن السماء مركنة على أطرافها وقال بعضهم هي في جانب من الفلك الأوسط وقال قوم هي مستطيلة كالأسطوانة الحجرية كالعمود وقال قوم أن الأرض <تهوي> إلى ما لا نهاية وأن السماء يرتفع إلى ما لا نهاية. وقال قوم إنّ الذي يُرى من دوران الكواكب إنما هو دور الأرض لا دور الفلك والذي يعتمده جماهيرهم أن الأرض مستديرة كالكرة وأن السماء محيطة بها من كل جانب إحاطة البيضة بالمحة فالصفرة بمنزلة الأرض وبياضها بمنزلة الهواء وجلدها بمنزلة السماء، غير أن خلقها ليس فيه استطالة كاستطالة البيضة بل هي مستديرة كاستدارة الكرة المستوية الخرط حتى قال مهندسوهم لو حفر في الوهم وجه الأرض لأدى إلى الوجه الآخر ولو نقب مثلاً بفوشنج لنفذ بأرض الصين. قالوا والناس على وجه الأرض كالنمل على البيضة واحتجوا لقولهم بحجج كثيرة منها برهاني ومنها إقناعي"[٣٨].

(٣/٢) ١٣-ابن حَوْقَل

كرر محمد بن حَوْقَل (توفي بعد ٣٦٧هـ / بعد ٩٧٧م) أدلة بطلميوس عن كروية الأرض دون إضافة أي جديد[٣٩].

(٣/٢) ١٤-مؤلف مجهول

أورد مؤلف مجهول (توفي بعد ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م) أن "الأرض مدوّرة كالكرة، والفلك محيط بها، تدور على قطبين، أحدهما يدعى القطب الشمالي، والآخر القطب الجنوبي. وكل كرة إذا رسمت عليها دائرتين كبيرتين تقطعان بعضهما في زاوية قائمة، قَسَمَت تلكما الدائرتان الكرة إلى أربعة أقسام. كذلك الأرض مقسمة إلى أربعة أقسام بدائرتين: تدعى إحداهما دائرة الآفاق والأخرى خط الاستواء. أما دائرة الآفاق فإنها تبدأ من المشرق وتتجه إلى نهاية العمارة فتمرّ في القطب الجنوبي، فتقطع ناحية المغرب لتعود إلى المشرق مرة أخرى. وهذه الدائرة هي التي تفصل النصف الظاهر العامر من الأرض عن النصف الآخر المحجوب الذي تحتنا. وخط الاستواء هو الدائرة التي تخرج من حدود المشرق وتمر من وسط الأرض على أبعد مكان من القطبين حتى تصل إلى المغرب وتستمر حتى تعود إلى المشرق مرة أخرى"[٤٠].

(٣/٢) ١٥-عبد الرحمن الصوفي

ذكر الفلكي الشهير أبو الحسين عبد الرحمن الصوفي (توفي ٣٧٦هـ / ٩٨٦م) صاحب كتاب (صور الكواكب) "أن الأرض بجميع ما فيها من البر والبحر على مثال الكرة"[٤١]، و "إنّ الأرض مدورة على مثال الكرة"[٤٢]. لكنه لم يستعرض الأدلة على كرويتها.

(٣/٢) ١٦-أبو الصقر القبيصي

أورد عبد العزيز بن عثمان القبيصي (توفي حوالي ٣٨٠هـ / حوالي ٩٩٠م) في (رسالة في الأبعاد والأجرام) أن السابقين عليه قد أثبتوا كروية الأرض والسماء وبقية الكواكب[٤٣]. وقد عثرنا

على رسالته هذه ووجدنا أنها تمثل بمجملها شروحات لما قدمه بطلميوس في كتابه المجسطي. ويبدو أن القبيصي قد وافق على ما طرحه الفرغاني، حول أن الأرض كروية، وهو ما نستشفه من عمله الآخر (ما شرحه القبيصي من كتاب الفصول للفرغاني)[٤٤].

(٣/٢) ١٧-المقدسي البشاري

كرر محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي البشاري (توفي نحو ٣٨٠هـ / نحو ٩٩٠م) ما سبق وأن طرحه العلماء العرب السابقين من تشبيه الأرض بالمحة في جوف البيضة، دون أن يذكر أدلة كرويتها[٤٥].

(٣/٢) ١٨-محمد بن أحمد الخوارزمي

لقد تعرفنا على رأي محمد بن أحمد الخوارزمي (توفي نحو ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) عن كروية الأرض من خلال ما كتبه عنه تقي الدين المقريزي (توفي ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) إذْ قال: "وقال محمد بن أحمد الخوارزمي: الأرض في وسط السماء، والوسط هو السفلي بالحقيقة، وهي مدورة مضرسة من جهة الجبال البارزة والوهاد الغائرة، وذلك لا يخرجها عن الكرية إذا اعتبرت جملتها لأن مقادير الجبال وإن شمخت يسيرة بالقياس إلى كرة الأرض، فإن الكرة التي قطرها ذراع، أو ذراعان مثلاً إذا أنتأ منها شيء أو غار فيها لا يخرجها عن الكرية، ولا هذه التضاريس لإحاطة الماء بها من جميع جوانبها وغمرها، بحيث لا يظهر منها شيء"[٤٦].

ويشير هنا الخوارزمي إشارة مهمة وهي أن التضاريس والمعالم الطبيعية المنتشرة على سطح الأرض لا تمنع أن تجعل الأرض كروية الهيئة، ويستعين لتأكيد هذه الفكرة بتشبيه مبسّط هو أن الكرة التي قطرها نحو ٥٠ سنتمتر لن تؤثر النتوءات التي تنتشر على سطحها على كرويتها في شيء.

(٣/٢) ١٩-إخوان الصفا

ناقش إخوان الصفا (القرن ٤هـ/ ١٠م) موضوع كروية الأرض في رسائلهم. وقد اعتبروها واقفة في الهواء، وأن مركزها يشكّل مركز العالم دون أية إضافات جديدة على ما طُرح سابقًا[٤٧].

٤/٢-القرن (٥هـ/ ١١م)

(٤/٢) ١-أبو بكر الكرجي

استدلّ أبو بكر محمد حسن الكرجي (توفي بعد ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) على كروية الأرض عمليًا من خلال البحار، وقد برهن على ذلك منطقيًا من خلال موازاة سطح البحر لسطح اليابسة ولم يكن هناك أي جريان أو تدفق للمياه نحو اليابسة. ثم قدم لنا الكرجي رده على أنّ تكوّر الأرض يقتضي حركتها بشكل أبدي، وبالتالي فإن الماء الموزع على سطحها يتحرك أيضًا بشكل أبدي. حيث قال: إن تضرّس سطح الأرض هو السبب في سكونها وعدم حركتها[٤٨]. لكن ووجدنا أن الخوارزمي لم يُعر أية أهمية لمسألة التضاريس وتأثيرها على شكل كروية أو سكونها وحركتها.

والحقيقة أن فرضية تكوّر الأرض تقتضي حركتها هي الصحيحة، ولا تقتضي سكونها. ولا نعلم لماذا ناقض الكرجي نفسه. فالإقرار بأن الكواكب والأجرام السماوية المحيطة بالأرض كروية وأنها تتحرك يقتضي أن نقرّ بحركة الأرض كونها كروية أيضًا! ولكن يبدو أن سطوة المجتمع العلمي المحيط وخشية مخالفته كانت تسيطر على أذهان بعض العلماء العرب، لذلك كان معظمهم يؤيد فكرة سكون الأرض في مركز العالم، مع أنها كروية.

(٤/٢) ٢-الشيخ المفيد

ذكر محمَّد بن محمَّد بن النعمان بن عبد السَّلام الحارثي المذحجي العكبري أبو عبد اللّه (توفي ٤١٣هـ / ١٠٢٢م) أن "الأرض على هيئة الكرة في وسط الفلك"[٤٩]. وقد انتبه الشيخ المفيد إلى مسألة مهمة تتعلق بحدود الأرض وما يحيط بها، وهو ما كان يصطلح عليه عند العرب اسم (العالم)، حيث قال في فقرة خاصة بعنوان:" القول فيمن نظر وراء العالم أو مدّ يده" وتابع "وأقول: إنه لا يصحّ خروج يدٍ ولا غيرها وراء العالم؛ إذْ كان الخارج لا يكون خارجًا إلا بحركةٍ، والمتحرّك لا يصحّ تحرّكه إلا في مكانٍ، وليس وراء العالم شيءٌ موجود فيكون مكانًا أو غير مكان، وإذا لم تصحّ حركة شيءٍ إلى خارج العالم لم تصح رؤية ما وراء العالم، لأن الرؤية لا تقع إلا على شيءٍ موجود تصح رؤيته باتصال الشّعاع به أو محلّه، وليس وراء العالم شيءٌ موجود ولا معلوم فضلاً عن موجود. وهذا مذهب أبي القاسم وسائر أهل النظر في أحد القسمين وهو الرّؤية، ومذهبه مذهب أكثر أهل التوحيد في الحركة، ويخالفهم فيه نفر يسير"[٥٠]. ولكن ينسب أحمد بن يحيى المرتضى (توفي ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م) هذا الاعتقاد نفسه إلى أبي القاسم البلخي الكعبي، دون أن يتفق معه[٥١].

على العموم سيتكرر ظهور هذه الفكرة ومناقشتها لاحقًا بشكل مجسد في نقش فلاماريون Flammarion engraving في القرن التاسع عشر، وهو نقش على الخشب وضع من قبل فنان غير معروف، وقد سمي بهذا الاسم لأن أول ظهور موثق له كان في كتاب عالم الفلك الفرنسي كميل فلاماريون (توفي ١٩٢٥م) C. Flammarion عام ١٨٨٨ (الغلاف الجوي: الأرصاد الجوية الشعبية). وغالبًا ما يستخدم هذا النقش الخشبي

كتوضيح مجازي للمهام العلمية أو الصوفية للمعرفة. إذْ تصور المطبوعة رجلاً يرتدي رداءً طويلاً ويحمل عصا على حافة الأرض حيث تلتقي بالسماء. وهناك يجثو الرجل على ركبتيه ويخرج رأسه وكتفيه ويده اليمنى عبر السماء المرصعة بالنجوم، ليكتشف عالمًا رائعًا من الغيوم والنيران والشمس الدائرية وراء السماء. كما يحمل أحد عناصر الآلية الكونية تشابهًا قويًا مع التمثيلات التصويرية التقليدية لـ "العجلة في منتصف العجلة" الموصوفة في رؤى النبي العبري حزقيال. تقول التسمية التوضيحية المصاحبة للنقش في كتاب فلاماريون: "يخبرنا أحد المرسلين في العصور الوسطى أنه وجد النقطة التي تتلامس فيها الأرض والسماء ... "[٥٢].

(٤/٢) ٣-ابن الهيثم

بطريقة مشابهة لتفسير الكرجي، قام الحسن بن الهيثم (توفي نحو ٤٣٠هـ/ نحو ١٠٣٨م) بتكرار الرأي نفسه حول كروية الأرض وانتشار التضاريس على سطحها وسكونها في مركز العالم. حيث قال: " وشكل الأرض بكليتها وجميع أجزائها شبيه بالكرة، لكن سطحها ليس بصحيح الاستدارة بل فيه تضاريس ليس للذي يعرض فيه من تأثيرات الأجرام السماوية، إلا أن ذلك ليس بمبطلٍ لكرويتها ولا يخرجها عن شكلها، بل هي بالإضافة إلى جملتها كالخشونة العارضة في سطح بعض الأكر الصغار؛ فالأرض بجملتها كرة مستديرة مركزها مركز العالم وهي مستقرة في وسطه، ثابتة فيه غير منتقلة إلى جهةٍ من الجهات، ولا متحركة بضربٍ من ضروب الحركات بل هي دائمة السكون. فأما الماء فإنه محيط بكرة الأرض إلا أن الماء لما كان ثقيلاً وكانت حركته إلى مركزه وكانت كرة الأرض حاجز بينها وبين المركز صار في أقرب الأماكن من المركز، فأحاط بكرة الأرض ولما كانت الأرض متشققة الظاهر وكان فيها مواضع منخفضة ومواضع مرتفعة فكان الماء من أجل ثقله يطلب المركز وأقرب من المركز صار منحدرًا بالطبع إلى المواضع المنخفضة فبقيت المواضع المرتفعة منكشفة كالجزائر التي تكون في وسط البحر والماء محيط بها"[٥٣].

(٤/٢) ٤-ابن سينا

انطلاقًا من كون السماء متناهية وبسيطة، لذلك فإن شكلها كروي، وقد قرّر ابن سينا (توفي ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) أنه لابد وأن الأرض كروية، لأن "الأجسام الفلكية تعمّها جميعًا الجسمية والشكل المستدير والحركة على الاستدارة، وإن فعالها بالطبيعة لا بالقصد، فإن ما يقع عنها إنما يقع من طبيعة حركاتها وقواها، إلا أنها عالمة بم يقع من حركاتها وشكلها بأشكالها المختلفة وممازجاتها"[٥٤].

في الواقع تقررت فكرة الربط بين كروية السماء وكروية الأرض منذ أيام البابليين، وقد جاء إيدوكسوس الكنيدوسي (توفي ٣٣٧ ق.م) Eudoxus of Cnidus وأطّرها وعمّمها لتشمل حركة الأجرام السماوية أيضًا[٥٥]. ثم سرد لنا ابن سينا أدلته على كروية الأرض وهي مأخوذة عن أستاذه أرسطو: "وأما السطح الذي يلي الأرض، أو يلي جسمًا يلي الأرض، فيشبه أن يعرض له هذا الانثلام بالمخالطة المضرسة. وما كان رطبا سيالا فإن سطحه الذي يلي رطبا مثله يجب أن يحفظ شكله الطبيعي المستدير .ولو لم يكن سطح الماء مستديرًا لكانت السفن إذا ظهرت من بعد تظهر بجملتها، لكن ترى أصغر، ولا يظهر منها أولا جزء دون جزء. وليس الأمر كذلك؛ بل إنما يظهر أولا طرف السكان ثم صدر السفينة. ولو كان الماء مستقيم السطح لكان الجزء الوسط منه أقرب إلى المركز المتحرك إليه بالطبع من الجزئين الطرفين؛ فكان يجب أن يميل الجزءان الطرفان إلى الوسط، وإن لم يكن ذلك ليصلا إليه، كما قلنا؛ بل ليكون لهما إليه النسبة المتشابهة المذكورة. وتلك النسبة لا مانع لها، في طباع الماء عن أن تنال بتدافع أجزائه إلى المركز، تدافعا مستويا .فحينئذ يكون بعد سطحه عن المركز بعدًا واحدًا، فيكون مستديرًا"[٥٦].

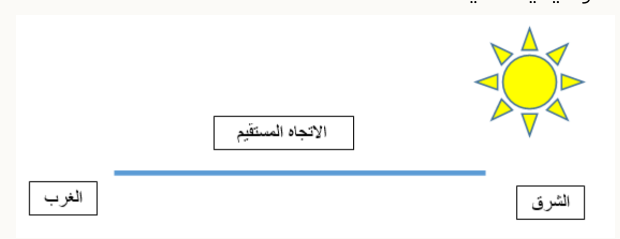
(٤/٢) ٥-البيروني (القرن ٥هـ/ ١١م)

ردّ أبو الريحان البيروني (توفي ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) على من يقول إن شكل الأرض أسطوانيًا، سواء من الهنود أو اليونانيين، وقال بأن هذا غير ممكن، وإلا لبرز الربع الجنوبي المقاطر للربع الشمالي عن الماء[٥٧]، وهو ما لم نشاهده في الواقع. ثم أورد البيروني أدلة بطلميوس في إثبات كروية الأرض، ويبدو أنه كان مقتنعًا بها نظرًا لمنطقها العقلي السليم، فهو لم يقدم أي اعتراض عليها[٥٨]. كما أننا نلاحظ أن البيروني قد تبنى رأي محمد بن أحمد الخوارزمي في شكل الأرض وتوزع المعالم الجغرافية عليها.

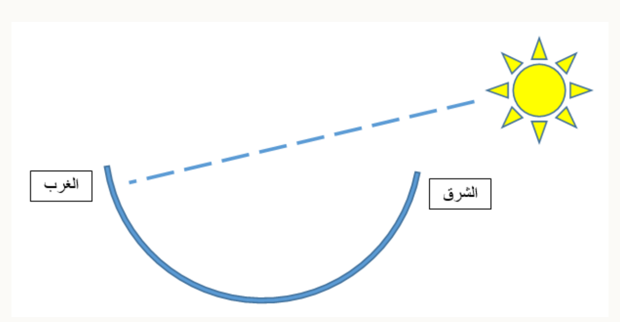
وأشار البيروني أيضًا إلى حالات التقعر والتحدّب والاستقامة التي يستدلّ من خلالها على كروية الأرض. وقد أثبت أن الامتداد في اتجاهات الشرق والغرب والجنوب والشمال محدب الشكل وليس مستقيمًا ولا مقعرًا. إذْ لو كان الامتداد من الشرق إلى الغرب مستقيمًا لشاهد جميع سكان البلاد القاطنين في هذا الاتجاه شروق الأجرام السماوية في الوقت نفسه. ولو كان الامتداد مقعرًا، أي منحنيًا إلى الداخل

لاختلفت أوقات الشروق بشكل فعلي بين بلدٍ وآخر، ولكان سكان البلاد الغربية سيشاهدون شروقها قبل البلاد الشرقية. وفي حال التحديب الشبيه بسطح كرة فإن ما يحدث هو مشاهدة سكان البلاد الشرقية للأجرام قبل الغربية[٥٩].

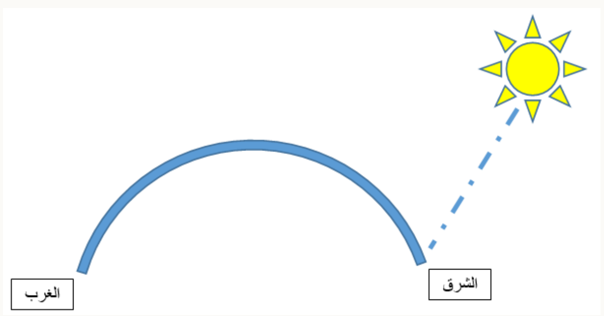
ويمكن تمثيل الحالات الثلاث السابقة في الأشكال التوضيحية الآتية:



في حال كانت الأرض مسطحة فإن جميع السكان يشاهدون الشروق في الوقت نفسه



لو كانت الأرض مقعرة الشكل لشاهد سكان البلاد الغربية الشروق قبل سكان البلاد الشرقية



باعتبار أن الأرض محدّبة الشكل فإن سكان البلاد الشرقية يشاهدون الشروق قبل سكان البلاد الغربية.

(٢/٤) ٦-أبو رشيد النيسابوري

ناقش أبو رشيد النيسابوري، سعيد بن محمد بن حسن بن حاتم (توفي نحو ٤٤٠هـ / نحو ١٠٤٨م)، موضوع شكل الأرض، هل هو كروي أم مسطح. لكنه في البداية سجّل لنا آراء أساتذته قبل أن يقدم رأيه[٦٠]. وقد قدم النيسابوري عدة اعتراضات على طروحات أرسطو حول كروية الأرض، وحاول أن يثبت أنها مسطحة[٦١]. كما قدم النيسابوري اعتراضه على أدلة بطلميوس أيضًا، مع أن الأخير أراد أن يثبت أن الأرض كروية[٦٢].

ثم يستنتج النيسابوري في النهاية وبعد مناقشةٍ طويلة وغير منطقية أن الأرض مسطحة وليست كروية! مؤيدًا بذلك رأي شيخه أبو علي الجبائي (الأب).

(٢/٤) ٧-أبو الفتح الكراجكي

أفرد الشيخ القاضي أبي الفتح محمد بن علي الكراجكي (توفي ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) فصلاً كاملاً في كتابه (كنز الفوائد) يتكلم فيه عن هيئة الأرض الكروية، وقد كرر الأدلة التي سبق وذكرها علماء الفلك والجغرافيا دون أية إضافةٍ جديدة[٦٣].

(٢/٤) ٨-ابن حزم الأندلسي

قدم لنا ابن حزم الأندلسي (توفي ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) أدلة كروية الأرض النقلية (من القرآن الكريم والسنّة النبوية)، ثم قدم الأدلة العقلية. وأول دليل ساقه هو اختلاف زوال الشمس في النهار بين مكان وآخر، ثم إن حركة الأجرام من حولها تدلّ أيضًا على ذلك[٦٤].

٢/٥-القرن (٦هـ/ ١٢م)

(٢/٥) ١-محمد الخرقي

اعتمد الفلكي محمد بن أحمد بن أبي بشر المروزي، المعروف بالخرقي (توفي ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م) في كتابه (التبصرة في الهيئة)[٦٥] على من سبقه في سرد أدلة كروية الأرض، وخصوصًا ابن الهيثم، دون أية إضافة جديدة[٦٦].

(٢/٥) ٢-الزّهري الغرناطي

قدم لنا محمد بن أبي بكر الزهري الغرناطي (توفي بعد ٥٤١هـ/ ١١٥٤م) أدلة كروية الأرض، سواء النقلي منها أو العقلي. وهي بمجملها تكرار لما سبق وأن طرحه العلماء السابقون[٦٧].

(٢/٥) ٣-الشريف الإدريسي

لخص الجغرافي البارز محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي (توفي ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) أقوال السابقين حول كروية الأرض دون أن يقدم لنا الجديد[٦٨].

(٢/٥) ٤-ابن طفيل

الكون كله حسب ابن طفيل (توفي ٥٨١هـ /١١٨٥م) كروي. وقد عرف ذلك من ملاحظته لأقدار Magnitude[٦٩] النجوم والأجرام الذي يكون متقاربًا بدرجته عند طلوعها وتوسطها وغروبها. وهي الملاحظة نفسها التي سبق وأن لاحظها بطلميوس وأشار إليها. قال ابن طفيل: لو كانت حركتها <للنجوم> غير كروية لكانت في بعض الأوقات أقرب إلى البصر منها في أوقات أخرى[٧٠]. وقد استدلّ ابن طفيل على كروية

الأرض من خلال حركة النجوم التي تطلع من المشرق وتغيب في المغرب، فإذا طلعت على سمت الرأس كانت الدائرة التي تقطعه تلك النجوم في السماء أكبر من الدوائر التي تقطعها تلك النجوم التي تطلع عن اليمين أو الشمال. ثم إن النجوم إذا طلعت معًا (ولو كانت تسير في مدارات مختلفة) فإنها تغرب معًا أيضًا[٧١].

٢/٦-القرن (٧هـ/ ١٣م)

(٢/٦) ١-ياقوت الحموي

أورد الجغرافي الشهير ياقوت الحموي (توفي ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) آراء من سبقه حول شكل الأرض، سواء من اليونانيين أو العلماء العرب والمسلمين وعلى مختلف فرقهم: فلاسفة ومتكلمين. لكنه يميل لتبني رأي محمد بن أحمد الخوارزمي فقط، وهو أن الأرض كروية تنتشر عليها التضاريس والمعالم الصخرية المختلفة التي تسمح بتوزع الماء بشكلٍ مختلف على سطحها[٧٢].

(٢/٦) ٢-ابن مطروح

يبدو أن ثقافة الأرض الكروية كانت شائعةً في القرن قبل منتصف القرن ١٣م في البلاد العربية والإسلامية، وحتى أن الناس كانوا يتبادلون الهدايا بمجسماتها. فقد أهدى الشاعر جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح (توفي ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) إلى أحد أصدقائه مجسم لكرة أرضية وكتب إليه قائلاً[٧٣]:

كرة الأرض مع محيط السماء — لك أهديت يا كريم الإخاء
وإذا ما قبلتها فلك المنّـ — ـة عندي يا أكرم الكرماء

(٢/٦) ٣-مؤيد الدين العُرَضي

أقرّ الفلكي مؤيد الدين العُرَضي (توفي ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) بكروية الأرض، مشيرًا أن الماء قد أخذ شكله الكروي من سطح الأرض الموزع عليها. ثم قدّم الأدلة العلمية المتنوعة المعروفة سابقًا على كروية الأرض[٧٤].

(٢/٦) ٤-القزويني

لم يضف زكريا بن محمد بن محمود القزويني (توفي ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) أي جديد على ما قاله العلماء العرب السابقون حول كروية الأرض[٧٥].

(٢/٦) ٥-ابن كمونة

استدل سعد بن منصور بن كمونة (توفي ٦٨٣هـ/ ١٢٨٥م) على كروية الأرض من خلال كروية العناصر الأربعة المحيطة بها. فالهواء والماء والنار كلها كروية الشكل، لذلك لابد وأنها تحيط بجسم كروي الهيئة، وهي الفكرة التي سبق وأن أشار إليها الفارابي من قبل، لكن مع تفصيلٍ أكثر. وهي الفكرة التي سبق وطرحها الفارابي وأرسطو من قبل[٧٦].

(٢/٦) ٦-ابن سعيد المغربي

الأرض كروية عند علي بن موسى بن محمد ابن سعيد المغربي (توفي ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) و"يحيط بها الماء. وهما واقفان بالمركز في قلب الأفلاك ودورها ثلاثمائة وستون درجة. وكل درجة ونصف مائة ميل. والميل أربعة آلاف ذراع"[٧٧].

٢/٧-القرن (٨هـ/ ١٤م)

(٢/٧) ١-قطب الدين الشيرازي (القرن ٨هـ/ ١٤م)

ناقش قطب الدين الشيرازي (توفي ٧١٠هـ / ١٣١٠م) كروية الأرض وما يحيط بها من الماء بشكل موسّع ومفصّل في كتابه (نهاية الإدراك في دراية الأفلاك)[٧٨]. لكنه في البداية انطلق من فرضيات أنها غير مكوّرة، ثمّ نقضها، ثم بين أنها كروية. وقد كان عرضه أفضل من عرض الكثيرين الذين سبقوه لأنه اعتمد البرهان بطريقة نقض الفرض، وهي طريقة منطقية تجعل من الحجة قوية.

(٢/٧) ٢-الوطواط

كان محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي الأنصاري الكتبي، المعروف بالوطواط (توفي ٧١٨هـ / ١٣١٨م) مقتنعًا بكروية الأرض والسماء وكل الأجرام السماوية، وقد استقى براهينه من العلماء السابقين. فقد ركّز على مثالي تأخر رؤية الخسوف بين الراصد المشرق والمغربي، واختلاف منظر النجوم المرصودة في المكان نفسه[٧٩].

(٢/٧) ٣-شيخ الربوة

أقرّ الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة (توفي ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م) بأن الأرض كروية فهي " كروية الشكل بالكلية، مضرّسة بالجزئية من جهة الجبال البارزة والوهدات الغائرة، ولا يخرجها ذلك من الكروية"[٨٠]. وأثر الخوارزمي واضح في طروحاته. ثم أورد أدلة كرويتها حسب ما وصله ممن سبقه[٨١].

(٢/٧) ٤-أبو الفداء

انضم أبو الفداء إسماعيل بن علي أبو الفداء (توفي ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) إلى القائلين بكروية الأرض، وقد ثبت له ذلك " بعدّة أدلّة منها: أن تقدّم طلوع الكواكب، وتقدّم غروبها للمشرقيّين على طلوعها وغروبها للمغربيّين يدلّ على استدارتها شرقا وغربًا، وارتفاع القطب والكواكب الشماليّة وانحطاط الجنوبية للواغلين في الشمال، وارتفاع القطب والكواكب الجنوبية وانحطاط الشمالية للواغلين في الجنوب بحسب وغولهما

وتركّب الاختلافين للسائرين على سمت بين السمتين، وغير ذلك دليل على استدارة جملة باقي الأرض، وأما تضاريسها التي تلزمها من جهة الجبال والأغوار فإنه لا يخرجها عن أصل الاستدارة، ولا نسبة لها محسوسة إلى جملة الأرض، فإنه قد تبرهن في علم الهيئة: أن جبلاً يرتفع نصف فرسخ يكون عند جملة الأرض كخمس سبع عرض شعيرة عند كرة قطرها ذراع"[٨٢].

(٧/٢) ٥-الجغميني

أشار الفلكي محمود بن محمد بن عمر الجغميني (توفي ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م) إشارة مهمة تتعلق بكروية الأشياء عمومًا، وكروية الأرض خصوصًا. وقد استنتج الجغميني أن الأرض كرة كاملة الاستدارة، لكنها مضرّسة بشكل جزئي بسبب الوهاد والجبال، لكن هذا التضريس لا يخرجها من كونها كروية نظرًا لصغر الجبال مهما ارتفعت، فهي لن تكون أكثر من حبة شعير على بيضة[٨٣].

وقد أجرى قاضي زادة الرومي (توفي نحو ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م) حسابًا دقيقًا لفرضية الجغميني ووجد أن نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطر الأرض يعادل نسبة سُبع عرض شعيرة إلى الذراع الذي يحوي على ٢٤ إصبعًا، والإصبع عبارة عن ست شعيرات مضمومة بطونها على بعض، وبالتالي يكون ارتفاع أعظم الجبال –دون أن يحدد اسمه- هو جزء من (١٠٠٨) جزء من قطر الأرض[٨٤].

أما وفق الحساب الحديث، فإننا نعلم أن (قمة إفرست) في جبال الهيملايا هي أعلى قمة على كوكب الأرض والتي يبلغ ارتفاعها ٨٨٤٨ متر، وبقسمته على قطر الأرض 12742000 متر نحصل على الرقم (٠,٠٠٠٦٩٤٣٩)، أي أنها جزء من نحو (١٠٠٠٠) جزء وليس من نحو (١٠٠٠)، ويعود السبب في الاختلاف بين القيم إلى اختلاف تقدير قيمة ارتفاع الجبل وقطر الأرض.

(٧/٢) ٦-ابن فضل الله العمري

أورد ابن فضل الله العمري (توفي ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) أدلة كروية الأرض بشكل مقتضب دون أية إضافة جديدة[٨٥].

(٧/٢) ٧-عضد الدين الإيجي

استفاض عضد الدين الإيجي (توفي ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م) في شرح أدلة كروية الأرض المعروفة سابقًا ومناقشتها، لكن دون أن يضيف أدلة جديدة[٨٦].

(٧/٢) ٨-النويري

أورد محمد بن قاسم النويري (توفي بعد ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م) نقلاً عن محمد بن زكريا القزويني قوله: " قال صاحب عجائب البلدان[٨٧]: زعم كثير من الفلاسفة وأهل العلم بالهندسة أن البحر الأعظم يحيط بالأرض من جميع جهاتها لأسرارٍ ذكروها، وذلك أن الشكل الذي يُنسب إلى العنصر المائي السيال الجوهر وهو شكل ذو ثمان قواعد مثلثات متساوية الأضلاع قائمة الزوايا، ويسمى كعبًا وهو شكل الأرض على رأي أفلاطون وكثير من القدماء وذلك صحيح فجرم الماء ومقداره أعظم من جرم الأرض وأكثر كمية على ما تبينوه. وقد نُقِلَ عن بعض المؤرخين أن أحد ملوك الأرض أراد أن يعلم صحة ذلك فأنشأ سفنًا ضخمةً حصينة وشحنها بالرجال والأزواد والماء العذب وأرسلها نحو المشرق والمغرب والشمال والجنوب، فأصابوا جميع أجزاء الأرض، يتصل بعضها ببعض، ووجدوها كلها تتشعب من البحر المحيط"[٨٨].

ويبدو أن هذا الملك المجهول الهوية قد أجرى عملية استكشاف لكروية الأرض عن طريق الرحلات البحرية قبل أن يقوم بها البحارة فرناندو ماجلان (توفي ١٥٢١م) F. de Magallanes بين عامي ١٥١٩م و١٥٢٢م، حيث عاد فريقه بدونه إلى ميناء سان لوكر دي براميدا الذي انطلق منه قبل ثلاث سنوات[٨٩].

ثم أكّد النويري على كروية الأرض الشكل وأن "الحكمة في ذلك أنها لو كانت مسطوحة كلها لا غور بها ولا نشز يحزقها لم يكن نبات وكانت مياه البحر سائلة على وجهها فلم يكن للزرع موضع ولم يكن لها غدران يفضي مياه السيول إليها ولا كانت لها عيون تنبع بالماء أبدًا، لأن مياه العيون لو كانت فيه تخرج دائمًا لفنيت ولصار الماء أبدًا غالبًا على الأرض فكان يهلك الحيوان ولا يكون زرع ولا نبات، فجعل عزّ وجل منها أنجادًا ومنها أغوارًا ومنها أنشازًا ومنها مستوية. أما أنشازها فمنها الجبال الشامخة ومنافعها الظاهرة في قوة تحدّر السيول منها فتنتهي إلى الأرض البعيدة بقوة جريانها ولتقبل الثلوج فتحفظها إلى أن تنقطع مياه الأمطار وتذيبها الشموس فيقوم ما يتحلّب منها مقام الأمطار، ولتكون الآكام والجبال جواهر للماء لتجرب من تحتها ومن شعوبها وأوديتها فتكون منها العيون الغزيرة ليعتصم بها الحيوان وتتخذها مأوى وسكنى، ولتكون مقاطع ومعاقل وحواجز بين الأرضين من غلبة مياه الأمطار، فسبحان المدبر الحكيم"[٩٠].

(٧/٢) ٩-سعد الدين التفتازاني

ناقش سعد الدين مسعود بن فخر الدين عمر بن عبد الله التفتازاني (توفي ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م) في بداية كلامه عن كروية الأرض موقع الأرض من العالم. وقد خلص – بشكلٍ خاطئ-إلى

أن الأرض ساكنة ولا يمكن أن تتحرك حول نفسها. ثم ناقش أدلة كرويتها مثل ظهور الجبل للقادم نحو الشاطئ شيئًا فشيئًا وليس دفعةً واحدة، ودليل التوجه نحو الشمال والخسوف وغيرها. لكن التفتازاني لا يجزم قاطعًا بإمكانية صحة هذه الأدلة، وإنما نتحسس عدم يقينه منها[٩١].

٢/٨-القرن (٩هـ/ ١٥م)

(٢/٨) ١-ابن خلدون

انطلاقًا من ثقة عبد الرحمن بن خلدون (توفي ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) بآراء علماء الطبيعة نراه يُقرّ بكروية الأرض، ويحاول أن يصحح فكرة انتشر الماء على سطحها الخارجي تحديدًا وليس تحتها. قال ابن خلدون: "اعلم أنه تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كروي وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنّبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها، وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح وإنما النحت الطبيعي قلب بالأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها، وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض وإن قيل في شيء منها إنه تحت الأرض فبالإضافة إلى جهة أخرى منه"[٩٢].

(٢/٨) ٢-القلقشندي

اتفق أبو العباس القلقشندي (توفي ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) مع القائلين بكروية الأرض، لكنه أورد ما وصله من أقوال أخرى. وذلك لأنه "تقرر في علم الهيئة أن الأرض كروية الشكل والماء محيط بها من جميع جهاتها إلا ما اقتضته العناية الإلهية من كشف أعلاها لوقوع العمارة فيه؛ وقيل هي مسطحة الشكل؛ وقيل كالترس؛ وقيل كالطبل، والتحقيق الأول وبكل حال فالماء محيط بها من جميع جهاتها كما تقدم"[٩٣].

(٢/٨) ٣-المقريزي

تأرجح رأي أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (توفي ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) بين أن تكون الأرض كروية الأرض وقد لا تكون كروية، ولم يستقر على رأيٍ محدد، لكنه يقرّ بأنها واقفة في مركز العالم[٩٤].

٢/٩-القرن (١٠هـ/ ١٦م)

الواقع لم تزودنا كتب التراجم بأي شيءٍ عن الجغرافي سلامش بن كند غدي الصالحي (كان حيًا بين القرنين ٨-٩هـ/ ١٥-١٤م) سوى أنه صاحب كتاب (البستان في عجائب الأرض والبلدان). وقد طُبعَ كتابه السابق في روما عام ١٥٨٥م، على يد الطباع البندقي بازا، كأول كتاب عربي يطبع في أوربا[٩٥]. لكننا نتوقع أنه من دمشق، فكنية صالحي ربما تعود إلى الصالحية في دمشق، كما أن اسمه "سلاميش" يدل على أنه من عصر المماليك الذي امتد بين (٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م).

وفيما يتعلق بكروية الأرض فإن ابن كند غدي يتفق مع من سبقه بكروتها، ويضيف أنه "قيل لو ثقب بأرض المغرب ثقب لنفذ بالصين"[٩٦]. ونلاحظ من العبارة الأخيرة أنها تذكرنا بما سبق وطرحه المطهر بن طاهر المقدسي من أنّ إحداث نفق أفقي في مدينة فوشنج الأفغانية سيصل بنا إلى الصين، لكن سلامش وضع مسافةً أبعد منها وهي المغرب العربي. إلا أنّ دليل أيًّا منهما لا يؤكد على كروية الأرض، إلا إذا كانا يظنان أن الصين تمثل الطرف الآخر من الكرة الأرضية والمقابل تمامًا لموقع الحفر، بحيث إننا إذا حفرنا النفق بشكل عمودي (وليس أفقي) وصلنا للطرف الآخر، وذلك حسب مبدأ النقائض الذي أشرنا إليه. من ناحيةٍ أخرى فإن تفكير العرب باختصار المسافات بينهم وبين الصين بإحداث أنفاق تحت الأرض بدلاً من سلوك طريق الحرير أمرٌ طريف، وربما غير مسبوق.

٢/١٠-القرن (١١هـ/ ١٧م)

(٢/١٠) ١-ابن داعر

عالج بعض المؤلفين المتأخرين موضوع كروية الأرض أمثال عبد الله بن صلاح بن داود، المعروف باسم ابن داعر (توفي نحو ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م) في كتابه (أسنى المطالب وأنس اللبيب الطالب) معتمدًا على ما ذكره أسلافه من الجغرافيين والفلكيين العرب دون أية إضافة جديدة[٩٧].

(٢/١٠) ٢-بهاء الدين العاملي

أكّد بهاء الدين العاملي (توفي ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م) على كروية الأرض في عدة أماكن من كتبه العلمية. وقد حاول أن يستند فيها إلى الأدلة العقلية والنقلية التي تثبت كروية الأرض[٩٨].

خَاتِمَةٌ

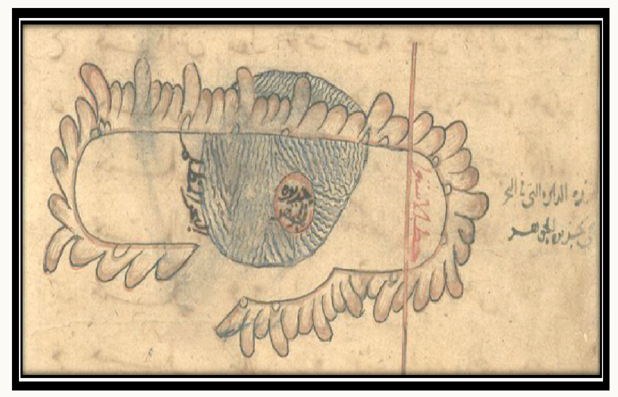
انطلاقًا من قناعتهم بكروية الأرض؛ فقد طوّر العلماء العرب والمسلمين منذ عصر المأمون علم الجيوديزيا باتجاهين[٩٩]: الأول: تحديد مواقع النقاط المتميزة على سطح الأرض. الثاني: تحديد ما يتعلق بشكل الأرض وقياسها، سواء جزئيًا أو كليًا، وبحساب قياس خط نصف النهار. ولخدمة هذا الاتجاه نظّم المأمون بعثات علمية إلى صحاري بلاد الشام لإجراء بعض القياسات المتعلقة بحساب محيط الأرض وقطرها. وهما الاتجاهان اللذان سيكون لهما تأثير كبير في تطوير علم رسم الخرائط العربي، وبالتحديد (الإسقاط الكروي) الذي بلغ ذروته عند البيروني، والذي سينسب لاحقًا إلى ج. ب. نيكولوسي الصقلي (١٦٦٠م) J. B. Nicolosi، ثم سيقوم الإنكليزي أرو سميث (١٧٩٤م) Arrow smith بتبنيه[١٠٠].

نتائج الدراسة

وقد وصلنا –بعد استقراء كافة آراء العلماء العرب والمسلمين في هذا البحث-إلى النتائج الآتية:

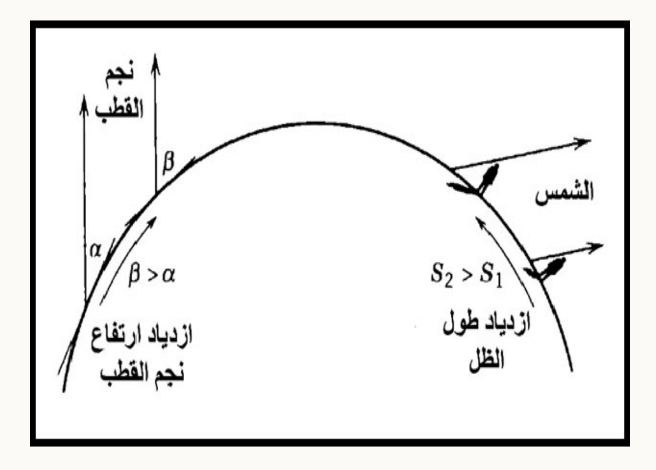
- إن النسبة العظمى من العلماء العرب والمسلمين (الذين ظهروا بين القرنين ٢-١١هـ/ ٨-١٧م)، وعلى اختلاف تخصصاتهم، كانوا مقتنعين بكروية الأرض، وقد قدّموا أدلتهم العلمية وشواهدها الطبيعية على ذلك. بعض هذه الأدلة أُخذت عن اليونانيين وتراثهم المترجم، والبعض الآخر كان مبتكرًا أصيلاً من عندهم، كدليل انهمار الشهب الذي لاحظه الفرغاني، ودليل اختلاف منظر الخسوفات القمرية الذي قدمه الكندي، ودليل تدفق البحر نحو سطح اليابسة الذي قدمه الكرجي.
- ربما كان ثابت بن قرة أول عالم يقدّم لنا نظرية يحاول من خلالها تفسير آلية نشوء تكور الأرض، وليس أدلة كرويتها. مستنتجًا أن الجاذبية هي التي تسببت تكوّرها حول نفسها عند تشكلها. وهي نظرية –باعتقادنا-مفصلية في تاريخ العلم تسبق النظريات الأوربية بأكثر من ٩٠٠ سنة.
- اقتراح محمد بن أحمد الخوارزمي أن التضاريس المنتشرة على سطح الكرة لا تؤثر على كرويتها.
- أشار الشيخ المفيد إلى ضرورة وجود حدود للكرة الأرضية، وهي الفكرة التي سبق فيها ما سُمّي فيما بعد (نقش فلاماريون) في القرن ١٩م. ونقترح أن يُسمى نقش (الشيخ المفيد-فلاماريون).
- ذكر محمد بن زكريا القزويني نقلاً عن بعض المؤرخين قيام أحد الملوك (لم يحدد من هو من أي بلد) برحلة حول الأرض للكشف عن كرويتها قبل أن يقوم بذلك البحار فرناندو ماجلان وفريقه بين عامي ١٥١٩م-١٥٢٢م[١٠١].
- إن دليل حفر نفق تحت الأرض الذي قدمه المقدسي وابن كندغدي، يشير إلى تفكير العرب بمحاولة الاستفادة من كروية الأرض واختصار المسافات بين الدول، وهي إشارة غير مسبوقة.

الملاحق



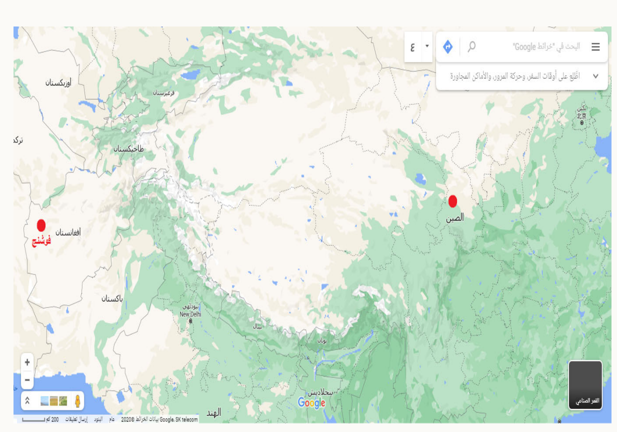
شكل رقم (١)

هيئة الأرض كما رسمها الخوارزمي في كتابه (صورة الأرض). حيث تحيط البحار باليابسة المدوّرة في الوسط[١٠٢].



شكل رقم (٢)

من الأدلة التي أوردها الفرغاني على كروية الأرض أنه عند السفر نحو الشمال فإن طول ظل الشخص الواقف تحت أشعة الشمس يزداد. ولكن إذا سافر الشخص نحو الشرق أو الغرب فإن نجم القطب سيبقى كما هو على الارتفاع نفسه، لكن لو سافر نحو الشمال فإنه يصبح أكثر أو الجنوب فإنه يصبح أقل[١٠٣].



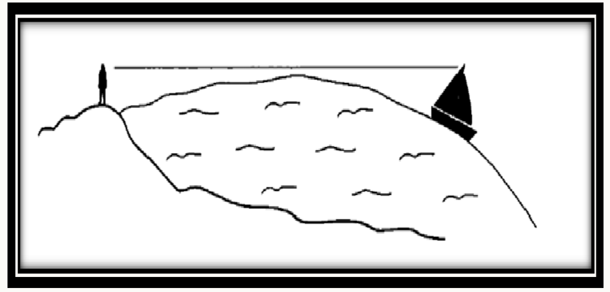
خريطة رقم (١)

بالنظر إلى خريطة غوغل لموقعي الصين ومدينة فوشنج نجد أن ما قصده ابن طاهر المقدسي هو الحفر الأفقي (نفق)، لأن الصين لا تقابل فوشنج على الطرف المقابل للأرض (نقيض)، وإنما هي دولة مجاورة لها[١٠٤].



صورة رقم (١)

صورة ملونة من نقش فلاماريون والتي نقترح أن تُسمى نقش (الشيخ المفيد-فلاماريون) وهي تظهر محاولة رجل أن يلمس السماء بيده ويصل لحافة الأرض المسطحة ويستكشف ما وراء الأفق. وهي الفكرة التي سبق وأن ناقشها الشيخ المفيد قبل ٩٠٠ سنة[١٠٥].



شكل رقم (٣)

أعاد ابن سينا حجة أرسطو في اختفاء السفينة بعد خط الأفق عندما ينظر إليه مراقب من الشاطئ وهي تبحر مبتعدةً عنه[١٠٦].



شكل رقم (٤)

لقد قال الإدريسي بأن هيئة الأرض كروية، على قول من سبقه من العلماء؛ لكن الخريطة التي وضعها تشير إلى أمرين: الأول وجود تغيّر في اتجاهات الأماكن، فالشمال الذي نعرفه حاليًا في خرائطنا هو الجنوب في خريطة الإدريسي، والجنوب في خرائطنا هو الشمال لكنه نبّه على ذلك كتابةً. أمر آخر نلاحظه هو وضعه لحدود جبلية ومن ثم يحيط باليابسة البحر المحيط، وهذا يعني تقارب الخريطة مع الأرض المسطحة أكثر منه مع الأرض الكروية[١٠٧].

الاحالات المرجعية:

(١) **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، ط٣، ج٧، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣م، ص١١٢.

(٢) **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب**، داوود الأنطاكي، ج١، المكتبة الثقافية، بيروت، ص ٢٣٣، ٢٣٣.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٧٧.

(٤) **سورة الزمر**، الآية ٥.

(٥) **الأرض والشمس في منظور الفكر الإسلامي**، عبد الغني الراجحي، وزارة الأوقاف، دراسات في الإسلام، العدد ٢٣٩، السنة العشرون، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٥٥-٥٦.

(٦) **الجغرافية عند العرب**، شاكر خصباك، ضمن موسوعة الحضارة الإسلامية، ج١، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٤٥٩.

(٧) **تاريخ العلم**، جورج سارتون، ترجمة: لفيف من العلماء، ج١، ط١، المركز القومي للترجمة، العدد ١٦٣٨، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ١٧٩.

(8) Early Astronomy and Cosmology, C. P. S. Menon, Allen & Unwin, London, 1932, p.131 – 132.

(٩) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان البيروني، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٩٧-٢٠٦.

(١٠) **تاريخ التراث العربي** (علم الفلك حتى نحو ٤٣٠ هـ)، فؤاد سزكين، مجلد٦، ج١، ترجمة: عبد الله عبد الله حجازي، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٨م. ص ١٤٣.

(١١) **اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية**، أغناطيوس برصوم، مطبعة السلامة، حمص، ١٩٤٣م، ص١٦٥.

(١٢) فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي** (علم الفلك حتى نحو ٤٣٠ هـ)، مجلد٦، ج١، ص ١٥٧.

(١٣) بول كراوس، **مختار رسائل جابر بن حيان**، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٣٥م. ص ٣٣.

(١٤) فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي** (علم الفلك حتى نحو ٤٣٠ هـ)، مجلد٦، ج١، ص ١٧٦.

(١٥) الخوارزمي، محمد بن موسى، **كتاب صورة الأرض**، تحقيق: هانس فون مزيك، دار ومكتبة بيبلون، جبيل، ٢٠٠٩م.

(١٦) **كتاب الفرغاني في الحركات السماوية وجوامع علم النجوم**، أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني، بتفسير الشيخ الفاضل يعقوب غوليوس، ص ١١-١٢. وانظر أيضًا: فردي، جان بيار، تاريخ علم الفلك القديم والكلاسيكي، ط١، ترجمة: ريما بركات، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ٩٢.

Muhammedis Fil. Ketiri Ferganensis, qui vulgo Alfraganus dicitur, Elementa astronomica, Arabicè & Latinè. Cum notis ad res exoticas sive Orientales, quae in iis occurrunt, Amsterdam 1669.

(١٧) **الفهرست**، محمد بن النديم، ط٢، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٣١٦.

(١٨) **المسالك والممالك**، عبيد الله بن أحمد بن خرداذبة، دار صادر أفست ليدن، بيروت، ١٨٨٩م، ص ٤. وقد تكرر هذا النص عند ابن الفقيه أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمذاني، لكنه لم يشر إلى البكري، وإنما قال: "وذكر بعض الفلاسفة"، انظر: البلدان، ط١، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٦٠.

(١٩) **المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات**، فخر الدين الرازي، ط٢، ج٢، منشورات بيدار، قم، ١٩٩٠م، ص ٦٣-٦٤.
(٢٠) رسالة في ذكر الأفلاك وخلقها وعدد حركاتها ومقدار مسيرها، ثابت بن قرة، ضمن مجموع مخطوط، مكتبة آيا صوفيا، رقم (٤٨٣٢)، ص ٥٠و.
(٢١) فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي** (علم الفلك حتى نحو ٤٣٠ هـ)، مجلد٦، ج١، ص ٢٣٦.
(٢٢) **تاريخ علماء الأندلس**، عبد الله بن محمد بن الفرضي، ج٢، ط٢، عُني بنشره؛ وصححه؛ ووقف على طبعه: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م، ص١٢٦.
(٢٣) فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي** (علم الفلك حتى نحو ٤٣٠ هـ)، مجلد٦، ج١، ص ٢٢٠.
(٢٤) **الأعلاق النفيسة**، أحمد بن عمر بن رسته، ج٧، طبع بمطبعة بريل، ١٨٩١م، ص ٨-١٣، ٢٢.
(٢٥) منعًا لأي التباس بين الجبائيان، فقد وضعنا بجوار اسم أبي علي كلمة (الأب)، وبجوار اسم أبي هاشم الجبائي كلمة (الابن)، في كل المواضع التي يرد فيها اسمهما.
(٢٦) **المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين**، أبو رشيد النيسابوري، تحقيق: معن زيادة ورضوان السيد، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٠٠.
(٢٧) **سورة النازعات**، الآية: ٣٠.
(٢٨) **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، أحمد ابن أبي أصيبعة، تحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٤٢٢.
(٢٩) شوقي، جلال، **أبو بكر الرازي وبحوثه في العلم الطبيعي**، مجلة عالم الفكر، المجلد ١٤، العدد ٢، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٨٣م، ص ٥٠٨.
(٣٠) **الفهرست**، ابن النديم، ص ٣٦٣.
(٣١) **المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين**، أبو رشيد النيسابوري، ص ١٠٠.
(٣٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٠٠.
(٣٣) **صفة جزيرة العرب**، ابن الحائك الهمداني، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٤م، ص ٣-٤.
(٣٤) **الفلسفة الطبيعية والإلهية عند الفارابي**، زينب عفيفي، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص ١٩٩.
(٣٥) **البلدان**، أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمذاني ابن الفقيه، ط١، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٤٣٤-٤٣٥.
(٣٦) **التنبيه والأشراف**، أبو الحسن المسعودي، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، (د. ت)، ص ٢٤-٢٦.
(٣٧) **تاريخ الفلاسفة**، طاليس المليطي، ترجمة: السيد عبد الله حسين، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٧٥-٧٦.
(٣٨) **البدء والتاريخ**، المطهر بن طاهر المقدسي، ج٢، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ص ٣٩-٤٠.
(٣٩) **صورة الأرض**، محمد ابن حوقل، ج٢، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨م، ص ٥٢٦-٥٢٧.
(٤٠) **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، مؤلف مجهول، تحقيق وترجمة: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٢.
(٤١) **المدخل إلى علم النجوم وأحكامه**، عبد الرحمن الصوفي، مخطوطة مكتبة بيازيد باستنبول، رقم (٩٠٤٨)، ص ٥و.
(٤٢) المرجع السابق نفسه، ص ٦ظ.
(٤٣) فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي** (علم الفلك حتى نحو ٤٣٠ هـ)، مجلد٦، ج١، ص ٢٧٥.
(٤٤) ما شرحه القبيصي من كتاب الفصول للفرغاني، عبد العزيز القبيصي، مخطوطة ضمن مجموع مكتبة آيا صوفيا، باستنبول، رقم (٤٨٣٢)، ص ٦ظ.
(٤٥) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، شمس الدين المقدسي البشاري، ط٣، مكتبة مدبولي القاهرة، ١٩٩١م، ص ٥٨-٥٩.
(٤٦) **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، أحمد بن علي المقريزي، ط١، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٩.
(٤٧) **رسائل إخوان الصفا**، إخوان الصفا، ج٢، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ١٦٠-١٦١.
(٤٨) **إنباط المياه الخفية**، أبو بكر الكرجي، ط١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٩٤٠م، ص ٨-٩.
(٤٩) **أوائل المقالات**، محمَّد بن محمَّد بن النعمان الشيخ المفيد، ط١، تحقيق: الشيخ إبراهيم الأنصاري، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم، ١٩٩٢م، ص ٩٩.
(٥٠) المرجع السابق نفسه، ص ١٣٢-١٣٣.
(٥١) **نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد**، مارتن مكدمورت، ط١، تعريب: علي هاشم، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ١٩٩٢م، ص ٢٨٤.
(52) L'atmosphère: météorologie populaire, Camille Flammarion, Paris, Hachette, 1888, p. 163.
(٥٣) **قول في هيئة العالم**، الحسن ابن الهيثم، مخطوطة موجودة ضمن مجموع في المكتبة البريطانية، رقم (IO Islamic 1270)، ص ١٠١ظ.
(٥٤) **تعليقات الشيخ الرئيس**، أبو علي ابن سينا، رسالة ضمن مجموع رسائل، مكتبة جامعة برنستون، (ELS. رقم ٣٠٨)، ص ١٨٧ظ.
(55) The Exact Sciences in Antiquity, O. Neugebauer, 2nd ed, Dover Publications, New York, 1969, p. 153.
(٥٦) **الشفاء الطبيعيات**، أبو علي ابن سينا، ط٢، تحقيق: محمود قاسم، مكتبة سماحة آية الله العظمى المرعشي النجفي الكبرى، قم، ٢٠١٢م، ص ٢٠.
(٥٧) **تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن**، أبو الريحان البيروني، تحقيق: ب. بولجاكوف، نشرها معهد المخطوطات العربية في مجلته، المجلد ٨، ١٩٦٢م، وقد أعاد معهد المخطوطات العربية بجامعة فرانكفورت بإعادة نشرها ضمن سلسلة الجغرافيا الإسلامية المجلد ٢٥، ١٩٩٢م. ص ٥٦.
(٥٨) **القانون المسعودي**، أبو الريحان البيروني، ج١، ط١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن بالهند، ١٩٥٤م، ص ٣٠-٣٧.
(٥٩) **تاريخ علم الفلك عند العرب**، إبراهيم إمام أحمد، المكتبة الثقافية-٢٥، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٠٢-١٠٣.
(٦٠) **المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين**، أبو رشيد النيسابوري، ص ١٠٠-١٠١.
(٦١) المرجع السابق نفسه، ص ١٠١-١٠٢.
(٦٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٠٣-١٠٤.
(٦٣) **كنز الفوائد**، محمد بن علي الكراجكي، ج٢، تحقيق: عبد الله نعمة، دار الذخائر، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ١٠٢-١٠٤.
(٦٤) **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، علي بن أحمد ابن حزم

الأندلسي، ج٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت)، ص ٧٨-٨٤.

(٦٥) ورد في **كشف الظنون**: "التبصرة في الهيئة وهو من الكتب المتوسطة فيه. لخصه من كتابه، المسمى: (بمنتهى الإدراك). أوله: (الحمد لله حق حمده ... الخ). ألفه: لأبي الحسين: علي بن نصير الدين الوزير. ذكر فيه: أنه اقتدى بابن الهيثم، في تقسيم الأفلاك بالأكر المجسمة، دون الاقتصار على الدوائر المتوهمة، كما هو دأب أكثر المتقدمين. وقسمه قسمين: قسم في: الأفلاك. وقسم في: الأرض. وذكر في الأول (١/ ٣٣٩): اثنين وعشرين بابا. وفي الثاني: أربعة عشر بابا. ثم شرحه: أحمد بن عثمان بن صبيح. المتوفى: سنة أربع وأربعين وسبعمائة". **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي حاجي خليفة، ج١، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م، ص ٣٣٨.

(٦٦) **التبصرة في الهيئة**، محمد بن أحمد الخرقي، مخطوطة موجودة في مكتبة ويلكم، لندن، رقم (WMS Arabic 290)، ص ٣ظ.

(٦٧) **كتاب الجغرافية**، محمد بن أبي بكر الزهري الغرناطي، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)، ص ٤-٥.

(٦٨) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، محمد الإدريسي، ج١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، ص ٧.

(٦٩) جمع قدْر وهو يعبّر عن تفاوت لمعان النجوم بالنسبة لراصد لها من الأرض.

(٧٠) **ابن طفيل**، مصطفى غالب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١م، ص ٥٤.

(٧١) **تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون**، عمر فروخ، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٦٣٥.

(٧٢) **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، ج١، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ص ١٧-١٨، ٢٣.

(٧٣) **العرب والكرة الأرضية**، محب الدين الخطيب، مجلة الزهراء، مجلد ٤، ج ١-٢، ربيع الأول-ربيع الثاني، ١٩٢٧م، ص ٧٧.

(٧٤) **كتاب الهيئة**، مؤيد الدين العرضي، تحقيق: جورج صليبا، ط٢، سلسلة تاريخ العلوم عند العرب (٢)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٣١، ٣٨-٤٠.

(٧٥) **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، تحقيق: محمد بن يوسف القاضي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١٤٢-١٤٣.

(٧٦) **الجديد في الحكمة**، سعد بن منصور ابن كمونة، تحقيق: حميد مرعيد الكبيسي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٢م، ص ٣٥٥-٣٥١.

(٧٧) **كتاب الجغرافيا**، عليّ بن موسى بن سعيد المغربي، تحقيق: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٧٩.

(٧٨) **نهاية الإدراك في دراية الأفلاك**، قطب الدين الشيرازي، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين، رقم (Petermann I 674)، ص ١٣و-١٥ظ.

(٧٩) **المختار من مباهج الفكر ومناهج العبر في إبراز ودائع الصور من إحراز بدائع الفطر**، محمد بن إبراهيم الوطواط، مخطوطة مكتبة السليمانية في إستانبول، رقم (٧٨٨)، ص ١١ظ-١٢ظ.

(٨٠) **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، شمس الدين شيخ الربوة، اعتنى بطبعه ونشره: م. فرين، ثم أغطس مهرن، بطرسبورغ، ١٨٦٥م، ص ٩.

(٨١) المرجع السابق نفسه، ص ٩-١٠.

(٨٢) **تقويم البلدان**، عماد الدين إسماعيل بن علي أبو الفداء، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٦.

(٨٣) **الملخص في الهيئة**، محمود الجغميني، مخطوطة موجودة في مكتبة الكونغرس، واشنطن، رقم (QB225)، ص ٢و.

(٨٤) **شرح الملخص في الهيئة**، قاضي زاده رومي، مخطوطة موجودة في المكتبة السليمانية، إستانبول، رقم (٣٥٣)، ص ٨و-٨ظ.

(٨٥) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ابن فضل الله العمري، ج١، ط١، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م، ص ١٢١.

(٨٦) **كتاب المواقف**، عضد الدين الإيجي، ط١، ج٢، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٤٧٨-٤٨٠.

(٨٧) يقصد محمد بن زكريا القزويني.

(٨٨) **كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية**، محمد بن قاسم النويري، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٩٧٠م، ص ٩١.

(٨٩) **علم الفلك: تاريخه عند العرب في القرون الوسطى**، كرلو نلينو، ط٢، أوراق شرقية، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٢٦٦.

(٩٠) كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، محمد بن قاسم النويري، ص ٩٢.

(٩١) **شرح المقاصد في علم الكلام، سعد الدين التفتازاني**، ج٣، ط٢، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٨٥-١٨٨.

(٩٢) **المقدمة**، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، ط١، ج٢، توزيع دار يعرب، دمشق، ٢٠٠٤م، ص ١٤٠.

(٩٣) **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، أحمد بن علي القلقشندي، ج٣، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٢٢٨.

(٩٤) **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، أحمد بن علي المقريزي، ط١، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٩.

(٩٥) **لمحة تاريخية سريعة حول تحقيق التراث ونشره وإسهام إيران في ذلك**، عبد الجبار الرفاعي، مجلة تراثنا، العدد ٣٥-٣٦، السنة التاسعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، قم، ص ٢٠٥.

(٩٦) **البستان في عجائب الأرض والبلدان**، سلامش بن كندغدي، مخطوطة المكتبة الوطنية في باريس، رقم (Arabe 2212)، ص ٢و-٢ظ.

(٩٧) **أسنى المطالب وأنس اللبيب الطالب**، عبد الله بن داعر، مخطوطة مكتبة نور عثمانية بإستانبول، رقم (٢٩٨٦)، ص ٣و-٤و.

(٩٨) **هذه حديقة الهلالية من حديقة الصالحين**، بهاء الدين العاملي، مخطوطة محفوظة في مكتبة لا له لي بإستانبول، رقم (٢١٢٦)، ص ٧١ظ -٧٣ظ.

(٩٩) **العلوم الرياضية المتعلقة بكوكب الأرض**، رشدي راشد، علوم الأرض في المخطوطات الإسلامية، أبحاث المؤتمر الخامس لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٤-٢٥ نوفمبر، ١٩٩٩م،

تحرير: إبراهيم شبوح، لندن، ٢٠٠٥م، ص ٢٧.

(١٠٠) المرجع السابق نفسه، ص ٣١.

(١٠١) **الجغرافية الفلكية**، شفيق عبد الرحمن علي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ١٥٤.

(١٠٢) مصدر الصورة: الخوارزمي، محمد بن موسى، كتاب صورة الأرض، مخطوطة المكتبة الوطنية في باريس، رقم (Arabe 2185)، ١١ظ.

(١٠٣) مصدر الصورة والتعليق:

Introduction to Geodesy: the history and concepts of modern geodesy, James R. Smith, John Wiley & Sons, New York, 1997, p. 4.

(١٠٤) مصدر الخريطة:

https://www.google.com/maps/@34.2682502,89.375011,5z

(١٠٥) مصدر الصورة

https://en.wikipedia.org/wiki/File:Flammarion_Colored.jpg

(١٠٦) مصدر الصورة والتعليق:

Introduction to Geodesy: the history and concepts of modern geodesy, James R. Smith, p. 4.

(١٠٧) مصدر الصورة: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، محمد الإدريسي، مخطوطة محفوظة في مكتبة بودليان، رقم (MS. Pococke 375)، ص ١-٢.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الإعَاقَة في تَاريخ المَغربِ
مِن خِلال متون الونْشَرِيسيِ



د. عمر لمغيبشي

أستاذ التاريخ والحضارة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بن مسيك

جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يتطرق هذا المقال إلى موضوع الإعاقة في تاريخ المغرب من خلال أهم متون الونشريسي، وقد حاولنا من خلاله استنباط أهم ما تضمنته (أي المتون) من أحكام تُغَطّي الكثير من المعطيات والقضايا المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتطوّر العقل الجمعي، وبذهنية الغرب الإسلامي في علاقتهما بأوضاع "أهل الأعذار" (المعاقين أو ذوي الاحتياجات الخاصة)، وحقوقهم خلال فترة مهمة من تاريخ المغرب، وهي الفترة الممتدة ما بين القرن الثالث والتاسع الهجري/ والتاسع والخامس عشر الميلادي. تطرقنا في البداية إلى أهمية المتون النوازلية والفقهية، ومفهوم الإعاقة وتطوره، ولم ننس بطبيعة الحال تقديم شخصية الونشريسي؛ ثم استعرضنا بعدها مختلف الحالات التي تضمنتها كتابات الونشريسي وقمنا بتصنيفها. وبما أن الموضوع يتعلق بدراسة الذهنيات، فقد ختمنا بحثنا هذا بالحديث عن وضعية المعاق خلال الفترة المدروسة بين الإدماج والتهميش. وقد توصلت الدراسة إلى أهمية ما تحتويه متون الونشريسي من معلومات بالغة الأهمية مقارنة مع ما أُلّف في المجال الفقهي طوال فترة العصر الوسيط، إذ يتبيّن لنا بجلاء بعد تَتَبُّعنا لمعظم المصنّفات، سواء المعاصرة لابن رشد أو التي أُلّفت بعده، مدى القيمة العلمية التي تكتنفها متونه في رصد أهل الأعذار ومختلف مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية. وهذا ما يجعل متون الونشريسي من بين أهم مصادر الكتابة التاريخية لمعرفة أحوال الفئات المهمشة من المجتمع.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٢	أكتوبر	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٣١	أكتوبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الإعاقة؛ النوازل؛ الفتاوى؛ تاريخ الذهنيات؛ تاريخ المغرب؛ الونشريسي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.259160

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عمر لمغيبشي، "الإعاقة في تاريخ المَغربِ مِن خِلال متون الونْشَرِيسيِ".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ١٠٧ – ١٢١.

Corresponding author: omarlam1976@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يهُزُّ الكتابة التاريخية اليوم ما يشبه الثّورة الكوبرنيكية، بحيث لا يمكن انطلاقًا من المركز أن ننظر إلى مجتمع بأكمله. لأجل هذا، فنحن في حاجة ماسّة إلى البحث في زوايا متعددة تكشف عن الموضوع انطلاقًا من هوامشه أو من الخارج[١]. وعلى الرغم مما كُتب مؤخّرا من مواضيع حول تاريخ العقليات-الذهنيات، والمهمّشين والهشاشة في تاريخ المغرب، إلا أن موضوع الإعاقة لم يحظ بنفس الاهتمام، وذلك بسبب عدّة عوامل، لعل أهمّها استمرارية هيمنة براديغم الحدث التاريخي الرسمي[٢]. لذلك ظلّت عدة شرائح من المجتمع المغربي تعيش في الظلّ، سواء بسبب وضعها الاجتماعي أو الاقتصادي أو الصحّي، من أهمها فئة المعاقين. ولحسن الحظ إن هناك مصنّفات ومَظانّ جاءت لتعيد نوعًا من الاعتبار لذوي الإعاقة، ولتُغطّي بياضات ظلت تعتور الكتابة السياسية-الرسمية، فلولاها لظلت جوانب مهمة من واقع هذه الفئة مجهولة، ولبقيت في شبه العدم. وتعتبر المتون الفقهية، خاصة متون الونشريسي من أهم المصادر التي تعرضت لهذا الموضوع. فما المقصود بالإعاقة؟ وما هي الإعاقات التي تضمّنتها متون الونشريسي ومجالاتها؟ وكيف كان يُنظر إلى هذه الفئة الاجتماعية؟ وهل تم إدماجهم أو تهميشهم؟

أولاً: الإعاقة بين المفهوم اللغوي والمتون الفقهية

لا غرو إن الدراسات المتعلقة بموضوع الإعاقة قد قطعت مؤخرا أشواطا كبيرة في الدول الغربية، لكنها ظلّت في المقابل ضعيفة في الدول العربية. وقد دعا الاهتمام بتجديد مفهوم الوثيقة التاريخية إلى الانفتاح والتوسّع أكثر على مصادر بديلة تعرف بالمصادر الدّفِينة أو الغَمِيسة، وذلك بغرض إزالة العَتمة عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، خاصةً مع كتب الفتاوى والنّوازل الفقهية[٣]. وغَنيّ عن البيان مدى الأهمّية التي اضطلعت بها المصنّفات النّوازلية والفقهيّة منذ بداية القرن التاسع الميلادي، نظرًا لما تضمّنته من أجوبة وأحكام اعتبرت مصدرا لا محيد عنه، بالنّظر إلى ما تزخر به من مادة تاريخية وفقهية غنية ومتنوعة، سمحت بالكشف عن الكثير من القضايا الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع[٤]. ويرجع ذلك بالأساس إلى كونها حَوَت على تفاصيل اجتماعية وتشريعية دقيقة خلال فترات كان التّاريخ الرّسمي مهيمنا فيها[٥]، هذا بالإضافة إلى كون فلسفتها كانت قائمة على سَدّ الثغرات، وتقويم الاعوجاج الحاصل جرّاء تراكم المشكلات (الحلال والحرام)؛ فظهرت مصنّفات كثيرة، مثل نوازل ابن سهل، وفتاوى ابن رشد، ونوازل القاضي عياض، ونوازل ابن الحاج الشهيد.

١/١-حول مفهوم الإعاقة

من المعلوم إن مفهوم الإعاقة لم يَتشكّل تاريخيًا إلا في السنوات الأخيرة، ولذلك فإن الحديث عن هذا الموضوع يصطدم منهجيا بالمفهوم وتطوره في الكتابات الفقهية. فلا مناص إذا من التذكير بأن مفاهيم أخرى كثيرة تدخل ضمن الإعاقة أو تُبيِّن بعضا منها وأنواعها، اعتبارا لدرجة الإصابة بها، من قبيل العَيب، والعَجْز، والزَّمَانة؛ بالإضافة إلى مفاهيم أخرى ارتبطت في العصر الوسيط بذوي الإعاقة الذين نعتوا بأهل الأعذار والمبخُوسين، وأحيانًا بالمنقوصين وغير الأسوياء، والمرفوع عنهم القلم. وهذا التعدّد يتماهى مع تعدّد أنواع الإعاقة والمعاقين، وكذلك مع تعدّد التصنيفات والمفاهيم المرتبطة بها[٦].

ولئن كانت المعاجم العربية تُعرّف الإعاقة على أنها منع شيء أو شخص وتأخيره وتثبيطه [أعاقَ يُعيق، أَعِقْ، إعاقةً، فهو مُعيق، والمفعول مُعاق]، و[أعاقه عن إنجاز عمله منعه منه، وشغله عنه، وأخّره وثبّطه]، و[أعاقه المرضُ عن المشي، وتعمّد إعاقتَهم عن ممارسة حقوقهم][٧]؛ فإنها لا تخرج في المجمل عن المعنى الذي أُلحق بها عند مقارنتها مع ما ورد في المتون الفقهية، خاصة فقه النوازل. وبصفة عامة، فإن هذا الترابط تُزكّيه التعاريف الحالية، فالإعاقة (disability) بالإنجليزية، و(handicap) بالفرنسية، و(discapacidad) بالإسبانية، وهي كلها تحيل على العجز. ويبدو إن التعريف الذي قدّمه القريطي جامع مانع من الناحية النظرية لأنه لا يرُكّز فقط على المفهوم الطبي، بقدر ما يرُكز على الفرد في علاقته بالوضع الاجتماعي. يقول: (الإعاقة فقدان أو تهميش أو محدودية المشاركة في فعاليات وأنشطة وخبرات الحياة الاجتماعية عند مستوى مماثل للعاديين، وذلك نتيجة العقبات والموانع الاجتماعية والبيئية)[٨]. لكن، ورغم واقعية هذا التعريف إلا أنه لا يلامس في المجمل واقع العصر الوسيط، وما تَرسّخ من قناعات دينية وتَمثّلات اجتماعية وطبّية وأنتروبولوجية، تأثرت تارة بالموروث الديني والثقافي، وتطبعت ببيئة معينة وبحمولة عقائدية (أحاديث واجتهادات فقهية) وأثرت في الذهنية الجماعية طورًا آخر. وعليه، فإن المقصود بالإعاقة هو وجود خَلَل جُزئي أو كُلّي يُصيب أعضاء وحواس ووظائف الجسم، يفقد على إثره صاحبها القدرة على أداء وظائف تعتبر طبيعية، سواء أكان

ذلك بسبب خِلقي (غالبًا ينشأ منذ الولادة)، أو نتيجة حادث عارض أو مرض، أو بسبب تقدّم في السن أو مشاركة في الحرب.

١/٢-التعريف بالونشريسي

ولد أحمد بن يحي الونشريسي، المعروف بأبي العباس الونشريسي سنة ١٤٣٠م. عاش في البداية في تلمسان، لكنه فر منها إلى فاس في عام ١٤٦٩م بسبب ما تعرض له من مضايقات من طرف سلطانها[9]، فاستقر فيها وأصبح فقيها ومحدثا. عُرف هذا العالم الفقيه بمكانته العلمية والفقهية، واشتهر بكتابه "المِعيار" الذي يعتبر من أهم المصادر الفقهية في المذهب المالكي المعتمَدة في الغرب الإسلامي لقرون متوالية، لما حوته مجلداته الاثني عشر من فتاوى ونوازل مهمة[10]. وعلى الرغم من أهمية كتاب "المعيار"، فقد ترك لنا هذا العالم كتبا أخرى لا تقل أهمية عن الذي سبق، ككتاب "الأسئلة والأجوبة": وهي أسئلة بعثها الونشريسي إلى شيخه أبي عبد الله القوري بفاس، و"إيضاح المسالك"، و"المنهج الفائق"، و"عدة البروق"، و"الولايات"؛ وهي كتب يقف فيها الباحث على الكثير من الأمور المرتبطة بالحياة السياسية والاجتماعية خلال العصر الوسيط، وهو ما يمنحها قيمة إضافية، تتمثل في معرفة العقلية السائدة آنذاك، والاطلاع على أوضاع المجتمع وشؤونه العامة، وواقعه المعيوش.

ثانيًا: أنواع الإعاقة ووضعية المعاقين من خلال مُتُون الونشريسي

إن التركيز على الفترة الإسلامية هو، في واقع الأمر، تركيز على الفرد وليس على موطنه أو نوع إعاقته، وهذا بالضبط ما مَيّز الموقف الإسلامي عن باقي المواقف التي تبنتها المجتمعات الأخرى، متجاوزا بذلك النظرة السلبية التي قامت عليها الثقافات التي كانت سائدة في العصر الوسيط، والتي نظرت إلى المعاقين كمعتوهين ومعدومين، مما أدى إلى عزلهم وتهميشهم، بل ورميهم أحيانًا بأقذر الألقاب. ورغم ما تثيره متون الونشريسي من عُسْر منهجي في ميدان البحث التاريخي، بسبب صعوبات فهم بعض المفاهيم والمصطلحات الفقهية، وعدم القدرة أحيانا على تتبع بعض النصوص التي تتعقد صياغتها لاختلاف التخصص (أصول الفقه)، وهيمنة الصبغة القانونية على أحكامها، وعدم تنصيصها على مجال وزمان وقوعها، فإن الحاجة إلى استقراء ما جاء فيها يُعدّ شرطا لمعرفة الأوضاع العامة للمجتمع المغربي.

وعلى العموم، فإن هذه المتون تحبل بمعطيات تهم الإعاقة بكل أشكالها وأنواعها: الإعاقة العقلية (باعتبار العقل مناط التكليف والعمل)، والإعاقة البدنية والحسية (وهما الأكثر حضورًا)، وأنواع أخرى تتعلق بعيوب وأمراض لأشخاص انطبقت أو طُبّقت عليهم فتاوى وأحكام مشابهة، وصُنّفوا في خانة ذوي الأعذار كالمجذومين والسّفهاء، والمصروعين وكبار السن، وأحيانًا المصابين بالبرص والمهَق.

٢/١-أنواع الإعاقة والعيوب عند الونشريسي

إن الاهتمام بسلامة الحواس والأعضاء أمر واجب بحكم الشرع، حتى وإن تعلق الأمر بالحاكم (الخليفة الأمير أو الأمير)، وذلك لشدة ما يترتب عن انتفائها من عواقب وأحكام[11]. وقد تناثرت المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع بين ثنايا متون الونشريسي، لكنها في الحقيقة لا تعطينا حدودا زمنية ولا مكانية عن النوازل والفتاوى التي استشكلت عند الفقهاء، ومفتو تلك الفترة. لذلك يجب الاعتراف منذ البداية بأنه يصعب تحديد مكان العديد منها وزمان وقوعها، وبالتالي فإن إيرادها بالشكل الذي اهتدينا إليه لا يمثل حصرًا المجتمع المغربي. عِلاوة على ذلك، فإن هذه النوازل والفتاوى لا تُفْرد تفاصيلاً واضحة ومفصلة عن المعاق ووضعيته، بشكل يسمح بالاطلاع على حيثيات الأمور، وإنما هي حالات تم تضمينها في هذه المتون، شأنها شأن باقي التفاصيل التي جاء بها فقهاء العصر الوسيط. وعلى ذلك، فإن التصنيف الذي نعتمده في هذه الدراسة هو تصنيف ثنائي: إعاقة جسدية (بدنية-حسية-جنسية)، وإعاقة عقلية، اعتبارًا لكون ما ورد في هذه المتون لا يُركّز على باقي الإعاقات الأخرى في تصنيفاتها الحديثة، ونقصد بذلك الإعاقة النفسية والذهنية؛ وإنما يُركّز على الإعاقات المانعة، وغير المانعة لمجالات احتكاك الفرد وعلاقته بالمجتمع[12].

(٢/١) ١-الإعاقة الجسدية (الحركية والجنسية)

شَكّلت السلامة الجسدية أولوية الحضور البشري ومبتغاه، ولهذا فإن وجود عيْب أو خَلل أو مرض يصيب الإنسان كان يجعله عُرضة للتواكل والتبعية والحاجة إلى مُعين، بسبب عدم قدرة "أهل الأعذار" ممارسة حياتهم بشكل طبيعي؛ وهذا ما كانت تَتَرتّب عنه أحكام، اختلفت باختلاف نوع الإعاقة وخطورتها. وتضمنت متون الونشريسي عدة أنواع من العيوب الجسدية (الحَركية منها والحسية)، بالإضافة إلى حالات أخرى هَمَّت ما يمكن أن نُطلق عليه "الإعاقة الجنسية" لأنها كانت تمنع صاحبها من التمتع بحقوقه. كما تعرضت هذه المتون

للفئات الاجتماعية من ذوي الإعاقات ووضعهم (فقراء-أغنياء/أحرار-عبيد)، وجنسهم (نساء-رجال)، وعمرهم (صغار-كبار-شيوخ)، ومهنهم أحيانا (أئمة-موثقين-فلاحين)، وبيّنت بشكل عرضي سبب الإصابة (وراثية-تقدم في السن-سبب طارئ). وعلى كل حال، فالإعاقات الجسدية الواردة في نصوص الونشريسي هي عموما عبارة عن عيوب إما حركية، مثل الشّلَل والعرَج وعدم القدرة على الاستواء؛ أو حسية مثل العمى والعوَر، والصّمَم والبَكَم؛ أو جنسية.

سنبدأ أولاً بالإعاقة الحركية التي عرفت بكثرة تفاصيلها[١٣]، حيث وردت في المعيار حالات لإعاقات تتعلق بالشّلل، والإشْلال، والقطْع، والجَبّ، والعَرَج، والحَدَب، وعدم الاستواء. ومن ذلك على سبيل المثال أجاز الفقهاء إمامة إمام رغم إصابة يده اليمنى ما دام يعتمد على يده اليسرى ويتمكن بها من وضوئه وطهارته[١٤]؛ وأجازوا أيضا الصلاة خلف إمام أعرج، وشيخ منحني انكسرت إحدى رجليه فبرئت على قصر فيها وهو يعتمد على الرجْل القصيرة، وجعلوا الحكم "بأن ذلك يتوقف على قدرته على الوقوف والقيام"[١٥]. كما وردت نازلة أخرى تتعلق برجل مُشَلّل لا يستطيع الانتقال إلى المسجد لصلاة الجمعة بسبب إعاقته، وتضمن الجواب إسقاط حضور الجمعة عنه، ما لم تتوفر له الظروف المساعدة (مركوب أو مُعين على ركوبه وحفظه). وهناك نازلتان تذهبان في نفس الاتجاه، وتتعلقان بإمامة من لا يستطيع الاستواء، وطروء عجز على الإمام أثناء الصلاة؛ ونازلة أخرى تتعلق بالصلاة خلف إمام لا تُرضي حالته[١٦]. وهذه النوازل -على قلتها-تؤكد حرص الفقهاء على التطبيق الحرفي للأحكام الفقهية، من خلال إجازتهم إمامة المعاق جزئيا إذا كانت إعاقته هاته لا تمنعه من مزاولة عمله على الوجه المطلوب، وتُبيّن في الوقت نفسه مدى حرصهم على العناية بشؤون الإمامة وحقوق من أصيب وهو يمارسها، خاصة بسبب التقدم في السن.

وعلى العموم، فإن الإعاقة المرتبطة بحركة الأطراف التي وردت في "المعيار" مثلا قد همّت بشكل خاص مجال الإمامة، والصلاة، وبيوع العبيد (انظر الملحق). وبما أن الإمامة هي ولاية مدنية ودينية في آن واحد، أي أنها مسئولية ملقاة على عاتق حائزها، فقد حدّد العلماء شروطا لتقلّدها بما يلزم من أجل النهوض بأعباء المنصب دون أن يكون هناك تقصير أو عجز. وهذه الشروط هي: البلوغ، والحرية، والذكورة، وسلامة الحواس والأعضاء[١٧]. إضافة إلى ذلك، فقد وردت عَرَضا في المعيار نوازل تتعلق بأداء الدية بسبب إحداث إعاقة (عجز)، منها نازلة (من اجتمع عليه جماعة فانفصل عنهم ويده مقطوعة)، فكان الحكم على الجماعة بأداء الدية[١٨]. أما كتاب "المنهج الفائق" فقد تَضمّن عددًا لا يستهان به من القضايا والمسائل الفقهية التي ارتبطت بالإعاقة البدنية في علاقتها بشروط الموثّق. وإذا كان هذا الكتاب قد اهتم بشكل أكبر بقضايا التوثيق والموثّقين، إلا أنه -في المقابل-أفرد فصلاً مهما حول مسألة البراءة من العيوب التي يجب التأكُّد منها عند اختيار الموثّقين، ومن ذلك مثلاً أن يكون الموثّق متمتّعًا بصحّة العقل، وصحّة البدن وسلامته، إضافة إلى حالة إعاقة تتعلق بزواج المقعد[١٩]. والأمر نفسه ينسحب على شروط صحة الولاية، حيث ذكر الونشريسي في كتاب "الولايات ومناصب الحكومة" أن من بين شروط ولاية الخلافة والإمامة العظمى سلامة الحواس والأعضاء من نقص يمنع استواء الحركة[٢٠]. وكذلك الحال مع الديات، فالواجب في دية اليدين إذا كانت الأخرى مقطوعة أو أشلاء نصف الدية[٢١]، وفي القصاص أيضا، حيث جاء في كتاب "إيضاح المسالك" ما يُرتَّب على المعتدي من جزاءات في حالة حدوث جروح وعاهات: (إذا قطع أشل اليمين يمين رجل له العقل ولا قصاص له، وإذا قطع رجل ويمينه مقطوعة الكف أو ثلاث أصابع منها أنه مخير في القصاص أو أخذ العقل، لأن اليد الشلاء كالميت لا يقتص منه وليس (فيه) حق للمقطوع يده، وأما الذي قطعت أصابعه وكفه فبقي ساعده (هو) نقص حق المقطوعة يده، فإن شاء أخذه، فلذلك افترقا)[٢٢].

وقد تأثرت مؤسسة الأسرة أيضا بحالات الإعاقة الحركية، من قَبيل إقرار المرأة في مرضها لزوجها أنه نافذ عليها[٢٣]، ووجود عيوب حركية وجنسية تستوجب معاودة عقد الزواج. وكذلك في حالة الحضانة، إذ لا ترد (المرأة إذا وجدت عمياء أو عوراء، أو قطعاء (...) أو شلاّء (....) إلا أن يشترط السلامة)[٢٤]. أما الحضانة فتسقط (بأربعة أشياء (...) العمى والصَّمَم والقعد، والخَرس مثل ذلك)[٢٥]. بالإضافة إلى ذلك، فقد تعرضت متون الونشريسي لعيوب الرقيق، وهو موضوع استأثر بأحكام وفتاوى واجتهادات فقهاء العصر الوسيط، حيث هيمنت العيوب والإعاقات الحركية عليها، أهمها الإعاقة الناتجة عن البتر في الأطراف، والشّلل، والحدْب، والعَجَرَة، والبَجَرَة[٢٦]. وكان التنصيص على نوع إعاقة الرقيق، خاصة الحركية منها، وظروف حدوثها، ودرجة تأثيرها عليهم بسبب ما كان يترتب عن ذلك من أحكام عند وضع التشريعات وإبرام العقود أمرا ضروريا وإلزاميا في نفس الوقت، نظرا لما كان لهذه الاعتبارات من أهمية في العتق، ومثال ذلك ما ورد في نازلة تهم امرأة تقدمت بسؤال في

مملوكة عقدت لها عتقا قبل وفاتها بشهرين، وشرطت فيه إن تعوّقت أو أبقت أو تخلّفت فلا عتق لها ثم أرادت بيعها، فكان الجواب أن (لها رد العتق وبيعها إذا كان تعوّقها قبل إيجاب الخدمة، فإن ثبت تعوّقها انتظر شهر كامل وهي صحيحة فيكون بيعها وإن ماتت قبل الشهر أو مرضت مرض الموت أعتقت من رأس المال ولا رد إلاّ أن تعوّقها كان في زمن الحرية بدليل وجوب كراء خدمتها زمن الشهرين)[٢٧].

وبسبب ما استوجبته ضرورة مراعاة خصوصيات المعوَّقين عند وضع التشريعات وإبرام العقود، فقد فُرض على الفقهاء تخصيص هذه الفئة ما يمكن نعته بعقود المعوّقين: وهي وثائق تنص على طبيعة الإعاقة، وما يترتب عنها في المعاملات والعلاقات الاجتماعية[٢٨]. ولذلك تضمّنت العديد من المعاملات شرط السلامة الجسدية في صدقة المريض وفي عقود البيع بين المتعاقدين تفاديا لأي تدليس. وهذا ما يتضح بشكل أكبر من الأحكام المتعلقة بفقه بيع المريض، إذ إنّ (مراعاة فعل المريض في ماله يوم البيع لا يوم الحكم؛ فإن كان فيه محاباة، رُوعي في ذلك ثلث ماله، ثم إن حالت أسواق المبيع بعد ذلك في أيام النظر لم يضر ذلك، وكذلك إن زادته، ولو اختلفت الحال في المحاباة نُظر في ذلك إلى الأقل، فجُعل الثلث فيه. وإن كان مرضه من الأمراض المزمنة؛ مثل (...) الإقعاد، كان فعله في ماله في رأس المال)[٢٩]. أكثر من ذلك، فقد تضمنت متون الونشريسي إشارات إلى أسباب الإعاقة البدنية، منها نازلة تتعلق بمن (كدم أصبع رجل فقطعه، فاشتدَّ عليه الأمر وانتفخت يده وتساقط لحمها وظهر العظم، ورآه الطبيب فأمر بالقطع، فأذن له فقطع يده فمات)[٣٠].

ولذلك تشدّد الفقهاء في التعامل مع نوازل تتعلق بأشخاص أحدثوا إعاقات، منها نازلة (لا تقبل شهادة من شارك في عراك نتج عنه جرح وموت)[٣١]؛ كما تضمنت نوازل وأحكام تتعلق بالعيوب التي اعتبرت إعاقات جنسية[٣٢]، كنازلة (المرأة إذا كان في فرجها عيْب ينظرها النساء)[٣٣]، فإن تأكد ذلك جاز طلاقها. وكذلك الحال إذا ما ادعت المرأة أن زوجها عَنين، لأن دعوة العُنَّة تسري إلى الطلاق[٣٤]. وكانت القاعدة العامة بخصوص شروط النكاح وقيامه أنه يُمنع على من كان به مرض مخيف[٣٥].

والطريف أن هذه الكتب ميزت بين العيوب الجنسية للحُرّ عن العبد والأمَة، مع أن الاثنين يوجبان الطلاق من مدّعيه، فالعيوب الجنسية التي يرد بها العبد هي: (الإفضا، والخصى، وزعر الفرج، وبياض الشعر، وصغر القبل جدا، والزنى (...) وتخنث العبد، وفحولة الأمة إن اشتهرت، وقلف الذكر والأنثى، وختن مجلوبهما (...))[٣٦]. وعلى ذلك "فإذا علمت المرأة بعيب زوجها المرجو ذهابه بعلاج لها، وإذا اشتُري عبد بعيب مشكوك زواله لا رد له بعدم زواله، لأن عيب الزوج أشق لعجزها عن فراقه، ومبتاع العبد قادر على فراقه"[٣٧].

(١/٢) ٢-الإعاقة الحسية

إن الإعاقات الحِسّية التي تهم وجود عيوب على مستوى الحواس الخمس ثلاث أنواع: الإعاقة البصرية، والإعاقة السمعية والنطقية.

الإعاقة البصرية:

اهتم الفقهاء بحاسة البصر أكثر مقارنة مع باقي الحواس، وقد زكى ذلك ما كتبه أبو معاذ فيفي حول بعض الأحكام المتعلقة بالكفيف؛ سواء من الناحية الفقهية، أو النفسية، أو الاجتماعية، أو التربوية[٣٨]. والملاحظ من خلال استقراء ما كتب حول الموضوع أن عيوب البصر تعددت بتعدد أمراض العين وتاريخ إصابتها أو إصابة العينين معا، فهناك الأكْمه (المولود الأعمى)، والأعمى، والأعور، والأعشى، والأحْول.

واختلفت أسباب الإعاقة البصرية بين أسباب خِلقية، وأخرى طارئة لسبب (حادث-تقدم في السن-كثرة العبادة-قتال...)، ووردت العديد من النوازل والأحكام التي تَعرّضت لأشخاص اشتكوا من الإعاقة البصرية أو من عيب أفقدهم البصر، منها نازلة تتعلق بإمام أعمى كان ينحرف عن القبلة، وكان الجواب أن مجرد العمى غير قادح في إمامة الأعمى، ولكنه إذا كان لا يضبط نفسه على الانحراف أُخّر عن الإمامة. لكن هذه الإعاقة إذا اقترنت بعيوب أخرى كعدم التحكم في الجسم وقبيله (الانحراف عن القبلة وعدم الشعور بالنجاسة)، فإن هذا الحق يسقط عنه، ويخَلَّف عن إمامة الصلاة[٣٩].

وهناك نازلتان أخريتان تتعلقان بصدقة أب على ولده وهو طاعن في السن ذاهب بصره، وصدقة أب أعمى على ولديه بجنتين وهما في حجره، ثم أنكر الصدقة وهو يستغلها[٤٠]. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإعاقة البصرية لم تكن تمنع من ممارسة العديد من الأمور، كالإمامة من الصلاة ونحوه لوجود العديد من الأشخاص الذين كانوا يُنعتون بالبصير أو الكفيف أو الضرير، ممن تقلدوا مناصب رفيعة رغم إعاقتهم البصرية، كالقاضي عيسى بن معاوية الإشبيلي الضرير الذي وُلي القضاء في عهد المنصور بن أبي عامر (القرن١٠-١١م)، وأبو عمران موسى بن سليمان الكفيف الذي كان مقرّبا من الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي، لدرجة أن الخليفة زوّجه من ابنته زينب؛

وكـان أيضـا يسـتخلفه عـلى مـراكش إذا خـرج منهـا إلى حـين أوبته[41].

ولئن كانت الإعاقة البصرية تمنع صاحبها من ولاية الخلافة والإمامة العظمى (إذ لا تنعقد الولاية ولا تُستدام إلا ومعها عشرة، منها سلامة حاسة البصر من العمى لأن عدمها يوجب العزل)[42]، فإن المقصود بهذه الإعاقة الأعمى وليس الأعور أو الأحـول، ذلـك أن المصادر التاريخيـة تشـير إلى أن الأمـير عبـد الرحمان بن معاوية (القرن ٨م) مثلا كان أعورًا بسبب تعرض إحدى عينيه لإصابة أثناء خروجه من الشرق في اتجاه الأندلس هـربا مـن بطـش العباسـيين، وكـذلك الحـال مـع حفيـده الأمـير هشـام بـن عبـد الرحمـان بـن معاويـة الـذي كـان أحْـولا[43]. وممـا يُستشـفّ مـن الأجوبـة والأحكـام المرتبطـة بالإعاقـة البصـرية ونحوها، مدى التركيز على عدد من المعطيات المقترنة بالبصر، وما يحدث لها من آفات تتغيّر أحكامها بتغيّر أنواع العيوب التي تصـيبها. وبهـذا التـدقيق، كـان للفقهـاء مجـال لإصـدار أحكـام تتناسب مع حجم الإعاقة البصرية، وهو ما توضّحه المفاهيم المرتبطـة بهـذه الإعاقـة، فالـذي لا يبصـر أصـلاً فهـو أعمـى، والضـعيف البصـر يسـمى أعشـى[44]. كمـا شـددت المتـون المدروسـة عـلى العيـوب البصـرية الـتي توجـب الـرد في الرقيـق، وذكرت منها: (بياض العين (...) والفتل في العينين أو إحداهما، وهو ميل أحد الحدقة للأخرى في نظرها)[45].

ومـن نافلـة القـول إن الونشريسـي في فـروق الجراحـات والديات كان حريصا على ما يترتب من أحكام جراء إحداث المس بالسلامة البصرية التي لا ترقى إلى مستوى الإعاقة كإحداث عور، وبَيَّن موقف مالك من الدية في عين الأعور بأنها دية كاملة عـلى عكـس ديـة اليـد المقطوعـة أو الشَـلاّء الـتي تكـون ديتهـا النصف، وعَلّل ذلك بأن (المنفعة توجد بإحدى العينين كوجودها بالجميع، فإذا أتلف عليه منفعتها فكأنه أتلف منفعة كاملة توجد بالعينين، فوجبت الدية كاملة، لأن المنفعة كاملة وليس كذلك اليدان لأن المنفعة لا توجد بأحدهما كوجودهما)[46]. كما تَعرّض إلى الدية المترتبة في حالة بياض العين وسقوطها عند زوالها (أي زوال بياض العين) برد الدية قبل سنة أو بعدها[47]، وإلى ديـة العـين الدّامعـة الـتي لا تنتظـر انقضـاء السـنة، وينتظـر انقضاؤها بالعين المنْخسفة لأن انخسافها، كما جاء عنده، جرح لا بد من برْئه فينتظر ذلك، وأما العين الدامعة فتبقى على حالها تدمع دائمًا[48].

ورغم أن الونشريسي لم يتحدث عن سبب تشافي العين مـن البيـاض (في الحالـة الأولى)، إلا أنـه بالرجـوع إلى حـالات مشـابهة نجـد أن المـرضى بالعيـون كـانوا يلجـؤون إلى الطـب والرقيـة عـلى يـد الأولياء في حالـة اليـأس، كحالـة أحـد المغاربـة الذي أصيبت ابنته ببياض في عينها، فأنفق عليها أموالا كثيرة لكـن دون طائـل، إلى أن لجـأ إلى ولي بالقـيروان فقـام برقْيتهـا، فاستعادت بصرها[49]. إضافة إلى ذلك، فقد وردت إشارات تهم أسباب الإعاقـة البصـرية، منهـا مـا جـاء في نازلـة تتعلـق بفَـلاَّقِ الحطب تطير منه شظية فتفقأ عين إنسان[50]، وما عرف من عقوبات تمس العيون، مثل عقوبة سَمْلها، وخير مثال على ذلك الحادثة المعروفة التي حدثت للشاعر الأندلسي عمر أبو المخشي الذي سمّلت عيناه بسبب هجائه للأمير هشام بن عبد الرحمان بن معاوية، حيث عَرَّض به أبو المخشي في قصيدة مدح بها أخ الأمـير أبا أيـوب سـليمان بـن عبـد الرحمـان المعـروف بالشـامي، وكان بين الأخوين تباعد مفرط، والبيت قوله:

وليس كمن إذا سيل عرفا
يقلّب مقلة فيها اعورار[51].

وحرص الفقه على إدراج الإعاقة البصرية ضمن الأمراض المزمنة إذا ما تعلق الأمر ببعض المعاملات الاقتصادية، إذ لا تجوز مثلا معاملة الأعمى الناطق السميع الذي ولد أعمى في البيـع والابتيـاع منـه لجعلـه بالمبيـع، والعكـس صـحيح في حالـة معاملة الأعمى بعد أن كان بصيرا، واعتبر هذا البيع كبيع الشيء الغائب[52]. واعتبر العبد الأعمى بقائم العينين لأنه لا يبصر بهما، وهو –كما سبق وقلنا- عيب من العيوب التي يُردّ بها العبد[53]. وعلى النقيض من ذلك، كانت شهادة الأعمى مقبولة إذا ما اسـتعمل لغـة الإشـارة، وفُهِـم مُـراده[54]، وكـان الكفيـف مـن الفقراء والفئات المهمّشة، يسترزق بهذه الإعاقة ويعيش بها، فكـان مـنهم الشـحّات، والمتسـوّل، وقـارئ القـرآن ومرتّلـه في المقابر وبعض المناسبات الدينية والاجتماعية، كحفلات الختان والعقيقـة والحـداد، عمـلا بمـا راج مـن قـول لـيس للعميـان إلا القرآن[55].

الإعاقة السّمعية والنّطقية:

لطالما اقترنت إعاقة الصّمَم بإعاقة الخَرَس، ولذلك فإن الإعاقتين معا غالبا ما كانتا تصيبان الشخص أو يولد بهما. ومع ذلك، فإن بعض المصابين بها كان يعاني من الصّمم دون أن يكون أبكما، وكان أغلبهم من المتقدمين في السن. وقد عدَّد الونشريسي حالات الصّمم والخَرس والطّرش (ثقل السمع)،

منها الأصَم الأصْلخ، والمتلعثم، والمصاب بالتمتمة، والكنّ، واللّثْغ، وصاحب الصوت الجهوري الذي إن تكلم أو صاح أخاف الأطفال، وهذا ما جاء في العيوب التي يُردّ بها العبيد(٥٦). ومن ذلك مثلاً، حالة امرأة بكماء غاب عنها زوجها سبع سنين وخاف عليها أهلها، فأرادوا تطليقها فأُمر بتحليفها، فكان الجواب [أن طلاق الأخرس تلزمه فقط الإشارة أو الكتابة أو أي وسيلة للإثبات]، وهو ما أكدت عليه نازلة أخرى بالقول: (إذا عُلم مراد الأبكم بإشارة أو قرائن واضحة حكم له وعليه)(٥٧). ونتيجة لذلك تم التنصيص على قبول شهادة الأخرس باستعمال الإشارة(٥٨).

وعلى النقيض من ذلك، نصّ الشرع على ألاّ يكون موثّق العقود أخرسا، إذ اشترط في هذا الأخير أن [يكون متكلما لأن الأخرس لا يتمكّن من استفسار المُملي واستكشافه عمّا أجمل عليه من المعاني، ومراجعته في التقرير على أغراضه وقصده](٥٩). كما نصت العقود النموذجية الخاصة بالعبيد أنه (يجوز بيع الأصم الأبكم وشراؤه إذا فهم عنه الشهود فهما يقطعون بمعرفته بذلك بإشارته؛ فإن كان أبكم أصم أعمى لم يجز شيء من عقوده كلها إلا في المعاملات ولا في المناكحات)(٦٠). والملاحظ أن أحكام الفقهاء ذهبت في اتجاه توفير مترجم وعارف بالإشارة لمساعدة المصابين بهذه الإعاقة، خاصة فيما يتعلق بالأمور الزّوجية والمعاملات، مع ضمان حقوقهم الكاملة. لذا فإن الأبكم لم يكن يعتبر معاقا في نظر الفقهاء، اللهمّ إذا استُثْني شرط المساعدة، أو اقترنت إعاقته بإعاقة أخرى كالعمى على سبيل المثال. واهتمت المتون الفقهية بأحوال الأصم-الأبكم وحماية حقوقه، وهو ما تضمنته نازلة تتعلق بأصم وأبكم ضعيف علق غيره في حائطه بناء بغير إذنه، حيث تصدى الفقهاء لهذا الاستغلال، وأفتوا ببطلان هذا التصرف(٦١).

وتطالعنا مصادر العصر الوسيط بمعلومات إضافية تهم أشخاصا قُطعت ألسنتهم كجزء من القَصاص، فكان طبيعيا حسب ما ورد في المتون الفقهية أن اللّسان إذا قطع ينبت، وربما يعود إلى طبيعته والقيام بوظيفته (الكلام). ولذلك كان الحكم الفقهي في نوازل من قطع لسانه انتظار حَوْل كامل للتأكد إذا ما نبت وتعافى أم لا، كمهلة قانونية قبل إصدار أي قرار أو حكم فقهي أو قضائي. ولعل حالة الشاعر أبي المخشي الذي قطع هشام بن معاوية لسانه بسبب هجائه له أفضل مثال على ذلك، فقد ورد أنه تعافى تدريجيا بعد أن نبت لسانه بعد مرور سنة(٦٢). وبنفس الطريقة، اعتبرت الأُذن التي تطرح في حكم الجراحات والديات قائمة ما لم تزل نهائيا، [فإذا رُدّت في الخطأ فثبتت، لا ديّة فيها؛ لأن الأذن إذا رُدّت استمكنت، وعادت لهيئتها وجرى الدم فيها](٦٣).

(١/٢) ٣-الإعاقة العقلية

تعتبر ظاهرة الإعاقة العقلية من الظواهر المألوفة في كل المجتمعات. وبما أن العقل في الدين الإسلامي هو مناط التكليف، فقد حرص الفقه منذ البداية على الاهتمام بالإعاقة العقلية أكثر من غيرها. ولذلك أدرجت الإعاقة العقلية ضمن الأمراض المزمنة والعيوب المستدامة، نظرا لما يترتب على فقدان العقل من تبعات؛ فإدراك الأشياء من المنظور الفقهي لا يتم فقط بالحواس، وإنما بالعقل الذي يَعْقلها: (فأحد الوجوه التي يدرك بها العلم (...) العقل مع الحواس، حاسة السمع، وحاسة البصر، وحاسة الشم، وحاسة الذوق، وحاسة اللمس، فيدرك بالعقل مع حاسة السمع الكلام وجميع الأصوات والمسموعات. ويدرك بالعقل مع حاسة البصر جميع الأجسام والأعراض والأشخاص والمبصرات. ويدرك بالعقل مع حاسة الشم جميع الروائح المشمومات. ويدرك بالعقل مع حاسة الذوق جميع الطعوم المذوقات. ويدرك بالعقل مع حاسة اللمس جميع الملموسات على اختلافها في اللين والخشونة وما أشبه ذلك)(٦٤).

وقد تضمن المعيار عددًا كبيرًا من النوازل المتعلقة بصحة العقل وعيوبه، مثل الجنون، والعَتَه، وحالة المخبول(٦٥). فعلى سبيل المثال، وردت نازلة تتعلق برجل كبير السن ذاهب البصر يطعن في صحة عقله فهل يجوز الحجر عليه؛ ونازلة شبيهة تتعلق بأحد ادعى على آخر أنه سفيه ومختل العقل بعدما قام المدَّعَى عليه بالتصَدّق بجميع أملاكه(٦٦). وشمل المعيار أيضا حالات ترتبط بحكم المعتوه، أهمها حالة تتعلق بإمكانية "فقيه خالط عقله شيء إعطاء الزكاة لوليه"، فكان الجواب أن الصلاة تسقط عنه إذا فقد عقله، بينما يعطي لوليه الزكاة بقدر ما ينفقه عليه؛ وحالات تهم المخبول، كحالة (مخبول) طلَّق زوجته دون قصد، وأخرى تتعلق بوصية من ضَعُف عقله وقلَّ فهمه والتزامه(٦٧). وهذه الحالات وغيرها كانت تتبع سلوك الأشخاص في ضبط علاقاتهم ومعاملاتهم رَفْعا لكلّ طعن في صحة عقولهم، وفي الوقت نفسه دفعا لكل تعدّ عليهم أو على ممتلكاتهم وحقوقهم.

وتبعًا لذلك، اشترط الفقه في تحمّل المسئولية صِحّة العقل أولا ورجاحته، وسداد الرأي، واعتُبر زوال العقل تأكيد على حجر صاحبه، فإن استمر جنونه في جميع الأوقات كان جنونًا مُطَبَّقًا، وإذا ذهب عقله في وقت وأفاق في وقت آخر كان جنونًا متقطعًا؛

وكذلك الحال مع المعتوه الذي ألحقه الفقهاء بالمجنون (وهو من كان قليل الفهم، مختلط الكلام، فاسد التدبير)، لاضطراب عقله بسبب أصل الخلقة أو لمرض طارئ. كما شدّد الفقه على ما يكتبه الموثّقون (شهد على فلان وفلان بما ينسب إليهما في هذا الكتاب طوعا في صحة عقولهما وجواز أمرهما: هل يكون ترشيدًا لهما؟)[٦٨]. وامتدت شروط العقل لتشمل الشهود[٦٩] وشروط الولاية العشرة: (الإسلام والبلوغ والعقل والذكورة والحرية والعدالة والعلم وكونه واحدًا وسلامة حاسة السمع والبصر من العمى والصمم وسلامة اللسان من البكم، فالسبعة الأول شرط في صحة الولاية والثلاثة ليست كذلك لكن عدمها يوجب العزل). ونبّه المشرع في الشروط الكمالية للقاضي أن يكون هذا الأخير فَطِنًا حصيف العقل، فإنه بالعقل يسأل؛ ونصّ على إصلاح ذات القاضي، بحيث يتوقّى ما يشينه في دينه ومروءته وعقله أو يحطه من منصبه وهمته. هذا، وقد ورد أنه يجوز تغيير عقود البيع والشراء في أموال الأيتام والغائبين والمجانين التي تكون تحت تصرفات الحكام[٧٠].

وعلى العموم، فقد أثبتت هذه المتون مدى حرص الفقهاء على متابعة حالات أصيبت بعيوب لإصدار أحكام تهم زوال الحكم بزوال العِلّة، أهمها تطليق الزوج بسبب جنون أو جذام أو برص[٧١]، وعدم إلزام نكاح السفيه أو طلاقه، وإسقاط النفقة عن امرأة المجنون قبل البناء[٧٢]، وانتفاء الحق في الوصية مع ضعف العقل والسَّفَه. وارتبطت بصحة العقل حالات أخرى كالإصابة بالصرع، والجُذام، والخَرف، والسَّفه، والشّك في صحّة العقل بنيّة الحَجْر، خاصة فيما يتعلق بأمور الإرث والحقوق العينية، وحالات أخرى شاذّة كمسألة الخوف على ابنة عشر سنين من ذهاب عقلها عند الزواج والدخول[٧٣]. والمهِمّ في هذه المتون أنها مَيّزت بين الصّرع والجنون وما جاورهما من عيوب طارئة[٧٤]، وأَفْردت لكل حالة أحكامها الخاصة بغرض عدم المسّ بالقدرات العقلية للأشخاص وما يمكن أن يطال بعضهم، جراء اتهامات باطلة أو حسابات ضيقة أو انتقامات؛ وهذا يثبت إلى حد كبير مدى شيوع ثقافة الاتهام والإضرار بالغير في مجتمع العصر الوسيط، وتَفشّي ثقافة خلق العيوب كوسيلة للحصول على حقوق وهمية.

(٢/ا) ٤-عيوب أخرى في منزلة الإعاقة

لا تخلو متون الونشريسي من حالات أخرى ارتبطت بالإعاقة لأشخاص منبوذين، سواء بسبب أمراض معدية، مثل الجُذام، والبَرص والصّرع، أو بما ارتبط بتقدّم السن. وقد رأينا أنه من الأجدر إيراد بعضها لارتباطها العضوي بالحالات التي سبق الحديث عنها.

الجذام:

تضمنت المتون الفقهية أحكامًا قاسية بخصوص الجُذام، بسبب سرعة انتقاله وخطورته، فقد ورد في "صحيح البخاري" أن الرسول (ﷺ) قال: (فر من المجذوم فرارك من الأسد). ولهذا تضمن المعيار عدة نوازل همّت الإمام المجذوم[٧٥]، وعقوبة من سُقي سمّا فتجذّم أو اسودّ لونه[٧٦]، وجُذام أحد أبوي العبد كعيب من العيوب التي يُردّ بها العبيد. كما وردت في المعيار واقعة حدثت لرجل [أوصى بحبس على ولده، فلم يكن له عَقِب، وتُوفي وأوصى الفقهاء بردّ الحبس للمجاذم (المجذومين)، واعتبروهم ليسوا قوما بأعيانهم][٧٧].

وبالنظر إلى خطورة مرض الجُذام الذي يأتي في المرتبة الثانية من حيث الخطورة بعد الطاعون، فقد تم نعته بالعِلّة الكبرى من طرف الطبيب ابن زهر، إذ إن من مساوئه أن لحم المريض يبدأ في التساقط عند استفحاله. وكان هذا المرض منتشرا في المغرب، وهو ما يفسر المشاكل التي أحدثها، والتي دفعت البعض إلى مساءلة الفقهاء عن حكم الشرع في مخالطة المجذومين[٧٨]. ومما جاء في هذه المتون أنه إذا كثر عدد المجذومين فيجب أن يُخَصّص لهم موضع للسكن، وأن يُعزلوا عن الناس[٧٩]. ولذلك شدّد الفقهاء على أنه ينبغي لمن كان منهم غنيّا أو له مال يكفيه أن يشتري لنفسه ما يريد ويجد من يُعينه بعيدا عن الناس، وأن يلزم بيته ولا يخرج منه. وأمر بعضهم بإخراج المجذوم من داره وإبعاده عن أهله إن لم يكن له مال، خوفا عليهم وعلى جيرانهم من انتقال العدوى[٨٠]. وتُفيد إحدى النوازل أن بعض القرى المغربية تعرّض أهلها للإصابة بالجذام، وهنا حثّ أهل الفتوى على ألا يخرج الأجذم منها خوفا من نقل العدوى. ومع ذلك، فالنوازل تشير تارة إلى عدم منع المجذومين من حضور المساجد والأماكن العمومية، وألاّ يترك المصابون به عرضة للفناء[٨١]، وتارة أخرى إلى ضرورة منعهم من مورد الماء والاختلاط بالناس، سواء مع أهلهم أو على مستوى تعاملهم التجاري بالأسواق كبيع الثوب[٨٢]. وكانت النتيجة أن ظهرت أماكن بعينها تمّ تخصيصها لهؤلاء المجانين والحمقى والمصابين بأمراض شبيهة، فنشأت إثر ذلك دار الجذماء أو المجذمة، والمارستان، وبحيرة المجذومين، ودار الفرج، وحارة المجذومين أو حارة الجذماء لاستيعاب هذه الحالات والتخفيف عنها.

الشيخوخة والإعاقة:

علـى الـرغم ممـا كتـب عـن تـاريخ المتقـدّمين في السّـن والشّيخوخة وما ارتبط بهما، إلا أنه للأسف ليست هناك أبحاث تحاول دراسة تقدّم السّن في علاقته بالإعاقة. وقد تنبّه بعضهم (منهم هنري جاك ستيك) إلى هذا المعطى المهم والحاسم[٨٣]. ولذلك نـرى أنـه مـن اللاّزم التعـرّض لـبعض ممـا جـاء في متـون الونشريسي بخصوص التقاطعات بين موضوع الإعاقة وتقدّم السّن، بسبب ما نصّت عليه النصوص الدينية من أحكام تجعل الشيوخ وكبار السّن يحظون بتعامل مُتفرِّد.

وتجدر الإشارة إلى أن الطّاعن في السّـن قـد اقـترن بالعجْـز، فهو عجوز لفظا واصطلاحا، أي إن به عجزا تداركه بسبب تقدّم العمـر. وعـلى ذلـك، فالمقصـود بالعجـوز (وجمعهـا عجـائز وعُجُـز) المتقدّم في السّن والمعمّر[٨٤]. فلا غرابة إذا مـن اقـتران العجـوز بالعجز، وعدم القدرة على شيء كان يقوم به في مرحلة الشباب وحتى الكهولة نتيجة تراجع بنيته الجسدية والحسية، والعقلية أحيانا. وبالتالي فإن التقدّم في السّن يُملي على صاحبه الحاجة إلى مُعين وسند. وقد أجمع الفقهاء على ضرورة تخفيف الأحكام التكليفية عن هذه الفئة كصلاة الجمعة والصّوم. وبطبيعة الحال، فـإن هـذا التخفيـف يـدخل ضـمن الرعايـة الدينيـة للعجـائز[٨٥]. والحقيقة إن متون الونشريسي تَعجُّ بفتاوى وأحكام تهمّ الشيوخ والعجزة، مثل نازلة الحجر على رجل كبير السن ذاهب البصر له ابـن يقـوم بجميـع أمـوره، وإمامـة رجـل لا يقـوى عـلى الاسـتواء بسـبب تقدّمـه في العمـر[٨٦]. ولكـن هـذا لـم يمنـع العديـد مـن الشيوخ من الاستمرارية في عملهم رغم تقدم سنهم وفقدانهم للبصـر، والأمثلـة كثـيرة، منهـا محمـد بـن عبـد الملـك الخـولاني النحوي، ومحمد بن يحي الخزاز، وأبي عبد الله السائح السلاوي[٨٧].

ثالثًا: المعاقون بين الإدماج والتّهميش

أظهرت متون الونشريسي اختلاف أنواع الإعاقة باختلاف العيـوب، وتـأثر أصـحابها بوضـعهم الاجتمـاعي والاقتصـادي والديني. وأبرزت كذلك -وهذا هو المهم-آليات الدفاع عن فئات بعينها مـن المعـاقين، سـواء برفـع التكـاليف عـنهم أو بتوقيـف أحكام جائرة ضدهم أو التنصيص على البراءة في العيوب تزكية لمعاملاتهم. وباستقرائنا لمضامين كتب الونشريسي، فإننا نقف عـلى العلاقـة الجدليـة القائمـة بـين الإعاقـة والتكيّـف الاجتمـاعي للمعـاقين بمجتمـع العصـر الوسيط، اعتمـاد عـلى جدليـة الحـلال والحرام والحقوق والواجبات. ومن ثم، فإن تحليل المنظومة العلائقية بهذا المعنى تساعدنا على معرفة الأسباب الاجتماعية والاقتصـادية والثقافيـة الـتي كانـت وراء الـتزام شرائـح مـن المجتمع بمدارك الفقه وفتاوى الفقهاء من عدمه، وفي نفس الوقت من الاطلاع على الأسباب التي حالت دون تحقيق المشاركة الاجتماعية لبعض الأشخاص في وضعية إعاقة وإشراكهم في الحياة العامة. وهذا بطبيعة الحال يُوضّح مكانة المعـاق في متـون النصـوص الدينيـة وتطـور مفهـوم الإعاقـة، وطبيعة التمثلات الذهنية والمواقف الاجتماعية المتعلقة بمفهوم الإعاقة ووضعية المعاقين، وحدود تـدخّل السلطة لحمايتهم.

وتباينت مظاهر الاندماج والتهميش التي عرفها المعاقون بالمغـرب في العصـر الوسـيط، واختلفـت طبقـات المجتمـع في تعاملها معهم. ويبدو أنه كان هناك مدّا وجَزْرا في التعامل مع هـذه الفئـات بسـبب نـوع الإعاقـة ومـوطن المعـاق ووضـعه الاجتمـاعي والاقتصـادي. ففيمـا يخـص الانـدماج، فقـد تضـمّنت متون الونشريسي ضُروبا من المعاقين الذين اندمجوا في نسيج المجتمع، سواء على المستوى التجاري أو الديني أو الاجتماعي، بحيـث نجـدهم حاضـرين في أشرف المهـن في العصـر الوسـيط: وهـي الإمامـة، مُتمتّعـين بكامـل حقـوقهم في عقـود النكـاح والإرث، يتروّجـون ويُنجبـون. بيـد أن المصاب بالإعاقـة العقليـة كان يعيش على هامش المجتمع، حيث شدّد الفقه على التعامل معه، وضيّق مجال تعاملاته رغم تمتيعه بكامل حقوقه، كجعل نفقاتـه إلى جانـب المـرضى والمجـذومين والعميـان مـن مـداخيل الأوقاف، وتوفير دور لإيواء بعضهم.

وللإشارة، فقد ساهمت عوامل عديدة في إدماج المعاقين، أهمها الطبيعة المساعدة للتعليم التقليدي القائم على الحفظ والسماع، وهـو مـا سـمح لـذوي الإعاقـة البصرية مـن الانـدماج والتفوّق، وانتشار بعض الوسـائل المساعدة لهـم مثل العِصِيّ للعُرْجان، وتـوفير الإشارة للبُكم والصُّـمّ، وإنشـاء مراكـز للإيـواء من طرف السلطة الحاكمة وتحت إشرافها[٨٨]، إضافة إلى انتشار التصـوف وفكر نبذ متاع الدنيا، واعتبار الإعاقة ابتلاء لا بد من قبولـه. وكـان لهـذه الاعتبـارات وغيرهـا الفضـل في علـو شـأن العديد منهم، فباستثناء إعاقة القضاة التي تعتبر مانعة، فإن جُلّ المهن والمهام الأخرى كانت متاحة للعديد من المعاقين. أكثر من ذلك، فقد ساهم توكيل القضاة مهمة حمايتهم والنظر في شؤون أهل الأعذار من تبـوّء العديد منهم منازل مهمة، ولعل خـير دليـل عـلى ذلـك هـو أبي عبـد اللـه محمـد بـن عـلي الأزدي الطـليطلي (١١٠٩م) الـذي كـان أعمـى لكنـه ولي الخطبـة وصـلاة الجمعة بفاس وسبتة إلى أن مات[٨٩]. وهذا ما دفع بعضهم إلى القـول بأن (جماعـة فيهم كـانوا يبلغـون مـع العـرج مـا لا يبلغـه

عامة الأصحاء، ومع العمى يدركون ما لا يدرك أكثر البصراء)[٩٠].

أما التهميش، فلم يسلم منه الكثير، إذ عاش العديد منهم أوضاعًا مأساويةً بسبب غياب دور لإيوائهم، سواء بالمدن أو القرى. وكان أغلب المعاقين، خاصة العَرْجى، والأشِلّاء، والقُطْع، والقُطعان (مقطوعو اليد)، يتسكّعون بين المدن وفي البراري، يقف بعضهم أمام المساجد مُتسوّلا، وبعضهم الآخر ينتظر المساعدة من قريب أو بعيد. أما أصحاب الإعاقة العقلية، فقد قضوا حياتهم محبوسين وتائهين بين المدن والحواضر. وإلى جانب معاناة المجانين، فقد عاشت المرأة المعاقة التي لا نجد لها عند الونشريسي إلا النَّزْر اليسير من المعلومات وضعًا متردّيًا وبائسًا.

إن عدم الإتيان على إفراد أحكام في حق المرأة المعاقة -مع أن الأحكام الفقهية تكون عامة-نابع من تفشي العقلية الذكورية، ولعل التركيز على عيوب الإماء ممن تُرَدّ وعقود الأنكحة يزكي طرحنا هذا. أضف إلى ذلك، إن العيوب الجنسية في علاقتها بالمرأة أخذت حصة الأسد في هذه المتون، حيث ركزت على أحكام وضعية الإماء، فأفاضت بمعطيات تُعَدّد عيوبهم؛ وهذا ما نجده بشكل مكرّر بين جميع متون الفقه المالكي. فلئن كان الإسلام قد حافظ على حقوق العبيد، فإن المعاملات اليومية والواقع أفرز ممارسات كانت بعيدة كل البعد عمّا تضمنته النصوص الدينية؛ وهو ما يعتبر دليلا على تباعد النص مع الواقع، بدليل استمرارية انتشار ظاهرة الخصي التي تعتبر إعاقة جسيمة لأنها تحرم صاحبها من العيش الطبيعي.

وقبل أن نختم هذا الموضوع، لا بد من الإشارة إلى مدى أهمية التفسير الأنثروبولوجي للإعاقة في معرفة كيفية تعاطي شرائح من المجتمع الوسيط مع المعاقين، وهو تفسير يقوم على رفض الإعاقة كمعطى بيولوجي، فغالبا ما نعثر على حالات لممارسات طقوسية يلجأ إليه أهل المعاقين لمداواة ذوات الإعاقة من عائلاتهم وأقاربهم. وفي هذا الصّدد، أشار إدمون دوتي إلى أن الصُّلَحاء الحمقى والبُلَهاء كان يُنظر إليهم رغم تصرفاتهم الغريبة بكثير من الاحترام الشّعبي، وبأن ذلك كان من طرق الولاية لأن المغاربة -حسب قوله-يعتقدون أن فكر الله موجود في العقول الفارغة لهؤلاء المنسيين[٩١].

خاتِمَةٌ

رغم أن التاريخ كتبه الأسوياء، وكُتب بصفة خاصة عن الأسوياء وللأسوياء، إلا أن ذلك لا يعني أنه (أي التاريخ) لم يُنصِف غيرهم، فقد حتّمت طبيعة الحياة وما تقتضيه من معاملات وحقوق متبادلة أن يَشْغل المعاقون حيّزا من صفحاته. ولذلك أصبح من الممكن الآن الحديث عن هذه الفئات المهمّشة من خلال ما يسمى "بالتاريخ المقلوب والمتفجّر".

ومن الإنصاف أن نُشيد في الختام بأهمية ما تحتويه متون الونشريسي من معلومات بالغة الأهمية مقارنة مع ما أُلِّف في المجال الفقهي طوال فترة العصر الوسيط، إذ يتبيّن لنا بجلاء بعد تَتبُّعنا لمعظم المصنّفات، سواء المعاصرة لابن رشد أو التي أُلِّفت بعده، مدى القيمة العلمية التي تكتنفها متونه في رصد أهل الأعذار ومختلف مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية. وهذا ما يجعل متون الونشريسي من بين أهم مصادر الكتابة التاريخية لمعرفة أحوال الفئات المهمشة من المجتمع. وبما أن إعادة كتابة تاريخ المهمَّشين من المعاقين يتطلَّب بالضرورة تقاطع الزوايا والتخصّصات البحثية وتظافرها على الامتداد المكاني والزمني، فإن المتون الفقهية بكل أشكالها وتلاوينها ومذاهبها تستدعي إعادة النظر فيها، والغوص فيما حَوَتْه من مُعطيات ومعلومات وفق سياقاتٍ تاريخيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ مُعيّنةٍ، بشكل يعيد للتاريخ الإسلامي العام رونقه وبريقه.

الملاحق

نمـاذج مـن العيـوب والإعاقـات الـتي تضـمنها كتـاب "المعيار"

نوع الإعاقة	الفتوى-النازلة	المجال	الجزء والصفحة
الحركية	• شلل الإمام • هـل تجـوز الصـلاة عـلى مشـلّل لا يسـتطيع الانتقـال إلى المسجد؟ • إمامة الأعرج والشيخ المنحني • إمامة من لا يستطيع الاستواء • طروء عجز على الإمام أثناء الصلاة • العبد المقطوع الأشل	الإمامة-الصلاة	- ج ١ ص ١٥٤ - ج ١ ص ١٤٠ - ج ١ ص ١٦٧ - ج ٢ ص ١٣٤ - ج ٢ ص ١٣٧ - ج٦ ص ٤٨-٤٩.
الجنون (صحة العقل)	• صدقة السفيه ومختل العقل • صحة عقل رجل كبير السن ذاهب البصر	الصدقة الحَجْر	- ج٩ ص ١٦٦-١٦٧ - ج٩ ص ١٧١
العتاهة	• تعطى لزكاة لمولى المعتوه ولا تعطى لتارك الصلاة	الزكاة	ج١ ص ٣٦٦
الخَبَل	• المخبول الذي يطلق زوجته دون قصد لا يلزمه	الطلاق	ج ٣ ص ٣٢٠
العمى	• الإمام الأعمى • رجل كبير السن ذاهب البصر	الإمامة-الصلاة الحجر	-ج ١ ص ١٥٨ - ج٩ ص ١٧١
الصّمَم والبَكَم	• يمين الأبكم بالإشارة والقرائن الدالة على مراده. • مسألة في أصم وأبكم ضعيف علـق غيره في حائطـه بناء بغير إذنه. • إذا علـم مـراد الأبكـم بإشـارة أو قـرائن واضـحة حكـم لـه وعليه	الشهادة البناء الشهادة	- ج٤ ص ٢٦٧ - ج٩ ص ٥٤ - ج ١٠ص٢٦٧-٢٦٨
الجنسية	• العيـوب الـتي توجـب الـرد في الرقيـق: الرتـق، والإفضـا، والخصى، وزعـر الفـرج، وبيـاض الشـعر، وصـغر القبـل جـدا، والـزنى، والإباق، وولـد الـزنى، والعَفْـل، وتخنُّـث العبـد، وفحولة الأمـة إن اشـتهرت، وقلـف الـذكر والأنـثى، وختـن مجلوبهما.	الرقيق	- ج٦، ص ٤٨-٤٩.

الاحالات المرجعية:

(١) سميث جون كلود، تاريخ المهمشين، ضمن كتاب **التاريخ الجديد**، جاك لوغوف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ص ٤٣٧-٤٣٩.

(٢) بولقطيب الحسين، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص ٧٩-٨٠. بنلمليح عبد الإله، التاريخ الاجتماعي للمغرب الوسيط: أنموذج المهمشين ملاحظات وتساؤلات، **مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي**، عدد خاص مزدوج (٧-٨)، ٢٠٠٩-٢٠١٠، (خمسون سنة من البحث التاريخي في المغرب)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة ربانط المغرب، ص٨٣. بودشيش إبراهيم القادري، **تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة، بيروت، بدون تاريخ، ص٢٨. بودشيش إبراهيم القادري، لماذا غيب تاريخ الفئات الشعبية من تاريخ المغرب الشرقي الوسيط: تساؤلات وتطبيق، ضمن **أعمال ندوة المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر**، كلية الآداب بوجدة، مارس ١٩٨٦م.

(٣) المنوني محمد، **المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث**، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م، ج١، ص ٨.

(٤) بوداود عبيد، كتب نوازل وفتاوى الغرب الإسلامي الوسيط مصدرا للدراسات التاريخية والتشريعات القانونية، ضمن **ندوة التاريخ والقانون، التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة**، أعمال مهداة للأستاذ الدكتور محمود إسماعيل، أيام ٣-٤-٥ نونبر ٢٠٠٩، سلسلة الندوات رقم ٢٢، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بمكناس، ٢٠٠٩، ص ٣١. حجي محمد، **نظرات في النوازل الفقهية**، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط ١٩٩٩م،ج١، ص ١٦٨. مزين محمد، حصيلة استعمال كتب النوازل الفقهية في الكتابة التاريخية المغربية، ضمن ندوة **البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٤، جامعة محمد الخامس، ١٩٨٩، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص ٧٧. مزين محمد، التاريخ المغربي ومشكل المصادر نموذج: النوازل الفقهية، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس**، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، عدد خاص ٢، ١٩٨٥م، دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص ١٠٥.

(٥) بودشيش إبراهيم القادري، **النوازل الفقهية في الأطروحات الجامعية: التوجهات، الإضافات المعرفية والإشكالات المنهجية**، **مجلة عصور الجديدة**، تاريخ الجزائر، جامعة وهران، عدد ١٦-١٧، شتاء- ربيع (أبريل) ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤-٢٠١٥م، ص ٤٦.

(٦) يمكن الرجوع إلى: ابن الجوزي الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمان، **أخبار الحمقى والمغفلين من الفقهاء والمفسرين والرواة والمحدثين والشعراء والمتأدبين والكتاب والمعلمين والتجار والمتسببين وطوائف تتصل للغفلة بسبب متين**، شرحه عبد الأمير مهنّا، دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٠م، ص ١٤-٢٨-٢٩. الجاحظ أبي عثمان عمرو، **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، تحقيق عبد السلام محمد هازون، دار الجبل، بيروت، ١٩٩٠م، ط١، ص ٣١-٣٧. وهما من الكتب المهمة التي فصلت في أسماء المعاقين بدنيا وعقليا، وبينت أحوالهم وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والنفسية.

(٧) الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان ط ٨، ٢٠٠٥م،ج١، ص ٩١٣.

(٨) القريطي عبد المطلب أمين، **سيكولوجية ذوي الاحتياجات الخاصة**، دار الفكر العربي، القاهرة،١٩٩٦ م، ص١٥.

(٩) الحميدي محمد بن أبي نصر فتوح، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، بعناية صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٥٦. التنبكتي أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة، طرابلس، ط١، ١٩٨٩م، ج١-٢، ص ١٣٥. المقري أحمد بن محمد، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق إبراهيم الأبياري ومصطفى السقا وعبد الحفيظ شبلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٢م، ج٣، ص ٣٠٦.

(١٠) تأثر الونشريسي في كتابه المعيار بفتاوى فقهاء الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط، وإفريقية (تونس)، واعتمد بشكل خاص على مكتبة آل الغرديسي بفاس (التي فتحها له تلميذه محمد الغرديس)، وعلى "نوازل البرزلي" للبُرزلي و"الدرر المكنونة في نوازل مازونة" ليحي بن أبي عمران المغيلي، وعلى فتاوى فقهاء تلمسان، خاصة فتاوى شيوخه أبي الفضل قاسم العقباني، وابن مرزوق، وابن رشد الجد، والمازري. توفي رحمه الله بفاس عام (ت٩١٤هـ/ ١٥٠٨م). الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقيا والأندلس والمغرب**، تحت إشراف محمد حجي، بيروت، دار المغرب الإسلامي،١٩٨١م، ج١، ص ٩.

(١١) يقول ابن خلدون: (**وأما سلامة الحواس والأعضاء** من النقص والعُطْلة (يقصد بها فقد الحواس أو تعطيلها)، كالجنون والعمى والصمم والخرس، وما يؤثر فقده من **الأعضاء** في العمل، كفقد اليدين والرجلين والأنثيين فتشرط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه. وإن كان إنما يشين في المنظر فقط كفقد إحدى هذه الأعضاء فشرط السلامة منه شرط كمال ويلحق بفقدان الأعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالأسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاقة فينتقل النظر في حال هذا المستولي فإن جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز قراره وإلا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علته). ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ١٩٩٥م، ج١، ص ٣٣٣. جمال الدين عبد الله محمد، **نظام الدولة في الإسلام**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٠م، ص٣٣١.

(١٢) من الأمور التي يجب التذكير بها أن جرد العيوب التي التصقت بإنسان العصر الوسيط في المغرب والأندلس قد لخصها الونشريسي بشكل مفصل عند حديثه عن العيوب التي يرد بها العبيد. يقول: (العيوب التي توجب الرد في الرقيق: الجنون، والجذام، والبرص، والفالج، والقطْع، والشلل، والعمى، والعور، والصمم ،والخرس، وبياض العين، والحدَب، والجبّ، والرتق، والإفْضَا، والخصى، وزعر الفرج، وبياض الشعر، وصغر القبل جدا، والزنى، والسرقة، والقمل، والإباق، وولد الزنى، والعفل، والبخر، والخيلان في الوجه، والزواج، والعدة، والدين (...) وجذام أحد الأبوين أو الجدين، وتخنث العبد، وفحولة الأمة إن

اشتهرت، وقلف الذكر والأنثى، وختن مجلوبهما، وكي فاحش ينقص (...) وضبط إن نقصت اليمنى على اليسرى (...) والفتل في العينين أو إحداهما، وهو ميل أحد الحدقة للأخرى في نظرها، والميل كون أحد الخدين مائلا عن الآخر للأذن أو اللحي والصدر، وهو أن يكون بوسط الصدر اشراف، والخبط، وهو أثر الجرح، والقرحة بعد البرء إذا خالف لون الجسد، والعجرّة وهي العقدة على ظهر الكف أو غيره من الجسد، والبجرّة، نفخ كالعجرة إلا أنها لينة، والسلعة، وهي نفخ زائد ناتئ متفاحش أثره (...)). الونشريسي، **المعيار**، ج٦، ص ٤٨-٤٩.

(١٣) فصل الجاحظ (ومعه بن الجوزي) أنواع الإعاقات والمعاقين، وذكر: الأعرج، والأشلّ، والأقْطَع (أي المقطوع إحدى اليدين)، والأضخم (الذي اعوج أنفه مائلا إلى أحد جانبي الوجه)، والأفْقَم (الذي خرج أسفل لحيه ودخل أعلاه إلى الخلف)، وصاحب اللّقْوة (الذي اعوج منه الشِّدْق). الجاحظ، **البرصان**، المصدر السابق، ص ٣٦-٣٧.

(١٤) **المعيار**، ج١، ص ١٥٤. وقد اختلف في إمامة الأشل (أي من كانت رجله أو يده يابسة)، والأقطع الذي قطعت أحد أطرافه (رجله أو كفه أو قدمه). وقد رُجّحت رواية ابن نافع عن الإمام مالك التي قال فيها أنه (لا باس بإمامة الأقطع والأشل ولو في الجمعة والأعياد).

(١٥) **المعيار**، ج١، ص ١٦٧. (فأجاب: أما الرجل الذي في إحدى رجليه قصر، فإن كان إذا اعتمد عليها لا يخرجه ذلك عن حد القيام بحيث يسمى في تلك الحالة قائما، فإمامته صحيحة، إلا أنه إذا كان هناك من هو أولى منه فيستحب أن يقدم عليه، وإلا فليبق على إمامته).

(١٦) نفس المصدر، ص ١٤٠ ((شخص) يعينه على الركوب والنزول ويحرس دابته)، ج٢، ص ١٣٤، ج٢، ص ١٣٧، ج١١، ص٢١١.

(١٧) صالح أماني عبد الرحمن، **الشرعية: بين فقه الخلافة وواقعها**، ج٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مصر، ٢٠٠٦م، ص ٧٥٢.

(١٨) **المعيار**،ج٢، ص ٢٩٧.

(١٩) الونشريسي، **المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق**، تحقيق عبد الرحمان بن عبد الرحمان الأطرم، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي الإمارات العربية المتحدة، ط١،٢٠٠٥م، ج ٢، ص ١٨٣، وص ٢١٦، وص ٢١٧، وص ٤١٢.

(٢٠) الونشريسي، **كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية**، نشر وتعليق محمد الأمين بلغيث، مطبعة لافوميك، الجزائر، ١٩٨٥م، ص ٢١ و ص٤٢. وهو كتاب اعتمد فيه بالأساس على كتاب الأحكام السلطانية للماوردي.

(٢١) الونشريسي، **عدة البروق في جمع ما في المذاهب من الجموع والفروق**، دراسة وتحقيق حمزة أبو فارس، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٧٠٦.

(٢٢) الونشريسي، **إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك**، تحقيق أحمد بو طاهر الخطابي، الرباط، ١٩٨٠م، ص ٧١٨.

(٢٣) **المعيار**، ج٩، ص ٤٨٠.

(٢٤) ابن عبد الرفيع، **معين الحكام على القضايا والأحكام، تحقيق محمد بن قاسم بن عياد**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩م، ج١، ص ٢٢٢. بنحمادة، **الإعاقة**، ص ٢٤.

(٢٥) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٢٦) **المعيار**، ج٦، ص٤٨-٤٩. الغرناطي أبو إسحاق، **الوثائق المختصرة**، إعداد مصطفى ناجي، ط١، منشورات مركز إحياء التراث المغربي، الرباط، ١٩٨٨م، ص ٤٨. بنلمليح عبد الإله، **الرق في بلاد المغرب والأندلس**، ط١، الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٤ م، ص٢٩٠-٣٠٠.

(٢٧) **المعيار**، ج٩، ص ٢٠٩.

(٢٨) بنحمادة، **الإعاقة**، المرجع السابق، ص ٢٤. الرجوع إلى هذه الحالات في **المعيار**، ج٥، ص٢٤٣ (بيع المريض بغير محاباة نافذ)، وج٩، ص١٨٦/ج١٠، ص ٢٧٢.

(٢٩) بنحمادة، **الإعاقة**، المرجع السابق، ص ٢٤-٢٥.

(٣٠) **المعيار**، ج٢، ص ٢٩٥.

(٣١) المصدر السابق، ص ٢٧٢.

(٣٢) ومن ذلك ما تضمنته شروط الإمامة التي جعلت من المكروهات: إمامة **الأغلف** (غير المختون)، والمأبون، دفعا للكلام في الإمام، مع أن صلاتهما وإمامتهما صحيحة، فيما **أجازوا إمامة العنين**، وابن الزنا. انظر متن ابن عاشر، مرجع سابق.

(٣٣) المصدر السابق، ج٣، ص١٣٩. البرّزلي أبو القاسم، **فتاوى البرزلي: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، ج٣، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٨٢. وقد حرم عند اختلاف الزوجين في عيوب الفرج نظر النساء إليه ليشهدن بما رأينه من ذلك، لأن النظر إلى الفرج بغير ضرورة حرام. الونشريسي، **عدة البروق**، المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٣٤) البرّزلي، **فتاوى البرزلي**، المصدر السابق، ص ٧٥. (ويجوز الطلاق بسبب (الجنون والجذام والبرص وعيب الفرج مما يخفى). وص ٨٢.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٨١. (ويمنع النكاح في المرض المخوف).

(٣٦) **المعيار**، ج٦، ص ٤٨-٤٩. اعتبر أبيض الأشفار والحاجبين والرأس واللحية من العيوب: الخُشَني، **أخبار الفقهاء والمحدثين**، تحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ومعهد التعاون مع العالم العربي، مدريد،١٩٩١م، ص ١٢٨. وقد كان الجاحظ (ت ٨٦٩م) سباقا للحديث عن الخصي والخصيان في كتابه الحيوان، حيث أقر بتحريم الخِصاء، لكن أوجب -نقلا عن واقع مجتمعه- بيع الخصي وشراؤه، وذهب إلى أنّ هديّة الخصيّ كهديّة الثوب والعطر والدّابة والفاكهة، وأنّ الخصيّ لا يحرم ملكه ولا استخدامه، بل لا يحلّ طرده ونفيه، أما تحريره فجائز. وميّز الجاحظ بين المجبوب والخصي، فالخصي هو الذي بقي عضوه التناسلي دون الخصيتين، أما المجبوب أو الممسوح، فهو الذي بتر ذكره وبقيت خصيتاه (أنثياه). ولذلك فقد كان الخصي يتزوج، على عكس المجبوب. الجاحظ أبي عثمان عمرو، **كتاب الحيوان**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط١، ١٩٦٥م، ج١، ص ١٠٦-١٧٧.

(٣٧) الونشريسي، **عدة البروق**، المرجع السابق، ص ٧٥.

(٣٨) فيفي أبو معاذ موسى بن يحيى الشريف، **المجموع اللفيف في موضوع الكفيف**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م. قام فيفي بتعريف الكفيف، ومكفوف البصر، وأبرز قيمة المكفوفين من خلال حديثه عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه الذي نزلت فيه سورة عبس المعروفة أيضا بسورة الأعمى، وما رواه ابن أم مكتوم من الأحاديث المُسندة. كما تعرض

الكتاب لمواضيع أخرى مهمة كعلاج العمى، ووظائف الأعمى وعلاقاته الاجتماعية، وبعض من طرائف العميان وأشعارهم.

(٣٩) **المعيار**، ج ١، ص ١٥٨. (مجرد العمى غير قادح في إمامة الأعمى، لكنه يحدث له انحراف عن القبلة ولا يشعر به أو تصيبه النجاسة ولا يشعر بها ولا يقدر على التحفظ وضبط نفسه عن الانحراف أُخّر عن الإمامة).

(٤٠) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٧١، وص ٥٢.

(٤١) القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسلك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق محمد بن تاويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط٢، ج٨، ص ٣٠.

(٤٢) الونشريسي، **كتاب الولايات**، ص٢٢ وص ٤٢. للمزيد من التفصيل، انظر: الساير محمد وساجت، **ما تبقى من أدب العميان في الأندلس**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣م.

(٤٣) النبراوي نجلاء سامي، **ذوو الاحتياجات الخاصة بالمغرب والأندلس**، منشورات الألوكة، ٢٠١٥م، ص١٠. ليس هناك إجماع على أن الاثنين كانا يعانيان من إعاقة بصرية (أحدهما أعور والآخر أحول)، فهناك من يرى أن عينيهما كانت بهما نكتة بيضاء ليس إلا. عن الموضوع، انظر: ساجت، **ما تبقى**، المرجع السابق،، ص١٣-١٤.

(٤٤) ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق :محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، مطبعة أكدال، الرباط، ١٩٦٥ م، ص ٧١.

(٤٥) **المعيار**، ج٦، ص ٤٨-٤٩. البرزلي، **فتاوى البرزلي**، المصدر السابق، ج٣، ص٢٩٢.

(٤٦) الونشريسي، **عدة البروق**، المصدر السابق، ص ٧٠٦.

(٤٧) المصدر السابق، ص٧.

(٤٨) الونشريسي، **عدة البروق**، المصدر السابق، ص٧١٦.

(٤٩) **النبراوي، ذوو الاحتياجات**، المرجع السابق، **ص ٨. والحادثة وردت عند: ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص ٢١-٢٢.

(٥٠) **المعيار**، ج٢، ص ٢٩٦.

(٥١) ساجت، **ما تبقى**، المرجع السابق، ص١٤. المراكشي، **الذيل**، المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣. وصار أبو المخشي بعد ذلك يتكلم كلاماً ضعيفاً، وبقي أعمى. وفي ذلك أنشد يقول:

خضعت أم بناتي للعدى ... إن قضى الله قضاء فمضى
ورأت أعمى ضريراً إنما ... مشيه بالأرض لمس بالعصا
فبكت وجداً وقالت قولة... وهي حرى بلغت مني المدى
ففؤادي قرح من قولها: ... ما من الأدواء داء كالعمى
وإذا نال العمى ذا بصر ... كان حياً مثل ميت قد ثوى

لمزيد من المعلومات، انظر: ابن الخطيب لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ج٤، ص ١٩٦.

(٥٢) الجزيري علي بن يحي، **المقصد المحمود في تلخيص العقود**، دراسة وتحقيق أسونثيون فريرس، سلسلة المصادر الأندلسية (٢٣)، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية-الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، ١٩٩٨م، ص ١٤٧. **النبراوي، ذوو الاحتياجات**، المرجع السابق، **ص ١٠.**

(٥٣) الونشريسي، **عدة البروق**، المصدر السابق، ص ١٩٤-١٩٥. **المعيار**، ج٦، ص ٤٨-٤٩. ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٣٢٠.

(٥٤) ابن فرحون، **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، تحقيق :جمال مرعشلي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٥م، ج ١، ص٨٢.

(٥٥) وردت عند: ابن الجزري، **غاية النهاية في أسماء رجال القراءات أولى الرواية**، دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع، ٢٠١٧م، ج ٣، ص ٥٣.

(٥٦) **المعيار**، ج٦، ص ٤٧. يقصد **بالكَنّ الشخص (الألْكَن)** الذي لا يستطيع إخراج بعض الحروف من مخارجها، أو الذي لا ينطق الحرف مطلقا، ومن كان ينطق الحرف ولكن مع تغييره. ويدخل في دائرة الألْكن أيضا الألْفَع، وهو الذي لا يتأتى منه نطق بعض الحروف على وجه الخصوص، كالراء مثلا، واللام ونحوه. وقد أجاز الفقهاء إمامة الألْكن ما دامت قراءته لا تخرج عن حد القراءة الصحيحة الموافقة لقواعد التجويد المقررة، ومادام لا يخرج إلى درجة اللّحن في القراءة. أما الألْثَغ، فهو من تحوَل لسانه من حرف إلى حرف غيره، كأن يجعل السينَ ثاءً، أو الراء غينا. وهذا لم يكن يشكل عيبا فاضحا.

(٥٧) المصدر السابق، ج ٤، ص٢٦٧/ ج ١٠، ص٢٤٧/ وج ١٠، ص٢٦٧-٢٦٨.

(٥٨) ابن فرحون، **تبصرة الحكام**، المصدر السابق، ص٨٢.

(٥٩) الونشريسي، **المنهج الفائق**، المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٤وص٢١٧.

(٦٠) ابن فرحون، **تبصرة**، المصدر السابق، ص٨٢. بنحمادة، **الإعاقة**، المرجع السابق.

(٦١) **المعيار**،ج٩، ص ٥٤.

(٦٢) ساجت، **ما تبقى**، المرجع السابق، ص١٤. (وكان مالك يفتي فيمن قطع لسان رجل عمدا بقطع لسانه من غير انتظار، ثم رجع لما انتهت إليه قصة أبي المخشي، وأنه نبت لسانه بعد أن قطع بمقدار سنة وأنه تكلم به، فقال: ينتظر سنة، فقد ثبت عندي أن رجلا بالأندلس نبت لسانه بعد سنة بعد أن قطع في نحو هذه المدة).

(٦٣) الونشريسي، **إيضاح المسالك**، المصدر السابق، ص ٧١٥.

(٦٤) ابن رشد، **المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات**، تحقيق سعيد أحمد أعراب، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨٨ ط١، ج٢، ص٢٧١-٢٧٢.

(٦٥)فصّل ابن الجوزي في مفهوم الحماقة وأحوال الحمقى والمغفلين، وعدّد أسماء الأحمق. يقول: (الأحمق، الرقيع، المائق، الأزبق، الهجهاجة، الهلباجة، الخطل، الخرف، المَلَغ، الماج، المسلوس، المأفون، المأفوك، الأعفك، الفقاقة، الهجأة، الألق، الخوعم، الألفت، الرطيء، الباحر، الهجرع، المجع، الأنوك، الهبنك، الأهوج، الهبنق، الأخرق، الداعك، الهداك، الهبنقع، المدله، الذهول، الجعبس، الأوره، الهوف، المعضل، الفدم، الهتور، عياياء، طباقاء). وذكر أسماء النساء ذوات الحمق: (الورهاء، الخرقاء، الدفنس، الخذعل، الهوجاء، القرثع). المصدر السابق، ص ٢٨.

(٦٦) **المعيار**، ج٩، ص ١٧١.

(٦٧)المصدر السابق، ج١، ص ٣٦٦ (هل تعطى الزكاة لمولى المعتوه ولا تعطى لتارك الصلاة؟). وج٣، ص ٣٢٠. وج٩، ص ٣٥٧.

(٦٨) الونشريسي، **المنهج الفائق**، المصدر السابق،ج٢، ص ٢١٦.

(٦٩) المصدر السابق، ص٥١.

(٧٠) الونشريسي،**كتاب الولايات**، المصدر السابق، ص ٤٢-٤٣-٦١.

(٧١) الونشريسي، **إيضاح**، المصدر السابق، ص ١٤٦. الونشريسي، **عدة البروق**، المصدر السابق، ص ٧٥: (وإنما سقط الصداق بينه وبين زوجته قبل البناء لتجذمه أو جنونه اتفاقا).

(٧٢) الونشريسي، **عدة البروق**، المصدر السابق، ص ٩٤: (لا يلزم نكاح السفيه ولا يلزم طلاقه). ص ٧٥: (لا تجب النفقة لامرأة المجنون إن أجل قبل البناء للعلاج، وتجب لامرأة المعسر بالمهر قبل البناء، لأن امرأة المجنون منعت نفسها لسبب لا يقدر على رفعه).

(٧٣) **المعيار**، ج٩، ص ٣٥٧. البرزلي، المصدر السابق، ج٥، ص ٤٨٨. المصدر السابق، ج٢ ص٤٦٥ : (حول حقيقة الحجر في الشرع)، وص ٥٣٧ (أحكام السفيه البالغ). المصدر السابق، ص ٢٧٢: (دخل عليها وهي ابنة عشر سنين فخيف على عقلها). ومما يلاحظ أيضا، أن الجنون اقترن بالجُذام وسيّء الأسْقام، بسبب ما ورد في الحديث الشريف: (اللَّهُمَّ إنيِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَرَصِ، وَالْجُنُونِ، وَالْجُذَامِ، وَمِنْ سَيِّئِ الأَسْقَامِ). **أبو داود، أبواب الوتر، باب في الاستعاذة، برقم ١٥٥٤، والنسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الجنون، رقم ٥٤٩٣، وغيرهما.**

(٧٤) راجع بهذا الخصوص، نازلة: (ما ينطق به المصروع، هل هو من كلامه أم من كلام الجان؟) (المعيار ج١١، ص٢٣/ج١١ ص ٣٥٨).

(٧٥) **المعيار**، ج ١١، ص٣٥٣، وج ١، ص٢٢٤. انظر كذلك: البرزلي، ج ١، ص٣٠٧ (إمامة من ظهر به جذام).

(٧٦) المصدر السابق، ج ٢، ص٣٢٣. (يسجن الساقي عاما فإن لم يزل وثبت وتحقق أنه جذام ففيه الاجتهاد، ويقوّم المسقي عبدا صحيحا ثم يقوم مجذوما فما يكون بين القيمتين يغرمه الساقي من الدية).

(٧٧) المصدر السابق، ج ٦، ص٤٨-٤٩، وص ٥٠١: (وصلح رجل يكون له حق على آخر فيلدّ به ويناكره، فيتصدق به على المجاذم، ثم يصالح فيه بعد ذلك الذي له الحق. فهل الصلح جائز أم لا؟ فأجاب: الصلح جائز، لأن المجاذم ليسوا قوما بأعيانهم).

(٧٨) بولقطيب، **جوائح**، المرجع السابق، ص ٥١-٥٧.

(٧٩) البرزلي، ج٣، ص ٢٢٢: (المجذوم يعزل عن الأصحاء).

(٨٠) **المعيار**، ج ٦، ص٤٢٢. البرزلي، ج ٣، ص٢٢١.

(٨١) المصدر السابق، ج ١١، ص٣٥٨.

(٨٢) المصدر السابق، ج ٦، ص٤٢٢. البرزلي، ج ٣، ص٢٢١.

(83)Henri-Jacques Stike, «Vieillesse, pauvreté et handicap dans l'histoire», in **Revue d'histoire de la protection sociale**, Comité d'histoire de la sécurité sociale, 215/1 N°8, p.133.

(٨٤) أورد حميش ترتيب مراحل العمر لكبار السن، حيث جاءت على الشكل التالي: شيخ ثم عجوز، ثم هرم، ثم كُنْتيٌّ، ثم الهمّ، وهو في أرذل العمر. وعرف كبير السن عند المالكية بالمتجالّة. حميش عبد الحق، **رعاية الشيخوخة في الإسلام**، كلية الشريعة والآداب الإسلامية، جامعة الشارقة، ٢٠١٠م، ص١٧-٢٣.

(٨٥) المصدر السابق، ص١٢٩. انظر أيضا: عبد الخالق أحمد عمار عبد الجليل، **حقوق كبار السن في الإسلام**، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ٢٠١٦.

(٨٦) **المعيار**، ج٩، ص ١٧١، وج٢، ص ١٣٤.

(٨٧) بنحمادة، **الإعاقة**، المرجع السابق، ص ٢٦-٢٨.

(٨٨) ظهرت أول منشأة طبية بمراكش في أواخر ق.١٢م، وبالضبط سنة ١١٨٩م، وسميت بباب الفرج، وكانت بمبادرة من الخليفة يعقوب المنصور الموحدي. وقد وصف المراكشي حال المرضى والمجانين والأطباء الذيم كانوا فيها؛ ثم توسعت حركية بناء المؤسسات الطبية (المارستانات) في عهد المرينيين، وكان أولها بفاس الذي سمي أيضا باب الفرج، فانتشرت بعد ذلك في عدد من المدن (فاس ومكناس ومراكش وتازة وآسفي)، وهذا ما أثبته ابن أبي زرع، وابن مرزوق أيضا الذي ذكر اهتمام كل من يعقوب المنصور المريني، وأبي الحسن المريني بصنع المارستانات للغرباء والمجانين وعلاج عَليلهم. لكن مارستان فاس سيتحول في عهد الحسن الوزان إلى مكان خال سوى من الغرباء، حيث وصف الوزان حالة المجانين الذين كانوا مقيدين بالسلاسل والأغلال، يحرسهم حراس يضربونهم أحيانا لتهدئتهم. محمد حقي، مؤسسة العلاج في المغرب والأندلس في العصور الوسطى، **مجلة عصور الجديدة**،ع٤، ٢٠١٨، ص ٣٥-٣٨.

(٨٩) بنحمادة، **الإعاقة**، المرجع السابق، ص ٣٠٢. انظر نفس المقال للاطلاع على العديد من الحالات المماثلة.

(٩٠) الجاحظ، **البرصان**، المصدر السابق، ص ٣٥. بنحمادة، **الإعاقة**، المرجع السابق، ص ٢٢.

(٩١) دوتي إدمون، **الصلحاء: مدونات عن الإسلام المغاربي خلال ق.١٩م**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٤م، ص٩٧. وضرب مثلا برجل يدعى سيدي الحسن بتازروت في منطقة بني عروس بشمال المغرب كان يُنظر إليه على أنه ربّاني رغم اتصافه بالحُمق.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الجاليات التجارية في مدينة طرابلس الغرب (١٧١١ - ١٨٣٥م)
التجار التونسيون أنموذجًا



د. إنعام محمد شرف الدين
أستاذة محاضرة بقسم التاريخ
كلية الآداب – جامعة طرابلس
دولة ليبيا

مُلَخّص

بفضل العديد من العوامل الجغرافية والطبيعية والاقتصادية والسياسية، شكلت مدينة طرابلس خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مركزًا تجاريًا مهمًا في منطقة المغرب العربي. يمكن ملاحظة هذه المكانة بسهولة من خلال التدفّق المستمر للأفراد والجماعات، ينتمي بعضهم إلى أوروبا في حين ينتمي معظمهم إلى دار الإسلام. وبالنظر إلى حقيقة أن التجار الأوروبيين يشكلون في نظر السكان المحليين "الآخر"، فمن المنطقي النظر إليهم على أنهم أجانب. لكن ماذا عن تجار دار الإسلام؟ هل يمكن اعتبارهم أيضًا "الآخر"؟ هذا السؤال إشكالي تمامًا بسبب دلالاته الأيديولوجية. فمن المعتاد بين الباحثين المحليين اعتبار دار الإسلام موطنًا لجميع المسلمين. لذلك، فإن اعتبار التونسيين أجانب في منطقة تابعة لدار الإسلام، إيالة طرابلس، هو أمر غير مقبول ليس فقط في نظر دعاة الأمة الإسلامية، ولكن أيضًا في نظر أنصار القومية العربية. ففي حقبة ما قبل الاستعمار، كان ينظر إلى دار الإسلام من قبل معظم المسلمين دائمًا على أنها كيان واحد ومتجانس، وبالتالي فإن أي محاولة لمعالجة مسألة أصول الدولة الوطنية في هذه الحقبة قد تبدو غير مقبولة من قبل عدد غير قليل من المؤرخين وعلماء السياسة المحليين وقد يُواجه من يجرؤ على طرح هذه المسألة والبحث بعمق في أصولها اتهامات أقلها انتماءه إلى التفكير الاستعماري. لن تتطرق هذه الدراسة إلى هذا الموضوع، بل هي تهدف إلى لفت الانتباه إلى عدد من العناصر التي ساهمت في بروز التجار التونسيين كـ "أجانب". في هذا السياق، سيتم تقديم أمثلة لعدد من الأفراد والجماعات التونسية الذين، على الرغم من إقامتهم الطويلة في طرابلس، احتفظوا بهويتهم التونسية وظهروا كرعايا موالين لباي تونس. وتجدر الإشارة أخيرًا إلى أن هذه الدراسة تعتمد بشكل أساسي على مصادر محلية أولية، لا سيما سجلات محكمة طرابلس الشرعية، بالإضافة إلى يوميات حسن الفقيه حسن، واحد من تجار وأعيان مدينة طرابلس في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فضلاً عن بعض وثائق القنصلية الفرنسية في طرابلس خلال الفترة المذكورة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٠	نوفمبر	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٩	نوفمبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

مدينة طرابلس؛ التجار التونسيون؛ الوكلاء التونسيون؛ جماعة الجرابة؛ الانتماء الوطني

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.259275

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إنعام محمد شرف الدين. "الجاليات التجارية في مدينة طرابلس الغرب (١٧١١-١٨٣٥م): التجار التونسيون أنموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ١٢٢ – ١٣٥.

Corresponding author: e.sharfeddine@uot.edu.ly
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

بموقعها المتميز الذي يتوسّط الضفة الجنوبية للمتوسط وكونها أقرب مدن الشمال الأفريقي إلى بلدان ما وراء الصحراء، مثّلت مدينة طرابلس نقطة تقاطع رئيسة في حركة تنقل الأفراد والبضائع بين المشرق والمغرب وبين دول شمال المتوسط وبلدان جنوب الصحراء، مُشَكِّلة بذلك طوال قرون مركزا تجاريا على قدر من الأهمية. وقد تعززت هذه المكانة التجارية للمدينة خلال العصر الحديث باحتوائها على مركز السلطة والمؤسسات السياسية والإدارية والقضائية لايالة طرابلس الغرب العثمانية، مما مكّنها من استقطاب الحركة التجارية الداخلية والخارجية. وهذه الأهمية التجارية للمدينة جعلتها تستقطب أيضًا عددًا من التجار الأجانب، من الفضاء الأوروبي ومن فضاء دار الإسلام، أقام بعضهم فيها لفترات محدودة فيما استقر آخرون فيها بشكل دائم وتحولوا بالتدريج إلى محليين.

إنه من الطبيعي أن يتمّ تصنيف التجار والجاليات الأوروبية المقيمين في طرابلس كأجانب بالنظر إلى عدد من الاعتبارات الدينية والثقافية، فضلا عن أنّ وجودهم كانت تنظّمه اتفاقيات السلام والتجارة التي وقعتها عدد من الدول الأوروبية مع حكام الايالة؛ كما رعاه أيضًا وجود القناصل في مركز الايالة ونوابهم في المدن الكبرى. لكن ماذا عن تجار دار الإسلام، فهل يمكن تصنيفهم كأجانب أيضًا؟ ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال خاصة وأن معظم سكان دار الإسلام يخضعون لقوانين واحدة وإلى ثقافة شبه متجانسة، ومن ثم فإن عملية التمييز بين مكوّن اجتماعي وآخر داخل فضاء دار الإسلام قد يجرنا للحديث عن مسألة لا يعتبرها البعض لا تاريخية وحسب، بل ويعزون ظهورها بالكامل لمرحلة الاحتلال وما تولّد عنها من تداعيات أهمها ظهور الدولة القطرية. مُؤَكَّد أنّ النزعة القطرية تبلورت جراء لقاء الشرق بالغرب، وهو ما يفسر في وقت لاحق امتثال المركز/الدولة العثمانية لسيرورة انتهت بسقوط الخلافة العثمانية (١٩٢٣) وظهور الدولة التركية؛ غير أنّ هذا النزوع لا يمكن تفسيره من هذه الزاوية/ التأثير الخارجي وحسب، بل ومن خلال حراك داخلي سابق يتمّ القفز على تواريخه، حراك يفسره في هذا السياق تشكّل مُكوِّنات اجتماعية لم تعد ترى نفسها فقط جزءًا من فضاء دار الإسلام. والأمر لا علاقة له بالأقليات وهو ما يستوجب التفكير في هذا الأمر مجددًا!

إن طبيعة هذه الدراسة لا تسمح بالاستطراد والرجوع لجذور النزعة القطرية، مع ذلك أجادل أن ظاهرة تشكّل الجاليات في فضاء دار الإسلام يلقي الضوء على ديناميكية محلية اختبرها هذا الفضاء ليس فقط قبل سقوط الدولة العثمانية، بل وقبل بدايات التوسع الإمبريالي. عليه، سيتم التلميح في هذه الدراسة لجذور نزعة "وطنية" من زاوية نادرًا ما يتم الالتفات إليها رغم شدة حضورها. فالمتمعن في حراك الأنموذج المقترح، الجالية التجارية التونسية، يكاد يخلص إلى أن دافع النزعة لم يكن دينيًا-عرقيًا بل كان سياسيًا يفسره حرص أفراد الجالية، رغم طول مدة إقامتهم في طرابلس، على التشبث بهويتهم "القطرية"/ التونسية من خلال الظهور كرعايا لباي تونس. وحتى أتجنب الدخول في جدل جانبي ارتأيت الاعتماد في بناء محاجتي، وبشكل أساسي، على مصادر محلية أولية تتمثل بشكل خاص في سجلات محكمة طرابلس الشرعية، وفي يوميات حسن الفقيه حسن، أحد تجار وأعيان مدينة طرابلس في النصف الأول القرن التاسع عشر. هذا كما تمت الاستعانة ببعض المصادر غير المحلية، وثائق القنصلية الفرنسية في طرابلس خلال هذه الفترة، والتي تتضمن العديد من التفاصيل التي لا توجد في المصادر المحلية.

بادئ ذي بدء، من المهم التوضيح بأن المقصود بتجار دار الإسلام كل أولئك الذين ينتمون إلى الفضاء المتوسطي الواقع تحت سيطرة الدولة العثمانية وولاياتها وبلاد المغرب الأقصى. سواء كان هؤلاء التجار من المسلمين أم لا. وبهذا المعنى، قد يبدو من قبيل المبالغة وربما التطرف، كما يذهب أندريه ريموند (André Raymond)، تصنيف هؤلاء، ولا سيما العرب المسلمين من الولايات العثمانية أو المغرب الأقصى غير العثماني، على أنهم أجانب[1]؛ فانتماء هؤلاء، كما هو الحال بالنسبة للمحليين، إلى مجال متجانس إلى حد كبير ثقافيًا (اللغة والدين) فضلاً عن سيادة نفس القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية، دون إغفال أهمية الشبكات الاجتماعية التي قامت بين منتسبي هذا الفضاء، مثلت جميعها عوامل جعلتهم قريبين من المجتمع المحلي وأسهمت في سهولة اندماج الكثيرين منهم فيه.

من ناحية أخرى، فإنّ الإشارات التي يمكن رصدها في المصادر فيما يتعلق بانتماءات التجار لهذا البلد أو ذاك أو لهذه الولاية أو تلك، لا تجعل مهمة الباحث في مثل هذا الموضوع سهلة. فباستثناء الأعيان وسكان المدينة بشكل عام، غالبًا ما كان يتمّ تحديد الأشخاص في سجلات محكمة طرابلس

الشرعية بألقاب تشير إلى مدنهم ومناطقهم الأصلية أو انتماءاتهم القبلية. وهذا المؤشر لا يتيح وحده بكل تأكيد التمييز بين الأفراد الذين استقروا بشكل دائم في إيالة طرابلس وأصبحوا بالتالي من الطرابلسيين، وبين من كانت إقامتهم في طرابلس مؤقتة، أو أخيرًا بين أولئك الذين كانوا مجرد عابرين[٢]. ففي الواقع، على الرغم من وجود خطوط فاصلة إدارية وحتى سياسية بين بلدان دار الإسلام في المرحلة قيد الدراسة، إلا أن هذه الحدود لم تمثل أي عوائق أو قيود على حركة الأفراد المنتمين إلى هذا الفضاء أو على استقرارهم في مناطقه المختلفة. ففي إيالة طرابلس الغرب/ليبيا نجد أمثلة متعددة عن هؤلاء الأفراد الذين استقروا فيها على مدى أجيال وأصبحوا بالتالي جزءًا من سكانها ومع ذلك احتفظوا حتى يومنا هذا بألقاب تشير إلى أصولهم الأجنبية[٣].

تأسيسًا على ذلك، وفي إطار محاولة تصنيف تجار دار الإسلام، بدا من المناسب عدم الاعتماد كليًا على ألقابهم التي تدل على الانتماءات المناطقية، والتركيز في المقابل، في السعي لكشف بعض الغموض حول هذه المسألة، على العلاقات التجارية التي أقامها هؤلاء التجار مع بلدانهم الأصلية، من جهة، وطبيعة شبكاتهم المهنية والاجتماعية، من جهة أخرى، مع الاعتماد على عدد من التفاصيل الإضافية التي تمدنا بها أحيانا المصادر حول بعض هؤلاء التجار.

فمن خلال التمعن في بعض التفاصيل التي تتضمنها المصادر يبدو من الممكن التمييز بين مجموعة من تجار دار الإسلام الذين عاشوا في طرابلس بشكل مؤقت وظهروا كأجانب في الإيالة، وبين مجموعة أخرى منهم ممن استوطنوا البلاد وأصبح بالتالي من الممكن اعتبارهم من المحليين. ففي حين كان يتم ذكر هؤلاء الأخيرين في سياق محلي سواء فيما يتصل بمعاملاتهم التجارية أو ما يتصل ببعض شؤونهم الاجتماعية والشخصية، كان يتم ذكر الأولين في المصادر نفسها كمجموعة متضامنة وموحدة والتعريف بأفرادها كمنتمين إلى بلادهم/ رعايا تابعين لبلادهم، وهو ما يبرز بشكل خاص في مثال التجار التونسيين. علاوة على ذلك، فإن الإشارة في مصادرنا إلى وجود وكلاء يمثلون التجار المنتمين إلى بعض البلدان في طرابلس يدعم مسألة تمييز هؤلاء الأخيرين عن المحليين، واعتبارهم من "الأجانب". ولكن، مرة أخرى وبالرغم من الإشارات إلى وجود وكلاء مقيمين مغربي وجزائري ومصري، فضلا عن مبعوثين غير قارين من الدولة العثمانية ارتبط وجودهم في طرابلس برعاية مصالح التجار التابعين لهذه البلدان في الإيالة[٤]، فإنه بين كل هؤلاء كان نشاط وكلاء إيالة تونس ومبعوثيها إلى طرابلس الأكثر ذكرًا ووضوحًا في المصادر.

عليه، وفي انتظار الحصول على مصادر أخرى ومعطيات جديدة تتصل بموضوع الانتماءات "الوطنية" لتجار دار الإسلام، سوف يقتصر الاهتمام في هذه الدراسة على تجار الجالية التونسية الذين شكّلوا في طرابلس مجموعة ذات خصوصية حرص أفرادها على إظهارها أكثر من غيرهم.

أولاً: التبادل التجاري بين الايالتين وحضور التجار التونسيون في طرابلس

غنيّ عن القول إن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين طرابلس وتونس تعود إلى مرحلة موغلة في التاريخ؛ لن أخوض في هذه التفاصيل وأفضّل في المقابل التركيز على حركة التبادل التجاري بين الايالتين في المرحلة قيد الدراسة. ففي هذه الأخيرة، وبفضل حركة التبادل التجاري النشطة بين الايالتين تشكّلت في الفضاءين جالية تجارية تكفّلت بنقل السلع المختلفة أذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، بعض المواد الغذائية كالقمح والشعير والفول والحمص والخروب والزيت، والتي كانت تظهر في قوائم التصدير والاستيراد[٥]. هذا وتجدر الإشارة إلى أن عملية الاستيراد من هذه الإيالة أو تلك كانت تحكمها العديد من الظروف أبرزها الظروف المناخية، الجفاف تحديدا، فضلا عن عدم توازن فترة نضج المحاصيل. والمتمعّن في قوائم التصدير والاستيراد يخلص إلى أنّ السّلع لم تكن كلّها غذائية؛ فإلى جانب هذه الأخيرة تضمّنت القوائم العديد من السلع المصنعة وغير المصنعة. فمن تونس استوردت طرابلس أنواعا مختلفة من المنسوجات (مثل البرانيس والشيلان والشاشية والأحرمة الجريدية والحوالي الجربية والسفساري التونسي) والأحزمة وأقمشة مختلفة. كما شملت قائمة الواردات من المناطق التونسية أيضًا عددا من السلع الأخرى المتنوعة منها الحنّاء والقطن والحرير والجلود والرصاص والفخار والفحم والجير[٦].

في المقابل، صدّرت إيالة طرابلس بعض المنتجات الغذائية إلى تونس نذكر من بينها الزعفران والشعير والفلفل الحار والتمر والبرتقال. كما صدرت لها أيضًا الحيوانات (الجمال على وجه الخصوص وإلى جزيرة جربة تحديدا) والمواد الخام (الصوف والجلد والكتان والفوة والنطرون والشب واللك والملح)، بالإضافة إلى معدن النحاس. كما كان يتم أيضًا تصدير بعض المنسوجات المحلية إلى تونس مثل الأردية الحريرية، وسجاد مصراتة وأنسجة الكتان السوداء، فضلا عن بعض المصنوعات المحلية

الأخرى كالأحذية (السبابيط) والأواني النحاسية والبنادق[٧]. هذا كما شكل العبيد بندا مهما في صادرات إيالة طرابلس إلى تونس[٨].

كل هذه العمليات وغيرها تولد عنها حضور لافت للتجار في القطرين. ليس هنا مجال بحث مسألة الحضور الطرابلسي في القطر التونسي؛ فموضوع الدراسة يناقش بشكل حصري حضور التجار التونسيين في إيالة طرابلس بشكل عام وفي مدينة طرابلس مركز السلطة والتجارة على وجه الخصوص. فبحسب المعطيات المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر، ظهر التجار التونسيون، مقارنة بغيرهم من تجار دار الإسلام، الأكثر عددًا. هذا وإن يبدو من الصعوبة بمكان تحديد عددهم بدقة، فإنه، ومن خلال اعتماد الألقاب التي يمكن استخدامها كمؤشر فيما يتعلق بانتماءات التجار المناطقية، بدا من الممكن تحديد سبع وثمانين تاجرًا ينحدرون أو ينتمون إلى مدن وبلدات ومناطق تونسية مختلفة. وهؤلاء التجار، الذين يمثلون حوالي النصف (٥١,١٧٪) من مجموع التجار القادمين من بلاد دار الإسلام أو المنحدرين منها، ينتمون في غالبيتهم العظمى إلى جزيرة جربة (خمسون تاجرا). أما البقية فقد قدموا من المدن والمناطق التالية: تونس (تسعة تجار)، صفاقس (ثمانية تجار)، سوسة (ثلاثة تجار)، المهدية (تاجران)، قرقنة (تاجران)، القيروان (تاجران)، قابس (تاجران)، الأعراض (ثلاثة تجار)، وقبائل المنطقة الحدودية وهي الحمارنة (أربعة تجار)، وورغمة (تاجران). ولست في حاجة للتأكيد بأنّ هذه الأرقام لا تعكس الواقع فعليا لطبيعة المصادر المتعامل معها سواء المحلية أو الأجنبية؛ ففضلاً عن أنها جزئية، فإنّ تغطيتها للمرحلة ليست كاملة.

وهذا الحضور العددي المهم إلى حدّ ما للتجار التونسيين في إيالة طرابلس يمكن تفسيره بعدة عوامل. فتواجد التونسيين في طرابلس مثلما هو الحال بالنسبة للطرابلسيين في تونس، يمثّل ظاهرة قديمة. فتجاور الايالتين، وارتباطهما بتاريخ مشترك لعدة قرون، فضلاً عن التشابه الكبير في خصائصهما الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، شكّلت كلّها عناصر رئيسية تفسّر هذا الأمر. لكن، وعلى الرغم من كل هذه العناصر التي تسهّل على التونسيين الاستقرار في إيالة طرابلس وتحوّلهم إلى محليين، فإنّ التجار التونسيين تحديدا، من بين مختلف تجار دار الإسلام في طرابلس، هم من أظهروا أنفسهم، على غير المتوقع، كمجموعة متميّزة لها هويّتها الخاصة.

بكل تأكيد كان من بين التونسيين المستقرين في طرابلس من اندمج بشكل كامل في المجتمع المحلي وأصبحوا طرابلسيين بالكامل. من ذلك مثلاً ما تشير إليه الدراسات، على سبيل المثال، من أن درغوت باشا (١٥٥٣-١٥٦٥) جلب خلال فترة حكمه في طرابلس، أربعين عائلة من صفاقس للاستقرار فيها، من بينها عائلة المُكنّي، التي كان العديد من أفرادها شخصيات مشهورة في تاريخ ليبيا الحديثة[٩]. علاوة على ذلك، يذكر دي أغسطيني، في إطار التعداد الذي قام به لسكان مدينة طرابلس في بداية الاحتلال الإيطالي، عدة عائلات طرابلسية من أصول تونسية[١٠]. لكن من ناحية أخرى فإن الأمثلة التي تحتوي عليها مصادرنا بشأن التجار الذين تم تصنيفهم على أنهم رعايا تونسيون ليست نادرة.

يبدو أن للعامل السياسي دور لا يقل أهمية عن بقية العوامل في إبراز التفرد التونسي إن صح القول. فعلى امتداد قرون، منذ عهد القرطاجيين (٨١٤-١٤٦ ق.م) حتى منتصف القرن الخامس عشر، كانت الأراضي الليبية، ولا سيما منطقة طرابلس، ملحقة بتونس (إفريقيّة) وشكّلت إحدى ولاياتها الرئيسة[١١]. على أن الظروف التي أحاطت بعملية ضم مناطق شمال أفريقيا للدولة العثمانية في القرن السادس عشر، وسيطرة هذه الأخيرة على طرابلس قبل تونس، عزّزت مسألة استقلال طرابلس عن حكومة تونس وجعلت من الأراضي الليبية إيالة منفصلة[١٢]. وعلى الرغم من أن الايالتين كانتا تابعتين رسميًا للدولة العثمانية، فإنّ حكّامهما كانوا حريصين، لأسباب إدارية ومالية، على ترسيم حدودهما المشتركة.

ليس من بين أهداف هذه الدراسة بكل تأكيد تتبع تاريخ ترسيم الحدود بين الايالتين[١٣]، ولكن الغرض من هذه الإشارة هو فقط لتوضيح أن هذه الحدود لم تكن موجودة بالفعل في الفترة التي نتناولها هنا وحسب، بل إنها أسهمت أيضًا وبشكل رسمي في تحديد انتماء رعايا الايالتين. فبتاريخ ١٦ محرم ١٢٢١هـ (٥ أبريل ١٨٠٦) أصدر باي تونس، حمّودة باشا (١٧٨٢-١٨١٤)، مرسومًا تمّ بموجبه ترسيم الحدود وبشكل رسمي بين إيالتي تونس وطرابلس. وقد شدّد باي تونس في مرسومه على أن هذا الترسيم يتّسِق مع الاتفاقيات التي عقدت سابقا بين حكام الإيالتين، وطالب جميع التابعين له والخاضعين لسلطته من القوّاد والمشايخ والأغوات والمخازنية والرعية أيضًا باحترام هذه الحدود، مشدّدا في هذا الأمر بشكل خاص على الرعايا التونسيين من أهل البوادي الذين يعيشون في المناطق الحدودية[١٤].

وفي هـذا السـياق، يـذكر حسـن الفقيـه حسـن، صـاحب اليوميات المعاصر للفترة التي نتناولها، أنه في عام ١٢٣٥هـ (١٨٢٠) وصلت شائعات من زوارة، وهي المدينة الحدودية لإيالة تونس، تفيـد بأن جميع الطرابلسـيين الـذين كـانوا في هـذه الإيالـة، قـد طُـردوا اسـتعدادًا لإعـلان الحـرب عـلى طـرابلس مـن قبـل باي تـونس؛ وأضـاف أن بعـض الأشـخاص الـذين وصـلوا مـن جربـة أكدوا أيضًا هذه المعلومات، ذاكرين تعرضهم للنهب، وأنه قد عُمّم إنذار بالخصوص في جربة "عـلى أنـه الغربي غـربي والشرقـ شرقي" قبل الشروع في طرد عدد من الطرابلسيين[١٥].

مـرة أخـرى، لـيس مـن بـين أهـداف هـذه الدراسـة بحـث العلاقات السياسية بين الإيالتين العثمانيتين، ولكن الحاجة إلى توضيح فكـرة أن الجاليـة التونسـية في طـرابلس تعتـبر "أجنبيـة"، تدفعني إلى التذكير بشكل سريع بمسألة الحدود هذه. صحيح أن الانتماء إلى فضاء دار الإسلام من جهة، وقيام علاقات متعددة الأوجـه بـين القبائـل الـتي تسـكن المنـاطق الحدوديـة مـن جهـة أخـرى، يضـعفان فكـرة وجـود شـعبين ينتميـان إلى كيـانين سياسيين مختلفين، وبالتالي يقوضان فكرة اعتبار التونسيين في إيالـة طـرابلس أجانـب خاصـةً وأننـا نتحـدث عـن مرحلـة سـابقة لقيـام الـدول الوطنيـة. لكـن يبـدو مـن المهـم التأكيـد عـلى أن الصراع بين البلدين، الذي كـان ينجم غالبا عـن صراعات قبلية خاصة في سنوات الجفاف، كان كثيرا ما يستدعي تدخل سلطات الإيالتين. ويمكـن تأويل المرسـوم المذكور سلفا والصـادر عـن حمّودة باشـا عـلى أنّـه حـلّ لنزاعـات قبائـل المنطقـة الحدوديـة (النوايـل مـن الجانـب الطرابلسيـ وورغمـة وعكـارة مـن الجانـب التونسيـ)، والأهـم عـلى أنّـه مظهـر مـن مظـاهر تحيـز المجـال الترابي للايالتين.

من ناحية أخرى، فإنّ قراءة مُتمعِّنة في المصادر تساعد في تحديد عنصرين إضافيين على الأقل يدعمان فكرة اعتبار التجار التونسيين في إيالـة طـرابلس جاليـة. العنصر الأول يتمثـل في وجـود ممثلـين دائمـين (وكـلاء) لبـايات تـونس مُعيَّنـين في طرابلس من أجل رعاية مصالح البايات والتجار التونسيين، فضلاً عن وجود مبعوثون خاصين كان وجودهم في طرابلس مؤقتا، إذ ارتبط بظروف وأحداث معينة. أما العنصر الثاني، وهو يعتمد على الأول، فيعتبر، في اعتقادي، أكثر أهمية إذ له علاقة بحرص التجار التونسيين المقيمين بطـرابلس عـلى التعريـف بأنفسهم في الوثـائق بوصـفهم رعـايا تـابعين لإيالـة تـونس، فضـلاً عـن تركيزهم في نشاطهم على التعامل مع بلدهم، من جهة، ومع أبناء جاليتهم من جهة ثانية.

ثانيًا: وكلاء ممثلون للدولة التونسية ومبعوثون خاصون تونسيون في طرابلس

في الواقع نحن لا نعرف على وجه الدقة التاريخ الذي تم فيه تبادل الوكلاء الممثلين لايالتي طرابلس وتونس. فأول إشارة واضحة، في المصادر التي اطلعت عليها، إلى وجود وكيل تونس في طـرابلس تعـود إلى سـنة ١٨١٥. في هـذه السـنة، يـذكر التـاجر والرحالـة محمـد بـن عمـر التونسيـ أنـه قضىـ خـلال إقامتـه في طـرابلس بضعـة أيام عنـد مهنى، الـذي يشيـر إليه بوصفه قائما بأعمـال تـونس بطـرابلس[١٦]. بيـد أنّ التعيـين الرسـمي لممثـل تونسي في إيالة طرابلس يعود بكل تأكيد إلى فترة ما قبل نهاية القرن الثامن عشر. فمن خلال رسالة أرسلها التجار التونسيون المقيمـون في طـرابلس عـام ١٢٨٦هـ (١٨٦٠) إلى الـوزير التونسيـ إسـماعيل صـاحب الطـابع، يتضـح أن "وكيـل الدولـة التونسـية" (هكذا ذكر تحديدا) بمدينة طرابلس له محل مخصوص يقع في سوق الرباع الجديد، بالقرب من حوانيت هؤلاء التجار التونسيين، "وهـذا المحـل هـو موضـع حكمـه وجلوسـه معنـا (أي التجـار التونسيين) فيـه مـدة تزيـد عـن السـبعين سـنة"، مما يعني أن وجـود الوكيـل التونسيـ في طـرابلس يعـود عـلى أقـل تقـدير الى حوالي سنة ١٧٩٠[١٧].

من المرجح أن يكون متولي هذا المنصب في هذه الفترة هو مهنى بن علي قاسم[١٨]. وهذا الأخير الذي يبدو نفس الشخص الـذي أشار إليـه محمـد بـن عمـر التونسيـ يظهـر مـن خـلال وثـائق محكمـة طـرابلس الشرـعية كمقـيم في طـرابلس منـذ العقـد السـابع مـن القـرن الثـامن عشرـ. مـن ذلك أنه يُذكر، على سبيل المثال، في عام ١٧٦٧ كوصيّ على أبناء التاجر يوسف قبّوش[١٩]. كما تكرّر الاستشهاد باسمه خلال هذه الفترة في عقود تأجير متعددة لسفن فرنسية متّجهة مـن ميناء طرابلس إلى موانئ تونسية مختلفة[٢٠]. صحيح أن هذه الوثائق المختلفة لا تفيد بأي شكل من الأشكال تولي مهنى هذا منصب الوكيل، لكن ومن خـلال معلومـة عرضيـة وردت في إحـدى القضـايا المسـجلة في سـجلات محكمـة طـرابلس الشرـعيّة، يمكـن أن نسـتنتج أنـه مـارس وظيفـة الوكيـل. فهـذه الوثيقـة المؤرخـة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥)، والتي تتعلّق بنزاع قائم بين التاجر علي بن الحاج منصور أبو دبوس وبـين الـرايس محمـد النيفـر، وكلاهمـا تونسـيَّين مـن مدينـة صفاقس، تفيد أنّ مهنى بن علي قاسم تدخّل في مرحلة ما في هـذا الـنزاع وعقـد اتفاقًـا بـين الطـرفين[٢١]. ولعـل مـا يـدعم مـا نـذهب إليـه مـن تـوليّ مهـنى بـن عـلي بـن قاسـم، المتـوفى في طرابلس في أواخر سنة ١٨١٧[٢٢]، منصب الوكيل، رسالة أرسلها

التجار التونسيون المقيمون في طرابلس إلى أحمد باي، باي تونس، في عام ١٨٤٦. ففي هذه الرسالة، أبلغ هؤلاء التجار حكومتهم بوفاة الوكيل التونسي في ذلك الوقت، رجب بن علي قاسم، وطلبوا منه تعيين صالح بن محمد بن علي قاسم مكان عمه. لكن المثير للاهتمام في هذه الرسالة، أن هؤلاء التجار التونسيين ولإضفاء الشرعية على طلبهم، أكدوا أن عائلة ابن علي قاسم دخلت في خدمة الدولة التونسية منذ مائة عام[٢٣]. ولعله من الجدير بالذكر في هذا السياق، أنه بالرغم من أن طلب التجار التونسيين بخصوص تعيين صالح بن محمد بن علي قاسم، لم تتم الاستجابة له، فقد استمرت نفس العائلة تشغل منصب الوكيل حتى عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠)؛ فبعد وفاة رجب حلّ محله شقيقاه محمد وصادق على التوالي[٢٤].

إنّ الهدف من إثارة موضوع وجود وكيل تونسي دائم مقيم في طرابلس يكمن بالدرجة الأولى في إثبات وجود جالية تجارية مُشَكَّلة من التونسيين. وفي نفس هذا السياق نلاحظ وجود تمثيل من نوع آخر للجالية التونسية في الإيالة، وهو المتمثل في المبعوثين الخاصيين الذين كانت ترسلهم الحكومة التونسية إلى طرابلس وقت الحاجة للدفاع عن مصالح رعاياها والمطالبة بحقوقهم.

دون شك لا يشكّل تبادل المبعوثين أو السفراء حدثًا استثنائيًا، فمن عادة الحكومات أن ترسل ممثلين لها في أوقات السلم كما في أوقات النزاع لمناقشة القضايا المشتركة وحل الخلافات القائمة. على أن الجدير بالتنويه أن ذكر وجود هؤلاء المبعوثين في هذا الإطار يمثل مؤشرًا إضافيًا يعزز مسألة اعتبار عدد على الأقل من التجار التونسيين المقيمين في طرابلس جالية، وهو الأمر الذي فرض بالتالي وجود ممثل دائم لباي تونس في طرابلس، وهو الوكيل، في الظروف العادية، في حين تطلب إرسال مبعوثين خاصيين في الظروف الاستثنائية. فبالرغم من وجود الوكلاء المعينين في طرابلس بشكل دائم، وجد بايات تونس أنفسهم مضطرين في بعض الحالات (فشل دور الوكيل على سبيل المثال) إلى إرسال مبعوثين لحل المسائل العالقة.

المعلومات عن هؤلاء المبعوثين التونسيين ومهماتهم هي في الواقع قليلة جدا. غير أنّ ما يورده حسن الفقيه حسن في يومياته عن أحد هؤلاء المبعوثين التونسيين إلى طرابلس، يلقي الضوء على طبيعة هذه البعثات. فيذكر حسن فقيه حسن وصول الشاوش سليم، آغا الجيش التونسي، إلى طرابلس في مساء يوم الجمعة ٢٤ رجب من سنة ١٢٤٩هـ/ نوفمبر ١٨٣٤، كمبعوث من قبل باي تونس حسين باشا، وأن مهمته كانت بالدرجة الأولى هي المطالبة بما تمّ الاستيلاء عليه من أرزاق عدد من رعايا تونس وهم من التجار الصفاقسيين، حيث أقام شهرا كاملا ولم يغادر حتى استرجع لهؤلاء التجار ما أُخذ منهم[٢٥]. وقدوم هذا المبعوث، في هذا التاريخ بالذات يمثل استثناء فرضته الأحداث التي عانت منها طرابلس في هذه الفترة، إذ أنها شهدت خلال الأعوام ١٨٣٢-١٨٣٥ حربًا أهلية، تُعرف في المصادر بثورة المنشية، بثت الفوضى في البلاد، وأدت إلى سقوط حكم الأسرة القرمانلية (١٧١١-١٨٣٥) وعودة إيالة طرابلس مجددا تحت الحكم العثماني المباشر.

قد يبدو إرسال باي تونس آغا جيشه إلى طرابلس في مثل هكذا ظروف للاطلاع على الأوضاع عن قرب في البلد المجاور المضطربة أحواله أمرًا طبيعيًا وعاديًا، غير أن وصول هذا المبعوث في هذا التاريخ لم يكن له علاقة بالثورة المندلعة في طرابلس بقدر ما كان له علاقة بدور الوكيل التونسي خلال هذه الثورة. فمن خلال ما تذكره المصادر فإن وكيل تونس آنذاك، رجب بن علي قاسم، غادر المدينة أين كان يباشر مهامه عادة ليقيم في المنشية، معقل الثورة[٢٦]. وهكذا وحيث إن أيًا من الطرفين المتحاربين لم يتمكن من تحقيق نصر مؤكد، اضطرت حكومة تونس إلى إرسال مندوب للمطالبة بحقوق تجارها الذين تعرضوا للنهب. هذا ويجدر التنويه إلى أن الوكيل رجب بن علي قاسم لم يتم عزله من منصبه آنذاك، بل نجده يقوم من مقر إقامته الجديد بمراسلة حكومته وينقل إليها تطورات الأحداث، كما نلاحظ أنه كان دائمًا أول من يلتقي بمبعوث باي تونس الذي لم تكن زيارته المشار إليها الزيارة الوحيدة التي قام بها إلى طرابلس[٢٧].

ثالثًا: تجار رعايا تونس (أفراد ومجموعات)

على الرغم من أن المصادر تبدو بشكل عام قاصرة عندما يتعلق الأمر بتحديد هوية الأفراد بدقة، فإنّ الأمثلة التي تتعلق بالتجار المقيمين في طرابلس والذين قدموا أنفسهم كرعايا تابعين إلى إيالة تونس متعددة. ولعلّه من المناسب التذكير بأن الجالية التونسية في طرابلس، والتي تشكّلت من أفراد ومجموعات، كانت تنتمي إلى مناطق مختلفة في إيالة تونس. وفقا لذلك، سوف أتناول مسألة الرعايا التونسيين في جزئيتين: تتعلّق الأولى بالتجار القادمين من جزيرة جربة وتستند إلى مثال واحد ولكنه معبّر جدّا، وهو مثال أبو سلامة بن سعيد بو شداخ الجربي، فيما تهتم الجزئية الثانية بعرض بعض النماذج من التجار الذين كانوا ينتمون إلى مدن ومناطق تونسية أخرى. هذا

التقسيم يمليه عمليًا، في الواقع، نوع المصادر التي تمّ الاعتماد عليها. فمن خلال التمعّن في هذه الأخيرة، يتبيّن أنه من بين جميع التجار المنحدرين من تونس، تميّز التجار القادمون من جزيرة جربة بوضوح في المصادر المحلية وكانوا الأكثر ذكرًا. في المقابل، فإن المصادر الأوروبية (الفرنسية تحديدًا) تضمّنت إشارات عدّة، تربط التجار التونسيين الموجودين في طرابلس بمختلف مدن ومناطق إيالة تونس، بما في ذلك جربة.

من المؤكّد أنّ العلاقات السياسية والثقافية بين طرابلس وتونس كانت مهمّة وعميقة، ولكن هذه العلاقات اكتسبت المزيد من القوة من خلال ما يمكن أن يُطلق عليه مدن-محطات (des villes-étapes)؛ فالمتصفّح لبعض المصادر ولبعض الأعمال الحديثة يكتشف بأن جزيرة جربة شكلت أنموذجا للمدينة –المحطة. فقرب جربة من اليابسة، فضلا عن موقعها الاستراتيجي أهّلاها للقيام بدور أساسي في أوقات السلم كما في أوقات الحرب. عليه فإنّ الوفرة النسبية للمعلومات في المصادر المحلية عن الرعايا التونسيين المنحدرين من جربة بشكل خاص هو أمر مفهوم. وفي هذا الإطار يقدم التاجر أبو سلامة بن سعيد بو شداخ أنموذجًا مثيرًا للاهتمام من بين هؤلاء التجار الجرابة على وجه الخصوص والتونسيين عمومًا.

فهذا التاجر على الرغم من إقامته بشكل دائم في طرابلس، كما تفيد بذلك المصادر، حافظ على انتمائه لإيالة تونس. فوفقا لأحد قيودات محكمة طرابلس الشرعية يعود إلى سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤ والمتعلّق بمسألة دين وسندات مالية، تمّ ذكره بشكل لا لبس فيه بصفته تاجرًا تابعا لايالة تونس (تاجر من عمل محروسة تونس)[٢٨]. كما تؤكد المعلومات المتوفرة عن هذا التاجر على أن إقامته في طرابلس لا تعود إلى عدة سنوات سابقة لهذا التاريخ فحسب، حيث يذكره حسن الفقيه في يومياته لأول مرة في عام ١٢٢٨هـ/١٨١٣ وفي سياق يكشف أن هذا التاجر كان يقيم في طرابلس قبل هذا التاريخ، بل تواصلت إلى ما بعد سنة ١٨٤٦[٢٩].

خلال هذه السنوات ظلّ حسن الفقيه حسن، الذي كان فيما يبدو مُقرّبا من هذا التاجر التونسي، يشير إلى حياته الشخصية وبعض أنشطته. فهو يُعلمنا مثلاً أن أبو سلامة اشترى في عام ١٢٢٩هـ/١٨١٤ منزلاً بحومة باب البحر مجاورا للقنصلية الإنجليزية، كما يفيدنا أيضًا أنه زوّج ابنته في سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٩ من ابن عمه قاسم بوشداخ[٣٠]. أما بالنسبة لأنشطته التجارية، فبالرغم من أن التفاصيل عنها قليلة، فمن خلال إشارة واردة في إحدى وثائقنا يتبين أنه كان لديه حانوتًا في أحد أهم أسواق مدينة طرابلس، وهو سوق الرباع الجديد، مما يشي بأنه يعمل في تجارة المنسوجات[٣١]. كما يبدو أن تجارة المواد الغذائية (القمح على وجه الخصوص) كانت أحد مجالات تجارته الرئيسية؛ ففي شهر رمضان من عام ١٢٤٧هـ/١٨٣٢ يشير حسن الفقيه حسن إلى وصول مركب من تونس إلى ميناء طرابلس محمّل بالقمح لصالح أبو سلامة[٣٢].

مع ذلك، ورغم قلة التفاصيل عن النشاط التجاري لبو سلامة بوشداخ، فإنه من شبه المؤكد أن نشاطه لم يكن متواضعًا. فهو يُذكر، على سبيل المثال، في الوثائق في عام ١٨٣١ كدائن لباشا طرابلس (يوسف باشا) بمبلغ ١٧٣٢ ريال دورو[٣٣]، وكدائن أيضًا لابن الأخير علي باشا (الثاني) في عام ١٨٣٣[٣٤]. علاوة على ذلك، فإن حسن الفقيه حسن يذكره كمالك لمركب (brigantine).[٣٥] ويبدو أنّ وضعه المالي الجيد جعله يحظى بمكانة رفيعة داخل المجتمع الطرابلسي حيث ذكره حسن الفقيه حسن في يومياته وفي مناسبات عديدة بوصفه واحدا من " جماعة التجار"، أي من كبار تجار المدينة وأحد أعيانها[٣٦].

إن التأكيد على وجود هذا التاجر التونسي في طرابلس لسنوات عديدة ومتواصلة، من جهة، وعلى المكانة المرموقة التي احتلها في المجتمع الطرابلسي، من جهة أخرى، لا يعني بأي حال من الأحوال تخليه عن هويته التونسية وتبعيته لايالة تونس. فبصرف النظر عن الإشارة بكل وضوح إلى كونه من رعايا تونس في الوثائق، كان أبو سلامة بوشداخ يتصرف كواحد من أفراد الجالية التونسية البارزين في طرابلس، وهو ما سمح له بالظهور كنائب للوكيل التونسي رجب بن علي قاسم أثناء غياب هذا الأخير[٣٧].

ولعله من المهم التنويه أن أبو سلامة بوشداخ لا يشكل استثناء؛ فمن خلال بعض ما تضمنته المصادر المحلية من معلومات حول أفراد عائلة ابن علي قاسم يتبين أن هذه العائلة أقامت في طرابلس لسنوات طويلة، قدّرها البعض بأزيد من قرن، ورغم ذلك، وربما بسبب تولي بعض أفرادها وظيفة الوكيل، تشبث أفراد العائلة بتبعيتهم إلى ايالة تونس. فإلى جانب الوكيلين التونسيين اللذين سبقت الاشارة اليهما والمتوفيان كليهما في طرابلس، مهنى بن علي قاسم الذي يُذكر وجوده في طرابلس منذ سنة ١٧٦٧ وابنه رجب، تذكر الوثائق من أبناء هذه الأسرة في منتصف القرن التاسع عشر كل من محمد وحميدة وصالح وصادق الذين كانوا جميعهم من التجار المقيمين في طرابلس[٣٨]. من جانب آخر، فإنه من بين أسماء الموقعين

على الرسالة المذكورة آنفا، والمُوجهة من قبل التجار التونسيين إلى أحمد باي في سنة ١٨٤٦، يمكن أن نُميّز بعض الاسماء التي ذكرت في المصادر المحلية منذ أوائل القرن التاسع عشر مثل الأخوين عمر ويحي بعيرة، ورمضان بن عمر الدواي، والذي كان والده بالمناسبة مقيما أيضًا في طرابلس حيث برز كأحد متولي مصروفات يوسف باشا في العقد الأول من هذا القرن[٣٩]. كما تظهر من بين الموقعين على هذه الرسالة أيضًا بعض الأسماء التي أزعم أن أصحابها هم من نسل تجار تونسيين أقاموا في طرابلس في بدايات القرن الثامن عشر. فمن بين هؤلاء أذكر على سبيل المثال يونس بن رزين الذي ربما يكون من نسل أحد الأخوين أحمد ومحمد بن رزين الجربي المذكورين في وثائق محكمة طرابلس الشرعية في سنتي ١٧٢٣ و١٧٢٦؛ والحاج محمد الدنقيز والحاج يوسف الدنقيز اللذين من المحتمل أن يكونا من نسل محمد بن الحاج أحمد الدنقيز الجربي وقاسم الدنقيز الجربي المذكورين في وثائق المحكمة أيضًا في سني ١٧٢٥ و١٧٢٦[٤٠].

من ناحية أخرى، إن كانت الأمثلة التي تمدنا بها المصادر المحلية، والتي تم تقديم بعضها، تتعلق إلى حد كبير بالتجار الذين ينتمون إلى جزيرة جربة، فإن بعض الإشارات، تتوفر أيضًا عن تجار منحدرين من مدن ومناطق تونسية أخرى. ويقدّم الحاج سالم بن عمر الصفاقسي (أصيل صفاقس)، مثالاً مهمًا في هذا الإطار. فالمصادر وإن لم تذكر صراحةً تبعيته إلى إيالة تونس، فإنّ بعض التفاصيل المتعلقة بحياته الخاصة والمهنية، تُظهر أنه رغم إقامته في طرابلس لفترة طويلة، بقي محافظا على علاقات متعددة مع تونس، ومع مدينة صفاقس على وجه الخصوص. فمن خلال دعوى قضائية بشأن ميراثه، رُفعت أمام محكمة طرابلس الشرعية، يتبيّن أنه كان يقيم مع أسرته في مدينة طرابلس، حيث اشترى منزلاً وأرضًا في ضواحي المدينة؛ كما تضمنت قائمة ممتلكاته منزلًا وأرضًا في صفاقس أيضًا، الأمر الذي يشير إلى أنه لم يقطع صلته أبدا بموطنه الأصلي. فضلا عن ذلك، فإن النظر في أنشطته التجارية خلال حياته يؤكد صلاته بصفاقس؛ فالجزء الأكبر من تجارته، وكما تفيد وثائق المحكمة المتعلقة به، كان مع فزان التي كان يستورد منها العبيد والسنا والنحاس، غير أن علاقته التجارية كانت قوية أيضًا مع مدينة صفاقس أين كان يقيم شريكه أحمد الشرفي[٤١].

هذا كما تتضمن وثائق الأرشيف الفرنسي أمثلة أخرى لتجار-رعايا باي تونس ينتمون إلى مدن تونسية مختلفة استقروا في طرابلس في القرن الثامن عشر. في هذا الإطار تشكل عقود استئجار السفن المسجلة في القنصلية الفرنسية في طرابلس، على سبيل المثال، أهمية كبيرة. فهذه الوثائق تحتوي على معلومات قيمة، حتى وإن كانت مقتضبة، حول المستأجرين. فبالإضافة إلى اسم المستأجر أو أسماء المستأجرين، تمدنا بمعلومات عن انتماءاتهم العرقية والطائفية، وفي كثير من الحالات، عن انتماءاتهم المناطقيّة، وكذلك عن أماكن إقاماتهم. فمن خلال الاطلاع على جزء من هذه العقود تبين أن عدد التجار الذين تم تحديد هوياتهم ليس قليلا. وفي هذا السياق تشير الوثائق، على سبيل المثال، إلى تاجر من أشراف مدينة سوسة: سيدي حسن بن الحاج عمر، كما تشير إلى الحاج محمد النمير والحاج عثمان العباسي، وكليهما من تجار مدينة تونس[٤٢]. وعلى الرغم من أن التجار الجرابة كانوا هم الأكثر ذكرا في الوثائق المحلية، كما سبقت الإشارة، فإن علاقات جربة بطرابلس كانت من الأهمية بحيث لم تخل الوثائق الفرنسية بدورها من إشارات إلى العديد منهم؛ فمن بين هؤلاء يمكن أن نذكر، على سبيل المثال لا الحصر، سيدي عمر الباسي الذي تمّ التعريف به كتاجر جربي خبير في الشاشية ومقيم في طرابلس، ورحومة الهواش والذي تم التعريف به أيضًا كتاجر جربي مقيم في طرابلس والتي كان يمتد نشاطه منها ليشمل كل من مصراتة وجربة[٤٣].

إن تناول موضوع الجالية التونسية في طرابلس من منظور يولي اهتماما أكبر للأفراد، يعدّ، في اعتقادي، خطوة جدّ مهمة لمن رام دراسة المجتمع التجاري الطرابلسي. فهذه المقاربة تسلط الضوء على ظاهرة قليلا ما تناولتها الأعمال الكلاسيكية، والمتمثلة بشكل خاص في مقدرة هؤلاء الأفراد/التجار الذين أقاموا في طرابلس لفترات طويلة، على الاحتفاظ بهويتهم "الوطنية" على الرغم من انتمائهم إلى دار الإسلام. والتوسّع في هذه النقطة وفيما يمكن أن تطرحه من أسئلة/تساؤلات يبعدنا عن موضوع هذه الدراسة، غير أنها تدفع بنا إلى التفكير في الآليات التي مكّنت هؤلاء التجار من الاحتفاظ بهويتهم التونسية رغم إقامتهم الطويلة في طرابلس.

إن التمعّن في نشاط التجار التونسيين كما تصوره المصادر المحلية والأجنبية، المعتمد عليها في هذه الدراسة، يبيّن ارتباط هذا النشاط بشكل رئيسي بحركة المبادلات بين مدينة طرابلس والمدن التونسية، أما التعامل مع مناطق أخرى داخل ايالة طرابلس وخارجها فقد بدا محدودا واقتصر على عدد قليل منهم. وهذه الملاحظة حول ارتباط تعامل التجار التونسيين بموطنهم نجد صداها أيضًا في تشكيلهم لشركات الأموال

وشركات القراض التي سيروا من خلالها تجارتهم البعيدة. فجل هـؤلاء التجار فضلوا التعاطي في مثل هـذه المعاملات، في الأغلب، مع أبناء جاليتهم. والأمثلة في هذا الشأن متعددة، من ذلك ما ذكر في سجلات محكمة طرابلس الشرعية عن شركة قامت بين أحمد بن رزين الجربي وأخيه محمد تتعلق بتجارة فلفل ولَك، وبينه أيضًا وبين مجموعة من التجار الجرابة بخصوص تجارة لفة؛ وشركة بين قاسم بن حمودة بن زهرا الجربي ومحمد بن رمضان الجلولي الصفاقسي بخصوص صوف؛ كما ذكرت معاملات أمانة بين التاجر الحاج شعبان كردع الجربي والحاج علي بن عيسى الجربي؛ وذكر أيضًا الأخوان يحي وشعبان بعيرة كشريكين في تجارة متعددة السلع شملت بالإضافة إلى طرابلس مدن تونس وجربة وأزمير واسلامبول؛ هذا كما أشار حسن الفقيه حسن في يومياته إلى شركة قائمة بين محمد الهواش الجربي وتاجر صفاقسي (لم يُسَمّه) تتعلق بتجارة أقمشة[٤٤].

من ناحية أخرى، فإن وجود ممثلين/ وكلاء لبايات تونس في طرابلس، يبدو أكثر من محفز لكل الذين فضلوا الحفاظ على هويتهم "الوطنية" من التجار التونسيين. دون أن نغفل بطبيعة الحال عن عامل تجاور البلدين، فضلا عن وقوع جربة الجزيرة-المحطة في منطقة يمكن وصفها بالحدودية؛ هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن الوضع السياسي والاقتصادي الحرج والمضطرب في طرابلس، لا سيما في نهاية القرن الثامن عشر- بداية القرن التاسع عشر، لا يشجع كثيرًا التجار الذين كانوا أكثر حرصًا من غيرهم من الفئات الاجتماعيّة على الدفاع عن مصالحهم وحماية ممتلكاتهم، على التخلي عن ولائهم لبلدهم الأصلي. فـ"رأس المال جبان"، يقول المثل.

والحديث عن وجود جالية تونسية في طرابلس يحتاج لتوضيح ذلك أن عملية التخلي عن هوية المنطقة/الموطن الأصلي وانتحال هوية المنطقة/الموطن الجديد ليست مجرد حدث بل سيرورة لها محطات عدة يصعب، بسبب تداخلها، رصد تواريخها. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ التحوّل على سبيل المثال إلى محليين أو الاستقرار في موطن جديد مع الاحتفاظ بهوية الموطن الأصلي لا يمكن التعويل عليه بالكامل ذلك أن عامل التحوّل يمكن رصده داخل الإقليم/ القطر الواحد. فالتاجر الجربي أو الصفاقسي الذي يغادر مدينته ويستقر في مدينة تونس عادة ما يحتفظ بهوية الموطن الأصلي ولا يعرف في موطنه الجديد إلا باسم مدينته. وكذلك الأمر بالنسبة لتجار إيالة طرابلس الذين يتخذون من مدينة طرابلس موطنا لهم. وهذا الأمر يفسر- في تقديري ووفق ما تذكره ذات التقارير تشكّل الجالية التونسية في طرابلس من مجموعات وحدتهم أصولهم المناطقية التي ميزتهم لا فقط عن الطرابلسيين بل وميزتهم أيضًا عن أبناء بلدهم. فمن خلال العرض المقدم لبعض التجار الذين ينتمون إلى مدن تونسية مختلفة، افترض، أن قدرتهم على الحفاظ على هويتهم "الوطنية" يمكن تفسيرها من خلال تحوّل هـؤلاء التجار من مجرد أفراد ناشطين في الفضاء الطرابلسي/الليبي إلى جماعة موحّدة تمكّنت بفضل تماسكها أن تحتل مكانة متميّزة في المجتمع الطرابلسي، خاصة في عهد يوسف باشا (١٧٩٥-١٨٣٢). وهذا التمييز يتضح جليا في عهد هذا الأخير حيث السلطة، محلية أو أجنبية، ما فتئت تدعوهم كمجموعة للمشاركة في المناسبات الخاصة[٤٥].

إن مسألة تحوّل هؤلاء التجار من مجموعة أفراد إلى جماعة متماسكة ومتناغمة هي مسألة مهمة للغاية. ومع ذلك، فإن إثارة هذه المسألة على نطاق واسع يأخذ في الاعتبار كل مجموعة من التجار المنحدرين من المناطق التونسية المختلفة بوصفها جماعة قائمة بذاتها يبدو غير ممكن في الوقت الحالي، خاصة وأن المصادر لا تساعدنا كثيرا. عليه، وبالنظر إلى المعطيات المتاحة، سيتم التركيز، بشكل خاص، على جماعة التجار الجرابة. فعلى الرغم من أن هؤلاء التجار لا يمكن اعتبارهم نموذجًا يعكس نسقًا عامًا اعتمده جميع تجار ايالة تونس المقيمين في طرابلس، إلا أن عدد الجرابة الكبير مقارنة بغيرهم وانتمائهم إلى مجموعة مميزة (جماعة الجرابة) هي مسألة لا يمكن تجاهلها، خاصة عندما يتعلق الأمر بالتحول المنوه إليه. ففي الواقع وأيا كانت أسباب هذا التحوّل، فإن تعدّد وتواتر ذكر التجار الجرابة على وجه الخصوص، من بين كل تجار الجالية التونسية، يجعلان منهم مثالا يعزز الفرضية المقترحة.

لقد شكّل التجار الجرابة، كما سبق الذكر، أكثر من نصف التجار التونسيين المقيمين في طرابلس (خمسون تاجرا من مجموع سبع وثمانين تاجرا أي بما نسبته ٥٧،٤٧%)، الأمر الذي يعود إلى حد كبير، من ناحية، إلى أهمية هذه الأخيرة كمركز ومحطة أساسية لتجارة جزيرة جربة مع بلدان المشرق، ومن ناحية أخرى إلى العلاقات التاريخية العميقة التي تربط جربة بطرابلس، سواء على المستوى السياسي/ الإداري[٤٦]، أو على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية[٤٧]. فبفضل قدم هذه الصلات والتواجد الكثيف لتجار جربة في طرابلس، تمكّن هؤلاء الأخيرين من تشكيل تجمّع خاص بهم ضمن الجالية التونسية. بكل تأكيد، لا يمكن الجزم بأن التجار التونسيين

الآخرين لم يشكلوا بدورهم تجمعات مشابهة قائمة على وحدة الانتماء المناطقي أو الجهوي، غير أن المصادر لا تساعد على تطوير هذه النقطة. فباستثناء بضع إشارات موجزة ومقتضبة عن تجار مدينة صفاقس بوصفهم جماعة (الصفاقسية/ جماعة الصفاقسية)[٤٨]، لا توجد أي معلومات فيما اطلعت عليه من وثائق، عن وجود تجمعات تونسية أخرى من هذا النوع. عليه، يمكن المجازفة بالقول بأنه من بين جميع تجار دار الإسلام، كان تجار جربة هم الوحيدون الذين ظهروا كمجموعة متفردة.

فالتدقيق في المصادر المحلية (سجلات المحكمة الشرعية ويوميات حسن الفقيه حسن على وجه الخصوص) يكشف عن شواهد متعددة تخصّ هؤلاء التجار بوصفهم مجموعة خاصة في المجتمع الطرابلسي/ الليبي تشكلت على أساس الانتماء المناطقي المشترك (الجرابة/ جماعة الجرابة). إن خصوصية هؤلاء التجار لا يفسرها نشاطهم المميز والذي مكنهم من احتلال مكانة بارزة في أوساط الأعمال في الإيالة وحسب، بل ويفسرها أيضًا انتمائهم لجماعة جد متماسكة. من ذلك ما تذكره المصادر بخصوص وجود رواق خاص بهم (جعبة الجرابة) يقع في سوق الرباع الجديد؛ كما كان لهم حي خاص في أحد أحياء منطقة المنشية في طرابلس لا يزال يحمل حتى اليوم اسم شارع الجرابة[٤٩]. هذا ويذكر حسن الفقيه حسن أن جماعة الجرابة كانت تشارك في النقاشات التي كانت تثار حول عدد من المسائل التجارية. ففي سياق الحديث مثلا عن مسألة تتعلق بقيمة الضرائب التي يجبيها ملتزمو الجمارك اليهود عن عمليات استيراد الأرز والزيت، يذكر حضور هذه الجماعة مع جماعة البلاد (وجهاء مدينة طرابلس) في الاجتماع الذي عقده شيخ البلد لإعادة النظر في قيمة هذه الضرائب[٥٠].

إن أهمية مكانة ودور هذه الجماعة في طرابلس يشير من ناحية إلى تنوع الصلات بين طرفين، أحدهما أجنبي والآخر محلي، ويؤكد، من ناحية أخرى، متانة العلاقات المختلفة التي ربطت مناطق الجنوب التونسي ومناطق غرب إقليم طرابلس بالرغم من استقلالية كل من الطرفين. في هذا السياق، سوف أقتصر على ذكر واقعتين تؤكدان بشكل قاطع مسألة خصوصية الجرابة كجماعة قائمة بذاتها ضمن الجالية التونسية. ففي إطار سرده لأخبار حملة سردينيا على مدينة طرابلس في سنة ١٨٢٧، يذكر حسن الفقيه حسن أنه كان واحدا من المدافعين عن المدينة، مضيفًا أنه اختار موقعه بين جماعة الجرابة التي شاركت أيضًا في الدفاع عن المدينة[٥١]. من جهة أخرى، وبما أن العلاقة بين الجرابة والطرابلسيين كانت قائمة على الشراكة والتكامل بين الجنوب التونسي وغرب إيالة طرابلس، فقد كان من الطبيعي أن تكون المصالح متبادلة. ومن هنا فقد أكد المرسوم الصادر عن علي باشا قرمانلي (١٧٥٤-١٧٩٢)، في سنة ١٧٧٥ والقاضي بتعيين ممثل لتجار طرابلس في مدينة الإسكندرية، على أن تجار جربة هم أيضًا موضع رعاية هذا الممثل أسوة بالتجار الطرابلسيين[٥٢].

لكن، وحيث أن العلاقات عادة ما تكون معقدة ومتغيرة أيضًا، فقد كان من البديهي أن ينعكس هذا الأمر على جماعة الجرابة وهو ما يمكن إدراكه من خلال الأخبار التي ينوّه ببعضها صاحب اليوميات. ففي سياق حديثه عن مشاركة تجار جربة كجماعة في المناسبات السعيدة التي تنظمها السلطات المحلية والتونسية يذكر حسن الفقيه حسن حضورهم المأدبة التي أقامها الوكيل التونسي على شرف بعض أعيان ومخازنية طرابلس؛ كما يذكر أيضًا حضورهم، رفقة بعض قيادات المدينة السياسية ووجهائها، الحفل الذي أقيم بمناسبة ختان أحفاد يوسف باشا[٥٣]. مع ذلك فإنه يجب التنبيه إلى أن هذه المكانة التي حظي بها تجار جربة بحسبان انتمائهم إلى جماعة تحظى بالتقدير في الإيالتين لها محاذيرها؛ ففي حال تورط أحد أفراد جماعة الجرابة في عمل يعتبر معاديا لحكومة طرابلس، يقول صاحب اليوميات، فإن الجماعة تكون بأكملها معنية بالأمر. فخلال الحرب الأهلية (١٨٣٢-١٨٣٥) في طرابلس مثلا، تم القبض على التاجر الجربي أحمد الباسي بتهمة مراسلة الآغة عثمان الأدغم حاكم مصراتة المنشق عن حكومة طرابلس، وعند أمر الباشا بتفتيش بيته تم إحضار جماعة الجرابة كما تم أيضًا اطلاعهم على دليل تورطه[٥٤]. ولعل المثير للاهتمام في هذه القضية هو تدخل الوكيل التونسي رجب بن علي قاسم في إطلاق سراح أحمد الباسي رغم وجوده خارج المدينة. ليس هذا وحسب، بل وقد كان من بين المعارضين لسلطة الباشا. هذا ويشير حسن الفقيه حسن إلى أن هذا الوكيل تواصل في هذا الشأن مع حسونة قبطان الموراني قائد السفينة التونسية المتواجدة في ميناء طرابلس في تلك الأثناء والتي كانت تحمل شاوش السلطان العثماني[٥٥].

خَاتمَةٌ

إن التركيز في هذه الدراسة على التجار التونسيون في طرابلس، وعلى بروزهم كجالية تتشبث بهويتها التونسية، رغم انتماء الإيالتين إلى فضاء سياسي واحد، الدولة العثمانية، قد ينتهي بنا إلى إعادة النظر في بعض المسلمات. فالدراسات الحديثة، القوموية والإسلاموية والتي عالجت موضوع نشأة الدولة تذهب، ولأسباب مختلفة، إلى أن ظهور الدولة القطرية وَهْمٌ تكفّل المحتل بتسويقه انطلاقًا من مفهوم الدولة – الأمة. بناء عليه، تكون فرضية وجود إرهاصات مبكرة لتشكل دولة قطرية في العديد من بلدان دار الإسلام هي فرضية لا أساس لها من الصحة ذلك أن الدولة القطرية هي صناعة استعمارية بامتياز.

لا أحد ينكر دور المحتل في ظهور الدولة الحديثة في بلدان دار الإسلام، لكن الحرص على تجاهل دور الحراك المحلي في ظهور نزوع مبكر للاستقلال عن الدولة العثمانية وبناء دولة "قطرية" يفقد وجهة نظر هؤلاء قيمتها. فالدولة عادة ما تدين في قيامها لعاملين واحد خارجي، ويكون في غالب الأحيان الأهم، وآخر محلي. وقد كان من الممكن الاستشهاد ببعض التجارب التي اختبرتها الإيالتين قبل الاحتلال، تجارب سياسية قادت إلى ظهور شكل من أشكال الحكم الذاتي، لكني ارتأيت التركيز على عامل غير سياسي نادرًا ما يتم الالتفات إليه ذلك أن الدارسين لموضوع الدولة لا يرون من هذه الأخيرة سوى بنيتها الفوقية.

الاحالات المرجعية:

(1) André Raymond, « Les commerçants ottomans « étrangers » au Caire au XVIII(e) siècle », in *Gens de passages en Méditerranée de l'Antiquité à l'époque moderne, Procédures de contrôle et identification*, sous la direction de Claudia MOATTI et Wolfgang KAISER, (Paris : Maisonneuve & Larose, 2007), 263.

(٢) إن مشكلة المصادر المتعلقة بتحديد هوية الأشخاص والصعوبة التي تمثلها في عملية التمييز بين العابرين والمقيمين الدائمين في الدولة العثمانية وولاياتها بشكل عام، تناولتها بشكل موسع وتفصيلي الباحثة المؤرخة نيللي حنا في دراستها الخاصة بالشبكات في العالم العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، انظر:

Nelly Hanna, « Les réseaux dans le monde ottoman aux XVIe et XVIIe Siècles : le migrant et l'étranger », in *Gens de passage en Méditerranée de l'antiquité à l'époque moderne : Procédures de contrôle et d'identification*, sous la direction de Claudia MOATTI et Wolfgang KAISER, (Paris : Maisonneuve & Larose, 2007), 118-120.

(٣) ففي الوقت الحاضر توجد أسماء عائلات في ليبيا مثل: المصري، والاسكندراني، والسوداني والجزائري (وينطق الدزيري) والشامي، والتركي، والقريتلي، والازمرلي والقرمانلي والقرجي، والقرقني، والقابسي، والمهدوي، والقروي، والمدنيني، والصفاقسي، والمطماطي، والجربي، والبسيكري، والفاسي، المغربي... إلخ. ونفس الأمر ينطبق بالمقابل على الليبيين الذين استقروا في بلدان العالم العربي لسنوات عديدة وكونوا جزءا من نسيجها الاجتماعي ولكنهم احتفظوا بألقاب تدل على موطنهم الأصلي. من ذلك على سبيل المثال اننا نجد في تونس اليوم مواطنين تونسيين يحملون أسماء تشير إلى مدن ومناطق وقبائل مختلفة في الأراضي الليبية مثل: الطرابلسي، الزواري، الزليطني، المصراتي، الفزاني، الغدامسي، الدرناوي، والبنغازي والفرجاني والمحمودي... إلخ.

(٤) انظر بخصوص وجود وكيل مغربي في طرابلس: عبد الهادي التازي، **أمير مغربي في طرابلس ١١٤٣ هـ/١٧٣١، أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقي**. (المغرب: مكتبة فضالة، دون تاريخ)، ٢٥٤. حيث يذكر التازي أن بداية هذا النوع من التمثيل المغربي في طرابلس يعود إلى عهد المولى سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢) وأن أول وكيل مغربي كان الشيخ الريفي الذي تم تعيينه في هذه الوظيفة في سنة ١٧٩٥. وبخصوص الوكيل الجزائري في طرابلس ("قنصل الجزائر") انظر: جوناثان كودري، **يوميات الطبيب جوناثان كودري في طرابلس الغرب (١٨٠٣-١٨٠٥)، طبيب البارجة الأمريكية فيلادلفيا**. ترجمة وتعليق عبد الكريم أبو شويرب (طرابلس: الجمعية الليبية لتاريخ العلوم الطبية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨)،٨١؛ وحول وجود وكيل مصري بطرابلس انظر: سامح ابراهيم عبد العزيز، **العلاقات بين مصر وطرابلس الغرب في عهد الأسرة القرمانلية**. سلسلة الدراسات التاريخية رقم ٨٧ (الجماهيرية الليبية: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٨)، ٢٥١-٢٥٢؛ أما فيما يتعلق بالمبعوثين العثمانيين إلى طرابلس والذي ارتبط وجودهم بالدفاع عن مصالح التجار من

الأتراك العثمانيين فانظر: حسن الفقيه حسن، **اليوميات الليبية، الجزء الأول ٩٠٨-١٢٤٨ هـ (١٥٥١-١٨٣٢)**. تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، سلسلة نصوص ووثائق رقم ٧-١ (الجماهيرية الليبية: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط ٢، ٢٠٠١)، ٣٦٥، ٤٠٥، ٤٠٦، ٥١٤، ٥٨٤، ٥٩١، ٦٣١؛ حسن الفقيه حسن، **اليوميات الليبية، الجزء الثاني الحرب الأهلية ونهاية العهد القرمانلي ١٢٤٨-١٢٥١ هـ (١٨٣٢-١٨٣٥)**. تحقيق عمار جحيدر، سلسلة نصوص ووثائق رقم ٧-٢ (الجماهيرية الليبية: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠١)، ٩٠، ٧٨٩.

(٥) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية (سيشار إليه لاحقًا بالاختصار التالي: م. ل. م. د. ت)، سجلات محكمة طرابلس الشرعية (سيشار اليه لاحقًا وفق الاختصار: س. م. ش)، **سجل رقم ٦٤٠** (١١٧٤-١١٧٧)، ٩٥؛ **سجل رقم ٦٤١** (١١٧٧-١١٧٩)، ٢٠؛ **سجل رقم ٦٤٣** (١٢٠٤-١٢١٥)، ٢٤، ٩٧؛ **سجل رقم ٢٥١** (١٢١٧- ١٢٢٢)، ١٣٦؛ حسن الفقيه حسن، **اليوميات**، ج١، ٦٢٤، ٦٣٣؛

Centre d'Archives Diplomatique de Nantes, Tripoli de Barbarie, consulat, carton n°6 (document daté du 16 septembre 1783), carton n°7 (document daté du 1(er) décembre 1785).

(٦) م. ل. م. د. ت، س. م. ش، **سجل رقم ٥٩٤** (١١٣٤-١١٤٠)، ٢٩، ٩٧، ٣٣٣،٣٣٦، ٤٣١؛ **سجل رقم ٥٩٢** (١١٤٥)، ٢٩، ٣٠؛ **سجل رقم ٦٤٠** (١١٧٤-١١٧٧)، ١٠٨؛ **سجل رقم ٦٤١** (١١٧٧-١١٧٩)، ٢٣، ٥٣؛ **سجل رقم ٦٤٣** (١٢٠٤-١٢١٥)، ٢٤؛ **سجل ٥١٢** (١٢٠٦-١٢١٤)، ١٦٧؛ **سجل رقم ٢٥١** (١٢١٧- ١٢٢٢)، ١١٥، ١٣١؛ **سجل رقم ٢٨٠** (١٢٣٠-١٢٥١)، ١٥، ٢٢؛ الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ١٩١، ١٩٢، ٢٣٩، ٣٦٨-٣٦٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٦، ٦١٨، ٦٢١، ٦٢٦.

(٧) م. ل. م. د. ت، س. م. ش، **سجل رقم ٥٩٤** (١١٣٤-١١٤٠)، ١٧، ٢٧٤،٥٥٣، ٥٥٤؛ **سجل رقم ٥٩٢** (١١٤٥)، ٣٠؛ **سجل رقم ٦٤٠** (١١٧٤-١١٧٧)، ٥٤-٥٥، ١٢٨، ١٤٣؛ **سجل رقم ٦٥٩** (١١٨٠-١١٨٢)، ١٧؛ **سجل رقم ٦٤٣** (١٢٠٤-١٢١٥)، ٢٨، ٩٧؛ **سجل ٥١٢** (١٢٠٦-١٢١٤)، ١١٣، ١٢٦، ١٦٧؛ **سجل رقم ٢٥١** (١٢١٧- ١٢٢٢)، ٥، ١٠٤؛ جورجو كابوفين، **طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر**، ترجمة عبد السلام مصطفى باش إمام، مراجعة عمر محمد الباروني، سلسلة الكتب المترجمة رقم (٩). (الجماهيرية الليبية: مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، ١٩٨٨)، ٦٣؛

Centre d'Archives Diplomatique de Nantes, Tripoli de Barbarie, consulat, carton n°6 : « Tableau des marchandises qui ont été exportées de Tripoli de Barbarie en pays étrangers pendant le courant de l'année 1783 », carton n°7 : « Tableau des marchandises qui ont été exportés (*sic*) de Tripoly (*sic*) de Barbarie en pais (*sic*) étrangers pendant le court (*sic*) anne (*sic*) 1787 ».

(٨) فبحسب تقرير القنصلية الفرنسية عن صادرات ايالة طرابلس لعام ١٧٨٧ المشار إليه في الحاشية السابقة، يذكر أنه تم إرسال ٤٥٠ عبدًا إلى تونس من ميناء طرابلس وحده.

Centre d'Archives Diplomatique de Nantes, Tripoli de Barbarie, consulat, carton n°7 :« Tableau des marchandises qui ont été exportés (*sic*) de Tripoly (*sic*) de Barbarie en pais (*sic*) étrangers pendant le court (*sic*) anne (*sic*) 1787 ».

على أنه تجدر الإشارة أيضًا إلى أن تونس حافظت على علاقات مباشرة، عبر طريق القوافل، مع غدامس، التي كانت أحد المراكز الرئيسية لإعادة توزيع البضائع السودانية.

(٩) منصور علي الشريف، **عائلة المُكنى، أبناؤها وأدوارهم في التاريخ الليبي**. سلسلة الدراسات التاريخية رقم (٥٢). (الجماهيرية الليبية: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٣)، ٣٨-٤١.

(١٠) من بين هذه العائلات يذكر على سبيل المثال: القرقني، الجمل، زغوان، القلهود. هنريكو دي أغسطيني، **سكان ليبيا**، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، ج ١ (طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٠)،٦٤، ٦٥، ٧٠، ٧١، ٧٣، ٧٤.

(١١) انظر بخصوص تبعية إقليم طرابلس لتونس خلال كل هذه المرحلة، على سبيل المثال، ايتوري روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١**. ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي (طرابلس: الدار العربية للكتاب، ط ٢، ١٩٩١)، ٣٠-٥١، ٨٠-٩٣، ٩٩، ١١٣-١١٧. وفيما يتعلق بانتهاء هذه الهيمنة التونسية، تشير المصادر إلى أنه في عام ١٤٦٠، وبعد الاضطرابات التي شهدتها طرابلس، طُرد الوالي التونسي المعين من قبل السلطان الحفصي من المدينة، التي أصبحت مستقلة في شكل حكومة "جمهورية" نوعا ما، حتى الغزو الإسباني عام ١٥١٠. بحسب وصف صاحب الحوليات الطرابلسية، فيرو: Laurent-Charles Féraud, *Annales Tripolitaines*, présentation de Nora Lafi (Saint-Denis : Editions Bouchene, 2005), 41-43.

(١٢) إنعام محمد شرف الدين، **مدخل إلى تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي، دراسة في مؤسسات المدينة التجارية (١٧١١-١٨٣٥)**، سلسلة الدراسات التاريخية رقم (٢٧). (الجماهيرية الليبية: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٩٨) ٢٤٣-٢٤٧.

(١٣) للحصول على لمحة عامة عن تاريخية ترسيم هذه الحدود، انظر على سبيل المثال:

Jules Le Bœuf, *Les confins de la Tunisie et de la Tripolitaine, Historique du tracé de la frontière* (Paris- Nancy : Berger-Levraut &C(ie) Editeurs, 1909).

(١٤) وثيقة نشرها عمار جحيدر، **آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث**. (طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٩١)، ٢٢١-٢٢٢.

(١٥) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٧٥-٢٧٦.

(١٦) محمد بن عمر التونسي، **الرحلة إلى وادي**، تحقيق ودراسة عبد الباقي محمد أحمد الكبير (الخرطوم: دار منكوب، ٢٠٠١)، ٤٣٢.

(١٧) نقلاً عن الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ١٨٣ (حاشية). ولعله من الجدير بالتنويه أنه في حين ترجح بعض الدراسات أنّ بداية تبادل الوكلاء بين طرابلس وتونس كانت في عهد حمودة باشا (١٧٨٢-١٨١٤) وتحديدًا في العقد الأخير من القرن الثامن عشر (جحيدر، **آفاق**، ١٩٩١، ٢١١)، وهو رأي نؤيده أيضًا لاعتبارات متعددة تتعلق بوجود ممثلين لايالة طرابلس في الخارج منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر ليس هنا مجال ابرازها؛ فإن بعض الباحثين التونسيين يربطون بدايات إرساء قناصل ووكلاء لتونس في الخارج (في أوروبا والدولة العثمانية وولاياتها) بإنشاء قسم الشؤون الخارجية بباردو في إطار الاصلاحات السياسية والإدارية التي بدأها أحمد باي تونس. انظر في هذا الخصوص:

Mounir Abid, «Acteurs et enjeux de la politique étrangère de la Tunisie Husseinite au XIXe siècle: constantes et mutations», *Revue d'Histoire Maghrébine*, 134 (2009): 22; Mehdi Jerad, «Les agents des beys de Tunis au XIXe siècle: entre intérêts de pouvoir et enjeux marchands», *Cahiers de la Méditerranée* [En ligne], 98 | 2019, mis en ligne le 01 décembre 2019, consulté le 08 septembre 2020. URL: http://journals.openedition.org/cdlm/11398 ; DOI : https://doi.org/10.4000/cdlm.11398.

(١٨) يذهب منير عبيد استنادًا على ما هو محفوظ من مراسلات القناصل والوكلاء التونسيون مع بلادهم في الأرشيف التونسي إلى أن أول وكيل تونسي في طرابلس هو رجب بن علي قاسم الذي تولى هذه الوظيفة خلال سنوات ١٨٢٦-١٨٤١. انظر: Abid, « Acteur, », 36.

(١٩) م. ل. م. د. ت، س. م. ش، **سجل رقم ٦٥٩ (١١٨٠-١١٨٢)**، ٧٢.

(20) Centre d'Archives Diplomatique de Nantes, Tripoli de barbarie, consulat, carton 7 :

العقود في هذا الشأن عديدة انظر على سبيل المثال تلك المؤرخة في١٧ أغسطس ١٧٨٤، ١٣ يوليو ١٧٨٦، ٦ أغسطس ١٧٨٦ و١٥ مارس ١٧٩٢.

(٢١) م. ل. م. د. ت، س. م ش، **سجل رقم ٢٥١ (١٢١٧-١٢٢٢)**، ٥.

(٢٢) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ٢٥٣.

(٢٣) نقلا عن جحيدر، **آفاق**، ١٩٩١، ص. ٢٣٧-٢٣٨.

(24) Abid, "Acteurs," 2009, 36.

(٢٥) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ٢، ٢٠٠١، ٤١٦؛ انظر أيضا فيما يتعلق بتفاصيل إقامة هذا المبعوث ومقابلاته ومفاوضاته في طرابلس، الصفحات: ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٣؛ وللاطلاع على جذور هذه القضية، انظر الصفحات: ٣٩٠، ٣٩١، ٤٤٣.

(٢٦) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ٢، ٢٠٠١، ٥٤، ٨٨، ٢٤٦، ٣٤٤، ٣٤٨، ٥٨٥.

(٢٧) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ٢، ٢٠٠١،٤١٩، ٥٤٦، ٥٤٨، ٥٨٥.

(٢٨) م. ل. م. د. ت، س. م ش، **سجل رقم ٢٨٠ (١٢٣٠-١٢٥٢)**، ٢٨٣.

(٢٩) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ١٩٢-١٩٢. من جانب آخر ظهر أبو سلامة أبو شداخ كأحد الموقعين الرئيسيين على الرسالة المشار إليها آنفا والتي أرسلها التجار التونسيون المقيمين في طرابلس إلى باي تونس. جحيدر، **آفاق**، 1991، 237-238. ولعله من الجدير بالذكر أنّه حتى منتصف القرن العشرين كان لا يزال هناك زقاق (زنقة) في مدينة طرابلس القديمة يحمل اسم شداخ: علي الصادق حسنين، "شارع كوشة الصّفار بين ذاكرتين"، محاضرة ألقيت في مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية يوم ٢٦ يونيو ٢٠٠٨.

(٣٠) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ٢٣٣، ٤٠٦.

(٣١) م. ل. م. د. ت، شعبة الوثائق والمخطوطات العربية، مجموعة الفقيه حسن، ملف رقم ٢٤، المجموعة رقم ٥، وثيقة رقم ١٥٣.

(٣٢) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ٦٣٣. انظر بالخصوص أيضا المصدر نفسه، ج ٢، ٢٨٩.

(٣٣) م. ل. م. د. ت، س. م. ش، **سجل رقم ٢٨٠ (١٢٣٠-١٢٥٢)**، ٢٨٣.

(٣٤) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ٤٣١.

(٣٥) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ٢، ٢٠٠١، ٧٦، ٢٨٩.

(٣٦) انظر على سبيل المثال: الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ٣٢١ وج ٢، ٢٠٠١، ٢٥٦-٢٥٧.

(٣٧) تتعدد في الواقع الإشارات التي توضح دور هذه الشخصية في المسائل المتعلقة بالتجار التونسيين في طرابلس من ناحية، وعن استقباله للمبعوثين التونسيين وحضوره مداولاتهم مع سلطات طرابلس، في الفترة التي غادر فيها الوكيل التونسي مدينة طرابلس وأقام في المنشية، معقل المتمردين على باشا طرابلس، من ناحية أخرى. انظر، الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ٢، ٢٠٠١، ٣٠٣، ٣٧٦، ٣٥٢، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٣٧، ٥٤٧، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٦، ٥٥٧. علاوة على ذلك، ذكر صاحب اليوميات في الجزء الذي لا يزال مخطوطا من يومياته، أنّه حتى في الظروف العادية، أظهر أبو سلامة أبو شداخ نفسه على أنه القائم مقام الوكيل رجب بن علي قاسم؛ نقلا عن جحيدر، **آفاق**، 1991، ٢١٦.

(٣٨) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ٢١٦، ٣٢٧، ٢٨٤، ٣٤٩ ؛ الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ٢، ٨٨.

(٣٩) م. ل. م. د. ت. س. م. ش. **سجل رقم ٢٥١ (١٢١٧-١٢٢٢)**، ١٣٠، ١٣٦؛ **سجل رقم ٢٨٠ (١٢٣٠-١٢٥٢)**، ٥٤-٥٥، ٥٥-٥٦؛ الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ١٨، ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٦١، ٦٤، ٧٠، ١٨٢-١٨٤، ٢١٨.

(٤٠) م. ل. م. د. ت، س. م. ش، **سجل رقم ٥٩٤ (١١٣٤-١١٤٠)**، ١٤٠، ٣٦١، ٤٣١.

(٤١) . ل. م. د. ت، س. م. ش، **سجل رقم ٦٤١ (١١٧٤-١١٧٧)**، ٤٣ ، ١٥٧، ١٥٨.

(42) Centre d'Archives Diplomatique de Nantes, Tripoli de Barbarie, consulat, carton 6 (document daté le 31 août 1781) ; carton 7 (document daté le 15 juin 1785) ; carton 8 (documents datés le 8 février 1788).

(43) Centre d'Archives Diplomatique de Nantes, Tripoli de Barbarie, consulat, carton 1, (Document daté le 5 mai 1749) ; carton 8, (document daté le 30 juillet 1788).

هذا وتجدر الإشارة إلى أن المصادر المحلية الخاصة ببداية القرن التاسع عشر تذكر اسمي تاجرين تونسيين يبدو أن لهما صلة بالاسمين المذكورين في الوثائق الفرنسية والمشار إليهما في المتن وهما التاجر أحمد الباسي، وهو من جربة أيضا، والتاجر محمد الهواش. حسن الفقيه، **اليوميات**، ج١، ٢٠٠١، ١٨٢-١٨٤، ٢١٦؛ حسن الفقيه، **اليوميات**،ج ٢، ٦٩.

(٤٤) م. ل. م. د. ت، س. م. ش، **سجل رقم ٥٩٤ (١١٣٤-١١٤٠)**، ٧٧، ١٤٠، ٤٣١؛ **سجل رقم ٥٩٢ (١١٤٥)**، ٣٩؛ **سجل رقم ٢٨٠ (١٢٣٠-١٢٥٢)**، ٥٤-٥٥، ٥٥-٥٦؛ الفقيه حسن، **اليوميات**، ج١، ٢٠٠١، ٢١٦.

(٤٥) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ٤٠٩، ٦٤٣.

(٤٦) كانت تبعية جزيرة جربة، طوال العصور الوسطى وحتى بدايات العصر الحديث غير محددة، فهي تتبع تارة للأراضي الليبية وطورا للتونسيّة. وبالرغم من ضمها رسميًا إلى إيالة تونس منذ بداية القرن السابع عشر، فإن المصادر تشير إلى أن مشائخها/ حكامها كثيرًا ما كانوا يلجؤون إلى باشاوات طرابلس عندما تقع خلافات بينهم وبين السلطات التونسية. انظر بالخصوص، على سبيل المثال، محمد أبو راس، **مؤنس الأحبة في أخبار جربة**، حققه ومهد له محمد المرزوقي، قدم له حسن حسني عبد الوهاب. (تونس: نشريات المعهد القومي للآثار والفنون بتونس، ١٩٦٠)، ٣٩-٤٦، ١٠١-١٢٤.

(٤٧) تجدر الإشارة هنا إلى أنّ التجانس الإثني والمذهبي الكبير بين جربة وبين مناطق جبل نفوسة وزوارة (سكان من أصول أمازيغية ويتبعون المذهب الإباضي)، كان قد عزّز علاقات الجزيرة بإقليم طرابلس. انظر في هذا الصدد، محمود أبو صوة، **دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط**، (فاليتا: الجا، ٢٠٠٠)، ١٠٣-١٠٦.

(٤٨) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ٢، ٢٠٠١، ٣٩٠، ٣٩٣، ٤١٦، ٤٣٠.

(٤٩) م. ل. م. د. ت، شُعبة الوثائق والمخطوطات، مجموعة الفقيه حسن. ملف ٢٤ المجموعة ٥ وثيقة رقم ١٥٣؛ مجموعة ٦ وثيقة ١٨٤.

(٥٠) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ٥٧٩-٥٨٠.

(٥١) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ٣٢٧.

(٥٢) نقلاً عن عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، "وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية المتعلقة بالمغاربة"، في *المجلة التاريخية المغاربية*، ٧١-٧٢ (١٩٩٣): ٦٥٣. (وثيقة مؤرخة بأواسط جمادى الثانية سنة ١١٨٩ (١٣ أغسطس ١٧٧٥، سجل محكمة الإسكندرية الشرعية رقم ١٠، ١٠٥، وثيقة رقم ٥١).

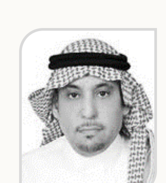
(٥٣) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ١، ٢٠٠١، ٤٠٩، ٦٤٣.

(٥٤) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج ٢، ٢٠٠١، ٣٤٢-٣٤٣.

(٥٥) الفقيه حسن، **اليوميات**، ج٢، ٢٠٠١، ٣٤٦.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

قافلة الحج العراقية ودرب زبيدة في وصف الليدي آن بلنت Lady Anne Blunt ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م



د. سعيد بن دبيس العتيبي
دكتوراه في الآثار والحضارة الإسلامية
الرياض – المملكة العربية السعودية

مُلَخّص

تعتبر كتابات الرحالة الأوروبيون عن الجزيرة العربية من المصادر الأولية المهمة التي يمكن أن يستفاد منها في معرفة بعض المجالات التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية. إذ تشتمل مدوناتهم على وصف مرتبط بمشاهدتهم الحية عن السكان والعمران والطبيعة والأحوال السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وطرق القوافل والآثار في المناطق التي مروا بها أثناء رحلاتهم. الليدي آن بلنت Lady Anne Blunt رحالة إنجليزية قامت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، هي وزوجها ويلفريد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt برحلة إلى شمال الجزيرة العربية شملت منطقة الجوف ومنطقة حائل، ومن مدينة حائل صحبت قافلة الحج العراقية العائدة من مكة المكرمة عبر طريق الحج العراقي المعروف بطريق الكوفة-مكة المكرمة أو (درب زبيدة) حتى مدينة النجف (مشهد علي) في العراق ومنها اتجهت إلى بغداد ثم ايران، لتكمل رحلتها إلى بلاد فارس. استغرقت رحلة الليدي آن بلنت في الجزيرة العربية أربعة وثمانين يومًا وتميزت بأنها اختلطت مع سكان المدن والبادية وقابلت شيوخ القبائل، فحصلت على معلومات ثرية وفريدة عن المناطق التي زارتها مشتملة على معلومات عن النظام السياسي والطبيعة والعادات والتراث ومسالك الطرق. وحين نشرت رحلتها خصصت فيها موضوعًا عن سفرها مع قافلة الحج العراقية بين مدينة حائل ومدينة النجف دونت فيه مشاهداتها أثناء يوميات مسير القافلة. وسوف تتناول هذه الدراسة التعريف بالرحالة الإنجليزية آن بلنت ورحلتها، تركيزًا على وصفها لقافلة الحج العراقية من ناحية تنظيم القافلة ومكوناتها وتجهيزاتها، ووصف مسار طريق الحج العراقي الذي عبرته القافلة وآثاره التي شاهدتها من برك للمياه وآبار وأعمال تسوية الطريق وتمهيده، ومظاهر مشاق السفر ومعاناة الحجاج التي واجهتها القافة في مسيرها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٠	سبتمبر	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٠٢	أكتوبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

طرق الحج؛ طريق حج الكوفة مكة؛ درب زبيدة؛ الرحالة الغربيون؛ الليدي آن بلنت؛ حائل؛ الكوفة؛ النجف؛ قافلة الحج

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.259376

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سعيد بن دبيس العتيبي. "قافلة الحج العراقية ودرب زبيدة في وصف الليدي آن بلنت (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ١٣٦ – ١٤٦.

Corresponding author: saeed301@hotmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

قبل البدء بالحديث عن الليدي آن بلنت ورحلتها مع قافلة الحج العراقية عبر طريق الحج العراقي من المهم تقديم لمحة تاريخية موجزة عن هذا الطريق: في عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ/ ٦٣٤-٦٤٤م) كان الإسلام قد انتشر في جميع أنحاء الجزيرة العربية ووصلت الفتوحات الإسلامية إلى العراق وفارس وبلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، وحيث أن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام لمن استطاع إليه سبيلا، تزايد تدفق أفواج الحجاج نحو مكة المكرمة من البلاد التي وصل إليها الإسلام، وعُرفت عدة طرق للحج تربط الأماكن المقدسة بأرجاء الدولة الإسلامية، منها طريق الحج العراقي بمسارية: طريق الكوفة مكة المكرمة، وطريق البصرة مكة المكرمة، وطريق الحج الشامي وطريق الحج المصري، وطريق الحج اليمني وغيرها من الطرق، وقد اهتم الخلفاء والولاة المسلمون على مر العصور بتسهيل هذه الطرق فأنشئت عليها المحطات ومرافق المياه والخانات والأعلام، كما سهلت مسارات الطرق بتمهيدها ورصفها في الأماكن الوعرة.

طريق الحج العراقي المعروف بطريق الكوفة مكة المكرمة أو درب زبيدة هو الطريق الذي اجتازت آن بلنت مع قافلة الحج العراقية جزئه الشمالي الواصل بين حائل[١] وبغداد ووصفت بعض معالمه ومرافقه، ويعتبر هذا الطريق من أهم طرق الحج خلال العصر الإسلامي، وقد أشتهر باسم درب زبيدة نسبة إلى زبيدة بنت جعفر (ت. ٢١٦هـ/ ٨٣٢م) زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م)، لكثرة إصلاحاتها على الطريق حتى خلد ذكرها على مر العصور.

كان مبدأ هذا الطريق معروفًا منذ فترة ما قبل الإسلام، بوصفه أحد الطرق التجارية التي تصل وسط الجزيرة العربية والحجاز ببلاد الرافدين، وكانت تسلكه قوافل قريش التجارية بين الحيرة[٢] ومكة المكرمة، وبعد تأسيس مدينة الكوفة سنة (١٧هـ/٦٣٨م) في عصر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م) أصبحت بديلاً عن الحيرة، وارتبطت بطريق مباشر للحج إلى مكة المكرمة عرف بطريق الكوفة مكة المكرمة، وبدأت العناية بهذا الطريق منذ عصر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣-٣٥هـ/ ٦٤٤-٦٥٦م)، إذ يذكر انه حفر عين النخل بمنزل فيد[٣]، ومن العصر الأموي ذكر الحربي أن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٠/٦٨٥-٧٠٥م) أحدث محطة الثعلبية[٤]، وفي خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) أمر ولاة البلدان بتسهيل الثنايا وحفر الآبار[٥]، وفي خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/٧٢٠-٧٢٤م) أمر عامله على العراق عمر بن هبيرة أن يقوم بتمهيد الطريق وينشئ عليه الآبار.[٦]

وبعد قيام الدولة العباسية عام (١٣٢هـ/٧٤٩م)، وانتقال عاصمة الخلافة إلى العراق، وتوسع الفتوحات في شرق العالم الإسلامي، أصبح طريق الكوفة مكة المكرمة طريقًا رئيسيًا للحج، ربط شرق العالم الإسلامي والعراق بالمدينتين المقدستين (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، وبلغ الطريق ذروة ازدهاره خلال العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م)، خاصةً العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٧م). إذ عين له الخلفاء ولاة يتعاهدونه بالعناية والإصلاح، واسهم الخلفاء وعدد من المحسنين في عمارة الطريق فأنشئت على مساره القصور والحصون والأسواق والبرك والآبار والأعلام وأعمال الرصف والتمهيد. وشهد الطريق أكثر إصلاحاته وأعظمها في عهد هارون الرشيد وأسهمت زوجته زبيدة بنت جعفر في إنشاء العديد من برك المياه والأحواض والآبار، والاستراحات وأعمال تسهيل الطريق على كامل مساره من الكوفة إلى مكة المكرمة، ويبلغ طول الطريق بين الكوفة ومكة المكرمة قرابة ١٤٠٠كم، ويمتد معظم مساره عبر أراضي المملكة العربية السعودية بطول يبلغ قرابة ١٢٠٠ كيلومتر، ويمر مسار الطريق بمناطق[٧] الحدود الشمالية وحائل والقصيم والمدينة المنورة ومكة المكرمة.

وذكرت المصادر الجغرافية والتاريخية أن عدد المحطات على الطريق بين الكوفة ومكة المكرمة (٥٤) محطة، بالإضافة إلى ما بينها من موارد مائية، وقد جاء ترتيب المحطات الرئيسية على المسار الرئيس للطريق بين الكوفة ومكة على النحو التالي: العذيب، المغيثة، القرعاء، واقصة، العقبة، القاع، زبالة، الشقوق، البطان، الثعلبية، الخزيمة، الأجفر، فيد، توز، سميراء، الحاجر، النقرة، مغيثة الماوان، الربذة، السليلة، العمق، معدن بني سليم، أفاعيه، المسلح، الغمرة، ذات عرق، البستان، مكة المكرمة.[٨]

وخلال النصف الثاني من القرن (الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي)، تغير جزء من مسار الطريق إذ أصبح يتجه من مدينة النجف إلى حائل ثم المدينة المنورة، وذلك على أثر اتفاقية بين إمارة آل رشيد في جبل شمر[٩] وولاة الدولة العثمانية في العراق، تضمن أمارة آل رشيد بموجبها تأمين الطريق، ونقل الحجاج العراقيين وحمايتهم. وقد استفادت منطقة أمارة آل رشيد اقتصاديا من جراء ذلك، وكان هذا الطريق مفضلاً لقوافل الحجاج على طريق البصرة، وظل في

خدمة قوافل الحجيج إلى منتصف القرن (الرابع عشر الهجري/ أول القرن العشرين الميلادي)، وحين ظهور السيارات، وتعبيد الطرق الحديثة، تغير مسار الطريق كليًا، ولم تعدّ أي أجزاء منه مستخدمة. وتعتبر معالم الطريق من أهم معالم الآثار والحضارة الإسلامية الباقية.

وقد تضمنت المصادر الجغرافية والتاريخية معلومات وفيرة عن طريق الكوفة مكة المكرمة وجهود الخلفاء والولاة والمحسنين في إصلاحاته، خاصةً في فترة ازدهاره في عهد قوة الدولة العباسية، فذكرت منازلة من الكوفة إلى مكة المكرمة وفروعه، والمسافات بين المنازل وما يتوفر عليه من مرافق وخدمات من برك وأبار وقصور وخانات ومساجد وأميال..، والأعمال التي تمت عليه لتسهيل مساره مثل أعمال الرصف والتمهيد والتسوية، كما ورد وصف الطريق في الفترات المتأخرة من عصر الدولة العباسية عند كل من الرحالة ابن جبير سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م)[١٠]، ثم ورد له وصف آخر بعد انتهاء عصر الدولة العباسية عند الرحالة ابن بطوطة سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٧م)[١١]، وخلال الفترة من النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين قدم عدد من الرحالة الأوربيون معلومات محدودة عن الطريق خاصة عن جزئه الشمالي الواصل بين النجف وحائل مثل: جورج أوغست والن george August Wallin[١٢] وشارل هوبر Charle Huber[١٣]، وألويس موزل Alois Musil[١٤]، إلاّ أن الليدي آن بلنت ذكرت أنها هي وزوجها ولفريد لهم قصب السبق بين الأوروبيين في عبور الطريق من حائل إلى مدينة النجف في العراق سنة (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م)[١٥].

كما تأتي أهمية رحلة آن بلنت عبر طريق الكوفة مكة المكرمة من كونها تتضمن معلومات فريدة من خلال وصف مشاهده لمراسم تنظيم القافلة ومسيرها ومعالم الطريق الأثرية، وسيقوم منهج هذا البحث على استقراء وصف آن بلنت لقافلة الحج ووصف معالم الطريق، والتعريف بالمعالم التي ذكرتها، بهدف استجلاء المعلومات حول تنظيم قافلة الحج ومكوناتها، والأحداث التي تصاحب مسيرها، بالإضافة إلى تسليط الضوء على مسار الطريق ومعالمه في تلك الفترة.

أولاً: التعريف بالرحالة الليدي آن بلنت ورحلتها

الرحالة الإنجليزية الليدي آن بلنت من الرحالة الأوربيين البارزين وهي تنتمي إلى أسرة نبيلة وغنية، كانت هوايتها اقتناء الخيل العربية الأصيلة وتربيتها والبحث فيها ومن أجل اقتنائها رحلت إلى مواطنها في بلاد العرب، فهي من أوائل الرائدات من الرحالات النساء اللاتي زرن الشرق العربي وكتبن عنه، حيث قامت برحلتين إلى الشرق العربي بصحبة زوجها ولفريد سكاون بلنت، كانت رحلتهما الأولى في مطلع عام (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) إلى العراق وبادية الشام، أما رحلتهما الثانية فكانت إلى الجزيرة العربية وشملت منطقة الجوف[١٦] وحائل. وكانت حائل هي وجهتما الرئيسة لمشاهدة خيول محمد بن رشيد أمير حائل في تلك الفترة، والذي كان يمتلك أفضل إصطبلات الخيول في تلك الفترة، وبدأت رحلتها إلى الجزيرة العربية التي سمتها "رحلة حج إلى نجد" من دمشق حيث وصلت إليها من أوربا بصحبة زوجها ويلفريد سكاون بتاريخ ١٢/١٢/١٢٩٥هـ الموافق ٦ ديسمبر١٨٧٨م، وفي دمشق اتخذا الترتيبات اللازمة لرحلتهما، حيث كانا على موعد مع صديق لهما اسمه محمد العروق كان قد صحبهم في رحلتهم الأولى وهو ابن شيخ مدينة تدمر واتفقا معه ليكون مرافقًا لهم لتسهيل مهمتهم عبر مرورهم بمناطق القبائل في رحلتهم إلى نجد، واعدوا لهذه الرحلة قافلة مكونة بالإضافة إلى محمد العروق من طباخ وأربعة من الخدم والمساعدين، وتم تعبئة القافلة بما يحتاجون إليه من المؤن وأربع ذلائل من النوق واربع جمال لحمل الأمتعة بالإضافة إلى ثلاث من الخيول، ثم انطلقت قافلة الليدي آن بلنت وزوجها ويلفريد في رحلتهما إلى نجد من دمشق مرورًا بحوران واللجاة والحماد ووادي السرحان حتى وصلت إلى الجوف. ومنها توجهت عبر صحراء النفود الكبير إلى حائل لتحل ضيفة عند أميرها محمد الرشيد، وقدمت في كتابها وصفًا عن الحياة الاجتماعية والعمرانية والسياسية والطبيعية في الجوف وحائل والمناطق التي اجتازتها ووصفا لمرابط خيل ابن رشيد في حائل التي تذكر أنها حضرت من أجل مشاهدتها، ومن مدينة حائل صحبت هي ورفقاها قافلة الحج العائدة من مكة إلى العراق عبر طريق الكوفة مكة المكرمة (درب زبيدة) لتكمل رحلتها نحو إيران[١٧].

صدرت رحلة آن بلنت في كتاب باسم (رحلة حج إلى نجد) نشر للمرة الأولى في لندن عام (١٢٩٨هـ/١٨٨١م)، عن دار نشر جون مري John Murray[١٨]، ثم كانت أول محاولة لترجمة الكتاب إلى اللغة العربية عام (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) حيث صدر عن دار اليمامة بالرياض كتاب بعنوان (رحلة إلى بلاد نجد) تضمن فقرات محددة من الكتاب الأصلي وقام بترجمته محمد أنعم غالب وقدم له الشيخ حمد الجاسر. ثم توالى صدور ترجمات أخرى للكتاب حيث صدر عام (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) عن دار المدى للثقافة في دمشق بعنوان (رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية) ترجمة وتعليق أحمد ايبش، أيضًا هناك ترجمة للكتاب صدرت بعنوان (الحج إلى نجد

مهد العرق العربي)، صدرت في جزئين عن المركز القومي للترجمة في القاهرة عام (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ترجمه صبري محمد حسن، وتقديم ومراجعة رءوف عباس حامد، كذلك قام أحمد ايبش بترجمة أخرى للكتاب صدرت عن هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة عام (١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م) بعنوان (حج إلى ربوع نجد مهد قبائل العرب ١٨٧٨- ١٨٧٩م).

ثانيًا: قافلة الحج العراقية وطريق الكوفة مكة المكرمة في وصف الليدي آن بلنت

تبدأ آن بلنت بوصف مشهد قافلة الحج بدءً من اليوم الذي دعاهم الأمير محمد الرشيد للقاء بهم عند بوابة مدينة حائل الغربية (بوابة مكة)، لرؤية عرض للخيل ومبارزة صورية بين الفرسان، حيث تقول انه كان يومًا سعيدًا أن ترى خيول الأمير وهي تجري، وهو الغرض الذي جاءت لأجله، ورؤية مخيم الحجاج ذات الخيام الملونة الزرقاء والحمراء والبيضاء خارج أسوار حائل، وشاهدت الحجاج وهم محتشدين لرؤية عرض الخيل والمبارزة الحية بين الفرسان، بعيون مندهشة بالمنظر، وبدأت علاقة الليدي آن بلنت وويلفريد بالحجاج حينما قام ويلفريد بزيارة لمخيم الحجاج الإيرانيين والتقى بإحدى الشخصيات المهمة من الحجاج واسمه علي قولي خان، كان يسافر في أبهة ويصطحب معه والدته للحج ومعه عدد كبير من الخدم من الرجال والنساء، ومرافقوه يرتدون سترات قصيرة من اللباد وقلانس صغيرة مما يظهره كرئيس مهم، وكانت خيمته على الطراز التركي ومفروشة بسجاجيد فارسية وأريكة للجلوس، ووجد ويلفريد علي قولي جالسًا في خيمته ومعه صديق له، ودعوا ويلفريد للسفر معهما إلى العراق حيث ستمر القافلة بالنجف. وقبل ويلفريد وزوجته الليدي آن بلنت هذه الدعوة وقررا السفر مع قافلة الحج بعد أن استشارا أمير حائل الذي وافق على ذلك. واستعدادًا للرحلة قام مرافقهم محمد العروق بشراء بعيرين ومؤنة من التمر والأرز، كما بعث لهم الأمير هدية عبارة عن بن من النوع اليمني الممتاز. وفي اليوم المحدد لبدء رحلتهم قاما بزيارة للأمير محمد الرشيد لتوديعه كما قاما بزيارة مماثلة لأخيه حمود الرشيد، الذي أسدى لهم نصيحة بأن يستمروا في طريقهم مع قافلة الحج إلى النجف بدلاً من التوجه إلى طريق البصرة وأخبرهم بأنه هطلت أمطار على الطريق وأن جميع برك المياه على الطريق ممتلئة بالماء، وبذلك ستكون رحلتهم ميسرة بينما قد يضطروا حال سفرهم على طريق البصرة إلى المرور على مناطق لا يتوفر فيها الماء، ثم التحقوا بالقافلة وكانت قد غادرت حائل[١٩].

٢/١-وصف القافلة ومكوناتها وتنظيمها

غادرت قافلة الحجاج مدينة حائل بتاريخ ٩ صفر١٢٩٦هـ الموافق ١ من فبراير عام ١٨٧٩م والتحقت الليدي آن بلنت وزجها ويلفريد بالقافلة وانضما إليها وهي مخيمة على بعد عشرة أميال من حائل، وتصف الليدي آن بلنت منظر القافلة وكثرة عدد جمالها يوم مغادرتها حائل وهي تشاهدها من بعد تعبر السهل الفاصل بين حائل وجبل شمر بأنها تبدو كخط طويل من النمل، ويبلغ طول موكبها أكثر من خمسة أميال يمتد عليها رتل طويل من جمال الحجاج لا تستطيع رؤية آخره. ولم تكن هذه الأعداد الكبيرة من الحجاج التي غادرت حائل هي كل الحجاج إذ تقول إن نصف الحجاج على ما يبدو بقوا في حائل بسبب عدم توفر الجمال لنقلهم أو لوجود مطالبات مالية عليهم، وتذكر أن عدد القافلة ظل يزداد في أثناء مسيرها بسبب الملتحقين بها من المتبقين في حائل.

وبالإجمال فإن القافلة في اليوم الثامن عشر من مسيرها أصبحت تتكون من عدد كبير من الرجال يمشون بجانبها، يقترب عدد هم من ثلاثة آلاف ويرافقهم الف رجل مكلفين من ابن رشيد لحراستها، وخمسة آلاف جمل، وعن عناصر الحجاج تذكر أن القافلة مكونة من حجاج العرب وحجاج العجم من الإيرانيين والأفغان، كما أن قافلة الحج فرصة لبعض قبائل جبل شمر اللذين يرغبون في الذهاب إلى السماوة في العراق، لشراء الأرز والقمح، حيث ينضمون إلى القافلة، وأن سكان تلك المناطق يجدون فرصة لصحبة القافلة مرتين في العام عند قدوم الحجاج إلى الحج وعودتهم منه، وتذكر انهم وجدوا بعض الأفراد اللذين انضموا إلى القافلة مع جمالهم. وتشير إلى بعض تنظيمات القافلة فتذكر بأن لها أمير[٢٠] معين من ابن رشيد اسمه عنبر، وأن القافلة يتقدمها البيرق أو اللواء ذو لون أخضر وأحمر، يحمل في وسط مجموعة من الهجن الأصيلة التي تخب في سيرها بسرعة وهي مكسوة بأغطية مزركشة وأردية من الخز الأطلسي، وبيرق ابن رشيد قطعة مربعة من الحرير الأرجواني يتوسطه رسم وشعار باللون الأبيض مع حواف خضراء، حيث رسم سيف كتب تحته لا إله الله محمد رسول الله، وكتب على الوجه الآخر من البيرق "نصر من الله وفتح قريب"، ويحمل البيرق خادمًا يمتطي بعير عاليًا، وأمير الحج يرافق مجموعة حمل البيرق عادة، وله مهرة بيضاء يسوقها خادم يرتدف خلفه إذا أراد ركوبها.

وفي اليوم الثاني من مسير القافلة، وبعد أن اجتازت ميلين وجه أميرها بتوقفها لإحصائها، فجمعت الجمال وركابها وبدأ

إحصائها، بينما سمح للمشاة أن يفعلوا ما شاؤوا لأنهم غير ملزمين بنظام قافلة الحج وكذلك هي ومرافقيها لأنهم في ضيافة ابن رشيد، وعن أوقات مسير القافلة وتوقفها تذكر أن الاستعداد لتحرك القافلة يبدأ من الساعة الرابعة صباحًا حيث تشعل النيران كإعلام بالتحرك المبكر ويبدأ مسير القافلة باكرًا قبل شروق الشمس، وتقرع الطبول ساعة بدء الانطلاق، وتسير القافلة بمعدل ثلاثة أميال في الساعة وعندما تجد في المسير تقطع ثلاثين ميلاً في اليوم، وفي المساء تنصب خيام الحجاج وتطوى عند الصباح عند الإيذان بتحرك القافلة[٢١].

٢/٢-محامل الحجاج

بعد البيرق تسير مجموعات الحجاج يمتطي الاثنان منهم جمل واحد في بعض الأحيان، وتحمل بعض الجمال متاع الحجاج في مزودتين على جانبي الجمل، والموسورون من الحجاج يستخدمون المحامل (الهوادج) وخاصةً النساء. التي تظهر على هيئة مراكب فاخرة مكسية بأقمشة مزخرفة بالألوان الحمراء والزرقاء وستائر فارسية، ويحمل الجمل اثنين من الهوادج، وهناك نوع فخم من الهوادج يسمى التختروان، يستطيع الراكب أن يجلس فيه متربعًا كما يمكنه أن ينام، لكن هذا النوع مكلف اذا يحتاج إلى جملين أو بغلين أحدهما يتبع الآخر لحمل هذا المركب، لهذا لم يكن في القافلة إلا شخص أو اثنان يمتلكان التختروان، ويختار للمحامل جمال قوية ومتناسقة الخطى، ويقود الجمل الذي يحمل الهودج شخص مكلف بهذه المهمة ويسير إلى جانبه بعض الخدم أحيانًا، وتقول الليدي آن بلنت أنه يبدوا أن كل حاج يقوم منذ بدء رحلته للحج من النجف بالاتفاق مع متعهد من العرب يؤمن له وسيلة السفر والأمتعة، وتكون وسائل السفر أحيانًا إلى جانب الجمال خيول أو بغال، ويلتزم المتعهد بالحاج حتى عودته فإذا نفقت إحدى دواب السفر أو تخلفت عن السير يقوم بتأمين بديل لها، وتذكر أنها شاهدت ضمن القافلة عشرين شخصًا من المتعهدين يتقاسمون بينهم الفين حاج، ويتسم مظهر هؤلاء المتعهدين بالثراء حيث يركبون أجود الجمال ويلبسون أجمل الثياب[٢٢].

٣/٢-وصف آثار الطريق

عندما انطلقت قافة الحجاج من حائل أخذت في الاتجاه الشرقي، وكانت القافة في بداية رحلتها تسير ببطء وبالكاد تقطع في اليوم عشرة أميال، ذلك لأنها في انتظار التحاق بقية الحجاج اللذين تخلفوا في حائل بالقافلة، لذا كانت آن بلنت ومجموعتها تنفصل عن القافلة في بعض الأحيان وتتقدمها في المسير أو تنفرد عنها لمسافة قصيرة، نظرا لتباطؤ سير القافلة ورغبة من آن بلنت في اكتشاف المنطقة، إلا أنها لا تلبث أن تعود للقافلة وتسايرها، فتذكر أنها في اليوم السادس من الرحلة لم يتحرك مخيم الحجاج فقررت هي ومجموعتها المسير بدونهم إلا انهم لم يتقدموا كثيرًا حتى نصبوا مخيمهم على مرأى من مخيم الحجاج، وفي اليوم السابع ابقوا مخيمهم في مكانه وأخذو جولة طويلة حتى وصلوا إلى قرية طيبة اسم[٢٣]، وتصف هذه القرية بأنها تقع في منطقة منخفضة تسيل إليها المياه مما جعلها واحة يمكن حفر الآبار فيها دون عناء، واتساع هذه الواحة يتراوح ما بين أربعة إلى خمسة أميال تتفرق المنازل على طولها في مجموعات، وفي اليوم الثامن أتاهم غلام شمري بثلاث نوق من مخيم الحجاج وتكفل بإرشادهم إلى الطريق لأنه يفضل السفر معهم على موكب الحج فتابعوا مسيرهم متقدمين على قافلة الحجاج حتى اليوم العاشر حيث وصلوا إلى مسار طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة عند آبار شعيبة[٢٤]، حيث يوجد أربعون بئرًا متقاربة في صحراء خالية. ومن أبار شعيبة انعطفوا في مسيرهم بزاوية قائمة نحو الشمال لإتباع مسار الطريق، الذي بدأ محددا بشكل جيد، يسهل اتباعه دون الحاجة إلى مساعدة دليل[٢٥].

ثم تذكر آن بلنت أنهم بعد اجتياز منطقة آبار شعيبة ساروا عدة أميال بين روابي رمال النفود ثم تركوا طريق الحج إلى يمينهم بعدة أميال وساروا في وسط النفود حتى وصلوا إلى مبنى منعزل يقوم وسط النفود يدعى قصر تربه[٢٦] وهو قصر مربع الشكل يبلغ طول جدرانه عشرين قدمًا، وله أبراج في الزوايا ويقوم على حمايته أربعة رجال من جنود ابن رشيد، منعوهم من الاقتراب منه ومن الحصول على ماء من بئر القصر. وفي اليوم الثاني عشر من الرحلة، ولعدم عثورهم على الماء عادوا إلى مسار الطريق حتى وصلوا إلى آبار خضرا[٢٧]، حيث يوجد أربعة عشر بئرًا، وهي مجرد حفر في الأرض دون وجود علامات تدل عليها، ويبلغ عمق الآبار سبعين قدمًا، ووجدوا عند هذه الآبار قرابة ثلاثين أو أربعين رجلاً من البدو برماحهم وعدد مماثل من الجمال مسرجة بالشداد، وأخبر هؤلاء الرجال آن بلنت وويلفريد بأنهم من قبلية الضفير وأنهم ينتظرون قافلة الحجيج كغيرهم، وشاهدت آن بلنت خلال الأيام التالية عدد من البرك على الطريق، ومسار الدرب الذي تم إصلاحه لتسهيل مرور الحجاج والقوافل، وقد اطلقت اسم أحوض زبيدة على برك المياه، ونسبت الفضل في بنائها وحفر آبار المياه إلى زبيدة زوج هارون الرشيد[٢٨]، فتقول أنها في اليوم الثالث عشر من الرحلة، وبعد السير لمسافة أربعة وعشرين ميلاً وصلوا إلى أول أحوض

زبيدة على الطريق، وعبرت عن دهشتها حول اختيار موقع البركة وتصميمها، حيث لفت انتباهها أن البركة لم تكن في ارض منخفضة بل على قمة هضبة ترتفع مئتي قدم وورائها تلعة اكثر ارتفاعًا، وبنيت البركة في قلب الوادي، وهي مستطيلة الشكل طولها ثمانون ياردة وعرضها خمسون ياردة، ولها درجات ينزل منها للوصول للماء، وهي مبنية من ملاط صلب، وشاهدت عند البركة تجمع من العرب يسقون جمالهم منها.[٢٩]

كما شاهدت على مسار الطريق في الأيام التالية عدد آخر من البرك، فتذكر أنها في اليوم الرابع عشر من الرحلة شاهدت برك أفضل من الأولى، وفي اليوم التالي، وصلوا إلى برك مملوءة بالمياه في قلب واد يسمى روزة، نسبة إلى نبات ينمو فيه، وتبدو البرك على طراز ما شاهدته في الأيام السابقة وكان هناك بركتان إحداهما مستطيلة والأخرى مدورة مبنية من حجارة صلبة ومكسية بطبقة كلسية ملساء، وكانت المياه في هذه البرك صافية وعذبة. يبلغ طول البركة المستطيلة أربعًا وستين ياردة وعرضها سبعًا وثلاثين ياردة، وعمقها إثنا عشر قدمًا، وفي نفس الموقع يوجد خان مهدم، يرجع إلى نفس تاريخ البرك. وبئر عميقة يبلغ قطرها عند الفوهة عشرة أقدام، وكان الوادي يوم مرورهم معه يسيل بالماء نتيجة أمطار غزيرة هطلت ليلة وصولهم إليه وتكونت جراء السيول مستنقعات ممتلئة بالماء على هيئة برك متناثرة في الوادي[٣٠]، وفي مساء اليوم التاسع عشر من الرحلة، توقفوا مع القافلة عند بركة الجميمة ووصفتها آن بلنت أنها آخر أحواض زبيدة وعندها آثار معتبرة وبئر واسعة[٣١]، أما مسار طريق الحج الكوفة مكة المكرمة فتذكر أنها شاهدت في اليوم الرابع عشر من الرحلة جزء منه محددا بحائط من الجانبين، وقالت إنها أخبرت بأن زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد هي التي بنته لتعلق عليه ظلة يمشي الحجاج في فيئها، إلا أنها لم تقتنع بهذا الرأي، ورجحت أن ما شاهدته هو إصلاح للطريق حيث سهل مساره بإزالة الحجارة من مساره وحدد بها على جانبيه،[٣٢].

٤/٢-مشاق السفر

بعد مضي عشرون يومًا من مغادرة حائل لم تكن القافلة قطعت إلا سوى نصف المسافة وبقي أمامها مئتا ميل لتصل إلى النجف، ومع ذلك وجه أمير القافلة بأن تتوقف تمامًا لجمع الأتاوة من الحجاج وحدد مبلغ مجيدين لكل شخص وأعلن أنه لن تتحرك القافلة حتى يتم تحصيل المبلغ من جميع الحجاج، وقد آثار هذا التصرف غضب الحجاج لأن أمير القافلة تسبب في هذا التأخير عمدًا لكي يجمع أتاوة لصالحه الشخصي، وفاقم غضبهم أنهم لم يحملوا مؤنًا تكفي إلا لثلاثة أسابيع وقد نفذت كلها.

وفي الأيام التالية ظهر الإجهاد على جمال القافلة، إذ أتعبها المسير وقلة الطعام، وأنهك اثنين من جمال الليدي آن بلنت ومرافقيها وتذكر أنه نفذ ما كان معهما من طحين ولم يكن في الطريق من الكلاء ما يكفي لإطعامهما، وكذلك جمال الحجاج هزلت بشكل واضح بسبب إجبارها على المسير المجهد، وبدأ رعاتها يتذمرون، فالحجاج الذين استأجروا الجمال لم يهتموا برعايتها ولم يمنحوها الوقت للرعي أثناء المسير، إذا أنهم يمتطونها أغلب الوقت وحتى وهي ترعى وهذا متعب للجمال.

وفي اليوم الثاني والعشرون من الرحلة أصبح مسار طريق الحج يسير مع أرض منخفضة، وفيها منحدرات تدعى وادي البطن، وفي نهايتها عقبة شديدة الانحدار وعبرها أصبح الطريق ضيقًا لا يكفي إلا لمرور شخص واحد، فاضطر الحجاج للسير في صف مفرد بدلاً من الانتشار الذي اعتادوا عليه في الأيام السابقة، وكانت هذه المنحدرات شديدة على الجمال التي أتعبها المسير الطويل وقلة الطعام، وكان من بينها جمل آن بلنت الذي تخلف عند هذه العقبة. وفي اليوم الخامس والعشرون من الرحلة واجهت القافلة عاصفة رملية مع جو شديد البرودة واستمر هذا الطقس الجوي لمدة عشر ساعات، وتسبب هذا الجو البارد في سقوط نحو سبعون جملاً ماتوا في الطريق في اليوم السادس والعشرون من الرحلة إذا لم تحتمل الجمال هذا الجو البارد. وفي الأيام الأخيرة بدأ أمير القافلة في حثها على المسير السريع، إذا قطعت في خلال ستة أيام نحو ١٧٠ ميلاً، الأمر الذي آثار غضب الحجاج على أمير القافلة حيث كان يتباطأ بها في المسير في الأيام الأولى، ثم استعجاله في المسير بعد ذلك على نحو تسبب في إرهاق القافلة، ومع ذلك لم يتخلف أحد من الحجاج مع أن أكثرهم يسير على الأقدام مع نقص في الطعام.

وفي اليوم السابع والعشرون لم تخف الرياح إلا أن الرمال قد أصبحت أقل، الأمر الذي أخر الانطلاق المبكر للقافلة حتى الساعة الثامنة صباحًا، وفي أثناء المسير ازداد عدد الجمال العاجزة عن المشي واحتضر عدد منها على الطريق، وقام عدد من أصحاب الجمال المتعبة بإيقافها وانزال أحمالها، وحمل بعض الحجاج أمتعتهم على رؤوسهم بعد أن رأوا وهن الجمال وقرب انتهاء السفر ومع ذلك واصلت القافلة مسيرها حتى بلغت العقبة[٣٣] قبل النجف، ومع صعود العقبة تساقطت الجمال بأعداد كبيرة، وواصلت البقية مسيرها إلى أن وصلت إلى النجف،

ومنها انفصلت آن بلنت وولفريد عن القافلة وتوجها إلى كربلاء ومنها إلى بغداد ليحلا ضيفان عند المندوب السامي لبريطانيا، حيث انتهت رحلتهما إلى نجد، التي استغرقت قرابة ثلاثة شهور بدءا من انطلاقها من دمشق بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٨٧٨م، حتى يوم٦ مارس ١٨٧٩[٣٤].

وتصف آن بلنت ختام رحلتها وانفصالها هي وويلفريد عن فريقهما الذي رافقهما من دمشق حتى بغداد وتعبر عن سعادتها بتلك الرحلة وما حققته فيها من أهداف وما لقيته من تسهيلات قائلة حين وصلت إلى بغداد: "في السادس من شهر آذار نمنا للمرة الأولى على الأسرة بعد أن تركنا هذه الرفاهية لما يقارب ثلاثة شهور، هنا تحديدًا تنتهي رحلتنا إلى نجد، التي تمت بنجاح دون حوادث مؤسفة، بالرغم من بعض الأزمات والمصاعب التي واجهتنا، وبهذا تنتهي أيضًا مغامرتنا الشتوية. وأحسب أننا كنا محظوظين للغاية بما شاهدناه وقمنا به كما خططنا كأهداف لرحلتنا، فبالكاد نتذكر يومًا من الأيام الأربعة والثمانين التي قضيناها في الجزيرة العربية لم نستمتع أو نشعر بالسرور... انفصمت عرى فريقنا في بغداد. إذ كانت بين الرسائل التي تنتظرنا في القنصلية رسالة لمحمد العروق أجبرته على العودة الفورية لتدمر..."[٣٥].

خَاتِمَةٌ

تناولت هذه الدراسة رحلة الليدي آن بلنت إلى نجد في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، تركيزًا على رحلتها هي وزوجها ويلفريد سكاون مع قافلة الحج العراقية عبر الجزء الواصل من طريق الكوفة مكة المكرمة بين حائل ومدينة النجف، وهي مسافة تبلغ قرابة نصف الطريق بين الكوفة ومكة، وعن وصف آن بلنت للقافلة تم استقراء المعلومات التي أوردتها عنها مبثوثة في يومياتها، وتنظيم تلك المعلومات والخروج بتصور عن تنظيم القافلة ومكوناتها ووقت مسيرها وتوقفها وحراستها ومحامل الحجاج والمشاق التي تواجه مسيرها. وعن مسار طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة تم تسليط الضوء على مساره التي وصفته في رحلتها والمعالم الأثرية عليه، حيث وضعت الليدي آن بلنت خارطة توضح مسار رحلتها إضافة إلى يومياتها التي دونتها أثناء مسيرها مع قافلة الحج، ومع أنها لم تذكر معظم أسماء المحطات والبرك، إلا أنه يتضح أنها مرت بعدد من محطات الطريق منها الخضراء، والبطان (العشار)، ومحطة الشيحيات (الشقوق)، وبركة الجميمة. وأرفقت آن بلنت رسمًا لبركتين من المياه أحدهما بركة العشار والأخرى يتوقع أنها بركة الجميمة، وتبين من رسمها لبركة العشار الصفة المعمارية للبركة وحركة الحجاج أثناء توقفهم عندها وتزودهم بالمياه، ويتبين من وصف الليدي آن بلنت أن برك المياه التي مرت بها لا زالت صالحة وبهيئة إنشائية جيدة تجعلها تحتفظ بالمياه ويستفيد منها المسافرون، كذلك تبين من وصفها لمسار الطريق الممهد عبر النفود وبين بركة حمد وبركة الحمراء أن مسار الطريق ما زال في حالة جيدة، رغم مرور نحو اثنى عشر قرنًا على إنشاء مرافق الدرب، في عهد الدولة العباسية ونحو سبعة قرون على سقوط الدولة العباسية.

وتؤكد هذه الدراسة آن وصف آن بلنت لقافلة الحج العراقية وطريق الحج العراقي ذا أهمية في موضوع تاريخ وآثار الطريق، وقافلة الحج العراقية لكونه وصف مشاهده ويعود لفترة تاريخية لا يتوفر فيها وصف عن الطريق وقافلة الحج في تلك الفترة، وكانت آن بلنت هي وزرجها ويلفريد هما أول من عبر الطريق في تلك الفترة من الأوروبيين كما ذكرا في كتابهما، أيضًا تؤكد الدراسة على أهمية كتب رحلات الأوروبيون للجزيرة العربية وأهمية ترجمة تلك المؤلفات إلى اللغة العربية ودراستها وتحقيقها. لما تتضمنه من معلومات ثرية وفريدة عن الأحوال العامة للجزيرة العربية وتراثها وثقافتها، خاصةً وأنها توثق لفترة تفتقد فيها بعض المناطق لمصادر محلية مكتوبة.

الملاحق

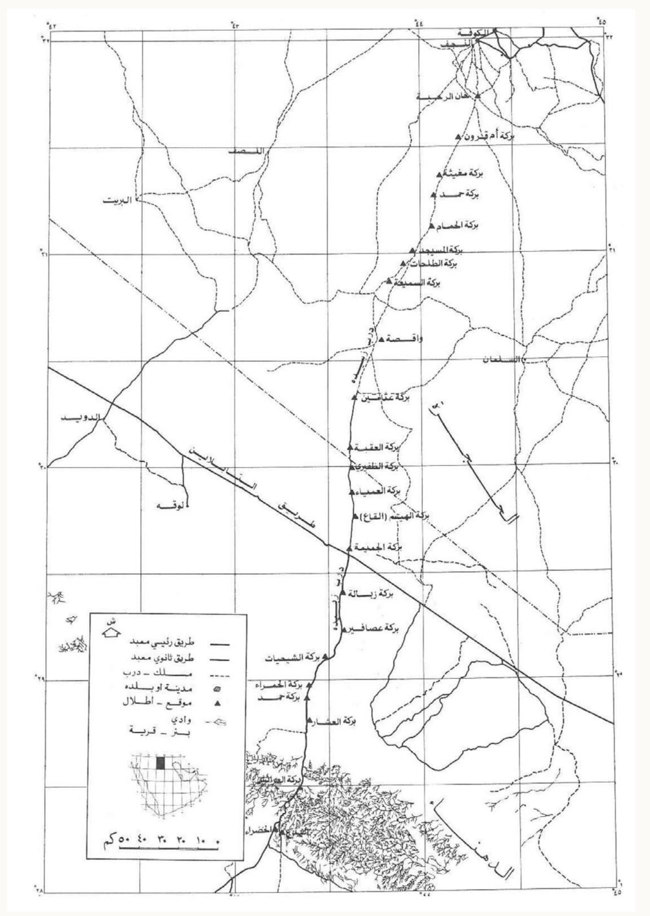


١- خارطة عامة لطريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة

الراشد، درب زبيدة، ص٣٠٤.

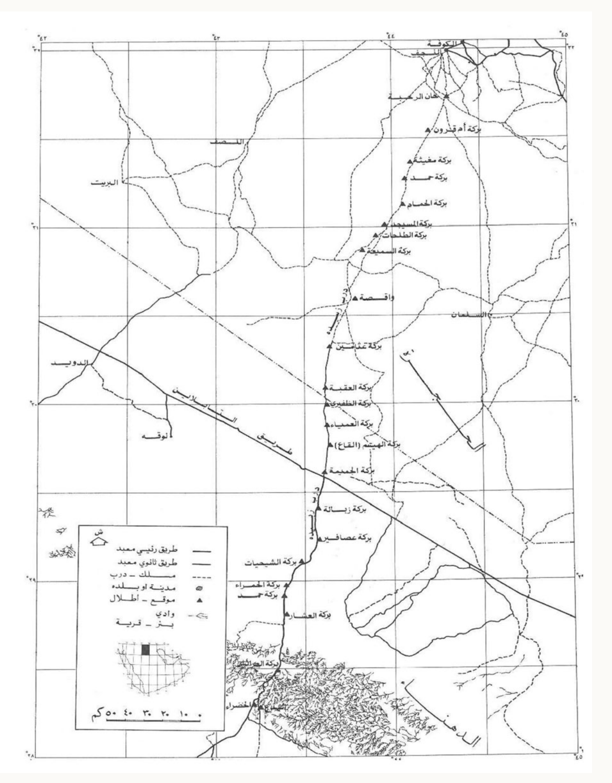
٢- خارطة مسار رحلة آن بلنت من دمشق إلى حائل وبغداد

آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص٣٦٧.



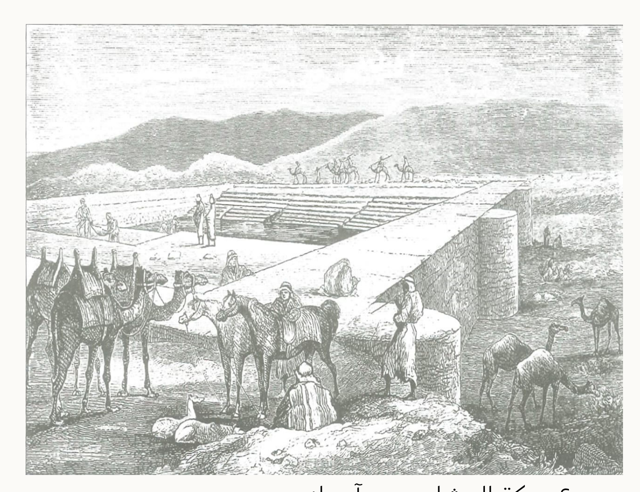


٥- بركة العشار، تصوير الباحث



٣- خارطة طريق الحج من الكوفة إلى مكة: الجزء من محطة الخضراء حتى الكوفة.

الراشد، درب زبيدة، ص ١٣٨.



٤- بركة العشار برسم آن بلنت

آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص ٢١٩.

الاحالات المرجعية:

(١) **حائل** مدينة سعودية تقع في شمال غرب المملكة العربية السعودية على بعد ٦٣١ كيلو متر من مدينة الرياض. وهي العاصمة الإدارية لمنطقة حائل.

(٢) تقع الحيرة غربًا من الكوفة بمسافة ثلاثة أميال، وكانت عامرة من القرن السادس إلى القرن السابع بعد الميلاد، وقامت في مكانها مدينة النجف، ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٣٧٤هـ، ج ٢، ص ٣٢٨.

(٣) إبراهيم بن إسحاق الحربي، **المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة**، دار اليمامة، الرياض،١٤٢٠هـ، ص٦٣. تقع فيد إلى الجنوب الشرقي من مدينة حائل بمسافة ١٠٨ كيلو متر، وتذكر فيد في المصادر بأنها محطة رئيسية في منتصف الطريق بين الكوفة ومكة المكرمة، وأنها كثيرة الأهل وبها ينزل عامل الطريق وفيها أسواق وبرك وآبار وقنوات وحصنان وقصر للسلطان، الحربي، **المناسك**، ص٦٠-٦٥، أبو القاسم عبيد الله ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، مطبعة بريل، ليدن١٨٨٩م ص١٢٧، أبو علي احمد بن عمر ابن رستة، **الأعلاق النفيسة**، مطبعة بريل، ليدن،١٨٩١م ص١٧٦، ويشتمل الموقع الأثري لفيد على آثار حصن فيد وسورها، و مسجد ومنازل وبرك وقنوات مياه.. سعد بن عبد العزيز الراشد، **درب زبيدة طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة**، دار الوطن، الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ١٩٩-٢٠٣.

(٤) الحربي، **المناسك**، ص٥٠. تقع الثعلبية على بعد ٩٢ ميلاً إلى الشرق من فيد، وتعرف اليوم باسم البدع، وهي من المحطات الرئيسة على الطريق، وذكرت المصادر أنها ثلث الطريق بين الكوفة ومكة، وأنها مدينة عامرة عليها سور وفيها سوق وبرك وآبار مياه كثيرة وقصر ومسجد، الحربي، المناسك، ص٤٧-٥٢، ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ١٢٧، ابن رستة، **الأعلاق النفيسة**، ص١٧٥. وسجلت أعمال المسح الأثري للثعلبية ١٢٠ وحدة معمارية وتشتمل آثار الموقع على بركة وعدد كبير من الآبار وأساسات المنازل وثلاثة حصون ومجموعات كثيرة من المباني، صلاح الحلوة، كراج مورجان، برنامج توثيق معالم الطريق الإسلامي الشهير درب زبيدة، التقرير المبدئي عن المرحلة الخامسة لمسح درب زبيدة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، أطلال، العدد الخامس، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص٩١-٣٩. الراشد، **درب زبيدة**، ص١٧٧-١٨١.

(٥) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ط٢، دار التراث، بيروت، ١٣٨٧هـ، ج٦، ص٤٣٧.

(٦) عبد القادر بن محمد الجزيري، **درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، أعده للنشر حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م، ج١، ص ٤١٥، النجم عمر بن فهد بن محمد، **إتحاف الورى بأخبار أم القرى**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٤هـ /١٩٨٣م، ج ٢، ص ١٣٧.

(٧) تتكون المملكة العربية السعودية من ثلاثة عشر منطقة إدارية هي: منطقة الرياض، ومنطقة مكة المكرمة، ومنطقة المدينة المنورة، ومنطقة القصيم، والمنطقة الشرقية، ومنطقة حائل، ومنطقة جازان، ومنطقة عسير، ومنطقة الباحة، ومنطقة تبوك، ومنطقة نجران، ومنطقة الجوف، ومنطقة الحدود الشمالية.

(٨) الحربي، **المناسك**، ص٢٨١-٣٥١، ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص١٢٥، ابن رستة، **الأعلاق النفيسة**، ص ١٦٧.

(٩) ينتمي آل رشيد إلى قبيلة شمر، وقد أسسوا لهم أمارة كانت عاصمتها مدينة حائل امتدت حتى جنوب الرياض ومناطق الجوف وعرعر شمالاً وكانت فترة أمارتهم خلال الفترة (١٢٥٠-١٣٤٠هـ/١٨٣٤-١٩٢١م)، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧ه، د. ن، الرياض ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٣٦٥، عبد الله الصالح العثيمين، **نشأة إمارة آل رشيد، الرياض**، عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(١٠) محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة ابن جبير**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د. ت، ص١٨١-١٨٧.

(١١) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي أبو عبد الله بن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار الشرق العربي، د. م، د. ت، ص١٣٢-١٣٤.

(١٢) جورج أوغست والين، **رحلات فالين إلى الجزيرة العربية**، ط٢، ترجمة سمير سليم شبلي، بيت الوراق للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠٠٩م، ص٢٥٢-٢٥١.

(١٣) شارل هوبير، **رحلة في الجزيرة العربية الوسطى**، ترجمة إليسار سعادة، دار كتب، بيروت ٢٠٠٣م، ص١٢٩- ١٤٥.

(١٤) Alois Musil,Northern Nagd,New york,1928,pp205-236 ، وللمزيد عن تاريخ وآثار درب زبيدة والمزيد من المصادر والمراجع التي تناولت تاريخه ومعالمه الأثرية يُنظر، الراشد، درب زبيدة .

(١٥) الليدي آن بلنت، **رحلة إلى نجد**، ترجمة وتعليق أحمد ايبش، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق ٢٠٠٥م، ص ٤١.

(١٦) تقع منطقة الجوف في الجزء الشمالي من المملكة العربية السعودية وعاصمتها الإدارية مدينة سكاكا، وتقع على بعد ٩٨٣ كيلو متر من مدينة الرياض.

(١٧) آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص٧-١٥، عوض البادي، **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف ١٨٤٥-١٩٢٢م**، نادي الجوف الأدبي الثقافي، د. م، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص١٣٥-١٣٨.

(١٨) آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص١٥-١٦.

(١٩) آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص٣٠٣-٣١١.

(٢٠) **أمير القافلة**: من مهامه قيادة القافلة والترفق بها في المسير حتى لا يجهد الناس وجمع الناس في مسيرهم لكي لا يتفرقوا، وأن يسلك ايسر الطرق وأوفرها من حيث توفر الماء والمرعى، والإصلاح بين المتنازعين، وحراسة القافلة، يُنظر: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي دار الحديث، القاهرة، د. ت، ص١٧٢-١٧٣.

(٢١) الليدي آن بلنت، **رحلة إلى نجد**، ص٣١١-٣٥٥. بتصرف

(٢٢) الليدي آن بلنت، **رحلة الى نجد**، ص٣١٧-٣١٨، ص ٣٤١.

(٢٣) تقع **طيبة** اسم شرق حائل بمسافة ٩٩ كيلو متر وهو اسم يطلق على قرية بقعاء، حمد الجاسر، **معجم البلاد العربية السعودية**، دار اليمامة، الرياض،١٩٧٧م، القسم الثاني، ص ٩٠٦.

(٢٤) آبار شعيبة تقع شرق حائل بمسافة ١٣٥ كيلو متر، وعلى مسافة ٩١ كيلو متر إلى جهة الشمال الشرقي من فيد، وهي حالياً قرية تعرف باسم شعيبة المياه، وتتبع إداريًا لمحافظة بقعاء.

(٢٥) تشير الليدي آن بلنت هنا إلى مسار الطريق عبر النفود الكبير. وقد وصف سعد الراشد مسار الطريق عبر النفود بأنه رسم بحيث يكون مساره مستقيمًا، وحدد على جانبيه بأحجار منتظمة بحيث تبدو كما لو أنها كانت أسورًا مرتفعة، ورصف مسار الطريق بأحجار عريضة متقاربة مع بعضها البعض. وعن اتساع الطريق ذكر انه يضيق أحيانًا إلى أربعة أمتار ويتسع أكثر من ذلك في بعض المناطق. الراشد، **درب زبيدة**، ص٣١٩-٣٢٠.

(٢٦) تربة من قرى منطقة حائل، تقع شمال شرق مدينة حائل بمسافة ١٩٠كم، وتتبع إداريًا لمحافظة بقعاء، الجاسر، معجم البلاد العربية السعودية، القسم الأول، ص ٣١٥.

(٢٧) يذكر الحربي، آبار الخضراء بأنها على ميلين من الثعلبية يمنة الطريق ويصفها بأنها آبار كبار ومائها عذب ومنها بئر تعرف

بالبرمكي وبئر تعرف بالبستان. الحربي، المناسك، ص٥٢، وذكر حمد الجاسر أن آبار الخضراء تقع قرب تربة وهي من أشهر مناهل المياه في نفود الدهناء. الجاسر، معجم البلاد العربية السعودية، القسم الأول، ص٥٣١. ويشير سعد الراشد إلى أن الخضراء تقع على بعد خمسة أكيال إلى الغرب من الثعلبية وهي مجموعة من الآبار تقع في سهل فسيح، بعضها في حالة صالحة للاستعمال وبعضها جفت تمامًا، ويشير إلى أن الرحالة هوبر زار المكان وأعطى نفس العدد الذي ذكرته آن بلنت للآبار ١٤ بئرًا، بينما ذكر موسل الذي زار الموقع عام١٩١٥م بأن عدد الآبار ثمانين بئرًا. الراشد، **درب زبيدة**، ص ١٨٢.

(٢٨) أيضًا ذكر عدد من الرحالة الذين وصفوا الطريق بأن الفضل في بنائه يعود للسيدة زبيدة زوج هارون الرشيد وحكمهم في ذلك مبني على المصادر الإسلامية المبكرة. الراشد، **درب زبيدة**، ص١١٣.

(٢٩) يتضح من خلال وصف آن بلنت والرسم الذي وضعته للبركة، أن هذه البركة هي البركة المعروفة حاليًا باسم بركة العشار، وهي تقع على مسار طريق الحج العراقي شمال شرق حائل بمسافة ٢٣٠كم، والعشار من المحطات الكبيرة على درب زبيدة وذكر في المصادر باسم (البطان) وذكر الحربي أن بها قصر ومسجد وبركة تدعى الخالصية لها مصفاة وبركة تعرف بالمهدي، وخزانة للماء في وسط الوادي، وفيها بئر عذبة ونحو عشرين حوضًا في بيوت التجار، الحربي، المناسك، ص٤٤-٤٧، ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص١٢٦. وذكر تقرير المسح الأثري أن موقع العشار من المواقع الكبيرة على درب زبيدة ويشتمل على بقايا نحو ثلاثين وحدة معمارية تشتمل على بركتين ومنازل وسوق ومرافق أخرى. يُنظر، صلاح الحلوة، عبد العزيز آل الشيخ، عبد الجواد مراد، **مشروع استكشاف وتوثيق درب زبيدة**، **أطلال**، العدد ٦، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٣٧-٤١، الراشد، **درب زبيدة**، ص١٦٩-١٧١.

(٣٠) يرجح أن الوادي الذي سمته آن بلنت وادي روزة هو وادي الشيحيات الذي يكثر فيه نبات الشيح وأن البركتان المربعة والمدورة هما اللتان تقع في محطة الشيحيات وهي من المحطات الرئيسية على الطريق. وعرفت في المصادر الإسلامية باسم الشقوق. وذكرت المصادر بأن في الشقوق برك وآبار للمياه، الحربي، المناسك، ص ص٤٢-٤٤، ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٢٦، ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص١٧٥. وذكر تقرير المسح الأثري للإدارة العامة للآثار والمتاحف أن الشيحيات تبعد ٤٩٬٥٠٠ كيلا شمال شرق محطة العشار وان بها بركة دائرية لها مصفاة مستطيلة، وآبار وأطلال مباني من أهمها مبنى رئيسي يمثل قصر أو حصن تبلغ أطواله ٣٥×٣٠م، يُنظر: الحلوة وآخرون، **مشروع استكشاف وتوثيق درب زبيدة**، ص ٤٤-٤٧، الراشد، درب زبيدة ص ص١٦١-١٦٥، ورصدت أعمال المسح الأثري أيضًا عدد من المواقع الأثرية على مسار الدرب بين العشار والشيحيات، ومن البرك: بركة حمد وبركة الرستمية، يُنظر، الحلوة وآخرون، **مشروع استكشاف وتوثيق درب زبيدة**، ص٤١-٤٤. الراشد، **درب زبيدة**، ص ص١٦١-١٦٨.

(٣١) تقع بركة الجميمة شرق مدينة رفحاء بمسافة ١٤كم، وتذكر في المصادر الإسلامية باسم الجريسي، وأنها محطة ثانوية (متعشى)، ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص١٢٦، ابن رسته، **الأعلاق النفيسة**، ص ٧٦، وذكر الحربي أن فيها بركة وقباب ومسجد وقصر وبئر، الحربي، **المناسك**، ص٣٧. وذكر تقرير المسح الأثري أن موقع الجميمة من المواقع المتوسطة الحجم، ويشتمل على ست وحدات من المباني وبركة وجدران لتحويل الماء للبركة. الحلوة وآخرون، مشروع استكشاف وتوثيق درب زبيدة، ص ص٥٤-٥٦. ولم تذكر آن بلنت محطات الطريق بين الشيحيات والجميمة، بينما ذكر تقرير المسح الأثري مواقع: ذات التنانير والشاحوف، وزبالة، والقبيبات، وتشتمل هذه المواقع على برك وآبار ومباني مختلفة، أيضًا اعتقدت آن بلنت أن الجميمة هي أخر محطات الطريق حيث قالت إنها آخر أحوض درب زبيدة. بينما يوجد العديد من المواقع الأخرى على الطريق بين الجميمة والكوفة، يُنظر، الحلوة وآخرون، **مشروع استكشاف وتوثيق درب زبيدة**، ص٤٤-٦٢. الراشد، درب زبيدة، ص١٢١-١٦٠.

(٣٢) الليدي آن بلنت، رحلة إلى نجد، ص٣٠١-٣٦٢ بتصرف. يحتمل أن مسار الطريق المحدد بالحجارة الذي أشارت إليه الليدي آن بلنت هو الذي أشار إليه تقرير المسح الأثري حيث ذكر وجود مسار لدرب زبيدة محدد بجدارين المسافة بينهما ٢٦م، ويمتد هذا المسار من بركة حمد التي تقع على بعد ٤٥كم إلى الشرق من محطة العشار حتى بركة الحمراء التي تقع على بعد ٥٬٥٠٠ كيلو متر من محطة حمد. صلاح الحلوة وآخرون، **مشروع استكشاف وتوثيق درب زبيدة**، ص٤١-٤٢، كما وصف هذا الطريق سعد الراشد، وذكر أن الطريق بين بركة الشيحيات وبركة الحمراء وبركة حمد تم تسويته وإصلاحه وتبدو معالمه واضحة وقد أزيلت الصخور الكبيرة والأحجار المدببة من مساره ووضعت على جانبية بحيث يبدو كل جانب بأنه على شكل جدار يمتد مع مسار الطريق ويبلغ عرض الطريق عبر هذه المنطقة ١٨م. الراشد، **درب زبيدة**، ص ٣٢١.

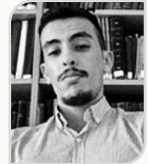
(٣٣) تقع العقبة إلى الجنوب الغربي من النجف بمسافة ٢١٧ كيلو متر، محمد عبد الغني السعيدي، "**طريق الحج العراقي: الكوفة مكة المكرمة متابعة ميدانية**"، ينابيع، العدد ٤١، ربيع الأول – جمادى الثانية، ١٤٣٢هـ، ص٣٢-٣٣. وذكر كل من ابن خرداذبة وابن رسته بأنها محطة رئيسية على طريق الحج الكوفي وبينها وبين الكوفة للمتجه إلى مكة المحطات الرئيسة: (العذيب، المغيثة، القرعاء واقصة) وبينها وبين الجميمة (الجريسي)، محطة القاع، وذكر ابن خرداذبة أن فيها آبار عذبة، وقال ابن رستة أن العقبة منزل فيه برك وآبار وكانت عقبة فسهلت، ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ١٢٥-١٢٦، ابن رسته الأعلاق النفيسة، ص١٧٥-١٧٦. وعن آثار الموقع تذكر الدراسات الأثرية الحديثة وجود بركتين للمياه ومبنى مستطيل على هيئة خزان تبلغ أبعاده ١٠٥×٥٥م، بمثابة مجمع للمياه تصل المياه منه لأحد البرك عبر مجرى للماء، وأربع آبار وسد للمياه يقع إلى الجنوب من المحطة بمسافة ستة أكيال. السعيدي، "**طريق الحج العراقي**"، ص٣٢-٣٣، الراشد، **درب زبيدة**، ص١٣٩-١٤٢.

(٣٤) الليدي آن بلنت، **رحلة إلى نجد**، ص٣٤٧-٣٥٨.

(٣٥) الليدي آن بلنت، **رحلة إلى نجد**، ص ٣٦٢-٣٦٣.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

مقاربة جديدة لفهم تاريخ المقاومة المسلحة بالمغرب خلال خمسينيات القرن الماضي
منظمة الهلال الأسود أنموذجًا



آدم الحسناوي
باحث في التاريخ المقارن للمجتمعات الوسيطة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يعتبر التأريخ للمقاومة المغربية وجيش التحرير عملية إبستيمية لا تستثنى من المخاطر التي قد يقع فيها المؤرخ، وذلك بسبب حداثة الحدث التاريخي، إضافة إلى تناقضات الرواية التاريخية أحيانًا، وندرة الوثائق التاريخية باعتبارها -أي الوثيقة التاريخية-شاهدة على الحدث. كما ما يزال الحدث التاريخي، حدث المقاومة المغربية خلال خمسينات القرن الماضي، يعيش فينا ومعنا بحمولته التاريخية وتوظيفه في سياقات متعددة. هكذا يصبح التأريخ للمقاومة المغربية وجيش التحرير مأمورية صعبة على المؤرخ، وجب عليه، عند خوض غمارها، التسلح بالعدة المنهجية، إضافة إلى انفتاحه على العلوم المجاورة للتاريخ، سواء العلوم التي درست الإنسان في جزئيته كعلم الاجتماع وعلم النفس، أو العلوم التي درست الإنسان في كليته كعلم الإناسة (الأنثروبولوجيا). لذلك تصبح عملية التأريخ للمقاومة المغربية عملية منهجية متكاملة يتوخى الباحث، من خلالها، كشف الأحداث الغامضة التي ظلت مغيبة في تاريخ المقاومة، كما يهدف إلى وضع قطيعة معرفية مع السائد المتخيَّل حول تاريخ المقاومة المغربية خلال خمسينيات القرن الماضي، بنفس ما يعمل على تنوير المعطى الأساسي المؤرخ لهذه المرحلة، بغية الكشف عن كنهها. هكذا جاءت دراستنا حول منظمة الهلال الأسود كمحاولة لتسليط الضوء على إحدى منظمات المقاومة التي ظل تاريخها مغيبًا أحيانًا، ومشوها أحيانًا أخرى؛ وذلك بهدف كشف الغموض عن سنوات طالما وصف الفاعلون السياسيون، والمؤرخون، على حد سواء، بالسنوات الغامضة. وقد عرجنا في دراستنا على تبيان الصيرورة التاريخية لمنظمة الهلال الأسود، مع تسليطنا الضوء على معطياتٍ ظلت مخفيةً من تاريخ المنظمة، وكذا إسهامات المنظمة في العمل الثوري المغربي من خلال العمليات التي قامت بها إبان المرحلة التي شهدت أوجَها؛ منتقلين للحديث عن أفولها التراجيدي؛ ومسلطين الضوء على بعضِ الهفوات التي نشرت عن المنظمة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٠	سبتمبر	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	١٢	نوفمبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
منظمة الهلال الأسود؛ المقاومة المغربية؛ الدار البيضاء؛ استقلال المغرب؛ الاستعمار الفرنسي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.260029

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
آدم الحسناوي، "مقاربة جديدة لفهم تاريخ المقاومة المسلحة بالمغرب خلال خمسينيات القرن الماضي: منظمة الهلال الأسود أنموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ١٤٧ – ١٦٦.

Corresponding author: adam.elhaasnaoui@uit.ac.ma
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

شكلت المقاومة المسلحة المغربية خلال خمسينات القرن الماضي أحد أوجه مقاومة الاستعمار التي لم تهدأ منذ احتكاك المغاربة، خلال أوائل القرن العشرين، بالاستعمار، ومحاولاته الأولى لبسط سيطرته على التراب المغربي. وقد كانت هذه المقاومة استكمالاً لمسار طويل ابتدأ بالمقاومة المسلحة، وبعد القضاء عليها سنة ١٩٣٤، استمر مع المقاومة السياسية، ولو كانت الأخيرة مرتبطة، أحيانًا، بمصالح براغماتية. وعند استنفاذ العملية السياسية لكافة أوراقها مع بداية خمسينات القرن الماضي، بعد القمع الشديد الذي تعرضت له الأحزاب الفاعلة في الشأن المغربي، أخذت البروليتاريا المغربية على عاتقها مواجهة الاستعمار وفرض الاستقلال، ذلك المعطى الجوهري في البرنامج الوطني، والذي عجزت الأطراف الرئيسة الفاعلة في الشأن المغربي، آنذاك، عن فرضه على الإدارة الاستعمارية. هكذا برزت إلى الوجود منظمة الهلال الأسود، آخذة في المشاركة ضمن المحاولات الثورية لفرض الاستقلال على الرافضين له من الأطراف الفاعلة في الإدارة الاستعمارية والبورجوازية المغربية على حد سواء.

سنحاول، من خلال دراستنا، تبيان الصيرورة التاريخية لمنظمة الهلال الأسود، مع تسليطنا الضوء على معطياتٍ ظلت مخفيةً من تاريخ المنظمة، وكذا إسهامات المنظمة في العمل الثوري المغربي من خلال العمليات التي قامت بها أثناء المرحلة التي شهدت أوجَها؛ منتقلين للحديث عن أفولها التراجيدي؛ ومسلطين الضوء على بعضِ الهفوات التي نشرت عنها.

أولاً: لمحة تاريخية حول ميلاد المقاومة المغربية

كان انفجار الثورة المسلحة خلال الخمسينيات بمنأى عن الأحزاب السياسية المغربية التي عارضت هذا التوجه القديم/الجديد، إذ يشير الصنهاجي إلى قيام بعض الأشخاص البارزين في الأحزاب باستنكار هذه العمليات أمام الرأي العام، وكانوا يسمونها بالأعمال الإجرامية، لعل أبرزهم حزب الاستقلال[١]، باستثناء علال الفاسي الذي دعم المقاومة معنويا، نظرًا لكونه في القاهرة، عن طريق إذاعة راديو صوت العرب. فقد تمكن علال الفاسي، في وقت سابق، ونظرًا لعضويته في مكتب المغرب العربي بالقاهرة، من توطيد علاقاته براديو صوت العرب[٢]. لكننا يلزمنا طرح الأسباب الرئيسة في هذا النوع الجديد من المقاومة. لم يخطر أبدا، ببال أحد، عند إعداد مشاريع الإدارة الاستعمارية، أن للشعب المغربي كلمته فيما يجري حوله، وأنه يريد الإدلاء برأيه، وفرض الاعتراف بمطامحه الوطنية[٣]. إذ بالنسبة لمعظم فرنسيي المغرب، كان إنهاء الاستعمار إما أسطورة أو مكيدة من تدبير الأنجلوساكسون والسوفيات[٤].

لقد شهدت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية أولى التطورات التي ستفجر العمل المسلح لاحقا، إذ حلت الدار البيضاء، بعد الحرب العالمية الثانية، محل فاس كمركز للحركة الوطنية، فتحول مركز الجاذبية نحوها، لتصبح منذ ذلك التاريخ عاصمة للوطنية، مما يعكس التغييرات التي حدثت في بنيات الاقتصاد والمجتمع المغربيين، كما يسجل كذلك دخول الطبقة العاملة في الحركة الوطنية. إن التحول في الأولوية سيمس أسلوب وأماكن الدعاية أيضا، وستخلف أوراش المصانع وبورصات الشغل والمداومات النقابية والسياسية أماكن النقاش والتحريض الكلاسيكية التي كانت خلال الثلاثينيات تكمن في المساجد وجامعة القرويين والثانويات. إن الحرفيين الذين كانوا يتظاهرون حول القرويين فيما بين سنتي ١٩٣٧-١٩٤٤ بفاس، لم يقوموا، في العمق، سوى بتمديد احتجاجات المغرب القديم، في حين أن أحداث دجنبر ١٩٥٢، أي بعد اغتيال فرحات حشاد، لم تكن البتة انتفاضات النزع الأخير، وإنما أعراض ولادة جديدة. لقد تعلق الأمر بميلاد مجتمع جديد وَعي ذاته ونفض عنه أسمال الثوب السياسي القديم، الذي لم يعد على مقامه[٥]. فخلال احتجاجات ١٩٥٢ بكاريير سنطرال [...] أطلقت الشرطة النار على الموكب، أي أطلقت النار على العشرات من البروليتاريا. وفي اليوم التالي، أوقف بونيفاص[٦] مئات النشطاء الذين تجمعوا في منزل للنقابة بوسط المدينة. عقب هذه الخطوة، تم حل حزب الاستقلال والحزب الشيوعي المغربي. وعلى إثر ذلك، سيقوم الحرفيون وأصحاب المتاجر والعمال ببناء شبكات للمقاومة[٧].

لكن، إن كانت شبكات المقاومة تعد العدة لتفجير العمل المسلح، سابقا، فقد شكلت حادثة نفي محمد الخامس فرصة مناسبة للظهور، خصوصًا والعملية العفوية التي نفذها علال بن عبد الله ضد بن عرفة في يوم ١١ شتنبر ١٩٥٣. لكن ارتباط الشعب بمحمد الخامس لم يكن اعتباطيا، إذ لعب تنطعه في وجه سلطات الحماية ودعمه للحركة الوطنية دورًا في هذا التعاطف، فقد دخل في القطيعة والمجابهة مع الإقامة العامة، وأدرك السلطان أن أفضل سلاح يُوَظَّفُ ضد السلطة الاستعمارية

هو الامتناع عن توقيع الظهائر، وهو ما اعتبره المقيم العام جوان شكلا من العرقلة المرفوضة التي لا يمكن رفعها إلا بالقضاء على المعارضة الوطنية وخلع السلطان. وابتداءا من نهاية شهر يناير ١٩٥١، تم توجيه إنذار كي يضع حدا لإضرابه عن التوقيع ويتبرأ من حزب الاستقلال أو التنازل عن العرش. وقد تجند خصوم الحركة الوطنية من أجل الضغط على السلطان قصد توقيع الظهائر، فامتثل هذا الأخير إلى طلب الإقامة العامة من دون إخفاء رضوخه، مكرها، للواقع، وهو ما أرجأ خلعه إلى وقت لاحق[٨]. وفي شهر شتنبر سنة ١٩٥٢، كان إضراب جديد للسلطان عن التوقيع، هذه المرة يخص ظهيرًا يسمح للفرنسيين بالمشاركة في انتخاب المستشارين البلديين، كما ينص على تأسيس مجلس وزاري مشترك بين المغاربة والفرنسيين. أدى صمود السلطان وعدم تراجعه في هذه المسألة التي تطرح قضية السيادة المزدوجة إلى إثارة غضب المقيم العام وإعادة تعبئة القوى المساندة للحماية والمعادية للسلطان[٩]. كما أكد السلطان محمد بن يوسف، فيما بعد، أن قميص الحماية بدأ يضيق على المغاربة وقد حان الوقت لتبديله[١٠]. لذا، في يوم ١٤ غشت ١٩٥٣، وبمبادرة من الكلاوي، أُعلن تجمع للأعيان في مراكش عن خلع محمد بن يوسف وتنصيب محمد بن عرفة مكانه، بينما قامت مصالح الإقامة بترتيب مسيرة في اتجاه الرباط[١١].

استهدفت عملية خلع السلطان خلق وضعية لا رجعة فيها، حيث يصبح استخدام القوة لحل المسألة المغربية أمرا لا مفر منه؛ فكانت النتيجة أن صارت السلطة عاجزة عن التحكم بالبلاد. ولم يعترف المغاربة بمشروعية السلطان الجديد، فهُجرت المساجد لأن الخطبة كانت تقام باسمه. وفي ظروف القضاء على نقابات المعارضة وأطرها السياسية، تعذر على النخب السياسية القيام بأي عمل؛ هكذا أخذت البروليتاريا الحضرية على عاتقها مهمة الدفاع عن القضية الوطنية، حيث ردت على الإرهاب البوليسي بالعمل المسلح[١٢]. هكذا تلمسنا تعلق المغاربة بالسلطان محمد بن يوسف، مما جعل حدث عزله مبررا بارزا لانفجار العمل المسلح الذي أُعد في وقت سابق.

هكذا، عمدت القواعد المناضلة إلى المقاومة المسلحة واعتبرتها الوسيلة الوحيدة الناجعة لتكسير شوكة الاستعمار والحصول على استقلال البلاد[١٣]. فقد ركز خطاب المقاومة في بدايته على رفضه القاطع، باسم تنظيماته الطلائعية المتوجهة بخطابها مباشرة إلى الشعب، لخلع السلطان ونفيه وتنصيب سلطان آخر محله، وشجب ذلك والتنديد به. وأكدت في مناشيرها الأولى على تذكير الشعب بوجوب الوفاء له، وتعظيمه، بسبب موقفه النبيل، وتبجيله وإجلاله باعتباره رمز الأماني للشعب[١٤]. يمكننا القول إن الارتباط، خلال هذه المرحلة، بين السلطان والشعب، الشعب والسلطان، أخذ شكلا جديدا يقوم على إضفاء طابع الشرعية، بشكل جماهيري. لذا، كان السلطان ابن عرفة أحد الأهداف الأولى لهذه المقاومة. فقد نجا يوم ١١ شتنبر ١٩٥٣ من أول محاولة لاغتياله بمدينة الرباط، وهو في طريقه إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة. كما فشلت محاولة ثانية لاغتياله بمراكش[١٥]، ثم توالت العمليات المسلحة بوتيرة منتظمة تخللتها بعض العمليات المثيرة مثل: الهجوم على القطار الرابط بين الدار البيضاء ومدينة الجزائر يوم ٧ نونبر ١٩٥٣، وقد خلف ٧ قتلى، انفجار قنبلة في السوق المركزي بالدار البيضاء يوم ٢٤ دجنبر ١٩٥٣ -وقد أسفرت عن ١٨ قتيلا-، انفجار قنبلة أخرى بتاريخ ١٤ يوليوز ١٩٥٤ في حي مرس السلطان بالدار البيضاء مخلفة ٦ ضحايا. وقد قام بهذه العمليات عمال وحرفيون ومستخدمون صغار ومناضلون قدماء في الأحزاب السياسية وفي الاتحاد العام للنقابات المتحدة بالمغرب. وقد تم ذلك استجابة لأوامر تنظيماتهم وخلاياهم الخاصة في بعض الأحيان. لقد أصبحت الدار البيضاء محور هذه العمليات قبل أن تعم سريعا مدن المغرب وبواديه[١٦].

ثانيًا: نحو ميلاد منظمة الهلال الأسود

ولدت منظمة الهلال الأسود، بشكل رسمي، في مارس ١٩٥٤، كامتداد لمنظمة اليد السوداء، بعدما نجحت السلطات الفرنسية في تفكيكها خريف ١٩٥٣ باعتقال ٥٥ من أعضائها[١٧]، وقد تأسست عقب أحداث كاريان سنطرال سنة ١٩٥٢[١٨]، فيما ظل ٥ في حالة فرار[١٩]. يشير محمد وحيد إلى كون يوم تأسيس منظمة الهلال الأسود الرسمي كان في ٢٠ مارس ١٩٥٤، فقد تم[٢٠] ذلك بعدما حُرر منشور في ٧٠٠ نسخة بُعث بإحداها إلى صحيفة "السعادة"[٢١]، الموالية للسلطات، بغية إثارة فزع حلفاء الاستعمار، على وجه التحديد منظمة "لابريزانس فرانسيز"[٢٢] (منظمة الحضور الفرنسي)، وقد عُنون بـــ: من اليد السوداء إلى الهلال الأسود[٢٣].

تكونت منظمة الهلال الأسود، في البداية، من بعض الأفراد المنخرطين في حزب الاستقلال [...] وقد سيرها في المرحلة الأولى كل من: السيد بوجمعة، بنموسى النجار، السيد التاتاني، لحسن الكلاوي، محمد الدكالي، أحمد شفيق، الحضري[٢٤].

بدأت عمليات استقطاب الأفراد في حذر شديد، خوفا من الوقوع في الأخطاء القاتلة التي قضت على منظمة اليد السوداء. كما حرص المؤسسون والأعضاء الأوائل على القيام بالاستقطابات من قلب درب السبليون[٢٥].

يمكننا تفسير تأخر تبوثق الهلال الأسود إلى غاية سنة ١٩٥٤ بكون استخدام القوة لا يعم كل الشعب مباشرة، والقوة هنا، نقصد بها، العنف الثوري الذي ساد المغرب عقب نفي السلطان وقيام علال بن عبد الله بمحاولة اغتيال بنعرفة. لابد في البداية من قلة تقود هذا العمل. وتتماهى الجماهير، حسب مصطفى حجازي، بهذه القلة متمثلة شيئًا من بطولتها، وجاعلة منها رموزا للجماعة. من خلال عملية التماهي هذه، تكتسب الجماهير شيئًا من الثقة بالنفس والإمكانات الذاتية، وتبرز لديها الحاجة إلى تجاوز استسلامها وشعورها بالعجز[٢٦]، وهو ما حدث مع بعض أفراد منظمة الهلال الأسود؛ كما أن البعض الآخر شكل امتدادًا لمنظمة اليد السوداء.

كانت منظمة الهلال الأسود عبارة عن منظمة ائتلافية[٢٧]، إذ ضمت عناصر من مختلف التوجهات والمشارب الإيديولوجية، كما ضمت أفرادا غير منتمين لأي توجه معين، فقد ضمت منخرطين في حزب الشورى والاستقلال من أمثال: أحمد بن البشير ومحمد حجي العجوري، كما ضمت أفرادا من الحزب الشيوعي المغربي كـ: عبد الله العياشي[٢٨]، وعبد الكريم بن عبد الله[٢٩]. يتضح لنا، بشكل بارز، يأس مناضلي الحزب الشيوعي المغربي، ولجوؤهم للعمل المسلح، عقب التعذيب الشديد الذي تعرض له عبد الله العياشي من طرف المفتش غارسيت GARCETTE، بعدما اقتيد في ١٨ نونبر ١٩٥٣ إلى مخفر الشرطة المركزي[٣٠]. كما ضمت أفرادا لم ينتموا لأي حزب سياسي، من عمال وفلاحين وطلبة وعاطلين.

أخذت الهلال الأسود اسمها من اقتراح عبد الله الحداوي، حسب محمد وحيد، عقب الاجتماع التأسيسي، نظرا لكون عبد الحداوي كان شغوفا بقراءة سلسلة الهلال التي أصدرها جرجي زيدان[٣١].

خضعت المنظمة، بادئ ذي بدء، لتنظيم ثلاثي -أي كل مجموعة ثلاثية-تتفرع عن كل منها مجموعة ثلاثية، ثانية. تميزت المرحلة الأولى بانعدام السلاح، لذا، كانت العمليات التي تقوم بها المنظمة بسيطة. فمنذ تأسيسها، أتى لحسن الكلاوي بسلاحها الأول في ٢٢ ماي ١٩٥٤، إذ كان مسدسا من عيار ٧،٦٥ ميليمتر. لذلك، عزم أفراد المنظمة على القيام بالعمليات الأولى في درب السبنيول، لكنهم كانوا يفتقرون للرصاص. هكذا، فضلوا الشروع في إلقاء القنابل المحلية الصنع[٣٢]. وقد زُودت منظمة الهلال الأسود بقنبلتين من الحجم المتوسط من طرف منظمة يد التطهير الفدائية، كما زُودت بالبارود في إطار التنسيق الذي جمعها بمنظمة يد التطهير الفدائية، والحبل البارودي، والقبصون، وحتى الأوعية التي تحضر بها تلك القنبلة المحلية الصنع[٣٣]. كما عمل لحسن الكلاوي، تحت تهديد السلاح، على إجبار أحد عمال المقالع الحجرية بتيط مليل على مده بعلبة متفجرات وصواعق[٣٤]. يمكننا، إذن، إجمال عمليات الأولى للهلال الأسود كالتالي:

١. وضع قنبلة بدار الضريبة في درب السلطان.
٢. وضع قنبلة جديدة من طرف محمد السامي، المهدي الناموسي، محمد بن عبد السلام، فأصيب أحد الأفراد بجروح[٣٥].

في هذه المرحلة، عمل أفراد الهلال الأسود على البحث عن منزل يتخدون منه مقرا للاجتماع[٣٦]، فتم اكتراء دار ببوشنتوف لتكون مركزا سريا، ومنطلقا للعمليات[٣٧]. عقب ذلك، بدأ العمل على جمع السلاح، فقد اشترى الكلاوي مسدسا من عيار ٦،٣٥ ملم مع ١٧ رصاصة[٣٨]، ثم زود محمد بن عبد السلام المنظمة بمسدس من عيار ٦،٣٥ ملم مع ٦ رصاصات[٣٩]، كما جلب لحسن الكلاوي مسدسين من عيار ٩ ملم.

٢/١-محاولة الاحتواء

بعدما بدأت منظمة الهلال الأسود تكشر عن أنيابها، ستلفت إليها أنظار المنظمة السرية، تلك المنظمة التي رامت استقطاب الهلال الأسود وإخضاعها. ففي شهر يوليوز من سنة ١٩٥٤، حاولت المنظمة السرية احتواء منظمة الهلال الأسود[٤٠] عن طريق دعوة أعضائها لاجتماع حضره بوشعيب الحريزي، المدني الأعور (المدني شفيق)، محمد المكناسي، عن المنظمة السرية، ثم اجتماع ثاني في نفس الفترة، حضره عن منظمة الهلال الأسود عبد الحداوي والمهدي الناموسي، بينما حضره عن المنظمة السرية بوشعيب الحريزي والمدني شفيق؛ لكن قيادة الهلال الأسود رفضت هذا المقترح[٤١]. ثم تقدم المدني شفيق بمقترح للمهدي الناموسي وعبد الله الحداوي دعاه فيه للتخلي عن منظمة الهلال الأسود والانخراط ضمن المنظمة السرية[٤٢]

٢/٢-تثبيت الأقدام في العمل المسلح

دخلت منظمة الهلال الأسود هذه المرحلة عقب الالتفاتة التي تعرضت لها المنظمة من قبل رفاق السلاح، منذ يوليوز ١٩٥٤، فشكلت منظمة الهلال الأسود فاعلا رئيسيا في مجال العمل المسلح. بدأت عمليات منظمة الهلال الأسود[٤٣]، خلال

المرحلة الجديدة من صيرورتها، بإلقاء قنبلة في شركة السكر COSUMA في يونيو ١٩٥٤، ألقاها لحسن الكلاوي على لحسن بن يحيى بن قاسم.

- وفي ١٦ يوليوز ١٩٥٤[٤٤]، حوالي الساعة الرابعة والنصف من صباحه، تم إلقاء قنبلة قرب شركة السكر، لكنها لم تنفجر، نظرا لاكتشافها[٤٥].
- في ٢٢ يوليوز ١٩٥٤، أقدم محمد الحداوي على مهاجمة أحد باعة التبغ قرب سوق الغرب المعروف بالجميعة[٤٦]، فقد طلب من صاحبها علبة للسجائر، وما كاد البائع يلبي رغبة محمد الحداوي، حتى أفرغ رصاصة في عنق البائع، فتعرض لجرحٍ خطير توفي على إثره. تمكن الحداوي من الفرار رغم متابعة لفيف من الجند له[٤٧]. وقد حضر العملية حجاج المزابي[٤٨].
- في ١٤ يوليوز١٩٥٤، قام عبد الله الحداوي بالهجوم على دورية للشرطة، حيث ألقى عليهم قنبلة من نوع Bresta، وقد أصيب أفرادها بجروح[٤٩].
- في ٦ غشت ١٩٥٤، تم وضع قنبلة أسفل حافلة عندما كانت متوقفة من طرف المهدي الناموسي، بوشعيب، محمد بن عبد السلام، الزّياني، بالمدينة الجديدة[٥٠]، وقد أدت إلى جرح أربعة أشخاص[٥١]
- وفي ٩ شتنبر ١٩٥٤، أقدم لحسن الكلاوي[٥٢]على وضع قنبلة تحت سيارة نقل فرنسية كانت واقفة على ناحيتي شارع مرس السلطان وشارع كليبر، لكن القنبلة لم تنفجر، إذ عندما وصل مفتش الشرطة إلى موضع القنبلة، عقب إبلاغ الشرطة، وجد أن الرطوبة قد أطفأت الفتيل، لذا، لم يقع الانفجار[٥٣].
- خلال نفس اليوم، أقدم محمد الحداوي على مهاجمة أحد رجال الشرطة الأوربيين[٥٤]. نفذ الهجوم في المدينة الجديدة، بطريق مديونة، على مستوى الشارع رقم ١٧، في كاريان كارلوطي[٥٥]، بالحي التجاري المعروف[٥٦]، على الساعة ٩،١٥ صباحا. نُفذ الهجوم ضد ضابط الشرطة جان رامون، وقد أصابته الرصاصة في عنقه أسقطته على الفور. حاول حراس أحد المخابز التدخل رفقة بعض المارة، لكن الحداوي تمكن من الاختفاء وسط الحشود، في شارع صغير مجاور. بمجرد تلقي الإنذار، حل بعين المكان العميد أيالا AYALA، من الدائرة الثامنة، كما انضم إليه رئيس الشرطة المتنقلة نيكولاي، قصد معاينة الحادثة. والضابط جان رامون، لم يمر على تعيينه الكثير من الوقت، بعدما اشتغل بالجزائر، وقد كان يبلغ من العمر ٣٥ سنة، وكان متزوجا وأبا لطفلين[٥٧].
- كما تم، خلال نفس اليوم، وضع قنبلة من طرف عبد الله الحداوي تحت سيارة أحد المعمرين[٥٨] يدعى جان بامبيني JEAN PAMPINI[٥٩] بزنقة شامبان CHAMPAGNE، لكنها لم تنفجر[٦٠].
- وفي اليوم نفسه، تم جرح البشير العلج، البالغ من العمر ٣٤ سنة، وهو فنان مغربي[٦١]، على الساعة الثانية صباحا، وقد تعرض لرصاصة في الكتف، تطلبت نقله للمستشفى، وحسب جريدة الأمة، فإن البشير العلج، كان متعاونا مع السلطات الفرنسية[٦٢]
- بينما، في اليوم التالي، أقدم المهدي والزياني[٦٣]، حوالي الساعة الثالثة صباحا، على تفجير قنبلة محلية الصنع في شقة مغربية، تقع في ١٣٦ شارع الموناستير، إذ تم رمي القنبلة من الشارع إلى النافذة التي تقع في الطابق الأول، وهي في ملكية بوشعيب بن علال، لتستقر في منتصف الغرفة[٦٤]. وقد أصيب من جراء الانفجار بوشعيب وزوجته إصابات طفيفة، فيما أصيبت بنته الصغيرة أمينة التي كانت تبلغ من العمر عشر سنوات بجروح خطيرة[٦٥] نقلت على إثرها إلى المستشفى. كان بوشعيب بن علال خبازا، لكن، ولمدة قليلة قبل استهدافه، أقدم على فتح محل سري لبيع الخمر[٦٦]، كما كان متعاونا مع السلطات[٦٧].
- في ٢٣ أكتوبر ١٩٥٤، تم وضع قنبلة في مدخل حي بوسبير[٦٨] من طرف كل من لحسن الكلاوي والمهدي[٦٩].
- في ١٢ دجنبر ١٩٥٤، وضعت قنبلة من صنع محلي[٧٠] بواسطة كل من عمر[٧١] وبوشعيب[٧٢] في حانة فرنسية؛ لكن القنبلة لم تنفجر، إذ عالجها أحد المارة قبل احتراق الفتيل. والحانة مشهورة بارتداد كبار المعمرين إليها[٧٣].
- في يوم ١٤ دجنبر ١٩٥٤، تم اغتيال فقيه متعاون مع السلطات بشارع ملوية يدعى عبد الله التيجاني برصاصتين اخترقت إحداهما دماغه والثانية ساعده الأيمن، مما أودى بحياته[٧٤]
- خلال يوم ١٥ دجنبر ١٩٥٤، أقدم حجاج المزابي[٧٥] على اغتيال بوشعيب عبو بن الغازي، وقد وقع الهجوم عندما كان الضحية ينظف السيارة التي يعمل عليها (سيارة أجرة)، في مرآب صاحب سيارة الأجرة، عند الساعة ٥:٤٠ من صباح يوم ١٥ دجنبر ١٩٥٥، بشارع أنجورا في المدينة الجديدة. وقد أطلق

الرصاص عليه بواسطة مسدس من عيار ٦،٣٥ ملم، وقد تعرض لجروح خطيرة[٧٦]، قتلته فيما بعد[٧٧].

- في اليوم التالي للعملية السابقة، تم وضع قنبلة ذات حمولة قوية تحت سيارة يملكها الحاج عبد الرحمن. حسب جريدة الأمة، فقد كان من أعوان الإدارة الاستعمارية الفرنسية، وكان يقطن بشارع ني رقم ١٢١، بينما كانت سيارته واقفة بشارع كرون (المحاذي لشارع ني) عندما انفجرت القنبلة تحتها على الساعة الخامسة والدقيقة العشرين. أحدث الانفجار أضرارا جسيمة حسب الرواية الفرنسية، إذ لم تقتصر على إتلاف السيارة فقط، بل أصابت المنازل المجاورة بكثير من العطب. وقد أجرى التحقيق في الواقعة مفتش الدائرة السادسة[٧٨]. بينما نُفذت العملية من طرف عمر وبوشعيب[٧٩].
- في ٢٢ دجنبر ١٩٥٤، قامت منظمة الهلال الأسود بتفجير قنبلة قارنتها الصحافة الفرنسية في المغرب بقنبلة مارشي سنطرال، إذ تم تفجير القنبلة في ليلة الاحتفال بعيد الميلاد. ففي وسط الدار البيضاء، وخلال الساعة السادسة وسبع دقائق مساءا ١٨:٠٧، انفجرت قنبلة أمام مدخل مقر القرض العقاري للجزائر وتونس، في شارع مارسيليا، وقد اختير تفجيرها في الوقت الذي تكون فيه الحركة كثيفة. خلفت القنبلة، حسب رواية لافيجي ماروكان، قتيلا واحدا و١٠ جرحى[٨٠]؛ بينما عددتهم الأمة بـ ١٥ جريحًا و٣ وفيات. كما صادف الانفجار مرور حافلة للنقل تابعة لشركة "تاك"، مما أدى إلى تكسير زجاج العمارة والحافلة، جراء الانفجار، على حد سواء. وقد تبين أن القنبلة وُضعت في كيس فارغ للإسمنت، بغية إيهام الجميع على أنها قمامة. حدث الانفجار في مكان قريب من الغرفة التجارية والصناعية بالدار البيضاء، إذ يبعدها بحوالي ١٠٠ متر فقط. آنذاك، كان المقيم العام فرانسيس لاكوسط يجري اجتماعًا هنك. وقد ألقت الشرطة الفرنسية القبض على خمس مغاربة تم الاشتباه فيهم، بعدما طوقت جميع الشوارع القريبة من مكان الانفجار[٨١]، لكن منفذي الهجوم عمر ولحسن والمهدي وبوشعيب[٨٢] تمكنوا من الفرار، نظرا لاستخدامهم سيارة من FORD VEDETTE في العملية[٨٣].

ثالثًا: امتداد المنظمة وسيرورتها

٣/١-نحو خلق فروع جديدة

(٣/١) ١-فرع مراكش:

عملت منظمة الهلال الأسود، بعدما اشتد عودها، على محاولة توسيع مجال الكفاح؛ لذا، تم التنسيق مع مجموعة من الشباب الذين ظلوا، بعد نفي محمد الخامس، يبحثون عن وسائل ناجعة للدخول في عمليات المقاومة[٨٤]. فتم التنسيق مع منظمة الهلال الأسود بالدار البيضاء، لتشكيل فرع تابع لها بمراكش. تأسس الفرع المذكور في أواخر سنة ١٩٥٤، وقد ظل الفرع يعترف بمركزية المنظمة الأم في الدار البيضاء. استطاع أفراد هذا الفرع القيام بعمليات محورية بالنسبة للمقاومة في مدينة مراكش منها:

1. اغتيال عدد من المتعاونين مع المستعمر.
2. إلقاء قنابل ومتفجرات على أماكن يرتادها أفراد الشرطة الفرنسية.
3. إحراق ضيعات المعمرين وتخريب ممتلكاتهم.
4. محاولة اغتيال الكومندار بولو بمسفيوة في ضيعته عند دار بوفكرون، لكنه نجا بأعجوبة من موت محقق[٨٥].

من أعضاء منظمة الهلال الأسود -فرع مراكش-نجد: عبد الله بن الزي، صالح العتيق، محمد بوقدير، القدميري (اتجه نحو سلك الشرطة)[٨٦].

(٣/١) ٢-البحث عن موطئ قدم في فاس:

في خضم السعي وراء توسيع نشاطها، قام أفراد من منظمة الهلال الأسود بمحاولة إجراء عملية مسلحة في فاس، إذ تقرر الانتقال إلى مدينة فاس لتصفية "القايد العربي" الذي عُرف عنه، حسب المهدي الناموسي، إلحاق الأذى بالسكان المغاربة، وجمع التوقيعات لتأييد قرار عزل ابن يوسف. باستعمال سيارة تم اقتناؤها حديثًا، انتقل لحسن الكلاوي، عبد الله الحداوي، المهدي الناموسي، إلى مدينة فاس[٨٧]، حيث مكثوا لمدة ثلاثة أيام بالمدينة المذكورة[٨٨]، بفندق شركة النقل المغربية C.T.M. عندما خلد الكلاوي للنوم، استغل عبد الله الحداوي والمهدي الناموسي الفرصة لتفقد محيط إقامة القايد الواقعة بمحج فوش FOCH. رابط أفراد الهلال الأسود الثلاثة غير بعيد عن سكنى القايد ينتظرون ظهوره للإجهاز عليه، لكن دون جدوى[٨٩]، لكون المسدس المستخدم خلال العملية تعطل، واستعصى استخدامه[٩٠]. لذا، قرروا العودة إلى الدارالبيضاء. وبعد أيام، كرروا المحاولة التي باءت، مجددا، بالفشل هي الأخرى[٩١].

٢/٣-منظمة شباب الثورة

منظمة ثورية شبابية تابعة للهلال الأسود، عملت تحت مسؤولية عبد الرحمن الشرايبي والعربي رشدي (العربي الزاز)، أقدمت على تنفيذ بعض العمليات كإحراق منازل المتهمين بالتعاون مع السلطات الفرنسية، والاغتيال، إذ شارك عبد الرحمن الزعيم الودغيري، أحد أفرادها، في اغتيال أحد الأعوان بدرب الساقية. كما قامت بالهجوم على منازل رجال الجمارك والاستيلاء على أسلحتهم، وتجنيد المقاومين[٩٢].

٣/٣-بعض امتدادات الهلال الأسود

عقب اشتداد منظمة الهلال الأسود وامتداد عملياتها، أصبحت لها خلايا في عدة مدن من بينها: الرباط، مكناس، فضالة (المحمدية)، مازاغان (الجديدة)، آسفي، سيدي بنور[٩٣]، وبور ليوطي (القنيطرة)[٩٤]. كما جرت محاولات لتأسيس خلية بتادلة[٩٥].

رابعًا: المرحلة الذهبية للمنظمة

خلال هذه المرحلة، أي منذ دخول سنة ١٩٥٥، ستكثف منظمة الهلال الأسود من عملياتها التي استهدفت السلطات الفرنسية، والمتعاونين معها، وتجار المخدرات، وأصحاب بعض الأنشطة المشبوهة.

لا يمكننا التأكيد على كون كافة عمليات المنظمة، كما المنظمات الأخرى شرعية، نظرا لحدوث بعض الأخطاء، وبعض التجاوزات؛ فأفراد المنظمات، في الأصل، مجموعة من الشباب المتحمس للعمل الوطني؛ إنه الشباب الذي أهملته السلطات الفرنسية والمخزنية على حد سواء، جاعلة منه شبابا تعيسا، لكن تعاسته تلك بوثقت وعيه الطبقي، بل أنزلت النضال الوطني من قمم البورجوازية البراغماتية إلى احتضانه من طرف الجماهير، ليصبح النضال جماهيريا بعدما كان نخبويا يتم في الولايات المتحدة وفرنسا والقاهرة...إلخ، يستغله ممارسوه في الرفاهية بدل الممارسة العملية على جلب استقلال البلاد، فالسلاح هو الذي مكن البلاد من الاستقلال. لذا، ليس غريبا أن نجدا الممارسة الثورية انعكاسا للوعي الطبقي الذي بلورته القواعد الشعبية؛ وفي منظمة الهلال الأسود، بالاشتراك مع بعض أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي المغربي، تلك النخب المثقفة داخل الحزب.

١/٤-عمليات الهلال الأسود (محددة التاريخ)

هكذا، كانت الأشهر الأولى من عمليات الهلال الأسود حامية الوطيس، إذ تم اغتيال طبيب إيطالي على علاقة بمنظمة الوجود الفرنسي[٩٦] يدعى إيمانويل كاركانو EMMANUEL GARGANO، في يوم ٧ يناير ١٩٥٩[٩٧]؛ لقي مصرعه على الساعة الحادية عشر والربع من صباح الجمعة، برصاصتين استقرتا في رأسه، بالمدينة الجديدة للدار البيضاء، قرب عيادته في شارع أبيسيني[٩٨]، وحسب رواية الأمة بشارع الحبشة، عند مدخل المدينة الجديدة بالدار البيضاء، ناحية طريق مديونة[٩٩].

- وفي يوم ٢٥ من الشهر نفسه -أي شهر يناير-تم اغتيال علي رزقي، وهو من أصل جزائري وحاصل على الجنسية الفرنسية، بعدما تمادى، حسب محمد وحيد، في المتاجرة بالخمر، وقد تمت مهاجمته على الساعة السادسة وخمسين دقيقة مساء بدرب السبليون، زنقة ٢٦، وقد أصيب برصاصتين من عيار ٦،٣٥ ملم أنهتا حياته في حينه[١٠٠].
- في يوم ٢ فبراير ١٩٥٥، قام عبد الله الحداوي[١٠١] بمحاولة اغتيال أستاذ الطب المساعد بيير دالياس Pierre Daléas الذي تعود أصوله إلى تولوز، حوالي الساعة ١٧:٣٠، في درب السبنيول أمام المبنى رقم ٢٠ في الزنقة ٥٥، حيث كان مكتبه للاستشارات الطبية. عند مغادرته مكتبه، هوجم الطبيب (من قبل عبد الله الحداوي) من الخلف بطلقتين في أعلى فخذه، وقد تمكن (عبد الله الحداوي) من الفرار، بينما تم نقل بيير دالياس إلى مستشفى كولومباني[١٠٢] في حالة ليست بالخطيرة[١٠٣]. تشير الأمة إلى كون بيير دالياس، عندما تعرض للهجوم، كان متوجها لحي بوسبير بغية الكشف عن عاملات الجنس[١٠٤] به[١٠٥].
- في يوم ٣ فبراير سنة ١٩٥٥، أقدم عبد الله الحداوي على مهاجمة بائع تبغ أوربي[١٠٦].
- في نفس اليوم، أقدم اعماموا الزياني رفقة عبد الله الحداوي على اغتيال جان لويس كازانوفا بسلاح ناري من فئة ٩ ملم[١٠٧]. وجان لويس كازانوفا، متقاعد من إحدى الشركات الفرنسية، وبييع التبغ في المحل الذي تعرض للاغتيال فيه بزنقة كرون[١٠٨].
- في يوم ١٢ فبراير ١٩٥٥[١٠٩]، أقدم اعمامو الزياني[١١٠] على محاولة اغتيال البشير بن علال بن محمد الذي بلغ من العمر ٥٠ سنة، قطن في الزنقة ١٦، رقم منزله ١٦ في درب الشرفاء بالمدينة الجديدة، عن طريق إصابته بثلاثة رصاصات أصابت رأسه وظهره وقدمه، مما استدعى نقله على وجه السرعة إلى مستشفى موريس-كو[١١١]، حيث لفظ آخر أنفاسه، عقب إجراء عملية جراحية مستعجلة[١١٢].

- وفي صباح ١٤ فبراير ١٩٥٥، استهدف عبد الله الحداوي عبد الأحد الكتاني[١١٣] قاضي عين الشق[١١٤]، ونجل عبد الحي الكتاني، على الساعة ١١:٤٥، كما أصيب حارسه الشخصي، عندما كانوا على وشك مغادرة المحكمة، فتعرضوا لهجوم عندما كانوا بصدد ركوب السيارة، وقد أطلقت طلقتان في اتجاه عبد الأحد[١١٥]، مما استدعى نقله إلى المستشفى لإجراء عمليات جراحية، بغية إنقاذ حياته[١١٦].

كان عبد الله الحداوي يركب دراجة، وكان معه مرافق[١١٧]، عندما أطلقا عيارات نارية من مسدس بعيار ٩ ملم اخترقت باب السيارة وزجاجها، وقد أصابت اثنتان منهما عبد الأحد الكتاني، بينما أصابت ثالثة حارسه الخاص. وقد حاولت الشرطة اللحاق بهما، لكنهما اغتنما فرصة وجودهما بالقرب من سوق القريعة واختفيا في الازدحام[١١٨]. وفيما يتعلق بعبد الأحد الكتاني، فقد كسرت إحدى الرصاصتين عموده الفقري، مما أدى إلى إصابته بشلل كلي، لن يستطيع الشفاء من أعراضه[١١٩]، وسيتوفى في وقت لاحق من نفس السنة.

- في ٣ مارس من سنة ١٩٥٥[١٢٠]، تعرض أوربي يقطن بالدر البيضاء يُدعى أرمان ماري لهجوم حوالي الساعة ١٧:٣٠، قرب سوق الجملة. وأرمان ماري، كان مهندسا للأشغال العمومية، بلغ عمره عند الهجوم عليه ٥٠ سنة. تعرض للهجوم في شارع C.E.F -شارع الجيش الفرنسي- برصاص مسدس عيار ٦،٣٥ ملم، حيث اقترب منه (عبد الله الحداوي) بواسطة دراجته. عقب العملية، فر الحداوي تاركا دراجته الحمراء، كما حلت الشرطة بعين المكان بغية تعميق البحث في النازلة[١٢١]؛ بينما نُقل ماري إلى المستشفى. وفيما يتعلق بسبب الهجوم عليه، فترجح الأمة كونه عضوا في منظمة الوجود الفرنسي[١٢٢]، بينما يشير محمد وحيد، من خلال اعترافات لحسن الكلاوي، إلى كون الدافع وراء هذه العملية هو قيام الضحية بإهانة المغاربة، مما ولد كراهية عند أفراد الهلال الأسود تجاهه. عقب هذه العملية، تعرض كل من لحسن الكلاوي والمهدي الناموسي للاعتقال[١٢٣]؛ هكذا تمكن عبد الله الحداوي من قيادة منظمة الهلال الأسود[١٢٤].
- في ٨ ماي ١٩٥٥، تمت مهاجمة متعاون مغربي[١٢٥] يدعى الحسن بن التهامي من طرف عبد الله الحداوي واعمامو الزياني، قام الزياني لتنفيذ العملية بواسطة مسدس من عيار ٩ ملم، وقد قُتل الحسن بن التهامي[١٢٦].
- في ١٥ ماي ١٩٥٥، تمت مهاجمة متعاون مغربي[١٢٧] برتبة مقدم يدعى محمد بن عبد القادر ايما قايدي[١٢٨] بواسطة سلاح ناري من عيار ٩ ملم؛ وقد نفذ العملية عبد الله الحداوي واعمامو الزياني.
- في يوم ١١ ماي ١٩٥٥، تعرض عبد الكريم لحسن علي لهجوم من طرف كل من عبد الحداوي وحجاج المزابي، بواسطة مسدس من عيار ٩ ملم[١٢٩].
- في يوم ٢٨ ماي ١٩٥٥، تمت مهاجمة معمر[١٣٠] يدعى باروكير BARROUQUERRE بواسطة كل من اعمامو الزياني وحجاج المزابي وعبد الله الحداوي بواسطة سلاح ناري من عيار ٩ ملم وقد أصيب بجروح[١٣١].
- وفي نفس اليوم، تمت محاولة اغتيال الحاج علي العالية من طرف عبد الله الحداوي وحجاج المزابي بواسطة مسدس من عيار ٩ ملم[١٣٢].
- في بداية يونيو ١٩٥٥، جرت عملية اغتيال متعاون مع السلطات يدعى محمد المذكوري، قام بها كل من عبد الله الحداوي وحجاج المزابي بواسطة سلاح من عيار ٩ ملم.
- وفي 15 يونيو ١٩٥٥[١٣٣]، قامت منظمة الهلال الأسود بمحاولة اغتيال متعاون مغربي يدعى إدريس بن بوعزة بواسطة سلاح من عيار ٩ ملم[١٣٤]. جرت العملية خلال السابعة مساء، بدرب الشرفاء، وقد تمت إصابته في فخذه الأيسر، نقل على إثر إصابته إلى المستشفى[١٣٥]، رغم ذلك، لم تكن إصابته خطيرة[١٣٦]. وإدريس بن بوعزة، قيد حياته، كان يشتغل في تجارة الدراجات الهوائية[١٣٧].
- في ٢٥ يونيو، أقدم عبد الله الحداوي وحجاج المزابي على محاولة اغتيال محمد عبد الرحمن علي بواسطة مسدس من عيار ٩ ملم، حسب محمد وحيد[١٣٨]، بينما تشير جريدة الأمة إلى وفاة الضحية؛ وقد وقعت الحادثة في شارع السويس بالمدينة الجديدة. كان الضحية يبلغ من العمر، عند الهجوم عليه، ٣٣ سنة[١٣٩].
- وفي اليوم الموالي، قام نفس الشخصان بمحاولة اغتيال محمد بن عباس بواسطة نفس نوع السلاح. كما جرت محاولة اغتيال الحسين بن بوبكر عن طريق كل من عبد الله الحداوي وحجاج المزابي، بواسطة سلاح من عيار ٩ ملم[١٤٠]، في نفس اليوم. يضع محمد وحيد الحادثتين منفصلتين؛ لكننا، عند عودتنا لأرشيف الصحافة، وجدنا أن الحادثتين مرتبطتين، فقد كان الحسين بن بوبكر الحارس الشخصي لمحمد بن عباس؛ ومحمد بن عباس بائع سجائر مغربي حسب لافيجي ماروكان، بينما وصفته جريدة الأمة بالمقدم[١٤١]؛ ويبدو لنا، من خلال توفره على حارس شخصي، أن رواية جريدة الأمة،

حول عمله، هي الأقرب للصواب. وقعت الحادثة على الساعة ١٨:٣٠، بشارع الإمام القسطلاني في درب مارتيني بالمدينة الجديدة. وقد كان محمد بن عباس عند استهدافه يبلغ ٥٦ سنة. وقد أصيب محمد بن عباس بجروح على مستوى ساعده الأيسر، بينما أصيب حارسه الشخصي بجروح عدة في رأسه، وقد اعتبرت حالته خطيرة[١٤٢].

- في يوم ٣٠ يونيو ١٩٥٥، تعرض التاجر الشهير، عبد المالك الصفريوي، للاغتيال، بينما كان يهم مغادرة منزله[١٤٣]، من طرف كل من عبد الله الحداوي وحجاج المزابي، بواسطة مسدس من عيار ٩ ملم[١٤٤]. وقد وقعت العملية على الساعة ١٣:٠٠، في شارع فوتنين، بدرب الحبوس (حي الحبوس الآن). كان عبد المالك الصفريوي، عند اغتياله، يبلغ من العمر ٤٦ سنة، ومتزوج[١٤٥].
- في ٢ يوليوز ١٩٥٥، حسب محمد وحيد، تم اغتيال كل من الرداد بن بوشعيب والعربي بن محمد، عن طريق كل من عبد الله الحداوي وحجاج المزابي، وقد استعمل في اغتيال الأول مسدس من عيار ٩ ملم، بينما استعمل في اغتيال الثاني مسدس من عيار ١١،٤٣ ملم[١٤٦]. بينما جعلت لافيجي ماروكان العملية شهدت اغتيال شخص يدعى بوشعيب بن العربي، وإصابة شخص آخر لم تذكر اسمه. وقد وقعت العملية في درب بوشنتوف على الساعة ٢٠:٣٠[١٤٧].
- في يوم ١٣ يوليوز ١٩٥٥، جرى اغتيال الخياط إدريس بن التهامي، عن طريق كل من عبد الله الحداوي وحجاج المزابي، نظرًا لتعاونه مع الفرنسيين بواسطة مسدس من عيار ٩ ملم[١٤٨]. وقعت العملية على الساعة ٢٠:٣٥، بدرب اسبانيول (حي العيون حاليا). وقد بلغ عمر إدريس بن التهامي المعطي عند استهدافه ٣٧ سنة[١٤٩].
- في يوم ١٦ يوليوز ١٩٥٥، تعرض المعمر بيير أسينخو PIERRE ASSENJO لمحاولة اغتيال بواسطة قنبلة من نوع بريدا، وقد نفذ العملية عبد الله الحداوي.
- في نفس اليوم، قام عبد الله الحداوي بمحاولة اغتيال دورية لحراس الأمن Patrouille De Gardiens De La Paix، عن طريق قنبلتها بواسطة قنبلة من نوع بريدا BREDA[١٥٠]، في درب السبليون[١٥١].
- في يوم ٢٠ غشت ١٩٥٥، قامت منظمة الهلال الأسود بتوزيع منشورات تحرض، من خلالها، على كسر حظر التجوال الذي فرضته السلطات الفرنسية بالمغرب الفرنسي، عبر الخروج في مسيرات من أجل ترديد اسم السلطان ابن يوسف.

فتمت تلبية طلب الهلال الأسود من طرف جماهير عريضة، إذ خرج المحتجون بالقرب من شارع السويس في المدينة الجديدة هاتفين باسم ابن يوسف[١٥٢]. تعبر هذه الاستجابة عن الشعبية التي أصبحت تحظى بها منظمة الهلال الأسود في أوساط الجماهير التواقة للتحرر؛ إذ بدأت الهلال الأسود، ومنذ مدة، في تأكيد وجودها، ذلك عبر عملياتها وتعبئة الجماهير الشعبية التي أضحت تتجاوب مع نداءات المنظمة.

- في ٢٧ غشت ١٩٥٥، تمكنت منظمة الهلال الأسود[١٥٣]، بواسطة عبد الله الحداوي ومحمد الحداوي[١٥٤]، من اغتيال مغربي يدعى عبد المالك، يبلغ من العمر ٢٧ سنة، قرب مخفر شرطة الدائرة السابعة بالمدينة الجديدة، عبر إفراغ رصاصة مسدس من عيار ٧،٦٥ ملم في عنق الضحية، أودت تلك الرصاصة بحياته على الفور[١٥٥].
- في ٤ شتنبر ١٩٥٥، قام عبد الله الحداوي وحجاج المزابي[١٥٦] باغتيال عسكريين سنيغاليين كانا في دورية بحي بوشنتوف عند الساعة ١٥:٣٠، وأصيب أحد الجنديين في بطنه، بينما الآخر في ذراعه؛ على إثر ذلك، تم نقلهما إلى المستشفى العسكري. كما تمكن عبد الله الحداوي وحجاج المزابي من سرقة سلاحيهما قبل فرارهما[١٥٧].
- في اليوم الموالي، تعرض جنديان فرنسيان آخران للاغتيال من طرف مقاومي منظمة الهلال الأسود على الساعة ٩:٤٥، هما جان كوتيي JEAN GAUTHIER وميشال بوادفان MICHEL POIDEVIN. تم الهجوم بشكل مباغث، حيث تعرض الجنديان الفرنسيان للاغتيال وسرقة سلاحيهما؛ وقد دأب المقاومون على جلب السلاح من السلطات الفرنسية والمخزنية[١٥٨].
- في يوم ٨ شتنبر ١٩٥٥، قام محمد الحداوي بمهاجمة سيارة للدرك في درب السبليون بتعاون مع عبد الله الحداوي، عبد السلام رشدي المعروف ببوعزة، محمد كرانفال، نتج عن العملية إصابة ركاب السيارة، فيما سقط عدد من المارة بين قتيل وجريح، عقب إطلاق نار عشوائي من طرف الأمن والدرك[١٥٩].
- في ١٤ شتنبر ١٩٥٥، جرت محاولة اغتيال يهودي مغربي يدعى ليفي بيريز LEVY PERREZ، بواسطة مسدس من عيار ١١،٤٣ ملم، وقد أصيب بجروح[١٦٠].
- في يوم ٢٧ شتنبر ١٩٥٥، حاولت منظمة الهلال الأسود، عن طريق حجاج المزابي وعبد الله الحداوي، اغتيال المعمر دياز

الكانتارا DIAZ ALCANTARA، تم ذلك بواسطة مسدس من عيار ٩ ملم[١٦١].

- موقعة سيدي معروف:

هذه الموقعة، تعتبر إشارة مميزة تبرز التضحيات التي قامت منظمة الهلال الأسود بخوض غمارها، إذ رفض كل محمد الحداوي وحجاج المزابي الاستسلام للقوات الفرنسية التي كانت تحاصرهما[١٦٢]. وقعت معركة حامية الوطيس بين الشرطة الفرنسية من جهة، وبين كل من محمد الحداوي وحجاج المزابي من جهة أخرى، في حي سيدي معروف، المتموضع عند نهاية شارع السويس، باتجاه حي لارميطاج، آنذاك، في الشارع رقم ٨٩، عند أحد المنازل التي دأب بعض أفراد الهلال الأسود على التواجد بها. أسفرت المواجهة عن مقتل شرطيين وجرح أخرين[١٦٣] هما صاباتي وكابو، أحدهما كانت جراحه خطيرة[١٦٤].

حسب رواية محمد وحيد[١٦٥]، فإن عبد الله الحداوي كان متواجدا في المنزل قبيل مهاجمته من قبل السلطات الفرنسية، وعقب خروجه بقليل، تمت مهاجمة المنزل ظنا من الشرطة الفرنسية أن عبد الله الحداوي متواجد به. لكن، وحسب جريدة الأمة[١٦٦]، فقد كانت العملية فخًا مدروسًا بعناية، إذ عملت السلطات الفرنسية على تطويق جميع مخارج ومداخل الحي، وإن كان عبد الله الحداوي متواجدا، لتم القبض عليه لامحالة، فقد كانت لدى الشرطة الفرنسية كافة مواصفات عبد الله الحداوي وصوره وحتى دفاتره المدرسية، كما تم إصدار "مذكرة بحث واعتقال في حقه يوم ٥ مارس ١٩٥٥"[١٦٧]، بل لكان عبد الله الحداوي حذّر كلا من محمد الحداوي وحجاج المزابي بخصوص محاصرة الشرطة للحي، خصوصا وأن المنزل المُهَاجم، تواجدت به سيدة (زوجة حجاج المزابي) حامل، وطفل في الثالثة من عمره، بل وحسب لافيجي ماروكان[١٦٨]، فقد تم تطويق الحي بدقة شديدة، لأن الشرطة الفرنسية، اعتقدت أن أفراد الهلال الأسود غير متواجدين به.

فيما يتعلق بتفاصيل العملية، فقد جرت معركة طاحنة بين كل من محمد الحداوي وحجاج المزابي من جهة، ومن جهة أخرى الشرطة الفرنسية، وقد قامت الشرطة الفرنسية بمحاصرة الشقة المذكورة من كل الجهات مطلقة أعيرتها النارية من رشاشات. ثم حلت قوات الدعم بعين المكان مكونة من الجنود السنيغاليين، ومن الشرطة الفرنسية. لم تستطع الشرطة اقتحام المنزل نظرا لصمود المعنيين بالدفاع عن المنزل، واستماتتهم في المواجهة. لذا، أخذ الجنود الفرنسيون يقذفون المنزل بقنابل يدوية، وقنابل مسيلة للدموع، مما اضطر سكان العمارة التي تقع بها الشقة لإخلائها. بعدما استمر تبادل إطلاق النار لأزيد من ساعة، لم يعد الجنود الفرنسيون يسمعون أي دوي للرصاص من داخل المنزل. لذا، اقتحموا المنزل، ووجدوا محمد الحداوي وحجاج المزابي غارقين في دمائهما، وحسب رواية الأمة، فقد كان زميل ثالث لهما في الشقة، عُثر عليه مجروحا، كذلك وجدوا زوجة حجاج المزابي، وهي آنذاك شابة، كانت تبلغ من العمر ٢٥ سنة، معها طفل في الثالثة من عمره، وقد أصيبت برصاصتين في ذراعها الأيمن، مما تطلب نقلها إلى المستشفى، وقد وُضعت تحت الحراسة المشددة.

أعلنت السلطات الفرنسية أنها عثرت في المنزل على بعض القنابل المصنوعة محليا، وقنبلة يدوية، وثلاثة مسدسات أحدهم من نوع كولت وعياره ١١،٤٣ ملم[١٦٩].

- في صباح الإثنين ١٤ نونبر ١٩٥٥، نشبت معركة زنقة القوس، تُوفي جراءها محمد بن علي من الهلال الأسود، وأصيب محمد بن إدريس المعروف بـ "الصاحب"، بينما تمكن أحمد نحيلة من الإفلات[١٧٠]. وقد جرت هذه المعركة قبل ٤٨ ساعة من عودة محمد الخامس إلى المغرب قادما فرنسا.

انطلاقًا من العمليات الخطيرة لمنظمات الثورة المسلحة، على رأسهم منظمة الهلال الأسود، أحست فرنسا بخطورة الوضع. لذا عملت، منذ أوائل شتنبر ١٩٥٥، على تأجيل تسريح ٢٠٠٠٠ جندي أودعوا إلى حمل السلاح[١٧١].

رغم عودة السلطان بن يوسف، لم تعمد منظمة الهلال الأسود إلى وقف العمل المسلح ضد الاستعمار، ففي ١٥ فبراير ١٩٥٦[١٧٢]، أصدرت الهلال الأسود منشورا تتوعد من خلاله باستهداف الجنود الفرنسيين فقط[١٧٣]. وبالفعل، فخلال الأيام التالية، شُنت الغارات على مركبات الجيش الفرنسي بالمغرب[١٧٤]، من ضمنها عملية استهدفت ثلاث شاحنات تابعة للقوات المسلحة الفرنسية بالقنابل اليدوية[١٧٥] بعيد نشر المنشور بأيام قليلة.

٢/٤-عمليات الهلال الأسود (غير محددة التاريخ)

نشير، فيما يلي، إلى بعض عمليات الهلال الأسود التي لم نتمكن من تحديد تاريخها:

الهجوم على أحد الحراس من طرف العربي رشدي الملقب بالعربي الزاز بواسطة السلاح الأبيض وتجريده من سلاحه.

- وضع قنبلة بمركز الشرطة (المقاطعة السابعة).
- وضع قنبلة بمنزل مدير شركة التبغ[١٧٦].
- الهجوم على مقهى لوتير مينوس LE TERMINUS.

- عملية للهلال الأسود ضد حانة ماري CHEZ MARIE.
- تنفيذ عمليات في حي بوسبير[١٧٧].
- عملية للهلال الأسود تجند لها كل من محمد الحداوي، عبد القادر بوخريص، مصطفى السربوتي، حيث قاموا بنسف شاحنة عن طريق مفرقعة يدوية، بينما كانت متوقفة وراء منزل الباشا بلقرشي.
- تصفية مقدم بدرب البلدية.
- التنسيق بين عبد الله الحداوي ومحمد الحداوي لاغتيال وكيل عقاري بدرب الحبوس في المدينة الجديدة بالدارالبيضاء[١٧٨].
- محاولة اغتيال سرجان بتيط مليل. قام بالعملية كل من عبد الله الحداوي، أبو مسلم، المهدي الناموسي، حيث أصيب المُستهدَف برصاص في كتفه، ونجم عن ذلك اعتقال صديق للمنظمة، كما اعتقل أحد أفرادها الذين كانوا يمدون المنظمة بالذخيرة والبارود[١٧٩].

٣/٤-مصادر المعدات

على غرار كافة منظمات المقاومة، شكل المال والسلاح العصب الذي استندت إليه منظمة الهلال الأسود. فنظرا لكون المقاومة المسلحة وليدة بروليتاريا مغربية تعاني الأمرين، فقد استعصى، بادئ ذي بدء، على منظمات المقاومة، خصوصا الهلال الأسود، الحصول على المال الكافي، والسلاح الكافي، كما سبق لنا الإشارة إليه؛ إذ سبق لنا الإشارة إلى قيام منظمة الهلال في عملياتها الأولى بالاعتماد على القنابل المحلية الصنع في إطار التنسيق الذي تم بينها وبين منظمة يد التطهير الفدائية. كما قام لحسن الكلاوي بجلب بعض المسدسات البسيطة في المرحلة الأولى. لكن تلك الأسلحة، وعلى الرغم من أهميتها، لم تكن لتبوأ منظمة الهلال الأسود تلك المكانة التي وصلت لها بين منظمات المقاومة. لذا، يتوجب علينا التعمق أكثر بغية التمكن من معرفة مصادر المال والسلاح والسيارات التابعة لمنظمة الهلال الأسود.

(٣/٤) ١-المسدسات:

أتى لحسن الكلاوي بسلاح المنظمة الأول في ٢٢ ماي ١٩٥٤، إذ كان مسدسا من عيار ٧،٦٥ ملم، مع افتقارهم للرصاص[١٨٠]. كما عمل لحسن الكلاوي، تحت تهديد السلاح، على إجبار أحد عمال المقالع الحجرية بتيط مليل على مده علبة متفجرات وصواعق[١٨١]. هكذا بدأت، خلال هذه المرحلة، إعداد العدة وجمع السلاح، فقد اشترى الكلاوي مسدسًا من عيار ٦،٣٥ ملم مع ١٧ رصاصة[١٨٢]، ثم زود محمد بن عبد السلام المنظمة بمسدس من عيار ٦،٣٥ ملم مع ٦ رصاصات[١٨٣]، كما جلب لحسن الكلاوي مسدسين من عيار ٩ ملم[١٨٤].

إتمامًا لما سبق، عملت منظمة الهلال الأسود على استهداف بعض أفراد الشرطة، قوات الدعم، الدرك...إلخ، بغية الاستيلاء على الأسلحة التي يملكونها، وقد أفردنا مثالا سابقا بعمليتي ٤ شتنبر و٥ شتنبر من سنة ١٩٥٥. قام أحمد الشرايبي[١٨٥]، سنة ١٩٥٤، بالسفر من الدار البيضاء صوب مدينة طنجة بغية البحث عن أسلحة تنضاف للعتاد الحربي للمنظمة، وقد تم التفاوض مع المواطن الألماني جورج بوكا في موضوع تهريب أسلحة لفائدة منظمة الهلال الأسود، بعدما ربط أحمد الشرايبي الاتصال مع عبد السلام العمري[١٨٦] ليساعده في التفاهم مع الألماني المذكور باعتبار العمري يتقن اللغة الإسبانية، تلك التي يعتمد عليها جورج بوكا في تواصله مع الشرايبي، إذ لا يجيد العربية أو الفرنسية، تلك اللغتان اللتان يتقنهما أحمد الشرايبي.

منذ سنة ١٩٥٤، أضحى عبد السلام العمري حلقة الوصل بين أحمد الشرايبي وجورج بوكا[١٨٧] الذي كان يهرب مختلف السلع الاستهلاكية على باخرتيه السريعتين بين طنجة وجبل طارق. وقد كانت المسدسات ورصاصها والرشاشات الصغيرة ضمنها[١٨٨]. لكن عملية الاستيلاء على الأسلحة الشهيرة، تلك التي ظلت راسخة في ذاكرة المقاومة، هي التي قام بها أفراد الهلال خلال أوائل سنة ١٩٥٦، بالاستيلاء على رشاشات طومسون الأمريكية سريعة الطلقات[١٨٩]، حيث استولوا على ٢٤ بندقية من نوع كارا KARA الأمريكية الصنع[١٩٠]، و١٢٠٠ رصاصة، ورشاشات من نوع ستين STEIN الإنجليزية الصنع[١٩١]؛ وقد تم الاستيلاء على هذه الأسلحة من القاعدة الأمريكية بالقنيطرة[١٩٢] بعدما تم التنسيق للسطو عليها مع بعض المغاربة العاملين فيها[١٩٣]. كما تم الاستيلاء على مسدسين وعدة رصاصات من قاعدة النواصر العسكرية الأمريكية[١٩٤].

(٣/٤) ٢-القنابل:

زُودت منظمة الهلال الأسود بقنبلتين من الحجم المتوسط من طرف منظمة يد التطهير الفدائية، وزُودت بالبارود -في إطار التنسيق الذي جمعها بمنظمة يد التطهير الفدائية-، والحبل البارودي، والقبصون، وحتى الأوعية التي تحضر بها تلك القنبلة المحلية الصنع[١٩٥]. في مرحلة لاحقة، سيتم العمل على صناعة القنابل البسيطة بالمجهود الشخصي لأفراد المنظمة. كما تم،

خلال عملية الاستيلاء على أسلحة القاعدة الأمريكية، أخذ قنابل وألغام تستخدم في هدم الجسور والتصدي للمدرعات[١٩٦]. وفي العملية التي باشرها أحمد الشرايبي، والمتمثلة في جلب الأسلحة من طنجة، تم جلب قنابل لتساعد المنظمة في عملياتها[١٩٧].

(٣/٤) ٣-السيارات:

لعبت السيارات دورًا كبيرًا في تنفيذ عمليات المنظمة بشكل سلس. ففي البداية، افتقدت المنظمة للسيارات، وعملت في التنقل لتنفيذ عملياتها على الدراجات الهوائية أو على الجري دون أي وسائل مساعدة. وفي وقت لاحق، تم اقتناء أول سيارة من مؤسسة AMIC وكانت من نوع SIMCA ARRONDE، تم اقتناؤها بمبلغ ٤٠٠٠٠ فرنك[١٩٨]، تم تدبره من خلال مدخرات لحسن الكلاوي ومساهمات بعض الأفراد. وقد تم تسجيل السيارة في ملكية لحسن الكلاوي والمهدي الناموسي[١٩٩].

تمكنت الهلال الأسود، لاحقا، من توفير عدة سيارات لممارسة نشاطها، منها:

١. سيارة PLYMOUTH تحمل الرقم ٢٤٦٧ ٢٣ MA، مسجلة باسم أحمد رزقي.
٢. سيارة CHEVROLET تحمل الرقم ٦١٥١ ١٨ MA، مسجلة باسم أحمد رزقي.
٣. سيارة D.K.W تحمل الرقم ١٣٥٦ ٢٧ MA، مسجلة باسم محمد بن عبد الرحمن الدكالي.
٤. سيارة DE SAUTO تحمل الرقم ٣٣٥٩٢ MA، مسجلة باسم محمد بن عبد الرحمن الدكالي.
٥. سيارة CHEVROLET تحمل الرقم ٨١١٢ ٢٧ MA، مسجلة باسم إبراهيم فارس.
٦. سيارة D.K.W تحمل الرقم ٨٠٢٥ WW، مسجلة في اسم لحسن الكلاوي[٢٠٠].
٧. سيارة FORD VEDETTE.
٨. سيارة DE SAUTO تحمل الرقم ٦٩٥٢٨ WW[٢٠١].
٩. قيام أحمد مهلال -الملقب "الفرملي"- بوضع سيارتين رهن إشارة المنظمة[٢٠٢].

(٣/٤) ٤-التمويل:

عمدت منظمة الهلال الأسود، من أجل اقتناء الأسلحة، إلى تعديد مصادر تمويلها، إذ كانت اكتتابات أفرادها تساهم في توفير المال خلال المرحلة الأولى. لكن، مع تطور عمليات المنظمة، سعت الأخيرة إلى توسيع تمويلها، فقامت ببعث رسائل تهديد إلى تجار مغاربة أثرياء، تطلب منهم المساهمة في المجهود الثوري الذي رامت المنظمة خوض غماره، منهم: الحاج أحمد الزموري، عبد الله بن يوسف التاجر بزنقة ستراسبورغ المعروفة لدى البيضاويين بدرب عمر[٢٠٣]. كما اعتمدت منظمة الهلال الأسود على مساهمات بعض الأفراد الذين تضامنوا مع الهلال الأسود وساهموا في خزينتها إما لعلاقتهم الشخصية بأفراد من الهلال الأسود أو لوطنيتهم[٢٠٤]، نجد منهم: الحاج بليوط بوشنتوف الذي أقدم على التبرع في إحدى الأطوار، فقط، بمبلغ نصف مليون سنتيم بغية تمكين أفراد الهلال الأسود من شراء سلاح لدى أحد الأشخاص القادمين من مدينة فاس[٢٠٥]، المعلم بوشعيب الأزموري ...إلخ[٢٠٦].

خامسًا: أفول منظمة الهلال الأسود

رغم دينامية الهلال الأسود في الثورة المسلحة، لكن نهاية هذه المنظمة ظلت مأساوية، بل إن نهايتها إدانة للفاعلين السياسيين في تلك المرحلة، أولئك الفاعلون الذين ساهموا بشكل أو بأخر في نهايتها المأساوية. كما تعتبر إدانة للمؤرخين المغاربة، والحديث، هنا، عن مؤرخي التاريخ الراهن الذين، ورغم مرور كل هذه السنوات، ظلوا متشبثين، على قلتهم، بروايات لا تفي الموضوع حقه أو أهميته في تاريخ المغرب.

إن حاولنا البحث عن مستهل أفول منظمة الهلال الأسود، يمكننا القول إن جلسات ايكس-ليبان لعبت دورا كبيرا في تحديد بداية نهاية المنظمة، فقد عبرت المنظمة عن رفضها لجلسات ايكس-ليبان بمنشور اشتركت في صياغته مع كل من منظمة اليد الحسنية، ومنظمة سيف الله. وقد تم التعبير في المنشور، بخطاب شديد اللهجة، عن الرفض القاطع لمخرجاته، وللمشاركين فيه، عبر وصفهم بالمغرضين السياسيين الذين لا يمثلون الشعب ولا يمثلون الملك[٢٠٧]. وقد كان خطاب المنظمة المستميث في الدفاع عن السلطان محمد بن يوسف متأثرا بتراجيديا نفيه، مما عزز حضوره في وجدان أعضاء المقاومة وجيش التحرير، لاحقًا.

هكذا، وعقب الاستقلال الجزئي للمغرب، رفضت منظمة الهلال الأسود وضع السلاح، كما أصدرت منشورات تدافعها عن انتمائها الوطني، ونبالة أهدافها[٢٠٨]. وعملت، عبر استقطابها نذير بوزار، إلى توسيع نشاطها[٢٠٩]، إذ عملت منظمة الهلال الأسود على إرسال بعض أعضائها للمشاركة في الثورة الجزائرية، عقب الاعتراف باستقلال المغرب من طرف الجانب الفرنسي[٢١٠].

كما ساهم الاعتقال مساهمة كبيرة في أفول المنظمة، فقد تم اعتقال العربي رشدي الملقب بالعربي الزاز[٢١١]؛ كما تم

اعتقال لحسن الكلاوي منذ ٣ مارس ١٩٥٥[٢١٢]؛ وقد تعرض المهدي الناموسي، رفقة لحسن الكلاوي، للاعتقال في نفس اليوم، عقب الفشل في تصفية المهندس الفرنسي أرمان ماري[٢١٣]. كما تم اعتقال عبد الله الحداوي للمرة الأولى سنة ١٩٥٤، بعدما أرسل رسائل تهديدية[٢١٤]؛ إضافة إلى تعرضه للاعتقال، مجددا، رفقة اعمامو الزياني لمدة ١٥ يوما، من ٢٦ يناير إلى ١١ فبراير ١٩٥٦[٢١٥]. وقد صدرت في حق عبد الله الحداوي وحده أربع مذكرات بحث، كانت الأولى في يوم ٥ مارس ١٩٥٥ عقب اعتقال الكلاوي والناموسي[٢١٦]؛ أما الثانية، فقد كانت في ١ مارس ١٩٥٦، عقب مقدرة عبد الله الحداوي على الفرار من السجن[٢١٧]؛ والثالثة، صدرت يوم ٢٢ يونيو ١٩٥٦، في المرحلة التي سعت بعض الجهات التي سنأتي على ذكرها للتخلص منه[٢١٨]؛ والأخيرة صدرت في يوم ٢٥ يونيو ١٩٥٦، في إطار تعميق البحث عن الجهاز التنظيمي[٢١٩] لمنظمة الهلال الأسود[٢٢٠].

١/٥-الاغتيالات

تعرض عدد من المقاومين ضمن منظمة الهلال الأسود للاغتيال، وقد سبق لنا ذكر كل من محمد الحداوي وحجاج المزابي اللذان اغتيلا في موقعة سيدي معروف. إضافة للمقاومين السابقين، اغتيل محمد بن المختار كرناوي، عقب تعطل سلاحه بينما يحاول تصفية جنديين فرنسيين، في يوليوز ١٩٥٥. كما اغتيل محمد بن علي في معركة زنقة القوس صباح الإثنين ١٤ نونبر ١٩٥٥[٢٢١]؛ هؤلاء هم الذين اغتيلوا في مواجهات ثورية ضد الفرنسيين. بينما تعرض المقاومون المغتالون المتبقون للتصفية من طرف حزب الاستقلال وجناحه المسلح في المقاومة "المنظمة السرية"؛ فقد عمل محمد الغزاوي، رئيس جهاز الأمن الوطني سنة ١٩٥٦ (المدير العام للأمن)، وعضو اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، وأحد كبار بورجوازيي المغرب، آنذاك، حسب لوموند، على عقد تحالف استراتيجي مع المنظمة السرية بغية القضاء على الهلال الأسود[٢٢٢]. لقد كان حزب الاستقلال محتكرًا للسلطة، إذ في اللحظة التي كان يمتلك فيها الملك مقومات السلطة الرمزية، كان حزب الاستقلال يحتكر السلطة المادية[٢٢٣].

لذا، فقد توفرت للمنظمة السرية، في مواجهة الهلال الأسود، إمكانية لم تتح الفرصة للهلال الأسود من أجل الحصول عليها[٢٢٤]، تمثلت تلك الفرصة في علاقة المنظمة السرية بحزب الاستقلال، وزاد من ضعف منظمة الهلال الأسود ربطها بالحزب الشيوعي المغربي[٢٢٥]. وقد برر رفض منظمة الهلال الأسود الإذعان لحزب الاستقلال، تسخيرَ مقاومين (من المنظمة السرية) ومن الذين انخرطوا في سلك الشرطة ضدهم[٢٢٦]. من هؤلاء الذين تعرضوا للتصفية عن طريق حزب الاستقلال نجد:

- امبارك القصيري (المضاربي): جرى إحراقه حيا بعدما أشاع عنه خصوم الهلال الأسود كونَه عضوا في إحدى منظمات الإرهاب الأوربية، ولسوء حظه كان يحمل مسدسًا[٢٢٧]. ومن المرجع أن يكون المنشور الذي وزعته المنظمة يوم ٢٦ نونبر ١٩٥٥، والذي أكدت فيه على وجوب مواجهة كل الأعمال الإرهابية التي تُرتكب تحت غطاء الفداء[٢٢٨]، للتنديد والاشارة إلى هذه الواقعة.
- الحسن شداد: اغتيل في مراكش سنة ١٩٥٦[٢٢٩].
- أحمد الشرايبي (١٩٢٣-١٩٥٦): حين اشتدت حدة الصراع المسلح بين المنظمة السرية والهلال الأسود، قرر بعض أفراد المنظمة السرية اغتيال أحمد الشرايبي -أحد نشطاء الهلال الأسود-، لكن اختفاء أحمد الشرايبي حول الدفة نحو اغتيال الفقيه أبو الشتاء الجامعي باعتباره صهرا لأحمد الشرايبي من باب الضغط عليه للظهور. هكذا يشير سعيد بونعيلات إلى وقوفه حائلا في محاولة اغتيال أبو الشتاء الجامعي[٢٣٠]. بينما يشير الصحفي خالد الجامعي إلى تكليف سعيد بونعيلات باغتيال والده، وقد جاء سعيد بونعيلات، بالفعل، إلى والدته ليلا، وأخبرها بأنه سيقتل زوجها[٢٣١]. وفيما يتعلق بتصفية أحمد الشرايبي، فقد اغتيل يوم الأربعاء ٩ فبراير ١٩٥٦، إذ جاء الاغتيال بعد ثلاثة أسابيع من الاجتماع الذي عُقد بينه وبين المهدي بنبركة[٢٣٢]، حيث يشير العربي الشرايبي، أخ أحمد الشرايبي، أن اغتيال أحمد الشرايبي جاء بأوامر من المهدي بنبركة والفقيه البصري[٢٣٣]. تم اختطاف أحمد الشرايبي من زنقة آيت يفلمان في حدود الثامنة مساءً، ونُقل إلى محل لصنع مادة جافيل في ملك إبراهيم الروداني، وهناك جرى شنقه بحبل كهربائي بعد أن أمعن الجلادون في تعذيبه، ثم وضعوه في كيس مخصص لمادة السكر، وألقوا به في الشارع[٢٣٤].
- عبد الكريم بن عبد الله (١٩٢٣-١٩٥٦): سبق لنا ذكر عبد الكريم بن عبد الله كأحد قيادي الحزب الشيوعي المغربي الذين خاضوا غمار الثورة المسلحة ضمن منظمة الهلال الأسود. لقد كان عبد الكريم بن عبد الله عضوا في المكتب السياسي للحزب الشيوعي المغربي. تمت مهاجمة عبد الكريم بن عبد الله في ليلة السبت ٣١ مارس ١٩٥٦ على الساعة ٢٠:٣٠، وقد تعرض لهجوم من الخلف بينما كان يهم

مغادرة منزله من طرف مسلحين أطلقوا عليه رصاص مسدساتهم[٢٣٥]. وقد كانت جنازته مهيبة حضرتها جميع القيادات السياسية بالمغرب آنذاك، إضافة إلى جموع غفيرة من المشيعين[٢٣٦]. كان عبد الكريم بن عبد الله مهندسا جيولوجيا، وقد ترك وظيفته بإدارة المعادن للتفرغ إلى العمل الوطني[٢٣٧]. واغتيل عبد الكريم بن عبد الله عن طريق المنظمة السرية بواسطة أحمد الطويل[٢٣٨].

- لحسن الكلاوي: تعرض السي صالح بن لحسن حسن المعروف باسم "لحسن الكلاوي" إلى الاغتيال ليلتي الجمعة/السبت ١٥-١٦ يونيو ١٩٥٦ بمسدس في حديقة فيلته، حيث تم سحبه نحو الخارج ليسقط تحت ضربات مهاجميه. في حين تم اختطاف أحد أبناء عمومته يدعى محمد، عندما كان يرافقه. وقد كان، حسب لوموند، ضحية لتسوية حسابات[٢٣٩]، مما يؤكد فرضية اغتياله من طرف أعضاء المنظمة السرية. عقب اغتيال الكلاوي، ذهب عبد الله الحداوي إلى مراكش، حيث أوصى فرع مراكش بتوخي الحيطة والحذر، وبعد هذا اللقاء بأسبوع تمت تصفية الحداوي.
- اعمامو الزياني: تم اغتيال الزياني في الفترة التي تم فيها اغتيال عبد الله الحداوي[٢٤٠]، بينما يجعلها محمد وحيد في ٣٠ يونيو ١٩٥٦[٢٤١].
- عبد الله الحداوي: تعرض عبد الله الحداوي للاغتيال بينما كان راكبا إحدى السيارات رفقة ثلاث من رفاقه ليلة السبت ٢٨ يوليوز ١٩٥٦[٢٤٢]؛ إذ قام أفرادٌ محسوبون على المنظمة السرية وجهاز الشرطة بتوجيه دورية مسلحة نحو مدخل مدينة الدار البيضاء على الطريق الساحلية (عين السبع)، ذلك من أجل المرابطة هناك لاستقبال قادة الهلال الأسود[٢٤٣]، بينما وُجهت أخرى غير بعيد عن حديقة الحيوانات بعين السبع. وعند وصول سيارة من نوع فولكسفاجن سوداء اللون، أخذ أفراد الدورية في توجيه نيرانهم صوب ركاب السيارة الأربعة الذين ردوا على مصادر النيران، فأصابوا عددا من أفراد الكمين، قبل أن يسقطوا صرعى[٢٤٤]. حسب رواية سعيد بونعيلات، فقد وَجَدَ عند وصوله إلى الكمين عبد الله الحداوي مازال يتنفس، وكان بالإمكان إسعافه، غير أن مفتش الشرطة المدعو (م.ن) -وقد كان من رفاقه في منظمة الهلال الأسود[٢٤٥]- سرعان ما أجهز على الحداوي بصلية من الرصاص[٢٤٦].
- محمد الطيب البقالي: من أبناء مدينة طنجة، وقد درس بكوليج مولاي يوسف الشهيرة. تعرض في عهد الاستعمار إلى الاعتقال فيما بين ستي ١٩٤٠-١٩٤٧. كما كان صهرا لعلي يعتة (أول أمينٍ عامٍ للحزب الشيوعي المغربي عقب مغربته سنة ١٩٤٥). انخرط في صفوف المقاومة ضمن منظمة الهلال الأسود[٢٤٧]، وقد اغتيل رفقة عبد الله الحداوي ليلة السبت ٢٨ يوليوز ١٩٥٦[٢٤٨].
- العربي السامي: خال عبد الله الحداوي[٢٤٩]، وقد اغتيل بالدار البيضاء يوم ٢٨ يوليوز ١٩٥٦[٢٥٠].
- محمد كرانفال: سبق لنا ذكر محمد كرانفال كأحد أعضاء منظمة الهلال الأسود، وقد جرى اغتياله عقب اغتيال عبد الحداوي.
- عبد الله بن الزي: أحد أفراد الهلال الأسود بمراكش، جرى اختطافه في صيف سنة ١٩٥٦، وقد اقتيد إلى ضيعة اسكجور بضواحي مراكش. وبعد تعذيب شديد، تم اغتيال بن الزي رفقة رفيق له[٢٥١].

٢/٥-الاختطافات

ذكرنا، فيما سبق، لائحة من أفراد منظمة الهلال الأسود الذين جرى اغتيالهم. لكن، لم يقتصر الأمر على هؤلاء فقط، بل جرى اختطاف عدد غير يسير من أفراد منظمة الهلال الأسود والتوجه بهم نحو مراكز الاعتقال التي أنشأها حزب الاستقلال في عدة مدن منها: جنان بريشة، ودار الريسوني، ودار الخمال، في تطوان؛ مخفر الشرطة الساتيام الذي وشم ذاكرة البيضاويين بأفظع الانتهاكات في الدار البيضاء؛ ضيعة اسكجور بمراكش؛ دار بغفساي بإقليم تاونات؛ ودار خصصت للاختطافات التي تمت من طرف ميليشيات حزب الاستقلال بمنطقة الريف، بإقليم الناظور...إلخ.

من خلال دور الاختطاف التي سبق ذكرها، يمكننا وضع قائمة بمختطفي منظمة الهلال الأسود، بها، كما يلي:

أول المختطفين، هو، عبد السلام رشدي الذي جرى اختطافه أواخر يوليوز ١٩٥٦؛ ميلود بن الجيلالي الذي اختطف في ٢٦ يوليوز من نفس السنة؛ علي بن الحسن بن العريف اختطف في غشت ١٩٥٦؛ محمد الرشيد "خبازة"؛ محمد جواد "تشليحة"[٢٥٢]؛ ميلود الزياني؛ عبد الرزاق الهواري "فوزي"؛ مصطفى هلمي؛ خليفة بن العربي؛ حسن الكندافي؛ إدريس مطيع "مول الحليب"[٢٥٣]؛ العربي بوكلب الذي احتجز في دار بريشة[٢٥٤]؛ هذا فيما يتعلق بالمنظمة الأم في الدار البيضاء. كما جرى اختطاف أعضاء من فرع المنظمة بمراكش، وهم: صالح العتيق بن الغالي؛ بوقدير؛ سائق للحداوي بالدار البيضاء؛ عبد الله بن الزي؛ وقد استمر اختطاف أعضاء الهلال الأسود فرع مراكش إلى

غاية بلوغ عددهم ١٧ فردًا، وتم نقلهم إلى ضيعة اسكجور بضواحي مراكش على طريق المحاميد[٢٥٥].

٣/٥-منزلقات قيلت عن الهلال الأسود

في مذكرات عبد الرحيم بوعبيد المعنونة بـــ"عبد الرحيم بوعبيد ... سيادة الوطن وكرامة المواطن"، يشير كاتبها، عبد اللطيف جبرو، إلى قيام أعضاء من منظمة الهلال الأسود بمحاولة اغتيال عبد الرحيم بوعبيد انطلاقا من تأويل فرضية قيام الهلال الأسود بالتخطيط لاغتيال شخصية سامية بالرباط، تلك الفرضية التي انتشرت خلال الأشهر الأولى للاستقلال. ولتأكيد فرضيته، عمد جبرو للارتكان إلى شهادةِ -حسب مايصرح به-أشخاص فارقوا الحياة كـ: محمد الطيب البقالي الذي اغتيل رفقة عبد الله الحداوي سنة ١٩٥٦، عبد الرحيم بوعبيد[٢٥٦]، محمد الغزاوي[٢٥٧]، هكذا يضمن عدم النقد الجذري لروايته من طرف من قوَّلهم. كما لا يقدم أي دليل يوثق للواقعة كالرسالة التي أرسلها البقالي لعبد الرحيم بوعبيد، أو التحقيق الذي أجري مع من ثبت تورطهم في حادثة محاولة اغتيال عبد الرحيم بوعبيد -حسب زعم جبرو-. وفي الجانب الآخر، يزعم محمد وحيد، بغية تقوية فرضيته، بكون هذه الشخصية تمثلت في السلطان محمد بن يوسف أو الأمير الحسن[٢٥٨].

ربما تمثلت تلك الشخصية التي سعت منظمة الهلال الأسود إلى اغتيالها في المهدي بن بركة أو محمد الغزاوي، إذ حسب عبد الرحيم الورديغي، فقد جرى اجتماع بين قيادة الهلال الأسود والمهدي بنبركة، تخلل الاجتماع توترات؛ حدث هذا الاجتماع أسبوعًا قبل اغتيال عبد الله الحداوي[٢٥٩]. كما يمكننا تفسير فرضية كون تلك الشخصية هي المهدي بن بركة نظرا للاتهامات التي طالت بن بركة بالمسؤولية وراء اغتيال أحمد الشرايبي -كما سبق ذكره-. في هذا الصدد، يمكننا الإشارة كذلك إلى محمد الغزاوي، إذ نظرا لاستهدافه تصفية المقاومة المغربية، والهلال الأسود تحديدا[٢٦٠]، ربما جرى التفكير في اغتياله.

لقد قامت منظمة الهلال الأسود، في إطار تصفية الحسابات، بالعمل على اغتيال إبراهيم الروداني، إذ في المرحلة التي شهدت صراعا بين المنظمة السرية والهلال الأسود، قام ثلاثة من أفراد الهلال الأسود باغتيال إبراهيم الروداني ليلة الخميس ٥ يوليوز١٩٥٦، حين همّ بمغادرة معمله لصناعة مادة جافيل المتموضع في زنقة الموناستير بالمدينة الجديدة للدار البيضاء رقم ١٤[٢٦١]. كما تمت عملية هجومٍ من طرف منظمة الهلال الأسود على المنظمة السرية أسبوعا قبل عملية اغتيال الروداني[٢٦٢]. وقد تعرض، في هذا الإطار، أحد أعضاء المنظمة السرية، يدعى محمد الزيراوي، إلى الاغتيال من طرف ثلاثة أفراد تابعين للهلال الأسود بسبب الصراع الذي شهده المغرب بُعيد الاستقلال[٢٦٣].

يمكننا القول إن تجربة الهلال الأسود انتهت باغتيال عبد الله الحداوي، إذ لا نجد تنظيمًا مهيكلاً للهلال الأسود بعد اغتيال الحداوي عدا مقال منشور في لوموند يتحدث عن مثول ١٣ فردًا يُنسبون لمنظمة الهلال الأسود أمام محكمة الدار البيضاء الإقليمية، لارتكابهم عمليات تهديد وابتزاز[٢٦٤]. وقد حُكم على اثنين منهم بالإعدام هما إبراهيم بن بومهدي وبوشعيب بن بوقاسم، وعلى اثنين آخرين بالإعدام غيابيًا، بعد محاكمة استمرت ثلاثة أيام[٢٦٥]. لكن بحثنا في أعضاء منظمة الهلال الأسود لم يمكنا من الوصول لعضوين بهذا الاسم. فقد نشط بعد الاستقلال عدة أشخاص يعملون على الابتزاز تحت غطاء منظمة الهلال الأسود، يتبين فيما بعد عدم صلتهم بالمنظمة. وقد شهدت مدينة القنيطرة، في مارس ١٩٥٦، توزيع عدة منشورات تطالب شخصيات نافذة بمبالغ كبيرة. ادعت تلك المنشورات صدورها عن الهلال الأسود وجيش التحرير، لكن، تبين لاحقًا عدم صلتها بالمنظمة[٢٦٦].

خَاتمَةٌ

لا غرو أن المقاومة المغربية، في خضم لحظتها التاريخية، قدمت البديل الجذري من أجل استقلال المغرب، وهو بديل ثوري مسلح، لم يكن بإمكانه، في أي حال من الأحوال، أن يكون سياسيا، لأن العملية السياسية استنفذت حلولها ببروز القمع الشديد الذي تعرضت له كافة الأحزاب الفاعلة في المشهد السياسي المغربي خلال أوائل خمسينيات القرن الماضي؛ كما كان للصراع الشديد الذي قادته البرجوازية المغربية المتحالفة مع الاستعمار دور في استنفاذ جدوى العمل السياسي، بسبب سعي الأخيرة إلى المحافظة، بكافة الوسائل، على امتيازاتها وتراكم الثورة الذي حققته خلال الأربعين سنة التي خلت من عمر الحماية على المغرب. هكذا برزت منظمة الهلال الأسود، تلك المنظمة التي كانت، بفضل ديناميتها، إحدى المنظمات الرئيسة في العمل المسلح. لكن تراجيديا أفولها تضعنا أمام محاولة حثيثة لمعرفة التحالفات الطبقية التي كانت وراء تصفية الفاعلين الرئيسيين في المنظمة، مما أدى إلى نهايتها المأساوية.

إن البحث في تاريخ المقاومة المغربية عملية إبستيمية يجب أن يتوخى الباحث، خلال الخوض في غمارها، الحذر تفاديًا للمنزلقات التي يسقط فيها المؤرخون، والتي ترتبط، غالبا، بالتمثلات أحيانًا، وبلاتاريخية المعطى أحيانًا، وبالروايات الموجودة والمتناقضة أحيانًا أخرى.

الاحالات المرجعية:

(١) عبد الرحمن عبد الله الصنهاجي، **مذكرات في تاريخ الحركة الوطنية وجيش التحرير المغربي من ١٩٤٧-١٩٥٦**، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٨٧، ص ١٩٨.

(٢) ذوقان قرقوط، **في تاريخ الأمة العربية الحديث: المشروع القومي الذي لم يتم**، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦، ص ٢٤٧.

(٣) ألبير عياش، **المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين السعودي، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ص ١١٩.

(4) MICHEL ABITBOL, HISTOIRE DU MAROC, PARIS, 2014, p ٤٧٩.

(٥) شكيب أرسلان، **حول تاريخ الحركة النقابية بالمغرب: الاتحاد العام للنقابات الموحدة بالمغرب: ١٩٤٣-١٩٥٢**، الناشر: عبد الله الساعف، مجلة أبحاث، ١٩٨٦، ص ١٢.

(٦) الحاكم العام بالدار البيضاء آنذاك.

(7) Daniel Rivet, Histoire du Maroc de Moulay Idris à Mohammed VI, Librairie Arthéme Fayard, Rabat, 2012, p 342.

(٨) محمد القبلي: إشراف وتقديم، **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠١١، ص ٥٩٧.

(٩) نفسه، ص ٥٩٨.

(١٠) عبد الرزاق لكريط، **المخزن والحماية الفرنسية: وهم السيادة المزدوجة (١٩١٢-١٩٥٦)**، مطبعة إنفو برانت، فاس، ٢٠١٥، ص ٥٧.

(١١) محمد القبلي: إشراف وتقديم، **تاريخ المغرب**، مرجع سابق، ص ٥٩٨.

(١٢) ألبير عياش، **المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسية**، مرجع سابق، ص ٤١٢.

(١٣) محمد القبلي، إشراف وتقديم، **تاريخ المغرب**، مرجع سابق، ص ٦٠٠.

(١٤) محمد بن الرافه البَكري، **الخطاب السياسي للحركات الاستقلالية المغربية: من دجنبر سنة ١٩٤٢ إلى مارس ١٩٥٦: بنيتُه ووظيفتُه في ضوء لسانيات الخطاب**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠١٥، ص ٩٤٠.

(١٥) العملية التي نفذتها خلية حمان الفطواكي.

(١٦) محمد القبلي، إشراف وتقديم، **تاريخ المغرب**، مرجع سابق، ص ٦٠٠.

(١٧) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: **تنسيق، دور الدار البيضاء في الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٦، ص ١٧٩.

(١٨) عبد الكريم الفيلالي، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، الجزء الحادي عشر، شركة ناس للطباعة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٤٩٩.

(١٩) نفسه، ص ٥٠٣.

(٢٠) محمد وحيد، الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦) **التأسيس والاستئصال: محاولة لإثراء تاريخ المقاومة الوطنية المغربية**، مطبعة سوماكرام، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠١٣، ص ٤٤.

(٢١) المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، **موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير**، الجزء الحادي عشر، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ص ٣٤٣.

(٢٢) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٤٤.
(٢٣) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: **تنسيق، دور الدار البيضاء في الحركة الوطنية**، مرجع سابق، ص ١٧٩.
(٢٤) **مجلة المقاومة وجيش التحرير**، العدد الثالث، إصدار المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دجنبر ١٩٨١، ص ١٧.
(٢٥) محمد حجي: إشراف، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، سلا، ص ٧٥١٣.
(٢٦) مصطفى حجازي، **التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور**، المركز الثقافي العربي، الطبعة التاسعة، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ص ٥١.
(٢٧) عبد السلام بورقية وشمعون ليفي وعبد الله العياشي وعبد العزيز بلال، **لمحات من تاريخ الحزب الشيوعي المغربي**، مطبوعات البيان، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص ٣٥.
(٢٨) **جريدة البيان**، ٩ يناير ١٩٨٤. يتضمن العدد السابق حوارًا مع عبد الله العياشي متحدثا، فيه، عن الالتقاء بكل من لحسن الكلاوي وعبد الله الحداوي والتنسيق معهما لتوحيد العمل الوطني المسلح.
(٢٩) عبد الرحيم الورديغي، **المقاومة المغربية ضد الحماية الفرنسية ١٩٥٢-١٩٥٦**، الطبعة الثانية، الرباط، ١٩٨٢، ص ١٥١.
(30) LE PARTI COMMUNISTE MAROCAIN dans le combat pour l’indépendance nationale: Textes et documents (1949-1958), Paris Province Impression, PARIS, p. 145.
(٣١) محمد حجي، **معلمة المغرب**، مرجع سابق، ص ٧٥١٣.
(٣٢) **مجلة المقاومة وجيش التحرير**، العدد الثالث، مرجع سابق، ص١٨.
(٣٣) البخاري محمد السكوري، **أحداث من مسيرة مقاوم تحت المجهر**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٠، ص ٧٧.
(٣٤) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٥٥.
(٣٥) **مجلة المقاومة وجيش التحرير**، العدد الثالث، مرجع سابق، ص ١٨.
(٣٦) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٥١.
(٣٧) **مجلة المقاومة وجيش التحرير**، العدد الثالث، مرجع سابق، ص ١٨.
(٣٨) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٥٧.
(٣٩) نفسه، ص ٥١.
(٤٠) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٥٧١.
(٤١) نفسه، ص ٣٨١.
(٤٢) نفسه، ص ٥٧١.
(٤٣) نشير إلى كون العمليات التالية هي التي تمكنا من تحديد تاريخها، بينما تلك التي لم نتمكن من تحديد تاريخها سنأتي على ذكرها فيما بعد.
(٤٤) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٩١.
(٤٥) **الأمة**، العدد ٢٧٥، ١٧ يوليوز ١٩٥٤.
(٤٦) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع مذكور، ص ٣٤٦.
(٤٧) **الأمة**، العدد ٢٨٠، ٢٣ يوليوز ١٩٥٤.
(٤٨) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع مذكور، ص ٣٤٦.
(٤٩) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٥.
(٥٠) نفسه، ص ٩١.
(٥١) **الأمة**، العدد ٢٩٣، ٧ غشت ١٩٥٤.
(٥٢) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٩٧.
(٥٣) **الأمة**، العدد ٣٢٢، ١١ شتنبر ١٩٥٤.
(٥٤) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع مذكور، ص ٣٤٦.
(55) LA VIGIE MAROCAINE, 10 Septembre 1954.
(٥٦) **الأمة**، العدد ٣٢١، ١٠ شتنبر ١٩٥٤.
(57) LA VIGIE MAROCAINE, 10 Septembre 1954.
(٥٨) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٩٧.
(٥٩) نفسه، ص ١٥٠.
(٦٠) نفسه، ص ٩٧.
(61) LA VIGIE MAROCAINE, 9 Septembre 1954.
(٦٢) **الأمة**، العدد ٣٢٢، ١١ شتنبر ١٩٥٤.
(٦٣) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٩٨.
(64) LA VIGIE MAROCAINE, 10 Septembre 1954.
(٦٥) **الأمة**، العدد ٣٢٣، ١٣ شتنبر ١٩٥٤.
(66) LA VIGIE MAROCAINE, 10 Septembre 1954.
(٦٧) **الأمة**، العدد ٣٢٣، ١٣ شتنبر ١٩٥٤.
(٦٨) اعتبر حي بوسبير أكبرَ حيٍّ للبغاء في العالم خلال المرحلة الاستعمارية، مما جعله هدفا متكررا لعمليات المقاومة، تحديدًا عمليات وضع القنابل.
(٦٩) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٩٨.
(٧٠) **الأمة**، العدد ٣٩٩، ١٣ دجنبر ١٩٥٤.
(٧١) أغلب الظن أنهما عمر بن بلعيد ميكري، وبوشعيب الزهراوي.
(٧٢) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٩٨.
(٧٣) **الأمة**، العدد ٣٩٩، ١٣ دجنبر ١٩٥٤.
(٧٤) **الأمة**، العدد ٤٠٢، ١٦ دجنبر ١٩٥٤.
(٧٥) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٦.
(76) LA VIGIE MAROCAINE, 15 Décembre 1954.
(٧٧) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٦.
(٧٨) **الأمة**، العدد ٤٠٤، ١٨ دجنبر ١٩٥٤.
(٧٩) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٩٩.
(80) LA VIGIE MAROCAINE, 23 Décembre 1954.
(٨١) **الأمة**، العدد ٤٠٨، ١٨ دجنبر ١٩٥٤.
(٨٢) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٩٩.
(٨٣) نفسه، ص ٩٠.
(٨٤) صالح العتيق بن الغالي، تسجيل صوتي له عند إعداد ملف هيئة الإنصاف والمصالحة، الموقع الرسمي لهيأة الإنصاف والمصالحة.
(٨٥) أحمد أزكروز، **أضواء على تاريخ الكفاح الوطني من أجل الاستقلال بمراكش، المقاومة المغربية ضد الاستعمار ١٩٠٤-١٩٥٥: الجذور والتجليات**: أعمال الندوة العلمية ١٣-١٤-١٥ نونبر ١٩٩١، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٩٧، ص ٣٦٥.

(٨٦) صالح العتيق بن الغالي، تسجيل صوتي، مرجع سابق.
(٨٧) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٥٨.
(٨٨) مجلة المقاومة وجيش التحرير، العدد الثالث، مرجع سابق، ص ١٩.
(٨٩) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٥٨.
(٩٠) مجلة المقاومة وجيش التحرير، العدد الثالث، مرجع سابق، ص ١٩.
(٩١) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٥٨.
(٩٢) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٤٩٩.
(93) LE MONDE, 6 Juin 1956.
(٩٤) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٦٦-١٦٧.
(95) LE MONDE, 12 Juin 1956.
(٩٦) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٣.
(97) LA VIGIE MAROCAINE, 8 Janvier 1955.
(98) LE MONDE, 8 Janvier 1955.
(٩٩) **الأمة**، العدد ٤٢٢، ٨ يناير ١٩٥٥.
(١٠٠) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٠٧.
(١٠١) نفسه، ص ١٠٩.
(١٠٢) مستشفى ابن رشد حاليًا.
(103) LA VIGIE MAROCAINE, 3 Février 1955.
(١٠٤) يوجد كتاب يتحدث عن الحملات الطبية التي كانت تقوم بها السلطات لرعاية عاملات الجنس بحي بوسبير:
JEAN MATHIEU ET P.H MAURY, BOUSBIR La prostitution dans le maroc colonial, Ethnographie d'un quartier réservé.
(١٠٥) **الأمة**، العدد ٤٤٤، ٣ فبراير ١٩٥٥.
(١٠٦) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٣.
(١٠٧) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٦.
(١٠٨) نفسه، ص ١٠٧.
(١٠٩) نفسه، ص ١٠٩.
(١١٠) نفسه، ص ١٤٧.
(111) LA VIGIE MAROCAINE, 13 Février 1955
(١١٢) **الأمة**، العدد ٤٥٣، ١٤ فبراير ١٩٥٥.
(١١٣) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٠٩.
(١١٤) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٤.
(115) LA VIGIE MAROCAINE, 15 Février 1955
(١١٦) **الأمة**، العدد ٤٥٤، ١٥ فبراير ١٩٥٥.
(١١٧) نظن أن مرافقه كان هو اعمامو الزياني.
(١١٨) **الأمة**، العدد ٤٥٥، ١٦ فبراير ١٩٥٥.
(١١٩) **الأمة**، العدد ٤٦٧، ٢ مارس ١٩٥٥.
(١٢٠) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١١٠.
(121) LA VIGIE MAROCAINE, 4 Mars 1955
(١٢٢) **الأمة**، العدد ٤٦٩، ٤ مارس ١٩٥٥.
(١٢٣) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١١٠.
(١٢٤) نفسه، ص ١١١.
(١٢٥) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٤.
(١٢٦) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٧.
(١٢٧) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٤.
(١٢٨) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٧.
(١٢٩) نفسه، ص ١٥٠.
(١٣٠) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٤.
(١٣١) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٧.
(١٣٢) نفسه، ص ١٥٠.
(133) LA VIGIE MAROCAINE, 16 juin 1955
(١٣٤) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٨.
(135) LA VIGIE MAROCAINE, 16 juin 1955
(١٣٦) الأمة، العدد ٥٥٧، ١٧ يونيو ١٩٥٥.
(137) LA VIGIE MAROCAINE, 16 juin 1955
(١٣٨) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٥٠.
(١٣٩) الأمة، العدد ٥١٥، ٢٦ يونيو ١٩٥٥.
(١٤٠) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٥٠.
(١٤١) الأمة، العدد ٥٦٦، ٢٨ يونيو ١٩٥٥.
(142) LA VIGIE MAROCAINE, 27 Juin 1955
(143) LA VIGIE MAROCAINE, 1er Juillet 1955
(١٤٤) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٨.
(145) LA VIGIE MAROCAINE, 1(er) Juillet 1955
(١٤٦) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٥٠.
(147) LA VIGIE MAROCAINE, 3 Juillet 1955
(١٤٨) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٨.
(149) LA VIGIE MAROCAINE, 14 Juillet 1955
(١٥٠) نفسه، ص ١٥٠.
(١٥١) المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٤.
(152) LE MONDE, 22 Aout 1955
(153) LA VIGIE MAROCAINE, 28 Aout 1955
(١٥٤) المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٦.
(155) LA VIGIE MAROCAINE, 28 Aout 1955
(١٥٦) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٠٩.
(157) LA VIGIE MAROCAINE, 5 Septembre 1955
(158) LA VIGIE MAROCIANE, 6 Septembre 1955
(١٥٩) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٦.

(١٦٠) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص ١٤٩.
(١٦١) نفسه، ص ١٥٠.
(١٦٢) نفسه، ص ١١٥.
(163) LA VIGIE MAROCAINE, 29 Septembre 1955
(١٦٤) **الأمة**، العدد ٦٤١، ٣٠ شتنبر ١٩٥٥.
(١٦٥) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص ١١٦.
(١٦٦) **الأمة**، العدد ٦٤١، ٣٠ شتنبر ١٩٥٥.
(١٦٧) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٤.
(168) LA VIGIE MAROCAINE, 29 Septembre 1955
(١٦٩) **الأمة**، العدد ٦٤١، ٣٠ شتنبر ١٩٥٥.
(١٧٠) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: تنسيق، دور الدار البيضاء، مرجع سابق، ص ١٨٣.
(١٧١) روم لاندو، **أزمة المغرب الأقصى**، الجزء الثاني، ترجمة محمد إسماعيل علي وحسين الحوت، المكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٦١، ص ٢٠٢.
(172) REVUE HISTORIQUE, 611, JUILLET/SEPTEMBRE 1999, p 524
(173) LE MONDE, 20 Février 1956
(174) REVUE HISTORIQUE, 611, opcit, p 524
(175) LE MONDE, 20 Février 1956
(١٧٦) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص 470.
(١٧٧) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: تنسيق، دور الدار البيضاء، مرجع سابق، ص ١٨١.
(١٧٨) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٣٤٦.
(١٧٩) **مجلة المقاومة وجيش التحرير**، العدد الثالث، مرجع سابق، ص ١٩.
(١٨٠) نفسه، ص ١٨.
(١٨١) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص ٥٥.
(١٨٢) نفسه، ص ٥٧.
(١٨٣) نفسه، ص ٥١.
(١٨٤) **مجلة المقاومة وجيش التحرير**، العدد الثالث، مرجع سابق، ص ١٨.
(١٨٥) أحد الأعضاء البارزين في منظمة الهلال الأسود، لكن، يتم إسقاطه في المقالات التي تتحدث عن الهلال الأسود، على قلتها.
(١٨٦) أحد مناضلي حزب الشورى والاستقلال، سيتم اعتقاله، عقب استقلال المغرب، من طرف بلطجية حزب الاستقلال واقتياده إلى دار بريشة -المعتقل السيئ الذكر-بتطوان، حيث سيقضي، به، ثلاثة أشهر، بعد تدخل محمد الفاسي الحلفاوي، أحد قادة حزب الاستقلال بالشمال، آنذاك، للإفراج عنه.
(١٨٧) محمد العسري، **من جرائم دار بريشة، سيلكي أخوين**، الطبعة الأولى، طنجة، ٢٠١٤، ص ٦٢.
(١٨٨) نفسه، ص ٦٣.
(١٨٩) محمد لومة، **مكافح مغاربي... يتذكر**، المطبعة السريعة، الطبعة الأولى، القنيطرة، ٢٠١٣، ص ٨٨.
(١٩٠) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص ١٦٧.
(١٩١) نفسه، ص ١٦٨.
(١٩٢) نفسه، ص ١٦٤.
(١٩٣) نفسه، ص ١٦٥.
(١٩٤) نفسه، ص ١٦٨.
(١٩٥) البخاري محمد السكوري، أحداث من مسيرة مقاوم، مرجع سابق، ص ٧٧.
(١٩٦) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص ١٦٧.
(١٩٧) محمد العسري، من جرائم دار بريشة، مرجع سابق، ص ٦٣.
(١٩٨) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص ٥٧.
(١٩٩) نفسه، ص ٥٨.
(٢٠٠) نفسه، ص ٨٩.
(٢٠١) نفسه، ص ٩٠.
(٢٠٢) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٨٤٤.
(٢٠٣) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص 75.
(٢٠٤) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: تنسيق، دور الدار البيضاء، مرجع سابق، ص ١٨١.
(٢٠٥) مجلة المقاومة وجيش التحرير، العدد الثالث، مرجع سابق، ص ١٩.
(٢٠٦) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: تنسيق، دور الدار البيضاء، مرجع سابق، ص ١٨١.
(٢٠٧) المنشور موجد في: محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص ١٥٩.
(208) Douglas E.Ashford, Political Change in Morocco, Published by Princeton University Press, New Jersey, 1961, p 163
(٢٠٩) محمد حجي، **معلمة المغرب**، مرجع سابق، ص ٧٥١٤.
(210) LE MONDE, 6 Juin 1956
(٢١١) **المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، موسوعة الحركة الوطنية، الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص ٤٧٠.
(٢١٢) نفسه، ص ٣٤٣.
(٢١٣) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص ١١٠.
(٢١٤) نفسه، ص ٧٦.
(٢١٥) نفسه، ص ١٢٢.
(٢١٦) الإشارات الأربع التالية كلها موثقة بوثائق في: محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص ١٥٣.
(٢١٧) نفسه، ص ١٥٤.
(٢١٨) نفسه، ص ١٥٥.
(٢١٩) المهدي المومني التجكاني، دار بريشة أو قصة مختطف، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ٦٢.
(٢٢٠) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٠٣-١٩٠٦)**، مرجع سابق، ص ١٥١.
(٢٢١) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: تنسيق، دور الدار البيضاء، مرجع سابق، ص ١٨١.
(222) LE MONDE, 22 Mars 1958.
(٢٢٣) محمد ضريف، **الأحزاب السياسية المغربية من سياق المواجهة إلى سياق التوافق ١٩٣٤-١٩٩٩**، منشورات المجلة

المغربية لعلم الاجتماع السياسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ٢٠٠١، ص ٧٣.

(٢٢٤) محمد حمام وعبد الله صالح: نشر وتنسيق، **المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات**، الجزء الأول، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٥، ص ٢٨٧.

(٢٢٥) نفسه، ص ٢٨٨.

(٢٢٦) جون واتربوري، **أمير المؤمنين الملكية والنخبة السياسية المغربية**، ترجمة عبد الغني أبو العزم وعبد الأحد السبتي وعبد اللطيف القلق، مؤسسة الغني للنشر، دار أبي رقراق، الطبعة الثالثة، الرباط، ٢٠١٣، ص ٢٧٦.

(٢٢٧) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: تنسيق، دور الدار البيضاء، مرجع سابق، ص ١٨٤.

(٢٢٨) عبد الرحيم الورديغي، **المقاومة المغربية ضد الحماية الفرنسية ١٩٥٢-١٩٥٦**، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٢٢٩) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: تنسيق، دور الدار البيضاء، مرجع سابق، ص ١٨٤.

(٢٣٠) محمد لومة، **مكافح مغاربي**... يتذكر، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٢٣١) خالد الجامعي، **شباط أحضر ميليشيات للاعتداء على الاستقلاليين**، جريدة المساء، ٢٦ أبريل ٢٠١٣.

(٢٣٢) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ١٩١.

(٢٣٣) نفسه، ص ١٩٠.

(٢٣٤) نفسه، ص ١٩١.

(235) LE PARTI COMMUNISTE MAROCAIN dans le combat pour l'indépendance nationale, opcit, p 241.

(236) Ibid, 243.

(٢٣٧) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

(٢٣٨) عبد الرحيم الورديغي، **المقاومة المغربية ضد الحماية الفرنسية**، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(239) LE MONDE, 19 Juin 1956.

(٢٤٠) صالح العتيق بن الغالي، تسجيل صوتي، مرجع سابق.

(٢٤١) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: تنسيق، دور الدار البيضاء، مرجع سابق، ص ١٨٤.

(242) LE MONDE, 31 Juillet 1956.

(٢٤٣) محمد لومة، مكافح مغاربي... يتذكر، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٢٤٤) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٢٤٥) حسب المعلومات التي نملكها عن منظمة الهلال الأسود، فقد كان هذا الشخص الذي يشير إليه بونعيلات هو المهدي الناموسي (م.ن). إذ بعد خروجه من السجن، انقطعت أخباره عن الهلال الأسود، وقد انضم إلى المنظمة السرية، ليلج جهاز الشرطة بعد استقلال المغرب.

(٢٤٦) محمد لومة، مكافح مغاربي... يتذكر، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٢٤٧) عبد اللطيف جبرو، عبد الرحيم بوعبيد ... سيادة الوطن وكرامة المواطن، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ١٩٩٣، ص ٨٦.

(٢٤٨) محمد وحيد، **الهلال الأسود (١٩٥٣-١٩٥٦)**، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٢٤٩) نفسه، ص ٦٩.

(٢٥٠) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: تنسيق، دور الدار البيضاء، مرجع سابق، ص ١٨٤.

(٢٥١) صالح العتيق بن الغالي، تسجيل صوتي، مرجع سابق.

(٢٥٢) لطفي بوشنتوف ومحمد معروف الدفالي: تنسيق، دور الدار البيضاء، مرجع سابق، ص ١٨٤.

(٢٥٣) نفسه، ص ١٨٥.

(٢٥٤) المهدي المومني التجكاني، دار بريشة أو قصة مختطف، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٢٥٥) صالح العتيق بن الغالي، تسجيل صوتي، مرجع سابق .

(٢٥٦) توفي عبد الرحيم بوعبيد سنة ١٩٩٢، بينما صدرت هذه المذكرات في سنة ١٩٩٣. وقد دأب عبد اللطيف جبرو على إصدار مذكرات تثير الجدل لأشخاص موات، فقد أصدر في ثمانينيات القرن الماضي مذكرات المهدي بن بركة الذي اغتيل في ٢٩ أكتوبر ١٩٦٥، صدرت تلك المذكرات في ثلاثة أجزاء هي: الرياضيات مدخل للوطنية، بناء الوطن: معركة أقوياء النفوس، في مواجهة العاصفة.

(٢٥٧) عبد اللطيف جبرو، عبد الرحيم بوعبيد ... سيادة **الوطن وكرامة المواطن**، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٢٥٨) محمد حجي، معلمة المغرب، مرجع سابق، ص ٧٥١٣.

(٢٥٩) عبد الرحيم الورديغي، تاريخ خلية من الفدائيين قبل وبعد الاستقلال ١٩٥٣-١٩٥٦، الرباط، ٢٠٠١، ص ١٠١.

(260) LE MONDE, 22 Mars 1958.

(٢٦١) محمد حجي، معلمة المغرب، مرجع سابق، ص ٤٤٦١.

(262) LE MONDE, 9 Juillet 1956.

(٢٦٣) محمد حجي، معلمة المغرب، مرجع سابق، ص ٤٧٨٧.

(264) LE MONDE, 28 Juin 1958.

(265) LE MONDE, 30 Juin 1958.

(266) LE MONDE, 15 Mars 1956.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

العلاقات الجزائرية المغربية خلال مرحلة النضال المشترك (١٩٥٤ - ١٩٥٦)

د. حياة بوشقيف
دكتوراه تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

شهدت علاقة جبهة التحرير الوطني بالمملكة المغربية خلال السنوات الأولى لاندلاع الثورة الجزائرية مرحلة هامة في تاريخ العلاقات الجزائرية المغربية، عرفت هذه المرحلة بمرحلة النضال المشترك والتي تميزت بتكثيف الاتصالات والتشاور فيما بين زعماء المقاومة المغربية وقيادة جبهة التحرير الوطني التي استطاعت بفضل مساعيها تثوير حركة المقاومة المغربية، وتفعيل مشروع التنسيق مع الثوار الجزائريين وذلك من أجل إيجاد صيغة مشتركة لتوحيد النضال السياسي والعسكري بين البلدين، والذي أثمرت جهوده ومساعيه الحثيثة إلى لجوء الإدارة الفرنسية للاتفاق مع القيادة المغربية حول مشروع الاستقلال، وعودة الملك محمد الخامس من منفاه وحصول المملكة المغربية على استقلالها لتصبح بذلك قاعدة خلفية هامة يعتمد عليها الثوار الجزائريين في تموين ودعم الثورة الجزائرية. وقد توصلت الدراسة إلى أن علاقة جبهة التحرير الوطني بالمملكة المغربية شهدت مرحلة هامة من مراحل النضال المشترك خلال السنوات الأولى لاندلاع الثورة الجزائرية، والتي تميزت بتكثيف الاتصالات والتشاورات فيما بين زعماء المقاومة المغربية وقيادة جبهة التحرير الوطني، هذه الأخيرة التي استطاعت بفضل مساعيها تثوير حركة المقاومة المغربية وتفعيل مشروع التنسيق مع الثوار الجزائريين وذلك بهدف إيجاد صيغة مشتركة لتوحيد النضال السياسي والعسكري بين البلدين ومواجهة التحديات الاستعمارية الفرنسية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٣١	أكتوبر	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	نوفمبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

جبهة التحرير الوطني؛ الاستعمار الفرنسي؛ الثوار الجزائريين؛ جيش التحرير المغربي؛ الملك محمد الخامس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.260031

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حياة بوشقيف، "العلاقات الجزائرية المغربية خلال مرحلة النضال المشترك (١٩٥٤ - ١٩٥٦)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ١٦٧ – ١٧٧.

Corresponding author: hayatnoure@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

إن المتتبع لمسيرة العلاقات الجزائرية المغربية المعاصرة منذ اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر١٩٥٤ يقف بكل وضوح عند المنحنى الجديد الذي ميز طبيعة العلاقات بين جبهة التحرير الوطني والمملكة المغربية، حيث أدى اندلاع الثورة الجزائرية في ظل تطور المشكلة المغربية إلى إتاحة إمكانية التحام الكفاح المسلح بين البلدين ضد الاستعمار الفرنسي، وقد توج هذا الكفاح المشترك بحصول المغرب على استقلاله عام ١٩٥٦، ليصبح بذلك قاعدة خلفية يعتمدها قادة جبهة التحرير الوطني في تموين ودعم الثورة الجزائرية. وعليه فإن الغرض من وراء هذه الدراسة هو توضيح طبيعة العلاقات الجزائرية المغربية والمحطات البارزة التي ربطت بين البلدين خلال مرحلة النضال المشترك (١٩٥٤-١٩٥٦).

أولاً: بوادر النشاط الثوري بين جبهة التحرير الوطني والمملكة المغربية

١/١-الاتصالات الأولى

يعتبر عام ١٩٥٤ منعطفًا جديدًا في مسيرة الحركة الوطنية الجزائرية على صعيد العمل السياسي وأسلوب الكفاح الوطني، فقد انتقلت حركة التحرير بشكل عام منذ هذه الفترة من التعددية الحزبية إلى نظام الجبهة القائدة التي تجمعت من خلالها مختلف القوى الوطنية وفق نظرية سياسية وعسكرية واضحة قائمة على الاستقلال الوطني التام واعتماد أسلوب الكفاح المسلح[١]، الذي تجسد مع ولادة المنظمة الثورية التي حملت اسم جبهة التحرير الوطني وبيان ولادتها المتمثل في بيان أول نوفمبر١٩٥٤، هذا الأخير الذي اختصر حصيلة النضال الوطني وطرح كل الوسائل المتاحة لإخراج إيديولوجية الحركة الوطنية من مرحلة التنظير إلى طور التنفيذ والتطبيق[٢].

ففي الساعة الواحدة من ليلة أول نوفمبر١٩٥٤، انطلقت الرصاصات الأولى لثورة التحرير الكبرى كما كان مخططا له من قبل[٣] واتسع نطاق المشاركة الشعبية فيها والتحق آلاف من الشبان المتحمسين بصفوف جيش التحرير في ميادين القتال، كما بدأت الأحزاب والجمعيات والشخصيات المترددة تنظم إلى الثورة الواحدة تلوى الأخرى[٤]، وبذلك حازت الثورة نفسًا جديدًا ومشاركة جماهيرية متألقة، وأبعادًا جغرافية متسعة واهتمامًا وعطفًا دوليًا متزايدًا[٥].

لقد كان المغرب الأقصى من دول المغرب العربي التي وصلها صدى ثورة أول نوفمبر١٩٥٤، حيث أثر ذلك في عمق المجتمع المغربي الذي راح حكومة وشعبًا يتضامن معها ومع الشعب الجزائري[٦]، واستطاعت قيادة الثورة من جهتها أن تكسر حاجز الخوف والتردد ودفعت بالمناضلين اللاجئين في قواعد الشمال المغربي إلى المطالبة بالثورة، كما عبر قادة حزب الاستقلال في الداخل والخارج عن عظمة الحدث وتفاجئهم عن اندلاع الثورة الجزائرية بقليل من الإمكانيات[٧]، حيث أبدوا اهتمامهم للاتصال بقيادة جبهة التحرير الوطني وتنسيق العمليات المسلحة المشتركة بهدف دعم الثورة في الجزائر وتعزيز موقف المغرب التفاوضي مع فرنسا في نفس الوقت، وبناءً على ذلك تمت عدة اتصالات بين الطرفين في المرحلة الأولى من اندلاع الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٥٦) أو ما نسميها بمرحلة النضال المشترك[٨]. **ولنا هنا أن نتساءل عن الغرض من تلك الاتصالات الأولى التي تمت بين قيادة جبهة التحرير الوطني وقادة حزب الاستقلال المغربي في المملكة المغربية سنوات (١٩٥٤-١٩٥٦)؟**

لقد وضع قادة جبهة التحرير الوطني في الاعتبار الأهمية الاستراتيجية للمملكة المغربية كواجهة غربية لإمداد الثورة، واعتمدوا قسمها الشمالي منطقة عبور وتهريب للأسلحة وتأمين للنشاط العسكري مركزين في مخطط عملهم على مسألة التنسيق مع العناصر الوطنية المغربية[٩]، في وقت كانت فيه قيادة جبهة التحرير الوطني تعاني من مشكلة التسليح التي كانت من أهم الصعوبات التي واجهت الثورة في السنوات الأولى لاندلاعها[١٠]. فقبل أن تفجر ثورة الفاتح نوفمبر تنازل القطاع الوهراني[١١] عن حصته من الأسلحة إلى بلاد القبائل بنية أن هذا القطاع يمكنه أن يدبر بعض الأسلحة من الريف الخاضع للحكم الإسباني، فتم جمع ستة ملايين سنتيم أنداك لاقتناء الأسلحة والتي لسوء الحظ لم يتم الحصول عليها[١٢]. ورغم ذلك لم يتأخر القطاع الوهراني عن موعد تفجير الثورة بما لديه من الأسلحة والإمكانيات البسيطة[١٣]، حيث توجه السيد محمد بوضياف[١٤] والسيد العربي بن مهيدي[١٥] إلى المغرب للاتصال بالوطنيين المغربيين في تيطوان والناظور، وذلك قصد إقامة شبكة للاتصالات وجلب الأسلحة إلى المنطقة الخامسة التي كانت تفتقر إلى الأسلحة[١٦].

وما يمكن ملاحظته من خلال هذه اللقاءات والاتصالات الأولى التي قام بها قادة جبهة التحرير مع قادة حزب الاستقلال في الشمال المغربي أن الغرض منها هو محاولة كسب موقف

علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال المغربي[١٧] من أجل القيام بثورة منسقة في كل من الجزائر والمغرب، وبالفعل أثمرت جهود الوفد الخارجي المتواجد في القاهرة من إقناع علال الفاسي ببدء الكفاح المسلح في المغرب، كما دافعت السلطات المصرية بدورها عن هذا الخيار، واقتنع به جمال عبد الناصر علال الفاسي وابن عمه عبد الكبير الفاسي واعدا إياهما بالمساعدة العسكرية[١٨].

وفي بداية عام ١٩٥٥ ألحت قيادة الثورة الجزائرية والسلطات المصرية على عقد جلسة عمل مع علال الفاسي وعبد الكبير الفاسي بعد التأكد من موالاة حركة المقاومة لهما، وذلك من أجل تثوير حركة المقاومة المغربية وتفعيل مشروع التنسيق مع الثوار الجزائريين[١٩]، وفي هذا السياق تأكيد لما جاء في قول فتحي الذيب ضابط المخابرات المصرية عن هذا الاجتماع الجزائري المغربي حيث قال: "قمنا بعقد اجتماع مساء يوم ١١ يناير ١٩٥٥ بمنزلي، حضره كل من الأخوة أحمد بن بلة ومحمد بوضياف والعربي بن مهيدي وحسين آيت أحمد عن الكفاح الجزائري، والسيد علال الفاسي وابن عمه عبد الكبير الفاسي عن مراكش، استعرضنا خلاله موقف الكفاح بالجزائر ومراكش وضرورة تنسيق العمل بين الجبهتين. وبعد موافقة كلا الطرفين قمنا – السلطات المصرية – باستعراض كيفية تنشيط حركة الكفاح المراكشي وتحويلها من كفاح فردي إلى حرب عصابات، حيث أبدى الجانب المراكشي حاجتهم إلى السلاح، واستقر الرأي في نهاية الاجتماع على قيامنا بإمداد كلا الجانبين الجزائري والمراكشي بالسلاح..."[٢٠].

١/٢-فتح الحدود المغربية للثوار الجزائريين

وبالفعل فقد وصلت الباخرتين القادمتين من الإسكندرية عبر البحر على متن اليخت دينا بتاريخ ١٨ مارس ١٩٥٥[٢١] وفاروق في شهر جوان من نفس السنة محملتين بالأسلحة والذخيرة الحربية والمتفجرات، فتم إفراغها من طرف المناضلين الجزائريين والمغاربة في "كاب دي أوي" ضواحي الناظور بالريف المغربي[٢٢]، حيث أخذت قيادة الجبهة نصيبها من الأسلحة بمعدل الثلثين بينما كان نصيب المملكة المغربية الثلث كما كان متفقا عليه من قبل[٢٣]، وقد شملت الشحنة التي حملها اليخت دينا ما يلي:

الجزائر	مراكش
٢٠٤ بندقية ٣٠٣ ر	٩٦ بندقية ٣٠٣ ر
٢٠ رشاش برن ٣٠٣ ر	١٠ رشاش برن
٢٤٠ خزنة للبرن	١٢٠ خزنة للبرن
٣٤ كأس إطلاق	١٦ كأس إطلاق
٦٨ بندقية رشاشة تومي ٤٥ ر	٣٢ بندقية رشاشة تومي ٤٥ ر
٣٣٠٠٠ طلقة ٣٠٣	١٨٠٠٠ طلقة ٣٠٣ ر
١٦٦,٥٠٠ طلقة ٣٠٣ ر للبرن	٨٢٥٠٠ طلقة للبرن
٤٠٠٠ كبسولة طرقي	٢٠٠٠ كبسولة طرقي
٥٠ علبة كبريت هواء	١٤٤ قنبلة يدوية ميلز ٣٦.

لقد عبر علال الفاسي في إحدى خطبه عن ابتهاجه للتوصل إلى مثل هذا الاتفاق دون أن يوضح حيثياته وبنوده بقوله: "ولقد كنت سعيدا يوم نظمت أنا والأخ عبد الكبير الفاسي في القاهرة وابن بلة وخيضر وبوضياف استراتيجية العمل العسكري وجيش التحرير، وحينما أرسلنا الذخائر للمغرب والجزائر... وحينما نجحنا في سياستنا مع إسبانيا، وأصبحنا في مأمن من تدخلها في شمال المغرب وتضامنها مع الفرنسيين"[٢٤].

وإلى جانب نشاط جبهة التحرير الوطني على الجهة الغربية من المملكة المغربية فإن الحكومة المغربية قد فتحت حدودها للمجاهدين جاعلة من أراضيها ميدانا لتدريبهم[٢٥]، إذ بدأت القيادة المشتركة بين المناضلين الجزائريين والمغربيين في التوعية والتوجيه الثوري لتجنيد الوطنيين وتنظيمهم وهيكلتهم في خلايا وأفواج وكتائب وتدريبهم على الأسلحة وفنون القتال وحرب العصابات والألغام والمفجرات والتمريض والعلاج والتموين والتمويل ودراسة ميدان المعارك واستراتيجيتها وطرق مرور القوافل المعبئة بالأسلحة عبر الحدود[٢٦]، وفي هذا الصدد يذكر عبد الكريم حساني المدعو السي الغوتي أحد المناضلين الفاعلين في الجبهة : " كانت قوافل الأسلحة المختلفة المحمولة تنطلق على ظهور البغال من المناطق الجبلية في الريف المغربي، حيث وجدت الثورة الجزائرية تأييدا لاحد له من طرف السكان، ثم تمر عبر الحدود بعد اجتناب نقطة زوج بغال[٢٧]، لتتوجه في الأخير نحو مغنية، وبعد وصول الأسلحة توزع على مجموعات جيش التحرير وكانت تشمل أساسا على مسدسات ورشاشات وأسلحة وذخيرة من كل عيار[٢٨].

ومما زاد في قوة تضامن الحركتين الجزائرية والمغربية أحداث ٢٠ أوت ١٩٥٥ التي اندلعت بمنطقة الشمال القسنطيني تضامنا مع الشعب المغربي في الذكرى الثانية لخلع السلطان

محمد الخامس ونفيه إلى مدغشقر، فرأى قادة الثورة أن يعبروا عن أصالة العروبة والإسلام في الجزائر[٢٩] وعن تضامن الشعب الجزائري مع الشعب المغربي في محنته وإيمانه الراسخ بوحدة وتضامن الشعبين الشقيقين في السراء والضراء[٣٠].

ثانيًا: تأسيس لجنة التنسيق بين جيش التحرير الجزائري وجيش التحرير المغربي

٢/١-ميلاد لجنة التنسيق وأهدافها

بعد أن تقوى نفوذ الثورة الجزائرية واحتدمت الأزمة المغربية الفرنسية، بدأت ملامح الرؤى التحريرية تتوحد، وأوضحت بعض الظروف الدولية والمعطيات السياسية أهمية تكريس الوحدة في الكفاح ضد العدو المشترك، وضرورة العودة إلى مبادئ العمل الثوري الوحدوي وتفويت الفرصة على مخططات الإدارة الفرنسية[٣١]، ذلك أن الحاجة الملحة للسلاح فرضت على قادة التحرير المغاربة والجزائريين ضرورة التنسيق والتعاون من أجل فتح الجبهة المغربية لدعم الثورة الجزائرية[٣٢]، حيث أسفرت تلك اللقاءات والاتصالات الأولى المتعددة التي جرت في كل من تيطوان والناظور بين السيد علي الدريدي (محمد بوضياف)، وأحمد بن عبد القادر (العربي بن مهيدي)، ومجموعة من المجاهدين المغاربة اللذين مثلوا القيادة العسكرية الميدانية المتواجدة في مدينة الناظور على ضرورة تكوين لجنة مشتركة لتنسيق العمل المسلح بين جيش التحرير الجزائري وجيش التحرير المغربي[٣٣]. وهكذا قامت القيادتان بتأسيس "لجنة التنسيق لجيش تحرير المغرب العربي" يوم ١٥ جويلية ١٩٥٥ بمدينة الناظور الخاضعة إذ ذاك للسلطات الإسبانية وقد وضعت هذه اللجنة قوانينها، وحددت أهدافها في وثيقة وقعها عن الجانب الجزائري: محمد بوضياف والعربي بن مهيدي، وعن الجانب المغربي: عبد الله بن عبد الرحمن الصنهاجي وعباس المسعيدي.[٣٤]

وقد خولت هذه اللجنة المعلن عنها لنفسها صلاحيات واسعة في التأطير والتنظيم واتخاذ القرارات المناسبة، وحدد لها مؤسسوها الأهداف والمبادئ والقوانين التي تسيرها في ميثاق كرس أسس العمل المشترك، وشمل تسعة بنود أساسية وهي:

١- تتألف لجنة التنسيق لجيش تحرير المغرب العربي من أربعة أعضاء:

جزائريان ومغربيان، محمد بوضياف والعربي بن مهيدي عن الجزائر، عباس المسعيدي وعبد الله الصنهاجي عن المغرب.

٢- تجتمع هذه اللجنة رسميا مرتين في الأسبوع دون تحديد التاريخ.

٣- تتخذ قراراتها بالأغلبية المطلقة.

٤- تستغرق مدة الرئاسة لكلا الطرفين خمسة عشر يومًا.

٥- يتناوب الأعضاء على الرئاسة حسب ترتيب أسمائهم.

٦- يمتاز الرئيس بترشيح صوت إضافي آخر عن الآخرين.

٧- في حالة تغيب أحد الطرفين ينوب عنه صاحبه.

٨- يكون للجنة كاتب وأمين يتعينان حسب الاتفاق بين الأعضاء.

٩- عمل كاتب اللجنة وأمينها هو التنسيق والتعاون فيما بين حركة المقاومة المغربية وحركة المقاومة الجزائرية في جميع الميادين[٣٥].

وبمقتضى هذا التنسيق انتخب عباس المسعيدي[٣٦]، كاتبا للجنة ومحمد بوضياف أمينا لها، وبدأت عملها التنسيقي الذي شمل ميادين الاتصالات والدعاية والتدريب وإنشاء المراكز العسكرية، ووضع خطط مشتركة داخل القطرين الشقيقين، وعممت اللجنة اتفاق تقاسم الأسلحة[٣٧]، تعهدت فيه قيادة المقاومة في المغرب الالتزام بنص مكتوب تتعهد فيه بتسليم الأسلحة إلى المجاهدين الجزائريين بمعدل الثلثين بينما يأخذ منه المغاربة الثلث[٣٨]، وكذا مساعدتهم على تكوين مراكز سرية في منطقة كبدانة وبني يزناسن وبالخصوص في منطقة الركادة وأحفير المجاورة للتراب الجزائري، كما تعهدت المملكة المغربية على مساعدة الإخوان الجزائريين بالرجال على نقل نصيبهم من الأسلحة والذخيرة الحربية من الجهة الشمالية الشرقية المغربية إلى داخل المناطق الجزائرية[٣٩].

٢/٢-مجالات التنسيق والأعمال المشتركة

لقد تنوعت مجالات التنسيق والأعمال المشتركة بين قيادة جيش التحرير الجزائري وقيادة جيش التحرير المغربي منذ تأسيس هذه اللجنة في جويلية ١٩٥٥، فخلال هذه المرحلة التي تفصل بين تأسيس اللجنة وانطلاق العمليات الجهادية في الريف و الأطلس ٢ أكتوبر ١٩٥٥[٤٠]، انطلقت هجومات ٢٠ أوت ١٩٥٥ في الشمال القسنطيني إحياءً للذكرى الثانية لخلع سلطان المغرب محمد الخامس عن عرشه، فرأت بذلك قيادة الجبهة أن تعبر عن أصالة العروبة والإسلام بالجزائر وعن تضامنها مع الشعب المغربي الشقيق في محنته وإيمانه الراسخ بوحدة المغرب العربي الكبير[٤١].

ومع تطور الكفاح المسلح في الجزائر بعد هجومات ٢٠ أوت ١٩٥٥ التي كشفت عن حاجة الثوار الماسة للسلاح، كان على قيادة الثورة في الخارج إعداد شحنة من الأسلحة لتأمين جبهة وهران ومراكزها[٤٢]، حيث تم تنسيق العمل بين القيادتين الجزائرية والمغربية من أجل استقبال الباخرة انتصار التابعة للبحرية المصرية التي أبحرت صباح يوم ٢ سبتمبر ١٩٥٥ من إحدى القواعد السرية في مصر باتجاه منطقة الناظور المغربية بالقرب من مدينة مليلية المحتلة من الإسبان، وأثناء إبحار اليخت في المياه الدولية مقابل القطر الجزائري[٤٣]، حاولت إحدى القاذفات الفرنسية إجبار اليخت تحت تهديد استخدام قنابلها للتوجه لميناء الجزائر، إلا أن تجاهل قبطان اليخت للإنذار واستمراره في سيره البعيد عن المياه الإقليمية للجزائر دفع الطائرة للاتجاه للشاطئ وانتهى خطر ذلك[٤٤]. وفي الوقت والمكان المحددين وصل اليخت إلى اليابسة حيث كان ينتظر الأخ محمد بوضياف[٤٥]، غير أن إصابة محرك الباخرة بعطب اضطر قائدها للاتصال بالقاهرة، فتم توجيهه إلى برشلونة بإسبانيا، وهناك تكفل الملحق المصري بمدريد عبد المنعم النجار الذي طلب المساعدة التقنية من السلطات الإسبانية لإصلاح المحرك[٤٦]، وبعد الانتهاء من إصلاح العطل غادر اليخت برشلونة بتاريخ ١٩ سبتمبر ليكون في منتصف ليلة ٢١ في مكان تفريغ الشحنة وكان جيش التحرير قد اتخذ الإجراءات الكفيلة بالتفريغ بأمان وتمت العملية بالكامل قبل طلوع الضوء على الساعة الثالثة صباحا[٤٧]

وقد شملت الشحنة التي حملها اليخت انتصار ما يلي:

نصيب الجزائر	نصيب المغرب
٣٠٢ بندقية ٧,٩٢	١٥٠ بندقية ٧,٩٢
٣٠ رشاش براوننغ ٧,٩٢	٢٠ رشاش براوننغ ٧,٩٢
١١٠ خزنة للرشاش	١١٠ خزنة رشاش
٢٠ طبنجية ٤٥٥ ر	٢٣ طبنجية ٤٥٥ ر
٣٤ طبنجية ٩ مم	٢٤٠٠ طلقة ٧,٩٢

وهكذا حقق اليخت انتصارًا كبيرًا ليساهم بدور فعال في دعم قدرات المناضلين ليبدؤوا الكفاح في الجبهة الغربية بوهران ومراكش[٤٨]. وبفضل هذا التسليح استطاعت الثورة الجزائرية أن تتقدم إلى العمل في جهة وهران، الجهة الوحيدة التي بقيت حتى هذا التاريخ توصف بأنها هادئة تمامًا في تقارير العدو[٤٩]، ذلك أن تنسيق العمل وتسليح مناضلي البلدين جعل القيادتان تسارعان للتحضير لهذه الهجومات الكبرى المشتركة[٥٠]. والتي اندلعت عملياتها تحت تأطير جيش تحرير المغرب العربي يوم ٠٢ أكتوبر ١٩٥٥ في منطقة الريف والأطلس[٥١].

وأصدرت قيادة جيش التحرير للمغرب العربي أول منشور لها، يوم اندلاع الثورة في الجبهتين الجزائرية والمغربية، وأشادت فيه بتوحيد القيادة وتجميع كل القادة والمسؤولين في جيش تحرير المغرب العربي[٥٢] هذا الأخير الذي نجح في شن سلسلة من العمليات العسكرية على مراكز جيش الاحتلال الفرنسي ومقراته، ومزارع كبار غلاة المعمرين الأوربيين، محققًا بذلك انتصارات رائعة أثارت الرعب والخوف في صفوف القوات الاستعمارية، فتمرد بسبب ذلك الشبان المجندون في فرنسا، ورفضوا الذهاب إلى ما أسموه الموت الأحمر في الجزائر والمغرب[٥٣].

وفي هذا الشأن أرسل الشيخ الفضيل الورتلاني[٥٤] برقية من القاهرة يوم ٠٥ أكتوبر ١٩٥٥ إلى حضرة الزعيم علال الفاسي يهنئه فيها على هذا النجاح المشترك جاء فيها: "أهنئكم على توحيد الكفاح المقدس بين المجاهدين الجزائريين والمراكشيين آملين توسيعه وتثبيته، وعلموا أن الأجيال تنتظر من التضحيات المناسبة لترث مغربها عربيًا مستقلاً وموحدًا غير مجزئ وإني آمل أن تكونوا دوما القدوة الصالحة"[٥٥]. ومن تم أحست الحكومة الفرنسية بخطورة هذا التنسيق المشترك بين قادة جبهة التحرير وزعماء المقاومة المغربية، فسارعت في فتح مفاوضات جديدة مع السلطان محمد الخامس والتي توجت بحصول المغرب على استقلاله التام في ٠٢ مارس ١٩٥٦.

ثالثًا: مساندة الملك محمد الخامس للقضية الجزائرية

لقد تابعت جبهة التحرير الوطني تطورات الموقف المغربي ووقفت على تملص المغربيين التدريجي عن خيار مغربة الحرب، وما إن عاينت قيادة الداخل تراجع حزب الاستقلال عن خياره المغاربي وانتهاجه للخيار القطري[٥٦] حتى اختارت التحالف مع القصر، فعلى الرغم من عدم وجود روابط صلة قوية بين المناضلين الجزائريين والملك محمد الخامس قبل وأثناء نفيه، إلا أن عودة هذا الأخير إلى المغرب ظافرا، وتأكيده على مواقفه الوطنية ومساندته للقضية الجزائرية زاد في حظوظ التقرب منه أكثر وكسب تضامنه مع الثورة الجزائرية[٥٧].

ومن جهة أخرى اتضح لقيادة الثورة الجزائرية بعد لقاء بن بلة مع محمد الخامس في مدريد أفريل ١٩٥٦ أن المغرب يمر بمخاض صعب، ولا يمكن الوقوف في وجه رغبة الملك ومن المفيد كسب تعاونه والتعويل عليه بذل الارتكاز على حزب

الاستقلال في مسألة توفير الدعم للثورة الجزائرية[٥٨]، وقد أشاد بن بلة في مذكراته بنتائج هذا اللقاء حيث قال:"... وانتهت محادثاتنا بنتائج هامة، لقد وعدنا محمد الخامس في غيبة المساعدة العسكرية المباشرة بمساعدة كبرى، لقد أعطانا فيما أعطانا تأكيدًا صريحًا بأن تكون الحدود المغربية في كل لحظة بالنسبة لنا حدودًا صديقة وممكنة العبور دخولاً وخروجًا للأسلحة والرجال."[٥٩]

وكانت رغبة الملك محمد الخامس من خلال هذا اللقاء الاطلاع على مواقف الجزائريين ومطالبهم وإمكانية تقديم مساعدات غير علانية حتى لا تثير الفرنسيين ولا تسبب مشاكل لسياسة التكامل التي تسير عليها العلاقات الفرنسية المغربية[٦٠]، كما عرض الملك محمد الخامس خيار وساطته على السلطات الفرنسية لحل القضية الجزائرية، حيث تم الاتفاق على اعتماد ممثلين لجبهة التحرير الوطني لدى السلطان يسهرون على رعاية شؤون الثورة[٦١].

وللمزيد من التوضيح لهذه الخيارات التي تبناها العاهل المغربي محمد الخامس في دعمه للثورة الجزائرية، من المفيد أن نشير إلى وصيته عقب لقائه بالمجاهد الدكتور حافظ إبراهيم[٦٢] يوم ١٢ ماي ١٩٥٦ حيث قال: "بلغ يا حافظ... بلغ الإخوة الجزائريين بأن المغرب ملكا وحكومة وشعبًا باقون على العهد، إلى أن تتحرر الجزائر ونحتفل جميعا بيوم استقلالها وحريتها". كما سجلت علاقة الملك محمد الخامس مع قادة الثورة الجزائرية تعاطفًا كبيرًا إلى درجة أن الملك بكى حين قراءته للرسالة التي أوفدها إليه عضو قيادة الثورة الجزائرية حسين آيت أحمد حينما قارن محذرًا فيها أن يكون مصير الجزائر مثل مصير فلسطين الضائعة[٦٣].

هذا وقد أشار عبد الكريم حساني إلى الموقف التضامني الذي تبناه الملك محمد الخامس اتجاه القضية الجزائرية حيث قال: "... من الإنصاف أن نذكر أن عاهل المغرب لم يفتر في أي وقت من الأوقات في تقديم دعمه المطلق لجبهة التحرير الوطني، فمساندته لكفاح الشعب الجزائري نابعة من قناعة عميقة في عدالة قضيتنا... وثبات مواقفه مع الثورة الجزائرية أدى إلى دفع بقية السلطات الشريفة في ذلك الطريق."[٦٤] أما ونحن بصدد الحديث عن العلاقة المتينة التي ربطها قادة الثورة مع العاهل المغربي لابد من الإشارة كذلك إلى التفاهم الذي أبرمه الملك محمد الخامس مع قائد جيش التحرير المغربي الدكتور عبد الكريم الخطيب في خطة تتلخص في:

- انتهاز الفرصة المناسبة للقيام بعمليات ضد القوات الفرنسية لشغلها ومنع فرنسا من سحبها، وذلك بهدف تخفيف الضغط على المكافحين الجزائريين.
- دعم جيش التحرير الجزائري بالمتطوعين المراكشيين وكذلك بالأسلحة[٦٥].

وحسب شهادة شهود العيان مغاربة وجزائريين أن المغفور له محمد الخامس كان في بداية الاستقلال ١٩٥٦ و١٩٥٧ يقوم شخصيًا ليلاً باستخراج بعض الأسلحة وذخيرتها الحربية من مخازنها وتسليمها للثورة الجزائرية في سرية تامة خشية من الأعين المترصدة من السلطان الفرنسية وعملائها[٦٦]، حيث طلب الملك محمد الخامس من الإسبان أن يغضوا الطرف عن تهريب السلاح عبر المناطق الخلفية، وبالتالي سيظل السلاح وطرق إيصاله ونقله مربط الفرس في علاقة عبد الحفيظ بوصوف[٦٧] مع السلطات المغربية خاصة بعد أن أرسيت العلاقة ودمج جيش التحرير المغربي في القوات الملكية[٦٨].

وعمومًا يمكن القول إن قيادة جبهة التحرير نجحت في إقامة علاقات الصداقة التي استمت بالود مع الملك محمد الخامس، وترتب على ذلك ضمان الثورة الجزائرية لقواتها حرية الحركة ووصول شحنات السلاح، وتسهيل كل الأمور أمام الجزائريين[٦٩]، في وقت لم يتوان فيه العاهل المغربي محمد الخامس عن التفكير لحظة واحدة في الثورة الجزائرية المتاخمة لبلاده وتقديم العون لها على قدر ما تستطيع إمكانيات بلاده تقديم ذلك[٧٠].

رابعًا: مصالح الدعم اللوجستيكي لجبهة التحرير الوطني في المملكة المغربية

ظلت الإمدادات العسكرية الشغل الشاغل لمسؤولي الجبهة وجيش التحرير الوطني قبل وبعد اندلاع الثورة التحريرية، خاصةً أمام الاستراتيجيات التي كانت تعتمدها القوات الفرنسية بالجزائر لإفشال الثورة والقضاء عليها[٧١]، لذا رأت الجبهة ضرورة التركيز على الحدود الغربية والعمل على كسب الدعم المادي المنتظر من الحكومة المغربية[٧٢]، وقد أنشأت لهذا الغرض "إدارة الاتصالات الخاصة بالمعلومات" وهي التابعة للولاية الخامسة، وكانت مهمتها البحث عن الطرق الكفيلة بتهريب السلاح إلى الداخل[٧٣].

لقد فتحت المملكة المغربية نفوذًا واسعًا لجبهة التحرير الوطني داخل الأراضي المغربية التي أصبحت قواعد خلفية لتدريب وتكوين وحدات جيش التحرير الوطني الجزائري على حرب العصابات وفنون القتال والأسلحة وذخيرتها الحربية[٧٤]، وخاصة في مدينة الناظور التي تعتبر أول محطة في بداية اندلاع الثورة لقيادة جبهة وجيش التحرير الوطني الجزائري وقاعدة لتنسيق التعاون مع جيش التحرير المغربي. وبعد استقلال المغرب تحول مركز قيادة جيش التحرير الوطني إلى وجدة سنة ١٩٥٧، وبقي مركز الناظور يضم مصالح الإشارة والراديو ومصالح الاستعلامات التابعة لجبهة التحرير الوطني[٧٥]، ومن أهم قادة مركز الناظور نذكر بن مهيدي وبوصوف، أما القاعدة في وجدة فنذكر منها العقيد هواري بومدين والعقيد سي لطفي[٧٦].

لقد تعددت مصالح جبهة التحرير الوطني الموجودة على التراب المغربي وهو إن دل على شيء فإنما يدل على الدعم والمساندة التي كانت الثورة تلقاها من السلطات الحاكمة بالمملكة المغربية وعلى رأسها الملك محمد الخامس[٧٧]، وفي هذا السياق يشهد منصور بوداود [٧٨] أنه "تسلم من القصر الملكي خمسة ألاف بندقية، منها رشاشات وخمسة ملايين رصاصة ..." [٧٩]، ومنذ أن تولى عبد الحفيظ بوصوف مهمة الإشراف على جيش التحرير الوطني بالناحية الغربية للبلاد عام ١٩٥٦ عمل كل ما بوسعه في إدارة الجبهة في المنطقة التي تولاها وخاصة في منطقة الريف أين تمركزت القواعد الخلفية للثورة الجزائرية[٨٠].

٤/١-طرائق ووسائل التموين بالسلاح داخل الحدود الجزائرية

- **الخطوط البرية**: من المسالك والممرات التي استخدمتها شبكة التسليح النشطة في عمليات الإمداد بالسلاح والذخيرة على الحدود البرية الغربية نذكر:[٨١]

– خط وجدة – وهران – الجزائر: استعمل في ذلك الشاحنات التي كانت تخفي خزنات سرية، وقد سلكت هذا الخط إلى غاية ١٩٦٠ حيث صدر أمر بتتبع عبورها من وجدة إلى مغنية، وذلك بعد أن اكتشفت السلطات الفرنسية هذه العملية[٨٢].

– خط وجدة – بشار: في الوقت الذي كان فيه خط وجدة – وهران – الجزائر ينشط لإمداد الولاية الأولى (الأوراس) والثانية (الشمال القسنطينة) والرابعة (الجزائر) وخاصةً الولاية الخامسة (الغرب وهراني)، كان خط وجدة بشار يؤمن إمداد الولاية السادسة (الجنوب الصحراوي)، وعندما توقف خط وجدة–وهران تضاعف العمل على خط وجدة–بشار[٨٣]، وقد استمر العمل على هذا الخط حتى أواخر ١٩٦١ عندما اكتشفت القوات الفرنسية خزانا سريا في إحدى الشاحنات يضم ٦٠ بندقية، فبعد التحقق من أن الشاحنة آتية من المغرب أصدرت السلطات الفرنسية أمرها بإغلاق هذا الطريق [٨٤].

– خط السكة الحديدي وجدة – وهران: لقد لجأ مهربوا الأسلحة إلى استعمال القطارات في عملية التهريب بعد اكتشاف خط وجدة – وهران – الجزائر ثم بعده خط وجدة – بشار، وكثيرا ما كانت عملية إيصال السلاح عبر القطار لا تتجاوز سيدي بلعباس ليكمل المناضلون تهريب الأسلحة بوسائلهم الخاصة[٨٥].

ومن الطرق والوسائل الناجحة في تهريب الأسلحة وذخيرتها عبر التراب المغربي استعمال صناديق الخضر والفواكه، فبعد تفريغها من الداخل تُملأ بالذخيرة الحربية، وكذلك الأواني الفخارية التي تحضر في مدينة فاس وتملئ بالذخيرة ومنها تدخل التراب الجزائري[٨٦]، كما كان يستخدم البطيخ في موسمه وسيلة لنقل الذخيرة، إذ يفرغ من جوفه ويتم تعبئته بالذخيرة وبعد ذلك يعاد إغلاقه بطريقة فنية[٨٧] هذا إلا جانب خزانات وقود السيارات التي كانت تشحن هي الأخرى بالأسلحة وتمر عبر الحدود المغربية إلى الجزائر[٨٨].

- **الخطوط البحرية:**

– خط إسبانيا – الجزائر: لما قامت السلطات الاستعمارية بمنع الشاحنات من العبور عبر الحدود المغربية الجزائرية باتجاه وهران – الجزائر، خشيت قيادة جيش التحرير الوطني أن يؤدي ذلك إلى نقص في الإمدادات، ومن هنا بدأ التفكير بفتح خط جديد فاستقر الرأي على استخدام الخط البحري الذي يربط إسبانيا عن طريق ميناء أليكانت وبرشلونة بموانئ الجزائر وقد بوشر العمل به عام ١٩٦٠[٨٩].

– خط مرسيليا – الجزائر: هذا الخط لا يقل أهمية ونشاطا عن خط إسبانيا الجزائر وزادت أهميته خاصة بعد إغلاق الخطوط البرية[٩٠].

– خط المغرب- وهران: كانت هناك باخرة شحن فرنسية تنتقل بانتظام بين المغرب ومرفأ وهران بالجزائر بمعدل رحلتين في الشهر وكان على متن الباخرة عامل جزائري تمكنت شبكة الاتصال الخاصة من تجنيده، فأخذ ينقل في

كل رحلة إلى وهران ١٥ قطعة حربية مختلفة الأحجام والأنواع[٩١]، ويسلمها حين وصوله إلى عضو الشبكة يعمل في شركة تموين البواخر، واستمرت هذه الطريقة حتى الاستقلال ولم يتم كشف أمرها[٩٢].

٢/٤-مراكز التموين بالسلاح على التراب المغربي

وجدت بالقواعد الخلفية للثورة في المغرب مجموعة من المراكز بحيث اختص كل مركز بمهام معينة أهمها:

- **مركز دار الكبداني**: ويعتبر أول مركز للتدريب العام على استخدام الأسلحة التي كانت تصل عبر شبكات تهريب مختلفة من أوربا وغيرها، ويقع المركز قريبا من الساحل في منطقة استراتيجية تقع تحت النفوذ الإسباني، كما توسع بفعل التوافد القوي عليه واحتضانه للتدريب[٩٣].
- **مركز العربي بن مهيدي**: أو القاعدة (*BBM 15*) مقر قيادة الحدود للمنطقة الشمالية ومختلف مصالح الثورة والعلاج والتمريض والتموين والتكوين والأمن[٩٤].
- **مركز أحفير**: خاص براحة وعلاج المجاهدات وتدريبهن على الأسلحة[٩٥].
- **مركز العرايش**: للتدريب على الأسلحة وفنون القتال والألغام.
- **مركز بوعرفة**: مقر قيادة منطقة الجنوب بالمنطقة الثامنة.
- **ثلاث مراكز ببركان**: للتدريب العسكري والتموين والتخزين والعلاج والقيادة والإمداد[٩٦].
- **مركز بوصافي**: كان ينشط تحت قيادة المديرية العامة للتدريب منذ آخر سنة ١٩٥٩ ليصبح فيما بعد مركزا هاما للتدريب القاعدي والتكوين الطبي بعد أن التحقت بعض إطارات الصحة والتمريض المتواجدة بالعرائش[٩٧].
- **مركز تيطوان**: تخزين الأسلحة والذخيرة الحربية[٩٨].
- **مركز النواصر**: ويقع بين الناظور ومليلية الاسبانيتين بالإضافة إلى انفتاحه على الساحل، وكان يحتضن دورات تدريبية على بعض الأسلحة وتكوين الضفادع البشرية[٩٩].
- **مركز الرباط**: للتموين العام بالذخيرة الحربية.
- **مركز الدار البيضاء**: لاستقبال الأسلحة وذخيرتها الحربية وتخزينها ونقلها نحو الحدود الجزائرية[١٠٠].
- **مركز فقيق**: للتموين وتخزين الأسلحة والذخيرة[١٠١].
- **مركز أخميسات**: لتدريب جيش التحرير في المغرب[١٠٢].
- **مركز زغنغن**: تأسس سنة ١٩٦١ بعد الحاجة إلى توسيع العمل في إطار التدريبات والبحث عن فتح تخصصات جديدة، يقع بين الناظور ومنطقة دار الكبداني، وسوف يتحول لاحقا إلى القيادة العامة للتدريب[١٠٣].
- **مركز فاس**: خاص بالعلاج والتخزين.
- **مركز القنيطرة**: خاص بالتموين وتخزين الذخيرة[١٠٤].
- **مركز الناظور**: وهو مخصص للأسلحة والتموين.
- **مركز وجدة**: لتخزين السلاح والذخيرة الحربية.
- **مركز طنجة**: لاستقبال الأسلحة وذخيرتها الحربية وتخزينها ونقلها نحو الحدود الجزائرية[١٠٥].

ونظرًا للحصار والمراقبة المصبوبة والمشددة على الجزائر من قبل السلطات الاستعمارية خاصة بعد أن قامت هذه الأخيرة بإغراق العديد من السفن القادمة نحو الجزائر[١٠٦]، فكرت قيادة الجبهة في إقامة بعض المصانع لصنع الأسلحة وهذه المصانع هي رمزية ولها أسماء مستعارة بقرب الحدود الجزائرية داخل التراب المغربي[١٠٧]، حيث قامت وزارة التسليح بمحاولات لصنع الأسلحة فأقامت مصانع سرية هناك، لم يكن يعلم بوجودها سوى عدد محدود جدًا من المسؤولين[١٠٨] وهذا الجدول يبين باختصار مصانع الأسلحة التي كانت تلبي احتياجات الثورة:

المكان المستعار	السنة	نوع إنتاج السلاح وذخيرته الحربية
تيطوان	١٩٥٨	قنابل نوع إنجليزي ومتفجرات
سوق الأربعاء	١٩٥٨	قنابل نوع إنجليزي وفرنسي والبنقلور
بزنيقة	١٩٥٩	قنابل نوع أمريكية يدوية التركيب
تمارة	١٩٦٠	صناعة رشاشات خفيفة نوع مات ٤٩ وسلاح أبيض
محمدية	١٩٦٠	صناعة مدافع هاون عيار ٦٠-٨٠ وألغام
الدار البيضاء	١٩٦٠	صناعة البازوكات، مات رشاش ٤٩، متفجرات ألغام وسلاح أبيض

وكانت معامل وورشات صناعة هذه الأسلحة الرمزية تتركز في مزارع ضواحي الرباط والدار البيضاء في أسماء مستعارة ورموز، مع العلم أن مختلف الأسلحة الخفيفة والنصف ثقيلة وذخيرتها الحربية كان يتم جلبها من الخارج عن طريق المغرب، وفي غالب الأحيان باسم الحكومة المغربية تحت إشراف المغفور له الملك محمد الخامس(١٠٩).

خَاتِمَةٌ

وخلاصة القول فإن علاقة جبهة التحرير الوطني بالمملكة المغربية شهدت مرحلة هامة من مراحل النضال المشترك خلال السنوات الأولى لاندلاع الثورة الجزائرية، والتي تميزت بتكثيف الاتصالات والتشاورات فيما بين زعماء المقاومة المغربية وقيادة جبهة التحرير الوطني، هذه الأخيرة التي استطاعت بفضل مساعيها تثوير حركة المقاومة المغربية وتفعيل مشروع التنسيق مع الثوار الجزائريين وذلك بهدف إيجاد صيغة مشتركة لتوحيد النضال السياسي والعسكري بين البلدين ومواجهة التحديات الاستعمارية الفرنسية.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد علي داهش، **دراسات في الحركات الوطنية والاتجاهات الوحدوية في المغرب العربي**، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق ٢٠٠٤، ص ٢٢.
(٢) أحمد توفيق المدني، **هذه هي الجزائر**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د.ت)، ص ١٩٩.
(٣) عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ١٩٩٧، ص ٣٨٠.
(٤) بشير بلاح، **تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠-١٩٨٩)**، ج٢، دار المعرفة للنشر، الجزائر ٢٠٠٦، ص ٦٢٧.
(٥) بشير بلاح، نفس المرجع، ص ٣٥.
(٦) مريم صغير، **مواقف الدول العربية من القضية الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، دار الحكمة للنشر، الجزائر ٢٠١٢، ص ١٥٥.
(٧) عبد الله مقلاتي، **العلاقات الجزائرية المغاربية والإفريقية إبان الثورة الجزائرية**، ج١، ط١، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٩، ص ٢٠٣.
(٨) عمار بن سلطان وآخرون، **الدعم العربي للثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، إصدار المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، وزارة المجاهدين، الجزائر ٢٠٠٧، ص ٨٨.
(٩) عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص ٢٠١.
(١٠) أمال شلي، **التنظيم العسكري في الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٤-١٩٥٦)**، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص ٣٥٢.
(١١) **القطاع الوهراني أو المنطقة الخامسة:** تمتد من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى أقصى جنوب الجزائر ومن حدود المغرب الأقصى غربا إلى الحدود الإدارية لعمالة الجزائر شرقا، أنشأها الأخ الشهيد محمد العربي بن مهيدي بمعاونة الأخ بوصوف، يُنظر: **جريدة المجاهد الثورة من الشعب وللشعب**، ج٢، اللجان المركزي لجبهة التحرير الجزائري، وزارة المجاهدين، ص ١١٠.
(١٢) طلب علال الفاسي من ابن عمه عبد الكبير الفاسي في بيرن بفرنسا شراء صفقة سلاح وتسليمها لبوضياف في الريف المغربي لكن عبد الكبير الفاسي اعتذر عن إتمام الصفقة.
(١٣) محمد قنطاري، **قيادة الحدود والقاعدة الغربية**، الملتقى الوطني حول الحدود الغربية إبان الثورة التحريرية، تلمسان أيام ٤-٥-٦ نوفمبر ٢٠٠١، ص ١٤.
(١٤) **محمد بوضياف:** من مواليد ١٩١٩ بمدينة المسيلة، انخرط في العمل السياسي في صفوف حزب الشعب الجزائري عن عمر يناهز ١٧ سنة، عين كمسؤول للمنضمة الخاصة في الشرق الجزائري عند تأسيسها، كان من المناضلين الفاعلين في الثورة، سجن بفرنسا عام ١٩٥٦ وأطلق سراحه في مارس ١٩٦٢، تم اغتياله في جوان ١٩٩٢، يُنظر أسيا تميم، **الشخصيات الجزائرية ١٠٠ شخصية**، دار الملك للنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٨، ص١٦٧.
(١٥) **العربي بن مهيدي**: من مواليد ١٩٢٣ بعين ميلة، انخرط في صفوف حزب الشعب الجزائري في العشرين من عمره، لعب دورًا كبيرًا أثناء معركة الجزائر ١٩٥٧ حيث تم القبض عليه وتعريضه إلى أقصى درجات العذاب إلى أن تم استشهاده، يُنظر: أسيا تميم، المرجع نفسه، ص ١٧١
(١٦) عمار بوحوش، التاريخ السياسي... المرجع السابق، ص ٣٨٢.

(١٧) **علال الفاسي (١٩١٠-١٩٧٤):** رجل سياسي وعالم إسلامي مغربي مشهور ولد بفاس في يناير ١٩١٠، عين رئيسا لحزب الاستقلال عام ١٩٤٦ بعد عودته من الغابون، في ماي ١٩٤٧ التحق بالقاهرة إلى جانب الجزائريين والتونسيين داخل إطار لجنة تحرير المغرب العربي، بعد عودته إلى المغرب المستقل ١٩٥٦ عين رئيسا على حزب الاستقلال في جوان ١٩٦١، دخل في الحكومة كوزير للشؤون الإسلامية، توفي عام ١٩٧٤، لمزيد من التفصيل يُنظر: أبو عمران الشيخ، **معجم مشاهير المغاربة**، منشورات حلب، الجزائر ٢٠٠٧، ص ٣٦٩-٣٧١.

(١٨) الظاهر أن حزب الاستقلال المغربي كما تشير الكثير من الدلائل لم كن ثوريا ولم يكن يرحب بفكرة العمل العسكري رغم ما كان يعانيه المغرب من مشاكل أنظر: عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(١٩) عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٢٠) فتحي الديب، **عبد الناصر وثورة الجزائر**، ط٢، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٩٠، ص ٧٣.

(٢١) **دينا:** اسم ملكة الأردن وسمي اليخت باسمها بعدما وضعته في خدمة الثورة الجزائرية وكان على متنه السادة محمد بوخروبة (هواري بومدين) ومحمد صالح عرفاوي وعلي مجاوي وعبد العزيز مشري ومحمد حسين شنوت ومحمد عبد الرحمن.

(٢٢) **الناظور:** مدينة مغربية كانت تحت السيطرة الإسبانية إلى غاية استقلال المغرب سنة ١٩٥٦.

(٢٣) محمد قنطاري، المرجع السابق، ص ١٧.

(٢٤) عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٢٥) الطاهر جبلي، **شبكات الدعم اللوجيستيكية للثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، أطروحة دكتوراه، جامعة تلمسان، ٢٠٠٩-٢٠١٠، ص ٣٠٤.

(٢٦) محمد قنطاري، **الثورة الجزائرية وقواعدها الخلفية بالجبهة الغربية والعلاقات الجزائرية المغربية إبان الثورة التحريرية**، مجلة الذاكرة، ع٣، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر ١٩٩٥، ص ١٢١.

(٢٧) **زوج بغال:** منطقة حدودية الظاهر أنها كانت تجري على مراكز مراقبة من قبل السلطات الفرنسية مما يحتم على زعماء المقاومتين الجزائرية والمغربية تجنب عبور هذه المنطقة، أطلق عليها فيما بعد تسمية زوج فاقو.

(٢٨) عبد الكريم حساني، **أمواج الخفاء**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر ١٩٩٥، ص ٣٢.

(٢٩) يحي بوعزيز، **رحلة في فضاء العمر أو مذكرات القرن**، دار لبصائر الجزائري ٢٠٠٩، ص ١٧.

(٣٠) يحي بوعزيز، **ثورات القرنين التاسع عشر والعشرين**، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٩، ص ١٣٩.

(٣١) عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٣٢) زكي مبارك، **لجنة التنسيق بين جيش التحرير الجزائري وجيش التحرير المغربي دواعي التأسيس والأهداف (١٥ يوليوز ١٩٥٥)**، محاضرة منشورة في أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير المنعقدة بفندق الأوراسي أيام ٣-٤ جويلية ٢٠٠٥، منشوارت وزارة المجاهدين، الجزائر ٢٠٠٥، ص ١٧٠.

(٣٣) الطاهر جبلي، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٣٤) زكي مبارك، المرجع السابق، ص ١٧٠، ١٧١.

(٣٥) عمار بن سلطان وآخرون، **الدعم العربي للثورة الجزائرية**...المرجع السابق، ص ٩٣.

(٣٦) **عباس المسعيدي:** مناضل ثوري، تولى القيادة العسكرية لجبهة الناظور، وارتبط بعلاقات وطيدة مع القادة الجزائريين، اختلف مع قادة حزب الاستقلال، وتحفظ على حل جيش التحرير المغربي، اغتيل بسبب مواقفه في ظروف غامضة في جويلية ١٩٥٦.

(٣٧) عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٣٨) الظاهر في الأمر أن هذه القسمة أثارت تحفظ واستغراب بعض قادة لجنة تيطوان من قسمة أسلحة البواخر الغير منصفة في رأيهم، وذلك على الرغم من أن هذه الأسلحة اقتنيت بأموال الثورة الجزائرية أو أهديت لها، وتفضلت هي بدورها لاقتسامها مع المغربيين، يُنظر عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٣٩) عمار بن سلطان وآخرون، المرجع السابق، ص٩٠-٩١.

(٤٠) زكي مبارك، المرجع السابق، ص ١٧١.

(٤١) يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين**... المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٤٢) الطاهر جبلي، المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٤٣) مراد صديقي، **الثورة الجزائرية عمليات التسليح السرية**، تر أحمد الخطيب، دار لرائد للكتاب، الجزائر ٢٠١٠، ص٣٢.

(٤٤) فتحي الديب، المصدر السابق، ص ١١٨.

(٤٥) مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٣٢.

(٤٦) عمار بن سلطان وآخرون، المرجع السابق، ص ٩٧.

(٤٧) مراد صديقي، المصر السابق، ص ٣٣.

(٤٨) فتحي الديب، المصدر السابق، ص ١٢٠-١١٧.

(٤٩) أحمد بن بلة، **مذكرات أحمد بن بلة كما أملاها على روبير ميرل**، دار الأدب، بيروت لبنان ١٩٧٩، ص ١٠٠.

(٥٠) محمد قنطاري، **الثورة الجزائرية وقواعدها الخلفية**... المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٥١) عمار بن سلطان وآخرون، المرجع السابق، ص ٩٤.

(52) Mohammed Harbi, Gilbert Meynier, le FLN documents et Histoire (19541962), Casbah éditions Alger, 2004, p, 764.

(٥٣) يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، ج٢، دار الهدى، الجزائر ٢٠٠٤، ص ٩٩.

(٥٤) **الفضيل الورتلاني:** ولد الشيخ الفضيل الورتيلاني شهر فيفري ١٩٩٠ في بلدة بني ورتيلان ولاية سطيف، كلف عام ١٩٣٤ بالتدريس أستاذًا مساعدًا للشيخ ابن باديس، في ١٩٣٦ انتدب ممثلا لجمعية العلماء الجزائريين بفرنسا ساهم بقلمه ولسانه في الثورة التحريرية منذ ١٩٥٤، توفي عام ١٩٥٩. لمزيد من التفصيل يُنظر: محمد الصالح الصديق، **أعلام من المغرب**، ج٢، موفم للنشر، الجزائر ٢٠٠٠، ص ٦٠٣.

(٥٥) الفضيل الورتيلاني، الجزائر الثائرة، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٧، ص ٩٤.

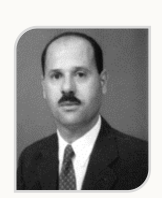
(56) Mabrouk Belhoucine, courier Algerie le caire(19541956) et le congrie de la soummam dans la revolution, casbah, Algerie2000 p, 154

(٥٧) عبد الله مقلاتي، العلاقات الجزائرية المغاربية... المرجع السابق، ص ٣٨٨.

(٥٨) عبد الله مقلاتي، المرجع نفسه، ص ٢٥٨٢٥٩.
(٥٩) أحمد بن بلة، مذكرات... المصدر السابق، ص ١٠١.
(٦٠) عبد الله مقلاتي، **دور المغرب العربي وإفريقيا في دعم الثورة الجزائرية**، ج١، ط١، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر٢٠٠٩، ص ١٣٧.
(٦١) فتحي الذيب، المصدر السابق، ص ١٩٩.
(٦٢) **حافظ إبراهيم:** تونسي الجنسية تربطه علاقات خاصة بالعاهل المغربي محمد الخامس، متعاطف مع الثورة التحريرية ومع قيادتها.
(٦٣) عمار بن سلطان وآخرون، المرجع السابق، ص ١١٢.
(٦٤) عبد الكريم حساني، **أمواج الخفاء**... المصدر السابق، ص ١٠٤.
(٦٥) فتحي الذيب، المصدر السابق ص ١٣٩.
(٦٦) محمد قنطاري، الثورة **الجزائرية وقواعدها الخلفية بالجبهة الغربية**... المرجع السابق، ص ١٢٧.
(٦٧) **عبد الحفيظ بوصوف:** ولد سنة ١٩٢٦ بمدينة ميلة، انضم إلى حزب الشعب رفقة مناضلين محنكين، أصبح عشية أول نوفمبر نائبا عن العربي بن مهيدي مسؤول المنطقة الخامسة بعد انعقاد مؤتمر الصومام ٢٠ أوت ١٩٥٦، أصبح عبد الحفيظ بوصوف عضوا في المجلس الوطني للثورة، وخلف في سبتمبر ١٩٥٦ بن مهيدي على رأس الولاية الخامسة ثم منح في الوقت نفسه رتبة عقيد. لمزيد من التفصيل يُنظر: نجاة بية، **المصالح الخاصة والتقنية لجبهة وجيش التحرير الوطني (١٩٥٤١٩٦٢)**، ط١، منشورات الحبر، الجزائر ٢٠١٠، ص ٢٥٧- ٢٥٨.
(٦٨) عبد الله مقلاتي، **دور المغرب العربي**... المرجع السابق، ص ٢٦٧.
(٦٩) نبيل أحمد بلاسي، **الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر**، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠، ص ١٨٥.
(٧٠) نجيب زبيب، **الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس**، تقديم أحمد بن سودة، ج٥، ط١، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت لبنان ١٩٩٥، ص ٣١٤.
(٧١) نجاة بية، **المصالح الخاصة والتقنية لجبهة وجيش التحرير الوطني (١٩٥٤-١٩٦٢)**، ط١، منشورات الحبر، الجزائر ٢٠١٠، ص ١٥٤.
(٧٢) عمار قليل، **ملحمة الجزائر الجديدة**، ج١، دار البعثة، الجزائر ١٩٨٩، ص ٣٦٦.
(٧٣) عبد القادر خليفي، **محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة (١٨٣٠-١٩٦٢)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ٢٠١٠، ص ١٩٢.
(٧٤) محمد قنطاري، **الثورة الجزائرية وقواعدها الخلفية بالجبهة الغربية**... المرجع السابق، ص ١٢٣.
(75) Mouhamed Guentari, organisation politico Administrative et militaire de la revolution Algerienne de1954 à 1962, OPU,Alger, p 683.
(٧٦) بشير بلاح، **تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠-١٩٨٩)**، ج١، دار المعرفة، الجزائر ٢٠١٠، ص ٢٨٤.
(٧٧) عبد القادر بوباية، **تموين الثورة بالسلاح عن طريق المغرب الأقصى في عهد محمد الخامس**، أنظر الموقع الإلكتروني: alarabi .ma/ htnl / adad 35 partiehtm– www.attarikh
(٧٨) **محمد بوداود:** المدعو منصور، من مواليد مرادس في ٢٤ ١٢ ١٩٢٦، مناضل قديم في حزب الشعب، انخرط في المنظمة الخاصة نهاية سنة ١٩٤٧، مسؤول النيابة عن الدعم اللوجستيكي.
(٧٩) نضيرة شتوان، **الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢) الولاية الرابعة أنموذجًا**، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ تلمسان ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ص ٢٤١.
(٨٠) المتحف الوطني للمجاهد، **المجاهد عبد الحفيظ بوصوف (١٩٢٦-١٩٨٠)**، سلسلة رموز الثورة الجزائرية، ملحقة عين تموشنت ٢٠٠٦، ص ٢٠.
(٨١) الطاهر جبلي، المرجع السابق، ص٢٤٢.
(٨٢) المتحف الوطني للمجاهد، المرجع السابق، ص ٢٠.
(٨٣) مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٨٠.
(٨٤) الطاهر جبلي، المرجع السابق، ص ٢٤٢.
(٨٥) نضيرة شتوان، المرجع السابق، ص ٢٤٤.
(٨٦) عبد القادر بوباية، المقال السابق.
(٨٧) لامعة زكري، **الثورة الجزائرية وعمليات التسليح السرية في الولاية الخامسة**، الملتقى الوطني حول الحركة الوطنية والثورة التحريرية في الغرب الجزائري يومي ١٧ ١٨ أبريل ٢٠١٣ تلمسان.
(٨٨) مريم صغير، **مواقف الدول الغربية**... المرجع السابق، ص ١٧١.
(٨٩) المتحف الوطني للمجاهد، المر جع السابق، ص ٢٢.
(٩٠) لامعة زكري، المرجع السابق.
(٩١) **المتحف الوطني للمجاهد**، المرجع السابق، ص ٢٢.
(٩٢) مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٩٩.
(٩٣) محمد طالب، **من أيام حرب التحرير (١٩٥٤-١٩٦٢)**، المديرية العامة للتدريب الغربية، إصدارات ابن خلدون، تلمسان ٢٠٠٣، ص ٣٧.
(٩٤) محمد قنطاري، **قيادة الحدود والقاعدة الغربية**... المرجع السابق ص ٢٦.
(٩٥) المتحف الوطني للمجاهد، المرجع السابق، ص ٥٢.
(٩٦) محمد قنطاري، المرجع السابق، ص ٢٧.
(٩٧) عبد المجيد بوجلة، **الثورة التحررية في الولاية الخامسة (١٩٥٤-١٩٦٢)**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، تلمسان ٢٠٠٧٢٠٠٨، ص ٢٥٤.
(٩٨) عبد القادر بوباية، المقال السابق.
(٩٩) محمد طالب، المصدر السابق، ص ٤٥.
(١٠٠) الطاهر جبلي، المرجع السابق، ص ٢٦١.
(١٠١) عبد القادر خليفي، المرجع السابق، ص ١٩٣.
(١٠٢) عمر بوداود، **من حزب الشعب إلى جبهة التحرير الوطني**، مذكرات مناضل، دار القصبة للنشر، الجزائر ٢٠٠٧، ص ٨٧.
(١٠٣) عبد المجيد بوجلة، المرجع السابق، ص ٢٥٤.
(١٠٤) المرجع نفسه، ص ٢٥٥.
(١٠٥) زكي مبارك، أصول الأزمة... المصدر كالسابق، ص ١٦٣.
(١٠٦) محمد قنطاري، **الثورة الجزائرية وقواعدها الخلفية بالجهة الغربية**... المرجع السابق، ص ١٢٦.
(١٠٧) محمد قنطاري، **الحدود الغربية إبان الثورة التحريرية**، الملتقى الوطني حول دور مناطق الحدود إبان الثورة التحريرية، إنتاج جمعية الجبل الأبيض لتخليد وحماية مآثر الثورة، نادي المجاهد تبسة (د.ت)، ص ١٢٨.
(١٠٨) محمد عباس، **ثوار عظماء شهادة ١٧ شخصية وطنية**، دار هومة للنشر، الجزائر ٢٠٠٥، ص٢٣٠.
(١٠٩) محمد قنطاري، **الثورة الجزائر وقواعدها الخلفية**... المرجع السابق، ص ١٢٦.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الواقع العسكري للثورة التحريرية في المنطقة الأولى "الأوراس النمامشة" (١٩٥٤ - ١٩٥٦)



أ.د. الطاهر جبلي
قسم التاريــخ
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان
الجمهورية الجزائرية



أ.د. سعاد يمينة شبوط
قسم التاريــخ
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

نحاول في نطاق هذه الدراسة عرض الواقع العسكري الذي عرفته المنطقة الأولى (الأوراس النمامشة) باعتبارها قلعة الثوار وقلب الثورة النابض في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٦٠) باعتراف شخصيات رفيعة المستوى في أجهزة الاستخبارات الاستعمارية من خلال التركيز على نشاط المنظمة الخاصة بها، وإبراز الدور الذي لعبه قادة الثورة الأوائل فيها مع رصد الظروف والأوضاع الصعبة التي واجهت الثورة بالمنطقة قبيل الانطلاقة واستعراض الجهود والمساعي لتوفير كافة الإمكانيات المادية والبشرية بما فيها المال والسلاح والإشادة من باب الموضوعية التي يقتضيها البحث التاريخي الأكاديمي الجاد بالأدوار الريادية التي بذلها القادة الأوائل بالمنطقة أمثال: مصطفى بن بوالعيد وشيحاني بشير وعباس لغرور وعاجل عجول وعبد القادر العمودي وغيرهم معتمدا في ذلك على المنهج الوصفي والتحليلي للوقائع وتفاصيل الأحداث الذي تتطلبه منهجية البحث التاريخي الأكاديمي الجاد. وانتهينا في ختام هذه البحث إلى أنّ المنطقة الأولى (الأوراس النمامشة) قد تحملت العبء الأكبر من مشقة الكفاح المسلح خلال الثورة التحريرية الجزائرية ولا سيما في مرحلتها الأولى، كما شكلت القلعة الأولى للثورة التحريرية وقلبها النابض بالنظر للأدوار التي قام بها قادتها الأوائل في توفير كافة الإمكانيات المادية لاستمرار العمل المسلح ورفع التحديات التي فرضتها ردود الفعل العسكرية الفرنسية على الجبهة الشرقية طيلة فترة الثورة الجزائرية. والحق أنه لم تكن تلك الثلة من الرواد الوطنيين الأولين الذين أقدموا على تفجير الثورة الجزائرية المسلحة تعتمد على إمكانيات بشرية مؤهلة لحمل السلاح ولا تملك في رصيدها مبالغ مالية ولا أسلحة حربية بذخيرة كافية لمواجهة أكبر قوة استعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين الأمر يدفع الباحث في هذا الموضوع إلى القول دون الوقوع في مغبة الخطأ بأن تلك الخطوة التي أقدم عليها كل من محمد بوضياف ومصطفى بن بوالعيد ومراد ديدوش وكريم بلقاسم ومحمد العربي بن مهيدي ورابح بيطاط، ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤، كانت أشبه بالمغامرة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ نوفمبر ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٢٩ نوفمبر ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

منطقة الأوراس؛ المنظمة الخاصة؛ الحركة الوطنية؛ الاستعمار الفرنسي؛ الثورة التحريرية؛ تاريخ الجزائر المعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.260177

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الطاهر جبلي، سعاد يمينة شبوط. "الواقع العسكري للثورة التحريرية في المنطقة الأولى "الأوراس النمامشة" (١٩٥٤ - ١٩٥٦)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ١٧٨ – ٢٠٥.

Corresponding author: djebli_tahar@yahoo.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

شكلت الإمكانيات المادية والبشرية ضرورة ملحة بالنسبة لقادة الثورة عشية اندلاعها في أول نوفمبر١٩٥٤، باعتبارها من المسائل الحيوية والحساسة لانطلاق واستمرارية أي عمل مسلح، وتجمع المصادر التاريخية المكتوبة والشفوية منها على أن الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة عند الانطلاقة بشكل عام ضئيلة جدا، فهناك نسبة قليلة من المجاهدين لا يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف مجاهد مسلحين ببنادق الصيد وبنادق أوتوماتيكية من مخلفات الحرب العالمية الثانية صالحة للاستعمال بنسبة العشر؛ أي أن طلقة واحدة من بين عشرة طلقات نارية تكون صالحة. ولعلّ هذا ما جعل قيّادة الثورة عشية الانطلاقة في مواجهة المشاكل المتعلقة بمتطلبات العمل العسكري كالتموين والتسليح، وهياكل التنسيق والتخطيط لعمليات التسليح والتخزين، وإنشاء المخابئ وتوزيع الرجال والأسلحة على كافة المناطق العسكرية بشكل محكم، وعلى هذا الأساس حاول قادة الثورة التكيف مع الظروف والمستجدات ومعالجة هذه المشاكل بدقة خصوصا في ميدان التسليح والتموين.

وعليه يمكن القول بأن جبهة التحرير الوطني أعلنت انطلاق الثورة التحريرية بإمكانيات مادية جد ضعيفة، خصوصا إذا ما قورنت بإمكانيات العدو الضخمة المدعّمة بمليون أوروبي في الجزائر أغلبهم مسلحون بأسلحة حربية، الأمر الذي دفع بالبعض إلى القول بأن الثورة انطلقت تقريبًا من الصفر. وفي هذا الإطار سوف نحاول في هذه الدراسة عرض الواقع العسكري الذي عرفته المنطقة الأولى (الأوراس النمامشة) من خلال التركيز على نشاط المنظمة الخاصة بها، وإبراز الدور الذي لعبه قادة الثورة الأوائل فيها، مع استعراض الظروف والأوضاع الصعبة التي واجهت الثورة بالمنطقة عشية اندلاعها؛ على غرار توفير الإمكانيات المادية (المال والسلاح) والإشادة من باب الموضوعية التي يقتضيها البحث التاريخي الأكاديمي الجاد، بالأدوار الريادية التي بذلها القادة الأوائل بالمنطقة أمثال: مصطفى بن بوالعيد وشيحاني بشير وعباس لغرور وعاجل عجول وعبد القادر العمودي وغيرهم.

أولاً: منطقة الأوراس والجبهة الشرقية خلال فترة المنظمة الخاصة (١٩٤٧-١٩٥٠)

حاول أعضاء المنظمة الخاصة عقب تأسيسها مباشرة بذل قصارى جهودهم للحصول على أكبر كمية من السلاح والذخيرة، الأمر الذي دفع بمناضليها وقادتها إلى توجيه أنظارهم نحو الجبهة الجنوبية الشرقية، بعد الأخبار التي راجت خلال تلك الفترة عن وجود كميات هائلة من الأسلحة والذخيرة وسهولة الحصول عليها عبر هذه المناطق الصحراوية[١]. في هذا الإطار سجلت أول عملية سنة ١٩٤٧ في منطقة وادي سوف، وتعود جذورها حسب بعض الشهادات الحية إلى سنتي (١٩٤٥، ١٩٤٦) عندما كان المناضل محمد بلوزداد مقيمًا بقسنطينة في محل هو ملك لمناضل من وادي سوف يدعى السعيد إدريس، الذي نبهه إلى وفرة السلاح في منطقة وادي سوف[٢]، وبناءً على تعليمات قائد المنظمة الخاصة محمد بلوزداد تم تكليف بعض مناضلي حزب الشعب الجزائري، أمثال السعيد إدريس وأحمد ميلودي مسؤول قسمة وادي سوف وإبراهيم عصامي من بسكرة بالبحث عن السلاح وشرائه وانتقل بنفسه مع ميلودي إلى هذه المناطق لتحقيق هذا الغرض[٣].

وبعد إنشاء المنظمة الخاصة سنة ١٩٤٧، كلّف قائدها محمد بلوزداد مرة أخرى المناضل أحمد ميلودي بشراء كمية من الأسلحة؛ بعد أن سلمه مبلغا من المال بقيمة ٣٠٠ ألف فرنك قديم عن طريق محمد عصامي، الذي تسلمه بدوره من المناضل أحمد محساس في بسكرة. وبذلك قام أحمد ميلودي بتكليف المناضل ميمي بشير المدعو محمد بلحاج بالذهاب إلى ليبيا لشراء الأسلحة رفقة بشير بن موسى وعبد القادر العمودي وبلقاسم عدوقة، وبالفعل تمكن هؤلاء المناضلون من شراء كمية من السلاح تمثلت في ٣٣ بندقية فردية نصف آلية من نوع ستاتي إيطالية الصنع[٤].

وقد تم نقل هذه الشحنة من الوادي إلى بسكرة على متن حافلة تابعة لشركة دجيون"*Doglione*" ملك لمعمر من أصول إيطالية، ولكي تكون العملية مضمونة ومؤمنة لفّت مجموعة من هذه البنادق وعددها ثمانية بالحصير وربطت بحبل حتى لا يتم اكتشافها، ووضعت بقية الأسلحة في صناديق وسلمت إلى هذه الحافلة على أساس أنها طرود عادية، وبهذه الطريقة وصلت هذه الشحنة إلى بسكرة حيث كان في استقبالها عدد من المناضلين وهم محمد العربي بن مهيدي والهاشمي الطرودي ومسؤول شركة دجليون"*Doglione*" كمال زراري المدعو كمال حميري، وقام هؤلاء بنقلها إلى مخزن المناضل أحمد زقنوني وخبأت هناك بصفة مؤقتة ليتم نقلها بواسطة المناضل عبد الحفيظ بلبكري إلى قسنطينة[٥]، حيث استلمها مسؤول المنظمة الخاصة بقسنطينة المناضل عبد الرحمن قيراس بمعية المناضلين مشاطي محمد وحباشي عبد السلام،

وخبئوها في محل المناضل العربي بن كينيدة بمقعد الحوت[٦]. وفي نفس السياق يذكر المناضل بن يوسف بن خدة بأن هذه الشحنة تم توزيعها فيما بعد على هياكل المنظمة الخاصة في كل من سكيكدة وعنابة وكوندي سمندو (زيرود يوسف حاليًا) وسطيف وقسنطينة... لاستعمالها في عمليات التدريب[٧].

بعد النتائج الإيجابية التي حققتها المنظمة الخاصة خلال العملية الأولى قررت قيادتها سنة ١٩٤٨ السعي للحصول على شحنة ثانية من السلاح والذخيرة من نفس المصدر وبنفس الطريقة الأولى، وحول تفاصيل هذه العملية[٨] يشير المناضل حسين آيت أحمد في روايته[٩] إلى أن محمد بوضياف أطلع قيادة أركان المنظمة على أخبار بخصوص رواج تجارة الأسلحة عبر الحدود الليبية الجزائرية جاءته من محمد العربي بن مهيدي مسؤول المنظمة على الجنوب القسنطيني، الأمر الذي دفع به رفقة محمد بوضياف إلى الانتقال نحو بسكرة للالتقاء بن مهيدي، وتم هناك دراسة تفاصيل العملية فشكلت قافلة لجلب السلاح من ليبيا، واتفقوا على أخذ مبلغ مالي من ميزانية المنظمة لشراء الجمال التي ستنقل عليها الأسلحة والذخيرة ليعاد بيعها بعد نهاية العملية، وانتهت هذه العملية بنجاح بعد الحصول على كمية لا بأس بها من الأسلحة تمثلت في ١٠٠ بندقية و كمية كبيرة من الذخيرة.[١٠]

وقد بلغت تكاليف هذه العملية نصف مليون فرنك فرنسي قديم[١١] وهو يمثل كل ميزانية المنظمة[١٢]، ويضيف آيت أحمد بأن نقص الأموال من جهة أخرى كان سببا في عدم الحصول على كميات أكبر من الأسلحة من غدامس إلى وادي سوف ثم بسكرة إلى الأوراس[١٣]. وفي هذا السياق تتفق الكثير من الروايات على أن هذه الشحنة تم نقلها من غدامس الليبية إلى الوادي، حيث خُزّنت هناك لبعض الوقت لتأخذ طريقها فيما بعد على الجمال تحت إشراف مسؤول المنظمة في الوادي المناضل عبد القادر العمودي[١٤] إلى منطقة زريبة حامد (بالزاب الشرقي) الواقعة بين بسكرة وسيدي عقبة. ونظرا لبعد المسافة وكثافة عمليات المراقبة أنزلت هذه الحمولة بواحة طوماس بين زريبة حامد وزريبة الواد ووضعت تحت تصرّف عبد القادر العمودي، وبشير بن موسى ومحمد بلحاج في انتظار صدور تعليمات؛ تقضي بتسليم هذه الكمية إلى المجاهد مصطفى بن بولعيد الذي أشرف على عملية نقلها بنفسه فيما بعد إلى الأوراس في ظروف صعبة جدا بعد عدة محاولات خلال سنة ١٩٤٨ وخزنت هذه الشحنة في ناحية كيمل.[١٥] [١٦]

ويبدو من خلال الشهادات المتوفرة أن منطقة الأوراس كانت أوفر حظًا من حيث التسليح مقارنة مع بقية المناطق الأخرى؛ نظرا لقربها من مصادر التموين بالسلاح في كلّ من ليبيا وتونس. وفي هذا السياق يشير المجاهد محمد الطاهر عزوي إلى أن قيادة المنظمة الخاصة أمرت بمهمة تزويد الأوراس بالسلاح والذخيرة، حيث أرسلت في ربيع ١٩٤٨ بعثة مكوّنة من عزوي مدور وكعباشي عثمان إلى تونس عبر صحراء النمامشة، وبعد شهر عادت قافلة الجمال محملة بالسلاح والذخيرة ، وعند وصولها إلى السفح الجنوبي للأوراس وجدت في استقبالها كل من عزوي أحمد وبعزي علي وأسما يحي بلقاسم ومعهم قافلة بغال نقلوا عليها الشحنة إلى قرية الحجاج لتوزع على المطامير في مسجد عزوي أحمد وعزوي مدّور ودار بعزي الصالح بن لمبارك على سفح جبال الدرعان على الجانب الأسفل من الطريق الرابط بين باتنة وأريس، إلا أن تسرب المعلومات حول هذه العملية أدى بمصالح الإدارة الاستعمارية إلى إلقاء القبض على بعزي محمد وأخيه بعزي علي وبلعزوي محمد لاستنطاقهم، غير أن حنكة بن بولعيد السياسية رفقة أعيان المنطقة سارعوا إلى دفع مبلغ مالي بقيمة ٤٣ ألف فرنك قديم كرشوة لبعض أعوان الإدارة الاستعمارية لإطلاق سراحهم[١٧].

وحول نفس الموضوع يذكر المجاهد عبد القادر العمودي في شهادته إلى أن هناك شحنة أخرى من الأسلحة تم الحصول عليها سنة ١٩٤٨ من منطقة حاسي خليفة بالقرب من وادي سوف، وقد تمثلت هذه الأسلحة في كمية من المتفجرات سُلِّمت لبعض الأشخاص الذين كانوا يقومون بغرس أشجار النخيل، حيث كانت المنطقة العلوية للمناطق المخصصة لزراعة النخيل حجرية التكوين، الأمر الذي دفع بالسلطات الفرنسية إلى تسليم مادة الديناميت للمعنيين بفرس النخيل، غير أن التنظيم السري "المنظمة الخاصة" عمل على إعداد قوائم اسمية وهمية لأشخاص على أساس أنهم استفادوا من هذه المادة المتفجرة وحُوِّلت صناديق الديناميت إلى منطقة الأوراس[١٨].

كما يشير المجاهد عبد الرحمن عمراني في شهادة له بأن معظم الأسلحة القادمة من الجنوب مصدرها ليبيا عبر وادي سوف ثم بسكرة إلى الأوراس، ويعود الفضل في ذلك إلى الدور الذي لعبته المنظمة الخاصة في تلك المهمة خلال سنوات ١٩٤٨،١٩٤٩،١٩٥٠، حيث جلبت كميات من الأسلحة من ليبيا عقب نهاية الحرب العالمية الثانية ووضعت في مخابئ سرية بالأوراس، ودخلت كميات كبيرة إلى المناطق الشرقية عشية

اندلاع الثورة: منها ٢٧٥ بندقية ستاتي استفادت منها المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني) وبقيت كميات أخرى بالأوراس، كما أعطيت تعليمات لمناضلي المنظمة بجمع الأسلحة من عند الأقارب والمتعاطفين مع الحركة الوطنية والذخيرة والحصول عليها[١٩] من عدة جهات، سواء من حراس الغابات أو التنظيمات المسلحة، كما لجأ البعض إلى التعامل مع المجندين الجزائريين المناصرين للفكر التحرري وعن طريق هؤلاء تم الحصول على كميات كبيرة من السلاح[٢٠].

ثانيًا: المصالح الفرنسية الخاصة في مواجهة حركة تهريب الأسلحة عبر المناطق الحدودية الشرقية

مما لاشك فيه أن غنى منطقة الأوراس بالسلاح مرده إلى موقعها الاستراتيجي كمنطقة حدودية مع تونس وليبيا، الأمر الذي جعلها مسرحًا لنشاط أكبر عمليات تهريب وتجارة الأسلحة إلى الداخل بالنسبة لزعماء الحركة الوطنية في إطار التنظيم السري من جهة وهدفًا لعمليات المراقبة والمتابعة من طرف المصالح الفرنسية الخاصة التي لجأت إلى تكثيف عملياتها على الحدود المشتركة مع تونس للحد من تهريب الأسلحة والذخيرة، وقد تمكنت من حجز وتوقيف العديد من قوافل السلاح التي كان وراء إدخالها للجزائر إطارات ومناضلين من المنظمة الخاصة على الشريط الحدودي، ففي مدينة بئر العاتر جنوب تبسة تم حجز ١٤ بندقية حربية وبندقية من نوع رشاش"*Mitrailleuse*"[٢١] .

أما في تونس فقد حجزت المصالح الفرنسية بمدينة فريانة الواقعة على الحدود الشرقية للجزائر سبعة بنادق حربية، ونشير إلى أن ضعف إمكانيات المراقبة حالت في الكثير من الأحيان دون أن تضع يدها على كامل الأسلحة المهرّبَة[٢٢]، كما تمكنت في إطار نفس المهمة من توقيف مجموعة من مهربي السلاح عبر مدينة الونزة شرق تبسة فتقارير الدرك الفرنسي بين ١٨-٢١ جانفي ١٩٤٧، أشارت إلى أن الموقوفين هم جزائريين وتونسيين تخصصوا في عمليات تهريب السلاح عبر الحدود وقد اشتملت الكمية المحجوزة على مسدسين من نوع بريتا عيار ٠٩ ملم، ومسدس عيار ١٣ ملم وخمس مسدسات أخرى لم يتم تحديد نوعيتها، بالإضافة إلى ٢٧٣ خرطوشة عيار ٠٩ ملم من نوع بار بلام"*Parabellum*"، و١٣ خرطوشة ٠٩ ملم من نوع بريتا وثلاثة خراطيش أمريكية الصنع[٢٣] .

تعززت عمليات المراقبة من طرف المصالح الخاصة خصوصًا بعدما أشارت التقارير الفرنسية إلى أن مصدر السلاح القادم إلى الجزائر هو من مدينتي تونس وبنزرت، الأمر الذي دفع بالقوات الفرنسية إلى تعزيز عمليات المراقبة على هذه المناطق للكشف عن مخازن السلاح على الرغم من اعترافها بصعوبة هذه المهمة، وهوما مكن منطقة الأوراس من انتشار الأسلحة الحربية عبر إطارها الجغرافي، وقد اتخذت عدة إجراءات وتدابير عاجلة للحد من ظاهرة انتشار الأسلحة ويتبين ذلك من خلال التقرير الذي أعده المقيم العام (مونس *Mons*) المؤرخ في يوم ٠٣ جوان ١٩٤٨ والموجه إلى "جورج بيدو" "*Georges Bidault*" وزير الخارجية الفرنسي، ونبه التقرير إلى خطورة الوضع بسبب عمليات تهريب السلاح من تونس نحو الجزائر وأكّد على اتخاذ إجراءات للحدّ من هذه العملية من خلال تكثيف المراقبة على الحدود، إلاّ أن ذلك لم يأت بأي نتائج تذكر ويبدو أن انتشار الأسلحة بتونس يعود إلى المخزون الذي تركته دول المحور هناك وتم تسريب الكثير منها إلى الجزائر عن طريق الوطنيين ومهربي السلاح[٢٤] رغم أن مصالح العتاد التابعة للجيش الفرنسي تمكنت من جمع أكثر من ٨٨٠٠٠ بندقية في شهر أكتوبر ١٩٤٧، و٤٧٧٦ بندقية حربية خلال النصف الثاني من سنة ١٩٤٧، و٣٥٨٩ بندقية خلال الثلاثي الأول من سنة ١٩٤٨، وقد لجأت المصالح الفرنسية إلى سياسة الإغراء لجمع السلاح حيث كان كل من يقدم قطعة سلاح يتحصل على مكافأة مالية، ولهذا الغرض خصصت سنة ١٩٤٨ مبلغًا ماليًا بقيمة خمسة ملايين ونصف مليون لاسترداد الأسلحة من عند السكان[٢٥].

لقد شددت في نفس الوقت عمليات المراقبة وعززت فرقها بفرق المهاري التي تمكنت من حجز كميات من الأسلحة والذخيرة سنة ١٩٤٨ كانت مهيأة لتهريبها إلى الجزائر، ولذلك زادت القوات الفرنسية من عمليات المداهمات والتفتيش ورفعت أسعار البنادق المقدمة لها وهو ما شجع أكثر على التهريب بندقية واحدة تباع أو تسلم إلى القوات الفرنسية يشترى بثمنها عدة بنادق لكي تهرب نحو الجزائر. وبناء على هذه المستجدات ارتفع عدد الأسلحة الموجودة في منطقة الأوراس خلال هذه المرحلة ويتبين جليا من خلال التقرير الذي تقدم به العقيد بلانش "*Blanche*" قائد مدينة باتنة في أكتوبر ١٩٥٤ إلى الجنرال سبيلمان "*Spiliman*" يشير من خلاله إلى أن ناحية باتنة وحدها تتوفر على ١٠,٠٠٠ بندقية حربية مختلفة الأنواع، وبذلك وجد عشرات الثوار في باتنة وتبسة وسوق أهراس؛

مسلحين تسليحًا جيدًا بفضل الدور الذي لعبته المنظمة الخاصة في الجبهة الشرقية وخصوصًا منطقة الأوراس.[٢٦]

ومما لا شك فيه أن المصالح الفرنسية سعت جاهدة للوصول إلى الخلايا السرية المسؤولة على جمع الأسلحة والذخيرة وتخزينها، خصوصًا أنها كانت تدرك بعمق أن المنظمة التي حلت سنة ١٩٥٠ سوف يعاد لمّ شملها ويبعث نشاطها من جديد مع نهاية سنة ١٩٥٢.[٢٧]

ثالثًا: مرحلة التحضير العام والانطلاقة الفعلية للثورة التحريرية بعد اكتشاف المنظمة الخاصة (١٩٥٢-١٩٥٤)

لقد عمل الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية مباشرة بعدما تعذّر تنسيق عملية الكفاح المسلح على مستوى المغرب العربي، وانفجار مستودع صنع القنابل في الأوراس الذي أجل انطلاقة الثورة، إلى مباشرة الاتصالات بين العناصر الثورية التي تتقاسم رؤية واحدة ألا وهي مواصلة التحضير للعمل المسلح وقطع الطريق أمام النظرة الإصلاحية للقيادة من الوصول إلى القاعدة[٢٨].

وفي خضم هذه الظروف بادر محمد بوضياف إلى تشكيل لجنة عمل[٢٩]، تألفت من مصطفى بن بولعيد وديدوش مراد وعبد الحميد مهري ومحمد بوضياف، كلفت بتجميع العناصر القدماء في المنظمة الخاصة وكل المستاءين من سياسة الحزب والميالين للعمل المباشر[٣٠]. وحول هذه المسألة يذكر محمد بوضياف في شهادته بأنه خلال هذه الفترة طلب من ديدوش مراد الالتحاق به لتعميق المسألة؛ لأنها تمثل آفاق عمل غير معزول ويتعدى الإطار الجغرافي (عمل مغاربي) وبدأ الأمر جديرًا بالاهتمام لذلك تمّ الانطلاق في التنظيم بعد الاتصال بمحمد العربي بن مهيدي الذي جمع حوله بعض العناصر ثم مصطفى بن بولعيد وشكلت لجنة من مهري وبن بولعيد وديدوش وبوضياف كلفت بإعداد العناصر القديرة، بالإضافة إلى تكليف مصطفى بن بولعيد بإنشاء مستودع لصنع القنابل والمتفجرات في جبال الأوراس[٣١].

وقد حرصت نواة المؤمنين بتفجير الثورة على ضمان سرية مشروع هذه اللجنة المصغرة[٣٢] من خلال:

- السرية إزاء الإدارة الاستعمارية؛ أي أخذ العبرة من تجربة اكتشاف المنظمة الخاصة في مارس ١٩٥٠.
- السرية تجاه قيادة الحركة خصوصًا وأنها لم يكن لها أي تجاوب مع طموحات المشروع الثوري ووقوعها في الصراعات التي أدت إلى انفجار الحزب وتصدّعه في أبريل ١٩٥٣.[٣٣]
- عدم إشراك العديد من نشطاء المنظمة الخاصة حتى فترة لاحقة وذلك بعد ضمان الانطلاقة الحسنة للثورة[٣٤].

كما عملت اللّجنة المذكورة على التكيّف مع الوضع القائم بالإضافة إلى أنها قامت باستقطاب الراغبين في الثورة من قدماء المنظمة الخاصة، وقد شرعت خلال سنة ١٩٥٢ في عقد عدة اجتماعات لمناقشة أوضاع الحزب الداخلية والوضع العام في العالم والمغرب العربي، وانتهت اللجنة المصغرة التي أعادت تفعيل المنظمة الخاصة تحت تسميت "البركة" تيمّنا بتفجير الثورة في وقت قريب إلى القرارات التالية:

(١) إعادة تشكيل المنظمة الخاصة بدون انتظار موافقة إدارة الحزب التي تجاوزتها الأحداث وفي هذا الإطار يذكر المناضل عبد الحميد مهري في شهادته، تقديمًا لمذكرات المجاهد عيسى كوشيدة "مهندسو الثورة التحريرية" بأنه تم تفعيل خلايا المنظمة في منطقة الأوراس التي لم تحل لعدم اختراقها من طرف المصالح الفرنسية الخاصة، كما تمّ تجديد الاتصال بالعديد من الخلايا الأخرى في الشرق والوسط والغرب[٣٥]

(٢) تحضير عناصر الدعم اللوجيستيكي للعمل المسلح، ولهذا الغرض تمّ تكليف المناضل مصطفى بن بولعيد بمهمتين في غاية الأهمية هما:

- السفر إلى ليبيا لإعادة تفعيل الشبكات القديمة لتهريب الأسلحة[٣٦]
- إنشاء ورشة لصناعة القنابل في منطقة الأوراس[٣٧] وذلك لتموين المجموعات المكلفة بتنفيذ العمليات المسلحة عبر التراب الوطني عند انطلاق الثورة.

(٣) تطهير العلاقة بين قيادة الحزب ومناضلي المنظمة الخاصة.

(٤) إعادة التفكير في طرح مسألة ائتلاف الأحزاب السياسية على أسس سليمة وكفيلة بدعم الكفاح المسلح عند انطلاقته[٣٨] وفي هذا الصدد يؤكد عبد الحميد مهري "بأن دعم العمل المسلح بجبهة سياسية واسعة كان ضرورة ملّحة في إعداد استراتيجية المجموعة.[٣٩]

وفي خضم هذه الظروف-نهاية صائفة ١٩٥٢-انتقل كل من محمد بوضياف ثمّ ديدوش مراد إلى فرنسا باقتراح من قيادة الحزب لتولي مسؤوليات في فيدرالية الحزب هناك، وحسب بعض

الشهادات أن هذا الاقتراح[٤٠] كان موضوع مشاورات بين بوضياف وأعضاء المجموعة التي استحسنته ورحبت به وبشأن هذه المسألة يذكر محمد بوضياف بأنه اجتمع مع بقية أعضاء المجموعة للتشاور بخصوص اقتراح قيادة الحزب فكان القرار هو الذهاب والعودة مرة أخرى عندما تستدعي الضرورة إلى ذلك[٤١].

مما لا شك فيه أن قبول بوضياف وبن بولعيد اقتراح إدارة الحركة القاضي بمهمة التنقل إلى فدرالية فرنسا لم يكن مدرجًا في منطق القيادة السياسية؛ لأنهما وجدا في تلك المهمة فرصة ثمينة لا تعوّض لتمويل الاستعداد المادي للعمل المسلح انطلاقًا من الأراضي الفرنسية، خصوصًا وأن المشاكل والصعوبات المالية كانت تعترض كل مبادرة خارج شرعية السياسيين[٤٢]. ويذكر المناضل عبد الحميد مهري في شهادته بأن الاتفاق بين أعضاء المجموعة لنقل بوضياف إلى فرنسا كان بنية استغلال ذلك لتمويل العمل المسلح علمًا أن مصطفى بن بولعيد واجه الكثير من الصعوبات في مهمة تمويل ورشة القنابل بدوار الحجاج.[٤٣]

ونظرًا لتخوّف الرجلين" بوضياف – ديدوش "من ضياع جهودهما المتعلقة بمستقبل المشروع الثوري، الذي بدأ في التحضير له في إطار اللّجنة الرباعية التي سبق ذكرها تعمّد بوضياف تعيين رجلين آخرين لخلافتهما في مواصلة تسيير التحضيرات المادية لانطلاق العمل المسلح[٤٤]. ويشير عبد الحميد مهري في شهادته إلى أنه قبل التحاقهما بفدرالية الحركة بفرنسا قاما بتعيين مناضلين مكانهما وهما الزوبير بوعجاج خليفة ديدوش في العاصمة وبن عبد المالك رمضان خليفة بوضياف ومسؤول المنظّمة في الغرب الجزائري وكلّف عبد الحميد مهري بمهمة التنسيق بينهما.[٤٥]

عرفت الجزائر خلال فترة غياب بوضياف وديدوش ثلاثة أحداث حاسمة لها ارتباط وثيق ومباشر بالمجموعة وقد تسببت مرة أخرى في عرقلة المشروع الثوري سنة ١٩٥٣ وهي:

- الزلزال السياسي الذي ضرب الحزب خلال المؤتمر الثاني في شهر أفريل ١٩٥٣.
- انفجار ورشة صناعة القنابل في دوار الحجاج بباتنة (جويلية ١٩٥٣).
- خروج الخلاف بين مصالي واللجنة المركزية إلى مساحة المناضلين العريضة ابتداء من شهر فبراير ١٩٥٤[٤٦].

يكتسي الحادث الثاني أهمية قصوى بالنظر إلى طبيعة الموضوع وأهدافه، الأمر الذي يدفعنا إلى محاولة معرفة ظروف الانطلاق في مشروع صناعة القنابل والمتفجرات والملابسات التي انفجرت فيها الورشة التي خصصت لهذا الأمر، انطلاقًا من تلك المهمة العسكرية التي كلف بها المناضل مصطفى بن بولعيد في إطار التحضير العام لانطلاق العمل المسلح في منطقة الأوراس.

رابعًا: مصطفى بن بوالعيد يشرف على مشروع صناعة القنابل والمتفجرات بالأوراس

اعتبرت هذه الفترة مرحلة حاسمة في تاريخ الجزائر المعاصر، اتفق خلالها بوضياف وبن بوالعيد على أسس ومنطلقات مشروع الخيار العسكري والشروع الفوري في العمل الثوري الميداني، باعتباره أنسب حل لإنقاذ الحركة الوطنية الجزائرية من المأزق الذي وقعت فيه، وبذلك انطلقا الرجلين في سباق شريف من أجل الاستعدادات المادية والمعنوية للعمل المسلح عن طريق تفعيل شبكات الدعم بالسلاح وإنشاء ورشات لصنع القنابل والمتفجرات.[٤٧]

وفي هذا السياق تشير بعض المصادر التاريخية المكتوب منها والشفوي إلى أن تخوّف قيادة اللجنة التي شرعت في عملية التحضيرات المادية لانطلاق العمل المسلح منذ تشكيلها سنة ١٩٥٢ من عدم إمكانية توفير كميات كافية من الأسلحة لتلبية احتياجات الأفواج المسلحة في الأوراس وكذا المناطق الأخرى، دفع بها إلى سدّ تلك الثغرة أو النقص بتعزيز رصيدها بصنع القنابل والمتفجرات اليدوية محليا.[٤٨] وربما كانت هذه المعطيات من الدّوافع الرئيسة التي دفعت مجموعة بوضياف خلال اجتماعاتهم سنة ١٩٥٢ بتكليف رفيقهم المناضل مصطفى بن بولعيد بمهمة إنشاء ورشة لصناعة القنابل لتموين مجموعات الكفاح عبر التراب الوطني[٤٩]

وانطلاقًا من هذا التكليف أمر مصطفى بن بولعيد رفقائه المناضلين بالأوراس الانطلاق في مشروع صناعة القنابل والمتفجرات، ولهذا الغرض أنشأت عدة ورشات ومستودعات لصنع القنابل ومتفجرات محلية في كل من منزل "بلقاسم" في باتنة، وفي دار بعزي لخضر بدوّار الحجاج بالإضافة إلى دار" أسمايجي" بشيليا أمّا بالنسبة للبارود والديناميت فقد تم جلبه من مناجم إشمول عن طريق المناضل أحمد نواورة بالإضافة إلى المقاول "سليمان قنطري" الذي لعب أيضًا دورًا بارزًا في تموين هذه الورشات بنفس المادة[٥٠]. وقد تسنى لبن بولعيد حسب شهادة المناضل عمار بن العقون، بعد ذلك من جمع عدد

من المناضلين المختصين من قدماء المنظمة الخاصة في ضيعتها التي اشتراها خصيصًا لصنع القنابل والمتفجرات ومن أبرز هؤلاء يمكن ذكر عزوي مدور وأسمايحي بلقاسم وعزوي مدور وبعزيزي محمد.. وغيرهم.[٥١] وفي كل مرة ينتهي هؤلاء المناضلون من صنع كمية من القنابل يتم وضعها في أسفل الصناديق وتغطى بالخضر وتنقل إلى محل الأخوة مشلق[٥٢] بمدينة باتنة لتفريغها في صناديق أخرى ثم يأخذون الخضر إلى المناضل "عمار أمعاش" في سوق العصر وبعد بيعها يدفع ثمنها في البنك باسم بن بولعيد.[٥٣]

بقيت الأمور على هذا الحال سواء في جمع الأسلحة أو صنع القنابل وقد تم جمع الكثير من المتفجرات والقنابل الأمر الذي أصبح يستدعي التخفيف منها، غير أنه حدث ما لم يكن في الحسبان حيث وقع انفجار كبير وسط ظروف غامضة في ورشة صنع القنابل بدوّار الحجّاج التي كان يعوّل عليها كل من بن بولعيد وبوضياف كثيرًا في تفجير الثورة وإعطائها وزن الثورة المنظمة منذ بدايتها[٥٤]. وتذهب بعض الروايات إلى أن المناضلين في هذه الورشة تمكنوا من إعداد مخزونات كافية من القنابل والمتفجرات للمرحلة الأولى من الثورة التحريرية كانت في الأوامر للشروع في توزيعها على المناطق الأخرى للتراب الوطني، لتكون نقاطًا على خريطة عمليات انطلاق العمل المسلح.[٥٥] ويبدو أن جزءًا كبيرًا من هذه المتفجرات تمّ تخزينها من طرف بن بولعيد في أحد المخابئ التي كانت تجمع فيها الذخيرة[٥٦] في دكان الإخوة مشلق الواقع في نهج فرنسا (شارع الجمهورية حاليا). غير أن هذا المخبأ تعرض لانفجار مهول في يوم ١٩ جويلية ١٩٥٣ تاركا مدينة باتنة وضواحيها تحت واقع صدمة وذعر كبيرين خاصة من جانب الطرف الفرنسي الذي اكتشف شحنة كبيرة من المتفجرات أكلتها النيران.[٥٧]

وقد تصدر الخبر واجهة صحيفة *La dépêche de Constantine* الصادرة يوم ١٩٥٣/٠٧/٢٢ التي علقت على الحادث بعنوان "سلسلة" تفجيرات يوم الأحد الموافق ل ١٩ جويلية ١٩٥٣، ومن أهم ما جاء في مضمون المقال أن الانفجار كان على الساعة الثامنة ليلا في فترة كانت الشوارع والمقاهي والساحات العمومية مملوءة بالناس وقد أعقب الانفجار الأول خمسة تفجيرات زرعت الرعب والهلع في شارع فرنسا، وقد تحطم دكان السيد مشلق وسجل حضور الشرطة الفرنسية مكان الحادث التي اتخذت جميع الاحتياطات الأمنية، وتمكنت من اكتشاف قنابل أخرى لم تنفجر ثم قامت بمتابعة واستنطاق الأشخاص المشكوك في أمرهم[٥٨].

ودون الاستطراد في ملابسات هذه الحادثة، يمكن القول بأنها كانت شبيهة عند بعض المعاصرين لتلك الفترة والمتتبعين بحادثة تبسة، التي كانت وراء عملية اكتشاف المنظمة الخاصة في ربيع ١٩٥٠[٥٩] حيث كادت أن تضع الحزب (حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية *MTLD*) في مأزق لولا تدّخل بن بولعيد الذي اتصل بالأمين العام بن يوسف بن خدة، وطمأنه بأن هذه الخطوة التي نفذت دون علم قيادة الحركة وقعت في مستودع قديم تابع للمنظمة الخاصة، كما تمكن بن بولعيد في الأخير من احتواء هذه القضية بدفع مبلغ مالي بقيمة ٢٥٠ ألف فرنك قديم كرشوة لبعض الجهات، التي كلفت من طرف قيادة الحزب للتحري في ملابسات الحادثة قصد عدم الكشف عن خلفيّات الانفجار.[٦٠]

خامسًا: اللمسات الأخيرة لانطلاق الثورة التحريرية (لجنة الستة بين المسؤوليات التاريخية والقرارات المصيرية)

اغتنمت القيادة المنبثقة عن اجتماع الـ ٢٢ [٦١] الذي انعقد في شهر جوان ١٩٥٤ الفرصة للتفكير في أطوار العمل الثوري، وفي أول اجتماع لهذه اللجنة في حي القصبة بالجزائر العاصمة، وضع أعضائها الخمسة قانونًا داخليًا قرروا فيه ما يلي:

- تقوية المنظمة الجديدة عن طريق ضم الأعضاء السابقين للمنظمة الخاصة وهيكلتهم في التنظيم الثوري الجديد.
- استئناف التكوين العسكري بالاعتماد على منشورات المنظمة الخاصة التي أعيد طبعها.
- تنظيم الفرق التي تتولى جمع السلاح.[٦٢]

وفي نفس الوقت خرجت هذه اللجنة بإقرار مبدأين اثنين واستراتيجية من ثلاثة مراحل:

أولاً: اللامركزية في المبادرة والقرار بسبب اتساع الرقعة الجغرافية وضعف الإمكانيات، الأمر الذي يصعب من مهمة جهاز مركزي في عملية تسيير الكفاح بشكل فعال.

ثانيًا: أولوية الداخل عن الخارج أي أن القرارات الهامة يجب أن تصدر من الثوار المقاتلين في الداخل.[٦٣]

أما المراحل فهي:

مرحلة بناء الهيكل السياسي (جبهة التحرير الوطني) والعسكري (جيش التحرير الوطني) لتحضير العمل المسلح وضمان اتساعه.

مرحلة تعميم انعدام الأمن على نطاق واسع.

مرحلة تكوين المناطق (توزيع المسؤوليات).[٦٤]

وبعد كسب تأييد كل من مسؤولي منطقة القبائل وأعضاء نواة الوفد الخارجي بالقاهرة اجتمعت لجنة الستة يوم ١٠ أكتوبر ١٩٥٤ لوضع حصيلة العمل حيث سجلت ما يلي:

أ- صعوبة الحصول على الأسلحة.(٦٥)

ب- اتساع الهوة بين التيارين في حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية الذين أعلنوا حربا كلامية بينهم عن طريق الصحافة والمناشير.

ت- فشل الاتصالات مع الشخصيات القديمة في الحزب لكسب تأييدهم.(٦٦)

ومواصلة للعمل الميداني لانطلاق الثورة تم اقتراح رئاسة هذه المبادرة أي زعامة الثورة على المناضل الأمين دباغين وتغطيتها بشخصيته غير أنه رفض ذلك، فاختار أعضاء اللجنة مبدأ القيادة الجماعية، وتم تحديد يوم ١٥/١٠/١٩٥٤ كأجل لاندلاع الثورة التحريرية غير أنه بسبب تسرب بعض المعلومات إلى السلطات الاستعمارية تراجع قادة اللجنة عن هذا التاريخ.(٦٧)

التقى قادة لجنة الستة مرة أخرى يوم ٢٤/١٠/١٩٥٤ أين تم وضع آخر اللمسات لاندلاع الثورة التحريرية، وقد تم في هذا الاجتماع مناقشة قضايا مهمة وانتهى في الأخير إلى القرارات التاريخية التالية:

١- تسمية المنظمة الثورية الجديدة بجبهة التحرير الوطني، فحلت محل اللجنة الثورية للوحدة والعمل *CRUA*، وفتح باب العضوية فيها لكل من يرغب في المساهمة في تحرير الجزائر على يكون الالتحاق بصفة فردية (أي ليس في إطار جمعيات أو أحزاب).

٢- تسمية المنظمة العسكرية بجيش التحرير الوطني يدعم العمل السياسي وينفذ القرارات العسكرية.

٣- تحديد الأفكار الرئيسية لتحرير نداء سياسي يذاع ليلة أول نوفمبر، وهو الذي عرف فيما بعد بنداء أول نوفمبر.(٦٨)

٤- تحديد تاريخ اندلاع الثورة التحريرية وقد كان لاختيار هذا التاريخ وهو ليلة الأحد إلى يوم الاثنين أول نوفمبر ١٩٥٤ كتاريخ لانطلاق العمل المسلح لاعتبارات تكتيكية وعسكرية.

٥- تحديد كلمة السر ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤ (خالد وعقبة).

٦- تحديد خريطة المناطق وتوزيع المسؤوليات بشكل نهائي لتقسم التراب الوطني إلى خمس مناطق كتالي:

- **المنطقة الأولى** (الأوراس النمامشة) يقودها مصطفى بن بولعيد بمساعدة بشير شيحاني.
- **المنطقة الثانية** (الشمال القسنطيني) يقودها ديدوش مراد بمساعدة زيرود يوسف.
- **المنطقة الثالثة** (القبائل) يقودها كريم بلقاسم بمساعدة عمر أوعمران.
- **المنطقة الرابعة** (الجزائر العاصمة وضواحيها) يقودها رابح بيطاط بمساعدة سويداني بوجمعة.
- **المنطقة الخامسة** (وهران) قائدها محمد العربي بن مهيدي بمساعدة بن عبد المالك رمضان.(٦٩)
- أما منطقة الجنوب (الصحراء) فإنها تركت إلى وقت لاحق.(٧٠)

أما رئيس اللجنة محمد بوضياف فقد أسندت إليه مهمة ربط كافة هذه القيادات بأعضاء الوفد الخارجي بالإضافة إلى مسؤولية تهريب السلاح إلى المنطقة الغربية.(٧١) وفي القاهرة تم تعيين أحمد بن بلة مسؤولا عن إدارة مكتب الثورة (نواة الوفد الخارجي) بالدعاية للثورة الجزائرية وتنوير الرأي العام بالإضافة إلى جمع الأموال والأسلحة.(٧٢) وحول طريقة العمل الثوري يذكر محمد بوضياف في شهادته أنه حددت استراتيجية على ثلاث مراحل زاوجت بين العمل السياسي والعمل العسكري:

- **المرحلة الأولى:** إقامة الجهاز العسكري والسياسي للتحضير والتوسع وكان هدف هذه المرحلة سياسيا نظرا لمفاجأة الجماهير وافتقارها للأخبار. عند الاندلاع فإن مهمة الخلايا السياسية وحتى حاملي السلاح مهمتهم الرئيسية هي شرح بُعد وطبيعة وأهداف الحركة للجماهير قصد كسب التعاطف والمساندة.(٧٣)
- **المرحلة الثانية:** تتمثل في **انعدام** الأمن الشامل، وذلك بشل الحياة الاقتصادية للبلاد عن طريق التخريب والتهديم المتواصل وضرب البنية التحتية للاستعمار والهجوم على مراكز العدو وثكناته وإجبار السكان الأوروبيين على مغادرة البلاد.(٧٤)
- **المرحلة الثالثة:** هي مرحلة تكوين مناطق محررة لإيواء نواة قيادة وطنية للثورة تكون صورة مصغرة عن قيادة ما بعد الاستقلال.(٧٥)

أما بالنسبة للأسلحة والأموال فيذكر محمد بوضياف بأنها شكّلت المهمة ما قبل الأخيرة بالنسبة للجنة الستة. وفي هذا السياق كلفت كل منطقة لتدبير الأموال بوسائلها الخاصة أما

الأسلحة فإن المخزن الرئيسي كان يوجد بالأوراس وضم حوالي ٣٠٠ قطعة إيطالية، تم شراؤها من ليبيا خلال فترة المنظمة الخاصة خزنت في المرحلة الأولى بوادي سوف ثم نقلت إلى الأوراس أين خبئت في براميل مملوءة بالزيت.[٧٦]

سادسًا: قيادة الثورة التحريرية بين كثافة التحضيرات الميدانية وخيبة الإمكانيات المادية

٦/١-الوضعية المادية (العدة والعتاد)

وفي خضم هذه الظروف الصعبة، شكلت الإمكانيات المادية والبشرية ضرورة ملحة بالنسبة لقادة الثورة، باعتبارها من المسائل الحيوية والحساسة لانطلاق واستمرارية أي عمل ثوري. ولعل من أهم الصعوبات التي تواجه الباحث في دراسة هذا الموضوع، قلة المصادر التاريخية (الشهادات الحية والوثائق الأرشيفية) التي تعطي إحصائيات دقيقة حول التعداد المادي والبشري الذي انطلقت به الثورة إلى غاية مؤتمر الصومام ١٩٥٦.[٧٧] وعلى الرغم من ذلك تجمع الكتابات التاريخية على أن الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة عند انطلاق العمل المسلح ضئيلة جدًا، فهناك نسبة قليلة من المجاهدين لا يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف مجاهد مسلحين ببنادق الصيد وبنادق أوتوماتيكية من مخلفات الحرب العالمية الثانية صالحة للاستعمال بنسبة العشر، أي أن طلقة واحدة من بين عشرة طلقات نارية تكون صالحة.[٧٨]

ويعود السبب في ذلك إلى بقاء هذه الأسلحة مدة طويلة في باطن الأرض وبالتالي تعرضها للبلل والرطوبة بالإضافة إلى أن أسلحة المنظمة الخاصة هي بدورها كانت مدفونة في مطامير تحت الأرض في منطقة الأوراس منذ سنة ١٩٤٧.[٧٩] وهناك قطع أخرى اشتراها المناضلون بأموالهم الخاصة، من مخلفات الحرب العالمية تأهبا لأي عمل مسلح[٨٠]، وتذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن عملية شراء الأسلحة لم تكن هي الأخرى معممة على كافة مناطق الجزائر، بحيث لم يتمكن مناضلو الشمال القسنطيني من الحصول سوى على ٦ أو ٧ قطع من الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية الثانية، والمنطقة الوحيدة التي كانت تتربع على كمية لا بأس بها من الأسلحة الأوتوماتيكية هي منطقة الأوراس[٨١].

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن كمية الأسلحة التي تم جمعها إلى غاية انطلاق الثورة كانت مخبئة في كل من مخازن الأصنام والأغواط والقبائل والجزائر العاصمة وجبال الأوراس وكوندي سمندو (زيرود يوسف حاليا)، بعد أن فشلت الشرطة الفرنسية في الوصول إلى هذه المخابئ إثر عملياتها التفتيشية.[٨٢] لكن الذي حدث ولم يكن متوقعا أخلط حسابات محمد بوضياف ورفاقه بشأن حجم الإمكانيات المتوفرة لتفجير الثورة. حيث أن زلزال الأصنام الذي وقع في شهر سبتمبر ١٩٥٤ ترتب عنه إتلاف مخزون الأسلحة بكامله وفقدان المكلفين بحراسته، وفي الأغواط سلم السلاح إلى الشرطة الفرنسية عن طريق أحد العملاء، أما مخزون منطقة القبائل فقد كان بيد الميصاليين وبذلك لم تسلم سوى مخازن السمندو والأوراس والجزائر التي لا يزيد رصيدها من الأسلحة عن ٣١٠، قطعة وهي من صنع إيطالي أكثر من ربعها غير صالح للاستعمال، ويعتبر مخزن الأوراس أغناها حيث كان يتوفر على ٣٠٠ قطعة سلاح سلمت بعضها إلى كل من منطقة القبائل ومنطقة الشمال القسنطيني في فترة كان المناضلون يترقبون قدوم أسلحة من الخارج.[٨٣]

والجدير بالذكر أنه لم يتم دخول أية قطعة سلاح من الخارج سواء من المغرب كما كان متفقا عليه في لقاء برن بسويسرا، أو من مصر التي كانت تنتظر قيام الثورة الجزائرية وعليه اعتمد القادة الأوائل على ما كان موجودا داخل البلاد من الأسلحة التي تم شراءها من ليبيا سنتي ١٩٤٧- ١٩٤٨، وقدرت بحوالي ٥٠٠ قطعة سلاح أدخلت إلى الجزائر على طريق غدامس ثم الواد وبسكرة ومشونش وأريس.[٨٤]

٦/٢-الوضعية المالية

أما بخصوص الوضع المالي الذي عرفته انطلاقة الثورة المسلحة فقد كان للرواد الأوائل الدور الأساسي في عملية التمويل، وفي هذا الإطار يمكن الإشادة بالخطوة التي قام بها مصطفى بن بولعيد حيث أقدم على رهن قسم كبير من ممتلكاته الخاصة لفائدة الثورة.[٨٥] ونفس الشيء قام به ديدوش مراد وتمكن الحاج بن علا من جمع تبرعات قدرت قيمتها بـ ١٥٠٠٠ فرنك قديم في منطقة الظهرة.[٨٦] وفي منطقة الشمال القسنطيني تم جمع اشتراكات المنخرطين التي كانت مجمدة من مارس إلى جويلية ١٩٥٤ [٨٧]. وحسب شهادة المجاهد المجاهد لخضر بن طوبال أن ميزانية المنطقة الثانية لتفجير الثورة لم تتجاوز ٦٠ ألف فرنك قديم وقد كان بحوزة زيرود يوسف ١٥٠٠٠ فرنك أما عمار بن عودة الذي كان في نواحي عنابة وجد لديه ٤٥٠٠٠ فرنك قديم [٨٨]، أما بالنسبة لبلاد القبائل فقد احتفظ كريم بلقاسم لنفسه بمجموع الاشتراكات الخاصة بالمصاليين وحسب المناضل أحمد مزغنة أن المكتب السياسي

سمح لكريم باستخلاص ١٠٪ من محصول الاشتراكات لشراء الأسلحة[٨٩].

هذا بالإضافة إلى الاشتراكات التي كان يقدمها السكان في المدن والأرياف، وهو ما يؤكده المناضل المدعو سي ناصر الذي كان مسؤولا في الجهة الغربية من الوطن قائلا "تم تكوين لجنة ضمن ١٢ مجاهدا ممن يعرفون تلك الجهات معرفة صحيحة، وقد تحمل الشعب أعباء التمويل إذ فرضت عليه اشتراكات مع مراعاة طاقة كل واحد."[٩٠] ويذكر المناضل محمد بوضياف أنه على الرغم من هذه الجهود فإنه عندما اقتربت ساعة تفجير الثورة وحان وقت جلب الأسلحة من الخارج لم يتوفر لدى جبهة التحرير الوطني سوى ٤٠٠٠٠١ فرنك[٩١].

يُلاحظ الباحث في واقع الثورة العسكري في مرحلتها الأولى أن جل الكتابات التاريخية ومذكرات المجاهدين خالية من الإحصائيات الدقيقة، خصوصا في ظل غياب الوثائق التي تعتبر حجر الأساس في البحث التاريخي الأكاديمي وعلى هذا الأساس سوف نحاول في سياق ضبط الإمكانيات المادية والبشرية التي انطلقت بها الثورة وفقا للتقسيم العسكري الذي وضعه قادة جبهة وجيش التحرير الوطني قبل الانطلاقة الاعتماد على المادة التاريخية المتاحة عموما والأكاديمية الموثقة منها على وجه الخصوص. لقد واجهت الثورة التحريرية عشية انطلاقتها مشاكل عدة تتعلق بمتطلبات العمل العسكري كالتحويل والتموين وهياكل التنسيق والتخطيط لعمليات التسليح والتخزين وإنشاء المخابئ وتوزيع الرجال والأسلحة على كافة المناطق العسكرية بشكل محكم، وعلى هذا الأساس حاول قادة الثورة التكيف مع الظروف والمستجدات ومعالجة هذه المشاكل بدقة خصوصًا في ميدان التسليح.[٩٢]

سابعًا: منطقة الأوراس في اهتمامات قادة الثورة ورهانات بن بولعيد (قلعة الثوار وقلب الثورة النابض) عشية الانطلاقة في أول نوفمبر١٩٥٤

لم تتوقف عملية شراء أسلحة جديدة وصيّانة تلك التي جمعت خلال فترة المنظمة الخاصة على الرغم من ابتعاد الحزب تمامًا عن فكرة الإعداد للعمل المسلح، وفي هذا الإطار شرع بن بولعيد في عملية تنشيط الخلايا بالمنطقة بعد أن كُلف من طرف لجنة العمل المصغرة التي شكلها بوضياف، وقد أشرنا إليها سابقًا، بمهمة جمع السلاح حيث كان يوصي المناضلين باقتناء سلاحهم الشخصي وتهيئته كما كان ينصح سكان الأوراس بالتسلح تحت مبررات مختلفة للتمويه عن الهدف المقصود من وراء النصيحة[٩٣].

وفي هذا الإطار يذكر المجاهد عمار بن العقون بأن مصطفى بن بولعيد كثيرًا ما كان يشجع السكان في الأوراس على أن يسّلحوا أنفسهم ونصحهم بعدم تبذير الخراطش والبارود في الأعراس؛ لأنّ ذلك كان يفرح الاستعمار، حتى يتم نفاذه وتبقى الأسلحة بدون ذخيرة، ولذلك قام المناضلون والمجاهدون بجمع كل الأسلحة وخاصة الجيدة منها وبأي ثمن[٩٤]. وحول نفس الموضوع يذكر المجاهد علي بن شايبة بأن الظروف كانت مواتية لاندلاع الثورة في الأوراس، كما أن بن بولعيد أمر بجمع السلاح وشرائه حيث كان في الكثير من الأحوال يشتريه من ماله الخاص الذي جمعه من مداخيل وكالة نقل المسافرين التي أنشأها خلال هذه الفترة.[٩٥] بالإضافة إلى أن حنكة ابن بولعيد ونباهة رفاقه مكنتهم من تفويت الفرصة على الإدارة الاستعمارية وعملائها حيث لم تفلح في اكتشاف مخازن الأسلحة والذخيرة المطمورة في جبال الأوراس التي تمّ جمعها إما شراء أو تبرعا وحفظها في مخازن مهيأة لذلك طيلة سنوات ١٩٤٨- ١٩٥٤[٩٦].

وفي نفس الإطار يجب الإشارة إلى عمليات أخرى قام بها بعض المناضلين الجزائريين في المناطق الشرقية من أجل جمع الأسلحة لصالح الثوّار التونسيين، حيث اتصل المناضل فرجي ساعي بالمناضل إبراهيم عمارة بن رابح المكلف بهذه العملية (عملية جمع الأسلحة)، وطلب منه مواصلة المهمة بشرط أن لا يسلم السلاح للتونسيين وإنما يجب جمعه وتخزينه في المناطق الشرقية (الأوراس)، كما يجب الإشادة بالدور الرّيّادي الذي قام به المناضل لزهر شريط في نفس الميدان، حيث كان من كبار تجار الأسلحة قبل الانطلاقة سنة ١٩٥٤ ولهذا الغرض أنشأ العديد من مخابئ الأسلحة من أهمها ذلك المخبأ الموجود عند صهره حمه شريط، أما المخبأين الآخرين موجودين بمنزل العيد شريط وصديقه "منور الجرفي". وفي خضم هذه الظروف برز نشاط المناضل فرجي ساعي الذي جمع الكثير من الأسلحة بعد أن امتد نشاطه إلى مسكيانه شمال تبسّة وشرقها إلى الونزة، وخلال هذه العملية طلب فرجي ساعي من السكان الجزائريين المتواجدين على طول الحدود الشرقية بضرورة الاحتفاظ بالأسلحة وقد وجه الكثير من اللّوم للأمين دربال المدعو"ولد على أغيول" الذي منح قطع من الأسلحة الحربية للتونسيين في هذه الظروف العصيبة[٩٧] .

إن معظم الأسلحة التي دخلت إلى الجزائر خلال مرحلة المنظمة الخاصة جيء بها من ليبيا وفي هذا السياق يذكر المناضل أحمد بن بلة الذي ترأس المنظمة بعد بلوزداد وآيت أحمد بأن كمية السلاح الذي انطلقت به ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، تم اقتناؤه من ليبيا ومر على طريق غدامس ثم الوادي وبسكرة ثم مشونش وآريس وكان سلاحا جيدا إلا أنه غير كافٍ(حوالي ٥٠٠قطعة)[٩٨]، وتطلب الأمر تشحيمها كل ثلاثة أشهر وهو سلاح بسيط استعملته المنظمة الخاصة من مخلفات الحرب العالمية الثانية[٩٩]، وعندما آن الأوان وزع في كل مكان تقريبًا من البلاد وخصوصًا في الأوراس التي كنا نريد أن نجعل منها الحصن الأساسي للثورة التحريرية[١٠٠]. وتجدر الإشارة إلى أن الأسلحة التي ذكرها المناضل أحمد بن بلة في شهادته كانت مخبأة في مخازن أعدت من قبل غدامس في منطقة زرزاتين "*Zerzatine*"وعين أمناس على الحدود الجنوبية الشرقية وهناك مخازن أخرى كمخزن وادي سوف الذي يعتبر من أهم المخازن باعتباره ملتقى الشبكات الجنوبية والشمالية، حيث كانت الأسلحة تجلب من ليبيا وتونس وتباع في الجزائر[١٠١].

انطلاقًا من المصادر التاريخية المتوفرة (وثائق- شهادات حية) يمكن القول بأن منطقة الأوراس كانت تتربع على أكبر كمية من الأسلحة[١٠٢] الأمر الذي أهّلها لكي تتحمل أعباء الثورة طيلة إحدى عشر شهرًا من انطلاقتها في أول نوفمبر ١٩٥٤،وهي المسؤولية التي تحمّلها مصطفى بن بولعيد أمام زملائه في لجنة(٠٦) خلال الاجتماعات التحضيرية لانطلاق العمل المسلح طيلة شهر أكتوبر بالإضافة إلى أنها قدمت الكثير من الإمدادات إلى المناطق الثورية الأخرى[١٠٣]. وتشير الكثير من المصادر التاريخية المتوفرة حول مرحلة التحضيرات المادية لانطلاق العمل المسلح (١٩٥٢- ١٩٥٤) إلى أن منطقة الأوراس والجزائر وضواحيها[١٠٤] شكّلت إحدى أبرز قلاع التحضيرات المادية[١٠٥] لاندلاع الثورة من خلال جمع الأسلحة وصنع القنابل اليدوية والمتفجّرات.

لقد احتفظت منطقة الأوراس برصيدها النضالي الموروث من تجربة المنظمة الخاصة (١٩٤٧-١٩٥٠)[١٠٦] الأمر الذي أهلّها كي تتحمل مسؤولية الاستعداد المادي للثورة ثمّ انطلاقتها واستمرارها وقد صرّح بن بولعيد لقيادة العمليات العسكرية في الأوراس إثر عودته من الاجتماع الأخير ببولوغين يوم ٢٤ /١٩٥٤/١٠ أنّ قيادة الثورة علقت أمالاً كبيرة على المجاهدين في المنطقة الأولى بحكم أنها تتوفر على كميات هائلة من الأسلحة والقنابل وتنتظر منها صمودًا لمدة ستة أشهر ريثما تلتحق المناطق الأخرى بالثورة وأكد بن بولعيد لهم بأنه وعد القادة الخمسة بالصمود لمدة ١٨ شهرًا[١٠٧] وفي نفس السياق يذكر المجاهد عبد الوهاب عثماني في شهادته بمناسبة الذكرى ال٣٥ لثورة أول نوفمبر أنه بعد أن التمس بن بولعيد تخوّف بعض الأعضاء المشاركين في اجتماع الـ٢٢ وتحفظهم من برنامج العمل المسلح قال لهم كلمته المشهورة " أعطوني هذه المرة الفرصة أفجر فيها الثورة لوحدي في الأوراس" وبعد مشاورات مكثّفة اقتنع الأخوة بوجوب الثورة ووعدهم قائد الأوراس بتزويد المناطق التي لا تملك ولا في حوزتها الأسلحة الحربية كالشمال القسنطيني والقبائل والجزائر والقطاع الوهراني[١٠٨].

ثامنًا: الإمكانيات المادية والبشرية للمنطقة الأولى (الأوراس) ليلة أول نوفمبر١٩٥٤

انطلقت الثورة التحريرية يوم الاثنين أول نوفمبر ١٩٥٤ من خلال ثلاثين عملية عسكرية جريئة شملت كامل التراب الوطني، رغم الاختلاف الذي سجلته من حيث القوة والنتائج التي تمخضت عنها من منطقة إلى أخرى[١٠٩] الأمر الذي يدفع الباحث إلى محاولة التساؤل عن حجم الإمكانيات المادية والبشرية لمناطق الثورة الخمس، بشكل عام والمنطقة الأولى (الأوراس) موضوع بحثنا بشكل خاص ومدى استعدادها وواقعها المادي والعسكري.

المنطقة الأولى (الأوراس): قائدها مصطفى بن بولعيد بمساعدة شيحاني بشير وكانت المنطقة تغطي جبال الأوراس والحضنة وجبال النمامشة وجبال سوق أهراس وبني صالح وطريق قالمة وعين عبيد وسطيف وبرج بوعريريج[١١٠].

وقد شكلت منطقة الأوراس الرئة التي استندت إليها الثورة عند انطلاق العمل المسلح، ولم تكن الجغرافيا العامل الأساسي الذي جعل من هذه المنطقة القلعة الأولى للثورة، وإنما يعود الفضل في ذلك إلى ثلة من رجالها الذين جعلوا منها المنطقة التاريخية الأكثر تنظيما في العدة والعتاد، مقارنة مع بقية المناطق الثورية الأخرى، كما يعود الفضل أيضاً في توحيد صفوف قبائلها وفي تعبئة المنطقة بأكملها نحو الإيمان بفكرة المشروع الثوري إلى مجموعة من قدماء المنظمة الخاصة وبعض مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية الذين التفوا حول مصطفى بن بولعيد قبيل الانطلاقة بأشهر قليلة.

شرعت قيادة الثورة بالأوراس في عملية الاستعداد للثورة منذ صيف، ١٩٥٤ بفضل مجهودات قائدها بن بولعيد، حيث تم

استخراج السلاح المخزن بالمنطقة لاسيما الموجود بقرية الحجاج، لفرزه وتنظيفه وصيانته وإعداده لعملية التوزيع، مع الاستمرار في عملية صنع القنابل كتلك التي صنعت بقريتي تازولت والحجاج، وقد تخصص في صناعتها كل من برغوث علي وبعزي علي وبلقاسم أسمايحي، وبتاريخ ٠٨ أكتوبر ١٩٥٤ شرع في توزيع السلاح انطلاقًا من قرية الحجاج على مراحل: ففي المرحلة الأولى قام بن بولعيد رفقة شيحاني بشير بحمل شحنة كبيرة من السلاح في سيارته إلى بلاد القبائل، أما في المرحلة الثانية فقد تكلف فيها مرة أخرى بشير شيحاني بنقل كمية أخرى من السلاح إلى ذراع الميزان، وفي المرحلة الثالثة تم نفل شحنة إلى السمندو والخروب بمنطقة الشمال القسنطيني تسلمها زيغود ثم شرع بن بولعيد في توزيع حصة منطقته على المجاهدين بالأوراس[١١١].

وفي يوم ٣١ أكتوبر وزع السلاح على المجاهدين في الأوراس بعد إخراجه من المطامير وتنظيفه، وبذلك وصلت شحنات منه إلى كل من مشونش وبنيان وغسيرة تاحموت وكيمل وزلاطو وأريس وإيشمول والشمرة، ونشير إلى أن هذه الأسلحة كانت مخبأة بمكانين الأول في منزل بعزي لخضر قرب وادي الحمام والثاني بمنزل طريسة بشير بالأوراس.[١١٢] وما بقي من أسلحة تم توزيعها عقب آخر اجتماع عقده بن بولعيد ليلة أول نوفمبر في دار بن شايبة بدشرة أولاد موسى بإشمول في منزل بولقواس بخنقة لحدادة في تيبكاوين حيث قام بتوزيع السلاح المستخرج من مطامير قرية الحجاج التي تتواجد بها دور عزوي وبعزي وبشاح وتحصى بعض الكتابات التاريخية عدد المجاهدين الذي حضروا جلستي الاجتماع فقط بحوالي ٣٥٠ مجاهدا.[١١٣]

وتشير المادة التاريخية المتوفرة إلى حجم الإمكانيات المادية والبشرية التي انطلقت بها الثورة التحريرية رغم الاختلافات الموجودة بينها حول نسبة المشاركة فيها من منطقة إلى أخرى، وفي هذا الإطار تذكر بعض المصادر بأن بن بولعيد قاد الطلائع الأولى لجيش التحرير الوطني عند اندلاع الثورة بحيث جمع حوله في اجتماع دار بولقواس بقرية عين الطين (أريس) ما بين ٣٠٠ و٣٩٦ مجاهدًا[١١٤]. كما تذكر الروايات الشفوية لعدد من المجاهدين المقربين منه أنه قام بتقسيم مجاهدي الأوراس إلى تسع وثلاثين فوجا ليلة أول نوفمبر، نجح منهم ثلاثة أفواج في مهمتهم على أحسن وجه[١١٥] وقد كان كل فوج يتكون من مجموعة تتراوح ما بين ٢٠ و٣٠ مجاهدًا[١١٦].

وتجدر الإشارة إلى أن بن بولعيد أسند قيادة معظم الأفواج إلى مجموعة تتكون من ٢٧ عنصرًا من قدماء المنظمة الخاصة الذين كانوا من أكثر العناصر مقدرة على قيادة مختلف مناطق الأوراس، ومن أشهر هؤلاء نذكر شيحاني بشير، وعباس لغرور وعجول ومسعود بلعقون وعدد الوهاب عثماني ومحمود الواعي ولخضر لعبيدي ولزهر شريط والطاهر نويشي.... وغيرهم. كما أحصى المؤرخ محمد حربي عدد الرجال الذين كانوا يحملون السلاح في الأوراس بـ ٣٥٠ مقاتلاً أما بخصوص التسليح لم يكن الوضع سيئا مقارنة مع بقية المناطق الأخرى[١١٧]. ومن جهة أخرى يتفق كل من مراد صديقي ومصطفى هشماوي على أن الثورة في الأوراس انطلقت بـ ٥٥٠ مجاهدا وتوفر لديهم ٢٠٠ بندقية إيطالية عيار ٥٦ ملم ومجموعة أخرى من بنادق في حين صرح سكرتير الدولة الفرنسية للشؤون الحربية جاك شوفالي، أنذاك قائلاً: "إن منطقة الأوراس في حالة ثورة حقيقية وعدد الثوار فيها قدر ما بين ٤٠٠ و٤٥٠ مقاتلاً وهم يستخدمون أسلحة أوتوماتيكية وأجهزة لا سلكية للإرسال والاتصال"[١١٩].

وحول نفس الموضوع تؤكد بعض الدراسات الأكاديمية الموثقة بأرشيف فانسان أن حجم القوة العسكرية في المنطقة الأولى تراوح إلى غاية شهر أكتوبر ١٩٥٥ بين ١٥٠٠ إلى ٢٠٠ مجاهد مسلحين بنسبة ٧٥٪ سلاح حربي و ٢٥٪ سلاح صيد.[١٢٠] ومهما يكن من أمر فإن رفقاء بن بولعيد في قيادة الثورة كانوا يعلقون كل أمالهم على منطقة الأوراس لكي تكون قلعة الثورة خصوصا وأنه ظل يعتقد بأن المنطقة تمتلك القدرة على الصمود أمام القوات الاستعمارية لفترة طويلة، الأمر الذي دفعه إلى تقديم وعود لرفاقه في لجنة الستة قبيل الانطلاقة بإمكانية تحمل المنطقة الأولى أعباء الانطلاقة لمدة ثمانية عشر شهرًا،[١٢١] وذلك بالنظر إلى حجم الإمكانيات المادية المتوفرة إلى جانب رصيدها التاريخي الذي صنعته حنكة بن بولعيد العسكرية وقدرته على التنظيم والتعبئة منذ فترة المنظمة الخاصة.

تاسعًا: الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى (١٩٥٤ - ١٩٥٦) بمنطقة الأوراس جهد بن بوالعيد

١/٩-الحنكة السياسية والعبقرية العسكرية للقائد مصطفى بن بوالعيد (ثعلب الأوراس)[١٢٢]

لقد قدر التاريخ لمصطفى بن بوالعيد أن يكون أحد أبرز أفراد تلك الثلة التي أخرجت الحركة الوطنية من المأزق الذي عرفته لمدة سنوات، ففي ربيع ١٩٥٤ تمكن ابن بولعيد رفقة

محمد بوضياف ومراد ديدوش، ومحمد العربي بن مهيدي من تشكيل نواة مشروع الثورة بإنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل *CRUA* وهي الجنين الذي لم ينتظر تسعا ليولد جبهة وطنية للتحرير، ومع اندلاع الثورة لم يعد ابن بولعيد ذلك التاجر الصدوق والرجل الشريف كما وصفه "موريزو *MORIZOT*"(١٢٣) في سنة ١٩٤١، كما لم يعد ذلك الوطني والسياسي المناضل فحسب بل أضاف إلى شمائله بأن أصبح ذلك القائد المجاهد الباسل الذي لقبته الأوساط الاستعمارية العسكرية" بثعلب الأوراس" أنذاك(١٢٤)، كما اعترفت الأجهزة الاستعمارية الخاصة بقدرته التنظيمية وبدوره العسكري الذي تجاوز حدود الأوراس، فقد جاء على لسان العقيد "إيفرار *EVRAR*"(١٢٥) بأنه "من دون ابن بولعيد كانت منطقة الأوراس حتما سوف تدخل في فوضى ونزاعات بين الأعراش، لكنه استطاع أن يجعلها قلعة الثوار وأن يثبت النظام ويرسخ التفاهم ويفرض الانضباط"(١٢٦).

كما اعترفت نفس الأجهزة الإستخباراتية بأن ابن بولعيد كان أحد أعمدة "التمرد" فهو الوحيد الذي استطاع أن يوحد منطقة من أصعب المناطق في الأوراس، التي كان فيها الرجال يتحاربون فيما بينهم من واد إلى واد، لكن مع ابن بولعيد أصبحت الوحدة قائمة وضدنا نحن"(١٢٧). "نستطيع القول دون أن نقع في مغبّة الخطأ بأنه لو لم يكن مصطفى بن بولعيد فإن محاولة" التمرد" في الجزائر، كان ممكنًا أن يكون لها منحى آخر، ولو قدر انعدام ملجأ ثوري مسلح بالأوراس في أول نوفمبر ١٩٥٤، كان ذلك سيؤثر في صورة وخصوصية الثورة" ذلك هو التصريح الذي أدلى به جون فوجور «*Vajour Jean* » مدير الأمن العام في الجزائر عشية انطلاق العمل المسلح سنة ١٩٥٤."(١٢٨)

وانطلاقًا من هذه المعطيات والشواهد التاريخية يمكن للباحث أن يتساءل أمام هذه الاعترافات التي جاءت على لسان شخصية رفيعة المستوى في أجهزة الاستخبارات الفرنسية، ماذا كانت تمثل منطقة الأوراس بالنسبة لانطلاق العمل المسلح؟ ولماذا عوّل عليها قادة الثورة؟ وما هو الدوّر الذي لعبه بن بولعيد في هذا المسعى؟

رغم الإمكانيات المادية التي تمتعت بها منطقة الأوراس عشية الانطلاقة مقارنة مع بقية المناطق بالإضافة إلى قربها من الحدود الشرقية إلاّ أنها عانت هي الأخرى من مشكل نقص التسليح، إذ أن أسلوب المواجهة المباشرة وتركيز القوات الاستعمارية على محاصرة المعقل الأول للثورة فرضت على قائدها مصطفى بن بولعيد البحث عن كل الحلول والبدائل الممكنة لتوفير السلاح والذخيرة حتى تمتلك المنطقة (الأوراس) القدرة على الصمود، خصوصًا وأنه كان قد قدم وعدًا إلى رفاقه في لجنة الستة قبيل الانطلاقة بإمكانية تحمّل منطقته لعبئ الثورة لمدة ثمانية عشر شـــــــهرًا.

لا مناص للباحث في سيرة ومسيرة مصطفى بن بولعيد أن يعترف وبكل موضوعية بأنه كان من أكثر نشطاء مجموعة التاريخيين في عملية التحضير للعمل المسلح ويمكن القول أيضًا بأنه صاحب العبء الأكبر من بينهم رفقة زميله محمد بوضياف وليس في هذا الطرح نوع من المبالغة ولكن الشواهد التاريخية تسمح للباحث بالوقوف على الآثار والبصمات البارزة لنماذج من القادة الثوريين في إطار العمل الجماعي الذي تم من خلاله إعداد مشروع العمل الثوري، وفي هذا السياق يذكر يوسف مناصرية في مداخلته خلال الملتقى الوطني الأول حول الشهيد مصطفى بن بولعيد بأنّ العدد الثاني من جريدة الوطني الصادرة بالمنطقة الأولى خلال شهر نوفمبر ١٩٥٥، تضمنت في الكثير من نصوصها الفرنسية المحفوظة في أرشيف فانسان عبارة بن بولعيد وكل عبارة مرفوقة باسمه كانت مقرونة بزعيم الأوراس بدون منازع كما أنّ الثورة في مرحلتها الأولى هي جهد مصطفى بن بولعيد والذي جاء بعده هو استلهام من أفكاره.(١٢٩)

ويؤكد هذا الطرح المجاهد محمد الهادي رزايمية قائلاً بأن بن بولعيد وضع كل إمكانياته الخاصة لخدمة المشروع الثوري واعتمد على نفسه في تسليح المنطقة بكل الطرق والوسائل وراح يبحث في الخارج عن مصادر أخرى للسلاح والذخيرة لأن المخزون الذي تم جمعه في الداخل لم يلب متطلبات العمل العسكري، بعد التحاق أعداد كبيرة من المجاهدين بصفوف الثورة.(١٣٠)

٩/٢-مشكلة التسليح والتموين في اهتمامات مصطفى بن بولعيد

فرضت تطورات الحرب وردود الفعل العسكرية الفرنسية الأولى على مصطفى بن بولعيد اللجوء إلى تقوية وتعزيز صفوف أفواج جيش التحرير بالمنطقة الأولى عن طريق البحث عن مصادر جديدة لتسليح أكبر عدد من العناصر التي التحقت بصفوف الثورة، وقد كانت مناطق بسكرة ووادي سوف من أهم المراكز التي اعتمد عليها ابن بولعيد في هذا الشأن، غير أن جهوده في عملية استرجاع المخزون الهام من الأسلحة التي كانت مخبأة في المناطق المحيطة بوادي سوف انتهت بالفشل عندما بلغه بأنّ الشرطة الفرنسية تمكنت بدعم من طرف بعض العملاء والخونة الجزائريين من اكتشافه وتوزيعه على

وحدات الحركى وحول هذا الموضوع يذكر المجاهد عبد الوهاب عثماني أحد رفقاء بن بولعيد بأنّ هذا الأخير أدرك بسرعة الحاجة الملحة للمزيد من الأسلحة بعد الإقبال المتزايد لسكان الأوراس على الالتحاق بالثورة، الأمر الذي دفعه بالتوجه إلى بسكرة في ديسمبر ١٩٥٤ بحثًا عن الحاج محمد بلحاج الذي كان يحتفظ بقرية قمار (في الوادي) بكمية لا بأس بها من البنادق والمسدسات (٠٣ ألاف قطعة)، إلاّ أن خيبة أمله كانت كبيرة بعدما بلغه خبر اكتشاف تلك الأسلحة وتوزيعها على وحدات الحركى هناك، فعاد إلى مركز القيادة بالأوراس وبدأ يفكر بمهمة التوجه إلى طرابلس للحصول على الأسلحة.[١٣١]

وقد دفعت هذه المستجدات بالتنظيم الثوري إلى إعداد العدة لتوفير السلاح بشكل أكثر جدية، انطلاقًا من المناطق الداخلية بدرجة أولى، وتطبيقا للأهداف الأساسية التي سطرتها قيادة الأوراس لهذا الغرض؛ أمر بن بولعيد المجاهدين بتكثيف عملية البحث عن السلاح، انطلاقًا مما يملكه السكان حيث كان بحوزة العديد من الأشخاص بنادق صيد غير مسجّلة لدى الإدارة الاستعمارية الأمر الذي سهل عملية الحصول عليها دون إثارة أي مشاكل.[١٣٢] من جهة أخرى قامت مجموعة من المجاهدين بالهجوم على ثكنات العدو ومخازن السلاح والمواد المتفجرة، حيث تمكن الثوار من قصف سيارة العقيد " بلانش" قائد منطقة الأوراس وضربوا حصارًا على قوات وأعوان الاستعمار في ناحيتي " أريس وفم الطوب" اللتين سوف يرسل العدو نحوهما بكامل الفرقة ال٢٥ للمشاة *25 DIAP*[١٣٣] بقيادة الجنرال جيل *Gilles* في محاولة لفك الحصار عنها.[١٣٤]

وتشير بعض الروايات إلى أنه بعد اندلاع الثورة مباشرة قام فوج من مجاهدي المنطقة بقيادة عبيد محمد الطاهر المدعو الحاج لخضر وبعزي علي وقرين بلقاسم بالهجوم على الثكنة العسكرية بباتنة حيث تمكنوا من اقتحام مخزن الأسلحة إلاّ أن محاولتهم باءت بالفشل، حيث وجدوا السلاح مشدودًا بالسلاسل كما فشلت محاولاتهم المتكررة لقطعها؛ بسبب تفطن القوات الفرنسية القائمة على حراسة الثكنة.[١٣٥] ومن جهة أخرى نجح فوج آخر بقيادة نجاوى ناجي في الهجوم على مركز الدرك الفرنسي بفم الطوب حيث تمكن من الحصول على ٢٠ قطعة سلاح، بما فيها أول رشاش من نوع (ماط) غنمه الثوار بالأوراس بالإضافة إلى كمية كبيرة من الذخيرة الحربية قدرت بحوالي ١٢٠٠ طلقة، وفي ناحية الولجة تمكن فوج محمد الصالح عيساوي من غنم ٥٥ قطعة سلاح وكمية لا بأس بها من القنابل اليدوية والخراطيش[١٣٦].

وفي خنشلة نفذّ المجاهدون عمليات عسكرية على مراكز الشرطة، كما تمكنوا من الوصول إلى مخزن الأسلحة والذخيرة بثكنة خنشلة بعد عملية ناجحة غير أن السلاح كان مشدودًا بالسلاسل والأقفال الأمر الذي صعب من مهمة الحصول عليه وفي نفس الاتجاه تمكن عباس لغرور من جمع كميات من الأسلحة بعد عدة كمائن نصبتها رفقة مجموعة من المجاهدين للقوات الفرنسية المتنقلة عبر تراب المنطقة.[١٣٧] وللإشارة فإن الموقع الاستراتيجي الذي تميّزت به منطقة تبسة بحكم قربها من الحدود التونسية قد أهلها لكي تكون معبرًا رئيسًا لقوافل السلاح والذخيرة، وفي هذا الإطار نشير إلى أنّ أفواج التسليح التي كلفت بمهمة تأمين مناطق العبور تمكنت من الحصول على كميّات معتبرة من الأسلحة والذخيرة[١٣٨] على الرغم أنّ هذه المنطقة لم تشهد عمليات عسكرية في أول نوفمبر ١٩٥٤، ويعود ذلك حسب بعض الدراسات المتخصصة إلى أسباب استراتيجية كان قادة الأوراس الأوائل يضعونها في أولوية خططهم ومشاريعهم العسكرية وبخصوص هذه المسألة يذكر المجاهد الوردي قتال أنه سأل بن بولعيد عن سبب عدم إرسال أفواج مسلحة إلى منطقة تبسة ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤، فردّ عليه قائلاً: لقد تركناها- أي منطقة تبسة- لنتنفس منها ونجلب الأسلحة للثورة. ولو أرسلنا إليها أفواجًا لاختنقنا" وتدّل هذه الخطوة على حنكة بن بولعيد وموهبته في قيادة العمل العسكري.[١٣٩]

لقد تميّزت الأفواج والفرق في المنطقة الأولى بالقوة التي كانت تكمن في توظيفها المحكم لأسلحتها المعتبرة، حيث كان في مقدور كتيبة مشكلة من ١٦٠ مجاهدًا من أنّ تملك أربع قطع جماعية[١٤٠] وكميات من القطع الآلية ونصف الآلية. ونظرًا لأنّ القواعد الشرقية والغربية لم تتهيأ بعد بصفة قويّة لتزويد المناطق الداخلية بكيفية مستمرة وفعالة، فإنّ المجاهدين عمدوا إلى غنم أسلحتهم وذخيرتهم من مستودعات العدو مثلما حدث في هجومهم على مركز معافة بالقرب من عين التوتة بناحية باتنة أواخر شهر ماي ١٩٥٥ وتوظيفها لخوض معركة جبل معافة خلال شهر سبتمبر لمواجهة التشكيلات الفرنسية والتصدي لطائرات (*T6*) و(*B 26*) والحوا مات الثقيلة (*Banane*).[١٤١]

ويُعَدّ الشعب في الأوراس مصدرًا أساسيًا لدعم الثورة بالسلاح حيث اعتمد العمل للمسلح على العمال الجزائريين في المناجم لاسيما فيما يتعلق بخراطيش الديناميت وتشير في هذا السياق إلى منجم الطويرف بالمنطقة الأولى (أوراس

النمامشة) الذي تزود منه الثوار بكميات معتبرة من الديناميت عن طريق بعض الوطنيين المخلصين أمثال المجاهد عبد الباقي منصور.[١٤٢] ومن جهة أخرى تشير بعض المصادر إلى أنّ المجاهدين الذين خاضوا معارك طاحنة في الجرف في ٢٢ سبتمبر ١٩٥٥ تمكنوا من غنم ١٥٠ قطعة السلاح كما حصلوا على ذخيرة معتبرة قدرت حمولتها بعشرين بغلا.[١٤٣]

ولم تقتصر جهود مصطفى بن بولعيد في مجال التسليح على المستوى المحلي فقط، بل توجهت أنظاره إلى الجارتين تونس وليبيا، فقد ترك بن بولعيد قيادة المنطقة لنائبه الأول شيهاني بشير وأوصى مساعديه لغرور وعجول برعاية الأمانة والحفاظ على وحدة الصف عندما توجّه صوب الحدود الليبية في ٢٥ جانفي ١٩٥٥ بغية الحصول على الأسلحة من قاعدة طرابلس التي أسسها رفقة بن بلة في منتصف شهر أوت ١٩٥٤، وتشير بعض الروايات إلى أن بن بولعيد غادر غابة الكيمل بالأوراس نحو منطقة نقرين قرب تبسة بالحدود الجنوبية ثم إلى ناحية أرديف بالتراب التونسي، وكان قد سبق له أن أرسل بعض عناصره إلى مناطق (توقرت وورقلة- ووادي سوف) لجلب الأسلحة عن طريق هذا الممر الصحراوي باتجاه مدينة قفصة التونسية، وعندما وصل بن بولعيد إلى تونس جمع بقايا الجزائريين هناك الذين سبق لهم وأن شاركوا ضمن صفوف المقاتلين التونسيين ضد الاستعمار الفرنسي وآخرون يعملون في مناجم الفوسفات بالرديف وزودهم بالأسلحة والأدوية وطلب منهم العودة إلى الوطن، وعيّن لهم الأهداف التي ينبغي مهاجمتها عند عودتهم مباشرة وكان من بينها مركز العدّوني (رأس العش) كما حدد لهم مكان التجمع بعد إنهاء مهمتهم في ناحية (قرن الكبش) قرب بئر العاتر.[١٤٤]

غير أن الحظ لم يحالف بن بولعيد في عملية عبور الحدود التونسية الليبية إذ تم اعتقاله من طرف الشرطة الفرنسية في منطقة بن قردان في شهر فيفري ١٩٥٥ [١٤٥]، وبذلك خلفه في مسألة الاتصال بالخارج المجاهد عباس لغرور عن طريق المجاهد عبد الكريم هالي نائب المجاهد عبد الحي بتونس.[١٤٦]

٣/٩-انضمام الجزائريين العائدين من المقاومة التونسية للثورة الجزائرية بالجبهة الشرقية

لقد استفاد النشاط الثوري في المنطقة الأولى من جهود الجزائريين الذين شاركوا في الثورة التونسية خصوصًا في فيما يتعلق بالخبرة العسكرية والتسليح بشكل خاص، وفي هذا السياق يذكر المناضل التونسي عبد الوهاب السندي أنه عندما تمّ الاتفاق بين المقاومة التونسية والسلطات الفرنسية على تسليم الأسلحة التي بحوزتهم بداية من ٠٤ ديسمبر ١٩٥٤ في إطار مراحل تنفيذ الحكم الذاتي ثم الاستقلال[١٤٧]، رفض الثوار الجزائريون تسليم ما يملكونه من أسلحة إلى المسؤول عن عملية جمعها هو المدعو(حسين بوزيان) ودخلوا بها إلى التراب الجزائري للمشاركة في الثورة. ويضيف السندي في نفس السياق بأن العديد من المقاومين التونسيين باعوا أسلحتهم الرديئة إلى السلطات الفرنسية وأعطوا الأسلحة الجيدة للثوار الجزائريين.[١٤٨]

ولعل أبرز النشطاء الجزائريين الذين شاركوا في الثورة التونسية نذكر المجاهد لزهر شريط الذي نشط بمجموعة من الثوار الجزائريين في التراب التونسي؛ أمثال عمارة بن إبراهيم الذي كان قائدًا لدورية تنشط في تونس من أجل جمع السلاح لصالح الثورة، وكان على اتصال بخلية أخرى بقيادة فرجي ساعي هدفها تهريب السلاح والذخيرة إلى الجزائر، وتمّ الاتفاق على بقاء عمارة بن براهيم قائدًا للدورية باسم الثورة التونسية حرصًا على سرية العمل، وقد كلف أحمد مسعى بإجراء اتصالات مع بعض المناضلين للتنسيق في مجال جمع الأسلحة فاتصل بعابر محمد بن رجب وبذلك باشرت الخلية عملها في مجال جمع السلاح وصيانته.[١٤٩] ومع مطلع شهر جانفي ١٩٥٥ سجل عودة فوج من الثوار الجزائريين إلى الجزائر يقودهم لزهر شريط وقرروا جميعًا في اجتماع لهم في خنقة الصفصاف رفضهم القاطع لتسليم السلاح للسلطات التونسية؛ لأنّ الثورة الجزائرية بحاجة ماسة إلى هذه الأسلحة التي تم جمع الكثير منها من منطقة زيانة التونسية واتجهوا بها إلى الجبل الأبيض، وبئر العاتر والشريعة قرب منطقة بتبسة.[١٥٠]

وانطلاقًا من واقع الثورة العسكري في المنطقة الأولى خلال هذه المرحلة بدأ البحث عن مصادر خارجية للتزود بالسلاح عبر الحدود الشرقية وبالضبط في المناطق المجاورة بتونس سواءً تالة أو القصرين أو الرديف وقفصة، وقد تمت عملية جمع الأسلحة في هذه المناطق بصورة انفرادية حيث كان للجالية الجزائرية المتواجدة في الجنوب الغربي لتونس دورًا بارزًا في هذه العملية، إذ يذكر المجاهد عبد المجيد بوصبيع بأنّ العديد من الجزائريين تكلفوا بمهمة شراء الأسلحة من مدن الجنوب مثل مدنين، ورمادة وقابس وقبلي، وفي نفس الوقت تبرع الكثير من الثوار التونسيين بسلاح لصالح الثورة الجزائرية اعترافا بالجميل مقابل مشاركة العديد من الجزائريين إلى جانب الثورة التونسية وهناك من المقاومين التونسيين من باع سلاحه لبعض أفراد

الجالية الجزائرية وهناك من رفض تسليمه وانضم إلى الثورة التحريرية[١٥١].

ولا يخفى علينا أن المنطقة الأولى كانت قد قدمت دعمًا مشرفًا لتونس أثناء اندلاع المقاومة الأولى بها؛ من خلال مشاركة عناصر جزائرية بارزة في المقاومة التونسيّة، كما أن هذه العناصر قد كلّفت مباشرة بعد انطلاق الثورة بمشاريع بحث عن مصادر للسلاح في تونس من طرف قيادة الأوراس، ويمكن أن نذكر من بينهم " الجيلاني بن عمر والطالب العربي قمودي، وعبد الكريم هالي والسعيد عبد الحي والعربي فرجاني وعلي زوازرية ومحمد بن عمر وعمارة موساوي وعبد القادر عاشور وخزاني دردوري وكيلاني الأرقط والعيد بركة وأحمد مصطفى تواتي والهادي بوعزيز، والأزهر شريطي، وعباس لغرور والعربي العابد وفرحات الصغير زكور.[١٥٢]

تفرض المادة التاريخية المتاحة لدى الباحث الإشادة بجهود المنطقة الأولى في عملية البحث عن مصادر السلاح وإقامة مراكز وقواعد تموين وإمداد برية، تمتد من طرابلس إلى الحدود الشرقية عبر التراب التونسي، ومن بين هؤلاء القادة الذين تكلفوا بمهمة البحث عن مصادر السلاح في تونس نذكر:

- **القائد الجيلاني بن عمر:** شارك في المقاومة التونسية ثم التحق بالثورة التحريرية سنة ١٩٥٤، قام بشراء كمية من الأسلحة من تونس وشكل بها فرقة من الجنود، خاض بها معارك ضد قوات الفرنسية بمنطقة الرديف التونسية وتبسة، وكانت له اتصالات مع مصطفى بن بولعيد، كما كلفه بن بلة بحراسة الأسلحة القادمة من الشرق (طرابلس) وقد تكلّف بهذه المهمة إلى أن أستشهد في ١٩٥٥/١٠/٢٠.[١٥٣]

- **الطالب العربي قمودي:** انتقل إلى تونس واستقر بمدينة الرديف وعمل بمنجم الفوسفات شارك في المقاومة التونسية ماديًا وسياسيًا وعشية اندلاع الثورة اتصل بن بولعيد وشيحاني بشير وابن عمر الجيلاني، فكلف بتموين الثورة وتسليحها وتوعية الجماهير، وكان يعمل ضمن قيادة بن عمر الجيلاني وبعد استشهاده تولى بنفسه قيادة فرقة من المجاهدين بالحدود الجزائرية التونسية[١٥٤] بالمنطقة الأولى كما كلف بجلب الأسلحة عبر الحدود الليبية التونسية إلى الجزائر وبعد مؤتمر الصومام ١٩٥٦ عينته قيادة الثورة على رأس كتيبة لحماية الشرايين والجسور التي تمدّ الثورة بالسلاح من الشرق.[١٥٥]

وبتطور العمل الثوري قامت قيادة الأوراس مع بداية سنة ١٩٥٥ باختيار كل من القائدين السعيد عبد الحي وعبد الكريم هالي[١٥٦] حيث كلفت الأول بإنشاء قاعدة تنظيمية بتونس العاصمة، أما الثاني فقد كلفته بمهمة الاتصال بقادة الثورة في الخارج لجلب السلاح عن طريق ليبيا.[١٥٧]

-**السعيد عبد الحي:** برزت حنكة عبد الحي العسكرية من خلال مشاركته في العديد من المعارك، الأمر الذي دفع قادة الأوراس لكي يحملونه مسؤولية تنظيم الثورة بتونس مع مطلع سنة ١٩٥٥ حيث ركز قواعد النظام في كامل التراب التونسي للثورة بداية من ليبيا إلى تونس ولعب الوساطة كهمزة وصل التي ربطت الداخل والخارج في تزويد الثورة بالسلاح والعتاد[١٥٨] وفي نفس المهمة كلف من طرف القائد بشير شيحاني مع مجموعة من المجاهدين بمهمة تتعلق بالتسليح بالتنسيق مع الوفد الخارجي بالقاهرة.[١٥٩]

- **عبد الكريم هالي:** التحق بالثورة سنة ١٩٥٤ وشارك في الكثير من المعارك فاختارته قيادة الأوراس لتولي مسؤوليات خارج الوطن لتموين الثورة. وتم إرساله إلى تونس في نفس الفترة التي عين فيها زميله عبد الحي... وألتحق بتونس ثم طرابلس وشرع في ربط اتصالاته بقادة الثورة في الخارج بالقاهرة وعلى رأسهم أحمد بن بلة ومحمد خيضر وبعد فترة قصيرة تمكن من إنشاء جسر بري لقوافل السلاح من طرابلس إلى الحدود الشرقية تراب المنطقة الأولى مرورًا بالأراضي التونسية، وغالبًا ما كان عمله مرتبط بجهود زميله عبد الحي كما شارك عبد الكريم هالي في الكثير من المعارك التي شهدها أقصى الجنوب التونسي ضد قوات الجيش الفرنسي التي كانت تحاول منع مرور قوافل السلاح نحو الداخل.[١٦٠]

عاشرًا: وضعية المنطقة الأولى (الأوراس) عشية مؤتمر الصومام ٢٠ أوت ١٩٥٦

عند هذا المقام لا مناص بعد هذا العرض من الاعتراف بمساهمة تلك الجهود والمساعي الرائدة لقادة وإطارات المنطقة الأولى، من أجل البحث عن مصادر خارجية للسلاح وإقامة مراكز عبور وإمداد لوجستية على الجبهة الشرقية في وضع حجر الأساس لمشروع تأسيس قاعدة تونس[١٦١] الخلفية للثورة التحريرية في أكتوبر ١٩٥٧، وهي القاعدة الثانية[١٦٢] بعد قاعدة ليبيا التي أسسها بن بولعيد رفقة بن بلة وقاضي بشير في ٢٠ أوت ١٩٥٤. ومن خلال العودة إلى محاضر جلسات ومقتطفات الوثيقة الأساسية التي أعدّها القادة الحاضرون في مؤتمر الصومام ١٤- ٢٠ أوت١٩٥٦، وبعد قراءة التقارير السياسية والعسكرية للولايات(الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة)، والاطلاع على الأرقام والإحصائيات التي قدّمها قادة الثورة خلال عرض تقاريرهم في جلسات المؤتمر، يمكننا

الوقوف على حجم الإمكانيات المادية (التجنيد- التسليح- الأموال) وأخذ فكرة دقيقة بشكل كاف عن القوى المادية للثورة بعد ٢١ شهرًا من الانطلاقة في كل المناطق العسكرية في الداخل، كما يمكننا استخلاص جملة من النتائج والاستنتاجات انطلاقًا من واقع الثورة العسكري خلال مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦):

١- إن محاولات القادة الحاضرين لسّد الثغرات الناجمة عن غياب نظرائهم-كان على كل منطقة تلاوة تقرير عن الوضعية العامة بها-مثل تلك التي قام بها زيغود في أول جلسة للمؤتمر لم تكن كافية لإعطاء صورة واضحة عن الواقع العسكري في نطاق يتجاوز حدود المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني) الخاضعة لقيادته بعد استشهاد ديدوش مراد[١٦٣].

٢- تعتبر هذه التقارير ناقصة بسبب غياب منطقتي الأوراس (مركز ثقل الثورة في مرحلتها الأولى) وسوق أهراس (قاعدة الثورة الناشئة).[١٦٤]

٣- عرفت قدرات جيش التحرير الوطني البشرية تطورًا ملحوظًا منذ الانطلاقة إلى عشية مؤتمر الصومام ١٩٥٦ حيث بلغ تعداده دون ذكر المنطقة الأولى ٢٣٠٣٩ مجاهدا منهم ٧٤٦٩ مجندًا، و١٥٥٧٠ مسبلاً وإذا أضفنا لهم عدد المناضلين الذين قدروا بـ ١٣٢٠٤٤[١٦٥] ليصبح العدد يقارب ١١٥١١٠[١٦٦] بين مجتمع وقابل للتجنيد.

٤- قدر حجم الأسلحة التي كانت بحوزة الثوار في كل المناطق دون ذكر الأولى بـ ١٤٠٩١ قطعة نسبة ٧٠% منها عبارة عن بنادق صيد التي قاربت حسب محمد حربي حوالي ١٠٧٧٥ بندقية [١٦٧] وبذلك يمكن القول بأن الأسلحة الحربية نادرة لم تتجاوز ٢٤٦٤ قطعة وبقي جيش التحرير الوطني بعد مرور ٢١ شهرًا من الانطلاقة يمتلك أسلحة معظمها بنادق صيد.

٥- الأسلحة بشكل عام قليلة مقارنة مع الإمكانيات البشرية سواءً المجندين أو القابلين للتجنيد الأمر الذي يؤكد بوضوح بأن مصادر السلاح سواءً الداخلية أو الخارجية منها لم تكن كافية لتلبية متطلبات العمل الثوري حيث نجد أن الذي ينتسب إلى جيش التحرير الوطني أو ينتمي إليه لا يحمل سلاحًا.

٦- يشير محمد حربي في قراءته للتقارير التي قدمها قادة الثورة خلال المؤتمر بأن المنطقة الخامسة كانت أفضل تجهيزا من حيث التسليح[١٦٨] مقارنة مع مجموع المناطق الأخرى مجتمعة، إلاّ أن هذه الفكرة تبدو واهية في غياب المنطقة الأولى (مركز ثقل الثورة في مرحلتها الأولى) وفي هذا السياق يذهب الدكتور يوسف مناصرية إلى سد ذلك النقص ودحض ذلك الطرح، بعد عثوره على وثائق أرشيفية عن الواقع العسكري للثورة بين سنوات (١٩٥٤-١٩٥٦) بالأرشيف الحربي بفانسان *"Archives des Vincennes"* تشير إلى أن المنطقة الأولى كانت تتمتع بقوة عسكرية تتراوح بين ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ مجاهد مسلحين بنسبة ٧٥% سلاح حربي و٣٠% سلاح صيد بالإضافة إلي ١١٠٠ مجاهد يتبعون المسلحين ومستعدين لحمل السلاح الذي يتم غنمه في المعارك، وكان لها ٣٠٠٠ رجل احتياط تحت تصرف جيش التحرير الوطني [١٦٩] ويضيف في نفس السياق بأن المنطقة الأولى كانت متفوقة من حيث العدد والعدة العسكرية النظامية على جميع المناطق وتقارب المنطقتين الثانية والخامسة وتساوي المنطقتين الثالثة والرابعة[١٧٠].

خاتمةٌ

يمكننا القول في خاتمة هذه الدراسة أنّ منطقة الأوراس قد تحملت العبء الأكبر من مشقة الكفاح المسلح خلال الثورة التحريرية الجزائرية، ولا سيما في مرحلتها الأولى، وعلى الرغم من موقعها الاستراتيجي على الحدود الشرقية؛ بوابة الإمدادات والتموينات القادمة من المشرق، إلا أنها عانت هي الأخرى من مشكل نقص السلاح عشية الانطلاقة، وطوال المرحلة الأولى من عمر الثورة التحريرية، هذا فضلاً على المحاصرة الشديدة التي فرضها المستعمر الفرنسي عليها.

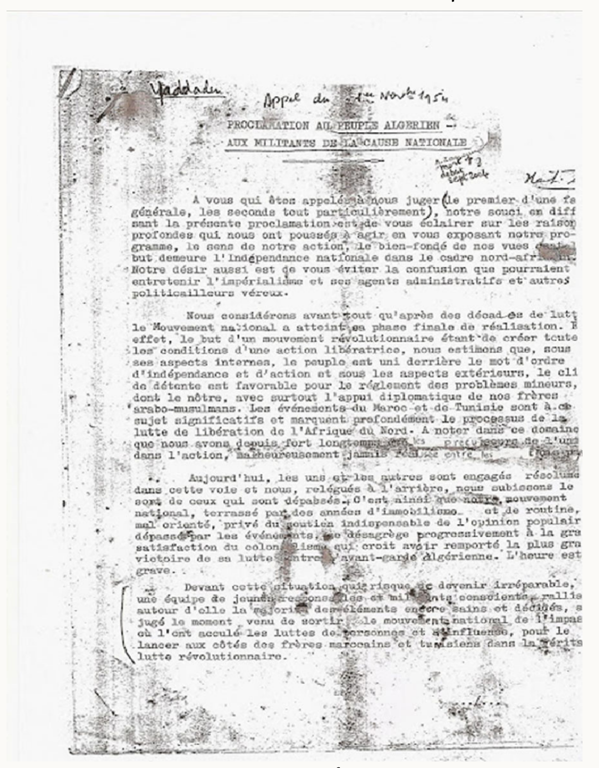
وقد سجلت الإحصائيات حجم الأسلحة التي كانت بحوزة المجاهدين في الداخل دون ذكر المنطقة الأولى ب ١٤٠٩١ قطعة متنوعة (حربية وصيد)، أما بالنسبة لحجم الأسلحة التي وصلت إلى الثوار من الخارج منذ الانطلاقة إلى غاية أوت ١٩٥٦ من خلال جرد الشحنات التي وصلت عن طريق البحر أو البر نجد ما يقارب ٦٤٩٦ قطعة، فإذا طرحنا هذا الرقم من رصيد الأسلحة الإجمالي (١٤٠٩١) نجد حجم الأسلحة التي تمكن الثوار من الحصول عليه من خلال عملية التسليح الداخلي (الذاتي) التي قدرت بـ ٧٥٩٥ قطعة الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن ما غنمه المجاهدون من أسلحة بكل الطرق شكلّ مصدرًا رئيسًا لتغذية النشاط الثوري في المرحلة الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦) إلاّ أن هذا المصدر لم يكن كافيًا، الأمر الذي دفع بقيادة الثورة في المناطق الحدودية الأولى

والثانية والخامسة إلى بذل قصارى جهودهم في البحث عن مصادر خارجية لاستدراك النقص الفادح في الأسلحة التي كانت أغلبها عبارة عن بنادق صيد في خضم تطور العمل العسكري، الذي تميّز بعدم تكافؤ القوة بين كتائب جيش التحرير الوطني وقوات الجيش الفرنسي بعد زيادة ترسانته العسكرية (البشرية والمادية) ودعم الجهود الموازية التي بذلها قادة الثورة في الخارجية خصوصًا أحمد بن بلة ثم محمد بوضياف، التي تؤكدها الكثير من الشواهد التاريخية التي أشرنا إليها سابقًا إلا أنها لم تكن حقيقة في مستوى آمال المقاتلين في الداخل.

وفي مقابل هذه الظروف والأوضاع الصعبة استطاعت قيادة المنطقة الأولى من رفع كلّ هذه التحديات التي واجهت الثورة بالأوراس خلال مرحلتها الأولى؛ من خلال البحث عن الحلول والبدائل الناجحة لتوفير السلاح والذخيرة، بما يجعل المنطقة قادرة على الصمود بفضل حنكة قيادتها، التي سخرت كل الإمكانيات لخدمة المشروع الثوري، وعلى رأسها القائد الوطني مصطفى بن بولعيد، الذي نجح هو ورفاقه في جعل المنطقة الأولى معبرًا رئيسًا لقوافل السلاح والذخيرة، رغمًا عن إدارة المستعمر الفرنسي، كيف لا وقد عرفت في الكتابات التاريخية بقلب الثورة النابض.

الملاحق

ملحق رقم (٠١)



Yaddaden   Appel du 1er Nov. 1954

PROCLAMATION AU PEUPLE ALGERIEN –
AUX MILITANTS DE LA CAUSE NATIONALE

A vous qui êtes appelés à nous juger (le premier d'une fa... générale, les seconds tout particulièrement), notre souci en diff... sant la présente proclamation est de vous éclairer sur les raison... profondes qui nous ont poussés à agir en vous exposant notre programme, le sens de notre action, le bien-fondé de nos vues [illegible] but demeure l'Indépendance nationale dans le cadre nord-afr[illegible]. Notre désir aussi est de vous éviter la confusion que pourraient entretenir l'impérialisme et ses agents administratifs et autres politicailleurs véreux.

Nous considérons avant tout qu'après des décades de lutt... le Mouvement national a atteint sa phase finale de réalisation. E... effet, le but d'un mouvement révolutionnaire étant de créer toute... les conditions d'une action libératrice, nous estimons que, sous ses aspects internes, le peuple est uni derrière le mot d'ordre d'indépendance et d'action et sous les aspects extérieurs, le cli... de détente est favorable pour le règlement des problèmes mineurs, dont le nôtre, avec surtout l'appui diplomatique de nos frères arabo-musulmans. Les événements du Maroc et de Tunisie sont à ce sujet significatifs et marquent profondément le processus de la lutte de libération de l'Afrique du Nord. A noter dans ce domaine que nous avons depuis fort longtemps été les précurseurs de l'uni... dans l'action, malheureusement jamais réalisée entre les [illegible]

Aujourd'hui, les uns et les autres sont engagés résolum... dans cette voie et nous, relégués à l'arrière, nous subissons le sort de ceux qui sont dépassés. C'est ainsi que notre mouvement national, terrassé par des années d'immobilisme et de routine, mal orienté, privé du soutien indispensable de l'opinion populair... dépassé par les événements, se désagrège progressivement à la gra... satisfaction du colonialisme qui croit avoir remporté la plus gra... victoire de sa lutte contre l'avant-garde algérienne. L'heure est grave.

Devant cette situation qui risque de devenir irréparable, une équipe de jeunes responsables et militants conscients, ralli... autour d'elle la majorité des éléments encore sains et décidés, s... jugé le moment venu de sortir le mouvement national de l'impas... où l'ont acculé les luttes de personnes et d'influence, pour le lancer aux côtés des frères marocains et tunisiens dans la vérita... lutte révolutionnaire.

النسخة الأصلية لبيان أول نوفمبر ١٩٥٤

ملحق رقم (٠٢)



بيان 1 نوفمبر 1954

أيها الشعب الجزائري، أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية، أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا. نعني الشعب بصفة عامة، و المناضلون بصفة خاصة. نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا الإعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل، بأن نوضح لكم مشروعنا و الهدف من عملنا، و مقومات وجهة نظرنا الأساسية التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الإفريقي، و رغبتنا أيضا هو أن نجنبكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه الإمبريالية و عملاؤها الإداريون و بعض محترفي السياسة الانتهازية، فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية. بعد مراحل من الكفاح. قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية، فإذا كان هدف أي حركة ثورية. في الواقع. هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية، فإننا ...

النسخة العربية لبيان أول نوفمبر ١٩٥٤

ملحق رقم (٠٣)



الشهيد مصطفى بن بوالعيد
قائد المنطقة الأولى - الأوراس (١٩٥٤-١٩٥٦)

ملحق رقم (٠٤)



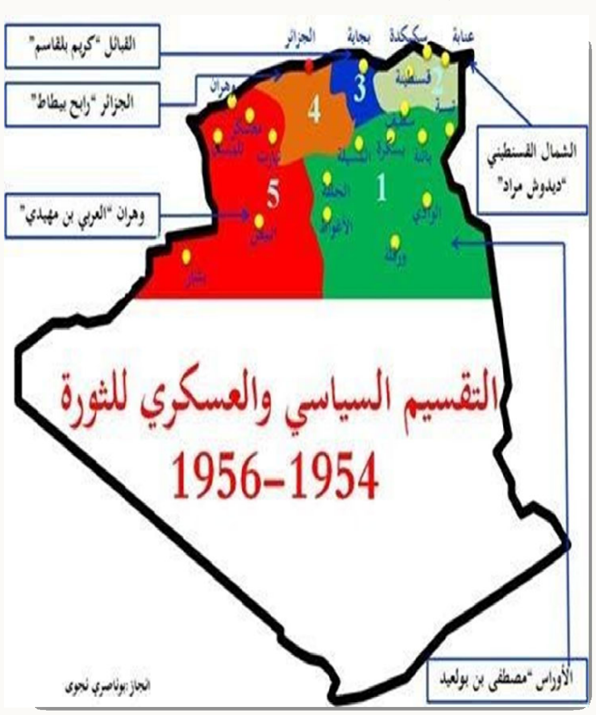
اجتماع لجنة الست التاريخية
"إجماع تفجير الثورة " ببوانت بيسكاد" باب الواد
الجزائر العاصمة. ٢٣ أكتوبر ١٩٥٤.

ملحق رقم (٠٥)

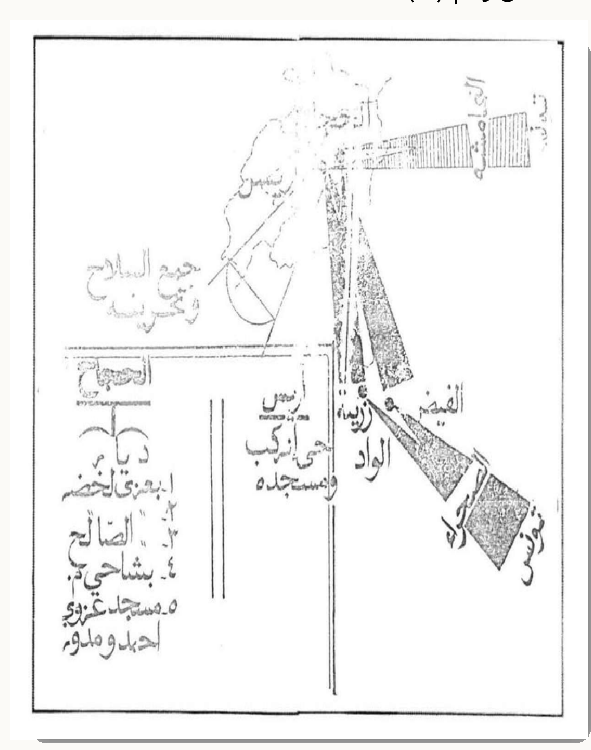


التقسيم السياسي والعسكرية للثورة التحريرية في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦)

ملحق رقم (٠٦)

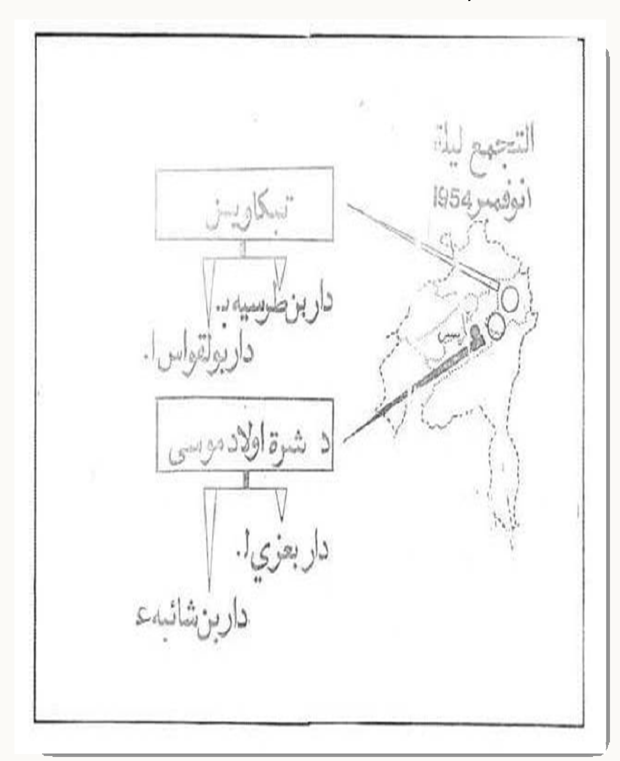


ملحق رقم (٠٧)



مراكز تجميع السلاح وتخزينه في منطقة الأوراس
محمد الطاهر عزوي، الإعداد السياسي والعسكري للثورة في الأوراس،١ نوفمبر ١٩٥٤، الطريق إلى نوفمبر كما يرويها المجاهدون/ مجلد ١- جزء ١- حزب جبهة التحرير الوطني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. (دون سنة نشر). ص٢٤٧.

ملحق رقم (٠٨)



تجمع ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤ بمنطقة الأوراس
محمد الطاهر عزوي-الإعداد السياسي والعسكري للثورة في الأوارس،١ نوفمبر١٩٥.المصدر السابق.ص٢٥٧.

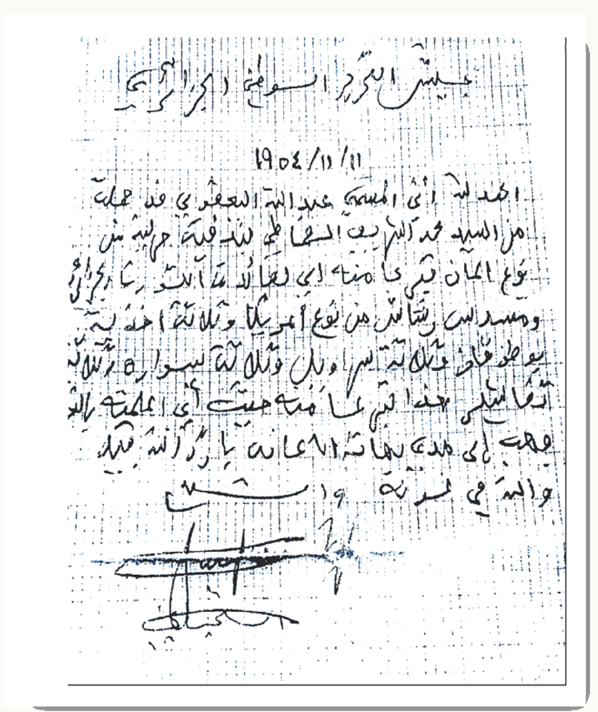
ملحق رقم (١٠)



1954 - Autre photo inédite de l'ALN : Ben Boulaïd (en train de sourire), Sidi Hani, Laghrour Abbès (debout portant une barbe), El-Mamoune.

قادة الأوراس
الجالسون من اليمين إلى اليسار: سيدي حني- مصطفى بن بوالعيد- عباس لغرور.

ملحق رقم (٠٩)



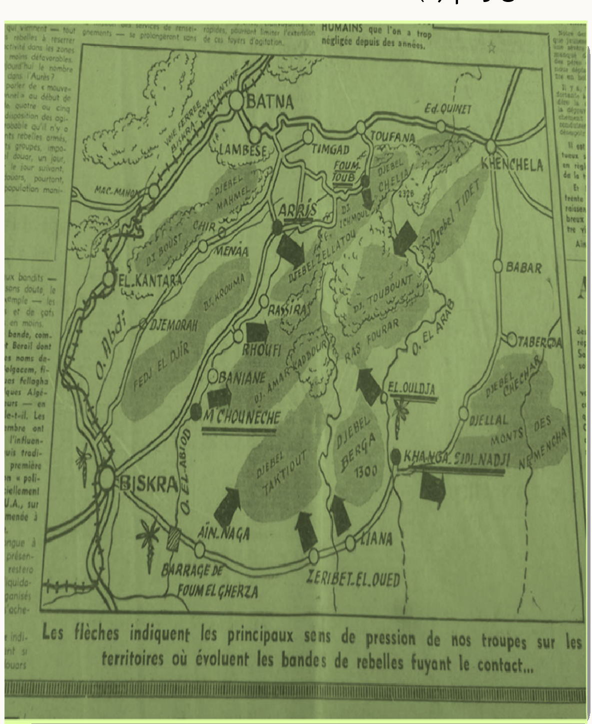
جيش التحرير الوطني الجزائري

1954/11/11

الحمد لله أني المسمى عبد الله العفري [illegible] قد حملت
من السيد محمد الشريف القماطي بندقية حربية من
نوع الماني [illegible]
ومسدس رشاش من نوع أمريكا وثلاثة [illegible]
[illegible] وثلاثة سراويل وثلاثة سوارية [illegible]
[illegible] هذا [illegible]
[illegible]
والله في [illegible]

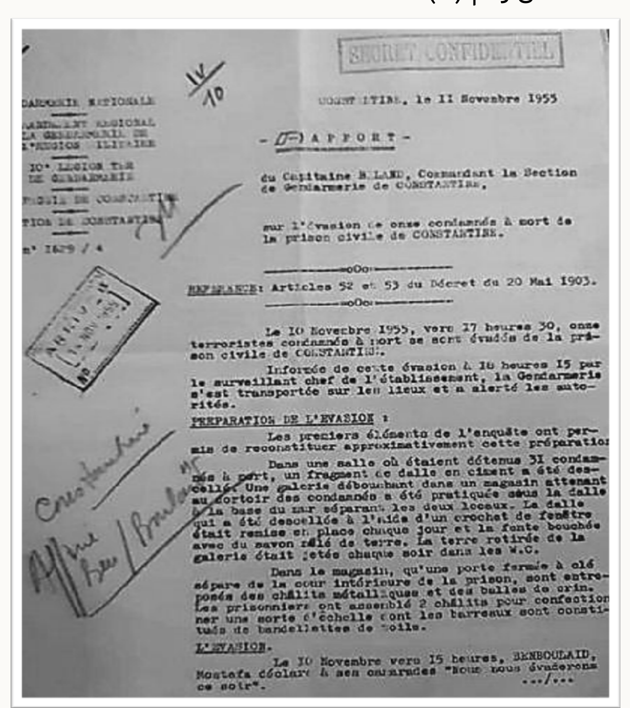
تبرع محمد الشريف بن يوسف قماطي لصالح الثورة التحريرية في المنطقة الأولى(الأوراس). أرشيف غير مصنف متحف المجاهد محمد قنز. ولاية تبسة.

ملحق رقم (١١)



خريطة تمشيط القوات العسكرية الفرنسية لمنطقة الأوراس لادبياش كوتيديان ٣١ديسمبر ١٩٥٤.
31/12/1954: dépêche quotidienne

ملحق رقم (١٢)



SECRET CONFIDENTIEL

GENDARMERIE NATIONALE
COMMANDEMENT REGIONAL DE LA GENDARMERIE DE LA 10° REGION MILITAIRE
10° LEGION TER DE GENDARMERIE
COMPAGNIE DE CONSTANTINE
SECTION DE CONSTANTINE
n° 1629 / 4

CONSTANTINE, le 11 Novembre 1955

- RAPPORT -

du Capitaine B.LAND, Commandant la Section de Gendarmerie de CONSTANTINE,

sur l'évasion de onze condamnés à mort de la prison civile de CONSTANTINE.

———oOo———

REFERENCE: Articles 52 et 53 du Décret du 20 Mai 1903.

———oOo———

Le 10 Novembre 1955, vers 17 heures 30, onze terroristes condamnés à mort se sont évadés de la prison civile de CONSTANTINE.

Informée de cette évasion à 18 heures 15 par le surveillant chef de l'établissement, la Gendarmerie s'est transportée sur les lieux et a alerté les autorités.

PREPARATION DE L'EVASION :

Les premiers éléments de l'enquête ont permis de reconstituer approximativement cette préparation.

Dans une salle où étaient détenus 31 condamnés à mort, un fragment de dalle en ciment a été descellé. Une galerie débouchant dans un magasin attenant au dortoir des condamnés a été pratiquée sous la dalle à la base du mur séparant les deux locaux. La dalle qui a été descellée à l'aide d'un crochet de fenêtre était remise en place chaque jour et la fente bouchée avec du savon mêlé de terre. La terre retirée de la galerie était jetée chaque soir dans les W.C.

Dans le magasin, qu'une porte fermée à clé sépare de la cour intérieure de la prison, sont entreposés des châlits métalliques et des balles de crin. Les prisonniers ont assemblé 2 châlits pour confectionner une sorte d'échelle dont les barreaux sont constitués de bandelettes de toile.

L'EVASION.

Le 10 Novembre vers 15 heures, BENBOULAID, Mostefa déclare à ses camarades "Nous nous évaderons ce soir".

.../...

تقرير عسكري فرنسي بتاريخ ١١ نوفمبر ١٩٥٥ عن عملية هروب ١١ سجينا محكوم عليهم بالإعدام من السجن المدني (بقسنطينة كان على رأسهم قائد المنطقة الأولى (الاوراس) مصطفى بن بوالعيد.

ملحق رقم (١٣)



– قاعد تونس الخلفية للثورة الجزائرية (أكتوبر ١٩٥٧)

– الطـرق الرئيسـية لتهريـب الأسـلحة عـلى الحـدود الشرقية (هيئة الأركان العامة). المكتب الثاني.

Cahier de la recherche doctrinal, l'emploi des forces terrestres dans les missions de stabilisation en Algérie

CDEF * DREX.WW.CDEF. Défenses gouv.f-mai 1998. p 23.

الاحالات المرجعية:

(١) تُعَدّ منطقة وادي سوف معبرًا رئيسًا للسلاح والذخيرة وذلك لقربها من المناطق الحدودية سواء ليبيا أو تونس نجد تواصلهم تقليديا الأمر الذي سهل عليهم عملية التهريب والمتاجرة بالسلاح ونشير هناك إلى العلاقة الطيبة التي ربطت المقاوم الليبي الشيخ غومة المحمودي بسكان منطقة وادي سوف والقائل عندما نصحه بعض زملائه بالهروب من وجه العدو**"روم الطايب وهروبك قدام لعدى خايب الرب بقتل والرصاص سبايب"**. انظر حفظ الله بوبكر. التموين والتسليح إبان الثورة التحريرية الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢، أطروحة دكتوراه قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص١٥١.

(٢) لقد حاول حزب الشعب الجزائري شراء كميات من الأسلحة الخفيفة وهي مخلفات الجيش الإيطالي في الجنوب التونسي وليبيا،وقد تم مصادرة بعض هذه الأسلحة كما يشير إليه التقرير الفرنسي المؤرخ في شهر أكتوبر ١٩٤٧ الذي جاء فيه بتاريخ ٢ أكتوبر "صودرت في الرقيبة التابعة لواد توقرت خمس بنادق إيطالية من نوع ستاتي و١٠٠٠ طلقة الأمر الذي يدل على نشاط وديناميكية حركة تهريب الأسلحة إلى القوى الوطنية التي كانت تتم عبر منطقة الجنوب الشرقي للجزائر. انظر: GGA, Territoires du Sud, Territoires Militaire de Touggourt n°314 EMIS Bulletin mensuel de Renseignement Octobre 1947,P03.

(3) Ben youcef Ben Khedda. Les origines du premier novembre 1954,deuxième édition revue et augmentée édition du centre national d'études et de recherche sur le Mouvement national et la révolution du 1(er) novembre 1954, Homa, Alger, 1999, P121.

(٤) الأمين مناني. **"دور سوف التاريخي في ثورة التحرير"**. مجلة المنار العربي-عدد٠٤، الوادي ديسمبر٢٠٠٤، ص١٦.

(5) M'hidi .Ed ENAL. Alger, 991, P85 -87.El Hachmi trodi, Larbi Ben

(٦) مصطفى سعداوي، **المنظمة الخاصة ودورها في الإعداد لثورة نوفمبر ١٩٥٤ (١٩٤٧-١٩٥٤)** رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ جامعة الجزائر. ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص١٧٩.

(7) Benyoucef Ben Khedda, Op.Cit 122 .

(٨) هناك اختلاف بين الروايات بشأن هذه العملية فمثلا نجد المناضل محمد عصامي يذهب في روايته إلى أن الذي أشرف على هذه العملية هو دائما محمد بلوزداد. للمزيد من التفاصيل حول هذه الرواية انظر: **شهادة محمد عصامي** في حوار أجراه معه الزبير بوشلاغم في مجلة أول نوفمبر، عدد١٤٦، سنة ١٩٩٤. ص٣٩.

(٩) لا تشير رواية حسين أيت احمد مطلقًا إلى العملية السابقة التي تمت سنة ١٩٤٧.

(١٠) قدر محمد عصامي هذه الشحنة بـ ١٠٣ بندقية من نماذج مختلفة و٤٠ صناديق معبئة بالذخيرة، انظر شهادته، المصدر السابق، ص ٣٩-٤٠.

(١١) قدر بن يوسف بن خدة ميزانية هذه العملية بمليونين فرنك قديم سلمت لمحمد عصامي على دفعتين، وقد قدر ثمن القطعة الواحدة من السلاح على مناطق الحدود الشرقية ما بين ٢٠ و٢٥ ألف فرنك قديم انظر. Benyoucef Khedda, Op.Cit, P122,123

(12) Hocine Ait Ahmed, Mémoire d'un combattant, l'esprit d'indépendance (1942-1952) Ed Bouchene Alger .1990, p164.165.

(١٣) حسين آيت أحمد، **روح الاستقلال، مذكرات مكافح ١٩٥٢**. ترجمة سعيد جعفر، مطبعة الصنائعي ٢٠٠٢. ص١٨٣.

(١٤) مسؤول المنظمة الخاصة في منطقة الجنوب القسنطيني.

(١٥) محمد عصامي: المصادر السابق، ص٣٩-٤٠. وانظر أيضًا شهادة عبد القادر العمومي في محمد عباس، حديث الاثنين، مطبعة دحلب. الجزائر، ١٩٩١ ص، ١٢١، وانظر: شهادة المجاهد عبد القادر العمومي في الملتقى الوطني حول قوافل السلاح خلال الثورة التحريرية، يومي ١٩-٢٠ مارس ١٩٩٩ بالوادي، (أشرطة فيديو) تم نسخها من مكتبة المتحف الوطني للمجاهد. وانظر أيضًا. Benyoucef ben Khedda Opcit p121,122,123.

(١٦) يذكر المجاهد محمد الطاهر عزوي بأن تلك الشحنة التي قدرها ٣٠٠ قطعة قد قام بن بولعيد بنقلها إلى الأوراس، ليتم توزيعها على مخبئين في قرية الحجاج الأول في منزل بعزي لخضر الواقع على سفوح جبل الظهري بالقرب من وادي الحمام أحد فروع وادي الأبيض أما المخزن الثاني يقع في دار بشاحي محمد الواقعة على سفح جبل الدرعان على جانب الطريق الرابط بين باتنة وأريس، للمزيد من التفاصيل انظر: محمد الطاهر عزوي، **الإعداد السياسي والعسكري للثورة في الأوراس (أول نوفمبر) في المنظمة الوطنية للمجاهدين**، الطريق إلى نوفمبر كما يرويه المجاهدون، الجزء ٠٢. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (د.س.ن)، ص٢٤٥. وانظر أيضًا محمد الطاهر عزوي، **الإعداد السياسي والعسكري للثورة في الأوراس في جمعية أول نوفمبر**، مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية ١٩٥٤، باتنة، ١٩٩٩، ص١٢٦-١٢٧ وانظر أيضًا علي العياش، **الشهيد مصطفى بن بولعيد في مجلة أول نوفمبر**، عدد ٧٧، سنة ١٩٨٦، ص٥٥.

(١٧) محمد الطاهر عزوي، المصدر بالسابق، ص ٢٤٦-٢٤٧، كما تجدر الإشارة إلى أن هذه الشحنة من الأسلحة قدر بـ٢٨٠ بندقية حربية، انظر: عمار قليل، **ملحمة الجزائر الجديدة** ج١، دار البعث قسنطينة، سنة ١٩٩١، ص١٩٨.

(١٨) **شهادة المجاهد عبد القادر العمودي** في الملتقى الوطني حول قوافل السلاح خلال الثروة التحريرية، المصدر السابق.

(١٩) يمكن اعتبار منطقة الأوراس أحسن نموذج لهذه العملية وذلك من خلال الدور الذي لعبه مصطفى بولعيد في تهيئة الجو وشحذ الهمم لتوفير الأسلحة وعدم تبذير البارود في الولائم والأعراس، انظر علي العياشي، المرجع السابق، ص٥٥.

(٢٠) عبد الرحمن عمراني، **التسليح أثناء الثورة في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤**. التسليح والمواصلات أثناء الثورة التحريرية ١٩٥٦-١٩٦٢، منشورات وزارة المجاهدين الجزائر ٢٠٠١، ص٩٥.

(٢١) يوسف مناصرية. **نشاطات الجزائريين في تهريب الأسلحة على الحدود الجزائرية التونسية من الحرب العالمية الثانية إلى ١٩٤٨** في مجلة التراث عدد١٠، جويلية ١٩٩٩ ص، ١٣٤-١٣٧.

(٢٢) المصالح الفرنسية الخاصة المكلفة بمراقبة نشاط مهربي الأسلحة نفسا تعترف بضعف وسائل المراقبة ومحدوديتها. انظر:

Jean Vaujour, de la révolté à la révolution, Albin Michel, Paris ,1989.P89.

(٢٣) يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص١٣٨.

(٢٤) نفسه، ص١٣٦.

(٢٥) كانت في السابق تلجأ إلى أساليب قمعية ضد مهربي السلاح إلى الجزائر الأمر الذي يبين فشل المصالح الفرنسية في وضع حد لعمليات التهريب والمتاجرة بالسلاح وهو دليل على ضعف إمكانياتها خلال تلك المرحلة.

(٢٦) يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص١٣٤- ١٣٩.

(27) Farhat Abbas, Autopsie d'une guerre, l'aurore, édition Garnier Frère, Paris 1980, P63.

وانظر أيضًا: Historia Magazine, n195- 29 sept, 1972 p32.

(٢٨) شهادة محمد بوضياف، **حول عملية التحضير للثورة**، في جريدة الشعب عدد ٧٧٨٦، ٧٧٨٧ ليومي ١٦/١٧ نوفمبر ١٩٨٨.ص ٠٥ وأيضًا:

Mohamed Boudiaf. la prépara tion du premier Novembre in El Jarida n 15. Novembre – décembre 1974.P3-29.

(٢٩) سمّاها بوضياف بهيئة تنسيق مؤقتة، انظر: محمد عباس. ثوار عظماء، حديث الاثنين، مطبعة دحلب الجزائر، ١٩٩١، ص٦١.

(٣٠) سليمان الشيخ، **الجزائر تحمل السلاح دراسة تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة**، ترجمة محمد حافظ الجمالي منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٦٨.

(٣١) هذا المستودع سوف ينفجر بعد سنة (أي في جويلية ١٩٥٣). وللمزيد من التفاصيل انظر شهادة: **محمد بوضياف لمجلة أو ل نوفمبر**، عدد ١٤٧، ١٩٩٠، ص ٢٠.

(٣٢) أي لجنة (بوضياف- بن بولعيد- ديدوش- مهري- وبن مهيدي).

(٣٣) يجب الإشارة إلى أن هذه اللجنة المصغرة ظهرت خلال نفس المدة التي تطورت فيها حدة الصراعات السياسية والخلافات بين القيادة السياسية والثوريين وبين مصالي والقيادة السياسية التي وجدت في مبادرة الثوريين ميلاً عمليًا نحو الاستقلال.

(٣٤) صناعة القنابل خلال الثورة، تنافس بوضياف وبن بولعيد على إطلاق " البركة"، على موقع شبكة الإنترنيت: http://www4Algeria.com.octobre2007، ص ٢.

(35) Aissa Kechida, les architectes de la révolution, Ed: Chihab Batna, 2001, p10- 11- 12.

(٣٦) **شهادة المجاهد عمّار بلعقون**، منصوري ميلود، الشهيد الرمز... مصطفى بن بولعيد شريط تلفزيوني، محطة قسنطينة إنتاج مركز باتنة مارس ١٩٩٧ (مكتبة المتحف الوطني للمجاهد).

(٣٧) ربما لأن هذه المنطقة كانت حافظة للأسرار وأن خلايا المنظمة الخاصة بها لم تفكك، وبالفعل تمكن بن بولعيد من إنشاء مستودع لصنع القنابل في دوار الحجاج بالأوراس.

(٣٨) محمد عباس، **مثقفون في ركاب الثورة، في كواليس التاريخ** (٢)، دار هومة الجزائر، ٢٠٠٤، ص ٢٥٥.

(٣٩)- Aissa Kechida, Op.Cit. p 13- 14. انظر: أيضًا شهادة عبد الحميد مهري لجريدة الشعب عدد ٧٧٨٦- ٧٧٨٧ ليومي ١٦-١٧نوفمبر ١٩٨٨، ص ٠٥.

(٤٠) يبدو أن اقتراح قيادة الحزب كان تكتيكيًا وذلك لعزل وإبعاد أبرز نشاط المنطقة الخاصة الذي بدأ في إعادة بعث خلايا المنظمة الخاصة دون انتظار موافقة قيادة الحركة خصوصًا بعد إطلاق صراح المناضل أحمد بن بلة سنة ١٩٥٢ والإحساس بعودة نشاط قدماء المنظمة الخاصة والتحضير للعمل المسلح. ويؤكد هذا الطرح محمد بوضياف في شهادته قائلا بأن قيادة الحزب لجأت إلى استراتيجية نقل كل العناصر التي تحدث المشاكل إلى فرنسا، وهناك يهملونهم ويتركونهم عرضة للرشوة، انظر: **شهادة محمد بوضياف لمجلة أول نوفمبر** عدد ١٤٧ سنة ١٩٩٠، ص ٢٠.

(٤١) شهادة محمد بوضياف، المصدر السابق، ص٢٠ وانظر كذلك شهادته في جريدة الشعب، المرجع السابق، ص٠٥.

(٤٢) **صناعة القنابل خلال الثورة**، تنافس بوضياف وبن بولعيد على إطلاق" البركة"، المرجع السابق، ص٢.

(٤٣) **شهادة عبد الحميد مهري لجريدة الشعب**، المرجع السابق، ص٥، وانظر أيضًا Aissa Kechida Op.cit. p 6.

(٤٤) **صناعة القنابل خلال ثورة بوضياف وبن لولعيد على**" إطلاق البركة" المرجع السابق، ص ٣.

(٤٥) انظر: **شهادة المناضل عبد الحميد مهري في محمد عباس**، مثقفون في ركاب الثورة (في كواليس التاريخ (٢)، المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٤٦) محمد حربي، **الثورة الجزائرية سنوات المخاض**. ترجمة: صالح المثلوثي ونجيب عياد. موفم للنشر. الجزائر١٩٩٤. ص٨٨-٨٩. وانظر أيضًا جمال قنان. **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر** (المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر والإشهار، الجزائر، ١٩٩٤، ص ٢٢٩- ٢٣١. وحول التفاصيل المتعلقة بالأزمة وتداعياتها. انظر: **شهادة محمد بوضياف في مجلة أول نوفمبر**، المرجع السابق، ص٢١- ٢٢. وانظر أيضًا شهادة عبد الحميد مهري في محمد عباس، **مثقفون في ركاب الثورة**، في كواليس التاريخ (٢)، دار هومة الجزائر، ٢٠٠٤. ص٢٥٧.

(٤٧) **صناعة القنابل خلال الثورة**، تنافس بوضياف وبن بولعيد على إطلاق" البركة"، ص١. على موقع شبكة الإنترنيت http://wwwAlgeria.com.octobre2007. وانظر أيضًا: شهادة المناضل عبد الحميد مهري في تقديم كتاب عيسى كوشيدة مهندسو الثورة، ص ١٠٩.

(٤٨) محمد حربي، **الثورة الجزائرية سنوات المخاض**، مصدر السابق، ص ٧١، وانظر أيضًا شهادة الحاج بن علاّ في محمد عباس، **فرسان الحرية (شهادة تاريخية)** طبعة خاصة بوزارة المجاهدين بمناسبة الذكرى الخمسين لاندلاع الثورة التحريرية المباركة، دار هومة الجزائر ٢٠٠١، ص ٥٤.

(٤٩) كلف بن بولعيد خصيصًا للقيام بهذه المهمة لما تتمتع به منطقة الأوراس من خصائص لعل أبرزها الحصانة الطبيعية وبعدها عن المراقبة الفرنسية.

(٥٠) محمد الطارهر عزوي، "**نشأة مصطفى بن بولعيد وحياته السياحية إلى تاريخ استشهاده ليلة ٢٣ مارس ١٩٥٦**"، في مجلة التراث، مجلة تاريخية أثرية، إصدار جمعية التاريخ والتراث الأثري، عدد ٠١ باتنة جويلية ١٩٨٦، ص ١٠٧.

(٥١) **شهادة المجاهد عمار بن العقون**، في الندوة التاريخية حول الشهيد مصطفى بن بولعيد بمقر المتحف الوطني للمجاهد،

يوم ١٧ مارس ١٩٩٨ (شريط سمعي بصري رقم ١١ بمكتبة المتحف الوطني للمجاهد).

(٥٢) وهما (مشلق السعيد ومشلق مسعود)

(٥٣) محمد الطاهر عزوي، المصدر سابق، ص ١٠٨.

(٥٤) **صناعة القنابل خلال الثورة**، المرجع السابق، ص٢.

(٥٥) **شهادتي المجاهدين علي بن شابية وعمار بن العقون** في الندوة التاريخية حول الشهيد مصطفى بن بولعيد بالمتحف الوطني للمجاهد يوم ١٩٩٨/٠٣/١٧ (شريط سمعي بصري رقم ١١، محفوظ بمكتبة المتحف الوطني للمجاهد بالجزائر العاصمة.

(٥٦)-جمال قنان،المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٥٧)-تذهب بعض الروايات إلى أن الانفجار يعود إلى بقايا سيجارة مشتعلة ألقى بها أحد الأشخاص على الصندوق المملوء بالمتفجرات عن غير قصد حيث أنه لم يكن يدري ما بداخله، وبعد خروجه انفجر الدّكان... انظر محمد الطاهر عزوي، المصدر السابق، ص ١٠٨.

(٥٨) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، **الكفاح القومي والسياسي (من خلال مذكرات معاصر ١٩٤٧-١٩٥٤)**، ج٣ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، ص١٢٧.

(٥٩) **صناعة القنابل خلال الثورة**، المرجع السابق، ص٢.

(٦٠) **شهادة عبد الحميد مهري** في حديث صحفي لعز الدين ميهوبي، لجريدة الشعب (اليومية) ليوم الخميس ٠١ نوفمبر ١٩٩٠، ص٢، انظر أيضًا عبد الرحمن بن ابراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص١٢٤-١٢٥.

(٦١) شرع محمد بوضياف في تشكيل لجنة مصغرة أو أمانة تنفيذية عرفت بلجنة الخمسة اختار لعضويتها كل من محمد العربي بن مهيدي، ومصطفى بن بولعيد، وديدوش مراد ورابح بيطاط مهمتها الإعداد الميداني لانطلاق العمل المسلح بكل الوسائل والمتطلبات انظر: **شهادة محمد بوضياف** في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، تاريخ الجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢) القرص المضغوط، وزارة المجاهدين ٢٠٠٢.

(٦٢) **محمد بوضياف** في حديث لجريدة الشعب يوم ١٩٨٨/١١/١٦.

(٦٣) محمد عباس، **فكرة الثورة في التجربة الجزائرية مجلة الحدث العربي والدولي**، عدد خاص، رقم ٢٤، نوفمبر ٢٠٠٢، ص ٢١. أما الوفد الخارجي يقتصر دوره على شراء الأسلحة والقيام بالرعاية والقرارات تصدر من القادة المحاربين داخل الجزائر.

(٦٤) محمد عباس، المرجع السابق، ص ٢١

(٦٥) يشير المرحوم رابح بيطاط بخصوص مشكلة التسليح في إطار الإعداد للثورة في المنطقة الرابعة بأن قلة السلاح كانت أكبر مشكلة لدينا وقد تناولت قيادة الثورة التي اجتمعت في بوانت بيسكاد يوم ١٩٥٤ عند تحديد الأهداف التي ينبغي مهاجمتها ليلة أول نوفمبر هذه المسألة وقررت بأن الأسلحة التي ستغنم من ثكنتي "بيزو في البليدة وثكنة بوفاريك تقسم مع أقرب منطقة وهي الثالثة (القبائل) وهو ما يفسر وجود مجاهدين من هذه المنطقة معنا ليلة أول نوفمبر، انظر محمد عباس، **ثوار عظماء**، المرجع السابق، ص ٨٠.

(66) Teguia Mohamed: l'Algérie en guerre, office des publications universitaires, Algérie 1988.p131.

(٦٧) سليمان الشيخ، مصدر سابق، ص ٧١.

(٦٨) حرر البيان من طرف محمد بوضياف وديدوش مراد حددت فيه أهداف ووسائل الكفاح.

(٦٩) أحمد مهساس، مصدر سابق، ص ٣١٧. وانظر أيضًا

Mohamed harbi, la guerre commence en Algérie, Ed complexe Bruxelles, 1984, p 20-23

(٧٠) لقد تشكلت هذه المنطقة فيما بعد خلال مؤتمر الصومام ١٩٥٦ وقبل ذلك كان خاضعة إلى مسؤولية مصطفى بن بولعيد بمساعدة عاشور زيان، انظر أحس بومالي، **استراتيجية الثورة في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦)** منشورات، من وللمجاهد، الجزائر ١٩٩٤، ص ٧٦-٧٧.

(٧١) فتحي الديب. **عبد الناصر وثورة الجزائر**، ط١، القاهرة. ١٩٨٤، ص٣٩، وانظر: أيضًا: محمد عباس. **اغتيال حلم. أحاديث مع بوضياف**. دار هومة. الجزائر.٢٠٠١. ص٥٩. مصدر

(٧٢) سليمان الشيخ، مصدر سابق، ص ٧٢.

(٧٣) **شهادة محمد بوضياف لمجلة أول نوفمبر**، عدد ١٤٧ سنة ١٩٩٥، ص ٢٦.

(٧٤) يوسف مناصرية، **واقع الثورة العسكرية خلال السنة الأولى ١٩٥٤، ١٩٥٥ مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية**، في جمعية أول نوفمبر: مآثر الثورة في الأوراس باتنة، ١٩٩٩، ص ٣٣,٣٤.

(٧٥) **شهادة محمد بوضياف لمجلة أول نوفمبر**، المرجع السابق، ص ٢٦ وانظر أيضًا محمد حربي، **جبهة التحرير، الأسطورة والواقع**، المصدر السابق، ص ١١١.

(٧٦) **شهادة محمد بوضياف لمجلة أول نوفمبر**، المرجع السابق، ص ٢٦.

(٧٧) من الدراسات الجادة والموثقة تلك الدراسة التي قدمها الدكتور يوسف مناصرية خلال أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير الوطني المنعقد بفندق الأوراسي ٢، ٣، ٤ جويلية ٢٠٠٥ بالعاصمة وهي دراسة تناولت حجم الإمكانيات المادية والبشرية في كل منطقة من مناطق العمل الثوري حيث اعتمد فيها على أرشيف فانسان انظر، ص ١١٩، ١٤٢.

(٧٨) محمد حربي، **الثورة الجزائرية سنوات المخاض**، المصدر السابق، ص ٦٩، وانظر أيضًا: المديرية الفرعية للبحث والأرشيف التاريخي، **الأسس الأولية في التنظيم العسكري لجيش التحرير الوطني**، مجلة الجيش نوفمبر ١٩٩٧، ص ٢٣.

(٧٩) أحسن بومالي، **استراتيجية الثورة في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٦٢)**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ١٩٩٤، ص ٧٨، وأيضًا المديرية الفرعية للبحث والأرشيف التاريخي، المرجع السابق، ص ٢٣. وانظر كذلك **شهادة المجاهد عمار بن العقون** في الندوة المفتوحة حول الشهيد مصطفى بن بولعيد ١٩٨٨/٠٣/١٧ بالمتحف الوطني للمجاهد شريط سمعي بصري رقم ١١ بمكتبة المتحف الوطني للمجاهد.

(٨٠) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٧٨.

(٨١) شهادة عبد الله بن طوبال لمجلة الباحث جويلية ١٩٨٧، ص ٤٨-٤٩. وانظر أيضًا شهادة عبد الله بن طوبال جريدة الجمهورية يوم ١٩٨٢/٠٣/٢٩، ص٠٥.انظر أيضًا شهادة عبد الله بن طوبال لمجلة الباحث عدد ٠٢، نوفمبر ١٩٨٤، ص ١٣٤، ١٣٦ ونفس الطرح ورد في شهادة عمار بن عودة لمجلة الباحث جويلية، ١٩٨٧، ص٢٧.

(٨٢) محمد حربي، المصدر السابق، ص ٧٠.

(٨٣) نفسه، ص ٧٠. يؤكد المجاهد سي سالم بوبكر من المنطقة الأولى (الأوراس) بأن زلزال الأصنام كانت له خسائر كبيرة في الورشات السرية التي كانت تقوم بصناعة القنابل والمتفجرات: انظر شهادة المجاهد سي سالم بوبكر في ندوة حول الشهيد مصطفى بن بولعيد، المتحف الوطني للمجاهد يوم ١٩٩٨/٠٣/١٧، شريط سمعي بصري بمكتبة المتحف.

(٨٤) **شهادة أحمد بن بلة** في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، تاريخ الجزائر(١٨٣٠-١٩٦٢) القرص المضغوط، وزارة المجاهدين ٢٠٠٢.

(٨٥) انظر: شهادة المجاهد علي بن شايبة في الندوة حول الشهيد مصطفى بن بولعيد المنعقدة بالمتحف الوطني للمجاهد يوم ١٩٩٨/٠٣/١٧. (شريط بصري بمكتبة المتحف الوطني للمجاهد).

(٨٦) محمد حربي، المصدر السابق، ص٦٩.

(٨٧) نفسه، ص٧٠.

(٨٨) **شهادة المجاهد لخضر بن طوبال** لمجلة الباحث العدد ٠٢ المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٨٩) محمد حربي، المصدر السابق، ص ٦٩.

(٩٠) شهادة المجاهد سي ناصر لمجلة الباحث، المرجع السابق، ص ١٣٦.

(91) Mohamed boudiaf, «la préparation du premier Novembre El jarida» Op.cit., P. 9-24.

(٩٢) **محمد يوسفي الجزائر في ظل المسيرة النضالية**، المنظمة الخاصة، ترجمة محمد الشريف بن دالي، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر ٢٠٠٢، ص ١٦٩.

(٩٣) جمال قنان. المرجع السابق، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٩٤) شهادة المجاهد عمار بن العقون في الندوة التاريخية حول الشهيد مصطفى بن بولعيد بمقر المتحف الوطني للمجاهد يوم ١٧ مارس ١٩٩٨ (شريط سمعي بصري رقم 02 محفوظ بمكتبة المتحف الوطني للمجاهد. كما يظهر التنافس للحصول على الأسلحة بين الأعراش وبأكبر قدر أي الحماس للتسلح حيث تمكنت كل عائلة من العرش من امتلاك قطعة سلاح انظر شهادة الحاج لخضر لعبيدي في الملتقى الوطني حول الشهيد مصطفى بن بولعيد، باتنة ٢٠- ٢٢ مارس ١٩٩١(شريط سمعي بصري) رقم ٠٤- مكتبة المتحف الوطني للمجاهد.

(٩5)-شهادة المجاهد علي بن شايبة في الندوة التاريخية حول الشهيد مصطفى بن بولعيد إلى عقدت بمقر المتحف الوطني للمجاهد يوم ١٩٩٨/٠٣/١٧ (شريط سمعي بصري) رقم ١١ (مكتبة المتحف الوطني للمجاهد).

(٩٦) مختار فيلالي، **الولاية الأولى التاريخية وثورة نوفمبر الخالدة (١٩٥٤- ١٩٦٢)**، مداخلة في ملتقى المعارك الكبرى في باتنة أيام ٢١- ٢٢- ٢٣ مارس ٢٠٠٠ (نشرية وزعت خلال الملتقى)، ص٠١.

(٩٧) حفظ الله أبو بكر، **التموين والتسليح إبان الثورة التحريرية (١٩٥٤- ١٩٦٢)**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، سنة ٢٠٠٥/٢٠٠٦، ص ١٥٩.

(٩٨) يحددها في مذكراته كما أملاها على روبير ميرل بحوالي (٣٥٠ أو ٤٠٠ قطعة) فقط من البنادق الإيطالية من نوع Mousqueton. انظر أحمد بن بلة في مذكراته روبير ميرل. **مذكرات أحمد بن بلة كما أملاها على روبير ميرل**، ترجمة العفيف الأخضر، ط٣، دار الآداب، بيروت ١٩٨٣، ص٩٦.

(٩٩) إن هذه الأسلحة تعود في أكثريتها إلى الحرب العالمية الثانية من مخزون أسلحة الأفريكا كوربس Africa corps (الفيلق الألافريقي) والجيش البريطاني وقد تم إرسالها بصعوبة انطلاقاً من الساحل الليبي إلى الجزائر عبر الجنوب التونسي. انظر محمد البجاوي، **حقائق عن الثورة الجزائرية** (د دن) (د م ن) ١٩٧١، ص١٥٤.

(١٠٠) **شهادة أحمد بن بلة** في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، تاريخ الجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢) القرض المضغوط، وزارة المجاهدين، الجزائر ٢٠٠٢.

(١٠١) **محمد ودوع، ليبيا والثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، رسالة ماجستير. قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية جامعة الجزائر ٢٠٠٠-٢٠٠١، ص١٨١.

(١٠٢) تذهب بعض الكتابات إلى أن عمليات نقل الأسلحة لم تنقطع من وادي سوف إلى الجبال في الأوراس طيلة سنوات ١٩٤٨-١٩٥٤، إلا أن ذلك يثير الكثير من التساؤلات خصوصًا إذا قدرنا كمية الأسلحة المتوفرة عند انطلاق الثورة في أول نوفمبر ١٩٥٤ حيث كانت لا تتجاوز حوالي ٤٠٠ قطعة على مستوى كامل تراب الوطني إلاّ أن هذا التساؤل لا ينفي احتلال منطقة الأوراس ووادي سوف أيضًا مكانة الصدارة في جلب الأسلحة على عهد المنظمة الخاصة.

(١٠٣) راجع شهادة المجاهد أحمد بن بلة بخصوص اعتبار منطقة الأوراس قلعة الثورة كما أشرنا سالفًا. انظر **مذكرات أحمد بن بلة كما أملاها على روبير ميرل**، مصدر سابق، ص ٩٦.

(١٠٤) نقصد بها ذلك الإطار الجغرافي الذي حددت معالمه قيادة الثورة عشية انطلاقتها تنظيميًا (سياسيًا – إداريًا) بالمنطقة الرابعة التاريخية بعد تقسيم التراب الوطني إلى خمس مناطق انظر. Mohamed Boudiaf, El Djarida, op.cit. p10. وسوف يتّم التركيز على القلعة الثانية (الجزائر وضواحيها) التي شهدت أبرز عمليات جمع الأسلحة وصنع القنابل والمتفجرات فيما بعد أي بعد عودة بوضياف من فدرالية الحزب فرنسا إلى الجزائر في ربيع ١٩٥٤.

(١٠٥) لا يمكن التقليل من الدور الريّادي لمنطقة القبائل بخصوص التحضيرات المادية لاندلاع الثورة التي تزعمتها بعض الكتائب المسلحة التابعة إلى الهيكلة التنظيمية للمنظمة الخاصة التي كان يشرف عليها كل من كريم بلقاسم وعمر أو عمران ذوي الميول المصالية قبل التحاقهم بلجنة الخمسة عند انطلاق الثورة انظر:

Bernard Droz et Evelyne lever, Histoire de la guerre d'Algérie 1954 1962, Ed du seuil, PARIS 1982, P53.

(١٠٦) إن هياكل المنظمة الخاصة التي تشتت في المناطق الأخرى من البلاد بقيت سالمة في الأوراس بل ازدادت اتساعا وتطويرًا مما هيأ المنطقة لأنّ تضطلع بالدور البارز في مسيرة الثورة خاصة في السنتين الأوليتين الحاسمتين، انظر جمال قنان، المرجع السابق، ص ٢٣٥.

(١٠٧) عمار بوحوش، **تحويل المنظمة الخاصة إلى جبهة التحرير الوطني في مجلة الذاكرة**، عدد ٠٩، يصدرها المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ١٩٩٥، ص٤٩- ٥٠. وللمزيد من التفاصيل حول هذا اللقاء الذي جمعه مسؤولى الأوراس بالقرين. انظر شهادة المجاهد علي بن شابية في الندوة التاريخية حول الشهيد مصطفى بن بولعيد بمقر المتحف الوطني للمجاهد

يوم ١٩٩٨/٠٣/١٧ (شريط سمعي بصري) محفوظ بخزانة مكتبة المتحف الوطني للمجاهد.

(١٠٨) **عبد الوهاب عثماني التحضير للثورة وتكوين الأفواج في جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة في الأوراس** معالم بارزة نوفمبر ١٩٥٤ في الملتقى الأول بباتنة سنة ١٩٨٩، مطبعة قرفي باتنة ١٩٩٢، ص٨٥.

(١٠٩) تصدرت المنطقة الأولى (الأوراس) الريادة خلال الانطلاقة من حيث سبق التوسع والشمولية وقوة التسليح وصدى العمليات المسلحة وحصيلة نتائجها مقارنة مع بقية المناطق تكشف عنها الوثائق والشهادات الحية كما سنوضحه فيها بعد.

(١١٠) يوسف مناصرية، **قوات جيش التحرير الوطني المتمركز على الحدود الشرقية**، مداخلة في الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير الوطني المنعقد بفندق الأوراسي ٢،٣،٤ جويلية ٢٠٠٥، الجزائر،٢٠٠٥، ص١٢١.

(١١١) عبد الوهاب عثماني، **التحضير للثورة وتكوين الأفواج في معالم بارزة في ثورة نوفمبر ١٩٥٤ في الملتقى الأول بباتنة ١٨٨٩**، المرجع السابق، ص٨٩، ٩٠ وأيضًا بوبكر حفظ الله المرجع السابق، ص ١٦٥، وانظر أيضًا محاضرة عبد الرحمن عمراني، **التسليح أثناء الثورة في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤**، التسليح والمواصلات أثناء الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢)، الجزائر ٢٠٠١،ص٩٥.

(١١٢) بوبكر حفظ الله، المرجع السابق، ص ١٦٦.

(١١٣) محمد الطاهر عزوي. **عظمة ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤**، في جمعية أول نوفمبر لحماية مآثر الثورة في الأوراس. مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية، باتنة، ١٩٩٩، ص٢١، ٢٢. وأيضًا: محمد الطاهر عزوي. **واقع الثورة في الولاية الأولى بالأوراس في السنة الأولى بين توحيد القيادة وتفككها**. في جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة في الأوراس. الثورة الجزائرية أمجاد وبطولات. باتنة ١٩٩٤.ص٥٢,٥٣.

(١١٤) لخضر الحاج العقيد، **قبسات من ثورة نوفمبر ١٩٥٤**، الشهاب للنشر، الجزائر (د س ن)، ص٥٩، وانظر أيضًا:

Daho Djerbel, le 1er Novembre 1954 l’événement et supportée in la nuit rebelle, édition la tribun, novembre 2004, Alger, p 127.

(١١٥) أورد هذا الرقم الدكتور يوسف مناصرية في مقالة واقع الثورة العسكري خلال السنة الأولى ١٩٥٤-١٩٥٥، المرجع السابق، ص ٣٤، في حين يذكر محمد العربي مداسي أن عدد أفواج الأوراس عند الانطلاقة كان ٢٥ فوجًا فقط بما فيها فوج الصحراء الذي كان يقودها حسين برحال في منطقة بسكرة (مشونش- أولاد جلال): انظر:

Mohamed Larbi madaci, les tamiseurs des sable : Aurès nememchas 1954-1959 ,ed ANEP d’Alger, 2001, pp 13-14.

(١١٦) لخضر الحاج (العقيد)، المصدر السابق، ص ٦٢.

(١١٧) محمد حربي، **جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع**، المصدر السابق، ص ١١٤، وانظر أيضًا: أحسن بومالي، **استراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى**، الجزائر ١٩٨٥. ص ٨٠.

(١١٨) مراد صديقي، **الثورة الجزائرية، عمليات التسلح السرية**، ترجمة أحمد الخطيب، مكتبة الحياة، بيروت (د س.ن). ص٢٨، وانظر كذلك: مصطفى هشماوي، **التنظيم العسكري والسياسي للثورة الجزائرية في معالم بارزة في الثورة نوفمبر ١٩٥٤**، المرجع السابق، ص ١٠٤.

(١١٩) فايزة سعد، **سنوات الدم، الثورة الجزائرية**، مطبعة روزل يوسف، القاهرة، ١٩٨٩، ص ١٠٧.

(١٢٠) يوسف مناصرية، **قوات جيش التحرير الوطني المتمركز على الحدود الشرقية**، المرجع السابق، ص ١٢١.

(١٢١) محمد عباس، **فكرة الثورة في التجربة الجزائرية حزب ثوري**، طليعة مسلحة وشعب جاهز للثورة. مجلة الحدث العربي والدولي، عدد خاص، رقم ٢٤، نوفمبر ٢٠٠٢، ص٢١.

(١٢٢) إن مدلول التسمية (الثعلب) ليس إهانة بل هو دليل على الدهاء والحنكة السياسية والعسكرية والأمثلة التاريخية غنية بذلك فالمارشال الألماني رومال إرڤن ROMMEL الذي قاد الحملة على إفريقيا في فترة هتلر كان يلقب "بثعلب الصحراء".

(١٢٣) جون موريزو Jean Morizot خريج المدرسة العليا للتجارة عام ١٩٣٠، دخل إلى الجزائر واشتغل في البنك ثم في إدارة البلديات المختلطة حتى سنة ١٩٦٢ بمنطقة الأوراس، كما أنشأ مركزا للدراسات الثقافية في لوزان حاليًا وقد ألف كتب ومقالات حول مشاكل المغرب العربي ومن أهم كتبه حول منطقة الأوراس وطبيعة سكانها تاريخيًا واجتماعيا كتابه: الأوراس أو أسطورة الجبل المتمرد.

L Aurès ou le mythe de la montagne rebelle. Paris, L'Harmattan, 1991. 273 p.

(124) Historia Magazine-N° 197-13 Octobre 1972-P 106.

(١٢٥) إيفرار EVRAR . العقيد الفرنسي الذي أشرف على مهمة اغتيال مصطفى بن بولعيد وهي المهمة التي بدأها النقيب " كروتوف KROTOF ". داخل مكتب من مكاتب الأجهزة الاستخبارات الاستعمارية الخاصة بمنطقة منعة.

(126) Erwan Bergot ;Le Dossier Rouge Services Secret Contre F.L.N- Bernard grosset .Paris -1976. P.60.

(127) Ibid. PP 59, 60.

(128) Jean Vaujour, Op.cit., P 420.

(١٢٩) للمزيد من التفاصيل انظر مدخله الدكتور يوسف مناصرية في الملتقى الوطني الأول حول الشهيد مصطفى بن بولعيد، باتنة، أيام ٢٠، ٢١، ٢٢ مارس ١٩٩١. (شريط فيديو، رقم ٠٥)- بمكتبة المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر العاصمة.

(١٣٠) شهادة محمد الهادي رزايمية في الندوة التاريخية حول مصطفى بن بولعيد بمقر المتحف الوطني للمجاهد يوم ١٧/ ٠٣/ ١٩٩٨ (شريط فيديو) محفوظ بمكتبة المتحف.

(١٣١) عبد الوهاب عثماني، ا**لتحضير للثورة وتكوين الأفواج في جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة في الأوراس(باتنة)**، معالم بارزة في ثورة نوفمبر ١٩٥٤، المرجع السابق، ص٩٥.

(١٣٢) محمد كشود، **الوسائل المادية والبشرية التي استخدمها الشعب الجزائري إبان الثورة التحريرية، الطريق إلى نوفمبر كما يرويها المجاهدون والمقاومة السياسية والحركات الوطنية حتى ليلة نوفمبر ١٩٥٤**، م١،ج٢، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ١٩٨١، ص ١٧١٦.

(133) Division D’infanterie Aéroportée.

(١٣٤) **مجلة أول نوفمبر** عدد ٠٥-١٩٨١، ص ٤٦.

(١٣٥) **شهادة المجاهد الحاج لخضر عبيد**، لمجلة الباحث، جويلية ١٩٨٧، ص٣٦-٤٦.
(١٣٦) يحي شرفي، **الإعداد الثورة ووصف اندلاعها في الأوراس مجلة أوّل نوفمبر**، عدد ٥٨ سنة ١٩٨٢، ص٣٠-٣٥.
(١٣٧) سالم بوبكر، **ليلة أول نوفمبر في خنشلة**، مجلة أول نوفمبر عدد ٤٦، سنة ١٩٨٠، ص٤٨-٥٠.
(١٣٨) حفظ الله بوبكر، المرجع السابق، ص ١٧٦.
(١٣٩) يوسف مناصرية، **واقع الثورة العسكري خلال السنة الأولى**، المرجع السابق، ص ٤٤.
(١٤٠) قطعتين من نوع (٢٤/ ٢٩) وقطعتين من نوع لويس الإنجليزي.
(١٤١) مجلة أول نوفمبر عدد ٥٥- سنة ١٩٨٤، ص ١٢- ١٤.
(١٤٢) بوبكر حفظ الله، **الدعم المادي للثورة الجزائرية واستراتيجية جيش التحرير الوطني الحربية بين ١٩٥٤-١٩٦١ في مجلة المصادر**، عدد١٣، السداسي الأول. المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤. الجزائر. ٢٠٠٦، ص٢٤١-٢٤٢.
(١٤٣) محمد الطاهر عزوي، **شهرة معارك الجرف في السنة الثانية للثورة الجزائرية في جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية ما آثر لثورة في الأوراس**، معالم بارزة في ثورة نوفمبر ١٩٥٤، المرجع السابق، ص ١٣٠.
(١٤٤) **شهادة عمر المستيري حول سفر مصطفى بن بولعيد إلى المشرق العربي وملحمة اعتقاله بالحدود التونسية الليبية في مجلة أول نوفمبر** عدد ٨٨- ٨٩ جانفي، فيفري ١٩٨٨، ص ٨- ١١.
(١٤٥) للاطلاع على تفاصيل اعتقال بن بولعيد: انظر جمال قنان: **دور الشهيد مصطفى بن بولعيد في الإعداد لغرة نوفمبر ١٩٥٤ في جمعية أول نوفمبر، معالم بارزة في لثورة أول نوفمبر ١٩٥٤**، الملتقى الوطني الأول حول الثورة في باتنة المرجع السابق ص ٦٦-٧٧، وأيضًا شهادة الطاهر الزبيري، **أضواء على اعتقال بن بولعيد مجلة أول نوفمبر**، عدد ٨٤، جوان ١٩٨٧، ص٣٦، وأيضًا: أول نوفمبر، عدد ٨٤، جوان ١٩٨٧، ص٣٦. وأيضًا: Eperviers in historia Magazine n 197- 13 octobre 1972, p 109.. P-Lentin Alger Galombe
(١٤٦) محمد عباس، **شهادات حول العقيد مصطفى بن بولعيد** – ٠٣ جريدة الشعب عدد ٢٩ يوم ٠٩/ ٠٤/ ١٩٨٦.
(١٤٧) يحصي عميرة علية الصغير عددهم بحوالي ٢٧١٣ مقاوم مسلح انظر بالتفصيل:
Amira Aleya sghier, la tunisien et la révolution Algérienne in Actes du 1(er) congrès du forum d'histoire contemporaine sur m éthologie de l'histoire des mouvements nationaux Maghreb fondation Teminai, Septembre 1998, P110
(١٤٨) **شهادة المقاوم عبد الوهاب السندي للمعهد الأعلى للحركة الوطنية التونسية جامعة المنوبة**، تونس رقم التسجيل ١٠١ – cot ١٩٩٣/١٢/٣٠.
(١٤٩) حفظ الله بوبكر، المرجع السابق، ص ٢٠٧.
(١٥٠) نذكر هؤلاء الثوار: فرحي ساعي، وعمار بن سعد، وعبد الله النقريني، وعمار دعاس، وجيلالي بن عمر، ولزهر شريط، والحاج صالح صفصاف، بلقاسم قلبي ومحمد عبد الرحمن، وعلي بن عبد الحفيظ بالنور، وعلي بن زايد ولعبيد بن ثابت والأمين دربال وعبد الله النقريني .... وغيرهم: للمزيد من التفاصيل حفظ الله بوبكر، المرجع السابق، ص ١٧٩.
(١٥١) **شهادة المجاهد عبد المجيد بوصبيع** في الملتقى الوطني حول قوافل التسليح في الثورة التحريرية يومي ١٩ و٢٠ مارس ١٩٩٩ بالوادي شريط سمعي بصري (خاص).
(١٥٢) للمزيد من التفاصيل حول القائمة الإسمية لهؤلاء المجاهدين انظر: سعيد العمامرة والجيلالي العوامر **شهداء الحرب التحريرية بوادي سوف**، مطبعة النخلة (الجزائر لد س.ن).
(١٥٣) سعيد العمامرة والجيلالي العوامر، المرجع السابق. ص٢٦-٣١.
(١٥٤) تشير التقارير الفرنسية إلى الفصائل المشتركة (التونسية الجزائرية التي كانت تقوم بتهريب السلاح والمقاومة بمناطق (قفصة، والجريد والظهر وشريط المناجم) وتحصي عددها بـ١١ فصيلة ومن أهمها الفصيلة التي كان الطالب العربي أحد أبرز قادتها: انظر : Amira Aleya Sghaier, Op cit, p 118.
(١٥٥) سعيد العمامرة، المرجع السابق، ص ٣٥- ٣٦.
(١٥٦) من مواليد بلدة قمار سنة ١٩٣٠ حفظ القرآن ودرس بجامع الزيتونة وتخرج منه سنة ١٩٥٤، ألتحق بالثورة سنة ١٩٥٤ وأستشهد سنة ١٩٥٧. انظر: سعيد العمامرة المرجع السابق، ص٣٩- ٤٠.
(١٥٧) نفسه، ٣٥- ٣٦.
(١٥٨) سعيد العمامرة، المرجع السابق ، ص ٤١- ٤٢.
(١٥٩) **محمد عباس مع المناضل الشيخ حامد روابحية** ج٢، جريدة الشعب عدد ١٩ يوم ١٩/٠١/١٩٨٧.
(١٦٠) سعيد العمامرة، المرجع السابق، ص ٣٩- ٤٠.
(١٦١) مرت عملية تأسيس قاعدة تونس حسب المصادر التاريخية المتوفرة بمرحلتين أساسيتين الأولى مرحلة الفصائل المشتركة(تونسية – جزائرية) وفي هذا الإطار اتخذت إجراءات للتنسيق على المستوي التنظيمي وفي مجال إمداد الجزائر بالسلاح الذخيرة وتمكين المعارضة التونسية من تحرير البلاد. أما الثانية: مرحلة العمل الفردي انطلاقا من المهام التي تكلف بها قادة الثورة في المنطقة الأولى على التوالي بن بولعيد، وشيحاني بشير وعباس لغرور، والجيلاني بن عمر، والطالب العربي، وعبد الكريم هالي. وانظر الخريطة في الملحق رقم (12) وانظر: فتحي الديب المصدر السابق، ص ١٣٢٥-١٣٤.
(162) Cahier de la recherche d'doctrinal, l'emploi des forces terrestres dans les missions de stabilisation en Algérie CDEF * DREX.WW.CDEF. Défense Gouv. F . mai 1998 : p 23.
(١٦٣) لم يكن زيرود يدرك جيدا الواقع العسكري الذي أصبحت عليه منطقة سوق أهراس التي كانت تابعة نظاميا عشية الانطلاقة إلى الشمال القسنطيني عقب الظروف الصعبة التي مرت بها حيث توفرت لها الفرصة لإعادة ترتيب تنظيمها المحلي عقب اجتماع بعض قادة المنطقة في ١٨ جوان ١٩٥٦ وأسندت إدارتها للمسؤول على القالة عمارة بوقلاز الملقب بالعسكري حيث أصبحت تشكل إحدى قلاع الثورة في الشرق الجزائري إلى جانب الأوراس تنظيما وتأطيرا وتسليحا. للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر: الطاهر جبلي، **القاعدة الشرقية**، رسالة ماجستير، قسم التاريخ جامعة الجزائر، ١٩٩٩ / ٢٠٠٠، ص ٦٢-٦٤.

(١٦٤) حاول القادة المحليّون المنطقة سوق أهراس الحضور في المؤتمر كبقية المناطق الثورية الأخرى إلاّ أنهم لم يتمكنوا من ذلك الأمر الذي دفع بهم إلى محاولة الضغط على قيادة الثورة لكي تعترف بها كولاية كبقية الولايات التاريخية الأخرى التي نص عليها المؤتمر الصومام وفي أفريل ١٩٥٧ حققت سوق أهراس وضعًا متميزًا. باقتراح من عمر أو عمران، حيث تمت تسوية وضعية المنطقة وحدد دورها العام كقاعدة لدعم الولايات الداخلية بالأسلحة (القاعدة الشرقية) انظر الطاهر جبلي، المرجع السابق، ص٦٦-٨٠.

(١٦٥) يمكن تفسير هذا الرقم بارتفاع عدد مناضلي جبهة التحرير الوطني في القبائل والجزائر (المنطقتين الثالثة والرابعة).

(١٦٦) استنادًا إلى إحصائيات محاضر جلسات المؤتمر: انظر المتحف الوطني للمجاهد، المرجع السابق، ص١١-٢٣.

(١٦٧) *See*: Mohamed Harbi , Op.Cit, P 160

(١٦٧) إحصائيات المحضر (محضر جلسات المؤتمر) قريبة من هذا الرقم خصوصًا أن محمد حربي اعتمد عليها في تقديراته للواقع العسكري والقوة لمادية للثورة في مرحلتها الأولى.

(١٦٨) انظر تقرير المنطقة الخامسة في المتحف الوطني للمجاهد، المرجع السابق، وأيضًا:

Mohamed Harbi, Op.Cit, P 162.

(١٦٩) يوسف مناصرية، **قوات جيش التحرير الوطني المتمركزة على الحدود الشرقية في نشأة جيش التحرير الوطني**، أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير الوطني، المرجع السابق، ص ١٢١.

(١٧٠) نفسه، ص١٢٤. وانظر: أيضًا بخصوص هذا الموضوع: الغالي الغربي، **جيش التحرير الوطني دراسة في النشأة والتعداد والتكتيك في نشأة جيش التحرير الوطني أعمال الملتقى الدولي**، المرجع السابق، ص ٢٠٣-٢٣٧. وتجدر الإشارة إلى أن الإحصائيات التي قدمها مناصرية حول حجم الإمكانيات البشرية عشية المؤتمر قريبة جدّا من الإحصائيات التي وردت في محاضر جلسات مؤتمر الصومام إذ نجد التعداد الإجمالي ١١٥١١٠ وهو نفس الرقم تقريبا لدى مناصرية ١١٥٠٠٠ رجل حسب التقارير الاستعمارية، انظر: يوسف مناصرية: المرجع السابق، ص ١٢٣.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

التحولات الاجتماعية والاقتصادية في منطقة آيت باعمران على عهد الاستعمار الإسباني (١٩٣٦ - ١٩٦٩)



د. أنوزلا الحسان

دكتوراه التاريخ المعاصر من جامعة الحسن الثاني

مدير مركز عبد الرحمان الركاز للأبحاث والدراسات

العيون – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تعتبر مرحلة الاستعمار الإسباني لبعض المناطق المغربية مفصلية في فهم مرحلة مهمة من تاريخ المغرب المعاصر، باعتبار التأثيرات التي خلفتها على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ومن ثمة، فإن دراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمنطقة "آيت باعمران" على عهد الوجود الإسباني، يجد جدواه في ارتباطه بهذا المجال الجغرافي المتاخم للصحراء والذي اعتبر قضية شائكة في تاريخ المغرب بدأت تفاصيلها المؤثرة منذ نهاية القرن التاسع عشر. إن دراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمنطقة آيت باعمران على عهد الاستعمار الإسباني، تجد أهميتها في محاولة رصد تداعيات التدخل الاستعماري بالمنطقة وتمثلاتها الاقتصادية والاجتماعية خلال حقبة تاريخية محددة، وما أنضاف إليها خلال مستوى زمني واحد، فالتحول في نظرنا كمفهوم يحمل معايير التبدل المستمر في الأشياء، وفي التعامل مع هذه الأشياء، وبمعنى أدق فإن التحولات الاقتصادية والاجتماعية تشكل جانبًا من جوانب الوجود الإسباني بالمنطقة خلال فترة زمنية تمتد من سنة ١٩٣٤ إلى سنة ١٩٦٩. وتسمح دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمنطقة آيت باعمران خلال الحقبة الاستعمارية، بتتبع مظاهر التعايش والتصادم بين الثابت والمتحول في الأحوال والظواهر الاقتصادية والاجتماعية على ضوء السياسة الاستعمارية ونتائجها بالمنطقة، نجحت سياسة الإدارة الإسبانية بمنطقة آيت باعمران في اختراق المجتمع المحلي، وإحداث تحولات عميقة في بنية القبائل الباعمرانية عبر اعتماد مجموعة من المداخل التي مثلت أساس توجهاته وممارساته الاستعمارية، التي وضعت المنطقة أمام تثاقف نسقي سريع وقسري أنتج تحولاً موجهًا ومشوهًا للثقافة المحلية. لقد كان اختيارنا للفترة المدروسة نابع من ضرورة منهجية وموضوعاتية تستمد مشروعيتها من حتمية تتبع ورصد الاختلالات البنيوية التي غيرت من وظائف وأولويات اقتصاد محلي يتصف بالتقليدي، والذي لم يكن معزولاً عن الرؤى الاقتصادية الشاملة التي تحكمت في تصورات الوجود الإسباني بمنطقة آيت باعمران، التي ارتكزت على تقويض التجارة المحلية وتغيير الأطراف المتحكمة فيها، في مقابل فسح المجال لتجارة السلع الأوروبية بشكل واسع، والعمل على فتح الطريق أمام انتشار أنشطة محسوبة على القطاع الاقتصادي ستكشف عن الأهداف القريبة والبعيدة للسياسة الاقتصادية الإسبانية بالمنطقة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ نوفمبر ٢٠٢١

تاريخ قبـول النشـر: ٢٩ نوفمبر ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

آيت باعمران؛ الاستعمار الإسباني؛ التحولات؛ المجتمع؛ الاقتصاد

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.260380

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أنوزلا الحسان. "التحولات الاجتماعية والاقتصادية في منطقة آيت باعمران على عهد الاستعمار الاسباني (١٩٣٦ - ١٩٦٩)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٢٠٦ – ٢٢١.

Corresponding author: anouz.alhassan@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

تعتبر فترة الاستعمار الإسباني لبعض المناطق المغربية أساسية في فهم تاريخ المغرب المعاصر، باعتبار التأثيرات التي خلفتها على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ومن ثَمَّ، فإن موضوع التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمنطقة "آيت باعمران" على عهد الوجود الاسباني، يأخذ أهميته من ارتباطه بهذا المجال الجغرافي الذي شكل قضية شائكة في تاريخ المغرب منذ نهاية القرن التاسع عشر. وتجد دراسة التحولات الاجتماعية والاقتصادية[1] معناها من التبدل من حال إلى آخر وفق سياق ينضبط في قوانينه الداخلية لسيولة زمنية ذات أبعاد لا تنفصل إحداها عن الأخرى؛ بمعنى أنه تفاعل واستمرارية في البنية المعنية بزمن التحول، وقد يعني هذا التحول القفز، أو السقوط من حال إلى حال.

إن دراسة التغييرات الاقتصادية والاجتماعية بمنطقة آيت باعمران على عهد الاستعمار الاسباني؛ هي محاولة لرصد ما لحق بالمجتمع والاقتصادي المحليين خلال مستويين زمنيين هما المحددين لهذه التحولات، والمتمثلين فيما قبل الوجود الاسباني وما بعده، وبالتالي فهذا التحول يحمل كمفهوم معايير التبدل المستمر في الجانب الاجتماعي والاقتصادي، وفي التعامل مع هذه التغيرات خلال مرحلة ١٩٣٤-١٩٦٩م.

لقد كان اختيارنا للفترة المدروسة نابع من ضرورة منهجية وموضوعاتية تستمد مشروعيتها من حتمية تتبع ورصد الاختلالات البنيوية التي غيرت من وظائف وأولويات اقتصاد محلي يتصف بالتقليدي، والذي لم يكن معزولا عن الرؤى الاقتصادية الشاملة التي تحكمت في تصورات الوجود الاسباني بمنطقة آيت باعمران التي ارتكزت على تقويض التجارة المحلية وتغيير الأطراف المتحكمة فيها، في مقابل فسح المجال لتجارة السلع الأوربية بشكل واسع، والعمل على فتح الطريق أمام انتشار أنشطة محسوبة على القطاع الاقتصادي ستكشف عن الأهداف القريبة والبعيدة للسياسة الاقتصادية الاسبانية بالمنطقة.

وبما أن منطقة آيت باعمران شكلت محور اهتمام إدارة الاستعمار الاسباني تبعًا لأهميتها الإستراتيجية على الساحل الأطلسي، فقد كان استقرار المعمرين الإسبان بها كثيفًا، وكانت حدة تأثيرهم وتدخلهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية تزداد بارتفاع عددهم وأنشطتهم ومستوى اختلاطهم واندماجهم مع المجتمع المحلي الذي يتصف ببنيته الاجتماعية والاقتصادية التقليدية التي يسهل من خلالها تلمس تمثلات الوجود الاسباني بالمنطقة، وإيجاد أشكال التثاقف بين الطرفين.

وتمس التحولات الاجتماعية البنى والأنساق الاجتماعية، وتؤثر في العلاقات الاجتماعية ومستوياتها، وقد تؤدي في نهاية المطاف إلى بروز ظواهر اجتماعية دخيلة على المجتمع المحلي تؤثر بطريقة مباشرة في صور التنظيم ومضمون الأدوار الاجتماعية وآليات صناعة النخب. لذلك وجب التساؤل هنا؛ عن كيفية تعامل الاستعمار الاسباني مع البنيات التقليدية للمجتمع المحلي وطرق اختراقها، وكذا البحث في التغييرات التي طرأت على البناء الاجتماعي من حيث الوظائف والقيم والأدوار الاجتماعية خلال فترة محددة من الزمن، عن طريق استقراء سياقات وملابسات هذه التحولات والوقع الذي أحدثته على مستوى الهوية ومنظومة القيم المحلية، وتتبع ارتداداتها على النسيج العمراني للمدينة سواء على مستوى الشكل أو المضمون، والذي يمثل أحد تجليات الاستيطان البشري بالمنطقة، وشكلا من أشكال التعامل مع المجال والتكيف مع إكراهاته وتحدياته.

أولاً: التحديد الجغرافي وأصل تسمية "آيت باعمران"

يتميز مجال آيت باعمران بموقعه الاستراتيجي الذي ينفتح غربا على الساحل الأطلسي، ويحده من الشمال الشرقي قبيلة "آيت أبريم"، ومن الشرق "قبائل الأخصاص"، أما جنوبا فنجد مجال وادي نون حيث تنتشر "قبائل تكنة". وعلى العموم فإن "فانسون مونطاي" يحد هذا المجال في الجنوب الغربي للأطلس الصغير الغربي، حيث يمتد على مساحة تقارب ١٥٠ كلم[2] بين خط العرض °9 و°50 و°10 و°30 وبين خطي الطول °20 و°29 و°35[3].

ويَعتبر ديوان المنصور السعدي، المؤرخ بنهاية القرن العاشر الهجري، أقدم وثيقة ورد فيها اسم "آيت باعمران" وفق الصيغة التالية "بعمرانة"، وترد إشارة أخرى في وثيقة اسبانية سابقة للوثيقة السعدية تعود لسنة ١٤٩٩م، تُعرف المجال بـ "أولاد عمار"[4]. ويرتبط ورود مفردة "آيت باعمران" في الوثائق الرسمية بمشاكل انتظام هذه المجموعات القبلية في الخدمة المخزنية، وبطبيعة العلاقات السائدة بين القيادات المجاورة، وهو ما تحيل عليه ظهائر التعيينات التي لحقت القواد الباعمرانيين خلال الفترة العلوية، والتي يمكن بواسطتها تحديد المجال الباعمراني.

إن آيت باعمران الواردة في ديوان المنصور السعدي، تمثل رمزا لاتحاد مجموعة بشرية وفدت عناصرها من جهات مختلفة، والتي تبدو جلية من خلال أسماء الأسر والرواية الشفهية المحلية، علاوة على الروابط التي ظلت تربطها بالقبائل التي انطلقت منها، حيث نميز في هذه الأسر الجبلية الوافدة من مواطن تقع بالأطلس الصغير، "كآيت صْوَابْ" و"إِدَاوْ سَمْلَالْ" والصحراوية "كأولاد أدليم" المشكلين لمعظم أسر قبيلة "اصْبويَا"، أما قبيلة "سْماهْرَة" فقد كان أفرادها قبل انتمائهم لآيت باعمران في عداد بطن "شْتوكَة" المعدودة من جملة فروع قبيلة "أزرگيين" الصحراوية[٤]. علاوة على بعض الأسر التي هاجرت إلى المنطقة من شمال المغرب.

وتأسيسًا على ذلك، يمكن اعتبار ظهور اتحاد "آيت باعمران" نتيجة للتحالفات التي تمت بين عرب معقل بعد وصولهم لجنوب المغرب، وبين قبائل سوس التي كانت منضوية تحت اسم "كَزولة أو "زناكَة" أو "لمطة"، لاسيما أن نسق التحالف الذي كان سائدا آنذاك عند القبائل المعقلي يتميز بسيادة اسم الوحدة الأكثر هيمنة داخل الحلف على باقي وحداته. وقد يبدو هذا الطرح صحيحا حين نتفق على أن هذه التسمية من مخلفات الأحلاف التي رافق تشكيلها اندماج عرب معقل في القبائل التي وجودها بسوس، شأنها شأن بقية الأسماء المعقلية مثل "دو بلال" و"مجاط" و"أولاد جرار"[٥].

سرعان ما غدت تسمية آيت باعمران التي كانت في الأصل تسمية لحلف سياسي، تحمل دلالة جغرافية باعتبارها رمزا لرقعة ترابية ينسحب اسمها على قاطنيها المتجددين بحكم اعتمادها وحدة إدارية من طرف المخزن الذي درج على استعمال هذه التسمية منذ العهد السعدي وصولا إلى الفترة العلوية، ومن ثم، فإن حدود هذا المجال تتحدد بنفوذ قبائله وامتداد مجالها أو تقلصه، فالخاصية العامة التي تميز الحدود هي كونها بشرية، حيث تخضع حركيتها لطبيعة الوحدات الاجتماعية المشكلة للقيادة الواحدة، أو لطبيعة العلاقة القائمة بين القيادات المتجاورة. ويكفي في هذا الباب استحضار قبيلة "اصبويا" المعدودة من جملة قبائل آيت باعمران، والتي ساهمت في توسيع مجال آيت باعمران جنوبا حتى التماس مع حدود مجال وادي نون بعد أن عوضت قبيلة "دو بلال"[٦] في هذه المنطقة الفاصلة.

لقد ظل اسم آيت باعمران منذ العهد السعدي، يوظف من قبل الإخباريين ومدوني الوثائق المخزنية كرمز لمجموعة بشرية أقرب إلى "كنفدرالية قبائل" تعتقد بانتمائها إلى جد أسطوري مشترك يدعى "يحيى"[٧]، وتستقر في رقعة ترابية تمتد من جنوب منطقة الساحل جنوب تيزنيت حتى وادي نون على شريط ساحلي ضيق. وتتكون حسب مدوني الأوقاف العرفية المنظمة لعلاقات الأفراد والجماعات المحلية المنتشرة على تراب آيت باعمران، من: "آيت الخمس"، "آيت عبد الله"، "آيت اعْزا"، "اصْبويا"، "آيت اخْلَف"، "آيت النصف" (النّصْ)[٨].

ثانيًا: وصولاً إلى فرض السيطرة على تراب آيت باعمران

يُحدد "طوماسْ كَارسيا فِيغِراسْ" (*T. G. Figueras*) معالم العالم الجديد بعد الحرب العالمية الثانية بالقول: "سيدخل مرحلة جديدة تتطلب السلم والنظام، وأنه ستحكم العالم المصالح الاقتصادية، وستكون إفريقيا مصدرا للمواد الأولية، بينما ستصدر القارة العجوز الحضارة"[٩]. وهنا لا يختلف رأي "فيغراس" عن أطروحات المنظرين الكولونياليين الأوربيين بشكل عام، والذين تميزت أرائهم بنظرة استعلائية واضحة توضح رغبتهم في الدفاع عن المصالح الاقتصادية لبلدانهم، والسعي إلى نشر التنصير في المستعمرات الأوربية جنوب المتوسط.

لم تحل التضاريس المرتفعة التي تكسر رتابتها بعض الأودية، -التي تعد في نفس الوقت ممرات طبيعية- دون جعل منطقة آيت باعمران على امتداد الساحل بين مجال وادي نون ومجال سوس، منطقة عبور وربط ذات أهمية بالغة بالنسبة للقوافل التجارية التي كانت تصل بين أسواق آكادير وميناء الصويرة شمالا، ونظيراتها بوادي نون والسودان جنوبا. فقد مثلت نقطة وصل بين مناطق جبلية وأخرى سهلية، ومناطق صحراوية كان إنتاجها يرتكز على تربية الماشية وترويج السلع والبضائع القادمة من بلاد السودان، في مقابل استيراد منتجات أوربية مختلفة وتسهيل مرورها نحو مفازات إفريقيا جنوب الصحراء.

ولعل هذا الموقع الفاصل بين الصحراء وسوس، هو الذي جعل الإسبان يسارعون إلى احتلال كامل التراب الباعمراني، على الرغم من يقينهم من شح موارده الطبيعية، وهي النتيجة التي خلصت إليها اللجنة العلمية التي كلفتها الحكومة الاسبانية بدراسة المعطيات والإمكانات الاقتصادية لمستقبل إيفني[١٠].

ويبدو من السهل جدا تتبع أثار الاهتمام الاسباني بمجال آيت باعمران حين نعود إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ونستحضر أهم اللحظات التاريخية التي ساهمت في صناعة أحداث وحيثيات الإشكال التاريخي الذي طبع العلاقات المغربية-الاسبانية منذ النصف الثاني من القرن

العشرين، والمقصود هنا قضية "سانتاكروز ديمار بيكينيا" (Santa Cruz de Mar Pequena).

لقد شكلت هذه القضية حجر الزاوية في التحركات الاسبانية من أجل السيطرة على بعض الثغور على الساحل الأطلسي، خاصة على امتداد ساحل آيت باعمران. واعتبارا لموقفه الثابت من وجود موقع "سانتاكروز" جنوب وادي نون؛ دخل المخزن العلوي في مفاوضات عسيرة سعيا منه للوصول إلى تسوية مرضية مع إسبانيا، وكان القصد من ذلك كله ربح الوقت ومحاولة تأخير أي حل يمكن أن تسفر عنه تلك المفاوضات، وذلك بالاستناد إلى الالتباس الواضح في موقف إسبانيا من تحديد موضع "سانتا كروز" التاريخية التي تحولت لدى الأوساط الرسمية الإسبانية إلى قضية وطنية.

وأمام الرفض الفرنسي لأي تواجد إسباني على سواحل منطقة آيت باعمران، دخلت الدولتان في مفاوضات من أجل تحديد مصير المنطقة بشكل عام. ففرنسا كانت ترغب في إقصاء كل من يسعى إلى مزاحمتها في السيطرة على منطقة غرب الأطلس الصغير، خاصة بعد تمركزها بمدينة تيزنيت منذ وقت مبكر، حيث قامت بمحاولتين للسيطرة على تراب آيت باعمران عبر حملتين عسكريتين باءت كلاهما بالفشل[١١]. ومن أجل صد المشروع الفرنسي؛ سارع الاسبان إلى تكثيف اتصالاتهم السلمية مع شيوخ القبائل الباعمرانية لإيجاد صيغة للتفاهم على تسليم المنطقة لهم، بعد أن باءت محاولاتهم المتكررة لإنزال قواتهم العسكرية على شواطئ المنطقة، وقد أسفرت هذه الاتصالات التي قادها الجنرال "أوزفالدو كباث" (*Oswaldo Fernando de la Caridad Capaz Montes*)، عن إقناع شيوخ قبائل آيت باعمران سنة ١٩٣٤ بالقبول بالوجود الاسباني على منطقتهم تحت ذريعة النهوض بها وإلحاقها بركب التحضر والتقدم، في مقابل احترام تعاليم الشريعة الإسلامية والتقاليد الاجتماعية السائدة لدى القبائل، وعدم التدخل في شؤونهم الداخلية، والدفاع عن المنطقة أمام الأخطار الخارجية[١٢].

وقد استندت هذه الخطة على أطروحة المستكشف الاسباني "بونللي" (*Bonelli*) المسماة "نقطة الزيت"، والتي ترتكز حسب قوله على: "تعميق تأثيرنا في المنطقة تدريجيا دون أن تورطنا في مواجهات عسكرية أو غيرها مع السلطات المغربية، أو تجعلنا نخل بالمواثيق الدولي التي التزمنا بها"[١٣].

هكذا، لم تجد القبائل الباعمرانية بدّا من القبول بالاسبان على ترابها، لتدخل المنطقة مرحلة جديدة حدّد معالمها الجنرال "كباث" الذي وضع أسس التنظيم الإداري والمدني والعسكري والاقتصادي الجديد لكامل مجال آيت باعمران. ويبدو أن هذه الترتيبات ستساهم في رسم ملامح التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي لحقت المجال الباعمراني بشكل عام، وحاضرة قبائله مدينة سيدي إيفني بشكل خاص، والتي يمكن عبرها تلمس هذه التحولات المراد رصدها وتحليلها.

ثالثًا: التحولات الاجتماعية بمجال آيت باعمران

١/٣-إعادة ترتيب النظام الاجتماعي

سعت الإدارة الاسبانية بآيت باعمران إلى إيجاد القنوات الكفيلة باختراق النظام الاجتماعي المحلي بآيت باعمران، حيث عمدت إلى تحديث مؤسسة "الإمْغارْنْ" لضمان مباركتها لسياستها بالمنطقة، وذلك عبر ربطها بوسائل اتصال حديثة تساعدها في تأدية الوظائف الجديدة المنوطة بشيوخها، والتي لا تبعد كثيرا عن الإخبار والإعلام بأوضاع المنطقة ومستجدات أهلها. وفي سياق ذلك يندرج ربط مقر "أمغار سيدي الخمسي" بخط الهاتف مع مقر القيادة الإدارية العسكرية الاسبانية "بامَرْدوغْ"، "وبعد اعلم أنه ورد علينا مهندسين وأردناك أن توجه لنا أناس من إخوانك يقدمون معه ليجعل عمود أسلاك التلفون إلى أن يصل إلى دارك لكي يسهل علينا الكلام معك في كل وقت وحين"[١٤]. كما قام الجنرال "كباث" بتحديد أجور قارة يستفيد منها "الإمغارن" بلغت ٤٠٠ بسيطة في الشهر، علاوة على منحهم الحق في الحصول على الربع من كل غرامة مفروضة[١٥].

واستمرت التدخلات الاسبانية في مؤسسة "الإمغارن" من أجل التحكم في سيرها وتدبيرها، وذلك عبر إقالة من شذّ منهم عن سياسة الإسبان، ثم تعيين أطر وعناصر جديدة تعمل تحت مسؤولية مكتب الشؤون الأهلية، وهو الأمر الذي أسهم في خلق نخبة اجتماعية جديدة تنهل من الامتيازات التي خصصتها لها الإدارة الاسبانية، وذلك بعيدا عن تمثلات المؤسسات الاجتماعية التقليدية. وعلى هامش ذلك، قامت هذه الإدارة بتعيين أمغار جديد على قبيلة "آيت اخلف" الذي اعتبرته رجل سياستها الأول في المنطقة.

إن تحديث مؤسسة "الإمغارن" وتصعيد شيوخ جدد تبعا للمنظور الاستعماري، كان الهدف منه الحصول على مخاطب محدد وفق مقاييس معينة تضعها الحكومة المحلية التي تسعى

إلى احتواء القبائل عبر خلق سلط استبدادية تستفيد من عطاءات الإدارة الاسبانية وتنتعش على هامش سياساتها، وهو ما شجع هؤلاء الشيوخ على التفرد بالتسيير الداخلي لقبائلهم، والإستقواء بمكتب الشؤون الأهلية الاسباني من أجل الحسم في بعض القرارات المهمة كمسألة الرفع والحد من عدد أعضاء مجلس "الإنفلاس". وإجمالا فإن هذه التطورات تؤشر لبداية أفول هذه المؤسسة (آيت الآربعين) في مقابل سطوع نجم مؤسسة "الإمغارن" التي أصبح شيوخها يستمدون سلطتهم من مكاتب الشؤون الأهلية بكل من "تِيغْزَا" و"اصْبُويَا" و"تلوين" والإدارة الإستعمارية بمدينة إيفني.

ويعزز تعميق الإدارة الاسبانية علاقتها مع الشيوخ والأعيان؛ سعيها الحثيث إلى تسريع الانتقال من مرحلة التدبير السياسي إلى التدبير الاجتماعي، والاستفادة من حالة الإجماع التي يتمتع بها هؤلاء ليس فقط لدى قبائلهم، وإنما لدى قبائل أخرى بتراب آيت باعمران، حيث مكن استثمر نفوذ الشيوخ من أجل توفير الجنود والسلاح والاستعداد لتوسيع مناطق النفوذ الاسباني على حساب نظيره الفرنسي.

لقد ساد القضاء العرفي في مجال "انفلاس"[١٦]، حيث تخصصت هذه الهيئة في الفصل في النزاعات المتباينة في خطورتها على أمن الجماعة، خاصة تلك التي تهدد استمرارية وحدة وكيان القبيلة. فبقدر ما كان الفقيه يتمتع بحرية الاجتهاد في بناء أحكامه، بقدر ما كان دور "انفلاس" يتحدد في تنفيذ بنود الوفق العرفي للقبيلة، وهو ما يؤكد أن سلطة "آيت الأربعين" كانت تنفيذية أكثر منها قضائية[١٧].

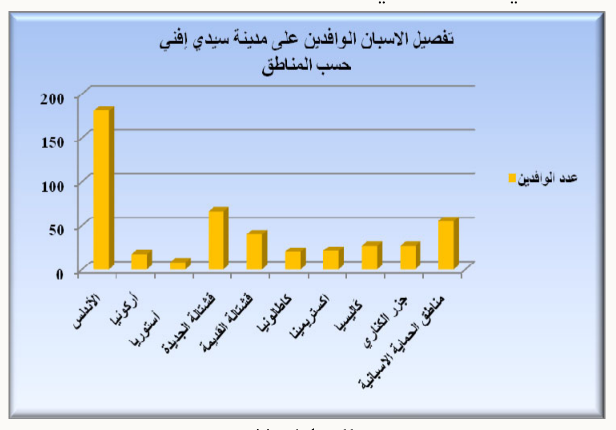
إن قبائل آيت باعمران درجت على الاعتماد على فقهائها في فض النزاعات والحسم بين المتخاصمين، على اعتبار أن الحكم في القضايا الشرعية يستند إلى المصادر والنصوص الشرعية التي تعتبر شرطًا أساسيًا لبناء الأحكام، والتي تمر عبر من يتصدون للإفتاء في النوازل من الفقهاء المنبثين في مختلف قبائل آيت باعمران أو القبائل التي تجاور ترابهم، ونذكر من هؤلاء الفقهاء: الفقيه أحمد بن الحسن الباعمراني الببكري الخلفي، والفقيه الحسن بن الحاج أحمد الصنهاجي الصبوي[١٨]. ولم يكن في استقلال المجموعات البشرية داخل القبيلة الواحدة بتسيير شؤونها الخاصة، عرقلة لممارسة السلطة القضائية العرفية، فوجود تنظيم منسجم مع خصوصيات المجموعات القبلية؛ كان يشكل ضمانة لتسوية النزاعات المختلفة والمتفاوتة الخطورة بكيفية سلمية وفق قاعدة تدبير العنف المحلي[١٩].

وفي ظل ذلك، عمدت الإدارة الاسبانية منذ اللحظة الأولى لدخولها إلى آيت باعمران على الحفاظ على استقلالية القضاء العرفي، بل الأكثر من ذلك الموافقة على شرط الأعيان بضرورة الاحتكام إلى الشرع والعرف. وأمام تكاثر عدد القضايا والنوازل المعروضة على القضاء الشرعي، والتي لم يعد القضاء العرفي قادرا على توفير أجوبة لها، بادرت السلطات الاسبانية إلى تقنين خطة القضاء عبر تعيين قاضي قضاة يستمد سلطته من التعيين الاسباني له لا من سلطة العرف والجماعة، والذي كان يخضع لتكوين علمي في أبرز المراكز العلمية المعروفة بالمغرب[٢٠]، وهو ما يشير إلى بداية استقلاليته التامة عن مؤسسة "الأمغارن" وباقي الهيئات العرفية المنبثقة عن القبيلة. وقد خولت الإدارة الاسبانية لهذا القاضي تعيين قضاة يمثلونها في باقي مناطق آيت باعمران، إضافة إلى تعيين مساعديهم الذين يمثلون كل قبيلة من قبائل آيت باعمران.

٣/٢-المعطى البشري بين التطور العددي والتحول في التركيبة

(٣/٢) ١-التركيبة البشرية وتطورها

تميزت التركيبة السكانية لمجتمع مدينة إيفني بالتنوع الإثني، باعتبارها مركزا للاستقطاب والتجمع البشري لأعراق مختلفة شجعتهم السلطات الاسبانية على الهجرة إلى المدينة والاستقرار بها، وذلك بعد توفير الظروف المناسبة لذلك. وفي ما يلي تفصيل لأصول الإسبان الوافدين على مدينة إيفني نوردها في الشكل التالي:

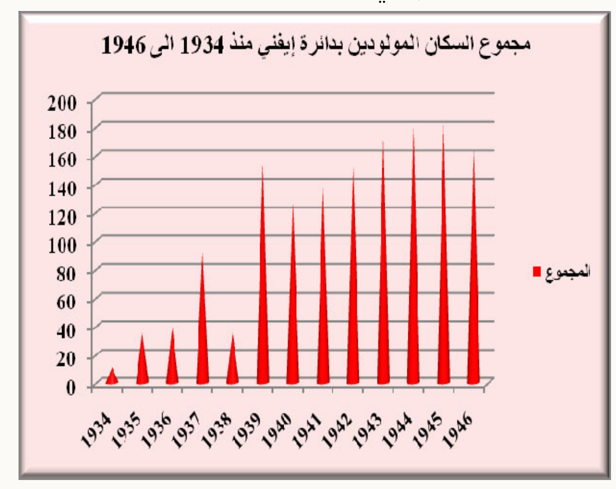


الشكل (١)

أصول الوافدين على مدينة إيفني خلال فترة الاستعمار الاسباني للمنطقة (بتصرف)[٢١]

لقد عملت الحكومة الاسبانية المركزية إلى تشجيع الإسبان على الاستقرار في مستعمراتها على اختلاف توزعها، وذلك من أجل خلخلة البنية الاجتماعية لهذه المستعمرات، وخلق نوع من التوازن بين الساكنة المحلية والمعمرين الإسبان، ولعل ذلك ما يفسر الارتفاع التدريجي لعدد المهاجرين الإسبان بمدينة إيفني الناطقين بمختلف اللهجات الإسبانية (الباسكية والكطلانية والأستورية...)، والحاملين لثقافات متعددة ستترك لا محالة أثرها وتأثيرها على المستوى الثقافي والاجتماعي بمدينة إيفني التي تتناقح بها الظواهر الاجتماعية وتنصهر فيها العادات التقاليد.

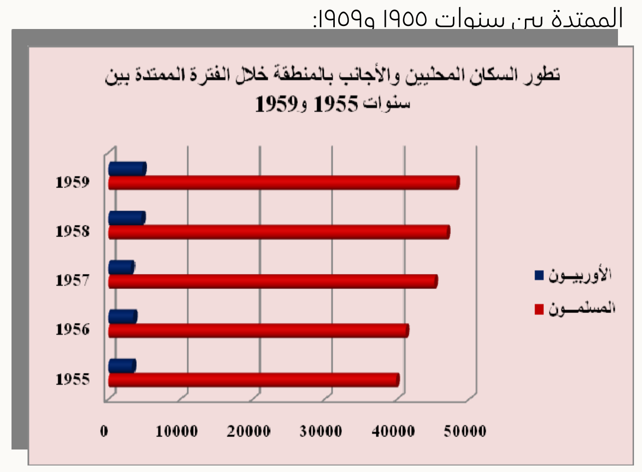
وقد انعكس ارتفاع أعداد الإسبان الوافدين على مدينة إيفني، وتحسن الأوضاع الصحية على مستوى تطور الولادات بالمنطقة، حيث سجلت نسبها ارتفاعا ملحوظا في الفترة الممتدة ما بين ١٩٣٤ و١٩٤٦، بعد أن كانت أعداد الولادات تتأثر بشكل كبير بالأوبئة والأمراض التي كانت تنتشر في المنطقة[٢٢]. وفي ما يلي نورد بعض الأرقام حول تطور الولادات بين سنتي ١٩٣٤ و١٩٤٦ بمدينة إيفني:



الشكل (٢)

تطور الولادات بدائرة إيفني منذ ١٩٣٤ إلى ١٩٤٦ (بتصرف)[٢٣]

لقد حدد إحصاء ١٩٥٠ العدد الإجمالي لسكان المنطقة ب ٣٨,٢٩٥ نسمة بينهم ٣٦,٠٢٨ مسلم و٢٢٦٧ أوربي، وذلك تبعا للإحصائيات التي تشمل مدينة إيفني فقط، اعتبارا لقوة جاذبيتها الاقتصادية والاجتماعية، واحتضانها لأغلب مؤسسات التسيير والتدبير السياسي والاقتصادي الاسباني بالمنطقة. وخلال نفس الفترة ستعرف نسب السكان المسلمين نوعا من التوازن بين الذكور والإناث (١٧٩٩٦ و١٨٠٣٢ تواليا)، في حين تفاوتت هذه الأرقام بين الأوربيين، حيث قدرت أعداد الذكور ب ١٤٩٧ فردا، بينما بلغ عدد الإناث ٧٧٠[٢٤]. وفيما يلي نورد مبيانا يوضح تطور السكان المحليين والأجانب بالمنطقة خلال الفترة الممتدة بين سنوات ١٩٥٥ و١٩٥٩:



الشكل (٣)

تطور السكان المحليين والأجانب بالمنطقة بين سنتي ١٩٥٥ و١٩٥٩ (بتصرف)[٢٥]

وتشير هذه الإحصائيات أن نسبة النمو الديموغرافي المسجل في صفوف السكان المحليين هو *3.8%* بزيادة قدرها ١٢٢٠٨ نسمة خلال فترة الستينات من القرن العشرين، بينما بلغت نسبة نمو الأوربيين إلى *4.2%*، ويمكن تفسير هذا النمو بتحسن وسائل العلاج وتوفر الخدمات الصحية بالمجال. وتبعا لهذه الأرقام فقد انقسم هؤلاء سنة ١٩٦٨حسب طبيعة عملهم إلى ٧٦٧ جندي، و١٠١ مسؤول عسكري، و١٠٨ مسؤول مدني، و١٧٨ يمارسون أنشطة مختلفة.

(٢/٣) ٢-الدينامية البشرية داخل المجال

تميزت مدينة إيفني بقوة استقطابها البشري الذي نجد تمثلاته على مستوى توسع الأحياء السكانية بالمدينة التي كانت موزعة لثلاث أحياء كبرى، فإلى جانب الحي الأوربي يوجد حي الأمازيغ وحي المغاربة، ويكشف هذا التقسيم عن وعي الإدارة الإسبانية بضرورة ضبط الوافدين والمهاجرين على مدينة إيفني من البادية عبر إسكانهم في أحياء خاصة، والعمل على إخضاعهم لرقابة أمنية تقوم بها مكاتب استعلاماتها في كل من "تيغزة" و"تلوين" و"إيفني".

لقد حددت حركية السكان بين البادية والمدينة مسألة التفاوت بين الطرفين المبنية على تقنين ومراقبة الغرباء وضبط فرص الشغل والزيارات العائلية، فدفعت سكان البادية إلى تفضيل حياة البادية وخشونتها على حياة المدينة وتدابيرها

الأمنية، إلا أن ذلك لم يحل دون وجود مساهمة أهل البادية في تنوع التركيبة الاجتماعية لمدينة إيفني.

وعلى الرغم من أن المهاجرين الاسبان استمروا في ممارسة نفس التأثير، إلا أن طبيعة المجال الباعمراني لم تسعف معمريهم في تقمص دور الإقطاعي الذي يستولي على الأراضي الفلاحية ويستغلها لصالحه، كما لم تسمح الهواجس الأمنية والعسكرية بتوسع المدينة على حساب البادية، حيث ظل التعمير بجميع أشكاله في مجال آيت باعمران رهين المراكز العسكرية والخطط الأمنية، وهو ما تعكسه شبكة الطرقات التي ظلت مسخرة في غالبيتها للأغراض العسكرية.

ودفع هذا الوضع المتسم بضعف تمثلات السيادة الاسبانية ببادية آيت باعمران، بمنظري السياسة الاستعمارية الاسبانية إلى التفكير في تكثيف الحضور الاسباني بالبادية الباعمرانية على مستوى اللغة والثقافة[٢٦]. وبما أن علاقة المهاجر البدوي بمدينة إيفني وثيقة ومصيرية، فإن ارتباطه بهذا المحيط الحضري الذي يعيش ويمارس فيه أنشطته أو عمله أصبح هو المنتج الحقيقي للأسماء التي أصبح يحملها أو يتلقب بها، وقد يفتخر ويتباهى بها رغم أنها إسبانية المنشأ، ك"التْشُورُو" و"السِينْتارْيُو" و"فَلانْخي" و"الرْوينَة" و"الرَّانْشِيرُو" و"الرُوخُو"(...)[٢٧]. كما أصبح الانتقال إلى المدينة فرصة مناسبة للاحتكاك بالحياة الحضرية، وتقمص شخصية المدينة عبر ارتداء الزِّي الأوربي العصري، وفرصة للتخلص من اللباس التقليدي الباعمراني.

لقد عرفت مدينة إيفني نشاطا ملحوظا على مستوى السكنى والتعمير ارتباطا بالطفرة الاقتصادية التي عرفتها اسبانيا خلال فترة الستينيات، فأصبحت الأسر الاسبانية تمتلك شققا خاصة بها بالمدينة، كما تم تشييد بعض الأحياء السكنية الجديدة التي حاولت من خلالها الإدارة الاسبانية الفصل بين المعمرين والسكان المحليين في السكن، إلا أن التقارب الاجتماعي والطبقي بين هذه المجموعات البشرية ظل قائما، بل شكل نموذجا للتعايش والتثاقف بين الطرفين.

رابعًا: آليات ومضامين التحول الاجتماعي

فرضت عملية تفكيك المسألة الاجتماعية بمنطقة آيت باعمران على عهد الاستعمار الاسباني؛ التركيز على الجوانب التي تمثل آليات وميادين التدخل الإسباني، عبر الوقوف عند المجالات التي تعتبرها الإدارة المحلية قنوات ضرورية لتمرير مضامين مشروعها، ومجالات لتطبيق الشق النظري منه. والمقصود هنا بالضبط السياسة التعليمية والصحية، وكل السياسات المصاحبة لها، والتي تتخذ من الفضاء الاجتماعي اختصاصا لها (التعمير).

واستندت الرؤيا الاستعمارية الإسبانية في هذا الباب، على استبدال السيطرة العسكرية باستعمار ثقافي يركز بالخصوص على تمجيد الحضارة الإسبانية سواء اللغة أو التراث، مع تعميق الخصوصية المحلية للسكان المحليين لتشريع مهمة التنمية الإيجابية وتحقيق التقدم الاجتماعي المنشود، والذي تم تلخيصه في إلزامية تحقيق تنمية محلية تهم الخطوط الملاحية والمنتوجات الزراعية وتأسيس مدارس عليا وإقامة مستشفيات ومستوصفات[٢٨].

٤/١-مظاهر الانتقال من تعليم تقليدي إلى نظامي

حظي هذا الميدان باهتمام كبير من طرف الإدارة الإسبانية بالمنطقة تبعا لمقررات المؤتمر الثاني للأفريقانيين (١٩٠٨)، والذي دعا إلى ضرورة مقاومة تأثير المدارس الفرنسية عبر خلق مجموعة من المدارس على امتداد مناطق نفوذ الاستعمار الإسباني، وإدماج السكان المحليين في تعليم نظامي يتماهى مع التأثير الإيديولوجي المنشود[٢٩].

لقد كان التعليم بمنطقة آيت باعمران -كباقي مناطق المغرب- يرتكز على وجود مدارس وكتاتيب قرآنية (الجامع)[٣٠] تنتشر على امتداد المنطقة. وتعتمد هذه المؤسسات التعليمية العتيقة نظاما تقليديا في التدريس والتموين، إذ كان يتولى التدريس فيها فقهاء محليون ووافدون[٣١] تلقوا تكوينا علميا تقليديا في مجموعة من المدارس العلمية بمنطقة سوس المجاورة.

ودرجت هذه المدارس على نمط تدبير تقليدي تُشارط فيه القبيلة الفقيه على أجرة معلومة من محصولهم (الحبوب والزيت أو السمن أو هما معًا)، وقد تمنح له من مخزن المدرسة شأنه في ذلك شأن مؤونة طلبته. وفي كثير من الأحيان كان نفس المدرس يشغل منصب مفتي القبيلة وقاضيها في آن واحد[٣٢]، إذ يُلجأ إليه في فض النزاعات اعتبارا لكون الحُكم في القضايا الشرعية لا يتم استنباطه اعتمادًا على العقل وحده، وإنما بالاستناد إلى المصادر الشرعية التي تعد شرطا أساسيا لتأسيس حكم يحظى بالصبغة الشرعية[٣٣].

وخلال التواجد الاسباني بالمنطقة، تناسلت الكتاتيب القرآنية التي أقامها الرحل من الصحراء الذين كانوا يعتمدون الطريقة الحسانية في التعليم خاصة على مستوى نطق الحروف، حيث كان من أشهرهم "الفقيه عبد العزيز" عضو المجلس العلمي للشرع الذي كانت خيمته الكبيرة تتسع لقرابة ١٥ إلى ٢٠

تلميذ. وقد ارتفع عدد الكتاتيب بمدينة إيفني نهاية الثلاثين ومطلع الخمسينات إلى عشرة كتاتيب، نذكر منها: كُتّاب "السي محمد الأخصاصي" وأخيه "السي المداني" وكُتّاب "السي موسى أوعبار" و"السي المحفوظ"، ثم كُتّاب "أهل الشيخ ماء العينين"، وتعددت الكتاتيب نهاية الستينات حين تقاعد الكثير من الجنود ليتفرغوا لتعليم الأطفال المحليين، ونذكر منهم "السي الحسين الحيحي" الذي سبق له أن شارك في الحرب الأهلية الإسبانية[٣٤].

ورغم انشغالها باجتثاث الشيوعيين من النظام التعليمي عقب نجاح الانقلاب الفرنكوي (نسبة إلى فرانكو)، فإن الإدارة الإسبانية سعت إلى إقامة تعليم دراسي ومهني وديني عصري متكامل يبتدئ من سن الروض إلى سن ١٢ سنة[٣٥]، أما التعليم المهني فيمتد من سنة ١٢ إلى سن ١٥ سنة[٣٦]، ويشمل تخصصات حرفية ومهنية كالحدادة والميكانيكا والنجارة وتسفير الكتب وغيرها من التخصصات.

لقد دشنت الإدارة الاسبانية بداية التعليم المؤسساتي بمجال آيت باعمران ببناء "المدرسة الموحدة" (*La Escuela Unitaria*) سنة ١٩٣٩، والتي ضمت تلاميذ محليين إلى جانب نظرائهم الأوربيين الذين لم يكن يتعدى عددهم ٧٠ تلميذا مقابل ٥٦ تلميذة[٣٧]. بعد ذلك تم تأسيس مدرسة تعليمية ثانية خاصة بالبنين سميت "المدرسة التدريجية للأطفال" *(La Escuela Graduada de Ninos)*، قبل أن تتخذ اسما آخر هو "مدرسة طليطلة" *(La Escuela de Alcazar de Toledo)*، وذلك بعد أن تمت توسعتها واستثناء التلاميذ المحليين من ولوجها. أما البنات فكُنّ يدرسن في "مدرسة الجنرال كباث". ونظرا للإقبال الكبير على التعليم النظامي العصري -خاصة خلال ستينات القرن ١٩- سيعرف الحي العسكري تأسيس "مدرسة الجنرال توتور" التي ضمت حوالي ٤٠ تلميذا[٣٨].

لقد سعت الإدارة الاسبانية إلى إكساب شباب المنطقة مهارات حرفية ومهنية متعددة التخصصات في إطار محاولاتها لإدماج هؤلاء في سياستها الأمنية والاقتصادية بالمنطقة، وفي سبيل ذلك أسست "مدرسة الفنون والصناعة" *(la Escuela de Artes y Oficios)* التي ضمت تخصصات متعددة لعل أبرزها: النجارة والميكانيكا وتسفير الكتب والرسم والحكاية وصناعة الزرابي والسباكة والرقانة وصياغة الحلي، كما عرفت هذه المؤسسة المهنية تسجيل بعض الجنود في تخصصات كانت تحتاجها الإدارة الاستعمارية، في حين شملت التخصصات المهنية الخاصة بالنساء صناعة الزرابي والألبسة الصوفية والخياطة وغيرها[٣٩].

ونتج عن هذه الدينامية التعليمية ابتعاد جزء كبير من أبناء المنطقة عن حلقات الدرس التقليدية والكتاتيب القرآنية، خاصة بمدينة إيفني التي كانت معنية بالتعليم النظامي أكثر من غيرها، وهو ما خلق شبابا محليا عارفا باللغة الاسبانية متداولا لها في محادثاته ولقاءاته، ومتابعا للقصص والمجلات الأجنبية المصورة. كما ساهمت المقاهي والحانات والحدائق ونادي الرياضة في خلق نوع من الاختلاط بين المعمرين الإسبان ونظرائهم من نخبة السكان المحليين، وقد شكل اعتياد هؤلاء على ارتياد هذه الفضاءات شكلاً من أشكال المثاقفة التي تبرز تمثلاتها في الاجتهاد في التقرب للإسبان وتبادل الحديث معهم، وأيضا في التشبه بلباسهم ومظهرهم وتعلم عاداتهم في الأكل والشرب.

لقد استحوذت القصص المصورة على اهتمام الأطفال، باعتبار ما تحمله من تسلية، ونظرا لطابعها الفني وأسلوبها البسيط المعتمد على التشويق والرسومات التي تملك قوة كبيرة في التأثير على المتخيل. ويهدف نشر هذه القصص والمجلات المصورة إلى بث روح الاستعلاء والتفوق الغربي، وبث الشك في معتقدات الإنسان المحلي، الأمر الذي خلق حسًا جديدًا وبديلاً عن الثقافة المحلية التي تمثلها الحكايات والروايات الشعبية المأثورة عن الأجداد.كما انتشرت بين ناشئة المدينة مجموعة من الألعاب الدخيلة، والتي تختلف شكلاً ومضمونًا عن تلك التي اعتادوا عليها، وهو ما ترك آثاره على مستوى الذاكرة والثقافة.

٢/٤-تحولات على هامش تحديث القطاع الصحي

احتل قطاع الصحة مكانة خاصة في سياسة الإدارة الاسبانية بآيت باعمران، نظرًا لأهميته في استتباب الأمن وتحقيق استمرارية طويلة للاسبان بالمنطقة. وفي إطار هذه السياسة مثّل الطبيب الإسباني عنصرا مهما في نقل الإيديولوجية التمدينية باعتباره وجها أكثر تأثيرا وقبولا من طرف رجال الدين المحليين[٤٠]، لذلك صبّت الجهود الرسمية على تحديث هذا القطاع وتطوير بنيته وتحسين جودته. ولم تكن المنطقة تتوفر سنة ١٩٣٦ إلا على مستشفى واحد مختلط مدني-عسكري، ومستوصف للمسلمين بمدينة إيفني، وآخر "بتالوين" خاص بالبدو والرحل، قبل أن يتم العمل على تحسين وضعية المستشفى الرئيسي وتجهيزه، وإضافة مستوصف بمنطقة "تكّراكّرا" وآخر ب"صبويا" كان يهتم بتقديم فحوصات طبية بمساعدة بعض الممرضين المحليين. كما تم إطلاق حملات للتلقيح ضد بعض الأمراض الوبائية كالملاريا والحمى،

والتي اعتمدت على دراسات علمية دقيقة سعت إلى التعرف على الأجناس البشرية وخصائصها وطبيعة المناخ والبيئة بالمنطقة(٤١).

لقد ساهمت هذه التطورات في تحسن الأوضاع الصحية بالمنطقة، وهو الأمر الذي لقي استحسانا من قبل الساكنة، وجعل البعض منهم يقبل على امتهان التمريض، فمنهم من نال شواهد مكنته من العمل في المستشفى المحلي، خاصة بقسم الجراحة. ولم تشذْ النساء عن هذا الركب، حيث حصلت أول امرأة باعمرانية على شهادة في التطبيب من جامعة "قادس"(٤٢).

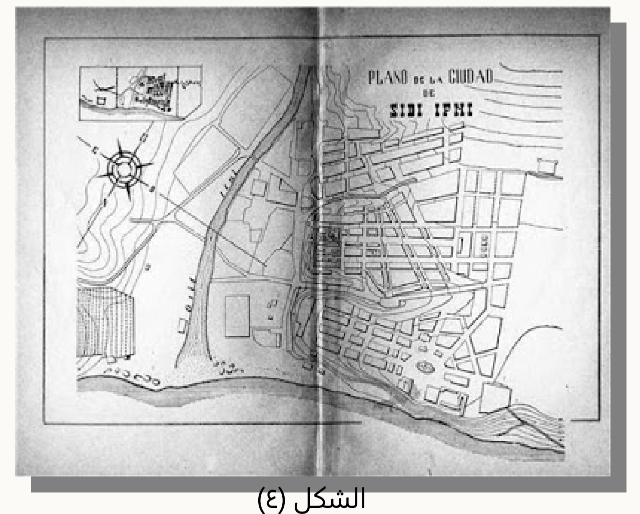
هكذا، تحول العمل في القطاع الصحي إلى درجة من درجات الرقي الاجتماعي بآيت باعمران، وأضحى لقب "السينياتور"، الذي يُنعت به الممتهن لمهن التمريض والطِبابة، دليلا على مكانة صاحبه الاجتماعية المهمة والمحترمة ليس فقط محليًا، بل حتى في أوساط الأوربيين العاملين في هذا القطاع بالمنطقة. كما يشير امتهان المرأة الباعمرانية للتمريض وإقبالها على الاستفادة من الخدمات الطبية عوض الطب التقليدي البديل، خاصةً بعد تعزيز المستشفى المحلي بمصلحة لطب الأطفال سنة ١٩٦٣، إلى تحول جذري في وضعيتها داخل المجتمع المحلي المحافظ، ويدل على انفتاح وتفاعل هذا المجتمع مع الوجود الاسباني.

ومما لا شك فيه أن هذه التدابير الصحية قد شكلت مدخلاً من مداخل التغلغل الاستعماري بالمنطقة، فهي تساهم بشكل كبير في اختراق المجتمع الباعمراني والوصول إلى الأهالي واكتساب ثقتهم، وهو ما أحدث تحولا في الاعتقادات والسلوكيات السائدة لديهم، خاصة ما يتعلق بمحدودية الطب التقليدي أمام جاذبية الطب العصري الذي ساهم في تحسين الأوضاع الصحية، والقضاء على بعض الأمراض الوبائية، والرفع من نسب الولادات ومدى الحياة بالمنطقة.

٣/٤-توسع عمراني يعكس تحولات في البنية الاجتماعية

مزج الإسبان في بناء مدينة سيدي إيفني بين الطابع المحلي-الأمازيغي والإسباني، واعتمد البناء بالمنطقة بشكل كبير على الطوب، وهي نفس المادة التي درجت الإدارة الاسبانية على استخدامها في تشييد عمارتها الإدارية والعسكرية، ومن ضمنها الحامية العسكرية الرئيسية المطلة على البحر. ويمكن تفسير الإبقاء على استخدام الطوب في البناء إلى غلاء مواد البناء العصرية كالإسمنت والحديد، وندرتها في الأسواق، ويضاف إلى ذلك ضعف القدرة الشرائية والمعيشية للساكنة التي كانت نسبة كبيرة منهم حديثة الاستقرار بالمدينة. ولا تزال المدينة تحتفظ بين أزقتها بذات الجدران الطوبية السميكة والسقوف الخشبية والأبواب (خاصة أزقة حي بولعلام).

ولعل الهدف من توسيع المدينة وتسريع وثيرة البناء على الرغم من تلك الظروف، هو سعي الإدارة الإسبانية إلى وضع أسس مدينة حديثة تستطيع استقطاب المعمرين الأوربيين، خاصة الإسبان اللذين كانت تغريهم ظروف العيش في مناطق الحماية الفرنسية بالمغرب. وتأسيسًا على هذا التصور جاء تصميم المدينة أفقيًا على امتداد الشاطئ، إذ تمتد الشوارع والحي الإداري للحكومة



الشكل (٤)

تصميم مدينة سيدي إيفني(٤٣)

وعلى الرغم من أن الإسبان حرصوا على عزل الحي الاسباني عن باقي الأحياء المسلمة (حي كاطالونيا على الضفة الشمالية من الوادي الذي يخترق المدينة)، فإن التوسع العمراني الذي عرفته مدينة إيفني مكّن السكان المحليين من الاستفادة من مساكن خاصة بهم، ويمكن تفسير هذه الخطوة برغبة الحكومة في الظهور بمظهر الدولة السخية على رعاياها من السكان المحليين، خاصة بعد أن أصبح وجودها بالمنطقة مهددا بعد ارتفاع حدة الضغوط العسكرية والسياسية نهاية الستينات من القرن العشرين (عمليات جيش التحرير). لقد سعت الإدارة الاسبانية منذ البدايات الأولى لوجودها بالمنطقة إلى إقامة دار للسينما، وهو ما خلف آثارًا على مستوى الذاكرة المحلية منذ تأسيس سينما "***Avenida***" سنة ١٩٣٥، وخلف بصمات واضحة على مستوى سلوك وثقافة الإنسان المحلي الذي أغرته السينما

وتمثلات الثقافة الغربية، خاصة أنه لم يكن يمتلك القدرات الفكرية والذهنية الكفيلة بفهم وتحليل الخطاب الإعلامي ذي الحمولة الاستعمارية والاستعلائية التي تمثلها الأفلام المعروضة، خاصة الأمريكية منها[٤٤].

إن تأثر هؤلاء بهذه الثقافة الدخيلة وإعجابهم بها يتجلى في إقامتهم علاقات ود وصداقة مع الإسبان، إذ درجوا على مشاركتهم جلسات السمر والخمر داخل نواديهم ومقاهيهم، بل لم يترددوا في ربط علاقات غرامية مع النساء الاسبانيات، وتقليد الممثلين في مظهرهم (تسريحة الشعر والملبس) دون إدراك للخلفية التي تحملها هاته المظاهر. ولم يسلم الجانب اللغوي بدوره من تأثيرات التمازج والاختلاط، خاصة حين أضحى إتقان اللغة الإسبانية مظهرا يعكس الإعجاب والتأثر الواضح بالثقافة الإسبانية وأهميتها في تحضير الشعوب[٤٥]، ويبدو ذلك جليًا في تجليات الحياة اليومية للساكنة المحلية، وفي محادثاتهم ولغتهم التي أصبحت تحمل الكثير من المفردات الاسبانية، خاصة ما يتعلق بأدوات الطبخ أو أدوات الاستحمام وكافة مقومات البيت ومكوناته، والأمر نفسه ينطبق على العادات الغذائية المحلية التي تأثرت بالطبخ والأكلات الإسبانية (الطورطية والبايلا...).

إن التثاقف تبعا لهذا السياق الثقافي الغير متوازن؛ يحيل على علاقة خاصة تجمع بين ثقافة الإنسان المُسْتَعْمِر وثقافة الإنسان المُسْتَعْمَر، أي في نهاية الأمر، هي العلاقة التي تربط بين ثقافة الأنا (القوي والمتحضر...) وثقافة الآخر (الضعيف والمتخلف...). ولتكريس تلك العلاقة العمودية بين الطرفين؛ عمد المستعمر الاسباني إلى الاستعانة بالقوى الاقتصادية والتكنولوجية الحديثة القادرة على الإبهار والإدهاش، والتي ستسهل في نهاية المطاف مسألة تنميط وتكييف ثقافة الإنسان المحلي على ثقافته تحت فكرة التثاقف. وكأننا هنا نتكلم عما يمكن تسميته "مثاقفة قسرية"، أي أن "التثاقف" المطروح لا يحمل شرطي التأثر والتأثير والتبادل الفكري بين الثقافتين (المحلية والأجنبية)، بقدر ما يحمل شحنة سلبية تتأسس على شرط المركزية الثقافية لقطب معين (الاحتلال الاسباني)، وهي التفاعل الثقافي المبني على النزعة الامبريالية الراغبة في محو الآخر واستعباده فكريًا وثقافيًا.

خامسًا: التحولات الاقتصادية بمجال آيت باعمران

لم يكن المخطط الاقتصادي الإسباني بمجال آيت باعمران معزولا عن الرؤية الاقتصادية الشاملة التي تحكم تصوراتها باقي مستعمراتها بالمغرب عامة. فقد حضرت مظاهر جديدة وأنشطة محسوبة على القطاع الاقتصادي لتكشف عن تصور يركز جهوده على كيفية استغلال كل الإمكانيات المتاحة، وذلك اعتمادا على إدخال التقنية الحديثة، وتوظيف الرساميل الخاصة، وشرعنة سياسة الاقتراض، وكذا فرض رقابة صارمة على الاستهلاك المحلي والإشراف الدقيق عليه. لذلك سنركز في هذا المحور على رصد تجليات التحولات الاقتصادية في قطاع الفلاحة والتجارة فقط، باعتبارهما القطاعين الرئيسين الذين تأثرا بالتحولات.

١/٥-الفلاحة ومؤشرات التحول

على الرغم من بعض الإكراهات المرتبطة بضعف التربة وصعوبة التضاريس، فإن الإدارة الاسبانية حاولت تجاوز ذلك عن طريق نقل مجموعة من التجارب الفلاحية الاسبانية لتطبيقها بصورة ميكانيكية على المنطقة، وعملت على تطويع النظام المدرسي وربطه بالإنتاج الاقتصادي الذي يخدم مصلحة المستعمر قبل الأهالي، وذلك عبر تطبيق برنامج "التعليم الفلاحي والتقني" في المدارس الابتدائية والثانوية، والتي تقدم دروسا في الزراعة وكيفية اختيار الحبوب وغرسها، وتلقن روادها علم النبات والتلقيح والطرق الناجعة في استغلال مياه السقي وتحويل الأراضي البور إلى مسقية، إضافة إلى تدريس طرق الحفاظ على أنواع الأشجار المثمرة ومبادئ مواجهة الجوائح[٤٦].

وفي نفس السياق، قامت نفس الإدارة بتوفير الجرارات والآلات الفلاحية اللازمة، وشجعت على كراء الأراضي الزراعية وحفر الآبار وتوسيع زراعة الصبار والتبغ والموز والشاي الأخضر من أجل التخفيف من استيراده من اسبانيا[٤٧]. وابتداء من سنة ١٩٤٥ قامت السلطات الاستعمارية الاسبانية بتأسيس "الجماعة القروية" *(Junta Rural)*، إضافة إلى صندوق لدعم الفلاحين يهدف إلى تقديم القروض التسهيلية سمي ب"الصندوق الإقليمي للقرض" (*laCaja Territorial de Crédito*)[٤٨].

ونتيجة لهذه المجهودات المبذولة من أجل تحديث القطاع الفلاحي تضاعفت المساحة المزروعة بالمنطقة، حيث غطت الأراضي المزروعة بالشعير ٣٠ هكتار مقابل ٥ آلاف من أراضي القمح، في حين غطت أشجار الأركّان ١٥ ألف هكتار من الأراضي، إلى جانب ٢٨ ألف هكتار من الأراضي انتشرت بها أشجار الصبار. كما ساهمت هذه التطورات والتحولات في استقطاب يد عاملة مهمة تجاوز عددها ١٢٠ عاملا كانوا يتقاضون ٢٥٠ بسيطة "*Peseta*" (العملة الإسبانية آنذاك) في اليوم، إضافة إلى

كيلوغرام واحد من كل نوع من الخضر حين نضجها[٤٩]. وعلاوة على ذلك، تضاعفت محاصيل الحبوب، إذ سجلت سنة ١٩٦٢ ارتفاعا في المردودية نورده في الجدول التالي:

نوع الحبوب	المساحة بالهكتار	الوزن بالأطنان
الشعير	٢٣,٩٠٠	١,٦١٢
القمح	٣,٢٤٣	٨٥
الذرة	٥٢٧	٣٠,٨

الشكل (5)

جدول يوضح تطور إنتاج الحبوب خلال سنة ١٩٦٢[٥٠]

كما أسهم تدخل الإدارة الاسبانية من أجل تدبير القطاع الفلاحي، في تحول نظام الملكية من الملكية الجماعية إلى الفردية، وخلق مجموعة من الملاك الجدد هم في نفس الوقت جنود في الجيش الاسباني، إضافة إلى انتشار ظاهرة كراء الأراضي ورهنها من مالكيها المحليين بأثمان زهيدة بدعم مالي من الإدارة الاسبانية[٥١]، خاصة بعد أن أصبحت الأراضي الزراعية مُوَردا أساسيًا للأسواق المحلية بالخضروات والفواكه.

لقد درجت بعض قبائل آيت باعمران على الرعي والاهتمام بتربية الماشية تبعا للمعطيات الطبيعية التي يجود بها المجال، والأمر نفسه يقال عن تربية الدواب التي كانت تسخر في الأسفار والمعارك كالخيول، أو النقل وحمل الأثقال والحرث والسقي كالإبل. وتبعا لذلك سعت الحكومة المحلية الاسبانية بالمنطقة إلى إدخال مجموعة من التعديلات على هذا الميدان من أجل الرفع من إنتاجية، وتلبية الاستهلاك الداخلي قبل التفكير في التصدير، وذلك من خلال تحسين نسل الماشية، وتكليف لجان الصحة القروية التابعة لمكاتب الشؤون الأهلية لمراقبة القطعان (التلقيح وتوفير الأدوية) خشية انتشار الأمراض والأوبئة في صفوفها وانتقالها إلى الناس، إضافة إلى إقامة نقاط مراقبة على الحدود مع مناطق النفوذ الفرنسي لمنع تصديرها[٥٢]، الأمر الذي أدى إلى التضييق على حركة الرحل من قبائل آيت باعمران داخل مجال ضيق يتميز بشح موارده وعطائه.

٢/٥-التجارة المحلية من الأسواق والمواسم إلى التنظيم والتحديث

أمام الاكراهات التي تطرحها جغرافية مجال آيت باعمران، والتي يفاقم من حدتها افتقاد حاضرته (سيدي إيفني) لميناء تجاري فعال، حاولت الإدارة الاسبانية إقامة نقط مراقبة على طول حدود المجال مع مناطق الاحتلال الفرنسي للسماح للتجار المحليين بالتجارة مقابل أداء رسوم جمركية، وقد شجعت طبيعة العلاقة مع الحكومة الاسبانية المحلية التجار المحليين على احتكار بعض السلع، حين لجأت هذه الحكومة إلى تكليف بعض تجار الجملة -عن طريق مكتب الشؤون الأهلية- باستيراد السلع من الخارج[٥٣]، خاصة مادة الإسمنت التي كانت تعرف إقبالا كبيرا باعتبار التوسع العمراني الذي عاشته المدينة إبان هذه الفترة.

لقد تأزمت أوضاع التجار المحليين أكثر بعد تطبيق الإدارة المحلية إجراءات ضريبية جديدة على المواد الغذائية، وهو ما أدى إلى تراجع أرباح التجار المحليين الذي عبّروا أكثر من مرة عن سخطهم وتذمرهم من تلك التدابير التنظيمية، والتي تعززت بعد استحواذ الشركات الاسبانية على تجارة المواد الاستهلاكية الرئيسية كالقمح والدقيق والسكر والزيت والثوب، فلم تترك للتجار المحليين مجالا سوى إعادة البيع بالتقسيط، بعد ما دفعهم الأمر إلى الاقتراض من البنوك الاسبانية مقابل تسهيلات مخفضة في الأداء[٥٤].

كما ساهمت هذه الأوضاع في انتشار ظاهرة التهريب والتجارة الغير الشرعية عبر الحدود، وازداد الوضع سوءا حين خصصت الإدارة الاسبانية بطاقات تموين تسمى "البالي" منحت لجنودها ولأصحاب الحظوة من التجار الباعمرانيين، واللذين كانوا يقومون بإعادة بيع السلع المحصل عليها بأثمان لا تتوافق مع السوق. ويبدو أن اللجوء إلى نظام التموين بالبطاقات كان مدفوعا في بعض الفترات بضعف المواسم الزراعية، وندرة المواد الاستهلاكية الأساسية كالخبز والزيت والسكر،خاصة بعد الوهن الذي لحق تجارة المواسم والأسواق نتيجة التضييق الأمني والعسكري بين الاسبان والفرنسيين، وكذا انحصار تجارة القوافل التي كانت تساهم في ترويج السلع المحلية، وذلك في وقت تحول التجار المحليين إلى مستوردين كبار للسلع الاسبانية ومروجين لها في تراب آيت باعمران.

لقد حاولت السلطات الاسبانية بآيت باعمران تجاوز هذه الأوضاع عبر خلق بنية تحتية تتناغم مع دور المنطقة كملتقى للقوافل التجارية ومركز لمجموعة من الأسواق والمواسم[٥٥]، ولعل ذلك ما دعاها إلى إعطاء الأولوية لتقوية الطرق والمسالك وخلق أخرى جديدة. وقد كان البدء بفتح مسلك طرقي جديد يربط ما بين إيفني وأكادير سنة ١٩٣٥[٥٦]، وكذا شق طرق جديدة في اتجاه باقي المراكز القروية والبوادي الباعمرانية التي ترتبط بالأسواق اليومية والأسبوعية والمواسم[٥٧]، من

"ثلاثاء اصبويا" إلى "تلوين" ونحو "تيغزة" و"أربعاء ميستي" جنوبا، وفي اتجاه الشمال حيث سوق "سيدي محمد بن عبد الله".

وفي نفس السياق، عملت الحكومة المحلية على إصلاح وترميم بعض الأسواق وبناء أخرى، حيث أعادت بناء سوق "الخميس القديم"، وحولت سوق "الخميس الجديد" إلى مركز لإقامة "موسم سيدي علي بوزيد"، وجعلت تشييد محلاته على نفقة التجار. ولم تستثني هذه الدينامية أسواق مدينة إيفني، فقد تم بناء سوق عصري تحيط به أسوار عالية ببرجين وثلاثة أبواب. ومن أجل تنظيم أسعار السلع المعروضة فيه؛ قامت السلطات بوضع سبورة حائطية خُطت عليها أثمان المواد المعروضة لمدة شهر(٥٨).

وفي إطار سعيها لتنظيم الأسواق القروية، قامت الإدارة المحلية بفرض ضرائب على المبيعات والمشتريات داخل الأسواق حسب نوعية المادة أو السلعة أو الحرفة وحيزها المكاني، كما عملت على تنظيم أماكن العرض فخصصت لهذا الأمر تواصيل توزع على العارضين تحمل أرقاما تسلسلية، وقد تكلف رؤساء الفرق الأمنية التابعة لمكتب الشؤون الأهلية و"الأمغار" بتحصيل هذه الضرائب(٥٩).

كما سعت السلطات الاستعمارية الاسبانية إلى إضفاء صبغة رسمية على الاحتفالات التي تواكب المواسم الدينية التي كانت تؤثث تراب آيت باعمران، وذلك من خلال حضور كبار ضباط جيشها وأعيان المنطقة وكبار التجار، وقامت بتشجيع الفلاحين ومربي الماشية على عرض أحسن منتجاتهم بها، وخصصت لهم جوائز تحفيزية ولباقي الفلاحين الآخرين، كما منعت تجارة العبيد التي كانت رائجة ومحتكرة من طرف بعض الأسر الباعمرانية الثرية.

ونتيجة لهذه الدينامية؛ تضاعفت ثروات بعض الأسر التجارية المحلية كأسرة "لشكّر" و"إذ الحجاج" و"احماد الدرهم"، وتطورت أرقام معاملاتهم في سلع وبضائع لم يتعود أفرادها على المتاجرة فيها، بل احتكروا تجارة بعض المواد كالبناء والحديد والصباغة والفخار والمواد الغذائية، إضافة إلى سلع أخرى كالطيب والنسيج والأقمشة. وهكذا أصبح التجار المحليون زبناء أوفياء للبنوك الإسبانية من خلال الادخار والاقتراض، فاستوعبوا الثقافة "النقدية" في كل معاملاتهم الاقتصادية(٦٠).

ولم يقتصر النشاط الاقتصادي لبعض هذه الأسر على التجارة فقط، بل شمل الاستثمار في الفلاحة والعقار من كراء الدور ورهنها وبيعها، حيث اشتغل أفرادها في قطاع البناء الذي ازدهر خلال فترة تأسيس مدينة إيفني، حيث قاموا بتأسيس شركات عقارية للبناء وكراء الأراضي والدور. ونتيجة لتوسع تجارتها وعلاقات مع الإدارة الاسبانية المحلية بإيفني(٦١)، قامت أسرة "آل لشكّر" ببناء معمل يهتم بالصناعات السمكية كالتمليح والتعليب وتوفير الزيت والدقيق بالقرب من ميناء إيفني، إضافة إلى إنشاء معمل آخر لخياطة الأزياء العسكرية للجنود المقيمين بالمستعمرات الاسبانية بإفريقيا الغربية (٦٢).

خَاتِمَةٌ

تسمح دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمنطقة آيت باعمران خلال الحقبة الاستعمارية، بتتبع مظاهر التعايش والتصادم بين الثابت والمتحول في الأحوال والظواهر الاقتصادية والاجتماعية على ضوء السياسة الاستعمارية وحصيلتها، خاصة عندما لا تقف هذه التحولات عند مجال واحد فقط.

لقد نجحت سياسة الإدارة الاسبانية بمنطقة آيت باعمران في اختراق المجتمع المحلي، وإحداث تحولات عميقة في بنية القبائل الباعمرانية عبر اعتماد مجموعة من المداخل التي مثلت أساس توجهاته وممارساته الاستعمارية. وإذا كان قطاع التعليم يعتبر مدخلاً اختراقيًا أساسيًا يسهل عبره تلمس متغيرات عدة مست بعض الجوانب الاجتماعية من حياة المجتمع المحلي، فإنه شكل بالنسبة للأهالي آلية من آليات التثاقف ساهمت في بروز نخبة جديدة على حساب نخبة قديمة ساهم التعليم التقليدي في إنتاجها. وقد راهنت السلطات الاستعمارية أيضا على القطاع الصحي من أجل ترويض الإنسان المحلي وإخضاعه لرؤية وسياسة تدبير المجال، كما آمنت بأن تحديث هذا القطاع يضمن لها حضورًا مستدامًا، ويؤمن لها علاقة طيبة مع القبائل الباعمرانية. لكن هذا الوجه السلبي يقابله جانبه الايجابي، حين يؤدي تحسن الأوضاع الصحية بالمنطقة في القضاء على الأوبئة والأمراض، ويسهم في إدماج الرجل والمرأة الباعمرانية في ميدان التمريض والتطبيب.

إن هذه السياسة ساهمت في تطور أعداد المعمرين الأجانب بالمنطقة، وشجعت على الهجرة نحو مدينة إيفني بعد تحسن الخدمات الاجتماعية بها، الأمر الذي انعكس سلبًا على

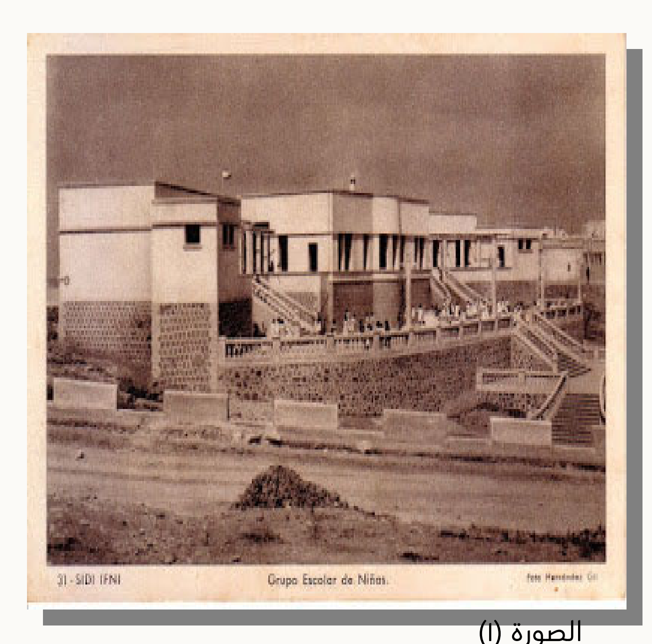
المجال الحضري الذي افتقد للانسجام بفعل السياسة التعميرية نفسها، وبروز بعض الظواهر الاجتماعية كالهجرة والبطالة والأنشطة الغير مندمجة، علاوة على بعض التحولات التي صاحبت بعض الجوانب السوسيو-ثقافية المتعلقة بالمظهر وطبيعة الملبس ونظام الأكل وغيرها. وقد ساهم إنشاء مرافق عمومية تخلق التسلية والترفيه في إيجاد جيل متشبع بتأثيرات الثقافة الغربية، وما تحمله من قيم دخيلة لم يكن بالإمكان الصمود أمام تأثيراتها، فنحن هنا أمام وضعية تثاقف نسقي وقسري أنتج تحولاً موجهًا ومشوهًا للثقافة المحلية المعرضة أكثر لهذا التثاقف السلبي.

واستهدف الوجود الاسباني بآيت باعمران أيضًا اختراق البنية الاجتماعية المحلية، عبر إعادة ترتيب النظام الاجتماعي المحلي وتقويض مؤسساته (انفلاس) لإفراغها من محتواها حتى تكون قادرة على إنتاج نخب وزعامات تخدم مشاريعها في المنطقة.

لقد أسهم التدخل الاسباني بالمنطقة في إحداث تحولات عميقة مست التجارة المحلية التي كانت قائمة على التوازن بين عاملي الإنتاج المحلي والاستهلاك الذاتي للسكان، كما أدى إلى خلخلة هذا التوازن بخلق حاجيات جديدة للسكان ارتبطت بإحداث مرافق تجارية جديدة وتحديث أخرى قديمة، وظهور أطراف تجارية تستفيد من علاقاتها مع السلطة المحلية، وهو ما ساهم في بروز نخبة تجارية رأسمالية تحظى بكل أنواع الدعم والعناية.

هكذا تحول الاقتصاد المحلي من اقتصاد تقليدي إلى اقتصاد عصري يتميز بوجود زراعة استعمارية دخيلة موجهة لتلبية حاجيات المعمرين، وتعتمد على تقنيات ومفاهيم زراعية حديثة تحظى بمختلف الدعم، وتستفيد من البنيات التحتية والتنظيم العصري والتمويل المالي المتمثل في القروض التي توفرها الحكومة المحلية للفلاحين، وهو الأمر الذي ساهم في تفشي ظاهرة الاقتراض من البنوك الاسبانية، والتي كان من نتائجها إفلاس العديد من التجار المحليين، خاصة خلال الفترة التي سبقت جلاء الاستعمار الاسباني عن المنطقة سنة ١٩٦٩.

الملاحق



الصورة (١)

مدرسة البنات بمدينة سيدي إيفني[٦٣]



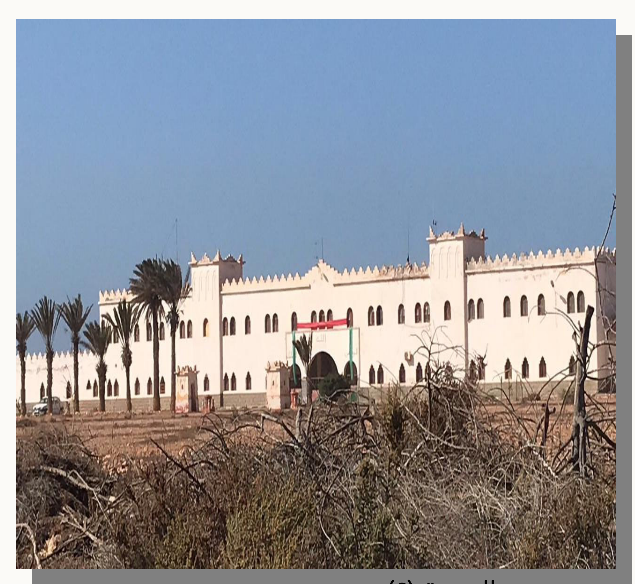
الصورة (٢)

مدخل الحديقة الرئيسية بمدينة سيدي إيفني[٦٤]



الصورة (٣)

المستشفى المحلي بمدينة سيدي إيفني خلال ثلاثينيات القرن الماضي[٦٥]



الصورة (٤)

الثكنة العسكرية الاسبانية بمدينة سيدي إيفني

(صورة شخصية مأخوذة بتاريخ ١٠ نونبر ٢٠١٩)



الصورة (٥)

سينما *Avenida* بمدينة سيدي إيفني

(صورة شخصية مأخوذة بتاريخ ١٠ نونبر ٢٠١٩)

الاحالات المرجعية:

(١) يقدم لفظ التحول في الحقل الدلالي بشكل أقرب إلى مفهوم التغير سواء في اللغة العربية أو الفرنسية، بحيث ورد في لسان العرب بأنه "تنقل من موضع إلى موضع". وفي معجم Le Petit Robert نجد مصطلح (Mutation) الذي يعني "تبدلاً عميقًا ومستمرًا". ويبدو أن مصطلح التحول في هاذين المعجمين يأخذ معنا عاما وشاملا، يحيل على التبدل من حال إلى حال وفق نسق يخضع لقوانين ومحددات داخلية وخارجية يحددها زمن التحول وظروفه، بمعنى أنه تفاعل واستمرارية لا يكون دائما ايجابيا ووفق ما يراد له. انظر تواليا: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١١، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص. ١٨٩.

Le Petit Robert, Dictionnaire de la Langue Française, Paris, 1993, p. 1641.

(2) Monteil, Vincent, Note sur Ifni et les Ait Baamran, Paris, édition, Larose, 1948, p. 3.

(٣) بن علي الحساني، إبراهيم، **ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي**، تحقيق عمر آفا، كلية الآداب والعوم الإنسانية، مطبعة الدار البيضاء الجديدة، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٢٤-٢٨-٢٩.

(٤) المحمدي، علي، **السلطة والمجتمع في المغرب: نموذج آيت بعمران**، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص. ١٨.

(٥) المحمدي، علي، م. س، ص. ١٢.

(٦) تنحدر هذه القبيلة من أصول عربية، وسبق لها الاستقرار بمجال وادي نون خلال القرن السادس عشر، حيث فرضت سيطرتها على كامل المنطقة خلال الفترة السعدية قبل أن تنتقل إلى منطقة طاطا.

(7) Justinard, Villes et tribus du Maroc, Tome I, les Ait baamran, Honoré Champion, Paris, 1930, p. 76.

(٨) المحمدي، علي، م. س، ص. ١٦.

(٩) دحمان، محمد، **سيدي إيفني الساقية الحمراء ووادي الذهب في الكتابات الإسبانية (١٩٣٤-١٩٥٠)**، مطابع الرباط نت، ٢٠١٥، ص. ٢٠.

(١٠) ترأس هذه اللجنة الباحث الإسباني "هرنانديث باتشيكو" إلى جانب مجموعة من الأساتذة في مختلف التخصصات العلمية، وبالرغم من أن صدى أعمالها كان محل محاضرات ومقالات صحفية، إلا أن الحكومة الاسبانية لم تبد جانب الرضى على نتائجها، ولم تكن تتوقع خروجها بنتائج مقنعة. انظر: دحمان، محمد، م. س، ص. ٥٥-٥٦.

(١١) السوسي، المختار، **المعسول**، ج. ٣، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٦١، ص. ٣٩٣.

(١٢) علاء الدين، عبد المالك، **الوجود الإسباني بإيفني وآيت باعمران ١٩٣٤-١٩٦٩**، رسالة لنيل الدكتوراه في التاريخ، مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ٢٠٠٥-٢٠٠٦.ص. ٨٨.

(١٣) المرجان، محمد، **مقاربة سوسيولوجية للمعرفة الكولونيالية الإسبانية بشمال المغرب (١٨٦٠-٢٠٠٢)**، رسالة لنيل دكتوراه الدولة في علم الاجتماع، مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص. ٩٨.

(١٤) رسالة في ملك أمغار سعيد مؤرخة بـ ١٢ أبريل ١٩٣٤، انظر: علاء الدين، عبد المالك، م. س، ص. ١٨٤.

(١٥) نفسه، ص. ١٨٥.

(١٦) صيغة الجمع لكلمة "أنفلوس" الأمازيغية، وتترجم بـ "الأعيان". وهي عمومًا هيئة تنفيذية تسند رئاستها إلى أحد أعيان القبيلة من طرف الجماعة، ويشترط في أعضائها الانتماء أسر ذات جاه ونفوذ بالقبيلة. أما عدد انفلاس فقد كان يختلف من قبيلة إلى أخرى، غير انه كان موحدا داخل القبيلة الواحدة.

(١٧) المحمدي، علي، م. س، ص. ٦٣.

(١٨) نفسه، ص. ٧٠.

(١٩) تبنى المخزن أعرافًا درجت عليها قبائل آيت باعمران زمنًا طويلاً، وذلك حفظا لأمنهم وضبطا لعلاقة الأفراد والجماعات، وسيرًا على ذلك عمل القواد المخزنيين المعينون على الاسترشاد بأعراف جماعاتهم في تقدير الإنصاف والعقوبة، وفي تحديد الغرامة والجاني.

(٢٠) السوسي، المختار، م. س، ص. ٢٣٥.

(٢١) علاء الدين، عبد المالك، م. س، ص. ٣٧٠-٣٧١-٣٧٢.

(٢٢) حاولت السياسة الاستعمارية الإسبانية في المجال الصحي المبالغة في مكافحة الأمراض المعدية، وذلك من خلال نشر إحصائيات تهدف إلى طمأنة المعمرين الإسبان حول مستوى الأوضاع الصحية بالمنطقة، خاصةً وأن الأمراض شكلت رعبًا حقيقيًا بالنسبة للمهاجرين الأوربيين بشكل عام.

(٢٣) علاء الدين، عبد المالك، م.س، ص. ٣٧٥.

(٢٤) نفسه، ص. ٣٧٦.

(٢٥) علاء الدين، عبد المالك، م. س، ص. ٣٧٦.

(26) Domench Lafuente, un Official entre Moros, Editoria Morroqui Sidi (Ifni), Marzo de 1974, p. 165-178.

(٢٧) علاء الدين، عبد المالك، م. س، ص. ٣٨٣.

(٢٨) تأسست السياسة الاستعمارية الإسبانية بالمغرب حسب توصيات "الجمعية الجغرافية لمدريد" والجمعية الإسبانية للأفريقانيين المستعمرين"، على إقرار تنمية اقتصادية واجتماعية كجزء من المهمة الحضارية المفروضة على إسبانيا، وذلك من أجل التغطية على أهداف بعيدة المدى تعتبر ضرورية بالنسبة لتشريع الاستعمار وإشاعة أيديولوجيته. انظر المرجان، محمد، م. س، ص. ٩٩-١٠١.

(٢٩) نفسه، ص. ١٠٥.

(٣٠) المسجد أو ما يصطلح عليه تبعا للهجة المحلية (تاشلحيت) "تمزكّيدة".

(٣١) زاول بعض الفقهاء المنتمين لبعض قبائل الصحراء (قبيلة الشيخ ماء العينين) مهنة التعليم في بعض المساجد العتيقة بمنطقة آيت باعمران قبل الوجود الاستعمار الإسباني بالمنطقة وأثناءه.

(٣٢) السوسي، م. س، ص. ١٥٤-١٥٥.

(٣٣) المحمدي، علي، م. س، ص. ٧٠.

(٣٤) نفسه، ص. ٥٢٥.

(٣٥) أشرفت الكنيسة الاسبانية بإيفني عن طريق بعض الرهبان والراهبات ضمن مؤسسة "كوليج الكاردينال سيسنيروس" (Cologio Cardenal Cisneros)، وكان مقرها داخل الكنيسة، وهي خاصة بالذكور. أما المؤسسة الثانية الخاصة بالبنات فقد حملت اسم "كوليج نويسترا سينيورا ديل بوين كونسيخو" (Nuestro Senora del Buen Consejo).

(36) Jeromino, Saenz Martinez, la Escuela y el Trabajo, la Iniciacion Profesional en la Escuela Graduad de Ninos de Sidi Ifni, A.O.E, n° 241, 1950, p. 4.
(37) Santa Maria, Ramiro, la Sanidad y la Ensenanza en una Provincia Espanola de Africa, Africa, n° 313, 1968, p. 25.
(38) Ramiro, op cit, p. 25.
(39) Martinez, Joronimo Saenz, Accion de España, Culteral y Sanitaria, en Sus Territorios del Africa Occidental, Africa n° 164-65, 1955, p. 30.
(٤٠) المرجان محمد، م. س، ص. ١٧٩.
(٤١) دحمان، محمد، م. س، ص. ٥٧.
(٤٢) علاء الدين، عبد المالك، م.س، ص. ٥٧٠.
(٤٣) انظر المقال في الموقع الإلكتروني التالي:
http://madrid-art-deco.blogspot.com/2016/12/sidi-ifni-la-olvidada-ciudad-colonial.html
(٤٤) تم عرض العديد من الأفلام التي تتضمن هذه الحمولة الاستعمارية الاستعلائية، نذكر منها: فيلم "أربعة أقلام"، وفيلم "الهجرة". انظر: علاء الدين، م. س، ص. ٦٢٣.
(٤٥) المرجان، محمد، م. س، ص. ١٦٩.
(46) Albeniz, Ruiz, Monographia Sobre Colonizacion Rural en Marruecos Espanol Madrid, N° 8, 1930, p.٢٧٠.
(47) Lafuente, op, cit, p. 174-175.
(48) Africa, la Agricultura y la Ganaderia en la Provencia de Ifni, N° 255, 1963, p. 28.
(49) Africa, op cit, p. 26.
(50) Pélissier, Réne, Los Territorios Espanoles de Africa, I.D.E.A, Madrid, 1964, p. 94.
(٥١) لم تبخل الحكومة المحلية بتقديم الدعم المالي للقطاع الفلاحي، حيث وصلت قيمة المساعدات المالية الممنوحة له سنة ١٩٠٩ إلى ٢٬١٧٥٬٠٠٠ بسيطة، وفي العام الموالي وصلت إلى ٢٬٦٠٠٬٠٠٠ بسيطة. انظر: Africa, op cit, p. 28.
(52) Africa, op cit, p. 30.
(٥٣) علاء الدين، عبد المالك، م. س، ص. ٢٩٢.
(٥٤) نفسه، ص. ٢٩٣.
(٥٥) خصصت السلطات الإسبانية المحلية لمدينة ايفني ضمن الميزانية العامة لأراضي ايفني والصحراء، ميزانية قدرها 26 228 419 7 بسيطة، وفق ما يحدده القانون الصادر في ٢٧ دجنبر ١٩٤٤ المنظم لميزانية ومجالات صرف النفقات في ايفني والصحراء مع الفصل بين المنطقتين. انظر: دحمان، محمد، م. س. ص. ١٧٤.
(٥٦) نفسه، ص. ٥١.
(٥٧) نفسه، ص. ٥٨.
(٥٨) علاء الدين، عبد المالك، م. س، ص. ٣٠٥.
(٥٩) نفسه، ص. ٣٠٦.
(٦٠) المرجان، محمد، م. س، ص. ٢٥٢.
(٦١) احتكرت هذه الأسرة مشيخة قبيلتهم "مستي" بدعم من أول حاكم إسباني بالمنطقة "كباث"، وقد مكنهم هذا الوضع (القرب من إدارة الاحتلال الإسباني بالمنطقة) من الحصول على تسهيلات إدارية واقتصادية كبيرة تندرج في إطار السياسية الاستعمارية الهادفة لاحتوائها مثل هذه الأسر، وجعلها عنصرًا فاعلاً ومؤثرًا وممثلاً في الوقت ذاته لقبيلة لها نصيبها ووزنها السياسي كقبيلة "مستي" مثلاً. وفي سياق ذلك استطاع أحد أفراد هذه الأسرة يدعى"محمد الأشكَر بن أحمد" من شغل منصب عضو بلدي ضمن أول مجلس بلدي بالمدينة سنة ١٩٤٥.
(٦٢) تحولت أسرة "آل لشكَر" إلى نموذج للأسر الرأسمالية المحلية التي تتغذى من علاقاتها الواسعة مع الإسبان، فلم يقتصر نشاطها على التجارة فقط، بل شمل الفلاحة والعقار من كراء الدور والضيع، واشتغلت كذلك في قطاع البناء واستغلال سقايات الماء وكرائها. انظر: علاء الدين، عبد المالك، م. س، ص. ٣١٥-٣١٨-٣١٩-٣٢٠.
(٦٣) انظر المقال في الموقع الإلكتروني التالي:
http://madrid-art-deco.blogspot.com/2016/12/sidi-ifni-la-olvidada-ciudad-colonial.html
(٦٤) انظر المقال في الموقع الإلكتروني التالي:
http://madrid-art-deco.blogspot.com/2016/12/sidi-ifni-la-olvidada-ciudad-colonial.html
(٦٥) انظر المقال في الموقع الإلكتروني التالي:
http://madrid-art-deco.blogspot.com/2016/12/sidi-ifni-la-olvidada-ciudad-colonial.html

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].



أسواق قبيلة زعير
بداية القرن العشرون



ميلود سوالمة

باحث في التاريخ المعاصر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – القنيطرة

جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

يتحدث الموضوع المقالي كما هو مدون في العنوان عن الأسواق بقبيلة زعير خلال القرن العشرون، فرغم اعتماد القبيلة منذ استقرارها بالمنطقة على أسلوب الرعي الذي من خواصه الانتقال من مكان إلى آخر حسب جودة المرعى والماء والمدة الزمنية، إلا أن ذلك لم يمنع القبيلة خلال فترة الاستقرار من تنظيم عدة أسواق لتبادل المنتجات فيما بينها في إطار نظام" المبادلة". وقد احتضنت المنطقة عدد لا يستهان به من الأسواق طيلة أيام الأسبوع، وما جعل المنطقة تحظى بعدد كبير من الأسواق هو موقع العديد من مراكزها بجوار القبائل الأخرى الشيء الذي سهل التواصل بين أكثر من قبيلة داخل سوق واحد كما هو الشأن بسوق الخميس بالزحيليكة وسوق الأربعاء بالرماني و شهدت أسواق المنطقة رواجًا تجاريًا منقطع النظير وصل صداه إلى مدن بعيدة مثل فاس والدار البيضاء، وتكمن أهمية أسواق القبيلة في توفرها على منتجات متنوعة تكاد تشمل مختلف مناحي الحياة كالمواشي والحبوب والحرف الشيء الذي جعل التجار يأتون لها من مناطق بعيدة رغم انعدام الأمن والاستقرار خاصة بداية القرن العشرون، حيث عرفت القبيلة معارك عدة مع القبائل المجاورة من جهة، إلا أن ذلك لم يمنع ساكنة المنطقة، رغم ذلك استطاعت القبيلة تكوين أسواق خاصة بها لعبت دور المتنفس لها وما أهلها لتنظيم هذه الأسواق هو القرب من الساحل الأطلسي ونقطة الربط بين مختلف عواصم المغرب مثل مراكش، الرباط ومكناس. وعلى ممر الطرق التجارية والسلطانية بين الشمال والجنوب.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢١	اكتوبر	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	١٩	نوفمبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

قبيلة زعير؛ الأسواق؛ البيع؛ الشراء؛ البضائع

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.260737

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

ميلود سوالمة. **"**أسواق قبيلة زعير بداية القرن العشرون**"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٢٢٢ – ٢٢٩.

Corresponding author: soualmayat@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يُقصد بالسوق ذلك المكان الذي يجتمع فيه طرفان أو عدة أطراف أحدهم معني ببيع سلع ومنتجات معيّنة أو تقديم خدمات ما، والآخر بقصد شراء هذه السلع والخدمات أو بتبادلها في إطار "المبادلة"، وشكلت منطقة زعير مكانا خصبا للعديد من المبادلات التجارية يتضح ذلك من خلال عدد الأسواق الأسبوعية التي تنتظم بالمنطقة والتي يأتي إليها التجار من كل المناطق المجاورة. فرغم انعدام الأمن والاستقرار بزعير، الناجمين عن طبيعة الاقتصاد الرعوي، والحروب الكثيرة التي اضطر أهل زعير إلى خوضها على مدى تاريخهم، منذ وصولهم إلى المنطقة، التي كانت تدفعهم بعدم ممارسة نشاط تجاري هام ومنتظم، وقيام أسواق قارة في بلادهم. رغم أهمية موقع المنطقة الجغرافي حيث القرب من الساحل، وعلى ممر الطرق التجارية والسلطانية بين الرباط ومراكش.

رغم كل هذه العوامل فقد شكلت منطقة زعير مكانا خصبا للعديد من المبادلات التجارية من خلال عدد الأسواق الأسبوعية التي يأتي إليها التجار من كل حدب وصوب، بل اشتهرت العديد من أسواقها لدى القبائل المجاورة كما هو الشأن بالنسبة لسوق الخميس بالزحيليگة الذي يأتي إليه أهل الرباط ومكناس وفاس، وما زاد من شهرة هذا السوق هو وقوعه في موقع تقاطع الطريقين اللذين يتجهان صوب كل من وادي الزم ومولاي بوعزة بالإضافة إلى الغوالم. في الغالب يكون السوق على نقط التماس بين مجموعات قبلية مختلفة حتى يسهل الوصول إليه بدون متاعب خاصة خلال فصل الشتاء حيث صعوبة التحرك من مكان إلى آخر في أغلب مناطق زعير، فإذا كان السوق ينتظم داخل يوم معلوم في جل قبائل زعير.

مع بداية القرن العشرون، مثل سوق الخميس بالزحليگة وسوق الأحد بالبراشوة، فإنه لم يكن كذلك مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث كانت الأسواق متنقلة، تتنقل بتحرك القبيلة من مكان لآخر حسب الفصول، وبالتالي الحديث عن نوعين من الأسواق هما: "سوق الصيف وسوق الشتاء"، لأن مكان السوق لم يكن ذا مباني كما هو معروف اليوم، حيث كان يحيى بخيامه المنصوبة في الصباح ويموت عند المساء. كما كان يتم تنظيم أسواق مرتجلة تسمى "السويقة"[1]" إما بتأخير انعقادها أو تقديمه، خاصة خلال المناسبات والأعياد وكذا أثناء "الحركات"، كما هو الحال في كل مناطق المغرب، يبقى السوق له مكانة خاصة في الحياة الاجتماعية، فهو المكان الذي يتم فيه التبادل التجاري، إذ يتجه إليه الفلاح لعرض منتوجاته وتوفير ما يمكن احتياجه خلال الأسبوع، وهذه العملية أي البيع والشراء، تتم في الغالب عبر الأسواق المحلية. فماهي أهم الأنشطة الممارسة بأسواق القبيلة وأهميتها؟ وما أهم الأسواق بالقبيلة؟ وكيف يتم تنظيمها؟

أولاً: أهم الأنشطة الممارسة في الأسواق

يعتبر السوق بنظر العامة مجرد لقاءات حيث يمكن فيه لقاء العائلة والأصدقاء وتبادل الأخبار، ومناقشة الاهتمامات وتسوية بعض الأمور الخاصة، كما كانت تعقد فيه جلسات للصلح وللتقاضي داخل القبيلة أو بين زعير وقبائل أخرى، ومثال على ذلك ما أورده الضعيف الرباطي « وفي يوم الأحد الموفي عشرين من رجب مرت لقبيلة ازعير بعض خيل العكبان فرقة من صباح تالماغت لسوق الأحد بنحاجة على شأن الصلح مع ازعير ففرحوا بهم وأكرمهم وباتوا عندهم واتفقوا على أن السارق بالليل يموت من الفريقين ويمشي هدرا، وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب المذكور جاءت خيل ازعير لسوق الأربعاء المذكور فأتموا الصلح وزادوا أيضًا لسوق اخميس الدغما[2]». وقد تواجدت بأسواق زعير فضاءات متعددة للفرجة عن طريق" فن الحلقة[3]" ومشاهدة ألعاب البهلوان، أو الاستماع إلى الحكواتيين مثل "ألف ليلة وليلة" "وسيف دو يزان" كما يعد السوق فرصة لدفع أجور العمال المياومين[4] بالإضافة إلى كون السوق كان فرصة لتلقي أنباء السلطة عن طريق "البراح" كالإعلان عن بداية موسم الصيد، أو الإشعار بتنظيم عملية الحرث الجماعي عن طريق "التويزة" أو بأخبار عن قرب حركة للسلطان.

يقول إدموند دوتي (E. Doutté) إن حياة القبيلة تجرى تقريبًا في السوق الأسبوعي، ففيه يلتقي الأهالي، حيث لا يقضون حاجياتهم الاقتصادية عبر البيع والشراء فحسب، بل يكون السوق بالنسبة إليهم المكان الذي يتم فيه تبادل الأخبار السياسية، وتصدر فيه الأوامر وتسلم السلط. ففي السوق تتخذ القرارات فيما يخص الحرب أو السلم[5]، وفيه أيضا معاش القبيلة «ويعلم سيدنا بأن معاشنا كله فيه والسلام[6]».

ثانيًا: أهمية السوق لدى ساكنة زعير

تتجلى أهمية السوق في وظيفته الاقتصادية ومدى شهرته وتأثيره على المنطقة ويعتبر وجهة مميزة لسكان المدن والمناطق النائية، وتكمن أهمية السوق في تبادل المواشي والحبوب بين ساكنة زعير والمناطق المجاورة.

لعبت الأسواق دورًا حيويًا في حياة القبائل، ولهذه الأهمية كان المخزن يتخذ منها سلاحًا يلتجئ إليه في كثير من الأحيان بغية حصار مجموعة بشرية معينة «... لإن أولاد الحاج الذي ذكرت يتسوقون الرباط رغما على أنفنا والآن سيدنا إن ساعدني فيهم يشد لي العضود بقبضهم في الرباط حتى يخلصوا ما عليهم وإن كان سيدنا يتركهم على رضاهم يبرئ ذمتي منهم»[٧]. وبحرمان بعض القبائل من التسوق تكون قد فقدت صلاتها الاقتصادية مع المجموعات المجاورة[٨]، كما شكلت الأسواق محطة مهمة في شحذ الهمم لمواجهة المستعمر. وكان المخزن يؤمن العديد من الأسواق مثل سوق الرباط «[...] القائد أحمد بوقطيب الزعري وصل كتابك طالبا أمر عامل الرباط بالتأمين على المتسوقين من إخوانك بأسواق المدينة وقد أصدرنا له إلا فيما هم مطالبون به من طرف الخديم بركاش والسلام»[٩]. وكان لهم ما أرادوا يتضح ذلك من خلال الرسالة الجوابية للسلطان التي بعثها للقائد «[...] بوقطيب الزعري وبعد وصل كتابك بجعلكم الهناء مع الأعراب ووقوفك في أمر الطريق وسلامتها وعلمنا ما طلبته وصار بالبال وقد تقدم لكم أمرنا الشريف بما فيه كفاية والسلام».[١٠]

ثالثًا: أهم أسواق زعير

تحتضن قبيلة زعير أربعة عشر سوقا منها اثنى عشر سوقًا بقيادة الرماني وسوقين بضواحي الرباط، وفيما يلي أهم الأسواق التي تحظى بأهمية أكبر بزعير:

سوق الأحد: البراشوة

سوق الخميس: سيدي بطاش

سوق الخميس: الزحيليكة

سوق الثلاثاء: سيدي يحيى زعير

يعتبر سوق الأحد بالبراشوة من أهم أسواق زعير إذ يتواجد بهضبة منبسطة، بالحد الفاصل بين أولاد ميمون وأولاد مسعود، بقبيلة اخليفة الشمالية وهو من الأسواق المشهورة بزعير، يقصده الناس من الرباط والدار البيضاء لشراء الماشية التي تباع فيه بكثرة،[١١] وعلى الطريق الرابطة بين الرماني والرباط، حيث يتم عبرها شحن المنتوجات إلى الرباط ويسلك الفلاحون الطريق عبر غابتين هما غابة كريفلة وبورزيم، حيث يقودون عبرهما كل أسبوع من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ رأس من قطعان الماشية[١٢].

يعتبر سوق الخميس بالزحيليگة الذي يسمى "كريستينا" أهم الأسواق المشهورة حيث يوجد على ربوة هناك على حافتي الطريق الذاهبة لوادي زم، ولمولاي بوعزة بزيان، ويبعد عن الرماني بحوالي ٣١ كلم وعن مولاي بوعزة بحوالي ٥١ كلم[١٣]. كما أنه على الطريق الوطنية رقم ٢٢ الرابطة بين الرباط ووادي الزم، بالإضافة إلى توفره على أهم أنواع المواشي، حيث يرتاده الناس من كل المناطق البعيدة نظرًا لشهرته وأهميته ويلبي احتياجات مختلف مناطق زعير[١٤]. وهو من أهم الأسواق المشهورة هناك، لأن الماشية التي تباع فيه تكاد تنعدم في باقي الأسواق الزعرية الأخرى، ويقصده الناس من كل الجهات، من تادلة ومولاي بوعزة، والرباط، ومكناس، وسلا. وإذا كان الإشعاع المتوسط للأسواق في مغرب القرن التاسع عشر لم يتعدى في المتوسط مابين ٢٥ و٣٠ كيلومترا على أقصى تقدير[١٥]، فإن سوق الخميس تعدى ذلك بمآت الكلمترات حيث وصل صيته إلى فاس والدار البيضاء[١٦].

أحدث السوق الأسبوعي بمركز الزحيليگة سنة ١٩١٥، وأصبح يعقد كل يوم الخميس، وتم الاستغناء عن أسواق قبائل النغامشة وأولاد عمران وأولاد موسى. وفي سنة ١٩٣٦، صدر قرار وزيري في شأن هذا السوق هذا نصه:

«الحمد لله وحده

يقيد بموجبه في عدد الأملاك العمومية سوق بالبادية كائن بناحية الرباط.

بمقتضى الظهير الشريف المؤرخ في ٧ شعبان عام ١٣٣٢ الموافق فاتح يوليوز سنة ١٩١٤ المتعلق بالأملاك العمومية والظهائر الشريفة الصادرة في تغييره أو تتميمه، ونظرا لما تقتضيه الضرورة من أن يضم إلى الأملاك العمومية قطعة أرض من الأملاك الخصوصية التي للدولة يقام فيها سوق خميس كريستيان (زعير).

ونظرًا لاقتراح المدير العام للأشغال العمومية ومدير المكتب المدني والمراقبات المدنية والأمن العام بعد استشارة المدير العام للمالية قررنا ما يأتي:

الفصل الأول:

تقيد في الأملاك العمومية التي للدولة قطعة من أرض مخزنية مساحتها أحد عشر هكتارا (١١) تؤخذ من العقار المخزني المقيد تحت عدد: ٢ بكناش المساحة بناحية زعير الكائن بسوق الخميس بكريستيان حسبما هو مبين بخط أحمر في الخرائط المضافة لهذا القرار.

الفصل الثاني:

إن المدير العام للأشغال العمومية ومدير المالية العام ومدير المكتب المدني والمراقبات المدنية وإدارات الأمن هم المكلفون، كل فيما يخصه بتنفيذ هذا القرار والسلام. وحرر

بالرباط في ١٢ حجة عام ١٣٥٤ الموافق ٦ مارس سنة ١٩٣٦. محمد المقري»[١٧].

كما يعدّ سوق الثلاثاء بسيدي يحى زعير من أهم أسواق الماشية لكونه يجلب ما بين ١٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ رأس من المواشي أسبوعيًا.

جدول رقم (١)

اسم السوق	خصائصه
سيدي يحى زعير	كثرة تواجد الأبقار
سيدي بطاش	تواجد الأغنام
خميس الزحيليكة	وجود قطيع الماعز بكثرة
سوق الأحد البراشوة	الحبوب والماشية

المصدر

P. Aubert. Le pays des Zaërs, op.cit. p.236

إلى جانب الأسواق التي ذكرناها سالفًا هناك أسواق أخرى يمكن تصنيفها من الدرجة الثانية مثل سوق السبت بئر النصر، وسوق الثلاثاء بمولاي إدريس أغبال وسوق أربعاء الرماني، بالإضافة إلى سوق عين العودة.

رابعًا: تنظيم أسواق زعير

من أجل تسهيل عمليتي البيع والشراء تم تنظيم السوق وتقسيمه إلى أربع مجموعات رئيسة وهي:

بائعي الحبوب وأصحاب المطاحن: يستقرون في أكواخ خشبية، مهمتهم هو طحن القمح للساكنة لسد احتياجاتهم الأسبوعية.

الجزارون: يأتون من مدن مجاورة يتنقلون بين عدة أسواق في الأسبوع، لهم دور هام في السوق: يبيعون للساكنة احتياجاتهم الأسبوعية من لحم البقر، والغنم، والماعز، والجمال.

باعة الخضر: يمكن تقسيمهم إلى قسمين هما:

التجار الكبار الذين يأتون بالخضر على متن الشاحنات الكبيرة المستأجرة حيث يتم بيع البضائع بالجملة داخل صناديق أو أكياس ويتنقلون إلى ثلاثة أسواق في الأسبوع.

أما التجار الصغار: فيعملون على عرض الخضر على الأرض مباشرة إلى المستهلك ويتنقلون إلى غالبية أسواق زعير.

أصحاب الحرف: مجموعة من الحرفيين بدءا من بائعي الملابس الذين يصنعون الجلاليب الصوفية المزركشة أو سراويل فضفاضة، إلى بائعي الساعات المتنقل وصانعي المفاتيح، وأغلبهم يتنقلون إلى كل أسواق زعير. والحرفيون على اختلاف أنواعهم من صناع وتجار كانوا يمارسون"المتاوية" أو ما سماه ابن خلدون المكايسة والمماحكة[١٨].

يتضح أن الأسواق المغربية والزعرية على الخصوص "احتلت مكانة هامة في حياة السكان، فبالإضافة إلى دورها التجاري في تسويق المنتجات المحلية واقتناء الحاجيات الضرورية، ساهمت الأسواق بأدوار اجتماعية تمثلت في التقاء وتجديد العلاقات بين الأسر والأفراد وتبادل الأخبار"[١٩].

يتجلى الجانب الاقتصادي بزعير في عمليتي البيع والشراء في الحبوب والماشية. ويتم الإقبال الكثير على الماشية في شهر أبريل إلى يوليوز، وعدد الرؤوس التي تكون موجودة في كل سوق تتراوح بين ٦٠ و١٠٠ رأس من الأبقار، ومن ١٥٠ إلى ٢٠٠ رأس من الغنم، ومن ٨٠ إلى ١٢٠ رأس من الماعز؛ وذلك بكل من أسواق السلامنة أولاد داود وأولاد علي وبوزرك، أما في الأسواق الأخرى والتي لا تكتسي صدى كبيرا ويتعلق الأمر بكل من سوق أولاد زيد وأولاد خليفة ونجدة التحتانيين المراكشية. فنجد بها ٣٠ إلى ٦٠ رأس من الأبقار، ومن ٧٥ إلى ١٥٠ رأس أغنام، ثم من ٤٠ إلى ٨٠ رأس من الماعز[٢٠].

ومن أهم الباعة في الأسواق بائعي الصوف وبائعي الخبز، وأصحاب الدكاكين، وبائعي الشاي، وغيرهم. وعند ذهابهم إلى زيان وأزمور، يتم حمل معهم بعض الزرابي الرفيعة والحصائر المصنوعة من الدوم لبيعها هناك. ومن المواد الأخرى التي يتم بيعها في السوق نجد الصوف والدواجن والبيض والعسل والزبدة والقطران. أما في فصل الصيف فالبضائع المعروضة للبيع هي: البطيخ والقرع والشمام والخيار والقثاء(الفقوس)[٢١].

والمؤكد أن أهل مغرب القرن التاسع عشر استمرو في اعتماد البغال والإبل لحمل البضائع والاشخاص، مما جعل التنقل رهين إكراهات الطبيعية[٢٢]. للإشارة فأسواق زعير لم تكن تستخدم الميزان في معاملاتها رغم انتشاره بالمنطقة منذ سنة ١٩١١ حيث كانوا يبيعون اللحم مثلا على طريقة "الكوالة" أو"العرام".

كما نجد قرار وزيري آخر في شأن إحداث سوق سيدي يحى زعير:

«تقيد بموجبه في عدد الأملاك المخزنية الخاصة بقطعة أرض تقع بيدي يحى زعير. بمقتضى الظهير الشريف المؤرخ في ٢٨ شعبان عام ١٣٣٥ الموافق ٩ يونيو سنة ١٩١٧ الصادر في تنظيم شؤون المحاسبات العمومية والظهير الشريف المؤرخ في ١٩ ربيع الثاني عام ١٣٤٠ الموافق ٢٠ دجنبر ١٩٢١ الصادر في شأن تغييره وتتميمه ونظرا لاقتراح رئيس مصلحة الأملاك المخزنية قررنا ما يأتي:

الفصل الاول:

يرخص للأملاك المخزنية الخاصة للدولة الشريفة بشراء قطعة أرض بسيدي يحي زعير مساحتها ٤ هكتارات و٩٨ سنتيارا في ملك "أنفوسي (Anfossi) بقصد إحداث سوق بهذا المركز، بسعر مبدئي فرنك واحد.

الفصل الثاني:

رئيس مصلحة الاملاك المخزنية هو المكلف بتنفيذ هذا القرار والسلام[٢٣]». وحرر بالرباط في ٢٤ صفر ١٣٤٣ الموافق ٢٤ شتنبر سنة ١٩٢٤. عبد الرحمان القرشي.

كما حظي المركز بقرار وزيري في شان سوق سيدي يحي زعير وهذا نصه:

«تقيد بموجبه في عدد الاملاك قطعة أرض مخزنية بأحواز الرباط بمقتضى الظهير الشريف المؤرخ في ٧ شعبان ١٣٣٢ الموافق فاتح يونيو سنة ١٩١٤ الصادر في شأن الاملاك العمومية والظهائر الشريفة الصادرة في تغييره وتتميمه. ونظرا لاقتراح المدير العام لإدارة الاشغال العمومية وبعد استشارة المدير العام للإدارة المالية قررنا ما يأتي:

الفصل الأول:

تقيد في عدد الأملاك العمومية قطعة أرض مخزنية تسمى بسيدي يحى للدولة لها رسم عدده ٢٤٧٣ تبلغ مساحتها ثلاث هكتارات وواحدا وثمانين آرا وسبعة وخمسين سانتيارا (٣,٨١,٥٧) محدودة بخط أحمر اللون في الخريطة التي مقياسها ١/٥٠٠ الملحقة بأصل هذا القرار وذلك بقصد إحداث سوق بسيدي يحى لزعير بدائرة المراقبة المدنية بأحواز الرباط.

الفصل الثاني:

إن المدير العام لإدارة الأشغال العمومية ورئيس إدارة التسجيل والتمبر والأملاك المخزنية هما المكلفان كل منهما فيما يخصه بتنفيذ هذا القرار والسلام[٢٤] ». وحرر بالرباط في ١٩ رمضان عام ١٣٥٦ الموافق ٢٣ نونبر سنة ١٩٣٧ محمد المقري.

ونظرًا لأهمية السوق في حياة الزعريين، وأمام قلة الأراضي سيقوم أبو شعيب الدكالي[٢٥] يوم ٢١ نونبر من سنة ١٩٢٨ بمنح هبة للدولة المغربية عبارة عن قطعة أرضية لبناء سوق الجمعة بمرشوش، وهذا نص رسم الهبة.

"نحن أبو شعيب الدكالي وزير العدلية شرفا، نشهد به نبينا بأننا وهبنا الى الدولة الشريفة قطعة ترابية مربعة الشكل، وزن كل جهة منها مائتان متر مربع، تبلغ من المساحة أربعة هكتارات، كائنة بملتقى الطريقين المارتين الأولى من رقراقة إلى صبارة، المعروفة عندهم بطريق الجمعة، والثانية من الدار البيضاء إلى مكناس على الرماني، والقصد من الهبة هذه أن يقام بالبقعة الموهوبة سوق الجمعة، وتوجد تلك القطعة من بلادنا المسجلة بدار المحافظة بالرباط تحت عدد ١٠٢٦، إسمها برانزويك، وقد وهبنا ذلك تبرعا للدولة الشريفة بدون عوض أو شرط. والسلام."

وتم تسجيل الرسم بالمحافظة العقارية يوم ٢٦ يوليوز ١٩٢٩، وفي يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٩، سيتم تحديد الأنصبة للقطعة المذكورة أعلاه، ليتم استخراجها من مجمل الملك المذكور، وسيعطى لهذا الملك اسم "سوق الجمعة" موضوع رسم عقاري عدد R.4016 كما سيصدر في الجريدة الرسمية ٩٩٨ بتاريخ ١١ دجنبر ١٩٣١، قرار وزاري من طرف محمد الصدر الأعظم محمد المقري، بعد اقتراح من المدير العام للإدارة المالية.

الفصل الأول: يرخص في شراء أرض كائنة بسوق الثلاثاء لمرشوش(الرباط) على ملك الطالب بوشعيب الدكالي مساحتها أربعة هكتارات تقريبًا بثمن قدره مائة فرنك للهكتار الواحد.

الفصل الثاني: إن رئيس إدارة الأملاك المخزنية هو المكلف بتنفيذ هذا القرار والسلام. حرر بالرباط في ٢٩ جمادى الثانية عام ١٣٥٠ الموافق لـ ١٠ نونبر ١٩٣١ محمد المقري. إطلع عليه وأذن بنشره[٢٦].

جدول رقم (٢)

أسواق زعير وأهم روادها خلال القرن التاسع عشر

السوق	الموقع	الرواد
الأحد	الغوالم	ـ ولاد زيد . ولاد دحو . صيانة الرواشد . الجمعة . التوزيع . الكدادرة . الخواريين . الرباط . الزحيليكة
	البراشوة	النخيلة . الرماني . أهل عين عودة . أهل الرباط
الاثنين	عين السبيت	الرماني الرباط . البراشوة
	عين العودة	الرباط . الرماني . سلا
الثلاثاء	مولاي ادريس أغبال	. السهول . مناطق مجاورة

السوق	الموقع	الرواد
	ثلاثاء سبيارة	أولاد دحو ـ مناطق مجاورة
	سيدي يحى زعير	الرباط ـ سيدي بطاش
الأربعاء	الرماني	أهل الرباط ـ الدار البيضاء ـ الزحيليكة ـ مرشوش
الخميس	الزحيليكة	أولاد موسى ـ اولاد عمران ـ النغامشة الخواريين ـ العراعرة ـ مولاي بوعزة
		الرماني ـ الغوالم ـ بني خيران ـ تادلة ـ مولاي بوعزة ـ الرباط ـ الدار البيضاء ـ مكناس ـ فاس
	سيدي بطاش	الشاوية ـ الزيايدة ـ المذاكرة ـ الرباط ـ الدار البيضاء
الجمعة	جمعة مول البلاد	المعازيز ـ عين السبيت ـ الرماني
السبت	مغشوش	الرماني ـ الغوالم البراشوة
	الحلاليف ـ بير النصر	الشاوية ـ الزيايدة ـ المذاكرة

مصدر الجدول:
تحريات ميدانية داخل القبيلة للطالب الباحث

شهدت المنطقة خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر رواجًا تجاريًا كما هو الحال بالنسبة لجهات أخرى من المغرب، حيث مرحلة بداية الانتقال من المبادلة في إطار التجارة المراقبة إلى التبادل الحر الخاضع لقوانين السوق الرأسمالية خاصة حينما اشتد النفوذ الرأسمالي مع بداية القرن التاسع عشر،[٢٧] وربطت زعير علاقات تجارية عديدة مع مجموعة من المدن المغربية مثل فاس والرباط وسلا ويمكن لمس العلاقة الاقتصادية بين زعير وسلا مثلاً من خلال رسالة موجهة من الطالبي بتاريخ ٢٨ محرم ١٣١٥/ ٢٩ يوليوز تقول: بأن محمد الدكالي ومحمد الشاوي السلاويين خرجا منذ ثمانية أشهر إلى بلاد زعير لبيع السكر والعطرية فانقطع خبرهما إلى أن وجدا مذبوحين ببلاد النويفات من الأعراب [٢٨] كما سنجد رسالة السلطان إلى بنسعيد في ١٤ رمضان الموافق لـ ١٨ دجنبر يحث فيها هذا الأخير على ما تعرض له أحمد المصمودي التطواني أحد قواد الجيش لما كان مارًا إلى زعير عبر عكراش سنة ١٨٦٩، حيث اعترضته واعترضت أصحابه جماعة من السهول ونهبوا لهم ٢٥٠ لويزا من الذهب وبضائع أخرى[٢٩].

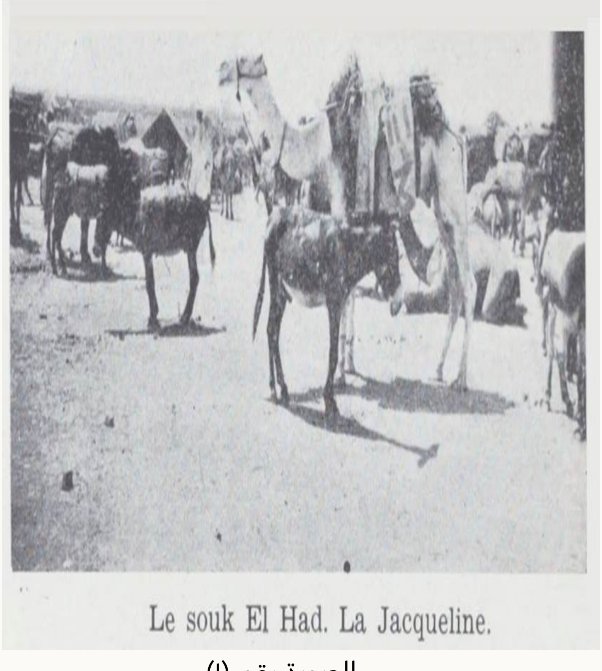
وفي إطار التبادل التجاري بين زعير والمناطق المجاورة نجد أن قبيلتي أولاد زيد المنتمية لحلف الكفيان كانت تجلب من الدار البيضاء والرباط مختلف المواد الضرورية من شمع وصابون وقطن وغير ذلك إلى قبيلة زعير، كما يبيعون لهم المواد الفلاحية من شعير وحمص وغيره من القطاني الأخرى[٣٠].

لقد كانت أسواق زعير مقصد التجار اليهود من الرباط وسلا والدار البيضاء، ومنهم مَنْ استقر ببلاد زعير فمارس الحدادة والبيطرة والتداوي بالأعشاب، وهنا أذكر أن قصبة القايد العربي بنواحي عين اسبيت كانت تحتضن عددًا مهمًا من اليد العاملة اليهودية، وكذلك براكة الدوم بنواحي زحيليكة، ومنهم من مارس العطارة والإسكافية بالرماني مثل "هني" بالفيلاج الفوقاني" بجوار مقهى المرحوم الراقي، وابروقة الذي كان يعالج داء العينين بدكان الجزارة للمرحوم "بابا".

خَاتِمَةٌ

لعبت الأسواق بزعير دورًا مهمًا في حياة ساكنة المنطقة لكونها صلة وصل بين مختلف القبائل، كما كان السوق بمثابة حلقة متعددة الأدوار، فهي اقتصادية يتم فيها ومن خلالها تبادل السلع والخدمات، واجتماعية تلتقي فيه العائلات لتبادل آخر الأخبار وتوطيد الصلات، كما أن السوق يُعَدّ فرصة للاطلاع عن قرب على بعض العادات والتقاليد المنتشرة بالمنطقة وبالتالي فالسوق عبارة عن صورة مصغرة لمجتمع متحرك منذ زمن في يوم واحد وهو يوم السوق، كما للسوق وظيفة سياسية حيث يعد فرصة للمخزن لفرض أمر الواقع من خلال ممارسة سياسته التأديبية في حق بعض القبائل وكذا تمرير بعض الرسائل المخزنية الضرورية.

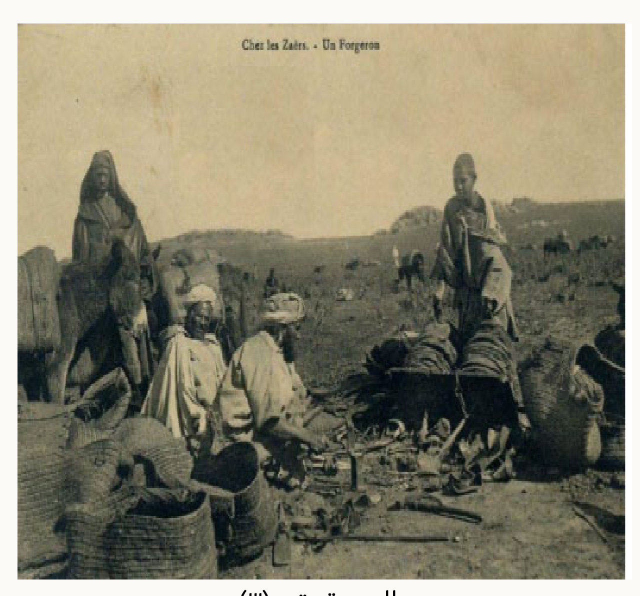
الملاحق



الصورة رقم (١)

سوق الأحد بالبراشوة سنة ١٩١٠

المصدر:www.dilicom.fr

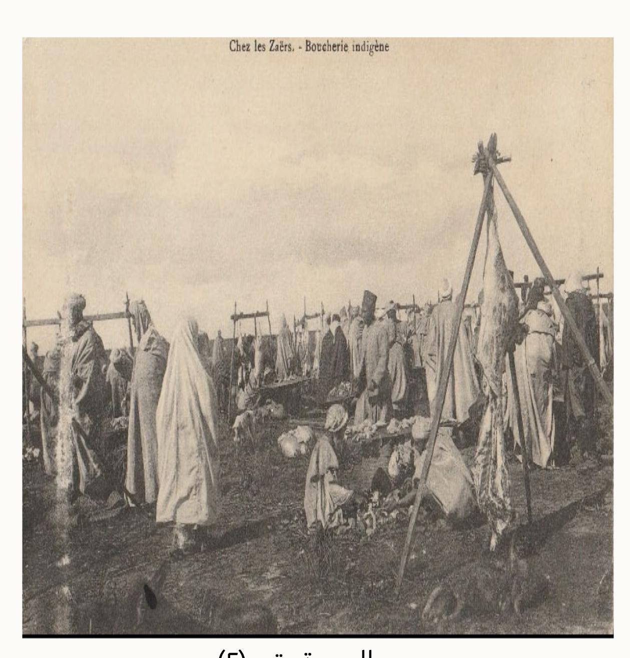


الصورة رقم (٣)

بعض الأنشطة الصناعية الممارسة

بسوق الزحيليگة سنة ١٩١٠

المصدر:www.dilicom.fr



الصورة رقم (٢)

سوق ثلاثاء مرشوش

يوم كان ينعقد بالقرب من "دار الجلالي" ١٩١٠ - ١٩١١

المصدر:www. dilicom.fr



الصورة رقم (٤)

السوق الأسبوعي لخميس سيدي بطاش سنة ١٩٥٦

المصدر: www.dilicom.fr

الاحالات المرجعية:

(١) ظاهرة السويقة أو الأسواق المرتجلة مازالت معروف حتى اليوم داخل قبائل زعير والقبائل المجاورة لها، وتعقد كلما صادف يوم انعقاده يوم العيد، ويسمى "سويقة".

(٢) محمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد الرباطي، **تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان١٦٣٣م – ١٨١٢**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، المجلد الثاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م.ج ٢، ص: ٦١٩.

(٣) فن الحلقة في المغرب نشأ خلال القرن التاسع عشر الميلادي في مدينة مراكش ومكناس، قبل أن ينتشر في باقي المدن، خاصة في أسواقها الأسبوعية التي كان يحج إليها الناس من مختلف المناطق المحيطة بالمدينة مثل قبيلة زعير، ومن الزعريين الذين مارسوا هذا الفن نجد محمد ولد الحميشية المنصوري النجدي.

(4) P. Aubert, **Le pays des Zaër, Bulletin économique et social du Maroc,** Volume. XXIV, Novembre 1960 février 1961, p: 235.

(5) Doutté Edmond.**MERRAKECH**, Comité du Maroc. 1905.p: 144.

(٦) **رسالة من الخديم عبد القادر ابن الحاج الزعري إلى السلطان المولى عبد العزيز** بتاريخ ٢١ يونيو، ١٨٩٥ محفظة عزيزية رقم: ٩٢.

(٧) من رسالة حم بن المراد الزعري إلى السلطان المولى الحسن بتاريخ ٢٨ محرم عام ١٣١٠/ ٢٣ غشت سنة ١٨٩٢، انظر بوعبيد التركي، **وثائق لدراسة تاريخ زعير**، *صص*: ٢٦٨ – ٢٦٩.

(٨) صالح شكاك، **المغرب العميق، ورديغة الكبرى ١٨٧٣ـ ١٩٠١ مساهمة في دراسة تاريخ الجهات بالمغرب المعاصر**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص: ٤٧.

(٩) كناش رقم ١١٧ ص: ١٧٨، خ ح.

(١٠) رسالة من السلطان المولى الحسن إلى القائد أحمد بوقطيب الزعري بتاريخ ١٧ شتنبر ١٨٨٣، كناش رقم ١١٧، ص: ١٣٥.خ ح.

(١١) محمد بن عمر ابن سودة البري، **قبيلة زعير قديما وحديثا**، الجزء (١)، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧٧، ص: ١٨٥.

(12) P. Aubert.**Le pays des Zaërs,** op.cit. p: ٢٣٧

(13) ابن سودة، م س، ص:١٨٤.

(14) P. Aubert. op.cit. p: ٢٣٦.

(١٥) عبد الله العروي **الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية**، ١٨٣٠ -١٩١٢، تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور، المركز الثقافي العربي، ٢٠١١، ص:٧٢.

(١٦) ابن سودة، م س، ص:١٨٤.

(١٧) **الجريدة الرسمية**، العدد، ١٥٤، السنة ١٩٣٦، ص:٧١٤.

(١٨) مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية بالمغرب، ١٨٨٣ـ ١٨٩٤ـ** ج١، **المطبعة** الملكية، الرباط، ص:٣٢١.

(١٩) بورقية رحمة، **الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب**، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩١، ص:٧٠.

(20) La Mission scientifique du Maroc1920, **Villes et tribus du Maroc**. vol. III-VIè, Rabat et sa région.Ed Errnest E. Leroux Paris 1920. P: 169.

(21) La Mission scientifique du Maroc1920, **Villes et tribus du Maroc**, vol. III-VIè, Rabat et sa région.Ed Errnest E. Leroux Paris, 1920. Pp: 169 -170.

(٢٢) عبد الله العروي، **الأصول الاجتماعية للوطنية المغربية**، م س، ص:٥١.

(٢٣) **الجريدة الرسمية**، العدد ٤٢٦، السنة ١٩٢١، ص.٤٩٧

(٢٤) **الجريدة الرسمية**، العدد ٤١٦، السنة ١٩٢٢، ص.٤٩٧

(٢٥) **الشيخ** أبو شعيب بن عبد الرحمان الدكالي الصديقي، (١٢٩٥ - ١٣٥١هـ/ ١٨٧٨م -١٩٣٧م) يُعَدّ أخر حفاظ المغرب ومحدثيه، ورائد الدعوة السلفية في مطلع القرن الثامن عشر، لقب بشيخ الإسلام، تولى الإمامة والخطابة والإفتاء على المذاهب الأربعة في الحرم المكي، وقدم مجموعة من الدروس بالأزهر في مصر وفي جامع الزيتونة بتونس، لقب بمحمد عبده المغرب.

(٢٦) **الجريدة الرسمية**، عدد ٩٩٨، سنة ١٩٣١، ص:٢٤١٨.

(٢٧) عبد الرحمان المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، **قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٢٥، ١٩٩٠، ص: ٣٧٨.

(٢٨) مصطفى بوشعراء، **قبائل بني احسن**، م س، ص: ٢٥٤.

(٢٩) نفسه: ٢٢٣.

(٣٠) ابن سودة، م س، ص: ٤١.



مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الدعاية البريطانية المضادة لثورة العشرين العراقية
صحيفة پيشكوتن الكردية (التقدم) نموذجًا



أ. م. د. خليل مصطفى عثمان

قسم التاريخ

كلية العلوم الإنسانية – جامعة دهوك

إقليم كوردستان – جمهورية العراق

مُلَخّص

حاولت السلطات البريطانية، (التي كانت تسيطر آنذاك على المناطق الكوردية وتحكمها بصورة مباشرة، بعد القضاء على حركة الشيخ محمود الحفيد في السليمانية والانتفاضات الشعبية في مناطق بادينان المتفرقة)، إبقاء المدن والبلدات الكوردية بعيدة عن أحداث الثورة وقد أبدت صحيفة بيشكوتن (التقدم)، التي كانت تصدرها السلطات البريطانية آنذاك في لواء السليمانية باللغة الكوردية، دورًا ملموسًا في هذا المجال، عندما كانت تشير إلى الثورة وأحداثها بأنها حركة عربية صرفة لا تهم الكورد شيئًا، وأن كورجستان تشهد سكونا عاما وإظهار أحداث الثورة في وسط وجنوب العراق وكأنه تمرد عربي متخلف لا صلة لها بالقضية الكوردية ومستقبلها. عملت صحيفة بيشكوتن (التقدم) على أقناع الكورد بضرورة قبول الانتداب البريطاني المعلن عنها في مؤتمر سان ريمو(١٩٢٠)، وخاطبت العشائر الكوردية بضرورة قبول الصداقة الإنكليزية، وإظهار الإنكليز انهم جاءوا في سبيل إنقاذ الكورد من الظلم والغبن الذي لحق بهم على مر التاريخ، وأن الإنكليز يعملون في سبيل رقي وتطور كوردستان. ومن أجل إبعاد المناطق الكوردية من المشاركة في أحداث الثورة وتقديم العون والمساعدة للمناطق التي اشتركت في الثورة، دأبت الصحيفة على نشر سلسلة من المقالات تتضمن التصريحات الرسمية للشخصيات والمسؤلين البريطانيين حول استقلال الكورد وتشكيل كوردستان المستقلة. تضافرت مجموعة من العوامل معا للحيلولة دون انتشار لهيب الثورة في المناطق الكوردية، وعلى الرغم من انتشار القلاقل والاضطرابات في مناطق محددة من كوردستان الجنوبية إلا أن مشاركة الكورد في الثورة قد اتخذت طابعًا عفويًا، وأن القوات البريطانية نجحت في إخماد الثورة والحيلولة دون انتشارها في باقي المناطق الكوردية وبقيت أحداث الثورة منحصرة في مناطق ضيقة من خانقين وطوزخورماتو وكفري من كوردستان الجنوبية. على الرغم من عدم وجود كيان السياسي للمملكة العراقية وقت نشوء الثورة، كما لم تكن ولاية الموصل (كوردستان الجنوبية) جزءًا منها، إلا أن أحداث الثورة والحركات المقاومة التي قام بها الكورد ضد السلطات البريطانية بالتزامن مع وسط وجنوب العراق، قد أثر إلى حد كبير في إعادة البريطانيين لسياساتهم تجاه ولاية الموصل وإيجاد آلية مناسبة لإدارة العراق وربط ولاية الموصل بالمملكة العراقية المزمع تشكيلها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠١	نوفمبر	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٧	نوفمبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

ثورة العشرين؛ صحيفة پيشكوتن (التقدم)؛ الدعاية؛ كوردستان؛ السلطات البريطانية

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.260852

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خليل مصطفى عثمان. "الدعاية البريطانية المضادة لثورة العشرين العراقية: صحيفة پيشكوتن الكردية (التقدم) نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٢٣٠ – ٢٣٦.

Corresponding author: khalil.othman@uod.ac

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

أدى السياسية الاقتصادية البريطانية وكثرة الضرائب وثقلها على العراقيين، والتدقيق في جمعها دورًا كبيرًا في إثارة حفيظة العراقيين ضد الإنكليز، كما أن سوء الإدارة البريطانية العسكرية واستخدام السياسات القمعية وإجبار المواطنين على أعمال السخرة لتنفيذ احتياجات الجيش البريطاني، ومطاردة الوطنيين الأحرار وإلقاء القبض على العديد منهم ونفيهم خارج البلد، وإهانة رجال الدين واتباع سياسة توطين الاثوريين في المناطق الكوردية. إضافة إلى العوامل السابقة ذكرها، كانت هناك عوامل إضافية أثرت في تحريك مشاعر العرب والكورد للثورة ضد الإنكليز منها الدعاية الكمالية والتحريض البلشفي، فضلاً عن إسهام بنود ولسن الأربعة عشر وتأثير الدعاية والثورات العربية، والتي أسهمت إلى حد كبير في تشجيع الكورد للمطالبة بحقوقهم القومية ورفضهم للسيطرة البريطانية.

أولاً: ثورة العشرين العراقية وصداها في كوردستان الجنوبية

جاءت ردود فعل الكورد الحقيقية تجاه إعلان الانتداب البريطاني على العراق إلى قيام العديد من الانتفاضات الشعبية ضد الممارسات وأساليب الحكم البريطانية، وكانت تلك الانتفاضات متزامنة مع انتفاضة شاملة شهدها العراق والتي بدأت شرارتها الأولى من مدينة الرميثة[١]. وقد أدى العامل الاقتصادي والسياسة الاقتصادية، تجاه العراق بشكل عام و كوردستان بشكل خاص، دورًا كبيرًا في إثارة حفيظة الشعب الكوردي ضد الإنكليز[٢]، هذا فضلاً عن فرض ضرائب إضافية على الموطنين، ومن الجدير بالذكر أن السلطات البريطانية لم تضع في حساباتها أن المنطقة قد تعرضت إلى التدمير والخراب قبل سنوات قليلة بسبب الحرب والمجاعة التي أصابت المنطقة خلال سنوات الحرب العالمية الأولى[٣].

أما الوضع السياسي في المناطق الكوردية، فلم يكن بأحسن حال لما كان يسود في وسط العراق وجنوبه، والذي تمثل في سوء تعامل الإدارة البريطانية للأهالي والسكان ومحاولتها فرض سيطرتها على المنطقة بالقوة[٤]، في حين أن سوء معاملة الساسة الإنكليز تجاه رجال الدين والشيوخ والملالي ورؤساء الطرق الدينية، قد أثار مشاعر وغضب واستياء لدى أهالي وسكان المناطق الكوردية المتفرقة ضد السلطات البريطانية[٥]، فضلاً عن أن السياسة البريطانية تجاه أسكان الاثوريين التياريين في كوردستان، كانت من العوامل الأخرى التي دفعت بالأهالي للثورة على السلطات البريطانية[٦].

إضافة إلى العوامل السابق ذكرها، كانت هناك عوامل أخرى أثرت على تحريك مشاعر الكورد للثورة ضد الإنكليز، منها النشاط الكمالي المكثف في المنطقة[٧]، والدعاية البلشفية المضادة للإنكليز والتي بدأت تتسرب إلى كوردستان[٨]، فضلاً عن إعلان بنود ولسون الأربعة عشر، والتي أسهمت إلى حد كبير في تشجيع الأهالي وسكان كوردستان للمطالبة بحقوقهم القومية ورفضهم السيطرة البريطانية[٩]. كما أن تأثير الأحزاب والجمعيات السياسية العراقية كجمعية العلم[١٠]، وفروعها المتواجدة في الموصل، كان لها الأثر الإيجابي في الاتصال بشيوخ ورؤساء العشائر الكوردية والعمل سويًا ضد السلطات والإدارة البريطانية[١١].

من جانب أخر اتخذت مشاركة الكورد في ثورة العشرين طابعًا عفويًا في الغالب، ففي مدينة بغداد مثلاً، اشتركت الأوساط الكوردية في المظاهرات و الاجتماعات الجماهيرية التي نظمت هناك عشية الثورة وفي أيامها، فقد اشترك مصطفى بك، من الكورد المعروفين في بغداد، وكذلك جلال بابان والذي يعد من مؤسسي حرس الاستقلال، شاركوا في تلك النشاطات، والأهم من ذلك أن العديد من الوطنيين الكورد في كوردستان أقاموا نوعًا من الصلات مع الثوار في بغداد في تلك الفترة[١٢].

انتقلت شرارة ثورة العشرين من الرميثة إلى المدن والبلدات الأخرى ومنها إلى مدينة خانقين الكوردية، حيث انخرطت فيها العشائر الكوردية، وكان يوجد تنسيق بين الثوار الكورد وبعض القبائل العربية بصدد إعلان الثورة في حدود منطقتهم[١٣]، وقد نجح الثوار في السيطرة على الوضع تماما في خانقين، أما في طوزخورماتو فقد فوجئت القوات البريطانية المتمركزة فيها بقوة الثوار عندما تمكنوا بقيادة رفعت بك الداودي من تحرير البلدة وإخضاعها لسيطرة الثوار[١٤].

أما في مدينة كفري فقد قاد الثورة إبراهيم خان دلو[١٥]، واستطاع الثوار في المدينة من محاصرة مقر الحاكم السياسي، الكابتن سايمون، واغتيل اثر ذلك[١٦]. أما في لواء أربيل، فلم تكن الأوضاع السياسية أفضل مما كانت عليه في المناطق الكوردية الأخرى، فقد جرت محاولات عديدة لاغتيال (الكابتن هي)، الحاكم السياسي في المدينة، وبسبب الظروف المتوترة فيها، قام الكابتن هي بجولات عديدة في مناطق أربيل المتفرقة، والتقى بعدد من وجهاء المدينة والموالين للإنكليز، إلا أن

موقف عشائر الكوردية المتواجدة في حدود لواء أربيل أمثال خوشناو والزراري والكوران والسورجي، قد دفع بالقوات البريطانية إلى مغادرة مدينة أربيل في الخامس عشر من أيلول ١٩٢٠[١٧].

أما في رواندز، فقد قاد نوري باويل اغا، احد زعماء المؤيدين للشيخ محمود الحفيد، عشائر السورجية وخوشناو وباقي عشائر المنطقة، واستطاع الثوار محاصرة رواندز، واجبرت القوات البريطانية على الانسحاب منها، وشكل الثوار اثر ذلك مجلسًا قبليًا لإدارة المدينة[١٨]. أما بخصوص منطقة بادينان (لواء الموصل ذات الأغلبية الكوردية)، فقد توترت الأوضاع فيها كذلك خلال أيام الثورة، وشهدت مدينة عقرة وضعًا امنيًا متوترًا خلال الأيام الأولى من الثورة، وأشارت معظم التقارير البريطانية إلى الأوضاع غير المستقرة هناك[١٩]. ففي مدينة تلعفر فقد شهدت قتالاً شرسًا بين الثوار والقوات البريطانية التي أجبرت على الانسحاب منها بعد تعرضها لخسائر فادحة[٢٠]، وفيما يتعلق بالمناطق الأخرى، زاخو وعمادية وبارزان، فإنها لم تشهد توترًا كبيرًا بسبب الإجراءات الأمنية التي اتخذتها السلطات البريطانية، فضلاً عن انه لم يمض وقت طويل على إخماد الثورات التي قامت في المنطقة عام ١٩١٩[٢١].

أما في لواء السلمانية، فإن الأوضاع السياسية والأمنية فيها لم تشهد توترًا ملحوظًا قياسًا مع المناطق الأخرى من كوردستان، لأن الأوضاع كانت قد استقرت فيها بعد إخماد ثورة الشيخ محمود الحفيد، ولم تمر سوى اشهر قلائل عليها، كما اتخذت السلطات البريطانية مجموعة من الإجراءات للسيطرة على المدينة منها، زيادة قواتها العسكرية ورفع رواتب عناصر الشرطة من السكان المحليين ومنحهم بعض الامتيازات[٢٢]. يبدو أن هناك مجموعة عوامل تضافرت معًا للحيلولة دون انتشاء الثورة في أنحاء كوردستان، تأتي في مقدمتها، ما تعرض له أهالي كوردستان من الممارسات التعسفية للسلطات البريطانية من قتل وتشريد وفرض ضرائب باهظة خلال الفترة التي سبقت الثورة، هذا فضلاً عن وقوف عدد من المتنفذين ورؤساء العشائر إلى جانب السلطات البريطانية في مساعيها لمنع انتشار الثورة في كوردستان[٢٣].

على الرغم من نجاح السلطات البريطانية في إخماد الثورة وقمعها والحيلولة دون انتشارها في كوردستان، إلا أنها في الوقت نفسه نبهت هذه السلطات إلى حتمية اتباع طرق سياسية جديدة يكون الحوار السياسي فيها هو الأساس في التعامل مع الكورد، وبذلك أجبرت السلطات البريطانية على التفكير بإيجاد حلول أخرى للتعامل مع الشعوب الواقعة تحت انتدابها، وعلى هذا الأساس وجد الساسة البريطانيون انهم أمام خيارين، أولهما داخلي، يتطلب تشكيل حكومة عراقية تمتلك صلاحيات واسعة وتتحمل مسؤولية إدارة البلاد بشكل مباشر[٢٤]، أما الخيار الثاني فقد انصب على عقد مؤتمر خاص يتعلق بالمستعمرات البريطانية، لمعالجة المشاكل الطارئة ووضع الخطط الاستراتيجية لإدارة مناطق نفوذها في الشرق الأوسط بشكل عام والعراق وكوردستان الجنوبية بشكل خاص[٢٥].

ثانيًا: موقف صحيفة بيشكوتن (التقدم)[٢٦] من ثورة العشرين العراقية

خصصت السلطات البريطانية في العراق إمكانات إعلامية ودعائية هائلة من أجل تقليل التوتر والمخاطر في مختلف ولاية بغداد والبصرة وأجزاء من كوردستان الجنوبية، وكانت صحيفة بيشكوتن (التقدم) جزءًا من الحملة والماكنة الإعلامية، التي استخدمتها الساسة الإنكليز في لواء السليمانية لكبح جماح الثورة[٢٧]. عملت صحيفة بيشكوتن (التقدم) منذ بداية نشوب الثورة على إبعاد المناطق الكوردية من المشاركة في أحداثه، وحاولت من أجل عدم حصول تعاون أو اتصال بين قادة الثورة ورؤساء العشائر الكوردية، وبقاء المناطق الكوردية بعيدة عن لهيب الثورة المندلعة في وسط وجنوب العراق[٢٨].

حاولت صحيفة بيشكوتن (التقدم) أن يظهر للقارئ والمثقفين الكورد أن أحداث وسط وجنوب العراق، ما هي إلا تمرد عشائري، قام بها مجموعة من العشائر العربية المتخلفة ضد إشاعة القانون ونشر القيم الحضارية الحديثة، وان رؤساء التمرد هم بعض الشخصيات الشيعية المتخلفة التي تعمل من أجل إرجاع امتيازاتهم ونفوذهم العشائري القديم[٢٩].

اتبعت صحيفة بيشكوتن (التقدم) أساليب عديدة من أجل ترسيخ أهدافها في المجتمع الكوردي، ففي بداية اندلاع أحداث الثورة حاولت الصحيفة إبعاد أهالي كوردستان من سماع أخبار الثورة وأحداثها وكذلك الانتصارات التي كان يحرزها الثوار على القوات البريطانية، وشغل القارئ والمثقف الكوردي بقضية كيفية استغلال الكورد بوجود الإنكليز في المنطقة والمطالبة بتأسيس كيان سياسي مستقل لهم وتأمين مستقبلهم السياسي تحت حماية والإدارة الإنكليزية[٣٠]. كما عملت الصحيفة على لفت انتباه الكورد إلى الخدمات الجليلة التي قدمتها السلطات البريطانية لأهالي كوردستان في مجال التعليم

وإنشاء الطرق وتوفير الكهرباء وتنظيم الإدارة وغيرها من الخدمات التي لم تكن موجودة زمن الحكم العثماني[٣١].

عملت صحيفة بيشكوتن (التقدم) على استغلال مشاعر الكورد القومية، من أجل إبعاد العشائر الكوردية من المشاركة في أحداث الثورة، ونشرت الصحيفة مقالات عديدة عن الوعود التي قدمتها الحكومة البريطانية تجاه استقلال كوردستان، كما نشرت الصحيفة خبرًا عن تأسيس مجلس المدينة (مجلس شار) في لواء السلمانية لإدارة شؤون اللواء وأكدت أنها مستقلة ولا علاقة لها بغداد، وانها سوف تدار مباشرة من قبل المندوب السامي البريطاني[٣٢].

اتبعت صحيفة بيشكوتن (التقدم) أساليب أخرى من اجل إبعاد المناطق الكوردية من المشاركة في أحداث الثورة، فمن أجل إحباط مشاعر ومعنويات الثوار، بدأت بنشر مقالات حول الانتصارات العسكرية للقوات البريطانية على مسلحي العشائر، ففي مقال تحت عنوان "العراق" جاء فيه أن القوات البريطانية دمرت مسلحي العشائر العربية المشاركة في التمرد في لواء الحلة، وانه تم قتل (١٤٩) مسلح منهم، وفي مقال أخر جاء فيه انه تم الحاق أضرارًا جسيمة بالقوات العشائرية ومسلحيهم في منطقة "الجربوعية"، كما نشرت مقال أخر تحت عنوان (لاي فرات ـ الجانب الأخر من الفرات" أن القوات البريطانية تمكنت من تطهير "المحمودية" بالكامل من المسلحين المناوئين للسلطات البريطانية[٣٣].

عملت صحيفة بيشكوتن (التقدم) على تخويف العشائر الكوردية وتهديدهم من المشاركة في أحداث الثورة، فقد نشرت الصحيفة أخبار عن استخدام القوات البريطانية العنف المفرط تجاه سكان وأهالي القرى والمدن المشاركة في الثورة، ففي مقال نشرتها الصحيفة جاء فيها أن السلاح الجو البريطاني قد قصفت وبشكل عنيف المناطق المحيطة بمدينة بعقوبة بتاريخ الثاني والعشرين من آب ١٩٢٠، بسبب مشاركة أهاليهم بأحداث الثورة[٣٤].

لم يقف محاولات الصحيفة في تخويف وتهديد العشائر الكوردية من المشاركة في الثورة هذا الحد، بل نشرت الصحيفة مقالاً جاء فيه أن السلطات البريطانية قد قطع الماء بالكامل عن مدينة "الهندية" سبب مشاركة أهاليها في المعارك ضد القوات البريطانية[٣٥]. عملت صحيفة بيشكوتن (التقدم) من اجل ردع العشائر الكوردية وابعداها عن المشاركة، ففي مقال نشرتها الصحيفة جاء فيه أن القوات البريطانية تقوم بتعذيب المسلحين الذين يتم أسرهم، بل وإنه تم إعدام عدد من المسلحين الذين تم إلقاء القبض عليهم في مناطق متفرقة من الحلة والمحمودية[٣٦]. ومن جانب أخر نشرت الصحيفة التهديدات التي كان يطلقها المسؤولين الإنكليز للعشائر الكوردية التي تأوى المسلحين وتوفر لهم الدعم، ففي مقال نشرتها في العدد (٢١) جاء فيه أن السلطات البريطانية أقدمت على إعدام عدد من أهالي "شهربان" بسبب ايواءهم للهاربين وتقديمهم يد العون والمساعدة في العاشر من أيلول ١٩٢٠[٣٧].

كما أكدت الصحيفة من خلال مقالاتها أن القوات البريطانية على استعداد تام من اجل استخدام الأسلحة الحديثة التي وصلت إلى العراق حديثًا ضد العشائر الكوردية التي تنوي الوقوف مع تمرد وسط وجنوب العراق[٣٨]. ومن أجل إحباط معنويات الثوار والتقليل من مخاطر الثورة وانتشارها في المناطق الكوردية، نشرت الصحيفة مقالات عديدة حول سيطرت القوات البريطانية على مناطق عديدة التي اندلعت فيها القلاقل، كما نشرت أخبارًا عن تراجع كبير للمسلحين في الفرات الأوسط، ففي مقال نشرتها الصحيفة جاء فيه أن مجموعة كبيرة من المسلحين في منطقة "المحمودية" سلموا انفسهم للقوات البريطانية، وان رؤساء عشائر الكوفة والنجف قد طالبوا السلطات تسليم الأسلحة المتواجدة بحوزة المسلحين مقابل الكف عن قصف مدنهم وقراهم[٣٩].

كما نشرت صحيفة بيشكوتن (التقدم) أن المعقل الرئيس للثورة، قد تم السيطرة عليها من قبل الجيش البريطاني في الفرات الأوسط، وان رؤساء العشائر قد طلبوا من السلطات البريطانية إصدار العفو العام مقابل إنهاء التمرد، ففي مقال جاء فيه أن ممثلي لواء كربلاء قد رضوا تسليم المدينة في الثالث والعشرين من تشرين الاول ١٩٢٠ وانها سوف تسلم السلطات البريطانية (١٧) شخصية مطلوبة و(٤٠٠٠) قطعة سلاح وإرجاع ممتلكات الحكومة ومحاسبة الذين تجاوزوا على ممتلكاتها[٤٠]. كما نشرت صحيفة بيشكوتن (التقدم) مقالاً جاء فيه أن الطائرات البريطانية قصفت القرى التابعة لمنطقة هورامان وقرى منطقة ده لو بسبب مشاركتهم في أحداث التمرد و في مقال أخر جاء فيه أن القوات البريطانية قد دحر مسلحي العشائر في بعقوبة وقره غان و ليلان وطوز وأعاد الأمن والأمان إلى المنطقة[٤١]. وقد خصصت صحيفة بيشكوتن (التقدم) عدد من مقالاتها لأحداث مدينة كفري ومشاركة عشائرها بقيادة إبراهيم خان دلو في الثورة، ففي مقال جاء فيه أن القوات البريطانية سيطر بالكامل على مدينة كفري وفرار زعيم الثورة إبراهيم خان ده لو إلى مناطق عشائر عزة وبيات،

كما نشرت الصحيفة أخبارًا عن لجوء رفعت بلك الداودي إلى كوردستان ايران بعد سيطرت القوات البريطانية على المنطقة[٤٢].

ومن جانب أخر حاولت الصحيفة إظهار ولاء رؤساء العشائر الكوردية للسلطات البريطانية، ففي مقال نشرتها الصحيفة جاء فيه أن رؤساء عشائر الطالباني قدموا مذكرة للحاكم السياسي البريطاني في كركوك، أكدوا فيها إخلاصهم للسلطات البريطانية وأنهم على استعداد لمعاقبة القرى التابعة لهم التي تجاوزت على السلطات البريطانية في منطقة "ليلان"[٤٣]. وفي مقال أخر نشرتها الصحيفة جاء فيه أن الشيخ حميد الطالباني ومسلحيه، لعبوا دورًا إيجابيًا في الحفاظ على الأمن وسلامة القوات والحامية البريطانية المتواجدة في مناطق زه نكه نه و داوده، كما نشر الصحيفة خبرًا عن زيارة ريس عشائر بشتدر (عباس سليم اغا) إلى لواء السليمانية ولقائه بالحاكم السياسي البريطاني واستعداد عشائر بشدر في مساعدة القوات البريطانية في استتاب الأمن والاستقرار في المنطقة[٤٤].

كما نشرت الصحيفة أخبارًا عن الضرائب والتعويضات التي فرضتها السلطات البريطانية على العشائر الكوردية التي شاركت في أحداث الثورة، ففي مقال نشرتها الصحيفة جاء فيه أن السلطات البريطانية اغرمت عشيرة الداودي بـ (٣٥) الف ربيه و (١٣٠) قطعة سلاح وعشائر دوز بـ (١٧,٥) الف روبيه، وفارس اغا من منطقة البيات بـ (٣) آلاف روبيه و(٢٠) قطعة سلاح[٤٥]. بدأت صحيفة بيشكوتن (التقدم)، بعد انحسار خطر الثورة في المناطق الكوردية بشكل خاص ووسط وجنوب العراق بشكل عام، بنشر مقالات حول مساعي السلطات البريطانية إلى إعادة تأهيل الطرق وخط سكك الحديد وتوفير الأمن والأمان وفتح المستشفيات، واتباع سياسة جديدة تؤدي إلى قيادة العراقيين بأنفسهم لإدارة شؤون بلدهم تحت إشراف السلطات البريطانية[٤٦]. وقد أسدل صحيفة پيشكوتن (التقدم) الستار على أحداث ثورة العشرين بنشرها نص المنشور التي أصدرها المندوب السامي البريطاني برسي كوكس حول إعلان العفو عن جميع المشاركين في أحداث الثورة، وبدأ مرحلة جديدة من تاريخ العراق في الثلاثين من أيار ١٩٢٠[٤٧].

خاتمةٌ

تُعَدّ ثورة العشرين من أكبر الثورات في تاريخ العراق المعاصر، لما تميزت به من مشاركة مختلف الفئات من مختلف المدن والقرى في وسط وجنوب العراق وكوردستان الجنوبية، وشكلت الثورة نقطة تحول في تكوين الوعي السياسي والاجتماعي للمجتمع العراقي.

كانت أسباب الثورة عديدة تأتي في مقدمتها الوضع الاقتصادي والسياسية الاقتصادية التي اتبعتها السلطات البريطانية، فضلاً عن سوء الإدارة واستخدام السياسات القمعية تجاه المواطنين ومصادرة الحريات وإلقاء القبض على الأحرار والوطنيين ونفيهم خارج العراق، وكذلك إهانة رجال الدين (الشيعة والسنة) وإتباع سياسة توطين الاثوريين المهاجرين في القرى والمناطق الكوردية.

وفيما يتعلق بالأسباب الخارجية التي سرعت عجلة الثورة تتمثل في الدعاية الكمالية المؤثرة في المناطق الكوردية وبدأ انتشار الأفكار البلشفية عن طريق أسري الكورد الذين أفرج عنهم الثورة البلشفية (الذين تم أسرهم من قبل القوات الروسية في الحرب العالمية الأولى)، فضلاً عن نشر بنود ولسن الأربعة عشر بين الوطنيين الكورد، وكذلك تأثير دعاية الأحزاب القومية والثورات العربية، والتي أسهمت إلى حد كبير في قيام الكورد بالثورة ورفضهم للوجود البريطاني في المناطق الكوردية.

مارست السلطات البريطانية أسلوب التجويع والحرمان من خلال قيامهم بإتلاف المزارع والبساتين وقطع المياه عن المدن، لإيقاع الأذى بالسكان والزراعة، وسارت سياستهم على حرق بيوت ممَنْ اشتركوا في الثورة، وقامت بمصادرة وقتل أعداد كبيرة من رؤوس الأغنام والأبقار والخيل في المنطقة، ولم تعر اهتمامًا بالقوانين الدولية فأقدمت على إعدام من أسرته من الثوار دون تحقيق أو محكمة، كما قصفت المدن والقرى بقذائف الطائرات والمدافع، وفتكت قنابلهم أجساد العديد من الناس الأبرياء.

استخدمت السلطات البريطانية صحيفة پيشكوتن (التقدم)، التي كانت تصدرها السلطات البريطانية باللغة الكوردية في لواء السليمانية، كوسيلة لإبقاء المناطق الكوردية بعيدًا عن أحداث الثورة، وعملت إلى إظهار الثورة على أنه تمرد عربي متخلف ينحصر أحداثه في منطقة ضيقة من الفرات الأوسط، وهدد رؤساء العشائر الكوردية من الانتقام بقصف مدنهم وقراهم في حال مساعدتهم للثوار أو إشراكهم في مجريات أحداث الثورة.

على الرغم من نجاح السلطات البريطانية في قمع الثورة وإخمادها، إلا أنها غيرت من فكرة تحويل العراق إلى (هند ثانية) وإقامة حكم بريطاني مباشر، وايجاد بدائل أخرى تتمثل بفكرة تشكيل حكومة عراقية محلية تمتلك صلاحيات واسعة وتتحمل مسؤولية إدارة البلاد مباشرة.

الاحالات المرجعية:

(١) انطلقت الشرارة الأولى من ثورة العشرين ضد السلطات البريطانية في العراق، في منطقة الرميثة في الثلاثين من حزيران ١٩٢٠، أي بعد شهر من إعلان الانتداب البريطاني على العراق، ليمتد لهيب الثورة إلى مناطق واسعة من جنوب العراق، ثم وصلت شراراتها إلى ديالى في السادس عشر من آب من العام نفسه، وانخرطت فيها العشائر الكوردية، لا سيما عشائر منطقة خانقين، للمزيد من التفاصيل يُنظر: ل.ن. كوتلوف، **ثورة العشرين الوطنية التحريية في العراق**، ترجمة: عبد الواحد كرم، (بغداد: ١٩٧١)، ص ١٤٦؛ عبدالله الفياض، **الثورة العراقية الكبرى**، ط٢، (بغداد: ١٩٧٤)، ص ٢٦٨.

(2) Floren Bell, letter of Gertude Bell, (London, 1960), p. 36; Dr. Toby dogdde, The British mandate in Iraq 1914 – 1932, (London, 2005), p.p. 45 – 49.

عبد الرزاق الحسني، **الثورة العراقية الكبرى**، (لبنان، ١٩٧٨)، ط٤، ص ١١ – ١١٦.

(٣) كمال مظهر أحمد، **دور الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية**، (بغداد: ١٩٧٨)، ص ١١.

(٤) أرنولد تالبون ويلسون، **بلاد ما بين النهرين بين ولائين**، ترجمة: فؤاد جميل، (بغداد: ١٩٦٩)، ج٢، ص٣٩٧ – ٣٩٨؛ د. وميض جمال عمر نظمي، **الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق**، بغداد: ١٩٨٥)، ص ٣٤١ -٣٥٠.

(٥) على الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث**، (بغداد: ١٩٧٧)، ج٥، ص ٢٧ – ٢٣.

(٦) مجيد خدوري، **العراق الحديث**، ترجمة: متى عقراوي، (بغداد: ١٩٧٦)، ص٣٦ – ٣٧.

(٧) عثمان علي، **دراسات في الحركة الكوردية المعاصرة (١٨٣٣-١٩٤٦)**، دراسة تاريخية وثائقية، تقديم الدكتور عمر الهماوندي، (اربيل: ٢٠٠٣)، ص ٢٥٥ – ٢٥٦.

(٨) خليل مصطفى عثمان الاتروشي، **كوردستان الجنوبية (العراق) في سنوات الاحتلال والانتداب البريطانيين (١٩١٨ – ١٩٣٢)**، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة دهوك، ٢٠٠٥، ص٥٨؛ عبد الفاح علي يحيى، ثورة العشرين والعلاقات الخارجية، الثقافة (مجلة)، العدد التاسع، (بغداد: أيلول ١٩٧٣)، ص ١١٠ – ١١٢.

(٩) كمال مظهر أحمد، **أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط**، (بغداد: ١٩٧٨)، ص ١١٤ – ١١٧.

(١٠) **جمعية العلم**: تأسيس في الموصل في بداية العام ١٩١٤ على يد أحد الشباب المسيحيين يدعى (ثابت عبد النور) الذي كان طالبًا في الأستانة، وقد استطاع الاتصال ببعض الشباب الموصليين من الطلبة والمثقفين، وكان هدفها تحرير البلاد العربية من الحكم التركي، ثم انتقل نشاطها من الأستانة إلى الموصل والمناطق المجاورة لها. للمزيد من التفاصيل ينظر: إبراهيم خليل أحمد، **جمعية العلم السرية ودورها في تنامي الوعي القومي العربي في الموصل (١٩١٨)**، بين النهرين (مجلة)، العدد (٢٦)، السنة السابعة، (الموصل: ١٩٧٦)، ص٢١١ – ٢١٢.

(١١) عبدالمنعم الغلامي، **ثورتنا في شمال العراق**، (بغداد: ١٩٦٦)، ص ٣٤ – ٣٥؛ محمد أمين عثمان، **حصاد الحنظل**، (دهوك: ١٩٩٨)، ص٢١ – ٢٦.

(١٢) كان من بين الوطنيين الكورد الذين أجروا اتصالات مع الثوار هم كل من: رفيق حلمي فائق توفيق، والمحامي رفيق توفيق وكريم الحاج عبد الله. للمزيد من التفاصيل يُنظر: كمال مظهر أحمد، دور الشعب الكوردي...، ص ١٦.

(١٣) عمر علي شريف، **صفحات من التاريخ النضالي لأبناء كرميان (١٩١٥ – ١٩٤٥)**، كولان العربي (مجلة)، العدد (٣٩)، (أربيل: آب ١٩٩٩)، ص ٧٥.

(١٤) خليل مصطفى عثمان الاتروشي، المصدر السابق، ص ٥٨.

(١٥) **إبراهيم خان دلو**: هو إبراهيم خان ابن صالح خان، أحد رؤساء عشائر ده لو، الساكنة في نواحي كفري، ينتمي أصلاً إلى عشيرة هرمزيار الكوردية القاطنة في المناطق المتاخة لـ "قه لا جه رمله" و "بيرموني" التابعة لناحية شيروان. للمزيد من التفاصيل يُنظر: مكرم طالباني، إبراهيم خان، **ثائر من كوردستان**، (بغداد: ١٩٧١)، ص٢ – ٥.

(١٦) مصطفى نه ريمان، **شورشي ئيبراهيم خان ده لو** ١٩٢٠، (بغداد: ١٩٨٥)، ل ١١٤ – ١١٦؛ أنور علي الجبوري، **دور المثقفين في ثورة العشرين**، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٩)، ص ١٢٠.

(17) Air, (20), (513), Report on Arbil, S.Murray, AP, Arbil 15/7/1920.

(18) F.O., (371), (5068), From w.Hay, (Note of Rawanduz), 10/8/1920.

(١٩) كمال مظهر أحمد، **ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي**، (بغداد: ١٩٧٧)، ص ٧٨ -٨٠.

(٢٠) قحطان أحمد عبوش التلعفري، **ثورة تلعفر ١٩٢٠**، (بغداد: ١٩٦٩)، ص ٣٢١.

(٢١) عبد الفتاح علي يحيى، **الشعب الكردي وثورة العشرين**، التآخي (جريدة)، العدد (١٣٧٢)، بغداد، الأول من تموز ١٩٧٣، ص ٦ – ٧.

(٢٢) كمال مظهر أحمد، **ثورة العشرين**...، ص ٩١ – ٩٢؛ محمد ره سول هاوار، شيخ مه‌حمودى قاره‌مان وده‌وله‌ته‌كه‌ى خوارووى كوردستان، (لندن: ١٩٩٠)، ل ١٥٣.

(٢٣) سروة اسعد صابر، **كردستان من بداية الحرب العالمية الاولى إلى نهاية مشكلة الموصل (١٩١٤- ١٩٢٦)**، دراسة سياسية ثقافية، (أربيل: ٢٠٠١)، ص٢٠١ – ٢٠٢؛ أحمد عثمان أبو بكر، **كردستان في عهد السلام (بعد الحرب العالمية الأولى)**، (أربيل: ٢٠٠٢)، ص ١٥٦ – ١٦٠.

(٢٤) د. عزيز الحاج، **القضية الكردية في العشرينيات**، (بيروت: ١٩٨٤)، ص ٣٥

(٢٥) خالد عبد المنعم العاني، **التاريخ السياسي، (١٩٢٠ – ١٩٣٠)، موسوعة العراق الحديث**، (بغداد: ١٩٧٧)، مج١، ص ٢٠٢.

(٢٦) صحيفة أسبوعية سياسية أدبية اجتماعية أصدرتها السلطات البريطانية في لواء السليمانية باللغة الكوردية، وصدر العدد الأول منها في ٢٩ من نيسان ١٩٢٠، صاحب الامتياز ومسؤول التحرير كان الميجر سون (حاكم السياسي والعسكري للواء السليمانية)، كان الهدف من إصدار صحيفة پيشكوتن (التقدم) تتمثل في تقريب الفئة المثقفة الكوردية من السلطات البريطانية والوقوف بوجه الدعاية الكمالية التي بدأت تزداد في المنطقة بسبب القضاء على حكمدارية السيخ محمود، وكذلك عملت الصحيفة إلى الإساءة إلى سمعة البلاشفة والأفكار الشوعية، التي بدأت تتسرب إلى المنطقة، كما عملت الصحيفة على تحسين صورة الإدارة البريطانية والعمل على قبول الكورد لفكرة تنصيب الأمير فيصل ملكًا على العراق وربط كوردستان الجنوبية بالمملكة العراقية المرتقب تشكيلها. استمرت صدور الصيحفة لمدة سنتين تقريبًا حيث صدر العدد الأخير (١١٨) في ٢٧ من تموز ١٩٢٢. للمزيد من التفاصيل يُنظر: پيشكوتنيەكەمين رۆژنامەی سليمانی ١٩٢٨ – ١٩٢٢، كوكردنەوە و ئامادەكرنی بو چاپ عەلي ناجي كاكە حەمە ئەمين عەتار – سيروان بەكر سامی، پيشەكي: د مارف خزنەدار، (هەولير: ١٩٩٨)، جبار جباري، **تاريخ الصحافة الكردية في العراق**، (بغداد: ١٩٧٥)، ص ٣٢.

(٢٧) إبراهيم خليل أحمد (الدكتور)، نشأ **الصحافة العربية في الموصل**، (الموصل: ١٩٨٢)، ص٨٥ – ٨٧.

(٢٨) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (٤)، ٢٠ أيار ١٩٢٠، ص ٣.

(٢٩) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (١٢)، ١٥ تموز ١٩٢٠، ص ٣.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١- ٢.

(٣١) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (٧)، ١٠ حزيران ١٩٢٠، ص ٣.

(٣٢) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (٤)، ٢٠ أيار ١٩٢٠، ص ٣.

(٣٣) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (١٦)، ١٢ آب ١٩٢٠، ص ٣.

(٣٤) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (١٨)، ٢٠ آب ١٩٢٠، ص ٣.

(٣٥) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (١٧)، ١٩ آب ١٩٢٠، ص ٣.

(٣٦) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (١٨)، ٢٦ آب ١٩٢٠، ص ٣.

(٣٧) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (٢١)، ١٦ أيلول ١٩٢٠، ص ٣.

(٣٨) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (١٦)، ١٢ آب ١٩٢٠، ص ٣.

(٣٩) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (١٨)، ٢٦ آب ١٩٢٠، ص ٣.

(٤٠) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (٢٨)، ٤ تشرين الأول ١٩٢٠، ص ٣.

(٤١) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (٢٨)، ٢ أيلول ١٩٢٠، ص ٣.

(٤٢) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (١٩)، ٣٠ أيلول ١٩٢٠، ص ٣.

(٤٣) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (٢٣)، ٢٦ آب ١٩٢٠، ص ٣.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٣.

(٤٥) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (٢٣)، ٣٠ أيلول ١٩٢٠، ص ٣.

(٤٦) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (٢٩)، ١١ تشرين الثاني ١٩٢٠، ص ٣.

(٤٧) پيشكوتن (التقدم) جريدة، العدد (٥٨)، ٢ حزيران ١٩٢١، ص ٣.

ترجمات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

أهداف وطرائق جرد التراث الثقافي اللامادي في المغرب



المعطي بريان
باحث في سلك الدكتوراه
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

الدِّرَاسَةُ

Rahma Miri ; «Objectifs et méthodes d'inventaire du patrimoine culturel immatériel au Maroc». Collectif L'ouvrage : De l'immatérialité du patrimoine culturel, Editeurs : Ahmed Skounti & Ouidad Tebbaa Bureau régional de l'UNESCO à Rabat et Equipe de recherche Culture, patrimoine et tourisme de la Faculté des Lettres et des Sciences humaines, Université Cadi Ayyad, Marrakech, Imprimerie Walili Marrakech Première édition 2011.PP 79 - 84.

إن وعي وزارة الثقافة بأهمية التراث الثقافي اللامادي يعتبر حالة حديثة، وخصوصًا بعد إعادة هيكلة مديرية التراث الثقافي عام ٢٠٠٦، تم إحداث قسم للجرد والحفاظ على التراث اللامادي، ومن أهدافه التعريف بالتراث الثقافي اللامادي أو ما يعرف اختصارًا بـ "التراث الثقافي اللامادي". لقد قوت مبادرة المغرب من أجل الاهتمام بالتراث الثقافي اللامادي والمحافظة عليه انطلاقا من سنة ٢٠٠٣ وذلك انسجاما مع تفعيل الاتفاقية (الفصل ١٢ والتي تضمن عملية المحافظة على التراث). في إطار هذه الرؤية، فإن إدارة التراث الثقافي من خلال قسم الجرد والتوثيق الخاص بالتراث، قد أصدرت دليلاً منهجيًا للجرد والهدف منه هو جرد وتوثيق الوثائق وأشكال هذا التراث، وذلك بطريقة منهجية، سواء كان ماديًا أو لا ماديًا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام الترجمة:	٢٧	أكتوبر	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	١٩	نوفمبر	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
الثقافة؛ التراث اللامادي؛ البحث الميداني؛ الجرد؛ التوثيق؛ المحافظة؛ التثمين

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.260853

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:
رحمة ميري. "أهداف وطرائق جرد التراث الثقافي اللامادي في المغرب"، ترجمة: المعطي بريان.- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٢٣٧ – ٢٤٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: elmaati.briane@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مقدمة

لقد وضعت مديرية التراث الثقافي، من خلال قسم الجرد والتوثيق الخاص بالتراث، دليلاً منهجيًا يهدف إلى إحصاء وتوثيق، بشكل منهجي، العناصر المختلفة الخاصة بالتراث الثقافي سواء منه المادي أو غير المادي. وتم توضيح المكونات الأساسية لـ التراث الثقافي اللامادي بالمغرب، وكذا نوعية المنهجية الخاصة بجمع الوثائق واستغلالها سعيًا وراء المحافظة عليها وتطويرها وتقييمها.

١-الهدف من جرد التراث الثقافي اللامادي

إن جرد التراث الثقافي اللامادي، يهدف أولاً إلى التعريف به، وتصور العناصر الخاصة بالتراث الثقافي اللامادي بالمغرب، وسعيا وراء هذا، فقد أصدرنا تحديدًا لهذه الأنواع بالتفصيل من خلال عشرة مواضيع:

١. العادات والتعابير الشفوية.
٢. فنون الفرجة.
٣. الممارسات، والطقوس والاحتفالات.
٤. المعارف والممارسات الخاصة بالطبيعة والكون.
٥. الحرف ومعرفة الطرائق التقليدية.
٦. السلوك وأنماط العيش.
٧. حركة الجسد وفن الظهور.
٨. الكنوز المادية الحية.
٩. الفضاءات الثقافية وأماكن العبادة.
١٠. المؤسسات الاجتماعية التقليدية.

وقد تم استلهام هذه العناصر، في جزء منها، من تعريف التراث الثقافي اللامادي الذي حددته اتفاقية ٢٠٠٣ وهي تحدد أيضا الحقول الأساسية التي تحتوي الأصناف الثانوية الأكثر تفصيلاً للتراث الثقافي اللامادي وهذه الأصناف الثانوية يمكن إغناؤها واستكمالها من خلال العمل التجريبي (خلال البحث الإثنوغرافي في الميدان والذي سوف يحدد لنا نوع فن الفرجة مثلا، وكذا شكل الاستغلال الفلاحي الخاص بمنطقة ما، أو حركة جسدية والتي يمكن الحاقها بهذا الجرد المنهجي).

أما الهدف الثاني من الجرد فهو عملية التعريف بعناصر التراث الثقافي اللامادي من خلال أنشطة مختلفة:

١/١-تغذية وتزويد قاعدة بيانات

إن قاعدة البيانات هذه لم تكن عملية بعد، وفي الوقت الحالي فإن البيانات المتحصل عليها يتم دمجها في ملفات مفصلة متعلقة بكل حقل من الحقول. وهذه المعلومات يتم الولوج إليها من خلال قاعدة بيانات مفتوحة في وجه العموم.

٢/١-تزويد البيانات الخاصة بواجهة التراث

يتم إعلان هذه المعطيات المتعلقة بالتراث الثقافي اللامادي وكذا عملية التوثيق الخاصة بالتراث على الموقع www.patrimoine-Maghreb.info/Maroc والجدير بالذكر أن هذه الواجهة قد تم إطلاقها من طرف مكتب اليونيسكو بالرباط، والإيسيسكو. والهدف منها تمثيل غنى وتنوع التراث الخاص بالبلدان المغاربية مثل المغرب تونس الجزائر وليبيا وموريتانيا.

٣/١-الدعم والتحسيس بأهمية التراث الثقافي اللامادي

اعتمادًا على قاعدة المعلومات المجتمعية حول عناصر التراث الثقافي اللامادي، فقد تم اتخاذ مجموعة من أنشطة الدعم والتحسيس ومنها:

- إطلاع العموم على أعمال التراث الثقافي اللامادي من خلال استخدام التكنولوجيا الحديثة والمتعلقة بالمعلومات مثل اصدار الكتيبات والملصقات وغيرها باللغة المحلية، إضافة إلى لغات أخرى في البلاد، إضافة إلى وضع أفلام وثائقية وأقراص مدمجة وإصدارات على الفضاء الرقمي إلخ.... وذلك بهدف توسيع الوصول إلى المعلومات، وهذه الأدوات هي وسيلة للنقل العصري والحديث والتي تدعم النقل الشفوي لهذا الشكل التقليدي من التعبير.
- جذب الانتباه للسلطات المحلية والمنتخبين والمسؤولين الجمعويين وكذا الجمهور الواسع حول أهمية المحافظة على التراث الثقافي اللامادي ونقله إلى الأجيال القادمة.
- نشر معلومات التراث الثقافي اللامادي المختلفة لمختلف المسؤولين من أجل مساعدتهم على دعم وتدبير عناصر التراث الثقافي اللامادي المتواجدة على مستوى القطاع.
- القيام بحملات تحسيسية خلال أعمال الاستقصاء الميداني وتشجيع الجماعات على الاهتمام وتقييم التراث.
- تنظيم المعارض المؤقتة في المتاحف، وتشجيع التبادل ما بين المؤسسات التي تنشط في مجال الـ التراث الثقافي اللامادي.
- تنظيم لقاءات تجمع الباحثين في التراث الثقافي اللامادي والمسؤولين المحليين والجماعات المعنية.
- ضمان إعلام واسع وممكن للأنشطة المرتبط بالتراث الثقافي اللامادي.

٤/١-المحافظة على التراث الثقافي اللامادي وتثمينه

إن الاستراتيجية التي يتم الالتزام بها سعيًا وراء المحافظة وتثمين التراث الثقافي اللامادي يجب أن ترتكز على النقاط التالية:

- التعاون والتنسيق مع مختلف المؤسسات المدرسية: تنظيم المحترفات، الدورات التكوينية، الأيام التكوينية، الأنشطة الخاصة بمواضيع التراث الثقافي اللامادي من أجل مساعدة الشباب على الوعي بضرورة المحافظة على التراث الثقافي اللامادي، وعلى المستوى الجامعي يجب دعم الدراسات الخاصة بمظاهر التراث الثقافي اللامادي خصوصًا تلك المتعلقة بالتغيرات التي هي في طور الاندثار.
- التعاون مع الجامعات والمسالك المختلفة، والجمعيات التي تنشط في مجال المحافظة على التراث الثقافي اللامادي وذلك بجمع وإحصاء وتوثيق وتثمين المعلومات المتعلقة بـ التراث الثقافي اللامادي من جهة، والقيام بمختلف الأنشطة الداعمة والتحسيسية بأهمية التراث الثقافي اللامادي من جهة ثانية.
- تنظيم المعارض المؤقتة في المتاحف واللقاءات التي تجمع ما بين مسؤولين التراث الثقافي اللامادي، وكذا المسؤولين المحليين والباحثين بخصوص مبادرة الـ التراث الثقافي اللامادي.
- التعاون مع مختلف الفاعلين في ميدان التراث غير المادي، ومساعدتهم على القيام بإنجازات مختلف المشاريع التي تروم المحافظة على التراث الثقافي اللامادي.
- تشجيع الحوار والتواصل ما بين الفاعلين بميدان التراث الثقافي اللامادي من خلال عقد اللقاءات وإنشاء المواقع الإلكترونية (خصوصًا من طرف الفاعلين في ميدان التراث الثقافي اللامادي الموزعين على مختلف مناطق المغرب).
- تشجيع مختلف فاعلي مجال التراث الثقافي اللامادي على تطوير أدائهم في دعم التراث وإنتاجه.

٢-التراث الثقافي غير المادي

إن عملية تجميع المعطيات الإثنوغرافية سعيًا وراء استخلاص مظاهر التراث الثقافي اللامادي تضم مجموعة من الإجراءات والخطوات الخاصة، ويتعلق الأمر بجمع العناصر الأساسية للتراث الثقافي اللامادي بطريقة منهجية وذلك بمراعاة بعض المبادئ العامة لعملية البحث الإثنوغرافي والخطة التي تبنيناها تتضمن ثلاث مراحل:

١/٢-استشارة المعطيات الموجودة مسبقًا

إن العديد من مجالات التراث الثقافي اللامادي التي تم الحديث عنها، وتصنيفها قد كانت موضوعا للعديد من الدراسات والمنشورات والإحصاءات والمعارض والأفلام والوثائق وكان الهدف من خلالها مساءلة والتعرف على مختلف مصادر المعلومات التي من شأنها توضيح موضوع بحثنا وكذا التواصل مع مختلف الباحثين والمسؤولين عن المؤسسات التي لها علاقة بمجال التراث الثقافي اللامادي، أيضًا، فالجامعات والمكتبات ومراكز الأبحاث والتوثيق والمراكز القافية ومراكز الأرشيف المحلية والصحافة والأنترنيت والمؤسسات المتخصصة تتوفر على وثائق مكتوبة (تقارير، أعمال مكتوبة، مجلات، أرشيف إلخ....). سواء منها المصورة (مجموعات الصور والصحافة إلخ ...). أو المصورة على طريق فيلم (وثائق، حوارات مع مختصين إلخ ....).

وكل هذه المصادر تشكل مرجعا للمعلومات وذات قيمة كبيرة لإغناء مجال التراث الثقافي اللامادي، وتعتبر عملية استحضارها في الأعمال القادمة عملية مهمة خصوصا ما تعلق في الأعمال الميدانية وكذا معالجة المواضيع والمعطيات المتحصل عليها. من جهة أخرى، فإن المتحف الإثنوغرافي يضل المكان الأمثل لحفظ الشهادات المادية والممارسات ومختلف أشكال التبادل الاقتصادي والتكنولوجي. وهو يحتوي على مختلف الأشياء المرتبطة بإثنية محددة أو مجموعة اجتماعية أنتجته.

وعندما يتم نقل هذه الأشياء من مكانها الأصلي، فذلك بغاية المحافظة على مدلولها الأصلي، كما أن الملف الوصفي الخاص بهذه الأشياء يعطي مختلف المعلومات المهمة عن طريقة وظروف إنتاجها واستخدامها وقيمتها الرمزية السحرية أو الدينية.

٢/٢-البحث الإثنوغرافي الميداني

إن الهدف من البحث الاثنوغرافي الميداني في إطار التصور المرتبط بـ (التراث الثقافي اللامادي) هو تجميع المعلومات الخاصة بالحقول الموضوعاتية التي سبق لنا التطرق لها. ويتوجب على الباحث التأكد من نجاعة الطريقة التي عرفناها مسبقا وسلكناها من أجل جمع المعطيات الميدانية من خلال الملاحظة والمعالجة وصيرورتها، ومن أجل تسهيل البحث الإثنوغرافي الميداني، فقد وضعنا دليلا للمقابلات له صلة موضوعات التراث الثقافي اللامادي التي عرفناها مسبقًا.

يقوم الباحث بتسجيل المعلومات المفيدة مباشرة، وهذه العملية يجب أن تكتمل من خلال وضع تصورات وملاحظات لمختلف المظاهر الممثلة لموضوعات البحث. وبغض النظر عن الصور، فيمكنه تعزيز بحثه بتوثيق مسجل بتقنية التصوير السينمائي من خلال وضع مقاطع قصيرة ما بين ٣ إلى ١٠ دقائق بخصوص موضوعات البحث وكذا وضع سياق لمختلف المخططات المصورة.

٣/٢-استغلال المعطيات

بالإمكان عرض المعطيات المجمعة خلال البحث الميداني وتقديمها بطريقة شاملة تحت الأشكال التالية: نصوص مكتوبة، صور، أفلام، مراجع ببيليوغرافية، مقاطع الصحف، لوائح المنظمات... إلخ، وكل هذه العناصر يجب أن تكون موضوع ترتيب وتصنيف مناسب. ويمكن للمواد المكتوبة والملاحظات أن يتم تصنيفها بطريقة تراعي اختلاف المواضيع والمناطق مما يجعلها سهلة من حيث الاستقرار والاستشارة، وفيما يخص الصور والأفلام فيجب أن تكون مرقمة ومعلقة مما يسهل عملية استعمالها (كتابة الملفات، والبطاقات والرسومات المختلفة...). إن المعلومات المحصل عليها انطلاقا من عملية البحث الميداني يجب أن تراعي إمكانية استخدامها فيما بعد سعيا وراء استخدامها لتعزيز قاعدة البيانات وكما سبق لنا الاشارة إلى ذلك، سوف نقوم بدمج هذه المعلومات داخل الملفات التي تتضمن مجموعة من القطاعات (التعرف على العنصر، مميزاته، الأشخاص والمؤسسات التي لها علاقة بالعنصر، الحالة الحالية للعنصر... وتجميع البيانات).

خَاتِمَةٌ

إن الجرد المنهجي للتراث الثقافي اللامادي يسمح بالتعريف بمختلف المقدرات والغنى الثقافي لكل منطقة، وسوف تكون هذه الأشياء قاعدة لكل عملية استراتيجية ثقافية يتم الأخذ بها خلال برامج التطوير المحلي والذي يسمح بالمحافظة على الهوية الوطنية والذاكرة الجماعية.

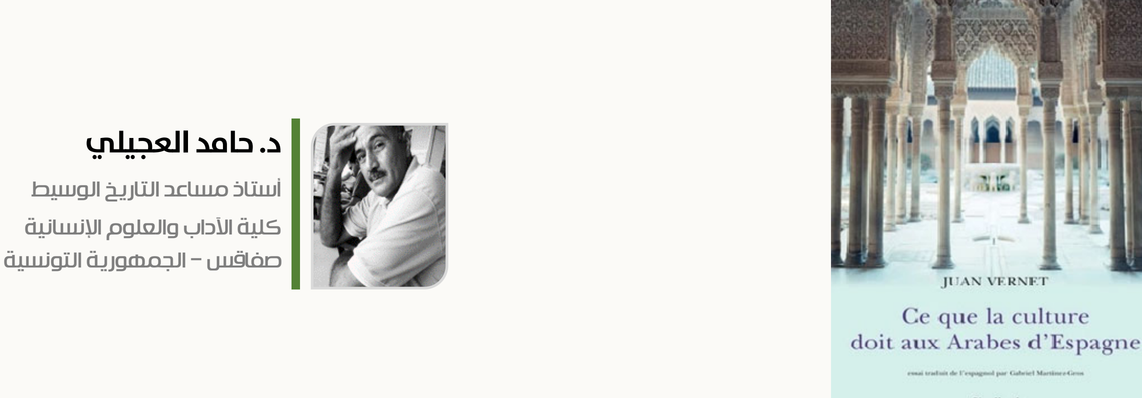
إن التحسيس بضرورة المحافظة على التراث الثقافي اللامادي للأجيال القادمة من طرف السلطات العمومية تسمح باستغلاله أيضًا على الصعيد الثقافي، الاقتصادي، والاجتماعي. وبضرورة إعطاء أهمية قصوى للتراث الثقافي اللامادي من طرف السلطات العمومية والمحلية يقود إلى توسيع للأنشطة وتلك المدرة للدخل والتي من شأنها تطوير الشأن المحلي.

وتأكيدًا، فإن تثمين هذا التراث ليس بالعملية السهلة، ولهذا نعتقد أنه من الضروري خلق تنسيق ما بين الجامعات والسلطات المحلية والجمعيات وكل مؤسسة لها علاقة بـ التراث الثقافي اللامادي مما يجعلها، كلها، مسؤولة عن تحقيق أهداف هذه العملية.

Bibliographie :

- *Skounti, Ahmed, 2005, Le patrimoine culturel immatériel au Maroc : promotion et valorisation des trésors humains, Rabat : Bureau de l'UNESCO, 63 pages. Non publié.*
- *UNESCO, Convention pour la sauvegarde du patrimoine culturel immatériel - Textes fondamentaux, Bruxelles, Albe de Coker, 2009.*
- *Union Européenne (Programme Euromed Héritage) – Projet de développement des systèmes culturels territoriaux (DELTA) : Guide méthodologique pour le développement des systèmes culturels territoriaux, Institut méditerranéen de Rome: Edigraf, 2005. Portail du patrimoine marocain : http://www.patrimoine-maghreb.info/maroc.*

ما تدين به الثقافة
لعرب إسبانيا



د. حامد العجيلي

أستاذ مساعد التاريخ الوسيط

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

صفاقس - الجمهورية التونسية

بيانات الكتاب

Juan Vernet, Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne, traduit de l'espagnol par Gabriel Martinez Gros, La Bibliothèque arabe, collection éditées par Pierre Bernard, collection l'Histoire décolonisée, Sindbad, Paris,1985.

كلمات مفتاحية:

الثقافة العربية؛ الثقافة الإسبانية؛ العلوم العربية؛ الأندلس؛ العصر الوسيط

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.260854

مقدمة

تناول عدد من الباحثين بالدرس التراث العربي الإسلامي ووقفوًا عند نقط عديدة تتعلق بإشكاليات محورية وأحيانًا لم تتجاوز تلك الدراسات النظرة السلبية لموروث حضاري استفادت منه الإنسانية في شتى المجالات وتعد الدراسات التي أنصفت ذلك التراث نادرة في البحوث المتعددة التي صدرت في مناطق عدة من العالم وإن كانت مختلف الآراء متعددة ولا يمكن للباحث أن يقف عند رأي موحد فإن تلك المواقف قد عبرت عنها "روح العصر" الذي أنتج استنتاجات لا تعدو أحيانًا أن تكون سوى نزوات مغال فيها من قبل ما يعرف بالمستشرقين أو المستعربين.

نتناول في هذا الصدد عمل لأحد الكتاب الأسبان الذي تربى بين رفوف المكتبات الإسبانية على أيدي مستشرقي بلده الذين كانت لهم رؤى متضاربة أحيانًا من فترة إلى أخرى حسب الأوضاع التي سادت أسبانيا في الفترة المعاصرة ابتداءً من القرن التاسع عشر وأصبحت أكثر انفتاحًا في القرن الموالي (العشرين) ومن تلك الأوضاع لم يجد المؤلف نفسه خارج منظومة الإقصاء والاتهام والتهميش ولعل عدم الاهتمام بمؤلفه كان من بين المسائل التي أرقت صاحب الكتاب ومثل تلك الحالة لا تشذ عن القاعدة العامة للفكر الغربي الذي حجب رؤى إنسانية رفضت بوتقة الانغلاق وإقصاء الآخر ولعل إعلان أسبانيا مؤخرًا في ظل الاحتفال بمرور ستمائة سنة على وفاة ابن خلدون، أن ذلك الفذ كان ذو جذور إسبانية ما هي إلا رؤية مضادة لما يزال سائدًا في الأوساط اليمينية الأسبانية وتبدو تلك الفكرة بمثابة ردة فعل لا تخلو من مبالغة وإيديولوجية سياسية عرفت مكامن الضعف في العرب التي ندد بها ابن خلدون نفسه.

ضمن هذا السياق المحفوف بالانزلاقات المعرفية نقدم كتابًا علميًا قابلاً للقراءة المتأنية وفاتحًا دفتيه للتأويل والنقاش، فعلى الرغم أن الكتاب إيجابي بالنسبة للقارئ العربي "المنفعل" إلا أنه أكاديمي من

أعلى طراز فكل محاولة لتبني أفكار المؤلف يجب أن تؤخذ بروية وحكمة لا تخرج من خانة التاريخ الذي هو فينا ونحن منه.

أولاً: التقديم المادي للكتاب

عدد الصفحات: ما يناهز ٤٠٠ صفحة. (٣٥٢ للنص والبقية للملاحق والهوامش)

عدد الفصول ١٠ فصول تتوزع كالتالي:

الفصل الأول: مقدمة تاريخية

الفصل الثاني: ملامح الإرث القديم في العالم العربي

الفصل الثالث: تقنيات الترجمة

الفصل الرابع: العلوم خلال القرن العاشر والحادي عشر

الفصل الخامس: العلوم في القرن الثاني عشر

الفصل السادس: علوم القرن الثاني عشر

الفصل السابع: العلوم في القرن الثالث عشر

الفصل الثامن: العلوم ابتداءً من القرن الثالث عشر

الفصل التاسع: العلوم من بداية القرن الثالث عشر

الفصل العاشر: الأسبان العرب: والفن والأدب

ثانيًا: محتويات الكتاب

المدخل

قدم المؤلف كتابه بقوله: "هذا العمل هو ترجمة للكتاب الذي أتممت إنجازه سنة ١٩٧٤ وعنوانه الأصلي: "الثقافة الإسبانية العربية في الشرق والغرب" ونشر سنة ١٩٧٨ وتأخر نشره لأسباب عديدة وذكر صاحب الكتاب أنه على امتداد الفترة المتراوحة بين ١٩٧٤-١٩٨٤ هناك عديد الكتابات الجديدة وبالرغم من قلتها فقد استفدت منها على حد قوله وذلك قصد الإضافة لمحتوى مؤلفه ونفس الملاحظة تنطبق على البيليوغرافيا المتصلة بالمواضيع التي عرضت في الكتاب لذلك قام المؤلف ببعض التعديلات في المواضيع والهوامش ويمكن للقارئ أن يتفطن إلى تلك الإضافات دون عناء.

تمهيد

يزعم هذا الكتاب القيام بكشف بما تدين به الثقافة لعرب أسبانيا وبالنسبة للفظ عرب فإنها لا تحيل بالنسبة للمؤلف على حد تعبيره إلى عرق أو ديانة وإنما تحيل على اللغة التي استعملها العرب والفرس والترك واليهود والإسبان في العصر الوسيط والتي كانت قد ساهمت في انتقال المعارف المختلفة من الفترة القديمة –الكلاسيكية والشرقية-إلى العالم الإسلامي ويكفي أن "أشير على سبيل المثال إلى انتقال العلوم الصحيحة وعلم الجبر إلى الغرب عن طريق الترجمات اللاتينية واللغة الرومانية romane وقد ساهمت تلك العلوم في حركة النهضة التي عرفتها أوربا. إن ما ذكر مجرد مثال يمكن القيام بإحصاء النصوص العلمية التي تم نشرها حتى نعلم ما يدين به الغرب لإسبانيا وأشير أن المشكل المتعلق بالمؤلفين ثانوي بالنسبة لي ولكني أهتم بمحتويات المؤلفات التي كتبت في أسبانيا أو تم نقلها عن طريق أسبانيا وسنتبين لاحقًا بشكل محسوس كيف أن معارف عديدة بدءًا بالكيمياء على سبيل المثال وصولاً إلى الملاحة في أعالي البحار انتقلت إلى أوربا.

الفصل الأول: مقدمة تاريخية[١]

*نشأة الإسلام: تعرض المؤلف إلى الصعوبات الأولى التي حفت بنشر الدين الجديد ثم انتصار الرسول على أعدائه وقام في الأثناء الاتصال بالعالم الخارجي عن طريق "السفراء" للتعريف بالمبادئ الجديدة التي أتى بها إلى كل من بلاد فارس وبيزنطة والحبشة وأثار في الأثناء المؤلف أن الرسول لم يكن أميا وإنما كان على معرفة بالحساب والكتابة باعتبار أنه كان تاجرًا عند خديجة بنت خويلد التي ستصبح لاحقًا زوجته.

تم غزو أسبانيا سنة ٧١٢ و٧٤٠م وكان قوام عدد الجيش يتراوح بين ٣٠ و٤٠,٠٠٠ مقاتل ومع تتابع السنين تمكنت تلك المجموعة التي استقرت من التأثير في الواقع الأسباني وشهدت مرحلة التعريب تقدمًا هامًا خاصة خلال القرن العاشر الميلادي حيث شهدت العربية انتشارًا واسعًا في الجزيرة الأيبيرية لهيمنة طبقة سياسية لها ثقافة عربية منذ القرن التاسع الميلادي كان ذلك التأثير يشهد تطورًا مطردًا وتدعم بشكل خاص في القرن الموالي (العاشر الميلادي) على حساب الثقافة الأسبانية.[٢]

إن الأسلمة في أسبانيا إذن كانت تمثل الدعامة المباشرة للتعريب وبالنسبة لسلطة الثقافة التي كانت نصف مشرقية فحسب فقد مكثت في البداية في الأدب ثم مجال العلوم بشتى أنواعها فإذا كانت الثقافة الأولى محلية الطابع خالصة وهي التي اعتمدت منذ نشأتها على الشعر الذي كانت له حيويته المذهلة على نهري دجلة والفرات خلال القرن السادس الميلادي فإن الثقافة العربية الثانية كانت ثمرة الترجمة والدراسة للمؤلفات القديمة ولم يكن ذلك مخجلا أبدا بالنسبة إلى المسلمين وعند التعبير عن آرائهم كانوا دائما يستعملون اللغة العربية تاركين إلى الخلف الأصول والمصادر التي استندوا إليها مهما كان مرجعها وكانت اللغة العربية قد أبقت جنبا إلى

جنب لغات أخرى مختلفة عنها مثل اللغة الفارسية والسنسكرية واليونانية واللغة اللاتينية في أسبانيا.

وقد أشارت الرسالة الواحدة والعشرين لإخوان الصفاء (نهاية القرن العاشر الميلادي) أن اليونانيين قد أخذوا الحكمة من المصريين واليهود واعترف المترجمين العرب الكبار خلال القرن التاسع الميلادي بالدين الذي عليهم تجاه اليونان والفرس واللاتينيين دون أي مركب نقص.

كانت الثقافة العربية في البداية ذات نزعة توفيقية syncrétisme ولكن ستتحول تلك النزعة مع التطور التاريخي ونجد ذلك المنحى التوفيقي في الآثار المتبقية في قصر عميرة الذي نجد به تجسيدات للملوك والأباطرة الذين هزموا من قبل المسلمين ومن بينهم الملك رودريق كما نشير أن تلك المنحوتات قد أبقت على الطابع البيزنطي الخالص.

العباسيون:[٣]

خلال القرن العاشر الميلادي ظهرت الفرق الكلامية وكانت حلقات الدروس التي يقوم بها الكلاميون يحضرها المسلمون بمختلف مللهم (السنة، الشيعة، الخوارج...) بالإضافة إلى الماديون والملحدون واليهود والمسيحيون وبكلمة جامعة كل ممثلي الديانات التوحيدية وكان لكل فرقة زعيمها الذي يتصدرها للدفاع عن فكرهم وآرائهم وكان كلما دخل شخص إلى قاعة الاجتماعات يقف الحضور احتراما وإجلالا له وقبل أن يبدأ الجدل يتدخل أحد الحاضرين من غير المسلمين ويبادر بالكلمة التالية:" اجتمعنا اليوم للنقاش/ للمجادلة أنتم أيها المسلمون لا تهاجموننا بما يوجد في كتابكم أو بما ذكره رسولكم تقبلونا بحجج تستند إلى العقل الإنساني وكانت تلك الوضعية تقبل بالإجماع والترحيب".

فيما يتعلق بالسلطة الجديدة (العباسية) لم تكن قادرة على القيام بحروب توسع جديدة ولذلك اقتصرت على رتق الصدع للحلول دون تفكك الإمبراطورية التي تحولت إلى فسيفساء من الدول المستقلة في كل من أسبانيا والمغرب وتونس وبلاد فارس وهي نواتات لأقليات وكانت في بعض الأحيان تستند إلى العنف فنجد منهم القرامطة والعبيد الزنوج الذين هددوا أركان الدولة مثلما قام بذلك سبارتكيس في القرن الأول الميلادي ضد روما، واجتمع الشيعة إلى ذرية علي ابن طالب ونجحوا في الوصول إلى السلطة في تونس سنة (٢٩٦هـ/٩٠٩م) وفي فترة المعز لدين الله الفاطمي سينتقلون إلى مصر ويبسطون نفوذهم على جزء من سوريا وكانت تلك الانتصارات قد ساهمت في تأسيس القاهرة التي عوضت الفسطاط العاصمة القديمة.

نشأة الثقافة العربية[٤]

خلال القرنين الأولين ليس هناك من المسلمين سوى عدد قليل يحسن الكتابة باللغة العربية وبقي هناك العديد من الذين دخلوا الإسلام يكتبون بلغتهم الأصلية بدون صعوبات تذكر وبقي المسلمون منشغلون بعمليات التوسع للإمبراطورية الجديدة وكانوا لا يعلمون إلا القليل فيما يتعلق باللغة التي استعملت في الإدارة وفي الوثائق الرسمية وكانت البيروقراطية تسير بشكل مقبول وفي نهاية القرن السابع الميلادي عندما مست حروب الفتح نهايتها بدأت الوثائق الرسمية تكتب باليونانية جنبا إلى جنب مع اللغة العربية في الوثائق الرسمية.

وإذا كانت المسألة من الزاوية المدنية في استعمال الكتابة ليست لها انعكاسات في استعمال اللغة الأجنبية في الإدارة فلم يكن ذلك المسار هو نفسه في الميدان الديني ولذلك كان يتم دائما نسخ القرآن وكتابته باللغة العربية وحتى اليوم لا يسمح بكتابة القرآن بغير اللغة التي جاء بها وبالنسبة للسنة الدينية (العادات الدينية)-توافق المشنة Michna اليهودية والعادات المتبعة من قبل آباء الكنيسة لدى المسيحيين-فكانت تنقل شفويا من اللسان إلى الأذن عبر الأجيال قبل أن يقوم بتثبيتها كتابيا (أو عن طريق الكتابة) وكانت كذلك عن طريق اللغة العربية منذ النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي بفضل عمليات التعريب السريعة في الشرق بالإضافة إلى استخدام الورق.

ولأجل الحفاظ على أصالة تلك العادات، الحديث، قام المسلمون بخلق منظومة تتعلق بنقد النص وتتمثل تلك الطريقة فيما سمي بالإسناد لكل الذين قاموا بنقل النص يعني قبل عرض المحتوى كان من الضروري الإشارة إلى اسم الشخص الذي نقل الحديث ثم من أخذ عنه إلى غاية الوصول إلى الخبر الذي نقل عن الرسول أو أحد الصحابة وانتقلت تلك الطريقة من القاموس الديني إلى مجالات أخرى لها صبغة أدبية وهي مؤلفات الطبقات (الأجيال) التي اهتمت بكل الشخصيات التي روت الأخبار لمعرفة مدى صدق الخبر المنقول وهل كانت تلك الشخصيات السابقة التي روي عنها على معرفة بما وقع أو ما حدث وكان ذلك التقليد قد بقي من القرن الثامن الميلادي إلى القرن الثاني عشر الميلادي.

ونجد صدى ذلك أيضًا في العلوم مثل الرياضيات وعلم الفلك في سنة ٧٦٢م كان علماء الفلك النوبخت وهي عائلة علمية واصلت الحفاظ على نفس الإرث كما نشير إلى ما شاء الله (المتوفى حوالي سنة ٨١٥م) وهو يهودي قد يكون أصيل مصر اعتنق الإسلام الذي أشار إلى علاقة النجوم بتخطيط مدينة بغداد وفيما يتعلق بالكتب التالية فقد وجدت في أسبانيا في القرن العاشر وفي نفس الفترة ظهرت عائلة الفزاري وكان الأب يدعى إبراهيم والابن محمد الذي توفي حوالي ٨٠٦م واحتكرا ترجمة المؤلفات العلمية من السنسكرية وقاما بوضع أول إسطرلاب وكان كل ذلك في علاقة بهارون الرشيد والمأمون وعند تأسيس بيت الحكمة كان عالم الفلك يحيى بن علي منصور (توفي سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م) وعلى رأسها أغلب الوجوه العلمية في تلك الفترة مثلما كان عليه الحال زمن الفترة الهيلنستية في مكتبة ومتحف الإسكندرية وكان المأمون يدفع ذهبًا لكل كتاب مترجم وزنه ذهبا مثلما أشار إلى ذلك حنين ابن إسحاق.

ومن بين العلماء يمكن ذكر الخوارزمي(المتوفى سنة ٨٤٥م) الذي أبدع في مجال الرياضيات علم الجبر وعلم الفلك (الحساب على الشاكلة الهندية) ومن المرجح أنها قد انتقلت إلى الأندلس عن طريق عباس ابن فرناس (توفي سنة ٢٧٤هـ/٨٨٧م) وفيما يتعلق بطريقة التعليم فإن حنين ابن إسحاق قد ذكر في مؤلفه "نوادر الفلاسفة" بقوله: "كانت حلقات الفلاسفة في بدايتها قد بدأت من مشاغل المعلمين الإغريق والأمم الأخرى ليروا أبناؤهم يدرسون الفلسفة ويتقبلون تكوينا أدبيا كاملا وقد بنوا منازل مغلفة بالذهب وصورًا عديدة موجهة لقلوبهم لقبول المعرفة بعيونهم واختلف صغار السن في تفسير ما يرونه في الروح والقلب وقام اليهود بتزيين بيعاتهم بالنحت وكذلك فعل المسيحيون في كنائسهم والمسلمين في مساجدهم وعندما ينهي الطالب تعلم أو معرفة مادة ما كان يتم الاحتفاء بذلك في ذلك المنزل (الدار) دورة أكاديمية ويوم فرح يحضره كل سكان تلك المنطقة..."

وخلال كامل الفترة العباسية ظهر العديد من العلماء في جميع المجالات وكان لدور الترجمة من اليونانية إلى العربية دور هام في نشر العلوم وشيوعها مثل الفيزيائي ابن الهيثم (٣٥٤-٤٣٠هـ/٩٦٥-١٠٣٩م) الذي ظهر بمصر والطبيب ابن سينا والفيلسوف (٣٧٠-٤٢٨هـ/٩٨٠-١٠٣٧م) بفارس والبيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ/٩٧٣-١٠٤٨م) في غازان بأفغانستان وانتشر علم أولئك العلماء في كل أنحاء الإمبراطورية تقريبا سواء في فترة حياتهم أو بعد موتهم وكانت تلك الحركة من العلماء قد شارفت على الأفول تقريبا في أواخر القرن (الخامس الهجري/ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي).

الإمارة العربية في إسبانيا[5]

ذكر المؤلف النقاش الذي دار بين نخبة من العلماء الأسبان وخاصة منهم المؤرخين في تقييم الغزو العربي لإسبانيا الذي تميز بسرعة السيطرة على المنطقة ويثير المؤلف أن ذلك المشكل لم يكن خاصًا بإسبانيا فقط بل نفس الظاهرة-سرعة الفتح-قد حدثت في أماكن أخرى كانت فيها دول مركزية قوية أكثر من نظيرتها أسبانيا مثل بلاد فارس وبيزنطة نفسها التي شهدت السلطة فيها تداعيا سريعا ويمكن تفسير الظاهرة بالقوة العسكرية الضاربة إلا أن ذلك لم يكن واقعًا أو أن الديانة الجديدة قد تم تقبلها بسرعة أو لم تدخل في صراع مباشر مع الشعوب التي تم غزوها في حين لم تكن المسيحية قد رسخت بشكل كبير في أسبانيا على سبيل المثال التي بقيت وثنية بامتياز ومن هذه الناحية فإن هناك استقلالية كبيرة قد تركت للشعوب الخاضعة التي لم يطلب منها سوى ضرائب غير مجحفة مما ساهم في سقوط المقاومة الإيديولوجية وكان العديد من اليهود والمسيحيين قد دخلوا في الدين الجديد والذي مثل من ناحية أخرى تميزا اجتماعيا على كل من عرفوهم.

إن الحضور الإسلامي في أسبانيا قد عرف نقاشا متقطعا وأخذ من الوقت حيزا هاما ولكنه في نهاية المطاف كان مثمرا بين العالمين الكبيرين لجامعتنا وتم نفيهما الاثنين في فترة الحرب الأهلية، نريد الحديث عن الجدل الذي طرحه كل أمريكو كسترو Américo Castro/Sanchez-Albrnoz.

اتخذ ذلك الجدل مناهج ووجهات نظر وتوترات مختلفة جنحت بهما إلى استنتاجات متباعدة بالنسبة للأول اقترح أن الديانة تمثل أحد أسس الذات والجوهر والوجود لشعب ما واستنتج بذلك أن أسبانيا باعتبارها دولة لم توجد إلا مع مجيء الإسلام وهو ما أدى إلى رد فعل المسيحية في حروب الاسترداد وقد وجد ما يؤيده في النصوص الرسمية ذات المحتوى الديني التي نشرت بعد سنة ١٩٣٦.[6]

أما الثاني –وبدون أن يدحض كل أفكار الطرف الأول- فلاحظ أنه يمكن التغيير بشكل سهل من ديانة أكثر من الذات/الجوهر وأيضا الأفعال-على الأقل من خلال ما نعرفه اليوم-قد تتيح لنا بفكرة: تتعلق بوضعية المرأة

على العكس مما هو موجود بفرنسا، إن تغيير الديانة يمكن العثور منذ القرن العاشر الميلادي عندما نعثر على أسماء مسلمين مثل كرلمان ,Pascual, Carloman Garcia, Castillo وهو ما يجعلنا نشك في أن تلك الأنساب قد اعتنقت الإسلام خلال غزو أسبانيا وعادت إلى المسيحية في فترة الاسترداد.

وانطلاقاً من هذه النظرية المتعلقة بالاحتلال الثلاثي الذي نمذج تاريخنا: المسلم الذي فتح لنا تطورا علميا كبيرا بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر والثاني مع كريستوف كولومبس في أمريكا وهو الذي وضعنا على طرقات عالم ما وراء البحار والثالث مع شارل كانت الذي جلب لنا الإمبراطورية الذي قاد أسبانيا إلى مشاريع خاسرة مشكوك في أهميتها بشكل عام.

ومهما كان فإنه منذ أن تغلغل الفكر الصليبي في أذهان الأسبان نسينا ما كان يجمعنا بالمسلمين لمدة قرون في حياة مشتركة بيننا وحتى القرب من المغرب قد فرض على تاريخنا تأثيرًا حاسمًا أخذ مجراه ومثال بسيط على ذلك لنفكر في النتائج السياسية لموت الملك دون سباستيان في معركة وادي المخازن أو كذلك في عصرنا فيما يتعلق باحتلال المنطقة التابعة للمغرب. وأكثر عمقاً إذا كان ممكنا نهدف إلى عدم التسامح الديني الذي ندعيه في غالب الأحيان في علاقة بالموروث الإسلامي، صحيح أن هناك مناسبات عدة تم فيها حرق الكتب وملاحقة العلماء خلال الفترة الإسلامية بإسبانيا ويمكن ذكر مثال على ذلك خليل الغفلة ومكتبة الحكم الثاني وابن حزم والغزالي ومن بين العلماء الذين تم نفيهم أبو عثمان سعيد بن فتحون، السرقسطي الحمار الذي نفاه المنصور وتوفي بصقلية وصحيح أن المسيحيين في فترة النهضة قد اتبعوا نفس الأساليب والطرق من خلال ملاحقة كل الذين يمتلكون كتبا محرمة إن كانوا موريسكيين أم لا ولكن ليس مؤكدا أن العالم القديم نفسه قد عرف عدم التسامح.

ولأجل ذكر مثالين يكفي التذكير أن أرسطو قد هرب من أثينا ليهدي لها نشيد الحرب (النصر) فخُمن بأنه جاحد بلا دين في هرمياس Hermias وأن مؤلفاته يبدو أنها نُظر إليها بشكل غير مرضي فوضعت في الملاحق/أو ملحقة وكذلك الشأن بالنسبة لأرستارك Aristarque في ساموس أُتهم بالإلحاد لأنه دافع عن نظرية الشمس مركز الكون héliocentrique قبل مجيء المسيحية والإسلام ولا يبدو من الموجب الذهاب بعيدًا عن الفترة الحية والمعاصرة التي شهدت عمليات ملاحقة للمفكرين في أوربا من دوافع مختلة.

إن عدم التسامح الإسلامي نشأت في فترة تفشت فيها تلك الظاهرة وعممت وضد إرادته لا يأخذ الإسلام في تطبيق ما ورد في سوره القرآنية التي من خلالها يحاسب الله على الاختلاف بين الديانات في الدار الآخرة وهو ما يعني أن الأسبان كان بإمكانهم أن يخلقوا/ يبدعوا ثقافة علمية من طراز عال في الفترة الإسلامية وليس هناك أي فكرة عنصرية-وهي حجة سنشاز ألبونوز-التي سنحاول الاستناد إليها لتفسير الفشل الذي حصل في الفترة الحديثة والمعاصرة: العقم –ما أبدعه الآخرون-يجب البحث إذن في الأسباب.

إن أوربا خلال فترة النهضة التي قامت بنشر العديد من الكتب والمؤلفات العربية العلمية يعتقد أن كل الوجوه الكبرى لذلك العرق كانوا إسبانيين وخلال أيامنا هذه أكبر مؤرخ العلوم جورج سارتون لا يتردد في الكتابة بأن أسبانيا خلال القرون الوسطى كانت أكبر مركز ثقافي في العالم بفضل المسلمين واليهود.[٧]

في فترة عبد الرحمان الثاني (٢٠٦/٨٢٢-٨٥٢/٢٣٨م) ظهر أول العلماء وكانوا متفوقين على النهضة الكرولنجية وتجاوزوا الكتابات اللاتينية العربية لعلم الفلك والطب ومن بينهم ابن جلجل والقاضي ابن سعيد فبالنسبة للأول هو من هيلنستيي قرطبة كان ناشطاً في فترة الحكم الثاني وهشام الثاني في مؤلفه "طبقات الأطباء" بين أنه على معرفة جيدة بالطب في معناه الواسع وحافظ على لهجة أصيلة لما نجده في مؤلف "تاريخ الطب والحكماء" لابن حنين (توفي ٢٩٨/٩١٠م) الذي تأثر بدوره بسابقه يحيى النحوي (توفي حوالي ٦٤٠م).[٨] بالنسبة لابن سعيد ولد في المرية (٤٢٠هـ/١٠٢٩م) وانتهى قاضي طليطلة وعند وفاته (٤٦٢/١٠٧٠م) ترك مؤلفا عنوانه "طبقات الأمم" بالإضافة إلى الأحداث الواضحة التي يقدمها بخصوص المؤلفات والكتاب فهو يحلل عقائدهم مع معرفته بكل القضية ويطرح أفكاره الخاصة به.

في نفس تلك الظرفية كان قد ظهر عباس ابن فرناس الذي أدخل نظريات علم الفلك الهندي السند الهندي وقام بصناعة ساعة وكان يدرّس حجم جزيئات الصخور ويحاول الطيران وقام بالفعل بصنع جناحين كبيرين تشبه أجنحة العصافير وحاول الطيران في فضاء الرصافة ونجح في أن يبقى فترة يحلق في الفضاء ولكنه لم يتفطن لتقنية النزول وجرح خلفه لأنه لم يتفطن أن العصفور لأجل النزول تستعمل الخلف إن

هذه المحاولة(خلال القرن التاسع الميلادي) كانت كمثيلاتها في أوربا لاحقا خلال القرن الحادي عشر وليونارد فنشي ولورنزو دي قوسماوو (١٧٠٩) يجب أن تفهم على أنها تشبه في نواحيها محاولات الطيران بالمنطاد.[٩]

وما يمكن قوله إن علم النجوم في الأندلس كان قد تطور موازاة مع تقليد نظرائهم المشارقة ونجد فيها مطابقة عجيبة وكان الجدل قائما بين الذين يؤمنون بعلم النجوم وبين نظرائهم الذين يرفضون ذلك العلم من المسلمين وترك إنتاجا هاما ومن بين علماء الفلك نجد المدعو أبو عبيدة البلنسي والمعروف بصاحب القبلة (توفي ٢٧٥/٨٨٨م) إلى جانب المعتزلي يحيى بن يحيى المعروف بابن سمينة (توفي ٣١٥/٩٢٧م).

وفي نفس الفترة جاء إلى قرطبة الموسيقي العراقي زرياب(توفي ٢٤٣هـ/٨٥٧م) الذي أدخل لعبة الشطرنج التي عرفت عند الفرس منذ القرن الرابع ميلادي كما نذكر الطبيب الحراني من بين المسلمين الأوائل الذي وهب حياته للطب في شبه الجزيرة الإيبيرية كما انتشرت بكامل الجزيرة لعبة الصولجان والاحتفالات بالأعياد مثل النيروز (اجانفي) والمهرجان الذي اختلط بالعيد المسيحي القديس جون باتيست (أنصارة) أما الأمير السلافي لميورقة مبشر (١٠٠٩-١٠٤٤) قرر أن يقوم بالصراع بين الزوارق التي تغنى بها ابن اللبانة والتي يمكن أن نعتبرها بمثابة موروث أجدادنا لما يعرف عندنا اليوم بسباق اليخوت وفي نفس الفترة تسللت بعض خرافات الفرس التي يشترك فيها الأسبان اليوم مع الفرس.

وموازاة مع ذلك فإن النصوص التاريخية والفقهية والأدبية وخاصة منها النصوص الشعرية تفيدنا بأنه قد دخل أو انتشر بالجزيرة بعض المنتوجات أو الصناعات ولا يزال عددا كبيرا منها إلى اليوم لدينا يحمل اسمه العربي مثل السكر وغيرها من المنتوجات المشابهة فقد ذكر في سنة ٦٤٣م في مصر وبعد ذلك بسوريا(٦٨٠) ثم قبرص سنة ٧٠٠ وفي أسبانيا سنة ٧١٤م وقد تطور في العالم الغربي وظهر سريعا في النصوص الأدبية العربية والمسيحية وكذلك القطن الذي يعود أصله إلى الهند وهو الذي عرف منذ الفترة القديمة ولم يصل إلى درجة تطوره في أسبانيا إلا مع جلب من قبل العرب وقد انتقل إلى إيطاليا وفرنسا في القرن الثاني عشر وفي الفلندر (القرن الثالث عشر) وألمانيا في القرن الرابع عشر وأنقلترا في القرن الخامس عشر ونفس الشيء ينطبق على مختلف المنتوجات الأخرى مثل المشمش والليمون والأرز والطين البري والزعفران وإذا كان صحيحًا أن إنتاجه كان في الفترة القديمة قبل الغزوة العربية.[١٠]

وبما أن بعض الزراعات قد ارتبطت بتوفر كميات هامة من المياه فإن العرب قاموا بجلب طرق التزود بالماء يعود أصلها على الأقل إلى الفترة الأخمينية وكانت أولى عمليات التطبيق في مدريد وكان مركز المدينة مجرد قصر كان محمد الأول قد أكد على تشييده وتم تزويده بالماء عن طريق مجاري تحت الأرض تسمى الفقارة أو خطارة حسب المناطق العربية وتسمى قناة أو مجري وهذا الشكل الأخير أعطى اسمه للمدينة الجديدة "مجريط" بالعربية ومدريد باللغة الرومانية romane ونفس الكلمتين تعطيان نفس المعنى الدلالي: المكان الذي توجد فيه قنوات تحت الأرض لتجميع المياه.

وما تزال بعض التسميات المتعلقة بطرق استغلال الماء نستعملها إلى اليوم مثلما أشار إليه كتاب "انباط المياه" للخراجي وخلال منتصف القرن التاسع الميلادي كانت هناك سلسلة من السفارات ساهمت في معرفة القرطبيين بالجديد ومن بينها ما هو طريف يتمثل في كيفية صيد البلان وغيرها من التقنيات وأخيرا فإننا عرفنا اختراعين جديدين: دودة الحرير والورق وكان للفرس دور في جلب صناعة الحرير إما من الهند أو الصين منذ القرن السادس الميلادي ثم انتقل إلى بيزنطة.[١١]

وبالنسبة لإسبانيا فإنه تم جلب صناعة الحرير على ما يبدو خلال رحلة يحيى الغزال الفلكي الشاعر إلى القسطنطينية (٢٢٥/٨٤٠م) لأننا نجد بعيد ذلك بفترة قصيرة إشارة إلى الحرير ثم انتشر في أوربا أما الورق فقد اكتشف في الصين من قبل تسايي لون وبدأت صناعته في تركستان الشرقية في القرن الخامس وفي سنة ٧٥٧م كان بعض الحرفيين الصينيين الذين يبدو أنهم أسرى حرب قد صنعوه في سمرقند وعن طريق الشرق انتقل إلى تونس في الفترة الأغلبية وكان ذلك قبل ٩٠٩م وفي أسبانيا قبل منتصف القرن العاشر الميلادي حيث وصلنا من ليد Leyde بعض الكتابات على الورق.[١٢]

بالنسبة لعلوم الطبيعة والطب قد أثمرت خلال القرن الحادي عشر عن طريق تلامذة بن جلجل كل من الجبلي وهزداي ابن شبروت ويمكن أن ذكر أيضًا ابن الوافد (٣٩٨/١٠٠٧-٤٦٧/١٠٧٤م) و مؤلفات مختلفة لهذا الأخير قد انتقلت إلى اللاتينية أو لغات أخرى (رومانية) مثل: الأدوية المفردة، كتاب الوسادة، والفلاحة ويعتبر هذا الكتاب الأخير مهم لا من ناحية تأثيره على النهضة

عن طريق قبريال هيرّيرا Gabriel Herrera ولكنه أيضًا لأنه يشير إلى ذوق الأسبان اليوم فيما يتعلق بما تنتجه الأرض ولأنه عن طريقه وغيره من المؤلفات التي تشبهه يمكن أن نقوم بعملية جرد تتعلق بالمعارف الزراعية للقرن الحادي عشر الميلادي (١١م).[١٣]

وحسب شهادة ابن الأبار فإن ابن الوافد قد زرع "حديقة الملك(الأمير)" في طليطلة التي تمتد على باجة بين قصر قليانة-أو جليانة والنهر إلى حيث جسر القنطرة وقد اعتمد على العديد من التجارب لأقلمة acclimatation وربما التلقيح الاصطناعي وهذا الأخير اكتشف في بلاد الرافدين في الفترة القديمة وطبق على النخيل وكان معروفًا بالأندلس ليس في المجال الفلاحي فحسب وإنما لدى عامة الناس من خلال ما ذكره الشاعر ابن زيدون في إحدى قصائده التي بعثها إلى المعتمد.[١٤]

ابن الوافد والذين جاؤوا من بعده كان على علم بشكل مباشر أو غير مباشر بالكتاب الكلاسيكيين الآتي ذكرهم: ديمقريطس وأرسطو المزعوم وتيوفراست وأناطليوس وكاستوس وفيليمون وفرجيل وفرون وبالنسبة للشرق أخذوا الفلاحة النبطية الذي كتب سنة (٢٩١هـ/٩٠٤م) وكتاب النباتات لأبي حنيفة الدينوري (ت.٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) الذي وصل إلى أسبانيا في منتصف القرن العاشر الميلادي لأننا نجد الصيدلاني ابن سمجون (توفي حوالي ١٠٠٠م) يذكره وتم شرحه من قبل ابن أخت غانم في المرية في ستين مجلدا وبالنسبة للعمل الهام فقد قام به من جاء بعد ابن الوافد وهو ابن البصال مؤلف "القصد والبيان" الذي ترجم في العصر الوسيط إلى اللغة اللاتينية وانتقل من المرية إلى اشبيلية لخدمة ابن عباد ولنفس هذه الفترة ينتمي الاشبيليون الحجاج (كان حيًا سنة ١٠٧٣م) وأبو الخير والتقناري وكل هذه الأعمال تم جمعها في مؤلف جامع حيث نجد استشهادات متنوعة كتبت من قبل ابن العوام (كان حيا سنة ١١٧٥م).

الفصل الثاني: ملامح الإرث القديم في العالم العربي[١٥]

ألف الخوارزمي كتابه "الجمع والتفريق بحساب الهند" (حوالي سنة ٨٢٠م) وقد فقد الأصل ووصلتنا ترجمة اللاتينية واستعرض المؤلف مختلف مكونات علم الرياضيات والحساب بشكل خاص الذي له جذور على حد قوله قديمة ترجع إلى البابليين والصينيين وبلاد الهند وفارس ومنها ما يعرف بحروف الغبار المأخوذة عن اللاتينية والتي تعني الحروف التي تكتب على الرمل ويمكن محوها ثم استعملت كذلك في الأعداد وكانت قد تواجدت بالأندلس.

كما نجد ما يعرف بالأعداد "الرومية" التي تواصل استعمالها من قبل المستعربين في طليطلة خلال القرن الثاني عشر وتعني كلمة "رومي" إما ذو أصول إغريقية أو بيزنطية" ويحيل اللفظ على أصولها وتم التعامل بها منذ فترة عبد الملك بن مروان (٦٥/٦٨٥-٧٠٥/٨٦م) الذي قام بتعريب الوثائق الرسمية في حين بقي العمال يستعملون الرموز العددية التي وجدوها سابقة عنهم مثل الإغريقية والقبطية وبقيت المحافظة عليها إلى حوالي القرن السادس عشر الميلادي.

وبالنسبة للأعداد التي نهتم بها الآن هي التي تسمى الأعداد الهندية أو العربية ولا تتعلق أهميتها بأشكالها المختلفة ولكن لأن قيمتها في النظام العشري الذي له قاعدة مرجعية هو عدد ١٠ وبالنسبة للقواعد الأكثر قدما والتي حافظت على استعمالها فقد ظهرت في الأندلس خلال القرن الثاني عشر باللغة اللاتينية في طليطلة وكان ذلك النظام موجودًا بالأندلس منذ القرن التاسع الميلادي وفي أسبانيا المسيحية خلال القرن العاشر الميلادي ويبدو تطور ذلك النظام غريبا في موازنته تفصله ٢٠٠٠عام من الزمن عن النظام العشري المطلق الذي وجد في بابل وتبقى الفرضية مرجحة بأن العرب أخذه مباشرة من هناك.

وكان ذلك النظام الحسابي البابلوني والسوماري يفتقد إلى رمز (وهو الصفر لاحقًا) وكان يترك فراغا بين التنضيد الفوقي والتنضيد التحتي وهو ما يعني التثبت الجيد من قبل القارئ لمعرفة ما إذا كان ذلك الفراغ يبقى على حاله أو غير ذي جدوى وذلك النظام الحسابي قد ساهم في وجود عدد من الأخطاء كانت شائعة جدًا مثلما هو الحال بالنسبة لنظام الحساب الهندي قبل اختراع الصفر.

الفصل الثالث تقنيات الترجمة[١٦]

لم تكن عملية الترجمة سهلة ولكنها استندت إلى قواعد علمية ومناهج نجد لها صدى في مؤلفات عربية عديدة ومن بينها ما ذكره الجاحظ الذي وضح أن عملية الترجمة لها تقنيات ومعرفة ضرورية من قبل المترجم ذلك أنه لا يمكن لشخص يريد أن يترجم كتابا في العلوم وهو ليس على دراية بتلك العلوم وكان من بين المترجمين المعروفين في الفترة العباسية على دراية بتلك الصرامة العلمية التي تتطلبها عمليات الترجمة وقد ترجمة مؤلف جالينوس: "كتاب في

الأسماء الطبية" وذكر أن صاحب الكتاب الأصلي قد أشار إلى أرسطيفون في حين لا نجد في المخطوطة الإغريقية التي اعتمدتها على حد قوله للترجمة من اللغة السريانية التي تحتوي على العديد من الأخطاء ولم أتمكن من فهمها لولا أنني كنت قد تعودت على أسلوب وعبارات جالينوس وساعدتني ذلك على الفهم ولو أنني لم أكن على علم بأغلب الأفكار في مختلف المؤلفات ولكنني لست متعوداً على لغة أرسطوفان ولم أفهم تلك الفكرة فتركتها ولكن تبين لي أن هناك فكرة أخرى فبعد قراءتها تمكنت من معرفة أن تلك الفكرة لم يقلها جالينوس فتركتها جانبًا وواصلت عملي مع أشياء أهم".

كان ظهور أول مكتبة عربية بين سنتي ٧٠٠-٧٢٠م عندما طلب الأمير الأموي خالد بن اليزيد تجميع المؤلفات التي تركها معاوية واستدعى لذلك الغرض مجموعة من الفلاسفة الإغريق الذين كانوا يسكنون مصر ويتقنون اللغة العربية بامتياز وطلب منهم ترجمة كتب الكيمياء (الالخيميا) حسبما ذكر ابن النديم في الفهرست وهي أولى عمليات الترجمة في ديار الإسلام ونفس تلك الإشارة ذكرها الجاحظ بقوله إنه ترجمت مؤلفات في العلوم "التطبيقية" منها التنجيم وفن الحرب وفن الحرف والتقنية والكيمياء والطب".[١٧]

واستعرض المؤلف بعد ذلك ما وصل إلى الأندلس من أعمال مترجمة كان قد أشار إليها في الصفحات السابقة كما عرض الترجمات اللاتينية التي لم تكن أمينة في جوانب عديدة لحاجز اللغة التي لم تفهم من قبل المترجمين اللاتينيين ويبدو من خلال ذلك أنه أراد الإشارة إلى الفرق بين الطريقتين في الترجمة والنقل المتبعتين من قبل العرب والمسلمين ونظرائهم المسيحيين.

الفصل الرابع: العلوم خلال القرن العاشر والحادي عشر[١٨]

كانت ترجمة تلك العلوم من العربية إلى اللاتينية قد بدأت في أسبانيا خلال القرن العاشر بعد هجرة عدد كبير من المستعربين في فترة عبد الرحمان الثاني ومنهم خاصة المعروف بما شاء الله الذي ألف كتابا في الإسطرلاب في شكل مقتطفات من مؤلفات عربية بالإضافة إلى كيفية صنع الساعات الشمسية والتي طورها العرب وهي ساعات يمكن أن تحدد لنا زاوية ارتفاع الشمس وفي كلتا الحالتين فمن الضروري أن يكون الصانع على معرفة بعلم الحساب. وقد عرفت الساعات الشمسية في المشرق في نفس الفترة (القرن العاشر الميلادي) مثلما نجد ذلك عند أبو عبد الله محمد الخوارزمي (المتوفى سنة ٩٧٧م) في مؤلفه "مفاتيح العلوم".

الفصل الخامس والسادس: العلوم في القرن الثاني عشر

الفلسفة والرياضيات وعلوم التنجيم والبصريات والألخيمية والطب[١٩]

بالنسبة للترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية قبل القرن الثاني عشر فإن المترجمين مجهولين تقريبًا أما خلال القرن الثاني عشر فإن الوضع يختلف حيث وصلنا عدد كبير من المخطوطات وتأسست أثناء تلك الفترة شبه مدرسة تعنى بالترجمة.

كان الفضل في الترجمة يعود إلى جيرار د كرمون ومارك الطليطلي اللذان قاما بترجمة الكتابات الطبية القديمة في الفترة الوسيطة فبالإضافة إلى مؤلفات هبّوكرات وهو الطبيب اليوناني الذي عاش من سنة ٤٦٠ إلى ٣٧٧ق.م وما يزال الأطباء إلى اليوم يؤدون القسم المعروف بقسم هيبوكراط وكان الطبيب المعروف الذي اعتمد عليه العرب هو جالينوس Galien وهو كلود قاليان طبيب إغريقي عاش بين ١٣١ و٢٠١م، وعلى سبيل المثال فإن حنين ابن إسحاق قد عرف ما يناهز ١٢٩مؤلفًا لجالينوس.[٢٠]

ونذكر كذلك الطبيب أبو بكر الرازي الذي قام اللاتينيون بترجمة مؤلفاته وعرف لديهم رازاس إضافة إلى علي بن عباس الماجوسي (توفي حوالي ٩٨٠م) إضافة إلى ترجمة مؤلف عام في الطب يعرف بكتاب القانون للطبيب ابن سينا إضافة إلى طب الجراحة والصيدلة ومؤلفات ابن الوافد وبالنسبة لقانون ابن سينا يتكون من خمسة كتب: يتعلق الأول برؤية شاملة عن المكونات الفيزيولوجية للأعضاء والأمراض والصحة أما الكتاب الثاني فخصص لعرض ألفبائي للأدوية المفردة مع وصفها وما يقابلها من العقاقير والكتاب الثالث نجد فيه عرض لمختلف الأمراض حسب الترتيب التقليدي المعتمد المتمثل في البداية بأمراض الرأس والانتهاء بأمراض الرجلين والكتاب الرابع تعرض إلى الأمراض العامة أو تلك التي يمكن أن تكون في البداية وتسعى إلى الضرر بباقي الأعضاء مثل الحمى والأورام وفي الكتاب الخامس قدم ابن سينا قائمة ب٧٦٠ نوع من الأدوية المركبة.

ويعتبر مؤلف ابن سينا قد عوض كل المؤلفات السابقة عنه في عدد أجزائه إضافة إلى الكتب التي تحتوي على مرض الحمى وأمراض القلب وغيرها وهو مؤلف ملحق بالكل الذي سبقه وعرف باستقلالية وكأنه يمثل مؤلفا قائما بذاته ونظرًا للأهمية البالغة

التي حققها مؤلف ابن سينا المذكور فإن أوربا قد بقيت تستعمله في جامعاتها إلى نهاية القرن السادس عشر.

كما قام جيرار المترجم اللاتيني بترجمة الكتاب الثلاثين (٣٠) "تصريف" من الموسوعة الطبية الضخمة التي ألفها أبو القاسم الزهراوي ويتعلق ذلك الكتاب (٣٠) بموضوع الجراحة. أما الكتاب ٢٨ فموضوعه علم تركيب الأدوية الذي ترجم سنة ١٢٩٠م من قبل المدعو سيمون الجنوي بمساعدة أبراهام الطرطوسي وهذه الترجمة لها طبعة قشتالية للمدعو ألنزو رودريقاز تعود إلى سنة ١٥١٦م وبالنسبة لكتاب الجراحة من مؤلف "تصريف" فإنه يحتوي على المعارف التي أخذت من الفترة القديمة وهي مقتبسة من بول د جين إضافة إلى ما توصل إليه الأطباء العرب الآخرين في الجراحة من مختلف الأقطار.

الفصل السابع: العلوم في القرن الثالث عشر الفلسفة والدين وعلوم التنجيم والرياضيات وعلم الفلك وأدواته والفيزياء[٢١]

كان انتقال العلوم من الشرق إلى الغرب خلال القرن الثالث عشر نتاج عوامل ثلاث: في المرتبة الأولى نجد جنوب إيطاليا وتحديدا صقلية التي كانت تحت حكم النورمان وفي عهد فريديرك الثاني الذي كان مولعا بالثقافة الشرقية فأحاط به في قصره أفضل العارفين من المسيحيين ومنهم ميشال سكوت Michel Scot الذي كان يعمل مترجما في طليطلة وليونارد بيزLéonard de Pise المعروف بفيبونشيّ Fibonacci الرياضي الكبير وغيرهم ولم يكتفي بذلك بل اتصل بطرقة مباشرة أو غير مباشرة بالعلماء المسلمين الأكثر أهمية في تلك الفترة مثل ابن سبعين وكذلك المشرقي كمال الدين بن يونس (١١٥٦-١٢٤٢م) والفيزيائي القرافي (المتوفى سنة ١٢٨٥م) ونفس النهج اتبعه منفرد Manfred ابن فريديرك الثاني الذي استقبل في قصره المؤرخ المعروف للأيوبيين ابن واصل ولذلك لا يمكن أن نستغرب أنه منذ سنة ١٢٣٢م كان فريديرك الثاني يستحوذ على الترجمة اللاتينية لمدونة ابن رشد.[٢٢]

أما بقشتالة فإن ألفونصو العاشر كان قد ارتقى إلى الحكم بعيد وفاة فريديرك الثاني ومن الناحية الثقافية فإنه قد ابتع سياسة مشابهة لملك صقلية وقد استند بشكل خاص على العلماء اليهود المتعربين مثل ربي حاج çag Rabbi وموسى ها كوهان Mosé ha-Cohen وإبراهيم الفكين Abraham Alfaquin (ابراهيم الطليطلي) إضافة إلى العرب المتمسحين أو المستعربين مثل برنارد العربي Bernard l'Arabe وقد لعب العنصر اليهودي دورًا كبيرًا في ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية خلال كامل الفترة الوسيطة إلى جانب العناصر الأخرى التي ذكرناها آنفا.[٢٣]

أما العامل الثالث الذي ساهم في نقل تلك العلوم العربية بغزارة إلى أوربا في القرن الثالث عشر فكان يعود إلى المغول ومنذ غزو بلاد فارس وظهور سلالة الخان الحاكمة فإن هذه الأخيرة كانت تقوم بعديد البعثات الدبلوماسية إلى المسيحيين وهو ما ساهم في نقل الأفكار وخاصةً التقنيات التي عرفها الشرق منذ فترة بعيدة.

الفصل الثامن: العلوم ابتداءً من القرن الثالث عشر الكيمياء والتقنية والملاحة[٢٤]

ذكر المؤلف أن صناعة الورق التي بدأت منذ القرن التاسع وانتقلت إلى أسبانيا قد كان لها الأثر العميق في وفرة الإنتاج المعرفي في أوربا ومن بين أهم المؤلفات التي عالجت تقنية صناعة الورق نذكر مؤلف "عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب المنسوب للمعز بن باديس (١٠١٥-١٠٦١م) وقد انتقلت تلك التقنية إلى أوربا تباعا فظهرت بإيطاليا في حدود سنة ١٢٦٨م ثم في مدينة ترويس Troyes سنة ١٣٤٨ ونورنبورغ سنة ١٣٩٠م وكانت نسخة من الإنجيل تتطلب ما قدره مائتين من جلود الأغنام أما الحرير فقد احتكرت صناعته في الأندلس إلى غاية سنة ١١٤٦م عندما قام روجي الثاني باحتلال كورنث وحمل معه مجموعة من العمال الإغريق إلى بلرمو ومنذ تلك الفترة شاعت صناعة الحرير بإيطاليا فالبندقية دخلت تلك الصناعة بعد الحرب الصليبية الرابعة ووصلت تلك الصناعة منذ تلك الفترة إلى أغلب الدول المسيحية مثل أوقسبورغ سنة ١٣٠٠م.[٢٥]

كما تم استغلال الطاقة الهوائية عن طريق الطواحين التي تبدو أنها قد ظهرت في آسيا الوسطى ومن خلال كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري تبين للباحث أن هناك إشارة أفاد بها قاتل عمر ابن الخطاب (٦٤٤م) المدعو أبو لؤلؤة ونقلها الطبري وهي الجملة التالية: "إذا أرت أن أصنع طاحونة تحركها الريح بإمكاني فعل ذلك" وحتى المؤرخ المسعودي قد حدد مكان وجود تلك الطواحين في سجستان على الحدود الفارسية الأفغانية وأشار إلى دور تلك الطواحين الثنائي والمتمثل في رفع الماء للسقي ولطحن الحبوب وعرفت تلك الآلات بأسماء أخرى مختلفة وهي الطاحونة والرحى وفي أسبانيا بقي نفس الاسم طاحونة مستعملاً.[٢٦]

إن الإشارات المتعلقة بطواحين الماء (نوريّnorias) وآلات أخرى هيدرولية كانت متواجدة بشبه الجزيرة في القرن العاشر الميلادي وفي نهاية القرن الحادي عشر كان الشاعر ابن مُكانة الذي ترك بلاط أمراء الطوائف لزراعة أرضه التي لم تكن غنية بالمياه ذكر ما يلي: "إن كنت إنسان ميت فإنك بحاجة إلى طاحونة تحركها السحب دون أن تحتاج إلى مصادر". وفي نفس هذه الفترة يمكن أن نرجع الإشارات التي ذكرها ابن غالب والحميري المتعلقة بريف ترّقونة فالأول في مؤلفه فهرست الأنفس ذكر وجود قنوات لحمل مياه الطواحين أما الكاتب الثاني المتأخر فإنه قد أكد "من بين فضائل ترقونة طواحين الريح التي استعملت من قبل الأول وتعمل عندما تهب الريح وتتوقف عند انعدام الريح" ويبدو أن ترقونة كانت بوابة للأوربيين في أخذ تلك التقنية فظهرت في فرنسا سنة ١١٨٠م وبإنجلترا سنة ١٢٧٠م وبإيطاليا سنة ١٢٣٧م وهولندا سنة ١٢٧٤م وانعكس استعمال تلك الارحية في أوربا على الأب والشعر منذ تلك الفترة.

كما نشير إلى تقنية أخرى تم اعتمادها من قبل الغرب المسيحي تتعلق بنقل المياه وهي مد القنوات التي ظهرت مع القرن الثاني عشر في الفترة المرابطية التي وصلت إلى بلجيكا ثم بعد خمسة قرون سنجها مستعملة في أمريكا بعد أن حملها معهم الأسبان ونشير كذلك إلى الشادوف الذي يعود أصله إلى مصر ووصل إلى ألمانيا والفلندر في منتصف القرن الرابع عشر بعد أن مر عبر الأندلس.[٢٧]

كما نشير إلى تقنية صناعة البارود التي كانت مستعملة في الأندلس وانتقلت إلى أوربا في القرن الرابع عشر وكان من بين عوامل قوة الجيش الغرناطي امتلاكه تلك التقنية الحربية التي نجد لها صدى في المصادر الأوربية وأثرها التدميري الكبير وقد انتقلت صناعة البارود على إنجلترا عن طريق أحد الأطباء الذين كانوا من بين من حاول إسعاف المصابين بالبارود بعد الحرب التي وقعت بين ألفونسو الحادي عشر والمسلمين في الأندلس سنة ١٣٤٣م كما نشير إلى تقنية صنع الخزف التي اشتهرت بها مدينة مالقة وخاصة الخزف ذو البريق المعدني بالإضافة إلى الزليج الذي بقيت تقنيات صناعته إلى القرن الخامس عشر بيد المسلمين وانتقل إلى الإيطاليين في القرن الرابع عشر أما بألمانيا فكان في نهاية القرن الخامس عشر بالإضافة إلى التقنيات البحرية وخاصة البوصلة التي كانت محتكرة من قبل المسلمين وعرفها الأوربيين في نهاية القرن الثالث عشر.

الفصل التاسع: العلوم من بداية القرن الثالث عشر الجيولوجيا وعلوم النبات وعلوم الحيوان والطب[٢٨]

استغل الأوربيين الإشارات الهامة التي ذكرها ابن سينا في مؤلفه "كتاب الشفاء" الذي تحدث فيه عن التكون الجيولوجي للتضاريس بقوله: "إن الجبال يمكن أن تتشكل بطريقتين: عن طريق ارتفاع الأرض مثلما يحدث عن طريق زلزلة الأرض أو بعد فيضان المياه والرياح التي تفتح الأخاديد في الصخور الهشة وتُبقي على الصخور الأكثر صلابة وهذه هي صيرورة تشكل عدد كبير من التلال وهذه التغيرات تفرض عديد السنوات ومن الممكن أن الجبال الحالية هي في حالة نزول (أو انخفاض) والحجة أن المياه كانت العامل الأساسي في تشكل قشرة الأرض وجود عدد كبير من الصخور تحتوي على بصمات حيوانات مائية. وبالنسبة للأرض الصفراء التي تغطي الجبال ليس لها نفس الأصل مع نظيرتها الموجودة تحت سطح الأرض: إنها قد جاءت نتاج تفتت البقايا العضوية المختلطة بالتي حملتها المياه وفي الأصل كل تلك المواد كانت بدون شك في البحر الذي كان يغطي كل الأرض". إن هذا الكلام لابن سينا يوضح بشكل جلي الانخساف البطيء للأرض ويبين بطريقة مقنعة وجود بقايا الحيوانات في الصخور البحرية.

علم النبات: بالنسبة لتطور هذا العلم واضح جدًا وقد اعتمد على مؤلفات أرسطو وتيوفراست ودعم من قبل نيكولاس الدمشقي وترجم هذا الأخير إلى العربية عن طريق إسحاق ابن حنين وراجعها ثابت ابن قرة وترجمت إلى اللاتينية من قبل ألفرد سارشال Alfred Sareshel سنة ١٢٢٧م وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك من اتجه إلى العلم التطبيقي وهو ابن وافد الذي كتب "بحث في الفلاحة" واستفاد من مختلف معلومات ابن الوافد الكاتب قبريال ألنزو د هريرا (١٤٧٠-١٥٣٩م) وهو الذي دافع على ما يبدو بعد ابن الوافد على جنس النباتات.

أما ما تبقى من الكتاب فمخصص للفصل العاشر[٢٩] ويحتوي على موضوع الفن والأدب من شعر ونثر وغيره ونقف عند هذا الحد في التعريف بالمادة العلمية الثرية التي يحتويها هذا المؤلف بالرغم أنه كتب منذ فترة طويلة نسبيًا ولكن جل الآراء الواردة في الكتاب موثقة بمصادرها ومراجعها الغزيرة وهو ما يجعله كتابا في غاية الأهمية للذين يريدون الاطلاع على الجوانب التاريخية الخاصة بالثقافة الأندلسية خلال كامل العصر الوسيط. إن الكاتب لم يتوخى التبسيط وإنما أبقى على الجوانب الأكاديمية الصارمة في

تثبيت المصادر والمراجع كما أنه قدم معلومات غزيرة فيها العديد من المعارف المغمورة سواء تعلق الأمر بالمؤلفين والمبدعين أو كتاباتهم وإسهاماتهم وهو بالفعل كتاب جدير بالقراءة والتمحيص.

خاتمة

يبدو أن صاحب الكتاب الذي ارتأى البحث في موضوع دور "عرب إسبانيا" الحضاري والثقافي خلال العصر قد نجح إلى حد كبير في إدراج أفكاره ضمن السياق الأكاديمي للدفاع عن فكرة رئيسة تخللتها إجابات عديدة عن تساؤلات ومواقف غيره من المستعربين الأسبان المتعصبين بشكل خاص والرافضين لدور العرب الحضاري في أسبانيا العصور الوسطى مع الإشارة إلى استخدام مفهوم "ثقافة" كرديف لـ "حضارة" حسب عنوان الكتاب.

التزم الكاتب في بحثه بالجوانب الأكاديمية والحجج العلمية الرصينة بعيدًا عن التشنج، لذلك جاء مؤلفه مفعمًا بالإجابات عن أسئلة عديدة في ميادين علمية ومعرفية مختلفة وهو الذي قام بمجهود كبير لجمع المادة المصدرية وحشدها للدفاع عن رأيه والتذكير بضرورة الأخذ بعين الاعتبار دور العرب الحضاري والإضافات العديدة لإسبانيا في العصر الوسيط وفي الفترات اللاحقة.

إن الفصول التي أوردها في مؤلفه غنية بالمادة التاريخية في شتى المواضيع وهي بالفعل جاءت متنوعة وحسب الزمن الكرونولوجي وهو عمل صعب لمعالجة مسائل في شكل ثيمات thématique مما يستوجب قراءة متأنية ومركزة للخروج باستنتاجات عديدة جدًا، وحسب ذلك التمشي للكاتب في مؤلفه يكون قد استبعد الاستنتاجات العامة والأفكار العامة ليبقى محكّما إلى المادة التاريخية الغزيرة والنادرة التي جمعها، إنه بحق كتاب يستحق القراءة والنظر ويعطينا فكرة واضحة عما تدين به الثقافة في إسبانيا للعرب خلال العصر الوسيط.

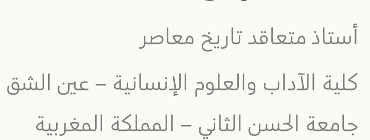
الهوامش:

(١) من الصفحة ١٧ إلى الصفحة ٦٨.
(٢) ص٢١.
(٣) ص٢٣-٣٤.
(٤) ص٢٦.
(٥) ص٣٥.
(٦) ص٣٦.
(٧) ص٣٨.
(٨) ص٣٩.
(٩) ص٤٠.
(١٠) ص٤٢.
(١١) ص٤٣.
(١٢) ص٤٤.
(١٣) ص٥٥.
(١٤) ص٥٦.
(١٥) ص٦٩-٨٩.
(١٦) ص٩٠ – ١١٦.
(١٧) ص٩٩.
(١٨) ص١١٦ – ١٢٢.
(١٩) ص١٢٣ – ١٧٩.
(٢٠) ص١٧٥.
(٢١) ص١٨٠-٢٢٧.
(٢٢) ص١٨٠.
(٢٣) ص١٨١.
(٢٤) ص٢٢٩ – ٢٧٥.
(٢٥) ص٢٣٦.
(٢٦) ص٢٣٧.
(٢٧) ص٢٤١.
(٢٨) ص٢٥٩ – ٢٧٥.
(٢٩) ص٢٧٦ – ٣٥٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جُولْ مِيشْلِيه (Jules Michelet)
رَسُولُ الثورة الفرنسية





د. ياسين زينون
أستاذ متعاقد تاريخ معاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – عين الشق
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّص

"ألفٌ وسبعُ مائة وتسعةٌ وثمانون"، سنة ترمزُ إلى انقطاع عميقٍ في تاريخ فرنسا؛ فمع هذا التاريخ بدأت مرحلة ثورية تمخّض عنها المجتمع المعاصر، كما أنّه بشعار الثورة الفرنسية "مساواة، حرية، تآخي"، وبأَمَلِهَا الكبير في الدّيمقراطية السّياسية والاجتماعية اعترض ثوريو القرنين ١٩ و٢٠ على العنف الدّموي الذي ميّز عهد الإرهاب (١٧٩٣-١٧٩٤). فلا الثّورة الهولندية (١٥٦٦-١٦٠٩) ولا الثّورتان الإنجليزيتان (١٦٤٢-١٦٥١)-(١٦٨٨-١٦٨٩) ولا استقلال الولايات المتّحدة الأمريكية (١٧٧٠-١٧٨٣) ألهبتْ مشاعِرًا أو أثارت جدالاتٍ مثلما فعلت ثورة ١٧٨٩. لقد نَسَجَتْ المعارك التي خاضتها فرنسا الثورية والإمبراطورية ضد تحالف المَلَكيّاتِ لما يزيد عن عشرين سنة حدود وتاريخ أوربا؛ علاوة على ذلك، وبالنّظر إلى نطاق تحدّياتها ونضالاتها فقد "هزّت الثورة الفرنسية الإنسانية جمعاء" على حد تعبير فيخته Fichte (١٧٦٢ - ١٨١٤). يَعْتَبِرُ جول ميشليه Jules Michelet الثورة الفرنسية الحَدَثَ الأهمَّ في تاريخ العالم حتى أنّه يجعلها مباشرة قبل إصلاح لوثر Luther (١٤٣٨ - ١٥٤٦)؛ فالثورة بالنّسبة له هي "القانون الجديد الذي يمحو القديم؛ والرّمز الذي استَلَبَ المسيحية". في نظر معاصريه يبقى هذا المؤرخ صاحب كتاب "تاريخ الثورة الفرنسية" "Histoire de la Révolution française" (١٨٤٧-١٨٥٣) الأقرب إلى الملحمة الشّعرية منه إلى المؤلّف التاريخي؛ حيث يرسم ميشليه صورة للتّطور الذي أخذته الوقائع الرئيسة لثورة ١٧٨٩، ويبحث عن تفسير له في الأوضاع الاجتماعية وذهنيات الناس، متوقفًا عند الكثير من ملامح الحياة الاجتماعية والشّخصية، وعند الآمال التي علّقتها الجموع على الثورة لتقودها إلى الحرية والكرامة. ولئن كان هذا البُعْدُ يبدو متناقضا مع السّمَة العامّة الغالبة في الكتاب، فمن الواضح أن هذ المؤرخ كرسول للثورة الفرنسية إنّما غاص في التحليل وفي ربط الأحداث الكبرى بالتفاصيل الصّغيرة، كي يعثر على مبرّرات تشرح دفاعه المستميت عن الثورة، حتّى حين تضلّ طريقها وتتحوّل إلى أعمال إرهابية صغيرة وتصفية حسابات. وتروم هذه المساهمة استجلاء صورة ميشليه كرسول للثورة الفرنسية، وذلك وِفْقَ مقاربة نقدية تأويلية تَتَّبِعُ المنهج التاريخي وتعتمد أهم المصادر والمراجع في الموضوع.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٣٠ يوليو ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٢١ أغسطس ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الإنجيلية؛ الثورة الفرنسية؛ جول ميشليه؛ تاريخ فرنسا؛ الجمهورية؛ الاشتراكية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.260888

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ياسين زينون. "جُولْ مِيشْلِيه (Jules Michelet) رَسُولُ الثورة الفرنسية".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الرابع والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢١. ص ٢٥٢ – ٢٦٦.

Corresponding author: zainoune.yassine@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

كمؤرخ للثورة الفرنسية يُشْبِهُ جول ميشليه[١] إلى حَدٍّ ما الإنجيليين الذين كانوا "مؤرّخي" يسوع[٢]. فاختياره للّغة يستند إلى الفرضية التالية: مع "ثورة ١٧٨٩" كانت ثمة "ثورة". بالتّالي، ففي ضوء "الإرادة الشعبية" " le Fiat Populaire" هذه النّسخة العلمانية للحَقِّ المقدس[٣]، رأى هذا المؤرخ سُلطة وأعمال الثورة. فديانة (أو معاداة ديانة) الثورة تم تشكيلها من خلال مقابلة العدالة مع المنّة المقدّسة[٤]، حتّى وإن كانت عقيدة العدالة تَلِد أبطالاً رهيبين كأولئك الذين أنجبتهم عقيدة المنّة؛ كما تعكس ذلك تردّدات هذا المؤرخ بشأن عهد الإرهاب La Terreur [٥]. بعد إخفاق الجمهورية الثانية (١٨٤٨-١٨٥١) وأمام حاجة الجمهورية الاشتراكية، "لتاريخ مقدّس" يتم إحياؤه أوضح ميشليه معالم قدّاس وعقيدة اشتراكيين. مع ذلك في مقدمة كتابه: "تاريخ القرن١٩" "Histoire du XIX(ème) siècle" (١٨٧٢)[٦] عبّر عن إحباطه من القرن ١٩ وليد الثورة. فكيف كان ميشليه بمؤلفه أو إنجيله "تاريخ الثورة الفرنسية" رَسُولَ ثورة ١٧٨٩؟

أوّلاً: ميشليه ابن الثّورة الفرنسية البارُّ

١/١-في كَنَفِ الثورة

ينتمي ميشليه الذي وُلِدَ في ٢١ غشت ١٧٩٨ بكنيسة مهجورة إلى جيل أبناء الثورة الفرنسية. فوالده جون فرانســوا فورسي ميشليه Jean- François Furcy Michelet (١٧٧٠-١٨٤٦) الذي عمل بمطبعة "الأسينيين" Assignats [٧] سنة ١٧٩٢ ثم بمطبعة "الصم والبكم" "Sourds Muets" [٨] ابتداء من عام ١٧٩٣ ائْتَمَنَهُ على ذكرياته كرجل من الشّعب شاهِدٍ أو فاعِلٍ في أيّام الثورة؛ أمّا أمّه أنجليك كونستونس مييي Angélique Constance Millet (١٧٦١-١٨١٥) فكانت تَوصِلُ جول الصّغير إلى متحف الآثار الفرنسي الذي أسّسه ألكسندر لونوار Alexander Lenoir (١٧٦١-١٨٣٩) سنة ١٧٩٥ بزنقة بونابارت، حيث استيقظ توجه ميشليه كمؤرخ[٩]، وهو ما أفصح عنه لاحقا بقوله: "إحساس طفولتي الأقوى [...] هو متحف الآثار الفرنسي، وإن كان مدمّرا للأسف. فَهُنَا، وليس في مكان آخر تَلَقَّيْتُ لأوّل مرّة الإحساس القوي بالتّاريخ. كنت أملأ هذه القبور بخيالي، وأشعر بهؤلاء الموتي عَبْرَ الرّخام، وليس بدون بعض الخوف كنت أدخل تحت المدافن السّفلى حيث يرقد داڭوبير "Dagobert وشلبيريك Chilpéric (حوالي ٦٠٢-٦٠٥- ٦٣٨- ٦٣٩) وفريديڭوند Frédégonde (حوالي ٥٢٥- 534- 584) (حوالي ٥٤٥- ٥٩٧)"[١٠].

طوال حياته قابل ميشليه وسمع وساءل معاصري الثّورة ممّن لازالوا على قيد الحياة، ولمّا صار رئيسا لقسم الأرشيفات الوطنية في ٢١ أكتوبر ١٨٣٠ لم يكن رئيسه المباشر سوى بيير دونو Pierre Daunou (1761-1840) عضو الجمعية الوطنية، فيما كان تحت إمرته ابن دانتون Danton (1759-1794) فرانسوا جورج دانتون François Georges Danton (١٧٩٢ - ١٨٤٨). فحتّى قبل أن يُفَكِّرَ في كتابة تاريخ الثورة الفرنسية تحجب سنة ١٧٨٩ في خيال هذا المؤرّخ كما في ذاكرته أيّ تاريخ آخر من تواريخ الذّاكرة الوطنية، ما يُفسّر ابتهاجه منذ الوهلة الأولى بمشهد أيّام ثورة يوليوز ١٨٣٠[١١].

٢/١- كتاب أو إنجيل "تاريخ الثورة الفرنسية"

بشكل غير متوقع عادت إلى الواجهة الظّاهرة الثورية المنتقدة في أوساط الرّأي العام فضلاً عن ذكرى الإرهاب التي لا تُحتمل، وهو ما أدركه ميشليه في حينه وطرحه بتواطؤ يسري في عروقه لاختتام مؤلفه: "مدخل إلى التاريخ العالمي" "Introduction à l'histoire universelle" (1831)، حيث يُقَدِّمُ تصوُّرًا ديناميا للغاية، وقويا جدا للحرية يقارب البروميتية [١٢].

وحول هذه النقطة أكد أنّ "الميزة الفريدة التي تحملها ثورة يوليوز، أنّها تقدّمُ أوَّلَ نموذج لثورة بدون أبطال، وبدون أسماء أشخاص؛ لا وجود لفرد حيث يمكن للمجد أن يَتَحدَّدَ. المجتمع قام بكل العمل. ثورة القرن ١٤ انتهت وتلخَّصَتْ في بتول أورليان la Pucelle d'Orléans (حوالي١٤١٢-١٤٣١)، الضحية الطّاهرة والصّادقة التي مثلت الشعب وماتت من أجله. هنا لا توجد أسماءٌ خاصّة، فلا أحد أعَدّ، ولا قادَ، ولم يحجُبْ أحَدٌ الآخرين، بعد الانتصار، جرى البحث عن البطل، فتم العثور على شعب بأكمله."[١٣] فمن خلال هذا النّموذج الثابت لثورة يوليوز ١٨٣٠ سيرى مؤرّخ الثورة الفرنسية الأحداث التي تسارعت منذ السّيطرة على الباستيل في ١٤ يوليوز١٧٨٩[١٤] حتى تيرميدور Thermidor[١٥].

قد نندهش أنّه انتظر طويلاً، منذ ١٨٣١ حتى ١٨٤٧ للشّروع في العمل. فرغبته في العودة إلى أصول تاريخ فرنسا لفهم أكثر لحلقته البطولية المتمثلة في ثورة ١٧٨٩ يشرح في جزء منه هذا البطء الذي تفاقم أثناء ذلك بعد وقوف ميشليه على ما يتطلّبه إنجاز العمل حول الثورة المذكورة من إلْمَامٍ. مَحْمُولاً من طرف فرانسوا جيزو François Guizot (1787-1874) إلى إدارة

قسم التاريخ بالأرشيفات الوطنية اعتقد هذا المؤرخ لبعض الوقت أن ملكية يوليوز (١٨٣٠- ١٨٤٣) ستحافظ على مكتسبات الثورة؛ لكن آماله تحطّمت؛ بعد أن تنكّرت بالفعل حكومة الاعتدال juste milieu[١٦] لعبقرية الثورة. ولم تُبْدِ أي مقاومة جادّة للانهيار الرّوحي والإحباط الوطني الذي ولَّدَهُ حُكْمُ "حزب القِسّ" "Le parti -prêtre"[١٧]؛ وهو ما نَبَّهَ إليه ألفريد دو ميسي Alfred de Musset (1810- 1857) في روايته: "اعتراف طفـل مـن القـرن" La Confession d'un enfant du "siècle" الصّادرة في فبراير ١٨٣٦، حيث أطلق نداء الاستغاثة من جيل "مرتاب" تعصف به الإحباطات الفردية والرّوحية والسّياسية؛ ويعيش " القرن الحالي (أي القرن ١٩)،[...] الذي يفصل الماضي عن المستقبل" في ما يشبه المنفى، لكنّه "لا يُمَثِّلُ أيًّا منهما (أي لا الماضي ولا المستقبل) ويُشْبِهُ كِلَيْهِمَا في الوقت ذاته، وحيث لا يعرف، عند كل خطوة يخطوها، إذا ما كان يمشي على بذرة أم على حطام"[١٨].

بكوليج دو فرانس حيث انْتُخِبَ في ٨ يناير ١٨٣٨ كأستاذ بمنبر "التــاريخ والأخلاق"" l'histoire et la morale " أعلن ميشليه، بطريقته، أنّ الوطن في خطر، ودعا في انتظار "برق" تاريخي جديد إلى إيقاظ الضّمائر، موظّفا التّعبير التّالي "فلنرفع قلوبنا" Sursum corda " "Élevons notre cœur" [١٩] التي وحدها ستجعل حاسمة إعادة تعبئة القوى الشعبية. ومبيّنا في هذا الإطار أن الثورة الفرنسية الأولى الكبرى تُوَفِّرُ الإنجيل المرجعي الذي يحتاجه هذا التعليم وتبقى بالنسبة للتربية الشّعبية التعليم الذي وَجَبَتْ صياغة نصّه أيضًا وأن توضع له نسخة مترجمة. من هذا المنطلق، وبعد نشر "لويس السّادس"(1844) "Louis VI" فقد أجَّلَ إنهاء مؤلّفه: "تاريخ فرنسا" "Histoire de France"[٢٠] لمّا أصبحت كتابة تاريخ الثورة الفرنسية[٢١] المُهِمَّةَ الأكثر استعجالاً، وهي القناعة التي يختزلها في: "مُهِمَّةٌ مستعجلة، أنْهَمِكُ فيها ككُلّ [...] هذه المهمّة، كنتُ قد بدأتها منذ وقت طويل، ولكنّها في ظل الظروف الجديدة تَجِدُ نفسها، وأجرؤ على قول ذلك: حَاجَةَ الوقت المعنوية العاجلة، وأكثرها إلحاحًا. فرنسا وقد صارت راشدة أخيرًا، هي مدعوّة إلى العمل؛ لكنّها لا تعرف نفسها. ستعمل، وهي لا تستطيع أن تستشير بيقين تجربتها السّابقة. إنّها تدخل إلى مجهول ثورة جديدة، دون أن يكون لها حتّى الآن تاريخ لثورتها الأولى (أي ثورة ١٧٨٩)، تاريخ إيجابي مستند إلى العقود الأصلية."[٢٢]

فكان أن توالت الأجزاء السّبعة من مؤلفه تاريخ الثورة الفرنسية بين عامي ١٨٤٧ و١٨٥٣ بينما تنضج ثورة فبراير ١٨٤٨[٢٣] تندلع وتتطور وتموت. ففي مسار هذا المؤرخ يتداخل الماضي والحاضر بشكل كبير، وهو ما يوضحه بقوله: "أكثر من أمْرٍ خاصٍّ بالشّعب، هو بداخله دون إدراكه، فقد فهمته، لماذا؟ لأنّني يمكنني تتبعه في أصوله التّاريخية، ورؤيته قادِمًا في عمق الزّمن. فذاك الذي يريد الاكتفاء بالحاضر، بالرّاهن، فلن يفهم الرّاهن. وذاك الذي يقتصر على رؤية الخارج، وأن يصف الشّكل، فلن يتمكن حتى من رؤيته، فحتّى يراه بشكل صائب، وينقله بدقّة، تتعيّن معرفة ما يغطّيه؛ فلا صورة دون تشريح."[٢٤]

١/٣-الثورة الفرنسية كمؤسسة وقطيعة وإرادة شعبية

كتب ميشليه من نَوَاحٍ عدّة وبالنّظر إلى الظّروف وفَضْلاً عن أحكامه الخاصّة وعن فلسفته ومواهبه الأدبية تاريخ الثورة الفرنسية الأكثر ثورية بحق، والمُعْطَى بشكل عضوي إلى الفترة التي يبعثها[٢٥]. في هذا المؤلف، يَفْرِضُ نفسه منذ البداية شرح يستجيب لتطلّعات جيل "أطفال القرن" "Enfants du Siècle" [٢٦] الذين أصبح غير مُجْدٍ بالنسبة لهم اعتناق " الدّيانة السّان سيمونية "للأب الطفل" "Père Enfant" [٢٧] لإثبات والاعتراف بالحاجة إلى تجديد العقيدة المسيحية. فمنذ سنة ١٨٤٦ أجاب هذا المؤرخ الشّبيبة المدرسية التي تسرع إلى كوليج دو فرانس أن الثورة هي "المؤسّسة" "La Fondation" فكان أن وسم درسه لموسم ١٨٤٦ "لا يجب قَوْلُ الثورة، بل المؤسسة."[٢٨]، وهي الفكرة ذاتها التي تسيطر في مدخل تاريخ الثورة الفرنسية الصّادر في ١٠ فبراير ١٨٤٧، ويبدو هذا التصور واضحا لدى ميشليه وهو يقول: "أيُّ شُعَاعٍ مقدّس له بالتّالي، لإجراء تغيير كبير مثل هذا؟ هل هي قوة فكرة، وإلهام جديد، ووحي من أعلى؟ (...) نعم كان هناك وحي."[٢٩]

يتبادر إلى الذّهن هنا تعليم يواكيم الفيوري Joachim de flore(1135-١٢٠٢)[٣٠]، وانجذاب كل من ميشليه مؤرخ العصر الوسيط وجـورج سانـد Georges Sand (1804-1876) كاتبة رواية: سبيريدون Spiridion(1839)[٣١] إلى إعلان حُكْمِ الرّوح القُدُسِ خَلَفًا لحكم الأب وحكم الابن لتتويج تاريخ الخلاص. بَيْدَ أنّ ميشليه "المُبَشِّرُ الرّومانسي" إنّما يُكَرِّرُ فقط في نهاية المطاف لغة عدد من الشهود لنور ١٧٨٩. فأخيرا وليس آخرا، "حَلَّ يَوْمُ الوحي"[٣٢] صاح قائلا كـلـود فـرانـسوا فـوشـي Claude François Fauchet (١٧٤٤-1793) عضو الجمعية الدّستورية غداة السيطرة على حصن الباستيل[٣٣]؛ إذ يستند خطاب مؤرخنا إلى حدٍّ كبير إلى هذا المنطق، مقارنة

بألـيكسي دو توكفيـل Alexis de Tocqueville (١٨٠٨- 9 185)وجيزو واللّيبراليين الذين يرون في الثورة تتويجًا لتطور منطقي طويل للملكية الفرنسية(٣٤).

في هذا الإطار بالذات يوضح ميشليه وجود فجوة؛ فهو المخرج الملهَمُ للقطيعة الثورية العفوية لـ ١٤ يوليوز ١٧٨٩ والمقصودة السّنة التالية بساحة مارس في احتفال ١٤ يوليوز ١٧٩٠، واللّتان تشبهان في آن واحد عَمَلاً تأسيسيا "للإرادة العامّة". من هذا المنظور تصبح مع مؤرخنا رواية السّيطرة على حصن الباستيل صفحة ملحمية تتحدّى العقلانية، كما يشير إلى ذلك بقوله: "يوم ١٣ يوليوز، لم تكن باريس تُفَكِّرُ إلاّ في الدّفاع، لكنها يوم ١٤ هاجمت، كانت هناك شكوك يوم ١٣ مساء، لكنها تبدّدت مع الصّباح. كان المساء مليئا بالاضطراب وسُخْطٍ عشوائي. أمّا الصّباح فكان مُشْرِقًا وذو سكينة رهيبة. مع الصّباح بَزَغَتْ فكرة في باريس، ورأى الجميع نفس النّور، نور في الأفكار وفي قلب كل صوت: «اذهب، وستأخذ الباستيل!».."(٣٥)؛ فعلى أساس "الإرادة الشّعبية" وهي النّسخة العلمانية "للإرادة المقدّسة" يُقَدِّرُ ميشليه سلطة وشرعية الأعمال الثورية(٣٦).

رغم ذلك، فقد تتبّع هذا المؤرخ عن كثب مسار التّاريخ بانعطافاته واضطراباته للتقليل في أوقات عصيبة من أهمية دور القادة أو حشد ثائر، وتأسّف بالمناسبة للسّيطرة التي مارسها على العامّة رَجُلاَ الشّارع مارات Marat (1793-1743) وهيبيرت Hebert (1794-1757) اللّذان يعرفان كيف يؤثران في رأيها واستجابتها. لكنّه اعترض على اضطراب مجازر شتنبر١٧٩٢(٣٧) التي تتعلق بمرض ثوري حقيقي، أو مؤامرة ٢ يونيو ١٧٩٣ التي أعلنت عن انقلاب فريكتيدور Fructidor (٣٨) وبرومير Brumaire (٣٩) بالوئام الرّائع لحركة الاتحادات أو هيبة مظاهرة غشت ١٧٩٢ التي وقّعَتْ شهادة وفاة الملكية بعد محاولة فرار الملك إلى ڤارين Varennes (٤٠)، وهو ما بَرْهَنَ عليه بقوله: " لا هذا الحشد المختلط جِدًّا لمنتصري ١٠ غشت، لم يكن، كما قلنا من قبل، عصابة من قطّاع الطّرق والبرابرة. لقد كان الشّعب برمّته، فكل المراكز، وكل الأنواع وكل الطّباع، التقت ببعضها هنا دون أدنى شك."(٤١)

ثانيًا: ترنّحُ الـثـّـورة

٢/١-إخفاقات الفاعلين والمؤسّسات

يَجْدُرُ بنا أن نتساءل عمّا يحدث بالضّبط في أيّام المجد هاته، حيث تبدو السّماء مخطّطة؟ يجيبنا ميشليه عن هذا السؤال وهو يقول: " في هذا اليوم كان كلُّ شيء ممكنا [...] المستقبل تَحَوَّلَ إلى حاضر ... وأعني بذلك وقتا أطول .... بَرْقُ خلودٍ"(٤٢).

يتأسف هذا المؤرخ لكون الثّوار لم يَعرفوا كيف يُعَبِّرُوا عن المعجزة أو يُديموها، لكنه يُشِيدُ باعتمادهم الجرّيء للتّقويم الجمهوري وفقًا لمبادرة جيلبير روم Gilbert Romme (1750-1795) ! فتعديل قياس وتسمية الزّمن كان يعني أن وحيًا قد أتى ليضع قطيعة أصبح أو سيصبح من خلالها كل شيء ممكنا لأمّة وإنسانية تحررتا من عبودية ضاربة في القدم، وهي الرؤية التي عبّر عنها صراحة بقوله: "ليس العصر المسيحي الذي يُذَكِّرُ به الاحتفال المتفاوت لـ Pâques(٤٣)- بل العصر الفرنسي، المُحَدَّدُ في يَوْمٍ معيَّنٍ وفي حدث مؤرَّخٍ ومؤكّد: تأسيس الجمهورية الفرنسية، أوَّلُ أساس وُضِعَ للجمهورية في العالم"(٤٤).

صَفَّقَ ميشليه أيضًا لإقامة أعياد الجمهورية الهادفة إلى تكرار إجماع ١٤ يوليوز ١٧٩٠، التي كان لابد من الانتظار طويلا حتّى يخصّها مؤرّخ للثورة بهذا القدر من الاهتمام. ولمّا كانت درجة نجاحها أو فشلها رهينة بمدى محاكاتها للنموذج الكنسي فقد تحفظ ميشليه هنا على إصدار قرار يدين الكنسية بشكل جدري؛ إذ بدا له من الضّروري الاحتفال بجمهورية جديرة بهذا الاسم مع ما يستوجبه ذلك من مشاركة حقيقية وإقامة قدّاس يساعدها على تمثيل نفسها(٤٥).

فهذا المؤرخ الذي كانت لاتروقه المشاركة بخياله فحسب في الأيّام الميمونة التي أعدّها داڤيد David (1815-1748)، لن يكون إلاّ مستاء إذا كان القدّاس يُشْعِرُ بالخِدَاعِ لا بالابتهاج الشعبي، لِذَا لم يتمالك نفسه حينما اشتبه في الانضباط المفروض على المواكب من طرف رجال الديّن، والخوف الذي سبّبه ذوو الأكمام القصيرة Bras nus (٤٦) للقَيِّمِينَ الجدد، وهي القناعة التي يختزلها في: "البورجوازية ارتجفت أمام الثورة التي صَنَعَتْ، وتراجعت أمام عملها. فالخوف ضَلَّلَهَا أكثر بكثير من المصلحة. لم يكن ينبغي الوقوع بحماقة في دُوَارِ الجموع، وعدم الخوف من التراجع أمام هذا المحيط الذي أثرناه، ينبغي الغوص فيه."(٤٧)، فوحده هذا التّعميد يُمكِنُهُ إدامة عمل "الوحي" الثوري.

في ذات السياق آخذ ميشليه ممثلي الشعب بالتوقّف على شاطئ "المحيط" وعَقْدِهِمْ صفقة مع الكنيسة بدل تأسيس كنيسة أخرى تحت اسم الجمهورية. فمنذ السّنة الأولى من العهد الجديد رأى في الكهنوت الكاثوليكي عَمِيلاً للثورة المضادّة(٤٨)، بعد أن تولّى التحريض والاعتراض على "فكر الفدرالية " الآخذ في التوسع بالشّفقة التي يُمكنها أن توقظ لدى المؤمنين من الفرنسيين التفكير في مصير الملك أو نزلاء الدّور الدّينية التي تُغْلَقُ(٤٩).

وقد أوضح في هذا الإطار أن الجمعية الدّستورية ضَلَّتِ الطريق وهي تُصَوِّتُ على الدّستور المدني لرجال الدّين(٥٠) لاسترضاء بعض الكنسيين من ذوي النّوايا الحسنة على غرار الأسقف هنري ڭريڭوار Henri Grégoire (1750-1831)، وفي ذلك كتب يقول : "هُمْ دَفَعُوهَا إلى هذا الخطأ الجسيم بتنظيم الكنيسة المسيحية دون الإيمان بالمسيحية."(٥١) عن هذه الصفقة المشبوهة التي دعّمت بلاڤوندي La Vendée(٥٢) على وجه الخصوص مقاومة شعبية كبيرة لإقامة الجمهورية، يعترض ميشليه بشدّة تحمل سمة الجدل القائم في مؤلفاته : "اليسوعيون" "Des Jésuites" (١٨٤٣) و"القس والمرأة والعائلة" "Du prêtre , de la(٥٣) femme et de la famille" ضد الإكليروسية وتعارض "عبقرية المسيحية" ومستقبل الثورة(٥٤).

يرى هذا المؤرخ أن نقصًا ثابتًا في الإيمان يشرح إخفاقات الفاعلين في الثورة؛ فميرابوMirabeau (1749-1791) لا يدرك هذا الالتزام من الساعة الأولى؛ فبالرغم من امتعاضه التلقائي إزّاء الحلول التوفيقية "لمتوسطي العقول" لم يَتَقَبَّلْ على غرار لافاييتLa Fayette (1757-1834) والملكيين الآخرين أن تكون الملكية الدّستورية ذاتها بدون مستقبل. لكن جمهوريي الجيل الثاني الذين تَكَوَّنُوا في الأندية(٥٥) هم أبعد من أن يجلبوا إلى الجمهورية التي تُولَد كل "الجرأة" التي يدعو لها دانتـــون Danton (١٧٥٩-1794). فبخلاف القرويين الذين انضمّوا إلى المِلكية بفضل بيع الأملاك الوطنية(٥٦)، والذين لَبّوا بشكل مُوَحَّدٍ نداء الوطن في خطر ووفّروا الكتائب المنتصرة في معركة ڤالمي Valmy (٥٧) وجيماب Jemmapes (٥٨)، كما يشير إلى ذلك هذا المؤرخ بقوله: "في إحساس كرامتهم الجديدة، وفي إيمانهم الشاب"(٥٩)، وخلافا لأصحاب المتاجر وعمّال باريس الذين سارعوا بالنزول إلى الشارع، وهو ما يوضحه ميشليه بقوله: "ماذا أرادوا بالضّبط؟ الذّهاب، أرادوا الذّهاب جميعا، وأن ينادوا جميعا، وأن ينسوا يوما مآسيهم، وأن يقوموا جميعا في طقس يوم جميل كهذا بتمشٍّ وطني كبير."(٦٠)؛ على عكس كل هؤلاء، زرع اليعاقبة الذين يُمَثِّلُونَ " رابطة عالم النّاس النّزهاء"(٦١) تحت شعار منطق الأنوار حِكْمَةً قديمة لا تتلاءم مع الأوضاع الإستثنائية. إذ يرى هذا المؤرخ أن لهم وللجيرونديين بخاصّة "الرّوح المُحبّة للحرب حتى نقول كما الألمان"(٦٢)، لكن "التّلقين الثوري الكبير" يَنْفَلِتُ منهم، لأن "الطّيبة البطولية"(٦٣) تنقصهم.

٢-/٢ صراع الإيديولوجيتين المسيحية والثورية

قبل الإشارة إليه على امتداد روايته، طرح ميشليه رسميا في مدخل جرّيء مثلما كان مؤلفه مدخل إلى التّاريخ العالمي لاهوتا (أو لاهوتا مضَادًّا؟) للثورة الفرنسية. فالنّقاش على نحو ما بدأه يتغي بالتحديد معرفة ما إذا كان مبدأ المنّة والخلاص عن طريق المسيح القاعدة الوحيدة للمسيحية يمكن توفيقه مع العدالة، ويوضح في هذا الصدد: "القانون كما ظهر في الثورة هل يتفق أم يتنافى مع القانون الدّيني الذي سبقها؟ بعبارة أخرى: الثورة هل هي مسيحية، معادية للمسيحية؟"(٦٤)

يبقى جواب "لاهوتي الشّعب" فهكذا كان يلقبه صديقه أوجين نويل Eugène Noël(1816 -1899) سلبيًا إلى حد كبير .فباستناده إلى المعارف التي اكتسبها لدى مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣-١٥٤٦) وأرثودوكسية بولين روسو Rousseau Pauline (1792- 1839) فهو يَدْفَعُ بأنّ الخلاص عن طريق المنّة يُحَرِّمُ ليس فقط التقديس التعسّفي بل حتّى ممارسة الأعمال المُتكررة والمنفذة في التاريخ السّياسي للغرب. قد يُثَبِّتُ هذا الانحياز العقائدي رغبة الملك القريبة جِدًّا من النّزوة الاستبدادية والتي سيتم إعلانها خاصّة بالحق المقدّس. ففي المشروع الثوري فالعدالة التي تعود للجميع وتُوَزَّعُ حسب أعمالهم ستأخذ بثأرها من المنّة، امتياز الملك المحتجزة والممارسة دون أيِّ مبرِّر. بِغَضِّ النظر عن الضّعف اللاّهوتي، فإنّ دُفُوعَ ميشليه تُفضي إلى خلاصة مفادها أن كُلَّ تاريخ الأزمنة الحديثة يبدو أنه يُثْبِتُ حتّى عهد قريب وجود صراع لا هوادة فيه بين الإيديولوجية الثورية والتعليم المسيحي التقليدي(٦٥).

بين عامي ١٨٤٧ و ١٨٥٣ بالرّغم من عملية التجديد الظّاهرة لمغامرة ١٧٨٩، فإن أطروحة الصّراع بين الإيديولوجيا الثورية والتعليم المسيحي التقليدي تبقى بعيدة من أن تكون من الأفكار المُسَلَّمِ بِها، فكل من فيليب بيشي Philippe Buchez (1796-1865) وبيير سِلِسْتَانْ روكس لا ڤيرني Pierre -Célestin Roux- Lavergne (1802-1874) في مؤلفهما: "التاريخ البرلماني للثورة" " Histoire parlementaire de la Révolution" (١٨٣٤-١٨٣٨) وكيني Quinet (1803-1875) في كتابه: "المسيحيــة والثـــورة" "Le Christianisme et la Révolution"(١٨٤٥) ولامارتين Lamartine (١٧٩٠-١٨٦٧) في مؤلفه: "تاريخ الجيرونديين" "Histoire des Girondins" يتّفقون على العكس من ذلك، حتى وإن كانوا يستخلصون نتائج مختلفة على أن الثورة الفرنسية أبعد من أن تُنْهي فهي تضيف

حلقة جديدة لتاريخ المسيحية. من ثم فيما يبدو الإخفاق النّسبي لتاريخ الثورة الفرنسية لميشليه في الوقت الذي نُشر فيه والذي فَتَحَ في أسطوغرافية فرنسا الثورية عهدا جديدا، أو بالأحرى أنّ الدّليل على العهد الجديد الذي تمت إقامته سنة ١٧٨٩ لم يُشَكِّلْ بَعْدُ سنة ١٨٤٧ إجماع الذّكريات والضّمائر والتصوّرات؟

٣/٢-عهد الإرهاب كتجلٍّ للإخفاق

هذه الملاحظات تضع ميشليه على طريق تحليل حاسم "لميكانيكا " الثورة. فقد لا حظ أن ديانة العدالة تَصْنَعُ أتْقِيَاءً أكثر إخافة من أولئك الذين تَصْنَعُهُمُ المنّة؛ بدليل أن الثورة كانت تطالب "بدُعاة" و "رسل" فلم تحصل إلاّ على "حكّام"؛ إذ ابتدع الخدّام المتحمّسون للقضية العادلة واتّبعوا أورثودوكسية سرعان ما جلبت الدّمار، وخلّفت ضحايا، ولعبوا لعبة القضاة بينما عصر المحاكمات بات وشيكا، ويبدو هذا التصوّر واضحا في قوله: "كانت ثمة حاجة إلى رقابة، ولم يَكُونُوا إلاّ شرطة."[٦٦] أمّا اليعاقبة الجُدُدْ فقد أعادوا تشكيل محاكم التفتيش التي أحدثها القدامى والمُعدّةِ لإطاعة دومينيك دو ڠيزمان Dominique de Guzmán (1170-1221) رئيسهم المقدّس؛ بذا أعادت ديانة المستقبل ديانة الماضي في أسوأ حالاتها، وهو المعطى الذي يوضحه هذا المؤرّخ بقوله: "الجُدُدُ كما القدامى، [...] كان لَهُمْ ادّعاء معرفة السَّبْرِ وحدهُم على الخط المُحَدَّدِ للعقيدة الكاثوليكية. واليعاقبة الجدد كانوا يعتقدون أن لهم وحدهم مستودع العقيدة الثورية. كانت عشيرة خالصة، تَتَرَكَّزُ على ذاتها [...] كانت لهم كلماتهم الخاصة بهم، وقدّيسوهم وولاءاتهم، وصيغ يرددونها: المبادئ أولا! المبادئ!... أساسًا، لابد من رجال أنقياء."[٦٧] وإذا كان هذا المؤرخ يُقِرُّ بالتشدّد الذي يُجَسِّدُهُ كل من روبيسبيير Robespierre (1758-1794) العفيف، وسان جيست Saint Just (1767-1794) الذي هو فوق الشّبهات، فهو يُفَضِّلُ عليهما بالرّغم من انحطاطه وتجاوزاته، القَذِرْ دانتون، الإنساني، الإنساني إلى أقصى حد، القادر دوما على تَفَهُّمِ الشّعب والتحدث نيابة عنه[٦٨].

وبخصوص روبيسبيير، يرى ميشليه أن ما يَحْجُبُ عنه الأهلية، هو رفضه المساس بالدّيانة الكاثوليكية، وقدرته على تقريب آراء القساوسة، حلفاء الملك، وكذا هذه العبقرية الماكرة التي جعلته يشغل بالتّناوب مناصب يمينية ويسارية دون أن يُقَرِّرَ بإيجاب ضد الملكية ولا لصالح الجمهورية، مُسْهِمًا بالتّالي في بعث رموز النّظام القديم داخل الثورة، ويتحدث هذا المؤرخ عن ذلك قائلاً: "تكذيب حاد للجمعية. لقد أعَادَ فتح الكنائس المغلقة بمقتضى ظهير ١٦، حذف القرن ١٨، ورَدَّنَاَ إلى الماضي."[٦٩]. ففي زمن قياسي، ركّز روبيسبيير كل السّلطات، فهو من حَوَّلَ الثورة إلى "آلة" و "شرطة" سحقت عفوية الجموع الثورية[٧٠]، مسترشدا "باستقامته الدّاخلية الشّديدة"[٧١] التي مكنّته من إدراك أن الوسيلة المثلى لخنق القانون هي احترامه، بمعنى بتطوير إمكانيات التّجاوز التي يخفيها حَتْمًا في أحد نصوصه؛ بذا حَطَّم روبيسبير وسحق المجتمع في الصّناعة الكبيرة للتعصّب الحزين[٧٢].

يراهن ميشليه في هذا الصّدد على شرح فترة الإرهاب التي استوقفت كلّ الكتابة التاريخية المتعلّقة بهذه الفترة، وذلك عبر تحديد المعنى الذي ينبغي إعطاؤه لمفهوم الخلاص العام؛ فإذا كان الأمر يتعلق بإنقاذ الوطن وهو في خطر، فما من شك أن الإجراءات الأكثر قسوة تفرض نفسها. ويقر في هذا الإطار بأن مجازر شتنبر تشرح نفسها، في غياب مبرر لها، ويتأسف فقط أنّه لا روبيسبير مناصر السّلام، ولا دانتون الضّعيف جدًّا على المواجهة، لم يبحثا بشكل جِدّي لاحتواء مارات و"المتهوّرين". بعد ذلك، وهو يشرح بدايات الجمعية الوطنية، فقد رفض الموقف الانتظاري اللاّ مسؤول للاجيروند[٧٣] أمام الخطر المتعدّد للاجتياح في أواخر شتنبر ١٧٩٢، وهو ما يوضحه بقوله: "لقد أعلنتِ الحرب الشّاملة والحرب الثورية وانعتاق العالم؛ وكانت في هذا المترجمة الشّرعية لفرنسا وظهرت أكثر سخاء من اليعاقبة وسياسية أكثر. لكنّها في نفس الوقت رفضت أساليب هذه الحرب."[٧٤].

ما كان للأمور إلاّ لتزداد سوءًا بمجرد ما تلي الإرهاب المنظّم أسلوب العنف وأصبح أسلوبا للحكم، لكن الأسوء الذي ستجسده لجنة الخلاص العام[٧٥] والمحكمة الثورية[٧٦] لم يكن قد حدث بعد. فبعد أن امتثل القانون الجمهوري لوضع قائم ينْكِرُ الحق عَمَلاً بمبدإ "لننقد فرنسا اليوم، سنكون عادلين غدًا"[٧٧]، استيقظ مع هذا الشّعار إغواء التنكر للعدالة البند الرّئيس لعقيدة الثّورة لصالح المبدإ المُجرم للخلاص[٧٨] الذي لا يجد نفسه مع الموظّفين الذين أصبحوا "حكوميين" أكثر حُجَّيَةً كما كان في لاهوت الخلاص عن طريق المنّة، بالتالي عادت الجزافية إلى مَلَكِيَةِ الحَقِّ المقدّس مع الأحكام البوليسية أكثر منها سياسية والإعدامات الجماعية للإرهاب، النّسخة الجمهورية لمشيئة ملكية الحق المقدس؛ إذ لم تُشْفَ فرنسا ثورة ١٧٨٩ من الإرث الكاثوليكي، بل تنكرت له بنسخه؛ فلتعويض الملك الذي قُطعت رأسه أعطت "طاغيةً" هو روبيسبير الذي انتهى بدوره

على المقصلة، بينما أصبحا ممكنين في فراغ تيرميدور تحت اسم الإمبراطورية والملكية انقلاب برومير[٧٩] وفترة ما بعد نابليون[٨٠].

انتقائية هذه الخاتمة قد يبعث على الاعتقاد أن ميشليه يُمَيِّزُ بين ثورة "صحيحة" لـ ١٧٨٩ و"خاطئة" تلتها ولغتها، لكن الأمر ليس كذلك. فبالنسبة لهذا المُبَشِّرِ الجمهوري الذي رأى الثورة وحيا مقدّسا لا يمكن المساس به، تبقى ثورة ١٧٨٩ على غرار الجمهورية التي تؤسسها واحدة غير قابلة للتجزئة. فأيُّ شارح كان ليفَكِّرَ في سحب الآلام والصّلب من كهنوت يسوع المسيح الذي أتى إلى هذا العالم ولكن الذي مات وبُعِثَ لخلاص النّاس؟

مُنْزَعِجًا من الحماس الروبيسبييري للويس بلان الذي يَشْجُبُ لديه "هَوَسُ التّجسيداتِ الملقّنة بعناية عن طريق التربية المسيحية"[٨١]، يبقى ميشليه بعيدًا من أن يرفض جملة وتفصيلا كل عمل الجمعية Convention montagnarde[٨٢] بدعوى أنها انتهت غريقة في حمّام دم. غير مكتف بشجب كلّما دعت الضّرورة إلى ذلك سوء إدارة الجيرونديين، أعطى هذا المؤرخ خصومهم المخيفين "الجبليين" استفادة أخرى من ظروف التّخفيف بعد قبوله أن الإرهاب كان ضرورة بالنسبة "لكبار منظّمي" مواجهة الخطر المزدوج لأعداء الدّاخل والخارج، وهي القناعة التي يختزلها في: "أيُمْكِنُهُمْ كما أراد كاميل ديسمولان Camille Desmoulins (١٧٦٠-١٧٩٤) أن يتنكّروا لأساليب حكم الإرهاب؟ كان هذا ليكون تَخَلِّيًا عن المصادرات المؤقتة التي وحده حكم الإرهاب أعطاها. فبدونه (أي حكم الإرهاب) فبماذا كانوا ليُغَذُّوا ويلبسوا ويجهزوا جنودهم الاثني عشر مائة ألفا؟"[٨٣].

بعد أن استشار في عين المكان الباقين على قيد الحياة أو أبناء الشّهود بحث ميشليه إن لم يكن عن تبرير غرق نانت[٨٤] عن استيعاب قرار كاريي Carrier (1756 - 1794) على الأقل، وفي ذلك كتب قائلاً: "كل شيء يُشرح من الحالة التي كانت غير متوقعة، مريعة ومذهلة بالاضطرابات والدّوار، فرأس كاريي لم تعد تستطيع التحمل."[٨٥]، ودافع من جهة أخرى قدر استطاعته عن تساهل لجان الخلاص العام، وحول هذه النقطة أكد أنّ "الدّكتاتورية الجماعية للّجان كانت في الفترة من أكتوبر إلى دجنبر (٩٣) الدّفاع والخلاص، عندئذ كان يتعين عليها أن تتوقف"[٨٦]. ولمّا اقتنع بأن سقوط المَلَكِيَةِ قد تقرّر تحت تأثير المنطق الدّاخلي للإرهاب وليس في تيرميدور، فقد تفادى بحلول ربيع ١٧٩٤ إحراج روبسبيير الذي بات من الآن فصاعدا شخصية ثابتة ولا تقود إرادته الحدث بتاتا، ويبدو هذا التّصور واضحا في قوله: "هل كان روبيسبيير يسعى إلى الدّكتاتورية؟ سؤال بات بلا جدوى من الآن فصاعدًا، فإن كانت مرغوبة لديه حتى الآن، فقد أصبحت بالنّسبة له لا غنى عنها في الموقف الفظيع الذي وُضع فيه، كانت الدّكتاتورية ملاذه الوحيد، وحاجته ومصيره."[٨٧]

ثالثا: بَعْثُ الكنيسة الحداثية

١/٣-التوحيد بين الجمهوريين والاشتراكيين

إجمالاً كلّما تتقدم صياغة مؤلّفه "تاريخ الثورة الفرنسية" الجارية بشيء من الاستعجال ويَتَخَلَّفُ فرز الأرشيفات الغير منشورة أحيانًا كسجلاّت أقسام الكمونة La Commune[٨٨] الوعظ البسيط للخبر السعيد[٨٩] وينكشف تعقيد الأوضاع والمناقشات والنّاس، يتخلّى هذا المؤرخ عن المديح والاتّهام، لتستمر وحدها البورتريهات التي يَرْسُمُهَا شَغْلَ سِجِلِّ التحقيق وتبلغ فيه قوّة تليق بهونوري دوميي Honoré Daumier (1808-1879)، وفيما عدا ذلك فإن وقت التفكير قد حان. يتعلّق الأمر في الواقع بمعرفة قبل ثورة فبراير ١٨٤٨ ولا سيما بعد أيّام يونيو Journées de Juin[٩٠] ما إذا كانت ثورة ١٧٨٩ تحافظ على سلطتها وتأثيرها، فبالرّغم من ضُعفها وخياناتها فقد تركت الجمهورية الأولى عَمَلاً. في هذا السياق، يُبرز ميشليه دَوْرَ بيع الأملاك الوطنية في انضمام المزارعين إلى المِلكية، ويسجل لصالح الجمعيات الثورية في غياب الإصلاح الدّيني الذي كان من واجبه أن يعبّئها أوّلا مشروع التربية الشعبية الذي لم يكن للكمونة الوقت لتنفيذه، لكنها فتحت له الطّريق مع ذلك، بعد أن أسندت مهمة صياغته للوبولتيي سان فارجو Lepelletier Saint- Fargeau (1760-1793)[٩١].

في الوقت المناسب وبطريقته، اهتمّ ميشليه ليس فقط في مؤلّفه: "تاريخ الثورة الفرنسية" بل أيضًا في مؤلّفاته: "الشّعب" "Le Peuple" (١٨٤٦) و"المأدبة أو وحدة الكنيسة المقاومة" " Le Banquet ou l'unité de l'église militante " (١٨٥٤) الذي بقي غير منشور أو "أبناؤنا" "Nos Fils" (1869) بكتابة " التاريخ المقدّس" مشفوعا بمحاضرة يوم الأحد التي تحتاجها "الكنيسة الجمهورية" بعد أن ماتت في الانتحار الوطني لعهد الإرهاب. فحتّى في دوار هذه المرحلة يبدو لهذا المؤرخ أنّه يستشف أحيانا مقدّمات ثورة أخرى قادمة ستتحقق فيها وعود ثورة ١٧٨٩، فبعد اعتقال الجيرونديين في ٢ يونيو ١٧٩٣ قرّر أن يُوَلِّدَ من روايته المشروع التالي: وراء "الثورة الكلاسيكية لروسو وروبيسبيير" التي بلغت حدودها القصوى "الثورة الرّومانسية التي تَعْوِي مُشَوَّشَةً خارج الأسوار كصوت للمحيط"[٩٢]، فعيّن أنبياءها: بيير لورو Pierre Leroux (١٧٩٧-

(١٨٧١) "الثّائر" وماري جوزيف شالي Marie Joseph Chalier (1793-1747) متديّن ليون ورجل "الشفقة العنيفة" وفرانسوا نويل بابوف François Noël Babeuf [٩٣] (١٧٦٠-١٧٩٧) الذي نشر بالفعل مؤلّفه: "السجل الأبدي" "Cadastre perpétuel" (١٧٨٠) الذي بدأ الحديث عنه. علاوة على ذلك وبغية فرضه في وجه إيديولوجية هؤلاء "الجمهوريين الكلاسيكيين" الذين هم "الجبليون" فقد أشار وعوضًا عن "الثورة الرّومانسية" إلى "التيّار الجمهوري الرومانسي ذو المائة رأس، وذو الألف مدرسة، الذي ندعوه اليوم الاشتراكية."[٩٤]. يجدر بنا هنا أن نتساءل عمّا إذا كان فشل الجمهورية الثّانية لم يترك أملا آخر سوى انطلاقة "الثورة الرّومانسية" التي تم خنقها من طرف الإرهاب وروبيسبيير نفسه؟

يجرؤ ميشليه على افتراض ذلك، وهو مرهق خلال شتاء (١٨٥٣- ١٨٥٤) جرّاء إنهاء مؤلفه: "تاريخ الثورة الفرنسية" فلقد استجمع ما بقي فيه من قوة لتجسيد فرضيته. فبعد ٢ دجنبر، ظل مأساويا الحكم الذي أصدره في حق "المناطقة السياسيين "للجمهورية الأولى "الجيرونديين" و"الجبليين" على السّواء المتمثل في أن الثورة السياسية لا زالت غير قادرة على فرض نفسها لأن الثورتان الدّينية والاجتماعية تنقصانها، وهي القناعة التي يختزلها في: "الثورة الدّينية والثورة الاجتماعية، حيثما كانت قد وَجَدَتْ دعمها وقوتها وعمقها [....] خصبة بالقوانين، عقيمة من حيث العقائد، فهي لا تُكفي الجوع الدّائم للرّوح البشرية الجائعة أبَدًا، والتي أظمأها الله [...]،"[٩٥].

جامعًا بين بابوقية القلب التي يستمدها من والده الذي تعرّض على الأقل للخطر في مؤامرة أنصار المساواة سنة ١٧٩٦[٩٦] وشعور الثورة الذي أيقظه لديه مشهد البؤس العمالي في مانشيستر سنة ١٨٣٤[٩٧] أو بليون لدى النسّاجين[٩٨] سنة ١٨٣٩، اقترح ميشليه عقيدة وقدّاسا اشتراكيين؛ على مستوى العقيدة فستكون مبنية على مبدأ "العيش اللاّئق" بمعنى على حد أدنى من العدالة التوزيعية الموجّهة لهزم العزلة التي لا تطاق للبؤس، استنادا إلى نداء المصلح جون هيس Jean Huss(١٣٦٩-1415) القائل بـ"الكأس للشعب!"[٩٩]، إذ أن الخطأ الذي ارتكبه الجمهوريون سنة ١٨٤٨ وبدرجة أكبر سنة ١٧٩٣ أنّه، "سواء من خلال الولاء القوي للرّواقية اليعقوبية[١٠٠]، وإمّا عن طريق ابتعاد نزيه عن الإعلان المادي للاشتراكية النّاشئة، فإنهم لم يشعروا بشكل كاف بِكُلِّ ما يمكن أن تدخله العقيدة الجديدة من نسغ ودماء شابة في بطولة ٩٣"[١٠١].

٢/٣-مأدبة الحداثيين

سيُجدِّدُ قدّاس الدّيانة المعاصرة الذي حظيت به أخيرًا روح "ثورة" ١٧٨٩ تحت الاسم القديم "للمأدبة" مؤسّسة عشاء المسيح La Cène du Christ [١٠٢]، حيث ستتحقق في الوقت نفسه المصالحة بين كل أبناء الثورة والاقتسام الأخوي للطّعام بين الجَوْعَى والشّبعى. نود أن يكون بوسعنا القول أنّه بهذه الرؤية التّصالحية تختتم العلاقة الطّويلة بين ميشليه والذّكرى العظيمة التي تؤثر على مسيرته المهنية بأكملها وعلى كل المصير السّياسي لقرنه، لكن سيكون في ذلك تجاهلٌ لمؤلف: "تاريخ القرن ١٩ " "Histoire du XIX siècle " الذي كتبه قبيل وفاته والذي خصّصه أساسًا للفترات الأخيرة من عهدي الجمعية الوطنية وحكومة الإدارة حتّى ١٨ بروميرِ[١٠٣].

صحيح أنّه استأنف فيه بِحُبٍّ استكشاف "الأرض المجهولة" "terra incognita"[١٠٤] التي غامر فيها بابوف قبل سان سيمون Saint -Simon (1825-1760) وشارل فوريي Charles Fourier (1837-1772) بينما فرنسا المسَرّحةُ والمُحبطة بعد زوال "الطّاغية" روبيسبيير تستمتع "بانفراج طبيعة وإنسانية ". مع ذلك، فقد أصدر في المقدّمة التي يعود تاريخها لعام ١٨٧٢ على القرن الذي أعقب الثورة حُكْمًا قاسيا لم يستثن الأمل الاشتراكي نفسه، وهو التصور الذي يبدو واضحا في قوله: "بقدر ما تَقَدَّمَ القرن ١٨ بعض الشيء عند وفاة لويس الرّابع عشرLouis XIV (1715-1638) على جناح الفكرة والنّشاط الفردي، بقدر ما ربط قرننا بآلاته (المصنع والثكنة) الجموع بشكل أعمى، وأحرز تقدُّمًا داخل المعاناة [...] عمومًا هذا التّاريخ الجد مادي يمكن أن نتحدّث عنه بأكمله في ثلاث كلمات: الاشتراكية، العسكرة، التصنيع، ثلاثة أشياء تولِّدُ وتدمِّرُ إحداهما الأخرى. فإرهاب بابوف صَنَعَ بونابارت وانتصاراته كذلك، بمعنى أنّ الاشتراكية النّاشئة وبسبب هلعها حققت انتصار التسَلُّطِ العسكري."[١٠٥]

هذه الكلمة الأخيرة، كما كلُّ الكلمات الأخرى العاطفية تبيّنُ أنّ ميشليه قد جعل من الثورة الفرنسية حتى وإن لم يعشها قضية شخصية. فقد كان حاضرا بنفسه وهو يسمع القدامى يحكونها له ويحكيها بدروه، وكان يَتَمَلَّكُهُ إحساسٌ بمواعدتها كل يوم في باريس وهو يجوب الأماكن التذكارية لتاريخها، مستشيرا أفكاره الخاصة، وهو ما عبّر عنه صراحة سنة ١٨٤٧ في خطابه إلى قرّاء مؤلفه تاريخ الثورة الفرنسية بقوله: "الثورة تعيش فينا، في أرواحنا [...] الرّوح الحيّة لفرنسا، أين سأضبطك، إن لم يكن في أنا؟... الحكومات التي تعاقبت، العدُوُّ

في كامل الجزء المتبقي [...] كانت تريد الفرار منك .... ولماذا؟... أنت الوحيدة التي تعيشين. تعيشين! أحِسُّ بذلك كُلَّ مرّة أنه في هذا الوقت من السنة، حينما يؤثر عَلَيَّ تدريسي، وأنوء بعبئ العمل ويزداد ثقل الموسم.... عندئذ أذهب إلى ساحة مارس، أجلس على العشب اليابس، وأستنشق الهواء العظيم الرّائح في السهل القاحل [...]... هنا يُقيم إله. "[١٠٦]. ومن ثَمَّ فإن مؤلفه: "تاريخ الثورة الفرنسية" الذي كُتب بعد نصف قرن على الأحداث التي يرويها لا يزال يشارك فيها وينبع منها ويشهد عليها. فهو ينتمي في حد ذاته إلى التاريخ الرّاهن للثورة الفرنسية، لهذا السّبب فهو يتطلب إعادة قراءته ونقده واحترامه[١٠٧].

خَاتِمَةٌ

آمن ميشليه بأن الثورة الفرنسية تحمل في طيّاتها كل مقومات الدّيانة؛ وهي القناعة التي يختزلها في: "القدّيسة، القدّيسة الثورة، أنتِ التي تتأخرين في المجيء [...]. أنا من انتظرتك منذ ألف سنة على ثلم العصر الوسيط، ماذا! مازلت أنتظرك! يا إلهي! كَمْ يَمُرُّ الوقت ببطء! يا إلهي! كم عَدَدْتُ السّاعات!... هل تَصِلِينَ يَومًا؟ "[١٠٨] من هذا المنطلق، وفي أفق صناعة لاهوت للثورة الفرنسية تجد فيه الجمهورية الفرنسية اليافعة نِبْرَاسَهَا، أعطى هذا المؤرخ أحداث وثورة ١٧٨٩ سلطة وشرعية تكاد تكون مقدّسة، جاعلا من الشّعب شخصية أسطورية أو "المسيح" في نسخته الحديثة؛ فبترويجه لميلاد "المسيح الشعب" والأمل الذي تَوَلَّدَ وحياة ومغامرات الشعب كمُخَلِّصٍ جديد، تكون مقاربة ميشليه للثورة الفرنسية محاكاة للنموذج الإنجيلي بالأساس.[١٠٩]

لقد انتحلت الثورة الفرنسية بقلم هذا المؤرخ بعض خاصيات الدّيانة المسيحية: فمعه صار لها عشاءها الأخير المتمثل في احتفال الاتحاد لعام ١٧٩٠ وآلامها مثلما آلام المسيح، وقسّها الكبير ميشليه بنفسه الذي كان مدركًا تمامًا للطّابع المقدّس لعمله كمؤرخ[١١٠]، وهو ماعبر عنه بقوله: "حملتُ كل هذا الماضي وكأنني كنت أحمل رفات والدي أو ابني."[١١١]، ويضيف: "هي (أي الثورة) لم تتبنّ أيّ كنيسة. لماذا؟ لأنها كانت كنيسة في حد ذاتها."[١١٢] فإذا كان جمهور المؤرخين يرى أن هذه المقاربة الدّينية غير المسبوقة لا تتماشى والدّقة التي تقتضيها الكتابة التاريخية، فقد أكسبت صاحبها قوة متميزة لسرد الأحداث، وهو ما توضحه بول بوتيتي Paule Petitier (١٩٥٩-...) بقولها: "يتعيّن أن لا نغفل المهارة الاستثنائية للمؤرخ والكاتب في الجمع بين الجمالية الأدبية والذكاء التّاريخي في وصفه لصحوة أمّة اكتشفت أنها ذات سيادة."[١١٣]

الاحالات المرجعية:

(١) **جول ميشليه**: (١٧٩٨-١٨٧٤)، مؤرخ فرنسي، من بين أهم مؤلفاته: "تاريخ فرنسا" "Histoire de France" الذي أصدره في سبعة عشر جزءا خلال الفترة الممتدة مابين ١٨٣٣ و١٨٦٧.- أنظر ياسين زينون، "**منطق الكتابة التّاريخية عند المؤرخ جول ميشليه Jules Michelet**" ، أطروحة لنيل الدّكتواره في التاريخ، جامعة محمد الخامس آكدال ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الموسم الجامعي : ٢٠١٣-٢٠١٤.

(٢) يتعلق الأمر بالإنجيليين الأربعة كتبة الأناجيل الأربعة القانونية في العهد الجديد، وهم: متّى Matthieu (القرن الأول-٧٤ ميلادي)، ومرقس Marc (القرن الأول الميلادي- ٦٨ ميلادي)، ولوقا Luc (القرن الأول الميلادي- ٨٤ ميلادي)، ويوحنا Jean (سنة ٦ ميلادي- القرن الأول).

(٣) للمزيد حول مَلَكِيَةِ الحَقِّ المقدّس، راجع:

-Jules Michelet, Histoire de La Révolution française, Paris, Robert Laffont, 1979, quatrième réimpression, 1998, tome,I , Introduction , "De l'ancienne monarchie ", pp. 67- 94.

ياسين زينون، "**منطق...**"، مرجع سابق، ص: ١٩٧- ١٩٨.

(٤) للمزيد حول مفهوم المنّة عند ميشليه، راجع:

J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op, cit., tome, I, Introduction "De l'ancienne monarchie " pp. 54-58.

(٥) عهد الإرهاب: (٥ شتنبر١٧٩٣ - ٢٨ يوليوز١٧٩٤)، اسم يطلق على فترة مليئة بالعنف شهدتها فرنسا بعد اندلاع الثورة الفرنسية بسبب الصراع بين الفصائل السياسية المتناحرة من الجيرونديين واليعاقبة. اتسمت تلك الفترة بأحكام الإعدام الجماعية لمن وصفوا بأنهم "أعداء الثورة" والتي راح ضحيتها الآلاف. فما بين يونيو ١٧٩٣ ونهاية يوليوز ١٧٩٤، سجلت ١٦،٥٩٤ وفاة رسمية في فرنسا، من بينها ٢،٦٣٩ وفاة في باريس فقط.

- Cf. Linton, Marisa . The Terror in the French Revolution, Kingston University, (PDF).

مؤرشف من الأصل (PDF) في ١٠ يوليوز ٢٠١٨ ، اطلع عليه بتاريخ : .

(٦) فيما يلي عنوان كل جزء والفترة التّاريخية التي يؤرخ لها:

- الجزء الأول: "**حكومة الإدارة أصل آل بونابارت**" "**Directoire origine des Bonaparte**"، (يرصد هذا الجزء تاريخ فرنسا في الفترة الممتدة بين نهاية حكم اليعاقبة و٢٩ يوليوز١٧٩٥).
- الجزء الثاني: "**حتى ١٨ برومير**" "**Jusqu' au 18 Brumaire**" ، (يرصد هذا الجزء تاريخ فرنسا في الفترة الممتدة بين عهد رئيس الحكومة الإنجليزية ويليام بيت الأول Pitt L'Ancien William (1708- 1778) وتحديدا ابتداء من سنة ١٧٦٦ و ١٨ بروميز).
- الجزء الثالث: "**حتى واترلو**" "**Jusqu'à Waterloo**"، يرصد هذا الجزء تاريخ فرنسا في الفترة الممتدة بين ما بعد انقلاب ١٨ بروميز ومعركة واترلو).

(٧) **أسينيا**: عملة ائتمان تَمَّ سكُّها إبّان الثورة الفرنسية، فَبَعْدَ "نظام لاو" "Système de Law" (١٧١٦ -١٧٢٠) كانت "الأسينيا" ثاني تجربة لعملة الائتمان تعرفها فرنسا خلال القرن ١٨، لكن التجربتين فشلتا معا فشلا مُدَوِّيًا. كان يتعلق الأمر في الأصل بسندات مديونية أصدرتها الخزينة سنة ١٧٨٩، تَمَّ ضمان قيمتها عبر رهن الأملاك الوطنية. وبعد أن أصبحت الأسينيات عملة التداول والتبادل سنة ١٧٩١، ضاعفت الجمعيات الوطنية إصدار هذه

العملة ما أدّى إلى تضخمها، فتم إلغاء قانونيتها بموجب قانون ٢١ ماي ١٧٩٧.

- Cf. Albert Mathiez et Georges Le Febvre, Annales historiques de la révolution française, Firmin - Didot et Cie, 1988, p. 256.

(٨) **مطبعة الصم والبكم**: تم إنشاء هذه المطبعة سنة ١٧٩١ وتوقّفت عن الخدمة عام ١٨١٣، و أصدرت "جريدة العلماء " Le Journal des savants" بين عامي ١٧٩١ و ١٧٩٢. وكانت المطبعة الخاصّة بكل من روبيسبيير ولجنة الخلاص العام قبل ٩ يترميدور (الموافق لـ ٢٧ يوليوز ١٧٩٤)، وظل والد ميشليه السيد جون فيرسي ميشليه نائب رئيس العمّال بها حتى هذا التاريخ. وبين العامين التاسع و العاشر بالتقويم الثوري أدار المطبعة أندريان لوكلير Adrien Leclère (1763- 1831) ثم جـــــون أونج كلو Jean Ange Clo (?170- 1824) ذو الأصل الإيطالي، منذ عام ١٨٠٦.

(٩) للمزيد حول ميشليه وشبابه، راجع:

- Gabriel Monod, La Vie et la Pensée de Jules Michelet (1798_1852), Paris , Honoré Champion, 1923, réimpression, Genève , Slatkine Reprints , 1975, accessed on 13/5/ 2018, at: https: // bit.by/2sbyADp; tome. I , pp. 1-32.

- Paul Viallaneix, Michelet, les travaux et les jours, 1798 -1874, Paris , Gallimard, 1998, pp. 15-69.

- ي. زينون، "**منطق...** "، ص ص : ١٢- ١٩ .

(10) Jules Michelet, Le Peuple, Paris, Marcel Didier, 1946, p. 18.

(١١) للمزيد حول موقف ميشليه من ثورة ١٨٣٠، راجع:- ي. زينون ، "**منطق ..** " ، م . س، ص: ١٧٢ - ١٨٦.

(١٢) **بروميتي**: استنادًا إلى الأسطورة الإغريقية فبروميتي هو ابن جابيت Jebet من زوجته أو سيانيد Océanide وقد عرف بسرقته النار من الآلهة لإهدائها إلى البشر.

(13) Jules Michelet, Introduction à l'histoire universelle , Paris, Ernest Flammarion , 1897, p. 463.

(١٤) راجع: فقرات من سيطرة الثوار على حصن الباستيل في: - ياسين زينون، "**التاريخ كممارسة لدى ميشليه**"، مجلة البحث التاريخي، عدد مزدوج ، ١٣ -١٤، ٢٠١٦ - ٢٠١٧، ص: ٤٨. - ياسين زينون، "**الكتابة التاريخية عند جول ميشليه** "، مجلة أسطور، عدد ٨ - تموز/ يوليوز : ٢٠١٨ ، ص : ١٥.

(١٥) تيرميدور يوافق الشّهر الحادي عشر في التقويم الجمهوري الفرنسي، وتقابله تقريبا في التقويم الگريگوري الفترة الممتدة بين ١٩ يوليوز و١٨ غشت.

(١٦) جيزو اللّيبرالي حتّى النّخاع، الذي كان رئيسًا للحكومة الفرنسية خلال الفترة الممتدة بين ١٨ شتنبر١٨٤٧ و٢٤ فبراير ١٨٤٨، أثبت حرصه على تحقيق نوع من التوازن بين مختلف الأطياف السياسية ومعارضته للاستبداد الملكي والاغراءات الثورية ورغبته في إعطاء سلطة للمجتمع؛ لكنه في الآن نفسه كان يخشى من أن يؤدي مزيد من الانفتاح إلى تجاوزات تورية، ما يفسر عدم استجابته لمطالب المعارضة الملحّة بالإصلاح السّياسي.

- Cf. Nathalie MP, François Guizot, un libéral incomplet? Histoire du libéralisme, 24 mai 2016, Contrpoints, Le juste milieu.

https: //www.contreoints.org

(١٧) **حزب القسّ**: هو حزب رجال الدّين خلال القرن ١٩، تنسب تسميته إلى فرانسوا دومينيك دورانيو مونتلوزيي François Dominique de Reynaud de Montlosier (1755 -1838) الملكي الذي انضم إلى الدّستوريين.

Cf. , Balzac, Curé vill , 1839, p. 72.-

(١٨) Alfred de Musset , La Confession d'un enfant du siècle, Paris , Claude Duchet, Garnier, 1968, première partie , chap., II, pp, 4 et 7.

(١٩) **فلنرفع قلوبنا**: تعبير لاتيني مستمد من إحدى الجمل التي يستظهرها القس في استهلال صلاة القربان المقدّس في العديد من احتفالات الشعائر الدّينية للكنائس المسيحية.

(٢٠) ألّف ميشليه كتابه هذا في سبعة عشر جزءا خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٨٣٣ و ١٨٦٧، وفيما يلي رصد للفترة من تاريخ فرنسا التي يؤرخ لها كل جزء:

- الجزء الأول: تاريخ فرنسا منذ ما قبل العام ١٠٠٠.
- الجزء الثاني: منذ العام ١٠٠٠احتى سنة ١٢٧٠، وهو مستهل بكتيب عنوانه:"جـدول فرنسا" "Tableau de la France".
- الجزء الثالث: الفترة الممتدة بين عامي ١٢٧٠ و ١٣٨٠ .
- الجزء الرابع : الفترة ما بين ١٣٨٠ و١٤١٥.
- الجزء الخامس : الفترة الممتدة بين سنتي ١٤٢٢و١٤٦١.
- الجزء السادس :"لويس١١" "Louis XI"، الفترة الممتدة بين عامي ١٤٦١و١٤٨٣.
- الجزء السابع: "النهضة" "**Renaissance** "، تاريخ فرنسا خلال القرن السادس عشر.
- الجزء الثامن "الإصلاح" "**Réforme**"، تاريخ فرنسا خلال القرن السادس عشر.
- الجزء التاسع :" الحروب الدينية " "**Guerres de religion**"، تاريخ فرنسا خلال القرن السادس عشر.
- الجزء العاشر: " العصبة وهنري الرابع" "**La Ligue et Henri IV** "، تاريخ فرنسا خلال القرن السادس عشر.
- الجزء الحادي عشر: " هنري الرابع وريشيليو" "**Henri IV et Richelieu**"، تاريخ فرنسا خلال القرن السابع عشر.
- الجزء الثاني عشر :"روشيليو ولا فروند"" **Richelieu et la fronde** "، تاريخ فرنسا خلال القرن السابع عشر.
- الجزء الثالث عشر: "لويس ١٤ وإلغاء ميثاق نانت" "**Louis XIVet la Révocation de l’édit de Nantes**"، تاريخ فرنسا خلال القرن السابع عشر.
- الجزء الرابع عشر: " لويس ١٤ ودوق بورگون" "**Louis XIV et le duc de Bourgogne**"، تاريخ فرنسا خلال القرن السابع عشر.
- الجزء الخامس عشر: "الوصاية "**La Régence**"، تاريخ فرنسا خلال القرن الثامن عشر.
- الجزء السادس عشر: "لويس١٥ " "**Louis XV** "، تاريخ فرنسا خلال القرن الثامن عشر.
- الجزء السابع عشر: "لويس١٥ ولويس١٦" "**Louis XV et Louis XVI** "، تاريخ فرنسا خلال القرن الثامن عشر.

(٢١) فيما يلي تحديد للفترة الزمنية من الثورة الفرنسية التي يؤرخ لها كل جزء:

- الجزء الأول: (أبريل - يوليوز١٧٨٩).
- الجزء الثاني: (١٤ يوليوز - ٦ أكتوبر١٧٨٩).
- الجزء الثالث:(٦ أكتوبر١٧٨٩ - ١٤ يوليوز ١٧٩٠).

- الجزء الرابع: (يوليوز ١٧٩٠ - يوليوز ١٧٩١).
- الجزء الخامس: (يونيو - شتنبر١٧٩١).
- الجزء السادس: (أكتوبر ١٧٩١ - عشية ليلة ١٠غشت ١٧٩٢).

الجزء السابع: (١٠ غشت١٧٩٢- معركة ڤالمي التي جرت في ٢٠ شتنبر ١٧٩٢).

(22) Jules Michelet, Cours Professé au Collège de France par Jules Michelet 1847-1848, Paris Chamerot, 1848, Introduction, pp.XXXVII-XXXVIII.

(٢٣) - للمزيد حول موقف ميشليه من ثورة فبراير، راجع:
ي. زينون : "**منطق...** "، م . س ، ص ص: ١٨٧ - ٢٠٩.

(24) Jules Michelet, Le Peuple, Paris, Marcel Didier, 1946, p. 12.

(25) Paul Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste de la Révolution francaise / Jules Michelet, Evangelist of the French Révolution", Archives de sciences sociales des religions, nº 66/1, 1988. p. 44.

(٢٦) اعتراف طفل من هذا القرن: هي رواية كتبها الشاعر الفرنسي ألفريد دو ميسي Alfred de Musset (١٨١٠-١٨٥٧) عندما كان عمره ستة وعشرين سنة. وتصوِّرُ علاقة حب لشاب يدعى أوكتاڤ Octave ، خانته محبوبته، وأصبح لا يثق بالآخرين ودفن أحزانه في الكحول والفجور. بعد ذلك أحب بريجيت Brigitte، لكن نزعاته الغيورة ورغبته في "ملازمة أحزانه، التي تسمى كذلك الواقع"، قضت على علاقتهما. لذا يقرر أن يهجر محبوبته ويحكم على نفسه طواعية بالعيش عيشة تعيسة. كتب هذا النص، الذي يُعَدُّ جزئيا سيرة ذاتية، بعدما أنهى موسيه وجورج ساند علاقتهما واعتراف موسيه بفشل هذه العلاقة، فقد حَوَّلَ قصتهما في هذه الرواية إلى قصة عاشقين أَلَمَّتْ بهما اللعنات، مثلما كان الحال مع روميو وجولييت. منح موسيه كذلك روايته بعدا إضافيا: ففي قصته، تشكل الأحاسيس ارتباطا بين الوجود المستقل للأفراد ومصيرهم الاجتماعي. بعد الثورة الفرنسية ونهاية الامبراطورية، حينها "أتى عالم عبارة عن أطلال شباب قَلِقٌ...وطارد الأرض يأس مخيف." تختفي الأمثولة والحلم في تصوير موسيه للمجتمع، ويسود النفاق والتهكم في هذا العالم المنغلق الخاوي الكئيب. أما الحب فهو وحده القادر على السمو فوق " نجم المنطق البارد"، لكن أوكتاڤ لم يعد يؤمن بالقيم المطلقة فتزداد بذلك حيرته. تعتبر هذه الرواية رمزا لخذلان الرومانسية.

(٢٧) **السّان سيمونية**: كانت حركة سياسية واجتماعية فرنسية في النصف الأول من القرن ١٩، ملهمة بأفكار سان سيمون Saint Simon (1760-1825) ، والسان سيمونيون هم أتباع سان سيمون الفيلسوف والاقتصادي الفرنسي الذي كان يدعو إلى أن السلطة يجب أن تسلم إلى الصناعيين لا إلى العلماء، لأنهم هم الرؤساء الحقيقيون للشعب، فهم الذين يقودونه في أعماله اليومية. فالأمة هي ورشة صناعية واسعة، تزول فيها فروق المَوْلِدِ والنّسَبِ، وتبقى اختلافات القدرات. وقد كانت آراؤه وراء بدايات " العلم الوضعي" والاشتراكية.

(٢٨) ينعَتُ ميشليه الثورة الفرنسية "بالمؤسّسة" لأنها مَثّلَتْ بمبادئها وتوصياتها قطيعة مع النّظام القديم، للمزيد حول هذا الموضوع، راجع:

- P. Viallaneix, Cours au Collège de France..., op.cit., tome. II, (1845-1851), cours de 1845, L'esprit et la portée de la Révolution, premier semestre :Non pas la Révolution mais la Fondation, pp. 17-47.

(29)- J. Michelet, Histoire de La Révolution Française, op.cit., tome. I, , seconde partie, "De l'ancienne monarchie", p. 80.

(٣٠) في كتابه وفاق العهدين Concorde de l'Ancien et du Nouveau Testament (لانعرف سنة إصداره على وجه التحديد، وقد اعتمدنا على نسخة البندقية، ١٥١٩) يمّيّزُ يواكيم الفيوري بين ثلاثة عصور من الرّوحانية المتزايدة:

-**عصر الأب**: وهو يشير إلى العهد القديم حيث يمتاز بانسياق الجنس البشري إلى تعاليم الرب.

-**عصر الابن**: يبدأ منذ قدوم المسيح وحتى عام ١٢٦٠ وهو يشير إلى العهد الجديد والكنيسة.

- **عصر الروح القدس**: وهو عصر قادم سيذوب فيه العالم في روحانية السّماء ولن تكون هناك أي ضرورة إلى مؤسسة الكنيسة. وفقًا ليواكيم فإنه سيصبح من الممكن فهم رسالة المسيح فهما عميقا في العصر الثالث وليس فقط تفسيرات نصية وفي هذه المرحلة سيحل السلام والوفاق في العالم كله وذلك بدلا من الإيمان بالقدوم الثاني للمسيح (الباروسيا) وبذلك سيصبح وجود المؤسسة الكنسية أو الكنيسة المهيكلة غير ضروري.

(٣١) ترمز هذه الرّواية إلى تاريخ الإنسانية، حيث يحضر سبينوزا Spinoza (1632-1677 وفاوست Faust (١٤٨٠-١٥٤٠) ومالبرانش Malebranche (1638-1715)وتندمج مظاهر الحياة الأشد اختلافا ضمن رؤية شاملة واحدة. عادة ما تصنّف هذه الرّواية التي تعود أحداثها إلى القرن ١٨ ضمن الرّوايات الفلسفية لجورج ساند، وتحكي عن مُهرطِقة مخفية بدير إيطالي، كما تورد تفاصيل عن استجوابات الرّهبان مدرجة إيّاها في دراما من الغموض والخرافة.

(32) J. Michelet, Histoire de La Révolution Française, op.cit., tome.II , p. 198.

(33) Paul Viallaneix, Michelet et la Révélation de 1789, Romantisme 1985, nº 50, Religions et religion, p. 63.

(34) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste ... ", op.cit., p. 44-45.

(35) J. Michelet, Histoire de la Révolution française,op.cit., tome. I, p. 144.

(36) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste ... ", op.cit., p. ٤٥ .

(٣٧) **مذابح شتنبر**: كانت موجة من عنف العِصابات الذي استولى على باريس في الفترة ما بين ٢ و٦ أو ٧ شتنبر ١٧٩٢، ما أسفر عن إعدام ما يقارب ١٢٠٠ سجين شنقا، وقد استمر العنف المفاجئ ضدّ الكنيسة الكاثوليكية في أرجاء فرنسا طوال العقد التّالي.

(٣٨) انقلاب ١٨ فريكتيدور العام الخامس (٤ شتنبر ١٧٩٧): عملية سياسية قام بها بول باراس Paul Barras (1755 -١٨٢٩) إلى جانب مُديرَيْنِ آخرَيْن من مديري حكومة الإدارة الخمسة (١٧٩٥-١٧٩٩) المدعومين من الجيش ضد الملكيين المشكلين للأغلبية في مجلس الخمسمائة وفي مجلس الشيوخ، وقد أدّى هذا الانقلاب إلى تعزيز السّلطة التنفيذية على حساب التشريعية.

(٣٩) **برومير**: هو الشهر الثاني في التقويم الجمهوري الفرنسي، ويلي شهر ڤانديميير Vendémiaire ويسبق شهر فريمير Frimaire، وتوافقه تقريبا في التقويم الجريجوري الفترة الممتدة بين ٢٢ أكتوبر و٢٠ نونبر.

(٤٠) كان هروب العائلة المالكة إلى فارين خلال ليلة ٢٠-٢١ يونيو ١٧٩١ حلقة مهمة في الثورة الفرنسية، إذ حاول الملك لويس ١٦ ملك فرنسا والملكة ماري أنطوانيت Marie Antoinette (1755-1793) وعائلتهما المباشرة الفرار من باريس دون جدوى من أجل بدء ثورة مضادة على رأس القوات الموالية بقيادة الضباط الملكيين المتمركزين في مونتميدي Montmédy قرب الحدود. وصلوا حتى بلدة ڤارين Varennes الصّغيرة حيث قبض عليهم بعد التعرف عليهم في محطتهم السابقة في سانت- مينهولد Sainte-Menehould. كانت هذه الحادثة نقطة تحول، إذ أصبح بعدها العداء الشّعبي تجاه الملكية الفرنسية كمؤسسة، وتجاه الملك والملكة كأفراد، أكثر وضوحا. اتهم الملك بالخيانة لمحاولته الفرار، ما أدى في النهاية إلى إعدامه عام ١٧٩٣. فشل الهروب بسبب سلسلة من الصّدف السيئة والتأخيرات وسوء التفسير والأحكام الخاطئة التي حدث معظمها بسبب تردد الملك. إذ أجل توقيت الهروب مرارًا وتكرارًا، ما جعل المشاكل الصغيرة تزداد سوءا. علاوة على ذلك، بالغ الملك في تقدير دعم الشعب للنظام الملكي التقليدي، إذ أخطأ في اعتقاده بأن الراديكاليين الباريسيين هم فقط من يدعمون الثورة وأن عامة الشعب يعارضونها بمجملهم، وبأنّه يتمتع بمكانة خاصة لدى الفلاحين وعامّة الناس. كان هروب الملك حدثا صادما لفرنسا وأثار ردود فعل متنوعة تراوحت بين القلق والعنف والذعر. أدرك الجميع أن التدخل الأجنبي كان وشيكا. صعق رفض الملك للإصلاحات الثورية التي وضعت حتى تلك اللحظة الأشخاص الذين رأوا فيه ملكا حسن النية يحكم وكأنه تَجَلٍّ لإرادة الرب. تطورت الجمهوريانية بسرعة من مجرد موضوع للنقاش في المقاهي إلى مَثَلٍ أعلى يتبناه القادة الثوريون. هرب أيضا شقيق الملك لويس Louis (1755-1824) في نفس الليلة، ولكن عبر طريق مختلف، ونجح في الهروب. قضى الثورة الفرنسية في المنفى، ثم عاد ليَتَوَّجَ الملك لويس ١٨.

- Cf, Thompson, J. M. (James Matthew), The French Revolution, Oxford, (1943)

مؤرشف من الأصل في ٢١ أكتوبر ٢٠٢٠ ، اطلع عليه بتاريخ: ٢٠ يوليوز ٢٠٢١.

(41) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op.cit., tome. VII, p. 782.

(42) Ibid., t. IV, p. 345.

(٤٣) **باك أو عيد القيامة**: ويُعْرَفُ بأسماء عديدة أخرى أشهرها عيدُ الفِصْحِ والبَصْخَة وأَحَدُ القيامة؛ هو أعظم الأعياد المسيحية وأكبرها، وفيه تُستذكر قيامة المسيح بين الأموات بعد ثلاثة أيّام من صلبه وموته كما هو مسطور في العهد الجديد، وينتهي فيه الصّوم الكبير الذي يستمر عادة أربعين يوما وكذا أسبوع الآلام، ويبدأ زمن القيامة الذي يستمر في السنة الطّقسية أربعين يوما حتى عيد العنصرة.

(44) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op.cit., tome, VII , A. Levasseur sd, p.183.

(45) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste … ", op.cit., p. ٤٥.

(٤٦) **ذوو الأكمام القصيرة أو السانزكيلوت**: كان الشّعب في مصطلح الثورة يعني الفلاّحين وعمّال المدن، فهو ذلك الخليط غير المتناسق الذي ضَمَّ الجزارين والخبّازين وصانعي الجعّة (البيرة) والبقّالين والطبّاخين والبائعين الجوّالين والحلاّقين وأصحاب المحلاّت والفنادق وتجّار الخمور وصانعيها والنجّارين والبنائين الذين يَطْلُونَ البيوت والعاملين في مجال الزّجاج وصانعي الجص وصانعي الأجر وصانعي الأحذية والخيّاطين والصبّاغين وعمّال النظافة وصانعي الثياب والحدّادين والخدم وصانعي الأثاث وصانعي السّروج وصانعي العجلات والعربات والصّاغة وصانعي السّكاكين والنسّاجين والدبّاغين والعاملين في مجال الطّباعة وبائعي الكتب والعاهرات (المومسات) واللّصوص. وكان هؤلاء العمّال يلبسون سراويل طويلة تصل إلى كفوف أقدامهم أكثر ممّا يرتدون السّراويل القصيرة التي تصل إلى الرّكبة والمعروفة باسم "الكلتان" "Culottes" والجوارب على غرار أفراد الطّبقات العليا، لذا فقد أطلِق على هؤلاء العمّال اسم "الفئة التي لا ترتدي كلوتات" "Sans Culottes" صاحبة الدّور الحاسم في الثورة الفرنسية.

(47) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op.cit., tome, IV ,p. 346.

(٤٨) اتّخذت الثورة المضادة الفرنسية طابع الصّراع الإقليمي الذي شمل أوربا كلّها، فبعد انتصار الثوار الفرنسيين على الملك لويس ١٦ عام ١٧٨٩، وإعلانهم تحويل فرنسا ملكية دستورية، تداعت قوى عديدة لوأد الثورة الوليدة. وكان من ضمن هذه القوى:

- الملك لويس ١٦، الذي غَدَرَ بالثّوار أكثر من مرّة، رغم أنّهم لم يكونوا يسعون لنهاية حكمه، بل لتقييد سلطته المطلقة. ثم حاول الملك لويس الهرب للاستعانة بالخارج على شعبه، فحطّم آخر فرصة للتلاقي والحل الوسط مع الثوار.
- بعض النبلاء الفرنسيين الرّافضين للتنازل عن "التفاوت الطّبيعي" الذي اعتادوه، وفلول رجال الملك الهاربين من وجه الثورة. وقد لجأ بعض هؤلاء إلى دول الجوار الأوربي وشكلوا جمعيات معارضة للثورة في الحواضر الأوربية المجاورة لفرنسا، ثم تعضّدَتْ هذه الثورة المضادّة بالعديد من رجال الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، الذين لم يُسَلِّمُوا بفقدان ثروتهم الطّائلة وجاههم العريض، وشجعهم على ذلك بابا روما الذي كان يعارض تحويل كنيسة فرنسا إلى "كنيسة وطنية" وأصرّ على تبعيتها له في روما.
- الملكيات الأوربية التي أصابها الهلع من عدوى الثورة الفرنسية، حيث حشدت هذه الملكيات قوتها لوأد الثورة الفرنسية في مهدها.

وقاد الثورة المضادة الأوربية، إمبراطور النّمسا ليوبولد الثاني Léopold II (1747- ١٧٩٢) شقيق ماري أنتوانيت زوجة الملك الفرنسي، فاستنفر الملوك الأوربيين لإنقاذ الملكية الفرنسية، وأصدر مابين ٢٥ و٢٧ غشت ١٧٩١ هو وحلفاؤه الأوربيون إعلان بيلنيتز Pillnitz دعما لملك فرنسا. وتأسس حلف عسكري من الملكيات الأوربية ضد فرنسا الثورية، وضم الحلف بريطانيا والنمسا وبروسيا وهولندا وإسبانيا وسردينيا. لكن كل ذلك لم يُجْدِ نفعا ولم ينقذ ملك فرنسا وزوجته من المقصلة.

- راجع: الثورة الفرنسية المضادّة في فرنسا/ موقع ما كتيوبس طارق سويدام- الثورة المضادة الفرنسية- نسخة محفوظة-١١ يوليو ٢٠٢٠ على موقع واي باك مشين.

(49) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste … ", op.cit., p. 46.

(٥٠) الدّستور المدني لرجال الدّين: هو ظهير أعاد تنظيم الكهنوت العلماني وأسّس الكنيسة الدّستورية بفرنسا، وقد تبنّته

الجمعية الوطنية الدستورية في ١٢ يوليوز ١٧٩٠ ووافق عليه لويس ١٦ Louis XVI (١٧٥٤-١٧٩٣) مُكْرَهًا في ٢٤ غشت ١٧٩٠. بعد أن أدان البابا بي السّادس Pie VI (1717-1799) هذا التنظيم الجديد في ١٠ مارس ١٧٩١ انقسم الكهنوت الفرنسي إلى دستوري ومنشق. ليتم إلغاء هذا الظّهير بموجب اتفاقية الكونكوردات الموقّعة بباريس في ١٥ يوليوز ١٨٠١ بين نابليون بونابرت Napoléon Bonaparte (١٧٦٩-١٨٢١) والبابا بيوس السّابع Pie VII (١٧٤٢-1823).

(51) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op.cit., tome, III, p. 311.

(٥٢) **لافوندي**: إقليم فرنسي يقع غرب فرنسا مطل على المحيط الأطلسي.

(٥٣) للمزيد حول مضامين هذين المؤلفين، راجع: يـ زينون، **"منطق..."** ، م ، س ، **" اليسوعيون"** ، ص: ١١٥ - ١١٦ ، **"القس والمرأة والعائلة"**، ص. ١٢٠ -١٢١.

(54) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste ... ", op.cit., p. ٤٦.

(٥٥) **الأندية**: أعطت الثورة الفرنسية تطورًا كبيرًا للجمعيات التي كانت لها أسماء عديدة من بينها: "الأندية السّياسية" و"الجمعيات الشعبية " أو "الوطنية" أو "أندية اليعاقبة، حيث ناقش المواطنون القضايا السّياسية. وقد أخذت هذه الأندية نموذجها من نادي "اليعاقبة" بباريس الذي برز به خطباء هذه الفترة: روبيسبيير ودانتون، والذي كان أعضاؤه يناقشون مواضيع المجتمع ومشاريع القوانين التي وضعتها الجمعية الوطنية ويعلّقون على الأحداث الجارية.

(٥٦) **الأملاك الوطنية أو المجالات الوطنية**: هي المجالات والأملاك الكنسية (مباني، أدوات، أراضي زراعية، مناجم وغابات) المصادرة خلال الثورة الفرنسية بمقتضى ظهير ٢ نونبر ١٧٨٩ والتي بيعت بعد ذلك لاحتواء الأزمة المالية النّاجمة عن الثورة. في إطار المصادرات الثورية لقيت المجالات الملكية وأملاك بعض النبلاء نفس المصير، وتم تمديد مفهوم الأملاك الوطنية ليشمل أملاك المهاجرين من الفرنسيين والمسيحيين التي تمت مصادرتها ابتداء من ٣٠ مارس ١٧٩٢ وبيعت بعد ظهير ٢٧ يوليوز لتقديم كفالة لإصدار عملة الأسينيا.

(٥٧) **معركة ڤالمي**: جرت هذه المعركة في ٢٠ شتنبر ١٧٩٢ شرق فرنسا، ودارت بين الجيش الفرنسي والقوات النمساوية البروسية وانتهت بانتصار الطرف الأول.

(٥٨) **معركة جيماب**: جرت هذه المعركة ببلجيكا في ٦ نونبر ١٧٩٢ ودارت بين القوات الفرنسية والنّمساوية وانتهت بانتصار الطرف الأول.

(59) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op . cit., tome, VI, p. 601.

(60) Ibid, p.724.

(61) Ibid, tome, IV , p. 375.

(62) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op , cit, tome, V , Paris , A , Le Vasseur, s.d. p. .٥٥

(63) Ibid.,p. 64.

(64) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op.cit., tome, I, Introduction, "De la religion du Moyen Age", p. 51.

(65) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste ... ", op.cit., p. ٤٦.

(66) Ibid. p. 63.

(67) Ibid., pp. 65- 66.

(68) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste ... ", op.cit.,. p. 47.

(69) Jules Michelet, Histoire de la Révolution française, tome. VII , Paris, A. Le Vasseur, Successeurs,sd, Préface de la Terreur, Le Tyran, pp. XIX-XX.

(٧٠) يرى فرانسوا فوري François Furet (١٩٢٧-١٩٩٧) في موضوع الآلة هذا السمة الفريدة في تحليل ميشليه للثورة الفرنسية.

-La Gauche et la Révolution française au milieu du XIX ème siècle. Edgar Quinet et la Question du jacobinisme (1865-1870), textes présentés par Marina Valensise, avec une Introduction de François Furet, Hachette, 1986, pp. 99-110

(71) Jules Michelet, Histoire de la Révolution française, tome. IX, A. Le Vasseur, Successeur,sd, p. 194.

(72) Olivier Remaud, Michelet La Magistrature de l' histoire, Paris, Michalon, 1998, pp. 65-66.

(٧٣) **الجيرونديين**: هم أعضاء حزب سياسي نشأ أثناء الثورة الفرنسية، وسمي بهذا الاسم لانتماء معظم قادته لمقاطعة جيروند.

(74) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op , cit., tome, VII, Le Vasseur sd. pp. 115-116.

(٧٥) **لجنة السّلامة العامّة**: أنشئت في ٦ أبريل ١٧٩٣ من قبل المؤتمر الوطني الفرنسي، لمواجهة الأخطار التي تتهدّد الجمهورية (الاحتجاج والحرب الأهلية)، وتمت إعادة هيكلتها في يوليو من نفس العام وشكلت حكومة الأمر الواقع التنفيذية في فرنسا خلال عهد الإرهاب (٥ شتنبر ١٧٩٣- ٢٨ يوليوز ١٧٩٤).

(٧٦) **المحكمة الثورية**: هي محكمة جنائية استثنائية أحدثت باقتراح من النّواب جـورج دانتون Georges Danton (1759- 1794) وروبير ليندي Robert Lindet (1746-1825) وروني لوڤاسور René Levasseur (1747- ١٨٣٤) بموجب قانون ١٠ مارس ١٧٩٣ تحت اسم المحكمة الجنائية الاستثنائية وقد استمرت في العمل حتى ٣١ ماي ١٧٩٥. ما بين ٦ أبريل ١٧٩٣ و ٢٧ يوليوز ١٧٩٤ أصدرت هذه المحكمة ٤٠٢١ حكما بينها ٢٥٨٥ حكما بالإعدام و١٣٠٦ حكما بالبراءة.

(77) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op, cit, tome. V ,sd, Le Vasseur, p. 111.

(٧٨) **الخلاص**: في اللّاهوت هو مصطلح يدل على حالة الخروج من حالة أو وضع وظرف غير مقبول أو غير محبب، ويدرج استعماله في الكثير من الدّيانات. وهو قضية أساسية ومحورية في المسيحية تشير إلى خلاص الإنسان من خطاياه أو خلاصه من سلطانها عليه، حيث تؤمن بأنه قد تم ذلك الخلاص بعملية الفداء التي قام بها المسيح على الصليب. ولكن تختلف آراء المذاهب المسيحية حول الكيفية التي تقبل أن ينال بها الإنسان هذا الخلاص.

(٧٩) **انقلاب برومير**: هو الانقلاب الذي قام به نابليون بونابرت Napoléon Bonaparte (1769-1821) في ١٨ برومير السنة الثامنة (٩ نونبر ١٧٩٩) وأطاح من خلاله بحكومة الادارة وأقام بدلها حكومة القناصل التي أصبح فيها القنصل الأول.

(80) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste ... ", op.cit., p. 48.

(81) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op.cit., tome, VII , Le Vasseur sd, "Préface de la Terreur", pp. XL-XLI.

(٨٢) **الجبل**: كان أعضاء هذا الحزب السّياسي يسمون "الجبليون " "les montagnards" ، خلال الثورة الفرنسية شكلوا بالجمعية الوطنية مجموعة سياسية أيّدَتِ الجمهورية وعارضت الجيرونديين.

(83) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op.cit., Chamerot,1853. tome, VII , p. 33.

(٨٤) يمثل غرق نانت حلقة في فترة الإرهاب استمرت ما بين نونبر ١٧٩٣ وفبراير ١٧٩٤. خلال هذه الفترة القصيرة وبأمر من جون بابتيست كاريي Jean Baptiste Carrier (1794-1756) تم إغراق آلاف الأشخاص المشبوهين في أعين الجمهورية (معتقلين سياسيين، ومعتقلي الحرب والحق العام، ورجال الكنيسة) في نهر اللّوار. وهكذا لقي حتفهم رجال مسنون ونساء وأطفال في ما كان يسميه كاريي "المغسل الوطني " baignoire "nationale".

(85) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op. cit.,Le Vassseur sd., tome, VII, p. 311 .

(86) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op. cit., tome, IX , Paris , A . Levasseur, Successeur, s.d , p. 65.

(87) Ibid., p. 87.

(٨٨) **كمونة باريس**: (١٧٨٩-١٧٩٥) هو الاسم الذي أعطي للحكومة الثورية لباريس التي تأسست بعد السّيطرة على حصن الباستيل في ١٤ يوليوز ١٧٨٩.

(٨٩) **الخبر السعيد**: كلمة إنجيل من أصل يوناني وتعني البشارة المفرحة أو الخبر السّار، لذا وردت بصيغة المفرد. والخبر المفرح والسّار هو خبر واحد حمله السّيد المسيح، وهو خبر الخلاص الذي تمَّمَهُ بفدائه على خشبة الصّليب، فهذا هو الخبر السعيد الذي عمّ البشرية ابتداء من الرّب يسوع المسيح خلال وجوده على الأرض وإنجاز رسالته التي جاء من أجلها، ثم حَمَّلَ تلاميذه وَرُسُلَهُ مسؤولية حمل هذا الخبر إلى العالم. انظر: هل يوجد إنجيل واحد أم عدة أناجيل؟ ما معنى كلمة إنجيل معرفة : www.maarifa.org - شوهد بتاريخ : ٣٠ يوليوز ٢٠٢١.

(٩٠) **أيّام يونيو ١٨٤٨**: تمثل هذه الأيّام نهاية لثورة ١٨٤٨؛ ففي ٢١ يونيو ١٨٤٨ وبضغط من الجمعية الوطنية الدّستورية أصدرت اللّجنة التنفيذية مرسوما يُلزم الشباب أقل من ٢٥ سنة بالانخراط في الجيش ويُعلمُ الآخرين بالاستعداد للذّهاب إلى الضّاحية، وإلاّ فسيتم وقف أجورهم. كان هذا في الواقع حَلاً للأوراش الوطنية؛ ما خلّف استياء عارما لدى العمّال الباريسيين عبرّوا عنه في ٢٣ من الشهر ذاته بنصبهم المتاريس في العاصمة الفرنسية. في اليوم الموالي عهدت اللّجنة التنفيذية للجنرال كاڤينياك Cavaignac (١٨٠٢- ١٨٥٧) بكامل الصلاحيات لكبح جماح المتمرّدين. وفي مساء اليوم نفسه تمكن كاڤينياك من احتواء التمرّد، و استعادت قواته البانتيون Le Panthéon في صباح ٢٥ يونيو واقتحمت المتاريس بعد معارك دامية لقي فيها أسقف باريس دينيس آفر Denys Affre (١٧٩٣- ١٨٤٨) حتفه، فيما جرت آخر المعارك يوم ٢٦ يونيو. أسفرت هذه الأحداث عن مقتل ١٦٠٠ جندي نظامي و ٤٠٠٠ من المتمردين، وعن اعتقال ١٥ ألف متمرد وترحيل ٤٣٠٠ آخرين إلى الجزائر. - للمزيد حول هذا الموضوع ، وموقف ميشليه من هذه الأيام، راجع: يـ. زينون ، **"منطق"** ، م .س ، الصفحات: ٧٠ و ٢٠٧ و ٢٠٨.

(91) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste ... ", op.cit., pp. 48-49.

(92) J. Michelet, Histoire de la Révolution française, tome. VII, Paris, A , Levasseur, Successeurs, p. 203.

(93) Gracchus Babeuf يعرف أكثر باسم گْراكسيش بابوف

(94) J. Michelet, Histoire de la Révolution française, tome. VII, Paris, A , Levasseur, Successeurs, p. 248.

(95) Ibid., pp. 168-169.

(٩٦) **مؤامرة أنصار المساواة**: هي محاولة فاشلة للانقلاب على حكومة الإدارة (١٧٩٥-١٧٩٩) قادها بابوف وزملاؤه ضدا على غلاء المعيشة وتردّي الوضع الاجتماعي وسيادة المجاعة في الأحياء العمّالية للمدن الكبرى وتنامي الخطر الملكي. ففي ٣٠ مارس ١٧٩٦ تشكّل مجلس ثوري بقيادة بابوف ضَمّ كلا من بيير أنطوان أنطونيل Pierre Antoine Antonelle (١٧٤٧- ١٨١٧)، وفليب بيناروتي Philippe Bunarroti (١٧٦١- ١٨٣٧) وأوغستين دارتي Augustin Darthé (١٧٦٩- ١٧٩٧) وفليكس لوبولتيي Félix Lepeltier (١٧٦٧- ١٨٣٧) وسيلڤان ماريشال Sylvain Maréchal (١٧٥٠- ١٨٠٣). وقد استعان الانقلابيون بعدة عملاء، اثنان منهما بالجيش هـما: شـــارل جـــرمـــان Germain Charles(١٧٧٠- ١٨٣٥) وجورج گْريزل Georges Grisel (١٧٦٥ - ١٨١٢) إضافة إلى بعض رؤساء الأقسام الباريسية إبّان الثورة الفرنسية أمثال: تيريون ديديي Thirion Didier (١٧٦٣- ١٨١٥)، وكانوا يُعَوِّلُون على دعم ديموقراطيي العام الثاني وعلى منخرطي جريدة: "خطيب الشّعب" "Le Tribun du peuple" الذين لم يَدْخُلُوا السرية لجلب الفئات الشعبية في أفق أخذ السّلطة وإقامة دكتاتورية ثورية مؤقتة لتصريف الأعمال. لكن بعد إبلاغها من طرف العميل المزدوج گْريزل أوقفت الشرطة الفرنسية المتآمرين في ١٠ ماي ١٧٩٦؛ أربعة أشهر بعد ذلك، وفي علاقة بالمؤامرة، أُحبطت ليلة ٩- ١٠ شتنبر ١٧٩٦ محاولة تمرد في معسكر گْرونيل Grenelle، وتم اعتقال ١٣١ شخصا وإعدام ٣٠ آخرين، فيما حُكم بالإعدام على كل من بابوف ودارتي ونُفذ فيهما الحكم في ٢٧ ماي ١٧٩٧.

Cf. Conjuration des Égaux (1796 -1797), Encyclopédie Larousse en ligne.

https://www.larousse.fr.

- Vu le: 30 juillet 2021.

- Cf. Conjuration des Egaux (1796-1797), encyclopédie Larousse en ligne. https://www.larousse.fr.

شوهد بتاريخ :٣٠ يوليوز٢٠٢١.

(٩٧) زار ميشليه إنجلترا في الفترة ما بين غشت وشتنبر ١٨٣٤.

(٩٨) **النسّاجون**: هم نسّاجون للحرير على آلات النسيج، استقروا خلال القرن ١٩ بحي لا كروا روس Croix Rousse بليون. أثّر هؤلاء النسّاجون آنئذ والذين عرفوا بثوراتهم على الاتجاهات الكبرى للفكر الاجتماعي بمنظريه الكبار: سان سيمون Saint Simon(١٧٦٠-١٨٢٥) وكارل ماركس Karl Marx (1818- 1883) وفوريي Fourier(1772-1837) وبرودان Proudhon (١٨٠٩- ١٨٦٥).

(99) Paul Viallaneix, Michelet, les travaux et les jours , 1798-1874, Paris, Gallimard, 1998, p. 386.

(١٠٠) **اليعقوبية**: اتجاه سياسي يدافع عن السّيادة الشعبية وعدم تجزئة الجمهورية الفرنسية، وقد تأسس نادي اليعاقبة سنة ١٧٨٩ وتم حَلُّهُ في ١١ نونبر ١٧٩٤.

(101) Note sur " la dissidence de l'église révolutionnaire et de l'église socialiste " in Paul Viallaneix, Jules Michelet, évangéliste de Révolution française / Jules Michelet, Evangelist of the french Révolution, Archives des sciences sociales de religions, nº 66/ 1, 1988, pp.49 -50.

(١٠٢) **العشاء الأخير**: طبقًا للعهد الجديد هو عشاء عيد الفصح اليهودي التّقليدي؛ كان آخر ما احتفل به يسوع مع تلاميذه قبل أن يتم اعتقاله ومحاكمته وصلبه. يعتبر الحدث شديد الأهمية؛ فمن خلاله تأسّس سرّ القربان المقدّس وقدّم يسوع خلاصة تعاليمه ويمثل المقابل الإنجيلي لمناسبة خميس الأسرار. (يعرَفُ خميسُ الأسرار أيضا بالخميس المقدّس وهو عيد مسيحي أو يوم مقدّسٌ يسبق عيد الفصح، يتم فيه إحياء ذكرى العشاء الأخير ليسوع المسيح مع تلاميذه وفق الإنجيل المسيحي).

(103) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste ... ", op.cit., p. 50.

(104) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op. cit., tome, VII , Levasseur sd.p. 202.

(105) Jules Michelet, Histoire de XIX (ème) siècle, tome, I, "Directoire - origine des **Bonaparte** " , Paris, Calmann Lévy, 1876, Préface , pp . IX-X.

(106) J. Michelet, Histoire de La Révolution française, op. cit., tome, I , Préface de 1847, pp . 31 -32.

(107) P. Viallaneix, "Jules Michelet, évangéliste ... ", op.cit., p. 50.

(108) J.Michelet, Histoire de La Révolution française, op. cit., tome,I , Introduction , "De l'ancienne monarchie **",** pp. 92-93.

(109) Romain Treffel, La Révolution française de Michelet, La Révolution française est un événement de dimension religieuse, 1000-idees-de-culture-generale.fr
Vu le: 30 juillet 2021.

(110) Guy Bourdé et Hervé Martin en collaboration avec Pascal Balmand, Les écoles historiques, Paris, Seuil, 1983, p. 167.

(111) MM. Michelet et Quinet, Des Jésuites, Paris, Hachette et Paulin, deuxième édition, 1843, Leçons de M. Michelet, Introduction, p. 25.

(112) J.Michelet, Histoire de la Révolution française, tome. I, op.cit., Préface de 1868, p. 43.

(113) Paule Petitier, Histoire de la Révolution Française de Jules Michelet (Tome 2),dialogues, Librairie, https://www.librairiedialogues.fr/livre/147956668-histoire-de-la-révolution-fraçaise-2-Jules-michelet-gallimard
- شوهد بتاريخ: ٣٠ يوليوز ٢٠٢١.

Articles
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

The influence of the Hurrian religion in Urkesh (Tell Mozan) on the belief of societies from the ancient Near East during the Bronze Age



Dr. Ribar Khalaf
Directorate-General of Antiquities and Museums
Damascus, Syria.

ABSTRACT

This study sheds light on the kingdom of Urkesh (Tell Mozan) at the end of the third millennium BC. AD as a prosperous capital, its population ranged from ten thousand to twenty thousand people. Moreover, although its power has diminished over the centuries, it remained a sacred center during the rise of the Mitanni kingdom at the beginning of the fifteenth century BC. AD, and ended the Hurrian independence until then. The influence of the Hurrian traditions continued on the Hittites in Anatolia, were "B. G, Collins" indicated the extent of the influence of the Hurrian religion on them through the practice of their own rituals, especially in the "Kizwatna" region in southeastern Turkey. It continued as their sacred center, Unchanged over at least a thousand years after the Urkesh period. The study relied on the descriptive and analytical approach, such as referring to the vocabulary and terminology used. In addition to clarifying its role in spreading its faith through the analytical aspect, and in the conclusion the results of the research on the Hurrian religion, its transition from Urkesh as a major center, the integration of Hurrian religion, and the role of Hurrian deities.

Keywords:

Urkesh; Hittites; Kumarbi; ābi; Kourotrophic

Article info:

Received: 09 November 2021
Accepted: 29 November 2021
DOI: 10.21608/KAN.2021.260898

Citation:

Ribar Khalaf, "The influence of the Hurrian religion in Urkesh (Tell Mozan) on the belief of societies from the ancient Near East during the Bronze Age".- Historical kan Periodical. - Vol. (14) Issue (54); December 2021. Pp. 267 – 272.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: reberxelef@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Introduction

Urkesh (Tell Mozan) was the de facto site and capital of a mythical kingdom, and a sacred religious center for the Hurrians (Wilford 1995: 1-5). As the name Urkesh (Tell Mozan) is not only part of the titles of kings, or the name of an actual place, but it is the mythical homeland of deities or a symbol of a spiritual essence that refers to different things at different times, as is often the case in the texts of the ancient Near East (Robinson 2006: 106-107). Among them are the Hittite and Hurritic texts that talk about a sacred city called Urkesh (Tell Mozan). [1] The mention of the Hurrians came in the most important sacred books, during later periods, as the Bible mentioned about the Hurrians in Genesis Chapter 36: Lines 20-21.[2] And the nature of their housing in the mountainous areas, which indicated the Hurrian population and the nature of their residence in the mountainous areas, which revealed that their capital is buried under a modern Syrian village called "Tell Muzan", which confirms the importance of the place and its sanctity (Map. 1) (Ashley 2008: 32). The high hill and its connection with the surrounding lands formed a deliberate attempt to design the city, because the central part of the city was a religious center since its inception in the late Chalcolithic period around 3500 BC. M, it was the nucleus in which various rituals take place (Buccellati 2013: 151).

The influence of the Urkesh,s religion (Tell Mozan) on the neighborhood

The religion of Urkesh (Tell Mozan) had a great influence on many other centers of civilization through what was received from Hurrians texts and records in locations outside it, where the Hurrians and recital texts dealt with talking about a sacred city called Urkesh (Tell Mozan), but at the beginning scholars could not determine it is believed to be mythical, but after a long time scholars have revealed that it is an ancient Hurrians city (Patricia 2005: 76).

Its influence on the Hittite religion

The Hittite state controlled large areas of Anatolia and northern Syria from the seventeenth century to the twelfth century BC. M, Many archives of clay tablets, written in cuneiform and several other languages, were left, and some of them included texts that had a Hurri influence that were included in the religious context and Hurrians rituals (Klock 2007). It is a mixture of diverse cultural currents, including features of the Indo-European peoples, and adopted beliefs and practices including Hurrian, Akkadian and Sumerian. In the capital, "Katusha / Bogazkoy", many myths were found about Hurrian deities. As mentioned earlier for an old rhetorical version of a Hurrian myth called "The Silver Cantata. It is a legend that refers to an ancient people known as the Hurrians in the city of Urkesh (Tell Mozan) (Ginneken 2000: 266-268). "Kenneth" says Previously little was known about the Hurrians,", but their writings often speak of the main deity "Kumarbi" and Urkesh (Tell Mozan), the city in which he was supposed to live. It was a very sacred place (Chang, K. 1995). Historians have documented the influence of Hurrian deities on Hittite deities, and it is believed that the Hittites glorified the Hurrian dynasty (Fig. 1) (Giorgieri 2013: 44), Their religious texts refer to Urkesh (Tell Mozan), the homeland of "Kumarbi," the father of Hurrian deities (Ahmed 2012: 204).

And in " Kizwatna."[3] As the influence of the Hurrian religion was clear, as most of its deities were of Hurrian origin, in addition to the phenomenon of practicing religious rituals in it within pits dedicated to its practice, Which was affected by Hurrian through the ābi pit that preceded it, as well as the presence of pigs in the pits of "our Kizwatna" and the like in Urkesh, indicating the practice of Hurrian rituals there (Collins 2001: 235). From the foregoing, it is noted that the Hurrian myths formed part of the Hittite culture, especially with regard to religious ideas and beliefs, during the second millennium BC. M, Among them is the legend "Kumarbi", which was published in the Hittite Archives, which describes the struggle for divine kingship between "Kumarbi" and " Teshub " (Beckman 2011: 95-102). Its place is represented by the sacred sanctuary of Urkesh (Tell Muzan) represented by the temple, the seat of the

[1] Genesis chapter 36, line 20: These sons of Saer al-Hurri lived on the land: Lotan, Shubal, Sibon, and Anah. Genesis chapter 36, line 21: Dishon, Issar, and Dishhan. These are the princes of the Hurrian, the Banu Seir, in the land of Edom. (Edom: It is a region located between southern Palestine and the Gulf of Aqaba, and the Edomites settled in an area that was characterized by a mountainous nature, as did the Hurrians in Mesopotamia and northeast Syria) (Anthony Fekry, The Old Testament).

[2] Genesis chapter 36, line 20: These are the sons of Seir al-Hawri, inhabitants of the land: Lotan, Shubal, Sibon, and Anah. Genesis chapter 36, line 21: Dishon, Issar, and Dishhan. These are the princes of the Hurri, the Banu Seir, in the land of Edom. (Edom: It is a region located between southern Palestine and the Gulf of Aqaba, and the Edomites settled in an area that was characterized by a mountainous nature, as did the Hurrians in Mesopotamia and northeast Syria) (Anthony Fekry, The Old Testament).

[3] It is a Hittite town in southeast Anatolia, during the period of the modern Hittite Empire, in the second millennium BC. M. It practiced the Hittite religion and included the gods of many Syrian deities. (Ginneken 2000: 268).

ancient Hurrian deity "Kumarbi", the father of the fairy deities (Pfälzner 2008: 428). For his sacred role among deities, the recital texts include the myth of " Kumarbi " and his struggle with deities (Beckman 2011: 95-102). Through the foregoing, it fully confirms the depth of the Hurrians penetration of the Hittite culture and beliefs, and in this city we may find evidence that will enable us to distinguish between later elements of cultures (especially religious beliefs) which are in fact Hurrian's contributions.

The Mesopotamian gods complex included gods of Hurrian origin and included the most important incoming Hurrian gods (Teshub: the god of storms), (Khabat: cohort Teshub), (Kumarbi: god of fertility and the underworld), (Shushka: Ishtar the Hurrian) and (Simigi: god the sun).

The impact of the ābi pit

Some recital religious texts describe rituals that have a strong influence on the Hurrian faith, which makes it possible to communicate with the other world, which is a pit used as corridors through which the deities of the underworld are summoned, in the Hurrian Hittite texts, and these rituals had a relationship with the dead and deities were summoned for purposes of purification and sacrifices (Ahmed 2012: 205).The Hurrian term ābi is used in reference to a pit used to communicate with deities in the underworld by sacrifice and offering offerings to them, The Hittite scribes used different words for pits in their texts, and there is the Hittite term "hattsar" used for sacrificing pigs within these pits. There is also archaeological evidence of structures / buildings of similar use in “Khatusha”, the capital of the Hittites, including a single domed room known as “südberg” built for use as a channel or pathway to the underworld. KAS KAL-KUR and at the back of the room / where the sun god appears / Uses simple pits, presumably to make offerings. The temple is associated with a vast sacred pool, which may have been constructed to replace the river banks near it, to perform the Hurri-Hittite ritual. The pits near the temple were lined with rocks, and were associated with rituals as the al-Abi pit, in addition to containing two small bronze axes, and models of tools that were used to dig the pit lying nearby (Collins 2004: 56).

There are other words that express the underworld, which is the Hittite word dankuiš daganzipaš, meaning “the dark black earth,” and it refers to the world of deities in the other world, which is an underground place, The place is ruled by the gods of the sun at night after its descent before it rises again in the morning, and so the performance of ritual communication with her took place throughout the night, late in it or at the break of dawn. The sun gods on earth were considered guides for the spirits who transport the souls of the dead to a new abode in the other world, and communication takes place all the way through the sun deity, which describes the rituals of the Hittites, how the mother, i.e. the sun gods on the earth, comes to the soul of the dead to transfer him to a new residence (Collins 2004: 224).There are texts mentioning the rituals of the Hittites: When a great calamity occurred, as in “Khatusha” such as the death of the king on the third day, the king would be cremated, perhaps inspired by a Hurrian origin, and on the sixth day his bones were burned where he was wrapped in linen and transported to a shrine and offerings were offered to him and what he needed in The Other Life, where it was believed that the soul of the dead lived in the underworld (Wright 2007: 196). A pit lined with stone was also found in Ugarit (Ras Shamra), and a question was raised about the nature of this pit, and in a publication issued by "M. J, Suriano" discussing the palace pit in Ugarit within the context of ābi pit in Urkesh (Tell Mozan). He concluded that its construction was performed to perform rituals as in Urkesh (Tell Mozan) (Suriano 2009: 114). The previous study indicates the extent of the influence of the Urkesh doctrine (Tell Mozan) on other sites, in the north of the Hittites, and the southwest of Ugarit in the second millennium BC. M, and in the south in Mesopotamia, in reference to its distinctive location and central role in the region.

The embodiment of fertility or the mother goddess

Perhaps the most important thing that distinguished Urkesh (Tell Mozan) from other sites from the religious point of view, was the veneration of the status of women as masters and goddesses. This pays tribute to its main role in the Kingdom at various levels, including religious ones, as it embodied a special status for it through special icons that represent it and represent its symbolism, including:

Kourotrophic icon: Kourotrophic: It is an adult inclined to a human female or a deity or a nanny carrying a child in the Bronze Age in the Near East. Whereas, men do not appear in the Kourotrophic because they were not photographed with their children, as the female model of the Kourotrophic has appeared, and several examples have appeared, including: In Mesopotamia, only two clay paintings

and sculptures dating back to the late Akkad and Ur III were seen in a view close to a half goddess holding a child, and the scenes are consistent with the birth deities being one in the pictures and the other half showing a human woman carrying a child, most of which is unknown. In Syria, a model of a nurse or a nurse appeared as deities, the most famous of which is an ivory tablet from Ugarit-i, which indicates a winged god. And in Anatolia, the " Kourotrophic " was more varied and unique, like a small gold necklace from the sun god "Arena" with the child In Urkesh (Tell Muzan), which is derived from two seals, Queen **UqnÎtum** is shown carrying the Crown Prince on her lap (Fig. 2), and it is clear that this scene indicates the power of the queen vis-à-vis the king, The " Kourotrophic " was usually assumed to depict the mother and child and thus represented somewhat the "great goddess mother" or image of fertility (Budin 2011: 8-9). It is a unique view of its kind, characterizing the role of the Queen in Urkesh (Tell Mozan).

The widespread religious celebrations and festivals are part of the Hurrian culture

There has been no study referring to religious ceremonies in Urkesh (Tell Mozan), but one aspect of this celebration can be assumed from a study of "P. D, Wright" dealing with the rituals of Hittite religious ceremonies with a Hurrian influence, including major festivals, including the Mass, where the King and the High Priest They preside over festivals and travel to many shrines in various cities to make offerings to local deities (Wright 2007: 193). This celebration can be linked to Urkesh (Tell Mozan) through the seal imprint of the priests and the king as they offer a bull for sacrifice, and it is associated with the northern Hittite regions through the dress and the style of the seal (Fig. 3) This view refers to the spiritual role of the ruler's function as the correct performance of rituals and ceremonies that are On it depends the harmony of the relationship with the idol. It was a custom that was also widespread in Mesopotamia, where special celebrations were held and sacrifices were made on the holy days of a certain god, and in these places the seasons of harvesting and shearing of wool were associated with the holding of festivals and processions, and the main feast was the New Year feast "Akita" in "Babylon and Assyria". And all the deities of the surrounding areas are invited to attend, and detailed rituals remain, such as dressing the statue, laying the foundation for a building, and commencing rituals in Babylon at dawn, then offering offerings and reciting prayers and epics (Barender 1993: 25-27). In Urkesh (Tell Mozan), in one of the seals, there was a scene of people offering a ball of wool in front of the king, perhaps associated with a celebration of the days of harvest and shearing of wool, as in Mesopotamia (Fig. 4). Many texts dealing with celebrations of attending deities were mentioned, and they were of Hurrian origins, the most important of which are:

The saga of the release of prisoners, the release of slaves and the recovery from debts

A Hurri and Hittite text has been found from around 1400 BC. In Hatusha, an epic was engraved on it containing the release of prisoners, the release of slaves and the relief from debts. The religious aspect of this celebration represents the meeting of the idol Teashop with the sun god "Allani" to eat the meal of the primitive gods who were exiled to the underworld where they participate to the right of " Teshub " as a celebration (Bremmer. 2007: 37), It is a habit that the inhabitants of Mesopotamia had, as they believed that the life of deities was similar to the life of human beings, except for death and supernatural abilities (Al-Ahmad, S. S. 2013: 9). In other words, the myth of primitive deities was associated with rituals that were reflected between masters and slaves. The custom of changing clothes was a ritual in ancient times, and one of the most important sources of entertainment and fun (Bremmer. 2007: 38-39). As these clothes were changed and replaced with clean clothes during ablution in the rites of penance and royal purification in Mesopotamia during the Sargonic and Assyrian periods (Bashir 2017.). All of these details can be linked to Urkesh (Tell Mozan), given that most of the texts are of Hurrian origin and the celebration takes place in the presence of deities whose origin is from Urkesh (Tell Mozan).

Conclusion

The aforementioned study on the religion associated with other sites of the Hurrian character supports the idea of moving from Urkesh (Tell Mozan) to it, as it is the main center and the religious capital of the Hurrian who practiced all rituals. And it spread to other civilizations due to the advantage of its strategic location as the crossroads of main roads between high mountains, flat areas and different civilizations, making it a main meeting place for different ideas and cultures. This facilitated the arrival of religious beliefs and ideas of Urkesh (Tell Mozan) to various parts through the passage of

many merchants, intermediaries, and others, which made its religion and beliefs have a strong influence on the contemporary sites surrounding it or during the later periods. It follows from it:

Religion in Urkesh (Tell Mozan) is a deeply-rooted religious system since the beginning of the early Bronze Age, and the emergence of the Hurrian religion was a deep spiritual revival in its era because it was a comprehensive religious system, and then it contained most of the seeds of the roots of the religions that appeared after them.

The religion in Urkesh (Tell Muzan) was integrated and had the same origins, as Kumarbi, the god of the kingdom, was a major, local, comprehensive deity surpassing the gods of most other civilizations, However, this phenomenon did not lead to the alienation of other deities from their position, but rather remained among the gods, as a result of the adherence of their first worshipers or the religious status they occupied in their minds.

Appendices (maps and figures)



Map. 1 Hurrian Diffusion During the Bronze Age.

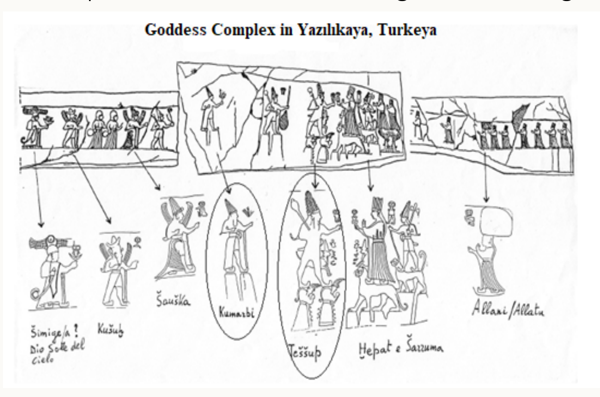


Fig. 1 A view depicting the complex of deities in the Yazılıkaya inscriptions in Turkey, among them the nymph deities, Kumarbi, Teshub and Khabat (Giorgieri 2013: 44).

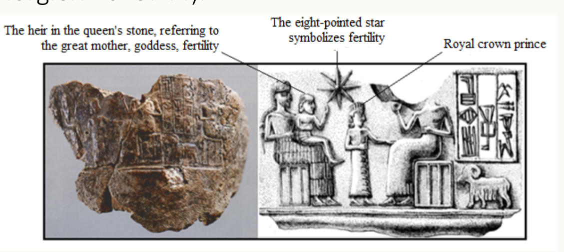


Fig. 2 The crown prince touches the king's knee opposite the queen, Queen **Uqnîtum**'s seal (Jerome. M. 1996).

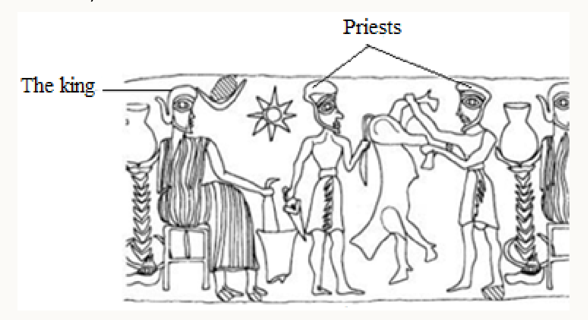


Fig. 3 A scene of the sacrifice of a bull before the king in Urkesh (Tell Mozan) (Ahmed 2012: 225).



Fig. 4 Imprint of a seal belonging to King Tubkish, showing a ball of wool or string on the outstretched hand of an attendee

Bibliography

Ahmed, K. M. 2012. The Beginnings of Ancient Kurdistan (*c.* 2500-1500 BC), Doctoral thesis (Unpublished), Universiteit Leiden.

Al-Ahmad, S. S. 2013. المعتقدات الدينية في العراق القديم (Religious Beliefs in Ancient Iraq). Beirut.

Ashley, S. 2008. "The Bible and Archaeology", in: Is the Bible True?, published by the United Church of God, an International Association. USA: 20 - 33.

Barender, J. 1993. المعتقدات الدينية لدى الشعوب (Religious Beliefs of the Peoples). translated by: Imam Abd al-Fattah Imam. *World of Knowledge Series* 173.

Bashir, A. H. 2017. The holiness of water and its symbols in the Mesopotamian civilization (قداسة الماء ورموزه في حضارة بلاد الرافدين). quoted from Iraq in History website, http://iraqinhistory.com/index.php

Beckman, G. 2011. "Blood in Hittite Ritual", *Journal of Cuneiform Studies* 63: 95 – 102.

Bremmer, J. 2007. "Ritual". in: Sarah Iles Johnston., Ancient Religions, Press of Harvard University: 32 - 44.

Buccellati, M. 2013. "Landscape and Spatial Organization: An Essay on Early Urban Settlement Patterns in Urkesh", in: Dominik Bonatz & Lutz Martin., 100 Jahre archäeologische Feldforschungen in Nordost-Syrien. Wiesbaden: Harrassowitz: 149 - 166.

Budin, S. L. 2011. "New Book on Kourotrophic Iconography". *newsletter of the coroplastic studies interest group* 6: 8 - 9.

Chang, K. 1995. "L . A. Archeologists Digging in Syria Find City of Myth,". *Los Angeles Times* 20 November, http://articles.latimes.com/1995-11-20/news/mn-5275_1_clay-pieces.

Collins, B J. 2004. "A Channel to the Underworld in Syria". *Near Eastern Archaeology* 67 (1): 54 - 56.

Collins, B, J., "Necromancy, Fertility and the Dark Earth: The Use of Ritual Pits in Hittite Cult"in: Paul Mirecki & Marvin Meyer., Magic and Ritual in the Ancient World *Religions in the Graeco-Roman world* 141 (2001), pp. 224 - 42.

Collins, B. J. 2001. "Necromancy, Fertility and the Dark Earth: The Use of Ritual Pits in Hittite Cult" in: Paul Mirecki & Marvin Meyer., Magic and Ritual in the Ancient World *Religions in the Graeco-Roman world* 141: 224 - 42.

Ginneken, P. V. 2000. "De Hurrieten van Tell Mozan", *Spiegel Historiael* 6 (35): 262 - 269.

Giorgieri, M. 2013. I Hurriti Una civiltà del Vicino Oriente antico tra Omero e la Bibbia, Pontificio Istituto Biblico, Roma.

Giorgieri, M. I. 2013. Hurriti Una civiltà del Vicino Oriente antico tra Omero e la Bibbia, Pontificio Istituto Biblico, Roma.

Jerome. M. 1996. "New Hurrian Capital Discovered In Syria". *Minerva News* 7(3): 6.

Klock, I. 2007. "the Invention of Luwian Hieroglyphic Script". http://docplayer.net/20819886-The-invention-of-luwian-hieroglyphic-script-isabelle-klock-fontanille-universite-de-limoges.html.

Patricia, B. 2005. "the Journey of Terah: to Ur-Kasdim or Urkesh?". *Jewish Bible Quarterly* 33 (2): 73 – 80.

Pfälzner, P. 2008. "Das Tempeloval von Urkeš. Betrachtungen zur Typologie und Entwicklungsgeschichte der mesopotamischen Ziqqurrat im 3. Jt. v. Chr". *Zeitschrift für Orient-Archäologie* 1: 396 - 333.

Robinson, S. M. 2006. "Following a False Trail—The Search for the Hittites". *al-rāfidān* 27: 101 - 116.

Suriano, M. J. 2009. "Dynasty Building at Ugarit". *Aula Orientalis* 27: 105 - 23.

Wilford, J. N. 1995. "Lost Capital of a Fabled Kingdom Found in Syria". *New York Times* 21: C1, C5.

Wright ,P. D. 2007. " anatolia: hittites". in: Sarah Iles Johnston., Ancient Religions, Press of Harvard University: 189 - 196.

ملخص المقال:

تأثير ديانة الخوريين في أوركيش (تل موزان) على عقيدة مجتمعات من الشرق الأدنى القديم خلال العصر البرونزي

د. ريبر خلف

المديرية العامة للآثار والمتاحف – سوريا

تسلط الدراسة هنا على مملكة أوركيش (تل موزان) في نهاية الألف الثالث ق.م كعاصمة مزدهرة، تراوح عدد سكانها ما بين عشرة آلاف إلى عشرين ألف نسمة. وعلى الرغم من أنَّ قوَّتها قد تضاءلت على مَرِّ القرون، إلّا أنَّها بقيت مركز مُقدّس أثناء صعود (المملكة الميتانية) مطلع القرن الخامس عشر ق. م، وأنهوا الاستقلال الخوري حتى ذلك الحين. واستمر تأثير التقاليد الخورية على الحيثيين في الأناضول، حيث أشار " B. G, Collins " مدى تأثير ديانة الخوريين عليهم من خلال ممارسة طقوس خاصة بهم وخاصة في منطقة " كيزواتنا" جنوب شرق تركيا. حيث واصلت كمركز مُقدَّس لديهم. دون تغيير على مدى أكثر من ألف سنة على الأقل بعد فترة أوركيش. وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي والتحليلي، كالإشارة إلى المفردات والمصطلحات المستخدمة، وخريطة تبرز انتشار الثقافة الخورية وصور توضيحية للمملكة، بالإضافة إلى إيضاح دورها في نشر عقيدتها من خلال الجانب التحليلي، وفي الخاتمة نتائج البحث حول الدين ذات الطابع الخوري، وانتقاله من اوركيش، كمركز رئيس، وتكامل الدين الحوري، ودور المعبودات الخورية.

كلمات افتتاحية: اوركيش؛ حثيين؛ كوماربي؛ الآبي؛ الكوروتوفريك



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

https://www.facebook.com/historicalkan